

القدم التي بقيت هناك

مذكرات يومية للأسير السيد ناصر حسيني پور في سجون العراق السرية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: القدم التي بقيت هناك

الكاتب: السيد ناصر حسيني پور

ترجمة وإعداد: مركز نون للتأليف والترجمة

نشر: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية

الطبعة: الأولى، كانون الأول 2013م - 1435هـ

سادة القافلة (4)

القدم التي بقيت هناك

مَرْكَزُ مَوْجِئَاتِ الدَّائِفَةِ وَالْبَرْقِ

تقديم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين وصحبه المنتجبين وبعد.

كتاب «القدم التي بقيت هناك» للسيد ناصر حسيني بور رواية صادقة لما عاناه زمن الأسر في السجون السريّة في العراق.

التحق السيد ناصر بجبهات القتال مذ كان في الرابعة عشرة من عمره، فُجرح وأُسِر في السادسة عشرة، وبقي في الأسر مدة ثلاث سنوات. هناك خلف السيد ناصر قدمه التي أصيبت على جبهات القتال، وبترت لاحقاً في أحد مستشفيات بغداد، ليعود بدلاً عنها بثلاث وعشرين صفحة، هي خلاصة ذكرياته زمن الأسر، ولتسغه الذكرة فيما بعد وتتحول الصفحات الثلاث والعشرون بعد عشر سنوات إلى سبعمائة صفحة. وكان بعض رفاق السيد ناصر قد سأله يوماً عن سرّ عدم استشهاده فقال: «السبب يعود إلى أمرين، الأول أنّ قلبي تعلّق بمنظار الرصد، والأمر الآخر تعلّقني بكتباتي اليومية».

وإنّ ما خطّه الإمام الخامنئي عليه السلام عن الكتاب بقوله: «..إنها رواية استثنائية لحوادث مؤلمة تُظهر للقارئ في كل جزء من أجزائها وفي كل كلمة من كلماتها مدى صبر وصمود وشهامة شبابنا المجاهد من جهة، ومن جهة أخرى مدى حقارة وخبث وقسوة جنود صدام وأزلامه»، يعبر عن القيمة المعنوية العالية لهذا الكتاب ومؤلفه وجهاده وصبره.

لهذا نجد بأنَّ القائد قد شبّه جهود السيّد ناصر بأساس البنيان الذي يبقى صامداً دون أن يُرى، عندما قال: «الأعمال النابعة من إيمان عميق كاللبنة الأولى في أساس البناء، تبقيه صامداً متماسكاً. يمكن لتلك اللبنة المغروسة في الأرض أن لا تُرى أبداً، لكن أثرها سيبقى مملوساً. وكذا جهودكم ومقاومتكم في تلك اللحظات العصبية، تبقى كقطرات الدم الجارية في عروق الجمهورية الإسلامية تهبها الحياة وتحافظ على بقائها واستمرارها، ولا يهم إن رأى الآخرون ذلك أم لم يروه، علموا به أم جهلوه».

والتزاماً بتوجيهات الإمام السيد علي الخامنئي عليه السلام حيث أكد على ضرورة ترجمة هذا الكتاب بلغة سلسلة إلى اللغة العربية والإنكليزية، حيث قال: «يجب ترجمة الكتاب بلغة سلسلة إلى العربية والإنكليزية، كي يتمكن العرب وغير العرب من قراءته»⁽¹⁾. فقد تصدّى مركز نون للتأليف والترجمة لتعريب هذا الكتاب، وتصحيح نصوصه بالعربية، وشرح ما يجب شرحه من مصطلحات وموارد جديدة للقارئ العربي، حتى أخرجنا الكتاب بهذه الحلة العربية الجديدة.

ولا يسعنا إلا أن نشكر الأخوة والأخوات الذين عملوا على تعريب هذا الكتاب ومراقبة نصوصه وتحريرها، ونخص بالذكر؛ الأخت إيمان صالح، الأخت فاطمة شوربا، د. محمد عليق، د. أميمة عليق، الأخت حنان الساحلي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لِلنَّائِلَةِ وَالنَّائِلَةِ وَالنَّائِلَةِ

(1) بتاريخ 2012/9/5 خلال تكريم السيد ناصر وعائلته في تهران.

إهداء

إلى ... رئيس حُرّاس المعتقل رقم (16) في «تكريت».
لا أدري، ربّما قُتل في «حرب الخليج» الأولى بقيادة «بوش» الأب.
وربّما قُتل في «حرب الخليج» الثانية بواسطة «بوش» الابن.
وربّما أيضاً، ما زال حيّاً.
الرجل الذي أدّت أعمال حُكّامه إلى حلول اللعنة على بلاده.
الرجل الذي عذّبني لسنواتٍ في جوار حَرَم جدّي.
الرجل الذي كان كلّما عذّبني، جعل «علي جارالله»، الحارس
العراقيّ الشّيوعيّ، يقبع في زاويةٍ، ينظر إليّ ويبكي.
وربّما ما زال يشعر بالخجل إلى الآن.
أهديه هذا الكتاب مع كلّ الحبّ.
لأجل كلّ هذا الجميل الذي صنعه بي.
فكلّ ما مرّ بي، لم يكن إلّا جميلاً.
«وما رأيت إلّا جميلاً».

مقدمة المؤلف

طالت الحرب، وطالت حتّى كبرتُ! كنت ابن أربعة عشر عامًا حين ذهبت إلى الجبهة. أعجبت هناك بوحدة التّخريب⁽¹⁾ ولهذا صرت «مخربًا» فيها، ولكن فيما بعد، انتسبت إلى وحدة الاستطلاع والعمليات.

في الأيام الأخيرة للحرب، وقعت أسيرًا في يد الجيش العراقيّ في «جزيرة مجنون»؛ كنت حينها في السادسة عشرة من العمر، وأعمل دليلًا في كتيبة الشهداء الخاصّة في هجوم مضادّ. أثناء وقوعي في الأسر، شاهدت أحداثًا مفاجئة وموجعة. قبل الأسر كنت راصدًا، في وحدة الاستطلاع، وعملني رصد خطوط العدو، والتدوين الدقيق لتحركاته، وأفعاله، وردّات فعله، عبور، ومرور آلياته، باليوم والساعة والدقيقة.

منذ الأيام الأولى لوقوعي في الأسر، حاولت أن أكون راصدًا لكلّ الأحداث، والوقائع الخالدة، والمعبرة لتجربة الاعتقال. لم تعد هناك حاجة إلى منظارٍ، وبرج مراقبة مرتفعٍ! كنت سابقاً أعطي

(1) وحدة تعنى بزرع الألغام والعبوات الناسفة.

البرج واستعمل المنظار في مراقبة العراقيين (الجيش العراقي) من بعيد، وكانت معرفتي بالعدو محدودة بمقدار ما كنت قد سمعته فقط. شاهدت في الأسر كل تصرفاتهم، الحسن منها والقبيح. لطالما رغبت في أن أكتب تقريراً للرصد والاستطلاع حول سجون العدو حين أتحرّر. حتى أضحى هذا التقرير المفصل مذكراتي اليومية.

كان قد مضى شهران على أسري، عندما أخبرونا أن الأسرى الجرحى، والمعوقين سيتم إطلاق سراحهم. قرّرت في ذلك اليوم أن أكتب كل ما حصل معي في هذين الشهرين؛ من خلال استخدام رموز وكلمات وعبارات قصيرة، وكتابة النقاط التي من الممكن أن تشكل خطراً عليّ بالرموز وإخفائها داخل ماسورة عكازي المعدنية. ظننت أنني سأتحرّر سريعاً، وسأخرج كي أبيض هذه المسودة القصيرة، كذكريات شهرين من الأسر، لكن .. مضت الأيام والأسابيع.. ولا أخبار عن إطلاق سراح الجرحى.

بعد شهرين ونصف من ذلك التاريخ، عادوا ليقولوا لنا: إن العراقيين قرّروا، بعد مباحثات جرت بين وزيرى خارجية العراق وإيران في جنيف، أن صفقة مبادلة الأسرى الجرحى ستنجز فوراً! كنت أدون كل المواقف الملفتة والمهمة، أسجل التواريخ، والرموز، ومفاتيح ذكرياتي، على أوراق علب السجائر، وأكياس الإسمنت، وأطراف الجرائد العراقية، ثم ألفها وأصغرها لإدخالها في ماسورة العكاز.

وفي أواخر العام 1367 هـ.ش (بداية العام 1989م) كنت أبحث عن فرصة مناسبة كي يتسنّى لي، بعيداً عن أعين العدو، أن أخرج

كلّ كتاباتي من العكاز؛ لأبيّضها على الدفتر الصغير، الذي صنعته من الأوراق البيضاء من هوامش وأطراف الكتب، التي كانت منظّمة مجاهدي خلق (المنافقون) ترسلها لنا، حاولت وحاولت دون جدوى! في أواخر أيّام اعتقالني، في شهر آب من العام (1990م)، وفي مستشفى 17 تموز في الحبّانيّة، سنحت لي تلك الفرصة المنشودة. أخرجتُ يومها كلّ القصاصات الصغيرة، والكلمات المشفّرة المبعثرة، وأعدتُ ترتيبها على دفترتي الصغير، الذي أخفيتّه داخل ضمّادات قدمي المجروحة وهزّبتّه إلى إيران. دفترٌ من عشرين صفحة، ضمّ ذكرياتي، وكلّ أخباري، وأخبار رفاقي، دفترٌ صغير اتّسع لعالم من الأحداث والمواقف. بعد تحرّري من الأسر، بدأت بإعادة كتابة مذكّرات 187 يوماً من أيّام أسري الـ«808»، معتمداً على دفترتي بجُمْلِه القصيرة، وتواريخه، ورموزه، وكذلك على ذاكرتي التي كانت ترصد وتسجّل أدقّ التفاصيل كعادتها الاستطلاعية.

كلّ هذه الكتابات خرجت إليكم بشكل كتاب، «القدم التي بقيت هناك»⁽¹⁾، وقد استمرّت إعادة كتابة هذه الذكريات، بنحوٍ متقطّع، حوالي عشر سنوات. بحثتُ عن الكثير من رفاق الأسر، وقد وجدتهم بصعوبة، استفسرتُ منهم عن مسائل كانت مبهمّة، أو غامضة وغير مكتملة لديّ، قدّموا لي العون لإكمال بعض الأسماء، وتفاصيل الأحداث. فكان هذا الكتاب تجسيداً لأيّام الصبر، والاستقامة، والألم، لتبقى تلك الأيام خالدةً للأجيال القادمة. كما أنّي أهديتُ الكتاب للعرّيف العراقيّ وليد فرحان، لعلّي أراه يوماً ما، في مكان لا أعرف أين يكون!

(1) العنوان الحرفي للكتاب بالفارسية «القدم التي بقيت».

تعود هوايتي في تسجيل المذكرات اليومية إلى شهر كانون الأول من العام (1986م). حين كنا ذاهبين يومها إلى «دزفول»⁽¹⁾، وكان معنا «حميد جبل عاملي» من شباب «أصفهان»⁽²⁾ في ثكنة لواء (الفتح 48)⁽³⁾. في طريق العودة، كنا في باص مدينة «شوشتر»، وكان حميد يجلس إلى جانبي، أثناء المسير كتب حميد على صفحة «يوم 8 ك1» من مفكرته مايلي:

ذهبنا اليوم مع السيد ناصر حسيني إلى «دزفول»، كان يوماً جيداً. اشترى السيد كاميرا فوتوغرافية، من نوع «كوداك 110»، أمريكية الصنع، اشتريت أنا بذلة مرقطة، ذهبنا إلى حمام البخار العمومي. تناولت غداء الهمبرغر، أمّا السيد فقد طلب «المرتديلا». تكلمت ها تفياً مع شبابنا في أصفهان، ورجعنا عند العصر إلى وحدة «التخريب».

أعجبني هذا الأسلوب، وقد زاد إعجابي وتعلقني به أكثر بعد شهادة «حميد». ومنذ ذلك اليوم بدأت هوايتي بتسجيل مذكراتي اليومية. بعض المذكرات أيام الجبهة لا تحوي شيئاً مهماً، ولكنني تعلّمت من حميد أن أكتب مذكرات كل يوم، حتى وإن كانت عادية جداً. ظهرت أهمية هذا العمل في المعتقل، مع أنّ الظروف صعبة، والإمكانات شبه معدومة، لكن حياة عالم الأسر، وأيام الاعتقال بمشاقها وعذاباتها

(1) مدينة إيرانية تقع في محافظة خوزستان المحاذية للعراق.

(2) مدينة إيرانية، مركز محافظة أصفهان على بعد 340 كلم جنوب طهران.

(3) وضعت الثورة الإسلامية والنظام الإسلامي مبدأ تسمية كل الأماكن العامة والشوارع... وكذلك الألبسة والكتائب وحتى أسماء المعارك بأسماء لها صبغتها الإسلامية والجهادية، فكانت تسميات من قبيل: لواء «فتح 48» وترمز إلى سورة الفتح، وترتيبها في القرآن الكريم رقم 48، لواء محمد رسول الله، فيلق الإمام الحسن... إلخ. (مركز نون).

تحمل الكثير من الرسائل للإنسان؛ كي يكون إنساناً جيّداً، وأن يبقى ويستمر كذلك. أرجو أن أكون قد أدّيت دَينِي إلى الأسرى «المفقودي الأثر»، الذين أمضوا سنواتٍ طوَالاً في معسكرات تكريت الوحشيّة المرعبة في أصعب الظروف.

من الصّروري في النهاية، أن أشكر من صميم قلبي، كلّ الذين ساعدوني على إنجاز هذا العمل، السيد «رضا بارسيان نجاد»، ابن الشهيد «خدامراد بارسيان نجاد»، رئيس «حوزه هنري» [الدائرة الفنية]، في محافظة «كهكيلويه وبوير أحمد»⁽¹⁾، الأستاذ الجامعي «السيد يوسف مرادي المحترم»، وابن الشهيد الجليل «السيد عنايت الله مرادي» لآرائه القيّمة، وكذلك الشكر للعاملين في الدائرة الفنيّة، «السيد مصطفى فرخاني»، الأختان «شهربانو باكنجاد» و«شهناز درفشان» على المساعدة في تنظيم وصف وإخراج هذا الكتاب.

الشكر والتقدير الخاصّ إلى زوجتي الصابرة والمضحّة «زينب جوانمردي» التي شجّعته طوال هذه السنوات على إتمام هذا العمل.

السيد ناصر حسيني پور

خريف 1389 هـ. ش (2010م)

(1) إحدى المحافظات الإيرانية الإحدى والثلاثين سكّانها خليط من الأكراد والفرس عاصمتها «ياسوج».

الفصل الأول:

جزيرة «مجنون»⁽¹⁾ - جادة الخندق

الجمعة 24 حزيران 1988م- جزيرة مجنون- جادة الخندق
كان الوقت فترة بعد الظهر، ورطوبة الهواء تثقل الصدور كالرصاص. انتهت مناويتي وجاء البديل. نزلت من غرفة الرصد الصغيرة فوق البرج ليحلّ «ولي ياري» مكاني.
من أعلى البرج⁽²⁾ كنت قد سجّلت تحرّكات العدو حتّى عمق تموضعه على الخط الأول، والثاني، في الاستثمارات الخاصّة بالاستطلاع. كانت تحرّكات العدو، وعبور آلياته نحو «الكسارة»، و«البيضة»، و«الصخرة»، و«الهدامة»، و«الكرام»، والمرور المتواصل على طريق العمارة- البصرة، وخلف قناة «صويب» المستحدثة، والطرق الترابيّة المؤدّية إلى جزر مجنون، تتبئ عن هجومٍ واسعٍ سيحدث عمّا قريب...

(1) جزر مجنون: تتشكّل من قسمين، شمالي وجنوبي، مساحتهما معًا حوالي 200 كلم²، وتبعدان عن بلدة القرنة العراقية 15 كلم. تقع مدينة الحويزة في الجهة الشمالية الشرقية من جزيرة مجنون. حدود إيران تعبر من مياه «الهور» فيكون نهر دجلة إلى غربها وبلدتا «القرنة» و«العزيز» إلى جنوبها وشمالها على التوالي. يوجد 50 قرية في المنطقة، سكانها مسالمون، وغير عسكريين؛ يتراوح عمق مياه «الهور» المغطّاة بالأعشاب المائية والقصب بين 70 سم و3 أمتار، غير أنّه تمّ تثبيت ارتفاع الماء على 70 سم في أغلب الممرات المائية المتصلة بالجزر كي لا تتمكن الزوارق، والقوات العسكرية من العبور من الجهة الغربية. كانت الجرفّات تحفر التراب وراء السواتر الأولى مقابل الجزيرة الجنوبية.

(2) كانت تُنصب في مناطق الجبهات أبراجٌ حديدية عالية مخصصة للرصد، خاصة في المناطق التي تقل فيها الهضاب والتلال؛ كمناطق الجنوب، وسواحل المستنقعات الجنوبية. (مركز نون)

كنا نرسل تقارير الرصد يوميًا إلى مسؤول استطلاع المقر السادس للحرس. أشيع منذ عدة أيام بأن العدو ينوي القيام بهجوم مضاد في جزيرة «مجنون».

بعد عمليات خبير وبدر⁽¹⁾، أجرى العراقيون مجموعة تدابير احترازية لمنع تقدم القوات الإيرانية، ضخوا الماء من نهر دجلة إلى منطقة «هور العظيم»، ووضعوا أسلاكًا شائكة أمام خطوطهم المتقدمة، أسلاكًا حلقية ونمقيّة وعنكبوتية⁽²⁾، وأضافوا موانع وأفخاخًا انفجارية وأغما مضادة للأفراد.

أثناء عودتي من الرصد، التقيت بـ«علي يوسفى سوره»، من شباب كتيبة قائم شهر، تعطل قاربه في الطريق المائي قبل وصوله إلى مقر الكتيبة، كنت في السابق قد تعرّفت عليه حين خضعنا معًا لدورة تخصصيّة في المتفجّرات في ثكنة القدس في همدان، لم يكن يخطر ببالي أن أرى عليًا في جرز مجنون. قال لي «عبد العلي حق كو»⁽³⁾، قبل أيام، إنّ أحد شباب كتيبة قائم شهر يسأل عنك، ويحاول الوصول إليك، كان «علي يوسفى» متخصصًا ماهرًا في التخريب، وكان يقلّد «كويّتي بور»، و«حسين فخري» في اللطم والأناشيد بشكل مذهل، حين رأيته، بدأ بالإنشاد فورًا: (ترجمة الشعر)

(1) أسماء أطلقت على عمليات عسكرية جرت أثناء الحرب المفروضة، بين عامي 1362 و1363 هـ.ش (1983-1984م). (مركز نون)

(2) أنواع مختلفة من الأسلاك الشائكة المعقدة التشبيك التي يصعب فكها أو قطعها أو النفوذ من خلالها.

(3) كان الشهيد عبد العلي حق كوطالبًا جامعياً في السنة الثالثة «تخصّص جغرافي». عُثر على جثمانه بعد سنة، ودُفن في قريته «دليل».

يا محمد لم تكن حاضراً بيننا
 كي ترى المدينة وقد تحرّرت
 دماء أحبابك أينعت وأثمرت⁽¹⁾

أوصلت «علي يوسف» إلى مركز كتيبتة، وذهبت إلى خندق الاستطلاع، كان بيته قد دمر في خرّمشهر وكان والداه يعيشان في مجمع متضرّري الحرب «أميديه». قال لي: عندما تحرّرت «خرّمشهر» ذهبت إلى المنزل قبل الذهاب إلى المسجد الجامع، وجدت أن المحتلين قد دفنوا في حديقة منزلنا اثنين من أبناء المدينة! كان علي ينصّحني ويكرّر: «سيد! كما أننا نتحسّر، ونقول: ياليتنا كنا مع الإمام الحسين عليه السلام لنقاتل معه، ونكون من أصحابه، سيقول الناس بعدنا: يا ليتنا كنا نعيش في عصر الخميني، يا ليتنا قاتلنا معه، ونصرناه، علينا أن نقدر هذه النعمة، فهي ليست بالأمر العادي». ثمّ قال لي: «لا تندمج كثيراً مع الرفاق هنا، الصداقة هنا مختلفة عن الصداقة في المدينة، لأن عمرها قصير، حين يستشهد رفاقك فإنك ستألم وتحزن، بقاؤنا معاً قصير ليس في اختيارنا، بل بيد رصاص الأعداء وشظاياهم». كان «علي» رقيقاً حسّاساً، وكانت أمنيته بأن تخرق رصاصات العدو أضلاعه، وأن لا يضمّه قبر وحبّه هذا يوصله بسيدة الأئمة عليهم السلام! كل كلماته كانت دروساً: «إن كان لا بدّ لي من قبر، فاكتبوا على شاهده، (لا نعرف من يرقد هنا! ضائع في بقيع إيران)»، متحسّراً على زيارة البقيع، على والدة السادات الزهراء عليها السلام.

(1) لطمية مشهورة في إيران، وفيها يخاطب المنشيد الشهيد «محمد جهان آرا» قائد المجاهدين الذين حوصروا في «خرّمشهر»، ويوفّ إليه خبر تحريرها من المحتلين.

كانت قصّة «عهد الأخوة» بين شباب المسجد الخمسة، في مسجد الجزائري في الأهواز، قد تركت أثراً بليغاً في نفس علي. كنا في ثكنة القدس في همدان حين سمعنا بهم، كانوا خمسة شباب قد تأخّوا فيما بينهم في المسجد، تقاسموا فيما بينهم كلّ واحد أقسم للآخرين بأن يبقوا معاً في كل الظروف، وأن يشفعوا لبعضهم يوم القيامة.

رسموا لمجموعتهم شعاراً، عبارة عن وردة ذات خمس وريقات. استشهد أربعة منهم، آخر شهيد منهم كان اسمه «بهمن درولي»، كان قد أوصى بأن يكتب على شاهد قبره جملة واحدة:

(قشّة حقيرة إلى الحضرة الإلهيّة المقدّسة)⁽¹⁾

تركت «عليّاً» هناك، وتابعت المسير، ركنتُ الزّورق قرب خندق الاستطلاع، وقد التأم جمع شباب الاستطلاع. كنت جائعاً، واليوم دور «بيران مستوفي زاده»، هو «رئيس البلدية» [خدمة الطعام]، طعامي المفضّل هو الـ«إستامبولي»⁽²⁾، ورئيس بلديتنا أعدّ السمك والأرز. قبل الغداء أعطاني رسالة من والدي، كانت قد وصلت منذ ساعة. كان جوعي لرسالة والدي أكثر من جوعي للـ«إستامبولي»، تأثّرت بها كثيراً، وانهمرت دموعي. كان أبي قد رأى مصائب كثيرة في حياته، وهو الآن قلقٌ عليّ.

كعادته، كان يخاطبني في الرّسالة بـ«نور عيني»، ويناديني باسمي الآخر، كتب لي: «ولدي الحبيب أمير! بعد شهادة فلذة كبدي «السيد هدايت الله»، لا يمكنني تحمّل مصيبةٍ أخرى. لي الفخر بأنّ أبنائي

(1) يقصد اللاشيء والفناء أمام حضرة الجلال سبحانه وتعالى..

(2) طعام إيراني تقليدي مكوّن من الأرز واللحم الناعم والتوابل.

الخمسة من مجاهدي جبهة الدفاع المقدس، لكن بعد تلك الحادثة انكسر ظهري!

ولدي، نور عيني! قاتل العدو البعثي بأفضل ما يكون القتال، ولكن انتبه لنفسك.. إن استطعت أن ترجع إلينا في آخر شهر مرداد (تموز)، فتعال كي نذهب معاً إلى القرية من أجل قطاف الرمان».

مضت ستة أشهر على شهادة أخي، ووالدي قلق على أولاده المقاتلين.. مهما كان، فله الحق بأن يقلق. ذهبت أنا و«بيران» إلى مثلث المحور، كي أسلم تقرير الرصد إلى عزت الله ولي بور. الليلة الماضية، كتب «بيران» كما قال لي.. وصيته الثالثة: بعض الديون لعمه (650 توماناً)، ووصيته لزوجته بأن ترسل ولدهما الوحيد «ياسر» إلى الحوزة العلمية، وطلب منها أن لا تأخذ أي شيء من مؤسسة الشهيد، بل أن تجري هذه المعاملة مع الله! كان إنساناً صافياً، ذا قلب طاهر، وعينين صغيرتين، ولحية كثة، وجسم قوي.

كتب لزوجته: اهتمي بـ «رقية» و«سكينة» كاهتمامك بـ «ياسر» و«أعظم» و«خديجة»، وعاملي «رقية وسكينة»⁽¹⁾ باحترام أكبر ومودة أكثر من أولادنا.

حين كنت أقرأ رسالة أبي، لاحظ «بيران» دموعي. لم يكن يعلم ماذا في الرسالة ولكنه قال لي: إنه والد، وقلق على ولده.

ثم تابع: ما لم تصبح أباً فلن تعرف قدر أبيك! ثم حاول أن يغير الجو فقال: «سيد! أحضر كاميرتك كي نلتقط بعض الصور، أريد أن

(1) رقية وسكينة ابنتا شقيق الشهيد الذي استشهد في «شلمجة» في العام 1986م.

أرسلها لزوجتي وأولادي!»

كنت قد اشتريت تلك الكاميرا، «كودك 110»، بعد شهرين من التحاقني بالجبهة. أنا و«إسماعيل برهون» كنا نمتلك كاميرات فوتوغرافية، دون بقية شباب التخريب. كنّا نوصي الشباب الذاهبين إلى المدينة أن يشتروا لنا أفلاماً ذات 24 صورة، وقد بقيت معي حتى أواخر أيام الحرب. أعطيته فيلمين من أصل ثلاثة كانت معي. وتجمّعنا أنا وشباب الاستطلاع الطيبون كي ننهي بقية صور الكاميرا. كلّ الشباب كانوا هناك، ما عدا «ولي ياري». الذي كان يرصد من فوق البرج، «حسن وكيللي»، «ولي زرجام»، «علي برزدرست»، «بيران مستوفى زاده»، «عبد العلي حقّ كو»، «الله خواست بركاني»⁽¹⁾، وكان مقرّراً أن أذهب بعد أيام إلى «الأهواز»⁽²⁾، أو إلى الحويزة⁽³⁾. وأظهر الصور هناك.

كان «بهرام درود»⁽⁴⁾ يلتقط لنا الصور، فمازحني قائلاً:

- الكثير ممن تصوّروا معي قد استشهدوا!

كان يلمّح إلى أخي الشهيد السيد «هدايت الله». وعَدْتُ بهراماً بأن أعطيه نسخة من الصورة التي التقطها مع أخي في مرتفعات

(1) تلفظ: الله خاست

(2) الأهواز هي عاصمة ومركز محافظة خوزستان، تقع في جنوبي غربي إيران. ويخترق المدينة نهر كارون، وهي ترتفع عن سطح البحر عشرين متراً. (مركز نون).

(3) مدينة الحويزة تقع في محافظة خوزستان، هي تصغير الحوزة، وأصلها من يحوز حاز حوزاً، يحذّها من الشمال ناحية قبائل بني طريف، وجنوباً الصحراء المنتهية بحدود البصرة وخرمشهر، ومن الغرب هور العظيم، وشرقاً حوض نهر كارون. (مركز نون).

(4) بهرام درود من قرية «رودبال» وتربطنا به قرابة عائلية، استشهد في موقع «بيت الله»، وجد جثمانه الطاهر بعد 12 سنة من شهادته ودفن في مسقط رأسه قرب مقام السيّد جمال الدين.

کردستان. بعد هذا، سبحنا في مياه الجزيرة، ثم جلسنا على الجسر، وبلغ مزاح «بهرام» ذروته حين قال:

- أصبح هجوم العراقيين حتمياً، ألا تريدون أن تعرفوا مصير كل واحد منكم؟ أخذ بهرام ورقة، ثم قسمها إلى أربعة أجزاء، وكتب كلمة على كل منها، وطلب أن يأخذ كل واحد منا ورقته، كانت الاحتمالات: شهيد - أسير - جريح - باقي.

أخذ كل واحد منا ورقته، فكان «مستوفي» شهيداً، و«الله خواست» باقيًا، و«عبد العلي حق كو» أسيراً، وأنا جريحاً.

صَحَّتْ اثنتان من توقّعات أوراق «بهرام» الفلكيّة! بعد يومين من تلك اللعبة، كان اثنان من الشباب يلقيان ما سحبا من أوراق.

كان التحاقني بجمع شباب الاستطلاع نوعاً خاصاً من اللطف. فقد كانوا رفاق أخي الشهيد؛ فبعد شهادته تأخيت مع «عزت الله ولي بور»، قائد وحدة الاستطلاع في مقرّ «کردوي کردستان»، وأصرّ على انتقالني إلى وحدته، رغم معارضة جماعة «التخريب» في البداية، ولكنه لم يتراجع عن طلبه حتى تحقّق.

كان غروب هذا اليوم حزيناً، تماماً مثل غروب أيام الجمعة! قبل نصف ساعة من الغروب، بدأت قوات المدفعية الثقيلة بصبّ حِمَم نيرانها على مواقع العدو، للمرة الثانية بعد قصف يوم الأمس بعد الظهر.

إنّها الساعة التاسعة ليلاً، الجزيرة هادئة يلقيها السكون. جلسنا نتسامر أنا و«ولي زرجام»، و«حسن وكيلى»، و«أصغر دلروز»⁽¹⁾، خارج

(1) استشهد في اليوم التالي لسهرتنا هذه!

الخندق فوق الجسر العائم. كالعادة انتهى بنا المطاف بالمزاح. لا أعلم كيف انتقل بنا الحديث إلى الشباب الأيتام في الجبهة من الذين فقدوا أمهاتهم! من بين الأربعة كنا أنا و«أصغر» و«ولي» بلا أمهات. توفيت والدتي وأنا في سن التاسعة. قال «ولي»:

- سيّد! هل تعرف بأنّ مصيبتنا، - أنا وأنت وأصغر-، أسهل بكثير، وبدون «وجع رأس»؟!

- كيف تكون بلا «وجع رأس»؟!

- ليس معروفاً ما سيحصل لنا في الحرب، عدم وجود الأمّ في هذه الحالات نعمة! إذا استشهدنا يكون بالنا مرتاحاً، ولا نقلق على حزن الأمّ، وحرقتها. ليت كلّ الشهداء بلا أمهات، فلا شيء في الدنيا أصعب من مصيبة الأمّ بولدها!

تذكّرت عندها كلام الشهيد «باقر جاكيان»، والذي كان طالباً للعلوم الدنيّة، حين قال: لديّ صديقٌ فقد أمّه وأباه في سنوات طفولته الأولى، وكان يقول لي: ليس لي أمٌّ تبكي عليّ عند شهادتي.. لم أعرف حنان الأمّ، ولكنّي أرغب أن تبكي عليّ حين أستشهد! إذا استشهدتُ خذوا نصفَ قالبِ ثلج وضعوه على قبري، حين يذوب سأشعر بدموع أبي وأمي، ما أريده ليس طلباً صعباً⁽¹⁾. كنا نتابع الحديث حين نادانا «عبد العلي حق كو» قائلاً:

تجمّعوا! «ولي بور» يطلبكم إلى موقع (دشمة) القيادة!

كان «عزت الله ولي بور» قد عاد من اجتماع المسؤولين في مقرّ

(1) اسمه «عبد الله أسمار». استشهد في عمليّات «والفجر 8» في الفاو. يقول الشهيد باقر جاكيان: بعد شهادته وقبل أن يوضع شاهد القبر، أخذت نصف قالب ثلج ووضعتّه فوق قبره.

«خاتم3». تحدّث عن وضع العدوّ، والحشود، الجديدة في المنطقة، وقال: وفق المعلومات الواردة إلينا، فإنّ العدوّ يستعدّ لشنّ هجوم على الجزيرة. نقل لنا بعض المعلومات عن لسان العقيد العراقي «محمد الفاتح»، قائد لواء المشاة 429 الذي أسر قبل أيام في «سلمجة». فهمنا من كلامه، أنّ يوم الغد سيشهد معركة غير متكافئة بيننا وبين العدوّ. أعلمنا «ولي بور» عن القوات العراقية التي نقلت إلى خطّ التماس منذ أيام: «اللواء 601 مشاة» من الفيلق الثالث، «الفرقة 25» من الفيلق الثالث، كتيبتان من «الفرقة 16»، قوات لواء كوماندرس القادسية، وكتيبتان من القوَّات الخاصّة في الحرس الجمهوريّ.. وكلّهم جاؤوا إلى جزيرة «مجنون».

قال «ولي بور»: في هذه اللحظات، وأنا أتكلّم معكم، تقوم هذه الوحدات بتفريغ حمولتها، والتّموّض في مواقع «البيضة»، و«الصخرة»، و«الهدامة»، والطرق المؤدّيّة إلى الجزر، و«قناة صويب». اليوم، شاهدتُ بنفسي، ومن فوق برج المراقبة، تحرّكات العدوّ، وعبور قواته. كان الخطّ مزدحمًا جدًّا؛ فالتقرير الذي رفعته، وما قد أخبرنا عنه، كان يشير إلى احتمال هجوم كبير.

بعد فتح «الفاو» و«سلمجة»، قال «محسن رضائي»⁽¹⁾ لـ «حيدر بور» قائد لوائنا: الخطوة التّالية للعراقيين ستكون نحو الجزيرة، انتبهوا جيّدًا، هنا آخر الخطّ! سمعت كلام السيّد محسن من «ولي بور». كانت دراسة المعطيات العسكريّة توصلنا إلى استنتاج أنّه: بما أنّ درجة الحرارة فوق الـ 50 فإنّ العدو لن يقوم بأيّ هجوم، لأنّ الحرارة

(1) قائد الحرس الثوري خلال الحرب المفروضة.

المرتفعة تؤثر على تجهيزاته، المدافع البعيدة المدى لا تتحمل هكذا حرارة، فالتقصيف المدفعي الزائد يؤدي إلى إعطاب «سبطاناته»⁽¹⁾. كان طقس اليوم بعد الظهر أفضل، مقارنة بالأيام الماضية، انخفضت الحرارة بضع درجات. لم تكن عند العدو مشكلة في العمل من الغروب إلى مطلع الفجر، كانت مشكلته في النهار والحرارة المرتفعة. كان العدو قد نظم أهدافه، وثبت مواقع رماياته من خلال إطلاق القذائف الفوسفورية، والدخانية، على طرقات «الخدق»، وخطوط الدعم والإسناد الخلفية، كطرقات «سيد الشهداء»، و«بدر»، و«قمر بني هاشم»، و«صاحب الزمان»، و«الشهيد همت»، والطريق المفتوحة حديثاً المعروفة باسم «شفيع زاده»..

وفق معلومات شباب الاستطلاع، فإن الجيش العراقي قد جهّز في الخط الثاني، مقابل جزيرة مجنون فقط، 130 راجمة كاتيوشا! بعد التوجيه والاستشارة ومناقشة الوضع، عيّن «ولي بور» شباب الاستطلاع كأدلاء للكتائب.

«ولي زرجام»، و«نعمت الله بايدار»⁽²⁾، و«ولي ياري خواه»، و«الله خواست بركاني»، و«علي برز درست»، و«آيت الله بروور»⁽³⁾، و«ترابعلي توكل بور» لكتائب الرسول ﷺ، والإمام علي عليه السلام. وعيّن «بيران» لقوات القاسم بن الحسن عليه السلام. «حسن وكيلى» رابط الاستطلاع، وعامل الإشارة، بالمحور. بقي «عبد

(1) اسطوانات المدافع.

(2) بايدار: تلفظ: Paidar.

(3) بروور: تلفظ: Parvar. ياري خواه، تلفظ: ياري خام.

العلي حق كو» فقط من شباب الاستطلاع كمنسّق الأعمال في الخندق. هذه الليلة طلب شباب الاستطلاع المسامحة من بعضهم بعضاً، وتفرّقوا كلٌّ إلى القوّة التي ينبغي عليه العمل معها كدليل. أردف «حسن وكيلى» «بيران» خلفه على الدراجة الناريّة إلى موقع «الخندق»⁽¹⁾. كان بيران يردّد دائماً: «حسن» رجلٌ جميع المهمات الصّعبة في وحدة الاستطلاع.

أعطاني «بيران»، قبل أن يرحل، كلّ وثائقه وكتاباته كي أحفظها له. كانت ليلة قاسيةً ومزّة. حين ودّعني، عانقني بشدّة، وقال: حين أعود هذه المرّة سنذهب معاً إلى «تنك سبو»، وعدني السيّد «هدايت» بزيارتنا، ولكنه لم يفعل!

التحق كلٌّ منّا بكتيبته. و.... تفرّق جمع شباب الاستطلاع إلى الأبد! صدّق «علي يوسف بور» حين قال: إنّ عمرَ صداقات الجبهة قصيرٌ. كنت أحسب أنّي سأبقى لسنواتٍ طوالٍ بالقرب من شباب الاستطلاع في هذا الخندق. تعوّدت على: حنان «بيران مستوفي زاده»، وخجل «الله خواست بركاني»، وقلة كلام «عبد العلي حقّ كو»⁽²⁾، وكثرة حركة «حسن وكيلى»، ومزاح «ولي زرجام»، وجدّيّة «علي برزدرست»، وحلم «آيت الله بروور»، والبسمة الدائمة على محيّا «عزت الله ولي بور».

تحوّل مسير المعركة ومصيرها في هذا الشهر بشكلٍ مذهل. حين

(1) تتوزع على أطراف الطريق المستحدثة، المسماة «جادة الخندق»، مجموعة مواقع وتحصينات ضخمة يتّسع كل منها لعشرات العناصر، ولكميات من العتاد، والأسلحة المتوسطة، والثقيلة، والذخائر، سيرد الحديث عنها خلال الفصول اللاحقة. يراجع أيضاً خريطة «جادة الخندق» في ملحق الوثائق والصور.. (مركز نون).

(2) حق كو: تلفظ: Haq Ghoo.

ذهب الشباب، انقبض قلبي، وشعرتُ بأنِّي لن أرى أغلبهم بعد اليوم. طلب منِّي «الله خواست» أن أسامحه على ما فعله أمس الأول؛ حين كنا نسبح معاً، أمسك برأسي مماًزحاً، ودفع به تحت الماء حتى كدت أختنق. قال لي: إنَّ عنصر الاستطلاع ينبغي أن يتمكن من البقاء تحت الماء لمدة دقيقة وثلاثين ثانية، وقد أخفقت أنا في الثواني الأخيرة! في ذلك اليوم، انزعجت منه قليلاً، ولكنَّ محبَّتي له لم تنقص أبداً. حين ذهب الشباب، لم يبق إلا أنا، و«عبد العلي حق كو».

كان «ولي بور» مطلقاً على هوايتي، وتعلَّقي بالرَّصد، والمنظار، والبرج. كنت «عاشقاً» للبرج والرصد ومنظار الـ «20x120».

كنت أماًزح «ولي بور» قائلاً: إن «طبخوني»⁽¹⁾ على البرج، فإني لن أشبع منه!

تشعُرُ فوق البرج بأنَّك أطول من الجميع، وأكثر ارتفاعاً وعلوًّا، وبخاصَّةً لدينا نحن ذوي الطموحات الكبرى، كنَّا نحلق بعيداً، وكنا نحاول دوماً أن نثبت أنفسنا في الحرب.

كنتُ منجذباً إلى التحليق عالياً، فوق البرج ترى ولا تُرى، تُعطي «الإحداثيات» للإسناد الناري؛ كي يصحَّحوا إحداثيات الرَّمي على مواقع الدبابات، ومنصَّات المدافع التي تقصفنا. العدو يحاول التركيز عليك، ورميك بقذائفه، منظر الخنادق والطَّرقات والسيَّارات... إنها الساعة العاشرة والنصف مساءً.

امتنالاً لأمر «ولي بور» يجب أن اذهب إلى برج المراقبة. أوصلني «الله خواست» إلى البرج على الدَّرَاجة النَّارية. منذ عدَّة أيام كنَّا

(1) يقصد: إن اشتعل البرج وصهروني فوقه.

قد ذهبنا معاً لرصد نقاط استقرار الدبابات، خلف قناة «الصويب»، مقابل جزر مجنون الشمالية، وإعداد تقرير عنها.
«الله خواست» كتلةٌ من النشاط والمثابرة.

كان يقول لي، ونحن فوق البرج: سيّد نحن لسنا هنا لرصد واستطلاع الجزيرة، أو لقسم من خوزستان فقط، نحن نرصد دفاعاً عن 35 مليون إيراني. عندما كان يرى خطوط العدو عبر المنظار قال لي: «هل أمعنت النّظر، حتى الآن، في شكل نهريّ دجلة والفرات؟!». ويتابع: «هناك يتقاطع دجلة مع الفرات ليشكلا مجرى (اروند)، ثمّ يصبّان في الخليج الفارسيّ، إنّ هذا الفرات هو دموع تلتقي بدجلة! إنّها دموع الخجل والحياء من الإمام الحسين (عليه السلام)، دمع الفرات يتضاعف في دجلة أضعافاً!»

كان إنساناً من ذوي القلوب الصّافية.

ودعت «الله خواست» قرب البرج، وحين افترقنا مازحته قائلاً:
«الله خواست!» لن أنسى بأننا استطلاع لـ 35 مليون إيراني.
كان عليّ أن أدوّن مشاهداتي عبر المنظار الليلي في تقارير إلى «ولي بور». المسافة بين البرج وخطّ التماس مع العدو 4 كلم، وتشاهد من البرج مناطق «البيضة والصخرة والحالة وهمايون والكرام». كنت أصعد السلم المعدنيّ للبرج، حين هتف «خسرو مرتب»، مسؤول مدفعية اللواء من فوق البرج؛ بقيت بضعة درجات لأصل إلى غرفة الرّصد الصغيرة، أطلّ برأسه وقال:

- من أنت؟

- أنا «حسيني بور»، أرسلني «ولي بور» إلى هنا!

كنت أعرفه، فلطالما رأيته في «کردستان».. هو من «بهبهان»، من القادة الشجعان في الحرب. لم يكن يعرفني. كان صديقاً لأخي الشهيد. بعد نصف ساعة من لقائنا كان جليد الغربة قد ذاب بيننا. كان إنساناً بسيطاً بلا تكلف. تناولنا العشاء معاً، خبز، وجبن وبندورة. الليل هادئ وساكن، لا يقطع صمته سوى أصوات الضفادع والزيان، بين حقول قصب الجزيرة. كانت عيوني مركزة على المنظار ترصد أوضاع خط التماس، حين سألته عن الهجوم العراقي المرتقب، قال: «بعد ساعات ينكسر هذا السكون».

كان لديه معلومات لا أعرفها، مع علمي بأن العدو يستعد للهجوم إلا أن كلمته، و«الآه الباردة» التي أطلقها من صميم قلبه، أفهمتني أشياء وأشياء. صليّنا في غرفة الرصد فوق البرج. تمنيت في قلبي لو يطول البرج ويرتفع أضعافاً؛ كي أرى بشكل دقيق ما يجري بعيداً على الجادة الاستراتيجية «للعماره - البصرة» و«هور الشيطان».

أُعطي الأمر بالتأهب لجميع الوحدات، والكتائب، المستقرّة (التموضعة) في جادة الخندق⁽¹⁾. حقول القصب التي كانت تتماوج تحت ضوء القمر. كانت الشاهدة على أصوات مناجاة وأدعية لشباب سيلتحقون بعد ساعات قليلة بالفيض الإلهي. كل ما كنت أراقبه في المنظار، من آليات، ومدّرات، وحاملات دبابات، وزوارق، وتجهيزات ثقيلة في المنطقة الممتدة من «الهدامة» إلى موقع «الروطة» و«الحالة» - ، كان يدلّ على اقتراب معركة طاحنة وغير متكافئة.

(1) طريق مستحدثة بعرض 8 أمتار وارتفاع مترين وطولها 13 كلم تحيط بها مستنقعات المياه يقع عند نهايتها موقع الخندق وتقع فيها مجموعة مواقع ومقرات عسكرية (تراجع الخريطة في ملاحق الكتاب).

السبت 25 حزيران 1988م - جزيرة «مجنون» - جادة «الخندق»
 مضى أكثر من نصف الليل، كنتُ منهكاً أكثر من العادة، وقد هدّني السّهر، وأحنّ إلى نومةٍ طويلةٍ مريحة. خلف المنظار، كنتُ أجاهد جفوني ورموشي. كنتُ أرسل تفاصيل الوضع لحظةً بلحظة عبر جهاز اللاسلكي. فجأة، وفي الساعة الثالثة والرّبع فجراً، أضاءت نارٌ وانفجارات سماء الجزيرة، وغدا الليل نهاراً، بدأ الهجوم المدفعي، أنواع المدافع، وراجمات الكاتيوشا، والـ 107، والمدفعية البعيدة المدى كانت تسقط كالمطر الربيعي على الجزيرتين الشمالية والجنوبية وعلى مواقع «الخندق».

كان «خسرو» يعطي، وبشكل متواصل، إحداثيات العدو لشبابه في المدفعية، فيرمون مصادر النيران، يصحّح لهم إحداثيات الأهداف، فيعيدون الرّمي بدقّة أكبر. توزّع الرّدّ المدفعي على الخطّ الأول والثاني للعدو، وكان دقيقاً حيث عطل لساعات حركة العدو، وأصاب حاملات قوارب، وكذلك خزانات محروقات في «الصخرة»، و«سيل بند»، وعلى الرغم من قلة عدد الصواريخ وقذائف المدفعية، - حيث كان لها نظام توزيع يومي محدود-، فإنّ شباب المدفعية قاموا بعملٍ مهمّ وكبير.

لم يكن هناك مجالاً للمقارنة بين إمكاناتنا وإمكانات العدو من حيث السلاح والذخيرة والتجهيزات، فنحن معرّضون للعقوبات والحصار، وأظنّ أنّ العدو كان يرمي في الدقيقة الواحدة حوالي 1000 قذيفة فوق رؤوس شبابنا في نقاط الجزر المختلفة.

عند الساعة الرابعة والنصف فجراً، تقدّمت القوارب العراقيّة نحو جادة «الخندق». كانت أعنف حملات القصف تصّب حممها على

موقع «الخنديق» وحصنه؛ أي: مكان وجود سرية «القاسم بن الحسن»، وهي إحدى سرايا كتيبة الرسول ﷺ الثلاث. أكثر عناصرها كانوا من متفرغي الحرس الثوري.

حوالي الساعة الخامسة، كان علينا مغادرة البرج والتوجه نحو مثلث المحور، حاول العراقيون رمي برج المراقبة.

كان حجم النيران والقصف الذي تعرض له البرج كبيراً جداً، لدرجة أن الأسلاك التي كانت تثبت البرج قد انقطعت بسبب الانفجارات المتتالية، كما تهاوت إحدى دعائمه، فبقي مرتكزاً على ثلاث دعائم فحسب.

في الدقائق التي خمدت فيها النيران، استطعنا النزول أسفل البرج، وكنت ما أزال أفكر بالمنظار العسكري (20x120)، فإذا تهاوى البرج فسوف يسقط في المياه، وكنت على استعداد لأن أسقط أنا من أعلى البرج إلى مياه الجزيرة، ولا يصيب المنظار أيّ مكروه. ما إن وصلت أسفل السلم الحديدي حتى قلت: «ماذا عن المنظار يا سيد مرتب؟! «إذا سقط هنا فسوف يقع بأيدي العراقيين!»

- سنرسل اثنين أو ثلاثة من الأخوة لإنزالها.
- ماذا لو لم يأت الأخوة؟
- لا حاجة للتفكير في ذلك وسط هذه المعركة، لدينا أعمال أهم بكثير من التفكير به. هيا اذهب إلى «ولي بور» فلربما احتاجك في أمر، فقد انتهت مهمتك معي.

أصبحت سيارة «خسرو مرتب» الـ«تويوتا لاند كروز»، كالمصفاة بسبب الانفجارات المتتالية، ولم يبق منها أي جزء سالم، فقد تحطم

زجاجها، وثُقِبَ إطارها. قمنا بتبديل الإطار وسرنا، وفي الطريق حملنا معنا عدداً آخر من الإخوة.

شاهدنا شهداء وجرحى على جانب الطريق، قال «خسرو»: الآن لا شأن لكم بالشهداء، أحضروا الجرحى بسرعة.

كانت الدماء تسيل غزيرة على أرضية السيارة، والقذائف تنهمر كالمطر، لم أشهد قصفاً عنيفاً كهذا طول المدة التي خدمتها في الجبهة، لمحت «نعمت الله بايدار» في الطريق ينقل عدداً من الشهداء والجرحى إلى الخلف.

إنها السادسة صباحاً، بدأ العدو هجومه من عدة محاور، من الشمال والوسط والجنوب، ركز العدو قصفه على تحصينات «موقع الخندق»⁽¹⁾.

تحركت قوات الحرس الجمهوري العراقي من المحور الجنوبي نحو «نشوه» وقناة «صويب» لقطع جادة «سيد الشهداء»، والقوات الأخرى في الشمال لاحتلال جادة «حنظلة» ومستديرة «الإمام الرضا (عليه السلام)»، ليصلوا إلى منطقة عمليات «ترابه» و«أبو ذكر» و«أبو ليله» في مكان تموضع لواء «الحجة 51».

كذلك فإن «الفيلق 25» العراقي حاول التقدم من جهة «شط علي»، والفيلق السادس للمدرعات، والخامس للهندسة، ولواء الحرس الجمهوري نحو «الطلائية» و«ثكنة زيد».

فارقت «خسرو مرتب» هنا. كان مثلث المحور مزدحماً.

(1) للاطلاع على المواقع المذكورة، تراجع الخريطة في ملحق الكتاب.

كان «جواد عظيمي فر»⁽¹⁾ و«عوض شهابي فر» يقومان بتوجيه وتنظيم القادة والقوات. كان عمل «عظيمي فر» أصعب من باقي القادة، كان قائدًا فعّالاً وذكيًا. فقد القدرة على الكلام في عمليات بيت المقدس، فكان يتابع قيادته عبر القلم والورقة! يكتب ما يريد، وينقل عامل الإشارة أو امره لقادة الكتائب والوحدات. سلاحه الأصلي القلم والورقة، وكان بحوزته دائماً عددٌ وافٍ منها.

كان «عزت الله ولي بور» في مثلث المحور، ولم يكن معه أحدٌ من شباب الاستطلاع.

كانت إحدى فصائل كتيبة الشهداء (الخاصة) تتجهّز للدخول إلى مواقع «الخنديق»، وكان «ولي بور» متردّدًا في إرساله معهم كدليل، كنت أعرف سبب تردّده، فأخي قد استشهد قبل ثمانية أشهر، ويخاف عليّ بأن استشهد الآن.

كنت أقرأ ملامح وجهه، حيث راح يفتّش عن شخص آخر غيري يمكنه إرساله.

سعى «الله خواست بركاني»، الذي كانت تجمععه صداقة حميمة بأخي، إلى إقناع «ولي بور» بعدم إرساله إلى هكذا مهمة. كنت أرغب بالتقدّم مع الشباب إلى خطّ النار. كيف يمكن أن أبقى هنا في ظل هذه الأوضاع الصعبة؟ انتظرت أن يطلب «ولي بور» مني الالتحاق بتلك الكتيبة، ولمّا رأيت أنّه لم يكلفني بشيء نفذ صبري، فقلت له:

(1) كان «جواد عظيمي فر»، في وقت سابق قائد كتيبة المدرعات في عمليات بيت المقدس، على برج الدبابة حين أصيبت بصاروخ ضد الدروع «ماليوتكا»، فأصيب بحالة صدمة عصبية، فقتل معها القدرة على الكلام. في العام 1994، تشرّف بحجّ بيت الله الحرام حيث عادت له القدرة على الكلام بشكل طبيعي بعد 12 عامًا من الإصابة. حاليًا هو من قادة قوات المشاة في الحرس الثوري.

- حاج! أرسلني معهم إلى الأمام؟
- أنت، لا!
- لِمَ لا؟ أنا أعلم لماذا لا تريد إرسالني!
- ابق هنا، لديّ عمل آخر لك.
- أنت قائدي، كل ما تقوله سمعاً وطاعةً، ولكن الآن ليس الوقت المناسب؛ كي لا تستفيد من طاقتي بسبب شهادة أخي «هدايت»، فهو لا يرضى بعملك هذا!
- استطعتُ بإصراري الشديد إقناعه بأن يرسلني كـ«دليل» لشباب «الكتيبة الخاصة». قبل أيام، حين كنّا معاً في برج المراقبة، قال لي «ولي بور»: لقد استشهد «سيد هدايت الله» في هذه الوحدة، إذا استشهدت أنت أيضاً بعد عدّة شهور، ألن يقول والدك: ما هذا القائد «ولي بور»؛ لقد أرسل اثنين من أولادي في غرفة الاستطلاع إلى الموت خلال بضعة أشهر؟! يا له من عديم الإحساس؟!
- قبل أن تشرق الشمس، أدّى الشّباب صلاتهم في مثلث المحور، كانت الصلاة الأخيرة للكثير منهم.
- بعد الساعة السادسة، سِرْتُ مع شباب كتيبة الشهداء الخاصة نحو مستديرة «تشر اغتشي»⁽¹⁾. من بين شباب الكتيبة كنت أعرف: «علي محمد كردلو»، و«أصغر علي كردلو»، و«محمد حسين حق جو»، و«سالار شفيعي نجاد»، و«السيد غلام زاده»، و«السيد محمد علي

(1) مستديرة في وسط جادة الخندق، فيها سائر تراي من جهة منطقة «شط علي» المائية. استشهد هناك السيد «رضا تشر اغتشي» معاون قائد فيلق 21 الإمام الرضا (عليه السلام) ولهذا أطلق شباب خرسان على هذه المستديرة اسم الشهيد تشر اغتشي.

غلامي»، و«السيد رحمت الله اشكوه»، و«عبد الرضا دير باز». دفعتنا غزارة النيران إلى أن نتقوقع على بعضنا، ونضع أيدينا خلف رؤوسنا، ونتحني للأسفل؛ كي لا نعرف ما يحدث حولنا بخاصة إذا ما سقطت قذيفة وسط الشاحنة التي كانت تقلنا!

ترجلنا عند مستديرة «تشر اغتشي»، إذ لم يعد بالإمكان عبور الآليات بعد تلك النقطة، علقنا وسط نيران العدو، فلكي نصل إلى موقع «الخنديق»؛ ينبغي العبور من موقع «تشر اغتشي»، ثم موقع «أردني»، فموقع «سيد الشهداء»، وأخيراً موقع «بيت الله»، وكان «ولي بور» قد قال لنا ما ينبغي أن نفعل.

يجب إرسال عددٍ من الشباب إلى موقع «الخنديق»، لدعم وإسناد شباب سرية الإمام الحسن المجتبي عليه السلام، وكذلك علينا أن ننشر مجموعات على طول الجادة لتغطيتها.

كان شباب موقع الخندق محاصرين من قبل العدو، ووضعهم صعب جداً. توزّع الشباب إلى مجموعات صغيرة تبعد الواحدة عن الأخرى حوالي 300 إلى 400 م كي يتمكنوا من تغطية الجادة بأكملها.

استقرّ (تموضع) شباب سرية الإمام السجاد عليه السلام، من كتيبة الرسول ﷺ، في مستديرة «تشر اغتشي»، وكان علينا نحن التقدم للأمام. خلال هذه الدقائق المعدودة التي كان يجري فيها توجيه العناصر، قام عدد من الشباب بتمزيق الصناديق الكرتونية لعب التمر القديمة، وكتبوا عليها عدة أسطر، كانت هذه وصاياهم التي أعطوها لشباب نقطة «تشر اغتشي». أمانا مسافة تصل لألفي متر ينبغي اجتيازها، للوصول إلى موقع «الخنديق» الواقع في الطريق الآخر

من الجادة والمواجه للمواقع العراقية تماماً. قنص العدو ورشاشاته المتوسطة مركّزان على الجادة، ونكاد نختنق من شدة الدخان، والغبار، ورائحة البارود. لم يكن العراقيون يجرؤون على دخول الجادة، فلهذا لم يتركوا شبراً إلا وأمطروه بوابل رصاصهم وقذائفهم. كان شباب كتيبة الرسول ﷺ منزعجين، فقد وصلتهم أخبار عن جرح قائدهم السيد «شكر الله واهبي زاده» في موقع «بيت الله»، والبعض قال باكياً «قد استشهد». «واهبي زاده» قائد شجاع، ومحبوب، ومع أني لم أعمل معه إلا أنه كان من الذين أعرفهم وأحبهم كثيراً.

كي نتقدم للأمام، كان علينا العبور من مجرى قناة الجادة، وهو قليل العمق. استشهد عددٌ من شبابنا خلال المسير. كلٌّ من تقدم 100م من «تشرغتشي» استشهد، وبقي جثمانه هناك. أثناء خطواتنا الأولى للتحرك، سقطت قذيفة داخل القناة، فاستشهد ثلاثة أو أربعة شباب، منهم «خدا داد شرافتي» و«نادر رجبى»، فقد اخترقت شظية أحشاء «نادر»، وخرجت أحشاؤه من بطنه، صوت أنينه الحزين قطع نياط قلوبنا، ودماؤه لوّنت التراب من حوله، انحنى «هدايت الله ركني»⁽¹⁾، وقبّل جبهة الشهيد، سحبه إلى ناحية أكثر عمقاً في القناة، ومدّده إلى جانبها، كان «نادر» يلفظ أنفاسه الأخيرة، ويقول بصوت خافت: «لا تفرّقوا بيني وبين بندقيتي». كان «هدايت الله» يقوم بتنظيم صفوف الشباب طوال المسير. لم تترك نيران العدو لنا مجالاً للحركة. الشيء الوحيد الذي رأيناه يتحرك على الجادة درّاجة نارية عبرت بالقرب منا بسرعة. التفتُ

(1) الشهيد «هدايت الله ركني» قائد «كتيبة هاني» في «لواء 46 الهادي»، في العام 1986م عُثر على جثمانه بعد عشرة أعوام من شهادته. ولد ابنه الوحيد «مهدي» بعد خمسة أشهر من شهادته، توفيت زوجته أيضاً بعد سنوات من شهادته بشكل مؤثر عن عمر ثلاثة وثلاثين عاماً.

فعرفت سائقها: إنه «واهبي زاده» قائد «كتيبة الرسول ﷺ».

كانت بدلته دامية، فرحت كثيراً لأنه كان لا زال حياً، وتصورت كم ستكون فرحة شبابه التعبويين الذين كانوا سيكون عليه منذ قليل. وصلنا إلى موقع «أردني»، وهو الموقع الأول بعد مستديرة «تشر اغتشي». كانت الساعة قد قاربت الثامنة والنصف صباحاً. لقد توقّف تقدّم العراقيين من الجهة اليمنى للجادة، والسبب في ذلك مضادات الرّباعي الرّشاشة، التي غطّت الجهة اليمنى بنيرانها من موقع «بيت الله». كان «محمد أفشين» قد طلب من «علي لشكري زاده»، رامي المضاد الرباعي، أن ينزل زاوية الرّمي لتصبح مباشرة نحو «شط علي»، وثكنة «خاكسار»، فيغطّي جهتنا اليمنى، ويمنع تقدّم زوارق العدو.

كان «أفشين» يعرف أنّ أخاه «جمال» في ثكنة «خاكسار»، ولكنّه لا يعرف إذا كان حياً أو أسيراً بيد العراقيين في الثكنة التي احتلوها، أطلقت النيران من الثكنة نحو موقع «بيت الله»، لم يكن همّ «أفشين» ما حلّ بأخيه بقدر ما كان القائد الشجاع صامداً، محارباً، محاولاً إبادة العدو ومنع تقدّمه.

في اللحظات الأخيرة، التحق بنا بعض الشباب، قالوا إنّنا محاصرون من الخلف، وإنّ هناك شاحنة «لاندكروز» قد أحرقت بسائقها وذخائرها. احتل العراقيون «تشر اغتشي»، وعليه، فلا قوّة دعم يمكنها الوصول إلينا، ولا ذخائر. وحدة التسليح كانت قد وضعت بعض القطع الخفيفة والمتوسطة (كلاشنكوف، غرينوف، آر بي جي) في أماكن متفرّقة؛ في بعض الخنادق كتدبير احترازي وهكذا أوضاع.

حاول العراقيون أن يتسلّلوا باتجاهنا من جهتين داخل حقول القصب، كانت الاشتباكات عنيفة جداً. في بعض النقاط جرت وجهاً لوجه ومقاتل لمقاتل. لم نكن نعلم من أين تأتي النيران والرصاص من داخل القصب. أكثر الشباب أصيبوا من الخلف.

دخل العراقيون من النقاط التي يقلّ وجودنا فيها، من محور «شط علي» إلى القناة من الجهة اليسرى للجادة، كانوا يطلقون النار على شبابنا، ثم يعودون إلى داخل زوارقهم. قرّر عدد من الشباب العودة نحو «تشر اغتشي» لفك الحصار عنا، لكن «هدايت الله ركني» منعهم، وقال لـ «نعمت الله دشتبان» الذي كان أمامه: «علينا أن نواجه العدو من الأمام كي لا يصل للجادة، أما (تشر اغتشي) فيحررها شباب كتيبة الرسول ﷺ».

تمّ التوافق أن لا شأن لنا بما يجري خلفنا، كنّا واثقاً بأنّ شباب «كتيبة الإمام علي»، بقيادة «علي مردان روستاد»، لن يسمحوا بأنّ نبقى محاصرين. جادة الخندق نفسها صارت خط التماس الأول، والخندق الأول. وكلّ الجهات صارت منطلقاً لرصاص العدو يميناً ويساراً، أمامنا وخلفنا.

كان العدو قد خبأ قواربه داخل الطُرق المائية وحقول القصب منذ الليلة الماضية. وعمل جنوده على رصد الطريق؛ حيث لا وجود لقواتنا، فكانوا يقتحمون ويسيطرون.

اقتحم اثنان من رماة «الآربي جي»، وهما «رضا خشنود» و«نعمت الله دشتبان» حقول القصب لاصطياد قوارب العدو، أطلقا قذائفهما، وأصابا اثنين من قواربه، وردّاً على ذلك قام العدو بصبّ حمم نيرانه عليهما،

فالتحقا بركب الشهداء، كان جثمان «رضا» قد تشوّه بشكل رهيب. وصل «صفر علي الكامة» بقاربه إلى الجادة. أحضر لنا كمّية ذخائر، وقام «عبد الرحمن برهمن»، و«جعفر خشتيان»، و«هومان عباسيان»، بنقلها تحت وابل الرصاص والقذائف الصاروخية، طلب من الشباب أن يضعوا بعض جثامين الشهداء في القارب كي ينقلها إلى الخطوط الخلفيّة، كان ماهرًا في رمي الآربي جي، استشهد وهو يرمي أحد قوارب العدو بقذيفة من موقع «بشتي»⁽¹⁾.

استطاع شباب كتيبة الإمام علي (عليه السلام) أن يحرّروا منطقة «تشر اغتشي» بعد معركة قاسية وصعبة، قام فيها قائد الكتيبة بالاستعانة بسرايا: «سلمان»، و«أبي ذر»، و«مالك الأشتر»، وقد تمكّنت هذه السرايا من مواجهة كتيبتين من قوات مغاوير عراقية وطردها من «تشر اغتشي».

تكبّد العدو خسائر كبيرة جدًّا في معركة استعادة «تشر اغتشي»، حيث شهد هذا الفصل من ملحمة «الخندق» شهادة السيد «بهمن خشاوة»⁽²⁾ قائد فصيلة «سلمان»، و«سليمان دانشي» الذي أُصيب جَسَدُه بأكثر من 15 طلقة، وسقط داخل القناة. وكذلك اثنان أو ثلاثة من القادة، منهم «جان طلا».

كان اللافت في هذه المعركة أنَّ أغلب قتلى العراقيين قد سقطوا

(1) بشتي: تلفظ: Poushteh.

(2) الشهيد السيد «بهمن خشاوة» صاحب قلب كبير، شجاع، صريح وذو استعداد لاف، كان يقول لرفاقه: عندما استشهد تكون الحرب قد انتهت، تزوّج في شباط 88، لديه ولد واحد (يوسف) أبصر النور بعد شهادة والده بـ 4 أشهر. ما زلت أتذكر كلماته التي حفظتها وأرددها دائمًا: «إخوتي، عندما يفقد الإخلاص يقع الاختلاف، أعزائي، لا تحدّثوا كذبًا ولو مزاحًا!».

بقذائف مدفعيتهم الثقيلة، وكأن المدفعية العراقية لم تستطع تركيز رميها، ولم تميّز بين عدوها وجنودها. ولم ينتبه العراقيون إلى هذا الأمر، إلا بعد فوات الأوان، وارتفاع عدد قتلاهم.

حين تحرّرت «تشرأغتشى»، اطمأنّ بالنّا على مواقعنا الخلفية، فلو بقيت المنطقة بيد العدو لما استطاع شبابنا أن يقاوموا على طول الجادة أكثر من ساعات معدودة.

استمرّ تواصلنا مع قادة «محور المثلث» عبر عامل الإشارة. تقدّم العراقيون في جزر مجنون وجادة سيد الشهداء، وقد أطلت من السماء ما يقارب أربعين مروحية معادية إلى يمين الجادة في جزيرة مجنون الشمالية، أفاد عامل الإشارة: نفّذ العدو إنزالاً على مقر «الحاج علي هاشمي» حيث رُمزَ إليها بالطيور فوق موقع بلال. كان «بلال» اسم موقع برج الرصد. كان «توفيقي» يحمل بيده مكبّر صوت وينشد الأشعار الحماسيّة والأنشيد، لبثّ روح الثّبات عند الشّباب، ومع أنّه لم يكن هناك حاجة في الكثير من المواقع للتّقدّم إلى الأمام، إلّا أنّ أكثر كلمات «توفيقي» كانت «هيا إلى الأمام يا جنود الإسلام»، أظنّ أنّ «حميد نظري» هو الذي صرخ قائلاً له: «توفيقي» شجّع المقاتلين ولكن لا تتدخّل بشؤون القيادة! وكم كان مؤلماً لنا، حين صرخ «عباس هواشمي»، معاون المقر السادس للحرس، عبر اللاسلكي، دون شيفرة ورموز: هنا كربلاء! هذا عمر بن سعد يدقّ طبل انتصاره! كانت المعارك طاحنة، وكان الاحتفاظ بجادة «الخندق» أهمّ من الوصول إلى شباب موقع «الخندق»، هناك طراً تعديلاً على المهمّة، قررنا أنّه لا شأن لنا حالياً بشباب الموقع، وأنّ علينا بذل كل طاقتنا

للمحافظة على الجادة.

كانت الجهة اليمنى من الجادة خالية، وتقرّر أن تصل كتيبتان من شباب «لواء النجف 8» لدعمنا، ولكنهما لم تتمكنوا من اللحاق بنا؛ بسبب غزارة نيران العدو. كانت قاعدة الشهيد «خاكسار» في محور «شط علي» قد سقطت، رمى الشباب، بناءً على أمر قائد المقر، تجهيزات ووسائل القاعدة في الماء. كان يكفي أن تتوقف المقاومة في الجادة لتسقط فوراً بيد العدو؛ حيث بإمكانه احتلال الدشم والخنادق، ولا أحد يردعه ويمنعه.

عمل شباب الموقع على إبطاء حركة العدو من خلال مقاومتهم. وكأنّ مفتاح الحرب كان في جادة «الخندق». بينما جزر مجنون - والتي كانت تمثل ضلعنا الأيسر - سقطت بيد العدو. تفصلنا مسافة كبيرة عن شباب كتيبة الإمام جعفر الصادق عليه السلام المتموضعين في «شط علي». بالأمس قام لواءنا من قوات العدو البحرية، المدربة على العمليات المائية، بإنزال في «البيضة والصخرة». أمّا على الجانب الأيمن حيث لا قوات محاربة، والغطاء النباتي قليل جداً، فقد أحرق العدو الأرض بكثافة نيرانه ليتمكّن من إدخال قواته إليها. كان علينا أن نقاتل، على طرفي الجادة - حيث الماء وحقول القصب - عدوّاً متخفياً تصعب رؤيته، عدوّاً قد تعرّف بدقّة على جميع الطرق المائية. قبل عدة أيام، أسرّ شباب لواء «الإمام الرضا عليه السلام - خراسان»، فريق استطلاع للعدو بالقرب من معبر «زيد» المائي، اعترف الضابط المسؤول عن هذا الفريق، في التحقيق الأولي، وقال: استطلعنا جميع الطرق المائية، والمعابر المخفية لجزر «مجنون»، وقمنا بإخفاء عدد

من القوارب في معابر قليلة الحركة، وهذا ما حصل حيث استهدفت هذه القوارب المخفية عدداً من شبابنا بإطلاق الرصاص والمضادات. كان قلبي هناك مع شباب الموقع؛ الذين حوصروا في جزيرة مساحتها حوالي 2000م²، كانت قذائف وصواريخ العدو تنهمر دفعة واحدة على شباب «الموقع» و«الحصن» وحتى على رؤوس الجنود العراقيين أنفسهم. وكانوا جميعهم يقاتلون دون قيادة.

حين عبرنا موقع «أردني»، كان «بهرام درود» في طريقه إلى «تشر اغتشي» لإحضار القذائف المدفعية. فرحت كثيراً برؤيته. كان يرافقه «أحمد أقليمي كيشن» و«سيد أصلان عادل نسب»، التجأ «بهرام» إلى جانبي في القناة لعدة لحظات، وتبادلنا أطراف الحديث، أتعبتة قلة الذخيرة وأعيتة! كان يريد إحضار قذائف 60 ملم و 81 ملم من «تشر اغتشي»، كذلك فقد كانت راجمة «الميني كاتوشا» في «حصن سليمان» من دون صواريخ، كان شباب الدعم قد أفرغوا ذخائرهم في جادة «الخندق»، أي على مسافة عشرة أمتار مقابل أرضٍ يسيطر عليها العدو، عرضها حوالي 50 كلم! كانت قوة نيراننا، مقارنة مع قوة نيران العدو المدفعية، كقارب يواجه حاملة طائرات. في الأيام العادية السابقة كنا نعاني من قلة الإمكانيات، فكيف والحال هكذا! كان «بهرام» شديد العطش، وقد حدثني عن مواجهات موقع «بيت الله»، كان وجهه مغبراً وأكتافه دامية. لا أعرف إن كان أصيب بشظية أدمته، أو أنه حمل شهيداً على كتفيه. قلت له:

- ألا يوجد ذخيرة في المنطقة الأمامية؟

- لقد أصابوا جيب «اللاندر كروزر» فاحترق.

- مع ذخيرته؟!
- نعم لسوء الحظ!
- بهرام! إذا جُرحتُ هنا فأقسم عليك بالعباس أن تنقلني إلى الخلف، ولا تدعني أقع أسيرًا!
- ومن أنا لأنقلك إلى الخلف؟
- توجّه مهرولاً نحو موقع «أردني»، سألته:
- بهرام! هل رأيت «بيران مستوفي»؟
- استشهد!

كان «بيران» من الذين ينبغي أن يرحلوا. قال لي المقاتل الذي رجع إلى الخلف بعد «بهرام»: ما أعرفه فقط بأنّ شباب كتيبة الرسول ﷺ قد دفنوه في الموقع عند الصّباح الباكر. قلت لنفسني: لماذا يدفن هناك؟ هل ستتحوّل جزر مجنون إلى مقبرة للشّهداء؟ فهمت بعدها أن الذين دفنوا «بيران مستوفي» كانوا قد تيقّنوا بأنّه لا مجال أبداً لإرجاع جثمانه إلى الخطوط الخلفية.

حين استرجعتُ ذكرياتنا المشتركة خنقتي العبرة، وذاب قلبي على «خديجته» في عامها الأول، و«ياسر» ذي الثلاث سنوات، و«أعظم» ذات السّت سنوات، كان «بيران مستوفي» يتولى رعاية أولاد أخيه الشهيد أيضاً. من الآن فصاعداً، فإنّ أولاده وأولاد أخيه صاروا أيتاماً كالعديد من أبناء أبطال الحرب.

أما «بهرام» الذي كان قد ذهب إلى موقع «بشتي» لإحضار الذخائر، فقد عاد تحت وابل نيران العدو، عاد وحده، فقد استشهد مرافقاه «أحمد» و«السيد أصلان» بعد أن سقطت قذيفة بالقرب منهما،

فاستشهدا معاً. عاد بهرام مجدداً لنقل الذخيرة بمساعدة اثنين من قوات التعبئة، كان مسؤولاً عن إسناد موقع «بيت الله»، وكانت مدافع الموقع تحنّ إلى القذائف. حين سأل السيد «علي محمد بزرگواري» شباب المدفعية عند الفجر: لماذا لا ترمون العدو بالـ «ميني كاتيوشيا» وبالمدافع؟

أجابوه بسخرية: ياسيد! ليس عندنا قذائف! هل نضع مكانها القصب ونرمي به العدو؟!

ركضنا مع الشباب نحو الخندق الكبير على بعد 100م أمامنا. كان «ركني» يحذّرنا وبشكل متكرّر: انتبهوا، ولا تغفلوا عن الجهة الخلفية، فالحقول وراءنا مصدر خطر كبير. كنت أعتقد أنّ عدداً من الوحدات في طريقها لمساعدتنا. لا أصدق بأننا سنبقى لوحدها. لا يمكن أن يكون هذا هو مصير جزر «مجنون». لم يستطع أحد اليوم الوصول إلينا لدعمنا، حتى كتيبنا فيلق «نجف 8»، التي كان ينبغي أن تلحق بنا، أضحت وحدات مدفعية دون قذائف، كنّا وحدنا. لا قوات مساعدة ولا دعم ميداني، لا نيران تغطية، ولا ماء، ولا طعام ... ما يقاتل اليوم هو فقط إيمان الشباب وإرادتهم. كانوا يقتصدون في استخدام السلاح والذخيرة إلى الحد الأدنى .. طلقة واحدة بدل زخات الرصاص، ورشق واحد بدل التمشيط!

على الرغم من أن السيد محسن [رضائي] قد أصدر أمره لقائد اللواء بالتراجع، إلا أن الشباب فضلوا الصمود والمواجهة بكل بسالة ورجولة، لم يكن أحد من المقاتلين مستعداً للتراجع والانسحاب⁽¹⁾، حتى

(1) بعد تعذّر الدعم، والتواصل الفعّال مع القيادة، وعدم وجود أي إمكانية انسحاب بسبب الحصار.

«محمد حسين حق جو»⁽¹⁾، الذي كان معلّمًا من منطقة «سرفارياب» في محافظة «كهكيلويه»، لديه خمس بنات، والسادسة «زهراء» ولدت بعد خمسة أشهر من شهادته!. كنت أعرفه من أيام «کردستان». في «تشر اغتشي» كان ابن منطقته «عبد الرضا ديرباز» يرحوه كي يبقى في «تشر اغتشي» ولا يتقدّم للأمام. إصرار «ديرباز» كان بسبب بناته الصغيرات. إلى ما قبل شهادته، كان «ديرباز» يسعى بشكل حثيث كي لا يتقدّم «حق جو» للأمام، لكن «حق جو» قال له: يا «عبد الرضا»! لعلك نسيت أنّ ابن عمك «كرامت الله» قد استشهد هنا في عمليات «بدر». حين التجأنا إلى القناة، قال لنا، ذلك المعلم الشجاع، «حق جو»: «أعرف لماذا لا تريدونني أن أتقدّم معكم، لا تقلقوا على بناتي، لقد أودعتهم فاطمة الزهراء (عليها السلام)».

بعض الشهداء كان لديهم وضع عائلي خاص: الشهيد «جعفر الوند نجاد» كان ابنًا وحيدًا، الشهيد «محمد حسين حق جو» لديه خمس بنات، أحد الشباب كان يتيم الأب والأم، والشهيد «أكبر آخش» كان قد تزوّج منذ عشرين يومًا فقط، الشهيد «حنيفة خليلي شاد» فقد أباه في الثانية من عمره، وفقد أمه في الرابعة، رُزق بولده الأول قبل سبعة عشر يومًا. كتبت له زوجته: «الآن وقد أصبحت أبا، فخذ مأذونية، وتعال لرؤية ابنك»، قال لها في رسالته: لن أعود، إن عدتُ إلى البيت وشاهدتُ ابني فسألتُك به، سأبقى هنا لأزور الإمام الحسين (عليه السلام)، وأنال الشهادة. «الشهيد عبد الرضا ديرباز»، كان مقررًا أن يتزوّج

(1) كان الشهيد محمد حسين حق جو ينادي بناته بأسماء خاصة، فكان يقول: عزيزتي صديقة، روح قلبي هدية، جميلتي زهراء، محبوبتي فاطمة، وصغيرتي سكينه (وهي أصغر بناته). كانت صديقة، ابنته الكبرى، تقول له: يا لبيتي صبيًا حتى أذهب معك إلى الجبهة: فما هو ذنبي حتى كنت بنتًا.

عند عودته هذه المرّة، كنت قد وعدته بأن أحضر زفافه. الشهيدان، «السيد بهمن خشاوة» و«هدايت الله ركني»، رزقا ولديهما الأولين بعد أشهر من شهادتهما، الشهيد «صَفَر علي الكامة»، قال لعائلته: «سأنهي معاملات الخدمة العسكرية في الرابع من شهر حزيران»، وأعود للمنزل في الخامس منه. وما حدث بأنّ «الكامة» أنهى معاملاته مع هذه الدنيا في الرابع من شهر حزيران، وصار من أهل السماء! وعاد في الخامس من «شهر حزيران» إلى عائلته وزوجته وأولاده البنات الثلاث، والصبيان الثلاثة أيضًا، الذين كانوا ينتظرونه كما وعدهم. عاد شهيدًا ليشيّع فوق أكتاف محبيه. ومن بين أسرى «موقع الخندق»، «محمد أفشين» الذي حين أعلن خبر فقدانه، وسمعت عمته بالخبر أصيبت بسكتة قلبية وفارقت الحياة.

كان «حق جو» يتحدّث مع الشباب حول أهمية المحافظة على جزر «مجنون».. فهي أمانة وصلّتنا بدماء الشهداء «همّت» و«باكري».. والويل لمن يقصّر من شباب «التعبئة».

حين اخترقت الشظايا جسد «حق جو» وبدأ يلفظ أنفاسه الأخيرة، قال لي ولمن كان حوله، بصوت متهدّج بالكاد يُسمع:

«إن كنتَ رجلَ هذا الدرب فينبغي التقدّم وسط الدماء
إن أنهكت الأقدام، فعلى الرأس التقدّم وسط الدماء».

حمل الشباب جثمان «حق جو» إلى داخل الخندق، كان لهذا الشهيد مظلومية خاصة. حاول بعض الشباب أن ينقلوا الجثامين في القارب الذي كان في المعبر المائي القريب، كان المعبر المائي الخلفي على بعد مئات الأمتار قد أصبح بيد العدو. في الجهة اليمنى كان معبر

«شعبان» وقاعدة الشهيد «خاكسار» قد وقعا في يد العدو أيضاً، وكذلك سقطت نقطة «الطبرسي» المواجهة لموقع «بيت الله»...
 شدة نيران العدو لا تحتمل، حين أراد «عبد العلي عليزاده» و«عبد الرحمن برهمن» أن يسحبا جثة الشهيد «فتاح عباسي» إلى داخل القناة، سقطت قذيفة بينهما فتطايرت أشلاؤهما، فكان منظر الشهداء الثلاثة معاً يدمي القلب.

كنا نهرول داخل القناة نحويّسار الجادة حين انفجرت قذيفة بالقرب منّا، فسقطنا أرضاً، لم أعرف ماذا حصل؟ استشهد اثنان أو ثلاثة من شبابنا في هذا الانفجار، ومنهم الشهيد «هومان عباسيان»، لم أعرف في البداية أنّي جُرحتُ، شعرتُ بأن القسم الأمامي من فخذي الأيسر ساخن ورطب، كانت شظية قد اخترقته، وصهرت بعض لحمي، كان نزيف الدّم شديداً جداً. ربط «صفر علي كردلو» رجلي بكوفيته. على الرغم من اللحم المصهور والجراح، إلا أنني لم أتوقف عن المشي.

كانت الشظية قد حفرت مقدار كف يدٍ في رجلي. والتي لم أكن أشعر بها بسبب قطع الأعصاب. كنت لا أزال قادراً على الحركة.
 اشتبك الشباب مع العدو في نقاط متعددة من خنادق الجادة، أصابت شظية يد «عبد الرضا ديرباز»، فلم يعد قادراً على حمل رشاشه «الغرينوف»، فتبادلنا الأسلحة وأعطيته «الكلاشنكوف».

كان «هدايت الله» يركض يُمَنَّةً وَيُسْرَةً، مركّزاً نظره على الجادة، تقدّم العراقيون كثيراً، ولم يكن يفصلنا عنهم سوى شريط القصب. كلما استشهد أحد الشباب كان «هدايت الله» يبث الروح في بقية رفاقه،

وهو نفسه أصيب بشظية في كتفه، وكانت بذلته ملطخة بالدماء. كلما قلَّ عددُنا كانت الأمور تشتدُّ وتصعب أكثر فأكثر. لم يكن أحدٌ في الخلف قادراً على مساعدتنا.

احتل العراقيون «تسراغتشى» للمرة الثانية، وبقدرات أكبر هذه المرة، كان عددنا قليلاً جداً في مواجهة العدو، كنّا بمثابة كتيبة تقاقل فيلقاً كاملاً.

قال «هدايت الله» للشباب الذين يواجهون العدو «بأسنانهم وأظافره» لمنعه من التقدم: «لا تنتظروا الأوامر من أحد، كل واحد منكم قائدٌ نفسه، قاتلوا بأحسن ما تقدرون، المهم أن لا تسقط هذه الجادة!».

كان السيد «محمد علي غلامى»، وهو طالب علوم دينية، يرمي «الآربى جى»، وكذلك يقوم بواجبه الديني كطالب علم، كان من قرية «بيدك» من قضاء «باشت»، جاء إلى الجبهة برفقة حوالي 15 طالباً من الحوزة العلمية المنصورية في شيراز.

وسط احتدام المعارك والمواجهات كان يرتجز بحماس وعنفوان: «أيها الشباب.. سرّ القتال في الإيمان والإرادة، وليس في هذه القطعة الحديدية التي بأيدينا!» كان صوته جذّاباً ومؤثراً جداً، حين صدح عالياً:

«والله إن قطعتم يميني إنّي أحامي أبداً عن ديني»
مردداً الشعر المنسوب لأبي الفضل العباس (عليه السلام). أعادنا جميعاً إلى أرض كربلاء وأحداثها.

كان اسم «هدايت الله» يذكرني بأخي الشهيد «السيد هدايت الله».

قال لنا: «لن يرجع أحد منا حياً. الجزيرة الجنوبية وجادة سيد الشهداء في يد الأعداء، نحن محاصرون، فإمّا أن نستشهد، وإمّا أن نقع أسرى.

فإن كان هذا هو مصيرنا المحتوم، فلا ترحموا العدو، وانتقموا منه لدماء شبابنا الشهداء، لا تطلقوا أية رصاصة هدراً، صحيح أننا اليوم لوحيدنا، ولكن الله معنا».

كانت الساعة حوالي العاشرة والنصف. كان هدايت الله يرمي «الآربي جي» على القوارب العراقية حين أصابته شظية معادية، كان «صفر علي كردلو» لا يزال حياً. حين جُرحت منذ ساعة قام هو بتضميد جراحي، لم يكن ممكناً نقل أي شهيد أو جريح إلى الخلف. لا توجد أية قوّات دعم على الجادة؛ وحتّى إن وجد مسعف، فلا شك بأنه سيفضّل رمي وسائل الإسعاف جانباً وأخذ السلاح من الشهداء لمواجهة العدو.

كان قلبي يحترق من أجل «صفر علي كردلو»، صديقي، وابن بلدي، فقد كانت جراحاته كثيرة، ولم أدر ماذا يمكنني أن أفعل له، لا يزال يتنفس، سحبناه إلى داخل القناة، كان مجرد التفكير بأن العراقيين إمّا سيأخذونه أسيراً على هذه الحال، أو أنهم سيطلقونه عليه رصاصة الخلاص، يعضّ بني. قلت لنفسي: إن أسره الأعداء سيقتلونه فوراً، كانت الدماء تسيل من صدره ومعدته، حين حاولت تضميد جراحه، قال بصوت خافت: «فيطلق عليّ أحد رصاصة الخلاص، لا أريد أن يأسرنى العدو، لا تتأخروا بسببي!» لم يطلب نقله إلى الخط الخلفي، فهو يعلم أنه لا مجال لذلك.

مرّت في بالي، ذكرياتنا المشتركة في شتاء السنة الماضية، حين تراققنا معاً في مسير مشترك: «قاعدة الشهيد غلامي»، محطة سفر «تشهاشير»، وجبة طعام خفيفة، ومتابعة الرحلة إلى «كجساران». والآن لا أملك سوى النظر إلى جسده الدامي المرمي إلى جانب الجادة، أنظر وأتجرّع الغصص والألم..

حاول «صفر نيكدارشد»، وهو أحد شباب «كتيبة الشهداء الخاصة»، أن ينقله إلى الخلف، لكنه لم يتمكّن. أطلق نار رشاشه «الغرينوف» ليغطّي الجادة، فيما كان عدد من الشباب يحاولون التحرك، بقينا في أمان من جهة معبري «خين» و«شعبان» المائيين إلى أن استشهد هؤلاء الشباب وجرح «صفر نيكدارشد». لقد كان من القلائل الذين بقوا وعادوا أحياء بعد معركة «جادة الخندق».

أغلب رفاقي كانوا قد استشهدوا. من بقي منهم قاتلٌ وفق ما شخّصه وحدّده. كانت نفسي تحدّثني «أنّ التراجع خيانة». كنت أعلم أنّه، وبهذا العدد القليل، لا يمكن أن نمنع العراقيين من احتلال الجادة. كان كلّ واحدٍ من الشباب يجهد للقيام بتكليفه، كانوا يفضلون اليوم الصمود بشهامة، والقتال ببسالة حتى الرmq الأخير، ولا يشهدوا سقوط الجزيرة بيد الأعداء. هذه الجزيرة التي كانت، من خلال استحضرار روح الشهداء، وبطولة الشباب في «عمليات بدر وخيبر»، تدعو الإنسان للصمود فيها، إن تراجعتُ إلى الخلف فأين أختبئ من الشعور بالذنب؟ أسرعْتُ إلى خندقٍ يبعد عنّا حوالي المئة متر لإحضار بعض الذخائر والأسلحة، جلست بالقرب من «صفر علي»، الذي كان قد استشهد، كم كان هادئاً وساكناً، وكأنّه قد غطّ في سباتٍ عميق، لن

يستفيق منه إلا بعد ساعات وساعات، سحبْتُ مشطُ رصاص «رشاشه» لكي أستخدمه، ورميت الرشاش في مياه الجزيرة [حتى لا يستفيد العدو منه لاحقاً].

كان الأخوة يشتبكون مع العراقيين في نقاط متفرقة من الجادة، كنّا نرصد حركة العدو من بين حقول القصب، كانت قواربهم تعبر من الجهة الجنوبية، وتحاول الوصول الى المعابر الخلفية كي تحاصرنا وتضعنا بين «فكي كماشة»؛ لتنتهي مقاومتنا. أصاب شباب «الآربي جي» ثلاثة قوارب معادية، فيما تمكّنت قوارب أخرى من إنزال قوات مشاة خلفنا، لم يكن شبابنا مستعدّين للسباحة والتراجع للخلف.

أحد الشباب الذي عرفْتُ فيما بعد أنّ اسمه «محمد إسلام بناء»، أصبح وجهه وصدره كالغربال من شظايا القذيفة التي أصابته، كانت عظام يده وكتفه مهشّمة، ولم يكن يقوى على الكلام من شدّة الضعف والعطش، كان يجود بنفسه، حين ضمّدنا جراحه، قال: «أرواحنا، فداء شجرة من شعر الإمام»⁽¹⁾، وظلّ يتمتم، ويردّد آيات من القرآن حتى فارق الحياة.

إنّها حوالى الساعة الحادية عشرة، والمسافة التي تفصلنا عن موقع «بيت الله» لا تتجاوز 200م، اشتدّت الاشتباكات؛ كان عدد من الشباب من خلفنا يلتحمون مع العراقيين بالسلاح الأبيض، لم يتراجع العدو عن قراره باحتلال الجادة، إلّا أنّ مساعيه لمحاصرة موقع «بيت الله» باءت بالفشل. إذا تمكّنوا منّا، فسيُقتضى على سرّيّة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام مباشرة، كنّا نعلم أن مقاومتنا محدودة

(1) عندما ترد كلمة الإمام في الكتاب دون ذكر إسم آخر فمقصودهم الإمام الخميني. (نون)

جدّاً، وسط هذه الحرب غير المتكافئة، وبدأ الأمل بإنقاذ شباب موقع «الخندق» يخبو ويضمحل.

فضّلنا أن نترك قسماً من الجادة ونقترب من بعضنا أكثر فأكثر؛ لأنّ عددنا قليل، فكان علينا أن نقاوم معاً على شكل مجموعتين إحداهما قريبة من الأخرى. كنّا المجموعة الأمامية، كان العراقيون يمشطون الجادة بالرشاشات بدقة، كانت القناة المائية المحاذية للجادة هي ملاذنا الوحيد، لم نعد نشكّ بأنّه قُضي الأمر، وانتهت قصتنا.

كان علينا الاختيار بين الشهادة والأسر، كان لديّ شعور سيّئ تجاه الأسر، لطالما كنت أتمنّى أن لا أقع في الأسر.

لم يبقَ من الثمانين مقاتلاً إلا عشرة أو اثني عشر على قيد الحياة... «سالار شفيعي نجاد»، «محمد علي غلامي»، «غلام قاسم زاده»، «جمشيد كرم زاده» وعدد قليل من التبعويين الذين لم أكن أعرفهم. وقف ثلاثة أو أربعة من الشباب أمامنا في دشمة للرماية على مسافة 100 م لمنع العدو من التقدّم، ذلك الخندق الذي بقي صامداً كالقلعة، كان يحلو لهم الثبات والصمود في ذلك الخندق.

كان ذلك الخندق مصمّماً كي يشرف على معبر «خين» المائي على جهة اليسار، والذي كان يشهد أكبر حركة لقوارب العدو حينها.

ولكي يتمكّن الشباب من الإشراف على الجهة الأخرى للمعبر المائي، قاموا بحني القصب وإمالته وتثبيته بالأرض، واتخذوا منه ساتراً، فصار بالإمكان الرمي على الجهتين. قام العدو بقنص ثلاثة من شباب الخندق، وكان بينهم «خدا خواست جبّاري» صديق «سالار شفيع نجاد».

لم أكن لأصدّق سقوط «جادة الخندق»، كنت أشعر بأنّ أرواح شهداء عمليّات «بدر» و«خبير» شاهدة على مقاومة اليوم. لم أستطع أن أقتع نفسي بتقبّل سقوط جادة الخندق، وكان التفكير بمصير جزيرة «مجنون» مؤلماً جداً بالنسبة إليّ. أكثر ما كان يشغل بال الشباب هو القيام بالتكليف، جلسنا للحظة لنرى ما العمل في اللحظات الأخيرة؟ اجتمع رأي الشباب على الصمود، تعاهدنا أن نقاوم حتى الرصاصة الأخيرة، حتّى لو لم يكن لمقاومتنا تأثير في المحافظة على «جادة الخندق».

لماذا لم تصل أية قوات لدعمنا؟ لماذا بقيت جثامين الشهداء في يد العدو؟ وغيرها الكثير من الأسئلة، كانت تزدهم في رأسي، وتشغل ذهني دون جواب.

كانت الساعة حوالي الحادية عشرة والنصف، ذخائرنا تكاد تنفد، العدو يسيطر على الخط من «تشر اغتشي» حتى «مثلث المحور»، كانت زخّات الرصاص تنهمر من الخلف ومن الأمام، وكذلك من داخل حقول القصب المحاذية للجادة، لم يكن هناك تواصل مع أحد، فقط كان «عامل الإشارة» يتصل بالمركز لحظة بلحظة، كان القادة يشجعوننا ويكرّرون عبر اللاسلكي «أحداث عاشوراء وما جرى في كربلاء»، كانوا محرجين ومتألّمين كونهم لا يقدرّون على مساعدتنا، كان عامل الإشارة ينقل لنا نداءهم: «قاوموا ساعة أو ساعتين كي نتمكّن من تطهير الجادة والوصول إليكم».

في الخلف، كان مقرّراً أن تقوم وحدة الهندسة بمسح جادة «حنظلة» وقطعها تلك الجادة الممتدة من ميدان الإمام الرضا عليه السلام حتى

«شط علي»، ومنطقة «الهور العظيم»، كي لا يتمكّن العدو. إن استطاع احتلال «جادة الخندق» - من الوصول إلى الطريق المؤدية إلى منطقة «الهور العظيم». هذا العمل مشابه لما قام به شباب «التخريب» قبل عدة ليالٍ، خلف موقع الخندق؛ حيث استخدموا مقدار طنٍّ من المواد المتفجرة لإيجاد مساحة فاصلة بين «موقع الخندق» و«موقع بيت الله» بطول 200م، ثم انسياب المياه داخل هذه القناة وتدفعه من «شط علي» باتجاه «جزيرة مجنون». هذا القطع أدّى عملياً إلى محاصرة «موقع الخندق» وفصله عمّا حوله فأصبح من غير الممكن الدخول إليه، ولا الخروج منه.

لم تبقَ أية قذيفة لدى وحدة المدفعية كي توفرّ غطاءً نارياً للشباب. أفرغ شباب المدفعية حمم نيرانهم، وبعض الذخائر التي كانت لدى - بعض فرق الفيلق السادس في الحرس - المستقرّ في الموقع الأول في الضلع الغربي للجزيرة الشمالية-، على مواقع العدو. علمت فيما بعد، بأنّ الشباب قاموا وبعد نفاد الذخائر، بإتلاف الأسلحة والمدافع كي لا تقع في يد العدو⁽¹⁾.

كانت أوامر القادة في الحرب تقضي بإتلاف الأجهزة والأسلحة والذخائر في حال عدم التمكن من سحبها إلى الخلف. في ذلك اليوم تمّ تفجير العديد من التجهيزات والأسلحة كي لا تصبح غنائم للعدو.

(1) سمعت فيما بعد أنّ «حسن وكيلي» و«محمد دكام» قاما بإحراق دبابتهما بالبنزين عندما علقت في مستنقع قرب الجادة. وكذلك فجر «نعمت الله نظري»، مسؤول الدفاع الجوي في اللواء الأول، مدفع «المضاد 57 ملم» بقذيفة «آر بي جي». وكذلك ألقى الشباب مدفع 23 كوري، كان متموضعا في الجهة اليمنى لبرج المدفعية، في مياه الجزيرة كي لا يقع في يد العدو، وذلك في اللحظات الأخيرة قبل سقوط الجادة.

استشهد عامل الإشارة في اللحظات الأخيرة، لم يعد هناك أيّة فرصة للتواصل مع المركز (المقر الخلفي)، وعلى كلّ حال، فإنّ هذا التواصل لم يكن مجدّياً.

بقي كلّ منا، يقاتل لوحده وبقدراته الذاتيّة، سقطت أجساد الشهداء الطاهرة أرضاً بين ذرّات التراب المتناثر، والدخان الذي أصبح يخفّ شيئاً فشيئاً. وصل العدو، وبذلك فصل بيننا وبين سرية الإمام الحسن المجتبي عليه السلام.

جرح السيّد «محمد علي غلامي»، وتلقّى «غلام قاسم زاده» رصاصة من الجهة اليمنى للجادة واستشهد، اشتدّ نزف «السيّد محمد علي»، وحين سقط على الأرض حاول أن يسحب نفسه نحو القناة المحاذية للجادة.

كان صوت تمشيّط الرشاشات يُسمع من كل الجهات، كانت الدماء تغطّي وجه السيّد «محمد علي» ورأسه، زحف بصعوبة بالغة، كانت شظيّة قد أصابت خدّه الأيسر فأدّمت وجهه وعينه، كان يقرأ القرآن. في سنوات الحرب، قلّما رأيت شهيداً في لحظاته الأخيرة يفارق الحياة دون ذكر الأئمة عليهم السلام، لم أعرف ما الذي يمكنني أن أفعله للسيّد «محمد علي»، كانت أنفاسه مقطوعة من العطش، لم يتمدّد، قلت له:

- «يا سيّد، تمدّد، نزيف دمك غزير!».

- لا بأس هكذا أرتاح أكثر.

- نزيف دمك يشتدّ أكثر فأكثر.

- الجلوس أفضل.

- تمدد، لعلني أجد شيئاً أضمد جراحك به.
 - لا أريد شيئاً. ضع حقيبة الرأس تلك خلف ظهري.
 لم يكن يريد التمدد، على الرغم من نزيف صدره ورأسه.
 كانت أصوات العراقيين مسموعة، لم أستطع أن أفارقه.
 لم يسمح لي بأن أمزق قميصه، كي أضمد جراحه، كنت أهدق في وجهه حين قال بهدوء عجيب: «السلام عليك يا أبا عبد الله الحسين، وعلى الأرواح التي حلت بفنائك، عليك مني سلام الله أبداً ما بقيت وبقي الليل والنهار، ولا جعله الله آخر العهد مني لزيارتكم، السلام على الحسين، وعلى علي بن الحسين، وعلى أولاد الحسين، وعلى أصحاب الحسين».

جرت الدموع والدماء من عينيه، وضع كلتا يديه وراء رأسه متكئاً عليهما، لم أعرف لماذا يصّر على الجلوس، لعل طالب العلم وصاحب القلب الطاهر هذا أراد أن يراعي الأدب ويحفظ الحرمة أثناء سلامه على الإمام الحسين عليه السلام.

كان واضحاً من لون وجهه وملامحه بأنه لن يبقى حياً. لا أنسى أبداً دعاءه الأخير: «اللهم ارزقني شفاعته الحسين يوم الورود».

في اللحظات الأخيرة، أحضرت له ماءً بخوذة معدنية، فلم يشرب، لم يكن مستعداً حتى لبل شفاهه بالماء، لا أعلم، أظن أنه كان يريد أن يستشهد عطشاً، وهذا ما حصل، استشهد السيد عطشاً.

كانت أصوات العراقيين تصل الى مسامعنا، كانوا يهللون فرحين؛ فقد تقدموا من جهة اليسار في جُزر «مجنون» الشماليّة والجنوبيّة، ومن الخلف، وعلى امتداد «جادة الخندق».

كانت شمس الصيف المحرقة تَسْطَع على أجساد الشهداء، وكانت الحرارة تفتك بنا.

كان جسد أحد الشهداء معلقاً في القصب، فيما نصفه الأسفل داخل الماء؛ فقد حاول حتى لحظاته الأخيرة أن يمسك بالقصب، كي لا يغرق، سحبناه خارج الماء ووضعناه قرب «الشَّهيد غلامي». حاول العدو الاقتراب أكثر، لم تعد تُسمع أصوات رصاص شباب موقع «بيت الله»، ولكن أصواتاً أخرى من جهة موقع «الخنق» كانت لا تزال تقاوم وتؤخر حركة العدو. كان العراقيون في كل لحظة يقتربون منّا أكثر فأكثر، لم يعد يفصلنا عن العدو إلا 30 متراً أو أقل. كان اثنان منهم يحملان العلم العراقي، ويتحرّكان أمام البقيّة، كانت بعض الأعلام العراقيّة قد نُصبت في أنحاء مختلفة، مرتفعة نسبياً عن الجادة.

كُنّا ستّة، أنا، و«سالار شفيعي نجاد»، و«جمشيد كرم زادة»، وثلاثة تعبويين آخرين. نظرت إلى ساعتَي فكانت تقترب من الثانية عشر إلّا ربّما، لم يكن هناك من أثر لأية قوات إلى يمين الجادة، كانت الأسلحة والرشاشات ملقاة على جانبي الطريق، وكان عددها بعدد أجساد الشهداء خالية من الرصاص والأمشاط. قمنا بجمع رشاشات الكلاشينكوف، والغرينوف، وقواذف الآر بي جي، والكثير منها دون أمشاط، ولا رصاص، ولا قذائف... ورميناها في مياه الجزيرة. كان طول «شرشور» غرينوف أحد الشهداء على يمين الجادة حوالي المتر. لم يجرؤ العراقيون على الاقتراب من الخندق، لم يبق أماننا سوى الاختيار: إمّا أن نقف مكتوفي الأيدي بانتظار أن يتقدّم العراقيون

ويأسروننا، وإمّا أن نقف على جانبي الجادة ونقاوم بهذا المقدار القليل المتبقي من رصاص وذخائر، وإمّا أن نرمي بأنفسنا داخل الماء ونجرب حظنا بالبقاء أحياء. بعد احتلال جزيرة مجنون لا يبقى قيمة لحياتنا. كيف نقوى على الرجوع؟ كل هؤلاء الشهداء كان بإمكانهم الرجوع والعيش بهناء.

كان العدو يتحىّن الفرصة من جهة القناة المقابلة لاحتلال خندقنا. في الجانب الأيمن للجادة، كان يمكن إطلاق النار على العراقيين المتقدمين من القناة المواجهة بشكل أسهل، أفرغ «سالار» آخر طلقاته، بينما اشتبك التعبويون الثلاثة مع العدو على بعد 200م إلى الخلف، كان «خدا رحم رضوي» أحدهم، لم يكن باستطاعتنا استخدام خندق الرماية، فقناصو العدو صبّوا سيل رصاصهم على الخندق، كانت قدرة المناورة لجهة اليمين أكبر. قلت لـ«سالار»:

- سأقفز الى يمين الجادة، انتبه كي لا يصيبونني من داخل القناة.
- يمكنهم النيل منك وسط الجادة.

- لا تتحرّك من الخندق، أطلق رصاصك بين «الخندق» و«القصب»،

وانتبه من القناصة!

زحفت عدة أمتار كي أصل إلى يمين الجادة، كنت أريد أن أصل إلى رشاش «غرينوف» وأتمرس هناك.

كان العدو يطلق ناره من جانب القصب والقناة على كل كائن متحرّك.

حين وصلت الى وسط الجادة نهضت متّجهًا صوب الـ«غرينوف» على بعد حوالي عشرة أمتار. كنت أهرول مسرعًا حين أطلقت النار

عليّ، فيما كان «سالار» يرمي العراقيين داخل القناة، أحسست فجأة أنني صرت أقصر قامة في الجهة اليمنى من جسدي، وقعتُ على الأرض، نظرت؛ لأرى ما الذي حلّ بي، فكانت الصدمة: عظام ساقي اليمنى قد تهشّمت، أصابت رصاصة أعلى رسغ قدمي اليمنى، كان مفصل القدم سالمًا وكذلك مشطها. لكن لحم الساق قد تقطّع إربًا إربًا. حوالي الثمانية سنتيمترات من العظام في أعلى المفصل قد تلاشت بالكامل. كان كعبُ قدمي معلقًا بالقليل من الجلد والأعصاب. بسبب تهشّم العظم، كانت قدمي تميل مرخيةً، ونزيف دمها لا يتوقّف. أظنّ أنّ العراقيين قد تصوّروا أنني قتلت حين سقطت أرضًا؛ لذلك لم يتابعوا الرمي بغزارة نحوي، زحفتُ ببطء ساحبًا جسدي نحو القناة على يسار الجادة.

حين شاهد سالار إصابتي، قام بمساعدتي، لم أصدّق بأن أفقد قدمي في هكذا ظروف، فالآن أحتاج لقدمي أكثر من أي وقت مضى. عندما أصيبت قدمي فآرّ الدّم منها كالشلال، فامتلاً حذائي العسكري دمًا، لم أكن أعلم ما ينبغي فعله، تداخلت أفكار وتشابكت، وراحت في كلّ اتجاه، صرْتُ أفكّر بأبي، وإخوتي، وأخواتي ورفاقي، وجعيتي، وكاميرتي، ودرّاجتي الهوائية.

لم أكن أرغب مطلقاً أن أقع بيد الأعداء وأنا مقطوع القدم على هذه الحال، لم يكن هناك سبيل للنجاة من هذا الوضع، صرت أفكّر: «لحظات قليلة ويأتي العراقيون ويخلّصونني من كل هذا، بطلقة واحدة، لم تَرُقْ لي الشهادة بهذه الطريقة، فإن كان لي نصيب الشهادة، فلتكن بالقرب من الرفاق أثناء المقاومة».

كان قلبي يغلي ويفور، كان «سالار» قلقاً عليّ، فلا رصاص لديه ليطلقه، ولا قدرة لي على الحركة. قال لي:

- «ماذا أفعل لك؟ لا يمكنني سحبك إلى الخلف».
- «أعرف أنّه لا يمكنك أن تفعل لي شيئاً، فقد سيطر العراقيون على كل المنطقة».
- «لا يمكنني أن أتركك هكذا وأمضي».
- «سيصل العراقيون، وإن لم تذهب فستقع في الأسر».
- «أنت على هذه الحال، لا رصاص لديك، لا سلاح، ماذا سيحل بك؟

- «لا رصاص لديّ لكنّ جدّي موجود».

- «ضميري لا يسمح لي بتركك».

كنت أسمع أصوات العراقيين وراء الخندق، وهم يُنشدون معاً ويهتفون لصدام: «بالروح بالدم نفديك يا صدام».

أدركتُ موقف «سالار» وقلّقه، كان مستعداً للمخاطرة بروحه لأجلي، في تلك اللحظة بين الموت والحياة، أخذ رأسي وضعه على صدره وبكى.

استمرّ النزيف في قدمي، وسالت دماء كثيرة، واعتقدت أنني مفارق الحياة، وأصوات العراقيين المسرورين تزداد وتقترب، لم يكن لديهم الجرأة على الاقتراب أكثر، مع أنّ الشباب قد استشهدوا جميعاً، لعلّ العدو كان يظنّ أننا نصبنا له كميناً خلف «خندق الرمي».

نهض «سالار» واقترب مراتٍ من الخندق وأطلّ من بين القصب وقال لي: «اقتربوا كثيراً، لقد أحاطوا بالخندق».

لم أكن أرغب في أن يتأذى «سالار» بسببي، أردتُ أن يرحل بسرعة، حين جلس بجانبني قلت له:

- «لا تبقَ هنا. أقسم عليك بحق جدِّي أن ترحل بسرعة».

أغرق العراقيون الخندق بوابل رمياتهم، كانت القنابل اليدوية تتفجر خلف الخندق.

في الدقائق الأولى لإصابتي كان ألمي خفيفاً، حين أصابتنى الشظية في البداية لم أشعر بشيء، بدأ الألم يشتد تدريجياً، إلى أن وصل إلى عظامي بعد حوالي الربع ساعة، عدتُ أصرُّ على «سالار» أن يذهب. كان هو نفسه يعلم بأن لا سبيل له سوى الرحيل، وأنا كنت أعلم أن الأسر ينتظرنني. كان «سالار» يعرف ما الذي أريد أن أفعله، كان يصلنا صوت القائد الذي كان يتكلَّم عبر اللاسلكي من بعيد، ولا أحد يُجيبه، كان صوت «ربّاني» قائد «كتيبة الشهداء الخاصة»، تلك الكتيبة التي عملتُ فيها «دليلاً» في يوم من الأيام، كان جهاز اللاسلكي الخاص بالكتيبة مرمياً على بعد خمسة أمتار مني، كانت كلمات «ربّاني» تتردّد في ذهني:

- «تكلّم يا قاسم، ماذا حصل في الجادة؟ قاسم، قاسم طالب! تكلّم يا عزيزي قاسم، قل لي ماذا حدث؟ أنتم الآن في أية نقطة على الجادة؟ قاسم، قاسم قاسم، طالب قاسم هل تسمعني؟ ثم قال بصوت حزين: «هل يعني هذا، أنهم قد استشهدوا جميعاً؟ ... هل من أحد يسمعني؟ يا ويلنا بقينا أحياء! هل نعود لنقول: الجميع استشهدوا، ونحن بقينا أحياء... قاسم».

سمعت صوت بكائه في اللحظات الأخيرة قبل أن ينقطع الاتصال،

كان ذلك الصوت الوحيد الذي سمعته من الخط الخلفي [مركز القيادة]. كم تمنيتُ أن أزحفَ بما تبقى لي من قوّة وأجيبه عبر اللاسلكي، وأحدثه بما وقع اليوم في جادة الخندق، أقول له كيف صمَدَ الشباب اليوم وحاربوا برجولة، واستشهدوا في طريق الحسين، كم تمنيتُ ومن كل قلبي، أن أروي له كيف استشهد كل واحد من الشباب⁽¹⁾. كان «سالار» يعرف أن لا خيار لي سوى انتظار العراقيين، إنها لحظة قاسية، أن يبقى الإنسان جالساً منتظراً عدوّه. كان يتملّكني شعور «الفراشة التي وقعت في شباك العنكبوت وتنتظر أن يأتي ليلتهمها». مشى «سالار» نحو القصب ليقفز في مياه المعبر، حين كان يزيح القصب بيديه ليعبر، عاد والتفت إليّ، نظر والتردد يملأ كيانه: أذهب أم يبقى؟ بقاؤه كان يثيرني ويؤذيني أكثر، كان صعباً عليه أن يتركني ويرحل، حين رمى بنفسه في الماء تنفّست الصعداء⁽²⁾. لم أكن لوحدي؛ بل كان الشهداء بالقرب منّي، لم تسنح الفرصة لنقلهم إلى الخطوط الخلفية، لا أدري كيف منحني بقائي بالقرب من الشهداء كل هذا الشعور بالطمأنينة. قلت في نفسي، سنقع معاً في الأسر، أنا والشهداء، لا أعرف إن كانت هذه الفكرة قد جاءتني كوني وحيداً، أو من كرهى للأسر، أو من استنكاري لحالتي: لم ينبغي أن أقع أسيراً من بين كلّ هؤلاء الشباب؟! كانت الأفكار العجيبة تأخذني يمنة ويسرة. اشتدّ ألم قدمي كثيراً،

(1) بعد ما تحرّرت من الأسر، عرفت أنّه كان «محمد كريم ربّاني» قائد «كتيبة الشهداء الخاصة».
(2) حين تحرّرت من الأسر كنت أظن «سالار شفيع نجاد» لا يزال حيّاً، تقصّيت أخباره فعرفت من «محمود داريام» - الذي كان من بلده - أنّه استشهد في جادة «الخندق».

أردت أن أُخرج قدمي من الحذاء العسكريّ، فلم أستطع، كان كعب قدمي عالقاً في الحذاء ومعلقاً بالجلد دون العظم المهشّم، كان الحذاء يُثقل قدمي إلى درجة أحسستُ معها بأنّي أختنق ولا أستطيع أن آخذ نفساً واحداً، كان الحذاء مليئاً بالدماء، وكانت العظام تَظهرُ من فوقه مهشّمةً. يجب أن أُنقذ نفسي لتستوعب بأنّي واقعٌ في الأسر لا محالة، حاولتُ في تلك اللحظة أن أقطع كل ارتباطٍ لي بهذه الدنيا، كان صعباً أن أتوقّف عن التفكير بالعائلة والمتعلّقات الأخرى، وكأنني كنتُ من الذين لم يستعدّوا حتى ذلك الحين للشهادة، كانت علاقاتي وتعلّقاتي تستعرض نفسها أمامي. كلّ ما أملك في هذه الدنيا «دراجه هوائية 28». تذكّرتُ حين رجعت في إحدى المرّات من الجبهة، بعد أشهر من الخدمة، أيّاماً جميلة كنتُ قد قضيتها مع أخي «السيد شجاع الدين»، وكان معه درّاجة 26.

كانت كاميرتي والعديد من الصور التي التقطتها البارحة، لا زالت في الخندق. هذا الخندق الذي سقط الآن بيد العراقيين. كان عليّ، ولكي أستطيع تسليم الروح بشكل سهل، أن أقطع كل تعلّقاتي، بأبي، بعائلتي، بنفسي، بدرّاجتي، بصوري، برفاق الدراسة، بحيّنا، وشارعنا، بملعب كرة القدم الترابي، ببستان الرّمّان، وبـ«حسن» أعزّ أصدقائي. لقّنت نفسي أنّني لن أرى عائلتي ورفاق الجبهة والدراسة مجدّداً.

كانت معلوماتي حول حِقْدِ العدو على شباب الحرس والتعبئة توحى لي بأنّ الجنود العراقيين سيطلقون عليّ رصاصاً الخلاص بمجرد رؤيتي، كأنّ صوتاً من داخلي كان يردّد هذا الكلام، تيقّنت أنهم لا شكّ سيقتلونني، هذا اليقين خفّف من العبء الذي كان يُثقل قلبي؛ لأنّ قتلاً

كهذا يليق بأسيرٍ تعبويٍّ جريح، وأنه هكذا ينبغي أن أُقتل، فهذا قدرى. بهذه الأفكار أصبحتُ على استعداد لمفارقة الحياة.

كنت أنظر إلى الخندق، وإلى الجادة، وأنتظر وصولهم، أمسكتُ كعب قدمي الجريحة بيدي اليمنى، فيما اعتمدت على يدي اليسرى؛ كي أستلقي على الأرض، وأبدأ بالزحف داخل القناة، نحو الخندق الصغير الذي يفصلني عنه حوالي 15 مترًا.

كانت يدي مضرّجةً بالدم المتخثّر، وكذلك كانت بذلتي العسكرية معفّرة بالدم والتراب، لدرجة تلوّنت معها بلون داكن، وأصبحتُ كالخشب اليابس. أردتُ أن أقوم بعمل ما، ولوفي لحظاتي الأخيرة، سحبتُ نفسي زحفًا لأمتار وأمتار، محاولاً الوصول إلى رشّاش الكلاشنكوف الوحيد المرمي على الأرض، والخالي من الرصاص، قرب جسد أحد الشهداء، لأرميه داخل المعبر المائي كي لا يغنمه العدو. أرهقني الألم الشديد وزاد الانتظار من عذابي، كلّ حركة مني، كانت تُضاعفُ وجعي؛ حيث كان عظمُ ساقَي الكسير ينغرس في اللحم كسكين حادّ داخل جرحي. استبدّ بي العطش ويَبست شفّتي؛ فالحرارة شديدة لدرجة تكاد تسلخ معها ظاهر الأرض عن باطنها، كنتُ بالكاد أستطيع جمع لُعابي (ريقي)، فلا يصل منه شيئاً للساني الجاف. لم أعد أقوى على تحريك قدمي لشدة الألم؛ فكلّ حركة بسيطة كانت تضاعف الوجع لدرجة أكاد أغيب عن الوعي متمنيًا الموت.. حتى الآن لا أثر لجنود العدو.

جمعت كل الوثائق والبطاقات والصّور التي كانت معي، وفي اللحظات الأخيرة، حفرت التراب إلى جانبي ودفنت فيه: بطاقة هويتي،

بطاقة دورة التدريب، بطاقة إنهاء دورة تخصّصية في المتفجّرات والصادرة عن مقرّ النّجف الأشرف في كرمانشاه، صور أبي وإخوتي الثلاثة معي: «السيد هدايت الله، والسيد نصرت الله، والسيد قدرت الله، وكذلك صور السيد هدايت الله، والسيد نصرت الله باللباس العسكريّ للحرس الثوري، وسبعمائة وخمسون تومناً، ثمّ رميت «البلاك»⁽¹⁾ في مكان قريب، حتى إذا قتلني العراقيّون الآن، فسيُعرف مكان شهادتي في يوم من الأيام».

دفعتنى شدّة العطش إلى محاولة الشّرب من المعبر المائيّ القريب، لم أعد أستطيع تحمّل العطش، فلو وُضع الألم في كفة ميزان، والعطش في الكفة الأخرى لتساويا. لم يكن ماء المعبر صالحاً للشّرب. مستوى الماء كان منخفضاً عن الجادّة حوالي المترين، تحمّلت الألم وزحفت نحو القصب والماء، ساحباً قدمي المعلّقة بساقي، أخذتُ خُوذة معدنيّة لأحد الشهداء من داخل حقل القصب، لكن يدي لم تصل إلى ماء الجزيرة، حاولت أن أنزل الخُوذة؛ لأخذ غرفة ماء، لم أستطع، فلو تقدّمت أكثر لوقعت في الماء وغرقت. تسبّب الضعف الشديد بأن تقع الخُوذة من يدي، وتعموم بعيداً في مياه الجزيرة.

تمكنت بصعوبة باللغة من الاستدارة والعودة، انفجرت عدّة قنابل يدويّة بالقرب منّي، كان العراقيّون على بعد أمتارٍ من الخندق، كانت الساعة الثانية عشرة والنصف، عيناى ترصدان الطريق أمامي، لا أعلم متى يصلُ العراقيّون إلّي. جلستُ خلف مستديرة «تشرأغتشى»

(1) قطعة معدنية يحملها المجاهد وتتضمّن رقمًا متسلسلاً يُعرّف عن هوية صاحبه لدى الجهة العسكرية التي ينتمي إليها.

مقابل موقع «بيت الله»، وضعت يديّ خلفي على الأرض كي أستند عليهما.

كانت عينايا مركّزتان على حافة الخندق، حين ظهر فجأة ثلاثة أو أربعة جنود عراقيين، صعدوا إلى أعلى الخندق، أدركت من نظراتهم أنهم خائفون من مفاجأة تظهر عليهم من خندقنا، رموا عدة قنابل يدويّة على بعد حوالي عشرة أمتار منّي. أصابت شظية إحدى القنابل يدي اليمنى، رأني أحدهم فصوّب رشاشه عليّ صارخاً:

- «لا تتحرّك»

تابع وأنا أنظر إليه:

- «ارفع يديك»

رفعت يديّ، فقال بصوت مرتفع:

- «ارم سلاحك»

لم يكن معي سلاح حتى أرميه، تابع الجندي الذي كان يحمل رشاش «غرينوف»:

- «يللا، تقدّم، بسرعة....».

كرّر هذه الكلمات كثيراً إلى درجة أنّها ما زالت في ذهني حتى الآن. أظنّ أنّه كان لصمود الشباب تأثيره الواضح عليهم؛ ليردّدوا عشرين مرة: «ليش ما تسلّموا أنفسكم؟!».

كنت قد ألقيت سلاحي في مياه المعبر، تقدّم جنديّ آخر ونصب العلم العراقيّ فوق حافة الخندق، لا تزال صورة الجنديّ الأوّل الذي أسرني محفورة في ذهني، شابّ نحيل الجسم، غائر العينين، ذو بشرة سمراء، يرتدي بذلة مرقّطة، لا زلت أذكره، وأذكر الخال الأسود على

جبهته، كانت بذلته العسكرية مَسْخَعة وغير مرتّبة، أطلق حولي عدّة طلقات، وكأنّه لم يكن يريد قتلي، كنت صامتاً. لم يكن قد رأى قدمي المجرّوحة، وكرّر للمرّة الثالثة:

- «يلّا قم...».

كرّر: «لا تتحرّك»، محاولاً أن يفهمني أن أضع يديّ على رأسي، كم كان قاسياً وصعباً عليّ أن أرفع يديّ، هذه الحركة هي الأصعب لأيّ جنديّ في أيّ مكان من العالم. حين رفعت يديّ أحسست أنّ عنفواني العسكريّ قد انكسر.

في تلك اللحظة، انكسرتُ أمام العراقيين، وأمام نفسي، حتّى أنّني شعرت بالخجل من الشهداء الممدّدين بالقرب مني، تخيلت أنّ أحدهم يقول لي: «يا سيّد ما لك وللاسر؟!».

حين كانت يداي مرتفعتين، انتابني شعورٌ بالحقارة، إحساس بالاستسلام، وبأنّني قد أخفقتُ وفشلت، كنت أعتبر الأسر في الحرب ذنباً، وها أنا ارتكب هذا الذنب.

كلّما استشهد واحد من رفاقي، كنت أفرح له، وكلّما أُسر أحدهم، كما حصل مع «كاووس محمدي» في عمليّات «نصر 4» في كردستان، كنت أنزعج وأقول في نفسي: كان عليهم أن يقاتلوا حتّى يستشهدوا، ولا يجب أن يقعوا في الأسر، حين أُسرت اجتاحني إحساس أن البقيّة يشعرون بهذا الشعور تجاهي أيضاً.

استولى عليّ إعياء شديد من النزيف والعطش والحرارة المحرقة. كانت رطوبة الهواء تزيد من عذابي ومن شعوري بالاختناق وضيق التنفس أكثر فأكثر. حتّى كأن الهواء قد خلا من الأوكسيجن، تجمع

البعوض والنمل حول قدمي المجروحة؛ لمصّ الدم منها، لم تعد تُسمع أيّة طلقة رصاصٍ على طول جادة الخندق.

كانت يداي لا تزالان إلى الأعلى حين صوّب الجندي العراقي سلاحه نحوي، وحاول إفهامي بالإشارة بأن أقوم وأتقدّم نحوه. أشرت بيدي إلى قدمي؛ لأفهمه أنّني جريحٌ ولا أستطيع التحرك، اقترب منّي أحد الجنود، وكان أسمر اللون ومتوسط القامة، ضربني بسلاحه على صدري ملقيًا بي على الأرض. كنت قلقًا على قدمي، كي لا تتأذى أكثر مما هي عليه. سحبني الجندي من كتفي، وأرغمني على الجلوس، كانت يداي مرفوعتين، ورأسي منخفضًا؛ كي لا يقع نظري عليه. قام أحدهم بربط يديّ من الخلف بواسطة سلك هاتف صحراوي، كانت لحظة مؤلمة وصعبة عندما كان الجنود العراقيّون - ثلاثون أو أربعون جنديًا - يمرّون بالقرب منّي في طريقهم إلى «تشر اغتشي»، وراحوا يسلبون الشهداء أغراضهم الشخصية: ساعاتهم اليدويّة، خواتمهم، سُبحاتهم، وأموالهم، وكل ما حوته جيوبهم. اختلف اثنان من الجنود حول تقسيم أغراض الشهداء، كانوا يقسّمون المال فيما بينهم⁽¹⁾.

كان بعضهم ينهب أغراض الشهداء، ثمّ يطلق النار على أجسادهم الطاهرة. أذكر أنّ أحدهم أفرغ مشط سلاحه بكامله على وجه وجسد شهيد، وكان قد سلبه للتو ماله، وصور زوجته وأولاده، كان اسم ذلك الشهيد «حياة الله»، وهو من أبناء بلدتنا، وهو من أتراك «وادي

(1) علّمتُ فيما بعد، في معسكر تكريت، من أحد الحراس العراقيين، ويدعى «سامي» أنّهم كانوا يصرّفون المال الإيراني بالدينار العراقي من مصرف كويتي في شارع حيفا في بغداد.

شوري»، وكان أباً لثلاثة أولاد. كان العراقيون يتبادلون النظر إلى صور أولاده. كان جثمان الشهيد «جهانكر رنجبر» ملقى على بُعد أمتار مني، كان «رنجبر» متأهلاً أيضاً، ولديه ولدان، كان بإمكانه البقاء في «تشرأغتشي»، وعدم التقدم إلى الأمام، وكان سينهي خدمته العسكرية بعد عشرين يوماً، لكنّه تقدّم وقاوم برجولة واستشهد مظلوماً.

بدأت أشعر بدوار في رأسي وبضعف شديد. سحب أحد الجنود، وقد كان نحيلاً وقصير القامة، أقسام سلاحه وصوّبه تجاهي قائلاً:
- أأقتلك؟

فضّلت أن أنظر إلى حقول القصب على النظر إلى وجهه. كانت عيون بعضهم مليئة بالحقْد والكراهية، وحين كنت أنظر إليهم كانوا يزدادون وقاحة وقسوة، كانوا يشدّونني بشعري لإرغامي على النظر إليهم، حدّقت إلى الأرض؛ كي لا تستفزّهم نظراتي أكثر. ألمني مرفقي كثيراً عندما تلقيت عليه ركلة من أحد الجنود. صوّب أحد الجنود بندقيّته نحوي، شعرت أنه جادٌ ويريد قتلي بالفعل. كان يصرخ ويشتمني باللغة العربية، وبصوت مرتفع، لدرجة شدّ أنظار الجميع إليه.

كان غاضباً جداً، أغمضتُ عيني، وتلوّثُ الشهادتين بانتظار رصاصة الخلاص. اعتقد أنّه انتبه إلى أنّي غير خائفٍ من الموت، توكلت على الله، ورغبتُ بأن يفهموا ما أقول، ويعرفوا أن الحياة الآن بالنسبة إليّ لا تعني سوى الألم والقهر، كنتُ أعرفُ أيّ مصيرٍ صعب ينتظرني، أفكّر بالتعذيب والآلام، والإهانات الملازمة للأسر. لم يكن قلبي يرغب بالبقاء على قيد الحياة. جلس الجنديّ إلى جانبي،

أمسكني بشعري، رفع رأسي، كان أسلوب نظرتي إليّ يوحي أنها المرة الأولى التي يرى فيها إيرانيًا. تجمّع حولي الكثير من الجنود العراقيين، وكانوا يحدّقون بي، ولم يتركونني إلا بعد أن زجرهم أحد قادتهم لترك المكان. وصل بعض الجنود الجدد، قام أحدهم بتمرير وجهي بتراب حذائه، دخل التراب إلى عيني، لكم رغبت أن تكون يداي حرتين؛ كي أستطيع مسح التراب عن عيني. كانوا يتبادلون الكلام فيما بينهم، وقد بقيت في ذهني بعض الكلمات والشتائم؛ لأنني سمعتها فيما بعد كثيرًا في «العمارة»، وفي «بغداد». قال أحدهم، وهو متوسط السن: «لعنة الله عليكم أيها الإيرانيون المجوس»، بينما قال آخر: «الإيرانيون أعداء العرب»، وسألني أحد الضباط، وكان مؤدّبًا حسب الظاهر: «ليش إجيت للحرب؟»

حين لم يسمع منّي أيّ جواب صرخ قائلاً: «أأقتلك». كانوا يفرغون ما في داخلهم من خلال تلك الكلمات والشتائم. حاول البعض.. من أصحاب الضمير.. أن يُقنعوا البقية بتركي وشأني، وعدم إيذائي، أمسك أحد الضباط مسدّسه، وكانت يده مضمّدة، صوّبه ناحيتي وقال: «أنت حرس الخميني؟». لم أقل شيئاً، فتابع، «أنت جيش شعبي⁽¹⁾؟» كان واضحاً أنه حاقّد بشكل خاصّ على قوات الحرس الثوري والتعبئة. حين دقّق الضابط في ملامحي، قال للجنود المحيطين به: - «لا هذا مو جندي مكلف»، ويقصد بأنني لست من مجندي خدمة العلم.

(1) يقصد قوَّات التعبئة.

أمر الضابط الجنود بتفتيش جيوبي، كنت أرتدي قميصاً أخضر كوريّاً ذا جيبتين، فتشّوا فلم يجدوا شيئاً. لفتت ساعتني نظر أحد العسكريين⁽¹⁾، كان عليه أن يفكّ قيدي حتى يُخرج الساعة من يدي، حين فكّ السِّلْك تنفّست الصعداء، لقد كان لون يديّ داكناً من شدّة ضغط السِّلْك عليها. أمسك ذلك الجنديّ الشَّابَّ بيدي؛ كي ينزع الساعة، فأشرت له بيدي أنني سأعطيه إيّاها، لكنني أمسكتها ورميتها في المياه، كنت أعرف عاقبة هذا العمل، لكنني لم أكن أستطيع تحمّل رؤية ساعة أخي في يد قاتليه.

في تلك اللحظات لم أكن أفكّر إلّا بهذا الأمر، لم يكن مهماً لي ردّة فعلهم، رميتها وليكن ما يكون. لهذا الجنديّ الحقّ بأن يغضب، كان غضبه شديداً لدرجة أنّه ركّني على جبينني، وضربني بأخمص سلاحه على كتفي، وحين تفلّ في وجهي، شعرت بأنّه أفرغ عقده النّفسيّة قليلاً. انتابني شعورٌ جيّدٌ لمّا قُمتُ به. في تلك اللحظة كان أخي يجول في خاطري، ويقول لي: «ناصر! كيف وصلت ساعتني إلى أيدي البعثيين؟؟ كان صعباً عليّ أن أراهم وقد أخذوا ساعة أخي!».

أعاد أحد الجنود تقييد يديّ مجدّداً، خفّ الازدحام قليلاً من حولي، كان العراقيون يعبرون بالقرب منّي ويتابعون سيرهم نحو «مثلث المحور» و«تشرأغتشى». اختلف اثنان من العسكريين حول قتلي، فأحدهم، وبمجرّد أن رأيته، لقّم سلاحه وصوّبه نحوي. منعه الآخر من إطلاق النار، وأمسك سلاحه ورفعته نحو الأعلى، فيما كانا

(1) في صيف العام 1985م، ذهبت أنا وأخي السيد «هدايت الله» للسّباحة قرب جسر «بريم» على بعد

7 كلم من «باشت»، غطس أخي فوجد ساعة «السيبتيزن» في الماء، وبعد سنتين بادلت معه ساعتني بتلك الساعة، وبعد شهادته حاولت أن أحفظ بها للذكرى.

يتبادلان الصراخ، ولم أفهم من كلامهما سوى كلمة واحدة:

- «خالد، خالد، لا ترم»⁽¹⁾.

كان «خالد» هذا جاداً في قتلي، وكأنّه لم يكن من النوع الذي يتراجع بسهولة، كان الحقد الدفين ظاهراً في سلوكه، صرخ بي العسكري الذي عرفت أنّ اسمه خالدٌ، قائلاً: «أنت قاتل أخي!» هذا ما فهمته من كلامه، ولكي أفهمه بأن أخي قد استشهد في الحرب على أيديهم، كرّرت ما قاله: «أنت قاتل أخي».

يبدو أنّ أخاه قد قُتل في الحرب، ولهذا كان غاضباً ومُسْتاءً لرؤية الأسرى الإيرانيين. أصرّ العسكري الآخر على ردّعه، قائلاً له: «تركه، إنّهُ شاب، وهو جريح...».

انتهى السّجال بينهما عندما أطلّ عقيدٌ، وأمرهما بترك المكان فوراً.

كنت أنظر بعين الحاسد للشهداء المفترشين الأرض من حولي، كانت أجسادهم الترابيّة بالقرب من مياه «جزيرة مجنون»، وأرواحهم الطّاهرة في ضيافة الله، كنت أرى كيف انتهى أمرهم بحسن العاقبة، وأقارن وضعهم بما أنا عليه.

تجمّع حولي عددٌ من الجنود السودانيين. كان سلوكهم جيّداً، قال

(1) استنتجتُ أنّ البعثيين العراقيين كانوا يرغبون عندما يوجّهون أسلحتهم إلى الأسرى الإيرانيين أن يشعروا هؤلاء بالذلة، ويلتمسوا منهم الصّفح والعفو، هذا الأمر الذي كان ظاهراً بشكل واضح عندما يقع العراقيون أسرى، فتراهم يرفعون أصواتهم «الموت لصدام ودخيل الخميني» خشية الموت. وكذلك يخرجون ما لديهم من صور وتذكارات لأولادهم وزوجاتهم وصورهم في مقامات الأئمة (عليه السلام) في النجف وكربلاء والكاظمين، ويقدموها للجنود الإيرانيين ليطمئنوا إليهم ولا يعرضونهم للموت، مع أن عادة جنودنا لم تكن كذلك، وقد شاهدت هذا السلوك الذليل مرّات عدة في الجبهة، على الرغم من أنه كان من بينهم من لا يبالى، ويبقى صامتاً، ولا يرفع شعارات الدّم بصدام، وهؤلاء كانوا قلة.

لي أحدهم: «أنا سوداني»، وكأنه يريد أن أميّز سلوكهم الحسن عن وحشية البعثيين العراقيين.

كانت ملامحهم مختلفة عن العراقيين، أعطاني أحدهم حبة علكة (لبان)، وهو أصغر سنّاً من الباقين، ومع معرفتي بأنهم لا يفهمون ما أقول، سألتهم: «أنتم السودانيون، ما الذي تفعلونه هنا؟». أظنّ أنّهم أدركوا قصدي، فتركوني ومَضُوا.

كنت أدعو الله ألاّ يحركونني من مكاني، فقد كانت الجعبة التي بجوزتي عراقية. كانت الجعب والأحزمة التي مع ضباطهم خضراء اللون، وذات نوعية جيّدة. كانت يداي مقيدتين، انحنى أحد الجنود، وكان حزامه رماديّ اللون، سحب منّي الحزام وأتبعه بالشتائم والسباب، فهمتُ فوراً أنّه يقول: «لقد أخذت هذا الحزام من أحد الأسرى العراقيين؟»⁽¹⁾.

بين جمع العسكريين الذين مرّوا بالقرب منّي، كان ضابطٌ تظهر على كتفيه نجمتان بلون أصفر لامع، وقف بالقرب منّي وقال: «سبّ (اشتم) الخميني».

قام مرافقه بتوجيهه ماسورة سلاحه إلى هامتي، وكرّر كلام الضابط.

فهمتُ ما يقول. حين كان العراقيون يلفظون اسم الإمام، كانوا يقصدون توجيه الإهانة، وليس شيئاً آخر. قبل أن آتي إلى الجبهة،

(1) لقد أعطاني هذا الحزام، أحد الضباط العراقيين الأسرى، وكان ذلك في صيف العام 1987م. عندما قدمت له معلّبات سمك وخبز. لقد استعملت هذا الحزام لأكثر من سنة وقد سرّني أن يعود إليهم. فيما بعد، وفي مرحلة الأسر حين كنت في مستشفى الرشيد في بغداد، حكيت هذه القصة لـ«نصر الله غلامي» من شباب بوشهر، فقال لي يومها، وعَلَّت وجهه ابتسامة: «الرزق الحلال يعود لصاحبه».

كنتُ قد سمعتُ نماذجَ من قصص تتحدّثُ عن صلابة بعض الأسرى الإيرانيين، ممّن كانت ذكرياتهم تُروى لنا. لم أنس الصّرخات المدوّية للأسير «محمد شمسواري» من أهالي «كهنوج» في كرمان، حيث أُسر في عمليات «بدر»؛ هتف وسط البعثيين: «الموت لصدّام، عدوّ الإسلام».

ولم يغب عن بالي الكلام الحازم للأسير «علي رضا رحيمي» من «شوشتر»، والذي قُطعت رجله في المعركة، وقال للمراسلة الهندية السّافرة [ترجمة بيت شعر]:

«لك أيتها السيدة من فاطمة وصية: حفظ حجاب المرأة أفضل زينة».

امتناعي عن شتم الإمام، أغضب الضابط، فشتّم هو الإمام، كانت أصوات تهليل الجنود العراقيين وسرورهم تزيد من عذابي وألمي، رَكَلَنِي أحد الجنود برجله في صدري. كاد نَفْسِي ينقطع من الألم، رمانني أحدهم بالمعلّبات الفارغة، وقشور الفاكهة. كنت أدعو الله أن لا يضربونني على قدمي. أمسك أحد العسكريين برقبتي، ورفع رأسي، ثم تَقَلَّ في وجهي، وصفعني بشدّة. تقدّم آخر، وكان ضخّم الجثّة، رَكَلَ قدمي الجريحة بجذائه العسكري، لم أستطع عندها أن أمنع نفسي من التآوّه. ضمّت تلك المجموعة عدداً من المتوحشين، واختلفت بذلاتهم العسكرية عن غيرهم. أظنّ أنهم من قوَّات الحرس الجمهوري. صرختُ من شدّة الألم، كنت أستحي من الشهداء.

رَبَطُوا عِصَابَةً على عيني، بعد أن أمرهم الملازم بهذا الأمر، فبقيتُ حوالى الساعة أتعرّض للضرب والتّعذيب من أشخاص لا أراهم، أظنّ

أنّها كانت الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر، عندما فكّوا العصابة بناءً لطلب أحد قادتهم. بعدها بأيام، وبعد أن تعرّفت على رتبهم العسكرية، عرفت أنّه كان لواءً. لم أكن أفهم ما يقول، كان يحيط به عددٌ من العقداً والضباط. أعتقد أنّه كان من القادة الأساسيين في عمليات الجزيرة، لم يكن التعامل معي عنيفاً أثناء حضوره⁽¹⁾.

شعرت بالارتياح، حين فكّوا قطعة القماش عن عيني، كان العطش قد استبدّ بي، لدرجة لم يعدّ لساني يقوى على الحركة. كان الطّقس حارّاً لدرجة شعرتُ معها بالاختناق حين قيّدوا يديّ.

حاول بعض الجنود التحدّث إليّ، وإفهامي بعض الأمور. لم أعرف ماذا يقولون، شعرت من أسلوبهم بأنّهم يريدونني أن أفهم أنّهم على الحق، وأنّنا على الباطل. حين رأوا أنّني لا أفهم كلامهم، مضوا وتركوني.

اشتدّ ضعفي، فتمددتُ على جانبي الأيمن في القناة، حين أردت تعديل جلوسي الى الجانب الأيسر، لم أستطع الحراك، فقد كانت أيّة حركة تشعرني بالألم شديد، بسبب احتكاك العظام المكسّرة عند أسفل ساقي اليمنى. في تلك الظروف، تحالف البعوض والذباب والطّقس الحار في الجزيرة مع العرافيين على تعذيبي وقهري. قمت، وبصعوبة بالغة، بخلع الحذاء العسكريّ من قدمي الجريحة، لعلّي أخفّف ثقلها

(1) من الملاحظ أنّه في الخطوط الأمامية والخلفية أنّ الضباط الذين هم أكبر سنّاً، كان تعاملهم أفضل من الضباط الشباب. فالكبار كانوا يراعون الأوضاع الصحية الخاصة، ويلجؤون إلى العنف بشكل أقلّ ساعين إلى تحصيل المعلومات من الأسرى. لا يمكنني أن أنسى أبداً الوحشية التي عاملني بها الضباط الشباب. بالطبع قد يلجأ الضباط الكبار إلى العنف، إذا علموا أنّ أسيراً يرفض إعطاء المعلومات.

قليلاً. أحسستُ أنّ مشطَ رجلي سينسلخ مع الحذاء. كان الوجع أكبر من قدرتي على التحمّل، وأطراف العظام المهشّمة تثبتُ بين الجلد وثنايا جراحات ساقي المحطّمة.

لم يكن موقع «الخندق» قد سقط حتى الآن، كانت القوارب العراقيّة تُنزل الجنود العراقيين على أطراف الجادة، كانوا يُفرغون المؤنّ والذخائر، ومن ثم ينقلونها الى «مثلث المحور»، ذلك المكان الذي كان، وحتى صباح اليوم، خطّنا الخلفي، أصبح الآن الخط الأمامي للعراقيين. كم كان صعباً عليّ رؤية جنود العدو وهم يتقلّبون على «جادة الخندق».

تولّى أحد الضباط من ذوي الرُتب، متابعة وضعي وحراستي، كان رجلاً متوسط السّن، ذا جسم معتدل، وبشرة سمراء. جلس فوق الخندق على بعد حوالي عشرة أمتار منّي، ورَكَز نظره عليّ، مع أنّه لم يبدُ عليه أنّه شخص سيّئ، إلا أنّه لم يمنع العسكريين الآخرين من إيذائي.

وقف اثنان من العسكريين بالقرب منّي، كان أحدهما برتبة رائد، وتظهر شارة «العقاب الأصفر» على كتفه. نظر الرائد الى وجهي وجراحي ثم قال:

- «عطشان؟»

- «نعم».

أشار بيده إلى جنديّ، فأحضر له قربة ماء، أخذ الرائد القربة، وأراق بعض الماء فوق رأسي، أحسست ببرودة الماء، كنت أتابع حركة يده حين أفرغ ماء القربة على التراب، أمام عينيّ ولساني اليابس من العطش.

لم أعرف لماذا قام بهذا العمل، أحنيت رأسي إلى الأرض؛ كي لا تقع عيناى على منظر وجهه، أشهر مسدّسه، وصوّب نحوى قائلاً:

- «أنت حرس الخمينى، أنت مجوس».

بقيت ساكناً، رفع حذاءه العسكرى، ودفع وجهى بقدمه؛ كي أرفع رأسى.

كان شعره مجعّداً، وشاربه كثيفاً، متوسّط القامة، وذا عينين صغيرتين غائرتين، نظر إلى وجهى وكأنّه للمرّة الأولى يرى إيرانياً. وضع مسدّسه على جبهتى وقال:

- «تيس دون قرون! قل: الموت للخمينى».

تصوّرت أنّه مثل باقى العسكرين، يحاول إخافتى وإرعابى فقط، بدا عليه حقد وكرهية شديدة، كان غاضباً جداً، وحين كان يشتم الإمام كان يصرخ وتنفخ أوداجه، وما يزيد غضبه أنّه لم يستطع إفهامى ما يقول، لكم تمنيت أن أقول له: إنّ إهانة قائدنا لا تحلّ أيّة مشكلة. حاولت أن أفهمه أنّ الإيرانيين، لم يجبروا الأسرى العراقيين أبداً على شتم صدام، وتوجيه الإهانات له، لكنّه لم يلتفت إلى كلامى. كان الرائد يصرخ مردّداً (واحد، إثنان، ثلاثة)، وكأنّه يعطينى مهلة كي أقوم بشتم الإمام، وينتظر قليلاً عند قوله (ثلاثة) لسمع ما سأقوله. حين لقّم مسدّسه، أحسست بأنّه فقد توازنه، قلت فى نفسى: «إن هذا يختلف عن الآخرين»، صوّب مسدّسه نحو قدمى، أطلق رصاصة، فأصبت بذهول شديد. تفاجأت بكلّ هذا، أحسست بأنّ هذا حلماً ليس إلّا، كنت أتصوّر بأنّه سيقتلنى، ولكن إطلاقه النار على قدميّ الجريحتين كان مفاجأة من العيار الثقيل.

أطلق رصاصتين على قدمي، كنت أنظر إليه وأنا لا أصدق ما يحصل، أردتُ أن أحتفظ بصورة ملامحه في ذهني إلى الأبد أصابت إحدى الرصاصتين عضلة فخذي الأيمن، وأصابت أخرى أسفل عضلة ساق اليسرى⁽¹⁾.

لم يعترض عليه أحد، ولم يتلق سوى عتاب بسيط من اثنين أو ثلاثة من ذوي الرتب العليا، مع أنني لم أكن أعرف اللغة العربية، لكنني انتبهتُ إلى عبارات التملُّق والمداهنة من عسكريين كانوا حوله، وصاروا يشيدون بعمله هذا، أظنهم قالوا له:

- «يستحق هذا وأكثر.. إنَّ الموت هو جزاؤهم المناسب»... وأمثال هذه العبارات.

وكأنه لا شيء مستبعد من هؤلاء. كان الرائد ينتظر ردة فعلي، كرّر:

- «سُبَّ الخميني».

لم يعد لكلامه أية أهمية عندي، لم أرَ أحدًا أقسى قلباً منه في تلك الجادة. بعد دقائق، بدأت الآلام تجتاح موضعي الرصاصتين في قدمي، كنت منهكاً وغاضباً جداً. أردتُ أن أصرخ، شعرت بأنَّ صوتي لا يخرج من حنجرتي، ومع أنَّه لم يكن يفهم كلامي، إلّا أنني قلت له:

- «لماذا تطلق الرصاص على قدمي؟ اقتلني وأرحني».

ضاعفَ العطشُ وضيقَ التنفّس من عذابي، والحق يُقال، إنَّ طاقتي قد نفذت، ولم أعد أستطيع التحمّل. كان السبيل الوحيد لضبط العذاب والضغط الداخلي أن أدعُو الله بكل وجودي. كرّرت ولأول مرة هذه الجملة من أعماق قلبي: «إلهي أرحني من كل هذا الألم».

(1) بعد مرور سنوات على ذلك الحادث، لا يزال أثر رصاصتي الرائد البعثة في قدمي، كنت أتمنى دائماً أن نتواجه، أنا وذلك الرائد، في معركة متعادلة أكون فيها سليم الجسد.

حين رأيت أنني لا أقدر على فعل شيء، أطلقت على ذلك الرائد كل ما كان في جمعتي من سباب وشتائم.

لم أذكر أنني شعرت بعطشٍ كالذي أشعر به الآن، وعندما أفكر بالعطش، أقول في نفسي: «لو كان عذاب جهنم كعطش اليوم في جادة الخندق، فأنا متأكد أن من يعطش هنا يكفر عن كل سيئاته».

استلقيت على مرفقي إلى جانب الجادة، كان الجنود الذين يمرّون بالقرب مني يشتمونني بكلمات لا زلت أحفظ بعضها: «حمار، جاموس، قرد».

لم يكن لديّ سوى الصمت جواباً لسبابهم وإهاناتهم، والتي لم تنته إلا بوصول أحد القادة، وإعطائهم أمراً بالتحرك. بعضهم، ممن كان لديه التزام بمبادئ إنسانية، أخبر قائده بالإساءات التي تعرّضت لها، وفهمت من إشارات يديه وتكراره كلمة «الرائد» بأنه شرح لقائده كيف أطلق الرائد الرصاص على قدميّ الجريحتين. كان يبدو على ملامح ذلك المسؤول، وهو برتبة «مقدم»، أن ما جرى أمرٌ عاديّ. كنت أتصوّر أن ردة فعله ستكون إيجابية، وأنه سينزعج وسيدبر حلاً ما لحالتي. كان العطش يستبدّ بي أكثر فأكثر، قلت لأحدهم: «ألن تسقوني ماء؟» لم يفهم عليّ، فقلت: «ماي! ماي!» كانت شفّتي وشكلي خير دليل على شدة عطشي.

أعطى أحدهم، وهو برتبة نقيب، أمراً بأن يحضروا لي الماء. شربت قليلاً، فشعرت بأنّي أحيّا من جديد، لكن عطشي القاتل لم يرتو. أظنّ أنه قال لي من باب الشفقة عليّ: «أنت جريح، موزين». وكأنّه يبرّر عدم إعطائي الكثير من الماء لأنّه يضرّ بالجريح، ثمّ

أوصاهم أن لا يؤذونني وينتبهوا لي. فهمت من خلال كلماته، وتكراره لعبارة (الأسرى العراقيون في إيران)، بأنّ عنده معلومات عن الأسرى العراقيين، وكيف تتم معاملاتهم في إيران، فقلت في نفسي: «لو كان لأيّ منهم أدنى معلومة عن وضع أسراهم في إيران، لصار تعاملهم معي إنسانياً». كنت أعرف أن إيران، بالنسبة للأسرى العراقيين، بمثابة فندق بعدة نجوم! أعتقد أنّه قال لبقية الجنود: «إنّ الإيرانيين يتعاملون بشكل جيّد مع الأسرى العراقيين»، لكن بعد أن رحل النقيب، لم ينفذ البقية وصيته.

كنتُ أسيرَ قوم لم يرحموا يوماً الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه. لقد أسروا آل النّبّي، ولم يتركوا نوعاً من الظلم إلّا وألحقوه بهم. ها هي الجادة التي يحيي كل شبر فيها ذكرى الرجال الشجعان للواء «الفتح 48»، تزرع الآن تحت نعال البعثيين.

كان هناك ما يزيد عن الثمانين⁽¹⁾ جثماناً لشباب محافظتنا، مرميين في العراء تحت لظى الهجير على تراب جادة الخندق.

كان مع العراقيين في جادة الخندق سيارتا «تويوتا لند كروزر»، لا غير. لم يتمكنوا، بسبب الحفرة أمام موقع «بيت الله»، من إحضار

(1) في ذلك اليوم، ومن الساعة 3:10 فجراً، إلى الساعة 4:30 بعد الظهر، سقط 119 شهيداً على جادة «الخندق». بينهم 88 شهيداً من محافظة «كهكيلوية وبوير أحمد». 7 شهداء في موقع «الخندق»، 112 على جادة الخندق: كانت حصّة مدينة «بوير أحمد» ومدينة «دنا» 27 شهيداً بينهم 9 من مفقودي الأثر (يطلق عليهم في إيران اسم: خالدي الأثر) ولمدنيتي «كهكيلوية»، وبهمئي، 42 شهيداً بينهم 20 من خالدي الأثر. بقيت جثامين 45 شهيداً من خالدي الأثر، مدفونين في الطرقات والمستنقعات التي جفّت بعد الحرب. في العام 1999م، سمح العراقيون لفرق تقصي الشهداء ومفقودي الأثر بالدخول إلى جادة، وموقع «الخندق»، حيث تمّ التعرف على الرفاة، واللوحات المعدنية لشهداء ملحمة الرابع من تير (25 حزيران) من العام 1988م، ودفنهم فيما بعد كلّ في مسقط رأسه.

سياراتهم إلى جادة الخندق. كانت أكثر المشاهد ألماً عندما كان العراقيون يدهسون أجساد شبابنا بسياراتنا نحن، عندما رأيت هذا المشهد، استطعت أن أتصوّر ما حصل في كربلاء، ففي عاشوراء، داس اليزيديّون الأجساد بحوافر الخيول، وهنا يدوس البعثيون أجساد شهدائنا بالسيارات.

كان خلف رأسي، بالقرب من حقل القصب، خندقٌ صغيرٌ، على أطرافه عددٌ من صناديق الذخيرة، الخشبية والمعدنية. بالقرب من الخندق، كان اثنان أو ثلاثة من الشهداء، من بينهم السيد «محمد علي غلامي»، و«عبد الرضا ديرباز»، مطروحين أرضاً. كان «عبد الرضا» قد أصيب بشظيّةٍ في رأسه ووجهه، وكان وجهه مهشّماً بشكل فظيع.

كان الخندق الخلفي، المليء بمخازن الذخائر، يبلغ ارتفاعه متراً، وعرضه أكثر من متر بقليل، لا يمكنني الدّخول إليه إلا زحفاً. لم أعد أستطيع تحمّل تلك الحرارة المحرقة، ولا ظلّ يمكن اللجوء إليه للشعور بالهدوء والأمان. كان العراقيون مطمئنين، فهم يعرفون أنّي عاجز عن الهرب أو الحرب. دون أن أخذ الإذن من الضابط الذي يراقبني، أمسكتُ كعب قدمي اليمنى، وبمساعدة يدي اليسرى، زحفت شيئاً فشيئاً إلى الخلف، إلى أن وصلت إلى الخندق خلف رأسي، كان ألمي شديداً، ولم أعد أستطيع التحمّل، مع أنني قد شربت القليل من الماء، إلا أن فمي كان جافاً، كنت أريد أن أتقيأ في ظلّ الخندق الصغير. الذي استُحدث كمخزن للذخائر. لعلّي أرتاح قليلاً. كانت الخنادق الصغيرة، المليئة بالذخائر بالقرب من الجادة، مكاناً لتخزين الأسلحة. لا

إمكانية للجلوس داخل هذه الخنادق، لقد خطّطت وحدة التسليح على أن تكون هذه الخنادق⁽¹⁾ بالقرب من الجادة، وقد قاوم الشباب ساعات بالذخيرة التي تمّ وضعها في الأيام السابقة داخل هذه الخنادق. كنت أريد أن أتقياً بسقف الخندق، وأظلل وجهي ورأسي به. عندما وصلت إلى الخندق، كان العراقيون ينظرون إليّ، لم يكونوا يعرفون ما الذي أريد فعله.

كانت عظامي المفتتة، والتي تدخل في جرحي، تزيد من ألمي. بدأت عينايتن تزوغان من الحرّ، عندما وصلت إلى حدود متر واحد من باب الخندق، وضعت كعب قدمي بهدوء على الأرض، وتمددت، سحبت نفسي إلى الخلف إلى أن وصلت إلى باب الخندق، فوضعت رأسي تحت ظلّ سقفه، كان صدري ورأسي يتظللان بالسقف، ارتحت قليلاً، وتنفس الصعداء. كنت أدعو الله أن يتركني العراقيون وشأني، كي أبقى لساعات في ظل هذا الخندق. لم يكن من الممكن تحمّل العطش القاتل، لقد أسرت في أسوأ نقطة ممكنة، لقد كان هذا المكان، كما يقال: «على مضرق طرق»، فكلّ من يعبر على جادة الخندق سيمرّ بالقرب منّي، فعلى هذه الجادة الممتدة على مسافة ٥ كلم، كنت الوحيد الذي وقع بأيدي العراقيين.

على الجادة لم يعد يُسمع أيّ صوت لإطلاق النار. كان رأسي في ظلّ الخندق، ولم أكن أرى ما يجري في الخارج، كنت فقط أسمع أصوات العراقيين. عند ازدحام المكان بالقرب من الخندق كنت أشعر بالانزعاج والخجل من أولئك الذين يقفون على أقدامهم، كوني ممدداً

(1) وهي دشم محصنة على شكل خنادق مسقوفة. (نون)

على الأرض، كنت أشعر بالخجل من عدم التفاتهم إليّ. على الرغم من أنّني كنت خائفاً من أن يدوسوا على قدمي، فإنّني سحبت نفسي إلى خارج الخندق؛ كي لا أشعر بالخجل والانزعاج، وعندما أردت إخراج رأسي من الخندق أحسست كأن السماء قد أطبقت عليه لشدة الألم، وعندما أردت سحب نفسي من الخندق، طويت كعب قدمي من جهة ساقي، فدخلت العظام المفتّنة داخل جرحي وعلا أنيني.

سحبت نفسي بمشقة كبيرة الى خارج الخندق. قبل أن أخرج، كان كل من يراني - بقدمي المهشمة وملابسي المليئة بالدماء والوحل - يظنّني قتيلاً في عداد القتلى، ومرمياً هناك. كان كل عراقي يراني بجراحي هذه كان لا يفرّق بيني وبين الجثث الموجودة هناك.

كان العراقيّون منشغلون بتمشييط الجادة، كانوا يطلقون رصاصات الخلاص على جثث الشهداء، كانت تحيط بي، وعلى شعاع 20م تقريباً، جثامين شهداء شباب كتيبة الإمام علي عليه السلام، وكتيبة الشهداء الخاصة.

كانت جثامين كلّ من «خدا رحم رضوي»، و«حسين برويزي»، هناك أيضاً. بالإضافة إلى شهيد لا أعرفه بالاسم⁽¹⁾، لقد مرّقت إحدى الشظايا ظهره، وكان الدّم يسيل بالقرب منه كجدول ماء. هناك، على بعد أمتار، أطلق العراقيّون رصاصات الخلاص على «حسين برويزي» الذي كان يماثلني في العمر.

كانوا يطلقون الرصاص على الشهداء، ويسلبونهم ساعاتهم، وكان الجنود الذين يصلون متأخرين بعض الشيء يتشاجرون مع رفاقهم

(1) فيما بعد، وعندما رأيت صور شهداء الخندق عرفت أنّ اسمه: الشهيد «عرب علي دهبان زاده».

الذين استولوا قبلهم على عدد من ساعات الشهداء. كان العراقيون يرمون بجثث الشهداء الملتحين على القصب والأعشاب المائية في مياه الجزيرة. نصبوا العلم العراقي على نقاط مختلفة من الجادة والخنادق. اقترب أحدهم مني وهو يحمل العلم العراقي، يبدو عليه أنه عصبّي؛ كان يكرّر عبارة: «كلّكم مجوس، والخمينيّون أعداء العرب»، وقد ضربني عدة مرّات بعصا العلم على رأسي؛ كان يبدو من تصرّفاته أنه غير متوازن نفسياً. عندما ابتعد عني، حوالي خمسة عشر متراً، وقف بالقرب من جثمان أحد الشهداء الذي كان في وسط الجادة، كان الجثمان مرمياً على ظهره، اقترب الجندي الخبيث من الشهيد، رفع العلم، ثم غرسه في وسط الشهيد بطريقة مزّقت عصا العلم معدته⁽¹⁾. تمّنت لو أموت، ولا أشهد ما أراه الآن، كان الجندي العراقي يلتفت إليّ باستمرار ويكرّر: «هنا ... مكان العلم العراقي».

إنّ كل ما رأيته على الجادة تحوّل إلى عقدة لديّ، لكن مشهد نصب العلم على جثمان ذلك الشهيد كانت الأكثر قسوة بالنسبة لي، لا أذكر أنّني شعرت بالحقّد على أحد كحقيدي على هؤلاء القوم، كنت أقول من صميم قلبي: «إلهي، أقسم عليك بمظلوميّة هؤلاء الشهداء، إلّا انتقمتم لهم من هؤلاء العراقيين».

حاولت أن أكون أكثر صبراً، وأمنع نفسي من البكاء، كانت أفكار مشتتة تدور في ذهني، أتذكّر منذ عدّة أيام كيف كنت أركب درّاجة

(1) لا أستطيع أن أذكر اسم هذا الشهيد لأنّ والده ووالدته المحترمتين هما على قيد الحياة. عندما تكلمت مع أخيه، أخبرني أنّ والدته لديها مشكلة قلبية، وطلب مني عدم ذكر اسم أخيه في الكتاب. أدعو الله أن يطيل عمر والده هذا الشهيد، وأفضّل أن أوّجل ذكر اسمه إلى الوقت الذي يتم فيه توثيق جرائم الحرب العراقية.

ناريّة متجهاً إلى موقع الخندق. كانت الجادة تحت سيطرة شبابنا، لقد اغتسلتُ الى جانب هذه الجادة، واصطدت السمك، واشعلت ناراً من القصب الجاف، وتناولنا السمك، أنا، و«الله خواست بركاني»، و«بيران مستوفي زادة». ما زلت أذكر أنني كنت على هذه الجادة وقدمي سالمة. وكنت أرى بعض الذين أصبحوا شهداء الآن يعبرون هذه الجادة، لكنّ الآن انقلبت الآية، وها هي الجادة ترزح تحت أحذية البعثيين.

كان الشهيد والعلم المنسوب فوقه يلفت نظر كل من يمر على الجادة، كان بعضهم يضحك، كم تمنيت لو أستطيع نزع هذا العلم، كنت أقول: «ليت الشباب حملوا الشهداء الى المناطق الخلفية». لم يستطع الشباب نقل الشهداء الذين سقطوا في المنطقة الواقعة بين «تشر اغتشي» وموقع «بيت الله»، كان القصف شديداً، لدرجة لم يستطع معها «قدرت الله دير باز» أخذ جثمان ابن عمه «عبد الرضا» معه.

بطلب من أحد الضباط، فكّوا يديّ للحظات، لم أكن أريد أن يهتكوا حرمة جثمان الشهيد «جمشيد كرم زادة»، وجثمان الشهيد «السيد محمد علي غلامي»، المرميين على بعد ثلاثة أو أربعة أمتار منّي، كنت أدعو الله وأتوسله؛ كي لا يفرسوا علماً في جثامينهم. أخذ أحد الجنود صورة للإمام الخميني من جيب الشهيد «كرم زاده»، تلك الصورة كانت من النوع الذي يعلّق بزّ من أزار جيب البذلة العسكرية، مزّق الغلاف البلاستيكي للصورة، ثم توجه نحوي، أراني صورة الإمام، وفي الوقت الذي كان يشتم ويسب الإمام والإيرانيين، رمى الصورة على وجهي ممزّقة قطعاً قطعاً، ثم ذهب.

لا أعرف ما الذي حصل، قرّرت فجأة أن أضع التراب على رأس كلّ من الشهيدين «غلامي وكرم زادة» وعلى وجههما. على الرغم من الإعياء الذي كنت أشعر به، لم أستطع أن أكون غير مكترث لما يدور حولي، سحبتُ نفسي عدة أمتار على الأرض فوصلت الى جثمان «كرم زادة»، أصابته إحدى الشظايا في وجهه، كان رأسه ووجهه ملطخين بالدماء، وكانت تبدو عليه براءة مميّزة، كان من عمري، جسمه نحيل، ووجهه محبوب، كان معي خاتماً من العقيق من صديقي «أحمد فروزان»، أعطاني إياه خلال عمليات «كربلاء4»، كذكرى منه. قدّمت الخاتم للجنديّ العراقيّ قائلاً له: «تعال خذ هذا الخاتم، إنّه لك!».

أردت أن أكسب رضاه، تعجّب لتصرّفي، تردّد في أخذ الخاتم، أظنّ أنّ عاطفته قد تحرّكت، واحترق قلبه لأجلي، توجّه نحوي قائلاً: لا. لم يعرف جيّداً ما كنت أقوله، لكنّه فهم بشكل عام قصدي، قلت له: - «خذه، إن لم تأخذه الآن سيأخذونه مني في مكان آخر».

أخذ الخاتم رغماً عنه، أشرت للشهيد الذي نصب العراقيّون العلم عليه، وطلبت منه أن ينزع العلم عنه، كان خائفاً، أفهمته بالإيماء والحركات أن يسمح لي؛ لأتقدّم بنفسي إلى الشهيد، وأنزع العلم عنه، لكنّه كرّر عدة مرّات: «لا، لا».

لم يكن وضعي يساعدني لأزحف 10 أو 15 متراً على الأرض. أشرت إلى جثمتي الشهيدين «كرم زادة، وغلامي»، واستأذنته؛ كي أضع التراب على وجهيهما ورأسيهما. لم أنجح، على الرغم من كثرة محاولاتي إفهامه ما الذي أريده؛ حيث كان يردّد دائماً: «ما أدري إنت شي تكول (تقول)».

كان جثمان «كرم زاده» مرمياً في حفرة الى جانب الجادة. أما جثمان «غلامي»، فكان نصف جسده العلوي خارج القناة على الجادة. مرّ عددٌ من العسكريين بالقرب من جثمان الشهيد، ركلوه بأحذيتهم على رأسه، كانت رؤية هذا المنظر تعذبني، أحسست أنّ جثمان أخي مرمي على حافة الجادة، كنت أعرف أنّني لا أستطيع القيام بعمل مهم مع هذا الجسد الجريح، الدماء النازفة، والإعياء الشديد، لكنني أردت أن أضع التراب على رأسي ووجهي هذين الشهيدين، بل على كلّ جسديهما، كي أمنع العراقيين من أن يطلقوا النار على وجهيهما ورأسيهما، وحتى لا يغرسوا الأعلام في بطنيهما، أو يهيناهما أمام عيني، ولم أكن أريد أن يرموا جسديهما في مياه الجزيرة. سحبت نفسي سحباً بطيئاً، إلى الوراء حتى وصلت الى جثمان «كرم زاده»، عندما كنت أرجع الى الخلف، لم يأبهوا بي، وبما أقوم به. عندما وصلت الى جثمان «غلامي»، أمسكته بقميصه من ناحية الكتف وسحبته في القناة، لأنّ نصف جسده كان في ماء القناة، فكان من الأسهل لي سحبه داخل القناة، شرعت بوضع التراب على وجهه ورأسه، كان الجندي الذي يراقبني، ينظر إليّ بتمعّن، اقترب منّي، وأعطاني وعاء صغيراً كي أغرف به، أخذتها منه. وتركني أقوم بعملتي دون أن يتدخل. كان العسكر الذين يمرّون بالقرب منّي باتجاه مستديرة «تشر اغتشي»، يقفون للحظات، ينظرون إليّ ثم يكملون طريقهم. الى أن توقّف أحدهم، وأنا أرمي التراب على رأس الشهيد «غلامي»، ليلتقط صورة لي لكنني ما لبثت أن شعرت بالدوار والتعب، فلم أستطع أن أغرف بالوعاء إلا عشر أو خمس عشرة مرّة، وأرميها على الشهيد أمامي.

لشدة تعبتي تمددت بالقرب منهما، كنت أرى كل شيء مغبّشاً وغير واضح. بينما كنت أرى الناس بالمقلوب، أحسست أنّ الجنديّ المسؤول عن مراقبتي ليس فقط غير منزعج مما أفعله، بل تأثر لما ظهر منّي من شهامة وتحمل للمسؤولية تجاه جثامين شهدائنا. فهمت هذا عندما أعطاني الوعاء، أحسست أنّ كلّ من هم حولي يتحرّكون بشكل مائل، كنت أشعر بدوار، ولشدة العطش، ظننت للحظات أنّ لا أوكسيجن في الهواء، حاولت أن أتفّس بعمق، فلم أستطع، تمنيت لو كنت في الظلّ، فأعيائي الجسدي سيجعلني أنهار بعد عدّة ساعات.

أعادوا ربط يديّ مجدّداً. كتب أحد الجنود شيئاً على قميصي من الخلف بـ «طساسة الألوان». فهمت فيما بعد، عندما وصلنا الى الميمونة أنّه كتب «حارس الخميني». كان البعض، وعندما يقرؤون هذه الكلمات، يتفلون على وجهي، ولأنّ يديّ كانتا مكبّلتين، لم أستطيع أن أمسح بصاقهم عن وجهي، فكّلما كانوا يبصقون على وجهي، كنت أحاول مسحها بركبتي، وعدد قليل منهم فقط، كانوا عندما يمرّون بالقرب منّي يهزّون رؤوسهم متعاطفين معي. كم تمنّى قلبي أن يمسك أحد هؤلاء المتأثرين لحالي قطعة قماش، ويضعها على قدمي الجريحة ليجعلوا البعوض يبتعد عني.

وقف ثلاثة أو أربعة جنود بالقرب منّي، قبل أن يصلوا إليّ، هناك، على بعد 10 أو 15 متراً، كانوا يأخذون (لقطات) وحركات مناسبة للصور، ويلتقطون الصور التذكارية الفردية والجماعية مع الشهداء. دفعني أحدهم بجذائه العسكري، عندما وقعت على ظهري، وضع

قدمه على صدري والتقط صديقه صورة تذكارية له. كنت أتألم بشدة لهذه المشاهد المهيئة، والتي التقطوا لي فيها صوراً تذكارية. عندما التقطوا الصور كان وجهي للأسفل، كانوا يغضبون مني لأنني لا أنظر إلى الكاميرا، ويشتمونني، ويرفعون وجهي إلى الأعلى. وضع أحدهم - ويبدو أنه الأقل رحمة بينهم - فوهة بندقيته على رقبتني، وأفهمني أنه عليّ النظر إلى الكاميرا، أمّا الجندي الآخر ذو اللباس المرقط، فقد وضع فوهة بندقيته على صدري، ووضع قدمه اليمنى على كتفي، ثم التقط صورة. لم تجرح كرامتي يوماً، أو تنكسر، كما انكسرت، وجُرحت آنذاك.

مرّ بالقرب مني حوالي 50 جندياً، كانت بذلاتهم مختلفة عن الآخرين، توقفوا قليلاً عندي، قدّم أحدهم الفستق لي، قلت في نفسي: «الفستق، في هذه الأحوال؟».

عندما رأى جرح قدمي، أشار بيده إلى رفاقه وقال: «كلّكم سوداني»، وكان يقصد: «كلنا سودانيون»، كانت هذه المجموعة الثانية من السودانيين الذين تلتقي بهم.

في هذه الأجواء، ظهر الصحفيون، وما أدراك من هم. كالعادة، كان الصحفي يعدّ تقريره، وكان المصوّر المرافق له يلتقط الصور للشهداء وللجادة. من بين الكلمات التي كان الصحفيّ التابع للتلفزيون العراقي يكرّرها في كلامه، ورسخت في ذهني: القوات الإيرانية، الخمينيون، ... المجوس، الحارس الخميني، أعداء العرب، حرس الثورة...

تركّزت الكاميرا عليّ، علق في ذهني بعض الكلمات من تقرير

الصحافيّ: الخمينيّ... الشباب... الجريح في الحرب... أعتقد أنه قال: «هذا هو مصير حرس وتعبئة الخمينيّ، إنّ الخمينيّ يرسل هؤلاء الأطفال الصغار بالقوّة الى الجبهة ليلاقوا هذا المصير».

كان الصحافيّ رجلاً أسمر، قويّ البنية، وعريض المنكبين. كنت الحيّ الوحيد على تلك الجادة، حاولتُ أن لا أنظر إليه كي أرتاح من شرّه، كنت مطأطئ الرأس، لكنّه انحنى ثم جلس بالقرب منّي، كان يرافقه شخص آخر، عندما تكلم فهمت أنّه إيرانيّ. سألني الإيرانيّ الذي يرافقه:

- ألسنتَ غاضباً من الخمينيّ الذي جعلك تلاقى هذا المصير؟

كان أوّل إيرانيّ أراه هنا، كنت أتمنى أن يكون أوّل إيرانيّ أراه، وأوّل كلام أسمعه باللغة الفارسية مغيّراً لما أسمعه الآن. عندما ترجم ما سألني إيّاه إلى الصحافيّ، ارتسمت ابتسامة الرضا على شفطيّ هذا الأخير، وكأنّ هذا هو السؤال الذي كان يريد طرحه. قلت للإيرانيّ:

- لم يجبرني الإمام أبداً على المجيء الى الجبهة، بل جئت بملء إرادتي، لماذا أنت مع أعداء الشعب الإيرانيّ؟

انزعج من سؤالتي وقال:

- «لا علاقة لك بالموضوع، فهم ليسوا أعداءنا».

- «إنهم يستغلونكم للوصول إلى أهدافهم».

عندما أصرّ عليّ، قلت له:

- «لن أجيبك أنت بالذات، عداوة العراقيين أكثر شهامة».

لا عرق إيرانيّاً فيه. سكّت للحظات، ونظرت إليه بحقد، أردتُ أن يفهم من نظرتي حقدي عليه، وغضبي منه. لم يكن الصحافيّ العراقيّ

يفهم ما نقوله، كان مصرّاً على أن أجيبه، لكنني كنت شديد الانزعاج من الإيراني الذي معه؛ فقلت:

- «لست منزعجاً من العراقيين، فنحن في حرب معهم منذ ثماني سنوات، نحن أعداء، ولكنك إيرانيّ.

بعد قليل توجّهوا الى الطرف الآخر من الجزيرة، كانت الساعة حوالى السادسة عصراً، بقيت ساعتان لغروب الشمس، طلبتُ من الجنديّ الذي يراقبني أن يسحبني الى يمين الجادة، بالقرب من حقل القصب، كي أتقيأ بظل القصب والأعشاب الطويلة على جانب الجادة حينما تميل الشمس الى الغروب. اقترب الجندي، حملني من تحت إبطي، وسحبني إلى يمين الجادة.

تجمّع الدّم في فمي وحلقي، جرّاء ضربة أحد الجنود على وجهي بحذائه العسكري. طلبتُ الماء - عدّة مرّات - من الجنود حولي، لكنّ ثلاثة أو أربعة منهم لم يهتموا لطلبي، اقترب أحدهم، الأكبر سنّاً بينهم، وكان برتبة رقيب، وعلى ما يبدو أنّه، ومنذ سنوات، وهو يرزح تحت هذه الرتبة، قرّب لي قربة مائه، ووضع بعض الماء في فمي، حاول الجنود الآخرون ثنيه عن عمله، لكنّه لم يهتم بهم. كانت نظرته تشفق عليّ، كان الماء بطعم الدم، وكان وجهي ورأسي ممرغين بالتراب والدم، كانت ثيابي، المليئة بالدماء الجافة، يابسة، حتى أنك لا تستطيع طيّها. لم يكن مصيري معروفاً إلى الآن، لا القتل ولا النقل، لم أكن أعلم الى متى عليّ البقاء هنا. كان العراقيون منشغلين بتدعيم خطوطهم الدفاعيّة، فمن الطبيعيّ إذن أن لا يكون لأسير جريح، وفي مثل سنّي، أهمية تُذكر.

مع تكرار كلمة صلاة، كنت أطلب منهم أن يأذنوا لي بأداء صلاتي الظهر والعصر. وهكذا كان، تيمّمت في مكاني، وصليت صلاتي الأولى في الأسر، كانت المرّة الأولى التي أبكي فيها أثناء صلاتي، كنت أبكي لأحزاني وآلامي التي أتحملها، لم أذكر في عمري أنني صليت صلاة بهذه الروعة، أحسست أنني أكثر قرباً من الله من أيّ وقت مضى، كان قلبي منقبضاً، وباطني مملوء بالغصة والألم. لا شكوى، لكنني ضعفت، لم أعد أستطيع تحمّل بقائي حيّاً. عندما أنهيت صلاتي، وجدت عدداً من الجنود يقفون حولي، وينظرون إليّ. كانت نظراتهم مصحوبة بالتعجب والحيرة. سألتني أحدهم:

- «أنت مسلم؟»

كنت أعرف بعض الكلمات العربية البسيطة كـ«نعم» و«كلا»، «أنا مسلم». فقد أمضيت حوالى السنة في وحدة التخريب مع «صادق سيلادي»، وهو من شباب الأهواز العرب، كنت أعرف بعض الكلمات العربية. قلت له:

- «نعم أنا مسلم».

كان الجنود يتكلمون مع بعضهم بعضاً، وقال كلّ منهم شيئاً. كان العراقيون يتكلمون ببساطة محاولين إفهامي ما يقصدونه. كان بعض كلامهم ممكن الفهم بالنسبة إليّ، سألت أحدهم وكان برتبة ملازم:

- «وهل الإيرانيون يصلّون؟».

فهمت ما قاله. كانت نظرة العراقيين هذه للإيرانيين أمراً عادياً، فقد حاك حزب البعث كمّاً من الأكاذيب، لدرجة صدّق معها جنوده أنّ الإيرانيين لا يصلّون، وأنهم مجوس وكفرة.

كم تمنيت لحظتها، لو كنت أُجيد اللغة العربية، لأجيبه وأفهمه أننا نحن الإيرانيين مسلمون، ونصلي، ملتزمون بالأحكام الإسلامية، ومتعلقون أكثر منكم بالأئمة الأطهار عليهم السلام. قال أحد الجنود الذي يعتمر قبعة حمراء:

- «الإيرانيون، كلكم مجوس».

فضّلت تحمّل كلامهم، وعدم إجابتهم. عندما رأوا أنني لا أفهم ما يقولونه، تفرّقوا من حولي ورحلوا. جلس ذلك العسكري الذي أعطاني الماء بالقرب منّي، أمسك بكعب قدمي، طوى ساقِي، وربطها بركبتي بكوفيّته⁽¹⁾ العربية. عندما طوى ساقِي، ولشدة وجعي، كان معظم الجنود الذين يمرّون على الجادة يلتفتون إليّ لسماعهم صوت أنيني، وينظرون إليّ للحظات، لم أستطع إخفاء الأنين، وكنت لشدة ألمي أعصّ على شفّتي، وأحاول أن لا يرتفع صوت أنيني.

لم أستطع تحمّل وضع ساقِي على ركبتي، أكثر من عدة دقائق. شعرت بالعجز والإنزعاج. لا أدري ما أفعل. فكّرت بفكّ الكوفيّة، قد يهدأ ألمي قليلاً، ولكنه ساء أكثر.

بقي حوالي الساعة والنصف لغروب الشمس. حضر عقيد إلى المكان، عندما رأى حالتي، أمر بنقلي من هناك، لكن لا حمالة كي يضعونني عليها، عندما رفعوني عن الأرض، ولكي أخفّف من وجعي، بدأت أردّد آيات القرآن، حملت كعب قدمي بيدي، ووضعوني في قارب. توقّف القارب بالقرب من حقول القصب على يمين الجادة، هناك ثلاثة قوارب عراقية تطفو على الماء، كان شبابنا قد استهدفوها.

(1) الكوفيّة: نسيج من حرير أو نحوه على الرّأس تحت العقال أو يُدار حول الرقبة (المعجم الوجيز).

أمسكني أحد الجنود بكتفي، والآخر بقدمي السليمة، ورموني داخل القارب. حاولت أن أمنع نفسي من الأنين. كانوا يحملونني مجبرين ورغماً عنهم، فهمت هذا الأمر من طريقة تعاملهم معي.

توقّف القارب قليلاً بعد 100 م، بالقرب من موقع «بيت الله»، في المكان نفسه الذي حارب فيه شباب «كتيبة الشهداء الخاصة»، من بينهم «علي محمد كردلو»، «رحمت الله أشكوه»، «علي كريمي»، «حسين برويزي»، «مراد علي سلطاني»، «حسن آرم»، و«حسين درخشان»⁽¹⁾.

لا أعرف ما الذي حلّ بشباب «موقع بيت الله»، كنت أتمنى أن أعرف ما حصل لـ «بهرام درود»، كنت أظنّ أنّه على قيد الحياة. عندما أتذكّر ما قاله في اليوم السابق لشباب وحدة المعلومات: «يا شباب إنّ هجوم العراقيين أمرٌ حتميٌّ، ألا تريدون أن تعرفوا مصير كل واحدٍ منكم؟» عندما أتذكّر هذا الأمر كنت أشعر بغمّ العالم ينزل على قلبي، لقد قاتل شباب «موقع بيت الله» حتى الطلقة الأخيرة، استشهد الشباب جميعهم، باستثناء اثنين.

وضع العراقيون جثتين لجنديين منهم في القارب، ركب معنا، بالإضافة الى الجنديين اللذين حملاني، سائق القارب (موجّه الدقّة)، وضابطٌ آخر. كان الغضب بادياً عليهم، الغضب لرؤيتي ممدداً بالقرب من قتلاهم. من الطبيعي أن ينظروا إليّ كقاتل وكعدو «دم». أعطاهم الحق أن يغضبوا مني. أشار صاحب الرتبة العسكرية الى الجثتين قائلاً لي: «أنت قاتل».

عندما نظروا الى الجثتين، شعرتُ أنّهم قد يقتلونني ثأراً لهما.

(1) استشهد كل هؤلاء الأفراد، باستثناء عليّ محمد كردلو، وكانت جثامينهم مرمية على الجادة.

توقّف القارب للحظات وسط مياه الجزيرة امتثالاً لأمر صاحب الرتبة العسكرية. قلت في نفسي.. لا بدّ وأنّهم سيرمونني في الماء، لم أفهم ما كانوا يقولونه، أو ما يقصدونه، لكنني كنت أشعر بما يفكرون، لم يكن الجنود يخفون ميلهم لرمي في الماء، لكنّ المسؤول عن دفّة القارب وجندياً آخر، على الرغم من إحساسي بكرههم لي، خالفهم الرأي. وقع جدال بينهم، اعتقدت أنّهم يريدون القضاء عليّ بسبب حالتي، فيرتاحون من شرّي. كان وجود جريح إيراني بالقرب من قتيلين عراقيين يستفزّهم، مع أنّ رؤيتهم لقدمي المهشّمة بسببهم كان يرضيهم قليلاً. مع كل هذا أعتقد أنّه من الطبيعي أن يشعروا برغبة في الانتقام.

تحليلي الآخر لتصرّفات العراقيين كان اختبارهم لمدى خوفي من الموت، كنت أروّض نفسي في كلّ لحظة للتأقلم مع أية ظروف طارئة. لكنني كنت أكره الموت في الماء. كنت أرّدد في نفسي، لو كانوا ينوون قتلي فليتهم فعلوا ذلك على جادة الخندق⁽¹⁾.

بعد أن انتهوا من الحديث، أكمل القارب مسيره. أعتقد أنّهم أشفقوا عليّ.

لم أكن أرى مكاناً آخر سوى سماء الجزيرة. كان في القارب عدّة «مطرات» من البنزين، وكميّة من المعلّبات، الفواكه المعلّبة، والخبز. كانت جثّتا العراقيين ممدّتين عن يميني، أحدهما قويّ البنية، قصير الشعر، ذو بذلة مرقّطة، وحاجبان كثيفان، ووجه طويل، أصابته رصاصة

(1) مع أنّي لم أعرف حقيقة ما قالوه، لكنني وبعد هذه السنوات ما زال عندي الإحساس نفسه. ذلك الإحساس الذي يقول لي إنّهم، ولكي يتأروا للجنديين، كانوا يريدون رمي في مياه الجزيرة.

في رأسه. أمّا الجثة الثانية، فكانت لرجل نحيل الجسم، ضعيف الوجه، وهو متوسط الطول، أصابته شظية في صدره وبطنه، وكانت عيناه نصف مفتوحتين. كان يرتدي لباساً أخضر بكمّين قصيرين. عندما كان القارب يتحرّك ويدور في الماء، كنت أرتطم بهما، وكنت أشعر بالانزعاج وبإحساس سيّء. لم أكن أعرف وجهتنا، كنت أظنّ أنهم سينقلونني إلى إحدى مستشفيات العراق، لهذا كنت مسروراً.

الفصل الثّاني:

جزيرة «مجنون» - «موقع الخندق»

السّبت 25 حزيران 1988م - جزيرة «مجنون» - «موقع الخندق»
رسا القارب في الجهة الغربيّة من موقع «الخندق»، بالقرب من
جسور «الخيبري»، نظرت من حولي، فشاهدتُ القوارب المتحطّمة
على مياه الجزيرة. أصبحت الجزيرة هادئة، والإوز البرّي يطير باتجاه
«شطّ علي». كنتُ متأكّداً أنّ معظم طيور البطّ، وكلاب الماء، وبقية
الحيوانات المحليّة التي كانت تسكن الجزيرة، قد لاقَتْ حتفها تحت
النيران التي لم تهدأ، كان هناك الآلاف من الأسماك، وبسبب قذائف
الهاون التي انفجرت في الماء، قد نفقت، وها هي تطفو على وجه مياه
الجزيرة. نقلونا إلى خارج القارب، نزل الجنديّان اللذان كانا يقفان
فوق السّواتر التّرابيّة، وسحباني إلى سائر موقع الخندق، لم يحملاني،
وعندما قاما بجريّ على الأرض، كانت قدمي المجرّوحة تُسحب
ورائي، كنتُ أشعر أنّ السّماء تدور حولي من شدّة الألم. كانت تُسمع
أصواتٌ كثيرةٌ من خلف السّواتر. تعجّبت من إحضارهم لي إلى «موقع
الخندق»، لم أكن أريد الدّخول إلى الموقع بهذه الحال؛ حيثُ هناك
الكثير من الجنود العراقيّين يقفون على السّواتر التّرابيّة، وفوق متاريس
الموقع، عندما أجلتُ نظري في ساحة الموقع، وقعت عيناى على شباب

سريّة «القاسم بن الحسن»، وقد وقعوا أسرى بيد العراقيين. جلست على منحدر السّاتر بالقرب من الخندق، عندما نظرتُ من جديد إلى الشّباب، خنقتني العبرة، وانهمرت دموعي بشكل لا إرادي، كنت أعرف معظم الشّباب، لم أكن أصدّق أنّهم ما زالوا على قيد الحياة، وقد أثّبتُ، في نفسي، على مقاومتهم الباسلة في هذا اليوم.

لقد كنت سعيداً، برؤية معظم الشّباب الذين ما زالوا على قيد الحياة، شعرتُ أنّ السّماء تكاد تطبق على رأسي، تغيّرت نظرة الشّباب حين رأوني بينهم، كما لو أنّهم لم يكونوا يتوقّعون رؤيتي هنا، وعلى هذه الحال، وكانت نظراتهم تحكي عمّا يجول في أنفسهم، وما كانوا يضمرونه، ويتمنّون البوح به. أحياناً، قد يتكلّم النّاس بنظراتهم، ويعبّرون بنظرة واحدة ما يحتاج الحديث عنه إلى ساعات طويلة، وها أنا أكلّم الشّباب بنظراتي، وأفهم نظراتهم المعبرة لي. كان الشّباب يسلمون عليّ بانحناءة من رؤوسهم، وقد انزعجوا من رؤيتي على هذه الحال، فهمت ما قاله لي «نادر بيران» بنظرته: «إذا كان من المفترض أن يصبح وضعك هكذا، فيا ليتك استشهدت».

جلستُ مع المجروحين في باحة الموقع، على بعد أمتار من بقيّة الأسرى السّالمين. وكان من غير المسموح لنا أن نتكلّم مع من يجلس بالقرب منّا، فمنذ ساعة سقط دفاع «الخندق»، ووقع الشّباب في الأسر.

كان الجميع حفاةً، وبالقرب منهم كانت الأحذية العسكريّة والرياضيّة وبعدد الأفراد مرميّة على الأرض. قيّد العراقيّون أيدي الشّباب بأشرطة أحذيتهم العسكريّة، أمّا بعض الذين كانوا ينتعلون

الأحذية الرِّياضيَّة، وبما أنَّ أشرطتهم قصيرة، فقد قيّدوهم بالحبال، وخطوط الهاتف الصَّحراويَّة. كلٌّ من لم أَره في هذا الجمع الغفير، كان قد استشهد، وكنت أشعر بالفراغ الذي تركه كلٌّ من: «جان محمَّد كريمي، إبراهيم نویدی بور، أرجاسب عليّ زاده، حميد فروزان بور، عليّ خجر شفيع نسب، و....».

كانت وجوه الشَّباب ملطَّخة بالتراب. عاقب العراقيُّون الشَّباب على مقاومتهم اليوم بالجلد بـ«كابلات» الهاتف، ازرقَّت وجوه بعضهم، وغطَّى الدم أنوف وأفواه بعضهم الآخر.

قام بعض العملاء من «منظمة مجاهدي خلق»⁽¹⁾ بمرافقة العراقيَّين. وكانت مجموعات المنافقين هذه تقوم بدور التَّرجمة والتَّجسس أيضًا. كان أحدهم في «جادة الخندق» مترجمًا للصَّحفيِّ العراقيِّ، وقد حضر إلى «موقع الخندق» كلَّ قادة العدو من الدَّرجة الأولى الذين كانوا مستقرِّين في «جزيرة مجنون».

كان «موقع الخندق» مهمًّا بالنَّسبة إليهم. وقف أحد القادة العراقيَّين، قيل: إنَّه عقيد وقائد اللِّواء الأوَّل التَّابع للفرقة 16، ثمَّ تقدَّم نحونا، في حين كان أحد أعضاء المنافقين يترجم له، فسأل: «ما الذي يجب أن نفعله معكم أيُّها الإيرانيُّون؟ أنتم مجوس، ويجب إعدامكم بالرَّصاص، ودفنكم تحت سواتر «هذا الموقع»....».

التزم الشَّباب الصَّمت.

(1) منظمة إيرانيَّة معارضة، انحرفت عن مسارها عقب انتصار الثَّورة، وأصبحت العوبة بأيدي المخابرات الأجنبيَّة، فرَّ أعضاؤها ومنسبوها إلى أوروبا وأمريكا والعراق سابقًا. يطلق عليها في إيران اسم «منافقو خلق». (مركز نون)

من الطبيعي أن يغضب هؤلاء العسكريون بهذا الشكل؛ فقد خلط شبابنا اليوم كل أوراقهم وحساباتهم العسكرية⁽¹⁾. أكمل العقيد العراقي كلامه وهو مُقَطَّب الجبين، قائلاً: «لقد أرسلنا لكل منكم أيها المجوس عشرة جنود من خيرة جنودنا، من فدائيي صدام؛ لو كنّا نعلم أنّكم سبعون فقط، أو ثمانون جندياً هنا في «الموقع» لحوّلنا هذه المنطقة إلى جهنم فوق رؤوسكم، فالأمر لم يكن ليأخذ منا إلاّ عدداً قليلاً من الصواريخ، لقد خدعنا، لقد اعتقدنا أنّ هناك لواءً خاصاً من جنود الخميني يقاتلوننا في هذا الخندق، لكننا تفاجأنا بأنكم سرية واحدة.

عندما سمعت ما قاله العقيد العراقي، رأيت الشعور بالافتخار يلوح على وجوه الشباب، وقلت في نفسي: «أولم تحوّلوا «الموقع» اليوم إلى جهنم بالنسبة للشباب؟»، تابع العقيد العراقي، والذي يبدو أنّه متعصب، قائلاً: «أنتم أيها الإيرانيون المجوس، أنتم أعداء أمة محمد والعرب، ولا يجب أن نرحمكم».

أشار بيده إلى مجرى المياه التي كانت قواربهم قد استهدفته، وقال: «أنتم دجالون وقتلة! إنّ الرئيس القائد صدام حسين هو

(1) كانت معلوماتي حول المنطقة، تشير إلى أن الوحدات العراقية العاملة في المنطقة قد استطاعت الوصول إلى أهدافها في جزيرتي مجنون الشمالية والجنوبية، في الطلائية، في كوشك وفي جفير. لكن المنطقة الوحيدة التي بقيت عصية على عملياتهم كانت جادة موقع الخندق. لم يستطيعوا التّقدم إلى هذين المحورين، ما اضطرهم لإحضار وحداتهم إلى الجناحين الأيسر والأيمن لهذه المنطقة. فقد عقد العدو أمه ومنذ الصباح على سقوط جادة «الخندق». وقد توهموا أن السدّ الدفاعي وجادة «الخندق» ستسقط في ساعات الصباح الأولى. كانوا يريدون تأمين الإمدادات العسكرية واللوجستية إلى جزيرتي المجنون الشمالية والجنوبية، إلى شمال غرب كوشك وجزء من «طلائية» عن طريق جادة «الخندق»، فالطريق الوحيد الذي كان يعبر في وسط «الهور العظيم» ومياه جزيرتي المجنون، كان «جادة الخندق».

إنسان طيّب؛ ولذلك هو لا يصدر الأوامر بقتلكم، للأسف فنحن بحاجة إلى أسرى».

أفهمُ جيّداً لماذا كان متوتراً وعصبياً إلى هذا الحد، لقد تمّ تدمير أكثر من 26 قارباً عراقياً في المياه الشرقيّة لجزيرة «مجنون»، وأكثر هذه القوارب أُصيب بنيرانهم هم. منذ صباح هذا اليوم، وبسبب عدم وجود الأسلحة، لم يكن هناك عمل يذكر لمجموعة المدفعية عندنا. هناك، حيث دُمّرت القوارب العراقيّة، لم تعد تطلق من أسلحتنا أو من دبّاباتنا أيّة رصاصة أو قذيفة.

اقترب أحد الجنود العراقيّين من «محمّد صادقي فرد»، وقد رفع يده، وأشار إلى القوارب المدمّرة، والأجساد المرميّة بالقرب من السّواتر، وكرّر هذه الجملة مرّات: «أنت مثل أبي، أنت قاتل أبي»، وكأنّ «صادقي فرد» يشبه والده.

ثمّ اقترب الضّابط العراقيّ الآخر، قائد المروحيّة، من «محمّد صادقي فرد» وتفل في وجهه. فقد كان يظنّ أنّ «صادقي فرد» هو من أطلق النّار على مروحيّته. كان الشّباب قد أطلقوا النّار على المروحيّة من أسلحتهم الـ «غرينوف» والـ «دوشكا»، فأصابوا ذيل المروحيّة. فجاءت اليوم أكثر من 40 مروحيّة عراقية، وقصفت جزيرتي «مجنون»، وقامت بإنزال الات على الجزيرتين ليلاً. وقد تمّ تدمير عدّة مروحيّات للعدوّ.

أهان قادة المروحيّات «محمّد» كثيراً، فمحمّد إنسانٌ شجاعٌ لا يقبل الخضوع، غضب كثيراً من ذلك الطّيّار الذي تفل في وجهه، لكنّه، ولكي يحافظ على أرواح بقيّة الأسرى؛ اضطرّ للسّكوت والصّبر على إهانات

الطَّيَّار العراقيّ.

حضر عقيد عراقيّ لم أعرف ما هي وظيفته، وبقي مع الجنود، ألقى نظرة على الشَّباب ثمَّ بدأ بالكلام، حاول أن يتكلَّم بأدبٍ واحترام، ولم يستعمل الألفاظ الركيكة والنَّابية مثل بقيّة الضُّباط العراقيّين. استعمل جملة: «أنتم قاتلو أبناء العراقيّين»، وهدّد الشَّباب بالقتل، وحين قال: «أنتم لا تستحقّون سوى المَوت»، تحمّس الجنود العراقيّون، سحبوا أسلحتهم وطلبوا الإذن بإعدامنا.

خاطب العقيد الجنود العراقيّين الذين يحملون أسلحتهم قائلاً: «لا داعي لقتلهم، فقد أمرنا القائد الرّئيس بأن نحضر أسرى، وقال: إنّ العراق بحاجة إلى أسرى، إنّ الأسير المكبَّل قد يتلقّى الصّفع من امرأة، وهو أضعف منها، لو كنتم شجعاناً بالفعل (موجّها كلامه لجنوده العراقيّين)، لكنتم قتلتموهم عندما كانوا طلقاء، وكانوا يدمّرون قواربنا، وليس الآن، عندما أصبحوا أسرى بأيدينا، لا ذكاء في قتل من هذا النّوع، سوى أنكم تريقون ماء وجه الشَّعب العراقيّ العظيم».

شعرتُ بارتياح لسماع كلام العقيد، لم يكن الجنود يتوقّعون هذا الكلام من مسؤولهم. وحسب كلام العقيد، الذي كان يتكلَّم بافتخار وقوّة، تم رمي آلاف القنابل، الكاتوشا، الميني كاتوشا (107مم)، والصّواريخ بعيدة المدى الكوريّة والنّمساوية على جادّة وموقع «الخنْدَق». أعتقد أنهم كانوا يريدون أن يستعرضوا قدرتهم الصّاروخية أمامنا، ثم قال العقيد: «لقد تمّ إطلاق أكثر من 30 ألف طلقة على جادّة وموقع «الخنْدَق».

يبدو أنَّ العقيد كان مطلعاً على اتفاقية «جنيف»، ويعرف الأصول والقوانين الخاصّة بأسرى الحرب. عندما خاطب القوّات التي تحت إمرته بهذا الكلام أحسست أنّه يفضّل الحرب بنوعها الشّهيم، تقدّم أحد الجنود، وكان برتبة رائد، أدّى التّحيّة وقال له: «سيدي، إنّ هؤلاء المجوس لا يستحقّون الحياة، يجب أن يتمّ تطهير الأرض من وجودهم، إنّهم يستحقّون الموت فقط».

لم يعط العقيد أهميّة لكلام الرّائد، وبعد انصرافه، لجأ الجنود إلى العدوانيّة والعنف، فتحوّل الشّباب، وخاصّة ذوي اللّحي الطّويلة، إلى أكياس ملاكمة.

هدّدنا الجنود العراقيّون، وأمرونا بشتيم الإمام، رفض الشّباب بغضبٍ هذا الأمر. وقف أحد الأسرى، لم أكن أعرفه⁽¹⁾، وقال للرّائد العراقيّ بأدب: «نحن أسراكم، ونحن في إيران لا نجبر أسراكم على شتم صدام، إنّ هذا الأمر مخالفٌ للإسلام، عاقبونا كما تريدون، ولكن لا تطلبوا منّا أبداً أن نهين مرجع تقليدنا». لم يؤثّر كلامه أبداً على الرّائد، بل على العكس، هجم الجنود عليه، سحبوه من بين الشّباب وانهالوا عليه ضرباً على معدته وصدره، لم يوفّروا مكاناً في جسمه، ثمّ أكمل الرّائد قائلاً: «إذا لم تهينوا الخميني فإنّنا سنعدمكم رمياً بالرّصاص!».

سحب الجنود «حسين راد» من بين الأخوة، وقالوا له: «اشتم الخميني!» لكن حسين الذي كان شابّاً شجاعاً، وقد استشهد أخوه في الأيّام الأولى من الحرب، أجاب الرّائد قائلاً: «أموّت، ولا أشتّم

(1) عرفت لاحقاً أنّه «محمّد فارّ اللهي»، أحد أبناء محافظة بهمنّي.

الإمام»، فانهاال العراقيون عليه بأحذيتهم وأسلحتهم، ثم انقضوا على الشباب كلهم، حتّى الأسرى الجرحى لم يسلموا منهم. استولى العراقيون على أحذية الأخوة، وألبستهم الجديدة، وقد تمّ تأنيب الشباب الذين يرتدون ألبسة جديدة. عادة، كانت الموضة في الجبهة تقتضي أن يرتدي معظم الشباب البنطال الكرديّ وقميصاً له جيبان، بنّياً أو عسكرياً. في كردستان، كنّا نرى معظم القادة والحرس وحتّى شباب التعبئة القدامى يرتدون هذا الزيّ، الزيّ الذي لفتَ نظر العراقيين.

كان «عناية الله مصطفى بور» يجلس بالقرب منّي، كان وجهه مليئاً بالكدمات على أثر ضرب العراقيين له بأحذيتهم، كان شخصاً محترماً وخجولاً بعض الشيء، كان نحيلاً بريء المحيّا، قلتُ له: «لماذا أنت منزعج؟ أنت كبيرهم، ويجب أن تبثّ العزيمة والأمل في قلوب الشباب».

أجابني بغصّة وانزعاج شديد: «منذ دقائق، عندما جاء العقيد العراقيّ إلى الموقع، سأل عن قائد السريّة التي كانت في موقع «الخدق»، وعندما قال الشباب: إنّ القائد ونائبه قد استشهدا، سأل العقيد: «وأيّن جثّاهما؟».

أشار الشباب إلى جثة كلّ من «جان محمّد كريمي»، قائد سريّة القاسم بن الحسن عليه السلام ومساعدته «إبراهيم نویدی بور». طلب من المسؤول عن دفّة أحد الزوارق، أن يحضر كمّيّة من «البنزين»، وعندما عاد، كان في يده «مطرة» من البنزين. أمر العقيد برشّ البنزين على جثتي «جان محمّد»، و«إبراهيم»، لم يصدّق أحدٌ أنّ العراقيين يمكنهم

فعل هذا العمل، لقد أمر العقيد العراقي منذ نصف ساعة بحرق جثة هذين الشَّهيدَين، واحترقنا أمام أعيننا.

كان من المفترض أن يأتي منذ عدَّة أيَّام الحاجَّ «سيف الله حيدر بور»⁽¹⁾، قائد لواء «الفتح 48»، وأن يُرقيَّ الشهيد «جان محمد كريمي» إلى قائد لكتيبة الزَّهراء عليها السلام، لقد قال «جان محمَّد» يومها: «لننتظر؛ كي يتمَّ الحسم في مسألة الهجوم العراقي المضادَّ، وسأبقى حتَّى ذلك اليوم قائداً لسريَّة القاسم بن الحسن عليه السلام». بعد الهجوم المضادَّ، إذا بقيتُ على قيد الحياة، أستلم عندها كتيبة السيِّدة الزهراء عليها السلام. كان السَّباب في كتيبة السيِّدة الزَّهراء عليها السلام بانتظار استلام «جان محمَّد» قيادته، ولكن ها هو جسده المحروق مسجَّى على الأرض أمامنا.

لم يستطع «عناية الله» أن يتمالك نفسه عن البكاء، لقد فُقدَ أيضًا أعزَّ أصدقائه «حميد فروزان بور». كان جسده مسجَّى على التُّراب هناك على بعد أمتار. قال «عناية الله»: كنت أريد أن أقبل جبين الشَّهيد «فروزان بور»، وعندما رأني العراقيُّون، هجموا عليَّ، ورموني بأعقاب بنادقهم على جسد «فروزان بور»، لأنَّني أردتُ تقبيل الشهيد فقط.

لفتت ساعة «عناية الله» نظر أحد الضُّباط العراقيَّين، فاقترب وأخذها من يده. كانت السَّاعة قد تعطلَّت في مواجهات اليوم، عندما التفت الضَّابط إلى هذا الأمر، غضب وضرب وجه «عناية الله» بحذائه.

- لماذا، خرَّبت هذه السَّاعة؟

(1) بور: تلفظ: Pour.

- تعطلت خلال المواجهات.

لقد اعتقد أن «عناية الله» قد عطّل السّاعة عن قصد. عندما هدأ الضّابط قليلاً، قال «عناية الله»: «لو كنت أريد أن أعطّل هذه السّاعة قصداً، لرميتها في الماء».

ها هو الصّحفيّ الذي كان يَصوّر، رأيناه على جادّة «الخندق» قد ظهر مرّة ثانية. كان يلتقط الصّور للشباب المكبّلة أيديهم⁽¹⁾. طلب العراقيّون من الشّباب أمام الكاميرا شتم الإمام، لكنّ محاولاتهم باءت بالفشل، لم يتمّ تصوير الأسرى المجروحين، لم أفهم في البداية مغزى عملهم، ولكن في ما بعد انكشفت الأسباب.

كان المصوّر يفتّش عن موضوع لافِت، اقترب أحد الضُّباط العراقيّين أخذاً بنصيحة المصوّر، وتوجّها معاً إلى «تاج محمّد عليّ بور»، وكأنّه يمكن أن يكون سبقاً صحافياً. أصابت إحدى الشّظايا رأس «تاج محمّد»، وغطّت الدّماء شعره. اقترب الضّابط النّحيل ذو القامة الطّويلة، فتح (قنينة) الماء وهمّ بإراقة الماء على رأس «تاج محمّد». أراد العراقيّون الذين منعونا عن الماء حتّى هذه اللّحظة، أن يغسلوا الدّماء عن رأس «تاج محمّد» أمام الكاميرات. أمّا «تاج محمّد» الذكيّ اليقظ، التفت إلى هذا الأمر وأزاح رأسه، ولم يقبل أن يغسل الضّابط الدّماء عنه، فاستشاط الضّابط غضباً، وانهاه عليه أربعة من الجنود بالضّرب بقبضاتهم وركلاتهم. فيما بعد، عندما انهال العراقيّون علينا بالضّرب بأعقاب بنادقهم، قال حينها «تاج محمّد» ساخراً:

(1) تم عرض الفيلم الذي صُوّر في ذلك اليوم وقد بثّه القنوات الإبرانيّة، وقد عرفت العائلات. ما عدا عائلي، وعوائل بعض الجرحى الآخرين. أن أبناءهم على قيد الحياة، وهم أسرى عند العراقيّين.

«تضربون هذا الرأس الذي أردتم منذ لحظات أن تغسلوه بالماء؟». كانت شمس «جزيرة مجنون» الجميلة تغربُ شيئاً فشيئاً، وتَجْمَعُ معها أشعَّتُها الصِّفراء والبرتقاليَّة، رجا الشَّبَابُ الجنودَ العراقيينَ ليسمحوا لنا بالصَّلَاة، رفض بعضهم الأمر. لكنَّ أحد الضُّباط، يبدو أنَّه ملتزمٌ بالأمور الدينيَّة، استطاع إقناعهم بالسَّماح لنا بالصَّلَاة، فأمر هذا الضَّابط بفكِّ أغلال الشَّبَاب كلَّ عشرة على حدة للصَّلَاة، تيمَّم الشَّبَاب وصلُّوا صلاتهم الأولى في الأسر، دون وضوء. عندما التفت بعض الشَّبَاب إلى أن وقت صلاتهم قد يمرُّ بانتظار دورهم، صلُّوا دون تيمُّم أو وضوء ودون فكِّ قيودهم.

في هذه اللَّحظات، انهالت الأفكار عليَّ وبدأت تعذِّبني، مرَّت اللَّيلة الماضية في خاطري، حين كان الأحبَّة مجتمعين بصفاء ومحبة في هذا الموقع، واعتصر الحزن قلبي عندما رأيت كيف تغيَّرت الأوضاع بين ليلة وضحاها.

أجلت نظري، وللمرَّة الخمسين، على وجوه الشَّبَاب المظلومة والمتعبة. شعرتُ أنَّهم حتَّى الآن لا يصدِّقون أنَّ هذا هو مصيرهم في الحرب. وضع الجنود العراقيُّون جسوراً متقلَّة؛ كي يستطيعوا نقل شبابنا إلى مناطقهم الخلفيَّة، المواجهة لهذا الموقع. منذ اللَّحظات الأولى لسقوط الموقع، بدأت الجَرَّافات العراقيَّة تعمل على ردم المسافة الفاصلة بين دشمنا وبين مواقعهم، والتي تبلغ حوالي 50 متراً، وكنا نرى على الجادَّة بالقرب من الموقع، الكاميونات التي تُحضر التُّراب دون توقُّف.

قال لي «عليّ محمّد كردلو»⁽¹⁾ فيما بعد: «بعد ظهر ذلك اليوم الذي أحضرونا فيه من موقع «بيت الله» إلى الجادة الترابية التي توصل إلى موقع «الكرام»، كانت الجرّافات العراقية تهيل التراب على جثث قتلاهم، وقد تعجّبت يومها من عدم نقل العراقيين لقتلاهم خلف جبهة القتال».⁽²⁾

عندما تمّ وضع الجسور العائمة، أخذ العراقيون الأسرى، ونقلوهم إلى الطرف الآخر من الموقع. كانت الشاحنات، جاهزة لنقل الأسرى، كانت أيدي الشباب مكبّلة، وخوفاً من أن يرمي الشباب بأنفسهم إلى الماء ويهربوا، كبّلوا أيضاً أقدامهم بالأغلال. سأل الضابط العراقي الشباب: «من منكم يستطيع السباحة؟ أجاب أربعة أو خمسة منهم:

(1) كردلو: تلفظ: Gherdaloo.

(2) في صيف العام 1998م، ذهب برفقة المهندس «أسد الله أسديان»، المدير التنفيذي لشركة توزيع الكهرباء في خوزستان والسيد «رضا دارابي»، قائد البسيج في تلك الشركة، إلى عبادان، أخبرني «سياف قرباني» مدير الكهرباء في منطقة الجنوب «عبادان وخرم شهر» قائلاً: «كوننا نؤمن الكهرباء للمراكز الحدودية العراقية في «شلمجة»، كانت علاقتنا مع الجنود العراقيين جيدة. أضاف قرباني: «كانت مجموعة البحث عن الشهداء والمفقودين تتعرف على رفاة بعض الشهداء من عمليات «كربلاء 5». وكان بين اللوحات المعدنية والعظام التي تمّ استخراجها حوالي الثلاثين أو الأربعين لجنود عراقيين. فصل الإيرانيون رفاة القتلى العراقيين وقدموها لمركز شلمجة العراقي. كان شباب الحرس في شلمجة، يأخذون الرفاة واللوحات المعدنية للشهداء، فكانوا يضعونها في ثوابيت، يلفونها بالأعلام الإيرانية ويزيّنونها بورود الشقائق. وكالعادة كانوا يرتّبون الثوابيت بشكل خاصّ على النافلات باحترام وإجراء التحية العسكرية، وكانوا يخرجونها من شلمجة لتتوزّع على المدن الإيرانية. أمّا العراقيون فكانوا يأخذون العظام واللوحات المعدنية، وعلى بعد حوالي 500 متر خلف المركز الحدودي كانت الجرّافات تحفر. وإذا بهم يضعون العظام واللوحات ويدفنونها هناك. مرّة، سألت المسؤول العراقي عن منطقة البصرة: «لماذا لا توصلون هذه الرفاة إلى أهلها وتدفنونها كلّ في مدينتها؟ أجاب العقيد بضحكة ساخرة: «لقد انتهى تاريخ هذه الجثث، وستسبّب لنا إرباكاً (وجعة رأس)، لا يجب أن نرسلهم إلى مدينتهم. ستحيا ذكرى الحرب مرّة ثانية في قلوب العراقيين، من الأفضل دفنهم هنا، وتابع العقيد العراقي: «أنا أتعجب منكم أيها الإيرانيون، لماذا كل هذا الازدحام في شلمجة؟»

«نحن»، بدا أنهم لم يعرفوا المقصود من كلامه، فأمر الجنود بالإسراع بتكبيْلهم.

حمل العراقيُّون الشَّباب برفش الجُرَّافة، ورموهم وهم مكبَّلون داخل الشَّاحنات. في هذا الوقت، طلب أحد الضُّباط من سائق الجُرَّافة أن يفك قيود الشَّباب، وبعد أن امتلأت الشَّاحنات مرَّة ثانية، أعيد تقييد الشَّباب، وتمَّ ترحيل شباب «موقع الخندق».

عندما كان الأسرى الأصحَّاء يخرجون من «موقع الخندق»، جاء عددٌ من الشَّباب، ومنهم «حسين راد» و«محمَّد ثار اللّهي»؛ ليأخذوننا معهم، كنّا نحن «السَّتَّة جرحى» غير قادرين على المشي أبدًا. في هذه اللّحظة ارتفع صوت أحد الضُّباط العراقيّين وقال لهم: «ارجع»، فصاح حسين بعصبية: «ألا تريدون أن تأخذوا الجرحى معنا؟

فقال الضَّابط بصوت عالٍ: «كلّا، المعوَّقون سيبقون هنا».

ذهب «حسين» و«محمَّد»، وحين ذهبنا، لاحظتُ القلق والانزعاج على وجهيهما من عدم السَّماح لنا بالذهاب مع الشَّباب، أحسنا بالوحدة، كنّا نتمنّى أن نكون بالقرب من الشَّباب، لم نكن نعلم ما هو المصير الذي ينتظرنا، لقد ارتاح بال العراقيّين من أننا نحن السَّتَّة، لا نستطيع الفرار أو القتال.

كانت السَّاعة حوالي العاشرة والنِّصف ليلا، نقلونا إلى أعلى (سطح) الموقع، وأجلسونا على دشمة اسمنتية هذه الدُّشمة التي كان يستريح عليها الشَّهيد «جان محمَّد كريمي» البارحة، «إبراهيم نویدی بور» وعدد من شباب سرّية «القاسم بن الحسن»، وها نحن اليوم مع العظام المحروقة للشَّهيد «كريمي»، و«نویدی بور»، على بعد

10 أمتار، ضيوف تراب موقع الخندق، والقيود العراقية في أيدينا. كُنَّا سِتَّةَ أشخاص: «السَّيِّدُ عَلِيٌّ صَالِحٌ رَايْكَان»⁽¹⁾، «السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ شَفَاعَتُ مَنْش»⁽²⁾، «اللَّهُ خَوَاسْتُ بَزْشَك»⁽³⁾، «هَجِيرُ آبَسَوَارَان»⁽⁴⁾، «أحمد سعيدي»⁽⁵⁾ وأنا.

كان «السَّيِّدُ عَلِيٌّ صَالِحٌ رَايْكَان»، من منطقة دهدشت، نائب قائد كتيبة رسول الله ﷺ، وقد قطعت يده اليمنى في عمليَّات «كربلاء 4». كنت صديق أخيه «وليَّ مُحَمَّد»، ذلك الرَّادود الحسينيَّ المميَّز، صاحب القلب النقي. هو اليوم في موقع «بيت اللّهي»، في عمليَّات «كربلاء 4»، أي: تلك العمليَّات التي قطعت خلالها يد السَّيِّد «عليَّ صالح»، الَّذِي كُنْتُ «عامل التَّخريب» في كتيبته. كان السَّيِّد من أولئك الأشخاص الَّذين تعشقهم قلوب التَّعبويِّين (البسيج) بسرعة؛ لذلك كان يطلق عليه معظم الشَّباب لقب «خرازيُّ» اللّواء (المقصود به الشَّهيد حسين خرازي، وهو أحد الشَّهداء القادة المعروفين في إيران الَّذين جذبوا بقلوبهم الطَّاهرة آلاف التَّعبويِّين).

أمَّا «السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ شَفَاعَتُ مَنْش»، فهو من محافظة «كهكيلوية»، وكان قائد إحدى الفصائل في كتيبة الإمام عليٍّ عَليَّه السَّلَام، أصيب في قدمه اليسرى، كان إنساناً شجاعاً ومقدماً، بالإضافة إلى أَنَّهُ يَتِمَّعُ

(1) «السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ صَالِحٌ رَايْكَان»، استلم بعد إطلاق سراحه، إدارة مؤسسة الشَّهيد في محافظة «كهكيلوية».

(2) «السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ شَفَاعَتُ مَنْش»، ما زال في الحرس الثَّوري لعشائر محافظة «كهكيلوية»، وبوير أحمد.

(3) «اللَّهُ خَوَاسْتُ بَزْشَك»، هو الآن في التَّعبئة التَّربويَّة للحرس الثَّوري لمحافظة «بوير أحمد».

(4) كان «هَجِيرُ آبَسَوَارَان» في الحرس، وقد أكمل عمله في الحرس في منطقة «لنده» بعد إطلاق سراحه.

(5) «أحمد سعيدي»، حاليّاً أحد أعضاء الحرس في محافظة «كهكيلوية».

بروح نكتة ذكيّة، وقد احترق وجهه وجسده بشكل كبير بعد أن انفجرت دبابة «تي 72» روسيّة على بعد خمسة أمتار منه. أمّا أخوه «السَّيِّد خدايا»، والذي كان من طلبة العلوم الدِّينيّة، «فُقِدَ أثره»⁽¹⁾ في شهر آذار من العام 1984م في منطقة «الطَّلَائيّة».

أمّا «الله خواست بزشك»، فهو من «بوير»⁽²⁾ أحمد، وقد جُرح في معدته وقدمه، كان العراقيُّون يظنُّون أنّه طبيب، بسبب اسم عائلته، فكانوا يريدون أن يكتبوا اسمه في لائحة الأطباء، لكن «الله خواست» كان يقول لهم: إنّ عائلتي هي «بزشك» (والتي تعني باللغة الفارسيّة طبيباً)، لكنني لستُ طبيباً.

و«هجير آبسواران» من منطقة «سوق»، التّابعة لمحافظة «كهكيلوية»، أصابته إحدى الشّظايا في قدمه اليمنى، ولم يعد باستطاعته المشي، كان في متراس كمين أثناء الهجوم (العراقي)، هذا المتراس، الذي كان في الحقل المواجه لـ «موقع الخندق»، وكان عبارة عن إحدى الدّبابات العراقيّة التي أحرقها الشّباب الإيرانيُّون في عمليّات «بدر»، وكانت تبعد عنّا حوالي 50 متراً. يفصل بين «متراسنا» وبين العراقيّين مستنقع. لقد جرح «هجير» عند السّاعة الرّابعة صباحاً تقريباً، وقد سحبه الشّباب منذ ذلك الوقت إلى جانب أحد أبواب متاريس الموقع، كان «هجير» يراقب شباب الموقع، ودفاعهم الشّجاع، قال «جابر كريمي»: كان «هجير»، الذي لم يكن باستطاعته الحركة، يملأ أمشاط أسلحة الشّباب بالرّصاص.

(1) (هناك عدد من الجنود الإيرانيّين ليسوا شهداء، ولا أسرى، بل مازالوا مفقودين، ولم يتم الإعلان عن شهادة بعضهم إلى الآن ويطلق عليهم عبارة «مفقودو الأثر»).

(2) بوير: تلفظ: povir.

«أحمد سعيدي»، كان أيضاً من منطقة «سوق»، أصيب بشظية في معدته، فخرجت أمعاؤه من مكانها، ومع أنَّ الشَّباب ربطوا معدته بالأقمشة والكوفيَّات، وحاولوا إدخال أمعائه مرَّة ثانية، لكن الأمر كان يبدو صعباً، فالأمعاء تخرج دون توقف.

بعد الإصرار والضغط الذي قام به «السَّيِّد عليّ صالح»، قَبَلَ العراقيُّون فكَّ قيودنا لنتمكَّن من أداء صلاة المغرب والعشاء. ولكي نصلي دون مشكلة، اقترب «الله خواست» ونزع صورة صدام التي كانت أمامنا على الحائط، عندما رآه الجنديّ، الواقف على مدخل الخندق، غضب، وضرب «الله خواست» بأخمص بندقيته على رأسه، مع أنَّ الجنديّ لا يفهم كلامنا فإنَّ «الله خواست» أكمل قائلاً: «إنَّ هذه الصُّورة تذكِّرنا بذنوبنا» لكن الجنديّ أخذ الصُّورة، وأعاد وضعها في المكان نفسه، أَجَبَرْنَا أنفسنا على الصَّلَاة ونحن ملتصقين بحائط الخندق.

كان العراقيُّون يريدون أن يعرفوا ما الَّذي كان يفعله السَّيِّد عليّ صالح بيد مقطوعة على الجبهة، فقد احتملوا أن يكون قائداً مهماً. قال السَّيِّد للشَّباب: «كلِّكم تعرفونني، وهم لا يعرفونني لغاية الآن، إذا سألوكم ما هي مسؤوليتي على الجبهة، أجيَّبوهم بأنني جنديّ عاديّ، لا تكتموا كوني في الحرس، ولكن لا تبوحوا برتبتي ومسؤوليتي».

إنَّها آخر ساعات اللَّيل، كان عددٌ من عناصر «المنافقين» (منافقو خلق) لا زالوا في «موقع الخندق». أخرجنا العراقيُّون. نحن الستة. كلُّ على حدة، وحقَّقوا معنا، كان اثنان من منظمة «منافقي خلق»

يرافقان العراقيين في هجوم اليوم، وكان العراقيون يحاولون إزلالنا من خلال قولهم لنا: «انظروا هؤلاء ليسوا عراقيين، إنهم إيرانيون وهم يحاربونكم».

لقد تلقيت رسالته، وها أنا أرد له الجواب: «ها هو فيلق بدر ليسوا إيرانيين، إنهم عراقيون، لكنهم يحاربونكم، فكل واحد له دافع خاص للمشاركة في الحرب».

لقد أسر العملاء المنافقون «السيد فاضل فضليان» في جادة «الخندق». كان «السيد فاضل» عنصر الحرس الوحيد الذي استطاع رمي نفسه في مياه الجزيرة قبل أسره، والهرب من «موقع الخندق». وصل الدور إلى «السيد علي صالح»، الذي أبقوه في «موقع الخندق»، على الرغم من أن إصابته ترجع إلى سنة ونصف خلت. لكني لا أعرف لماذا لم يأخذوه مع الأسرى الأصحاء. يعرف البعثيون أن شخصاً بيد واحدة في «موقع الخندق»، يعني أنه ليس عنصرًا عاديًا، وكأنهم تساءلوا: فماذا يرومون من شخص لا يد له في الخطوط الأمامية، لا يمكن أن يكون جنديًا عاديًا. صحيح أن لا يد له، لكنه يملك عقلاً.

قبل أن يطلبونا للتَّحقيق، وحَدنا كلامنا. كان الجنديُّ على المدخل يحدِّق بنا. خفت للحظة، وقلت في نفسي: «ماذا لو كان هذا الشخص يعرف الفارسيَّة ويفضحنا». اتَّفَقنا مع «السيد» على أن نقول أنه في الحرس، لكنَّه ليس من قادة الحرس، أكمل «السيد علي صالح» قائلاً: «أمَّا فيما يتعلَّق بيدي المقطوعة، قولوا: إنني حين كنت في الحي، في إحدى المرات كنت أنقل القمح إلى المطحنة، وحين وضعتُ القمح، علقت يدي بحبل المطحنة وقُطعت».

حين سألنا العراقيون عن يده، وأجبناهم كلنا بأنها قطعت في الطّاحون، بدا على وجوههم أنّهم لم يصدّقوا كلامنا، كان هدفهم فقط كشف هويّة «السّيّد علي صالح».

مضى من الليل نصفه، لكنّنا لم يغمض لنا جفن، مرّقتُ بنطالي «الكردي» من المكان الذي دخلته الشّظيّة، كان جرحي عميقاً، لكنّه لم يكن يؤذيّني كثيراً، ضمّدت جرحي بأحد القمصان العسكريّة التي كانت في الخندق، أمّا «السّيّد صالح»، فقد كان غارقاً في التّفكير، لا يشعر بشيء حوله وهو يركّز نظره في مكان ما، أو بالأحرى في زمان ما، كنت أفهم جيّداً ما الذي يدور في خلدِه.

ساد الهدوء كلّ الخندق.

صدفتنا أحداث طيلة هذا النّهار، لم نكن نصدّق أن يكون نصيب «جزيرة مجنون» من هذه المعركة على هذا النّحو، كنت أظنّ أنّ بعضهم قد خاننا وطعننا في الظّهر. لا أدري قد أكون مخطئاً.

كان لدى «السّيّد صالح» الكثير من الكلام، كان يلوم نفسه؛ لأنّ معظم من كان تحت إمرته قد وقع في الأسر، مع أنّه غير مقصّر. كان «السّيّد عليّ صالح، هجير، الله خواست، وأحمد» الذين وقعوا في الأسر في «موقع الخندق»، يريدون أن يعرفوا. وأنا أيضاً. ما الذي حصل يومها في جادّة «الخندق».

حدثتُ «السّيّد صالح» بكلّ ما يتعلّق بجادّة «الخندق»، وقد كلّمنا هو عن الملحمة التي سطرها شباب «موقع الخندق».⁽¹⁾

(1) بدأ العدو بالقصف في الساعة 10 و3 دقائق فجراً. وانقطع منذ تلك اللّحظات الاتّصال بين شباب «موقع الخندق» وقيادة المحور. سمعت لجنة قيادة اللّواء المتمركزة على تقاطع الطّريق بالقرب من

المحور، آخر كلام «السَّيِّد عليّ صالح». لقد اخترق العراقيُّون وبمساعدة المنافقين موجة اللاسلكيّ التي كان يتحدث عليها الشَّباب، وبدأوا يتكلَّمون مع السَّيِّد صالح بالفارسيَّة والعربيَّة واللَّهجة اللُّورية البيخترية. حوالي السَّاعة 5,45 دقيقة صباحاً، نادى السَّيِّد شكر الله واهبي زاده قائداً كتيبة رسول الله ﷺ وطلب من «السَّيِّد عليّ صالح» أن يتوجَّه إلى موقع «بيت الله» و«تشراغتشى»، كي يعيد تنظيم سرِّيَّتي الإمام السَّجاد عليه السلام والإمام المجتبى عليه السلام بناءً للظُّروف والأحوال المتغيرة. لكن «السَّيِّد صالح» قال بلهجته المحبَّبة: «فدتك روحي، اذهب أنت أريد أن أبقى مع الشَّباب هنا، إنني اشعر بالارتياح وأتأقلم أكثر معهم هنا، أنا لا أبادل هؤلاء الشَّباب بالدنيا وما فيها. إذا كان من المفترض أن أموت أفضل الموت معهم. اثناء خروج «السَّيِّد واهبي زاده» من الموقع نادى «جان محمد»، لم يكن «السَّيِّد صالح» يريد أن يبلغ «واهبي زاده» أن جان محمد قد استشهد. كان واهبي زاده يحب «جان محمد» كثيراً وكان مضرب المثل بحبِّه لقائد سرِّيَّته.

مرَّةً ثانية، نادى «واهبي زاده» صديقه «جان محمدي»، وساد قلق في المكان، فماذا يقولان؟ تقدَّم «السَّيِّد صالح» وقال له: «اهدأ، لقد استشهد جان محمد وإبراهيم»، ولكن لا تقلق على هذه المنطقة. عندما سمع «واهبي زاده» هذا الخبر وضع يده على خصرته وجلس. قال السيد علي صالح: عندما بلغت «واهبي زاده» خبر شهادة «جان محمد»، عاد إلى ذهني مشهد إبلاغ «محسن رضائي» خبر شهادة «حسن باقرى»، شعرت أن ظهره قد انكسر. لقد خسر «واهبي زاده» قائداً ومساعد سرِّيَّته في أحلك الظُّروف وأكثرها صعوبة.

حوالي الساعة 6,30، سلَّم «واهبي زاده» سرِّيَّة القاسم بن الحسن عليه السلام إلى «السَّيِّد صالح»، وطلب اتِّخاذ الإجراءات اللَّازمة لدمج السَّرِّيَّتين تحت إمرته، وها هو يترك الموقع. كان القصف ينهمر كزخَّات المطر. أبلغنا «واهبي زاده» أنَّه رأى العراقيَّين داخل القناة، في طريقه لرؤية شباب سرِّيَّة الحسن المجتبى عليه السلام الذين كانوا في الموقع الخلفي. رمى العراقيُّون الذين تسلَّلوا واستقرُّوا بين السَّرِّيَّتين الأولى والثَّانية، قنبلة على «واهبي زاده» الَّذي جرح بسببها. أمَّن له الشَّباب تغطية بالرَّصاص؛ كي لا يسمحوا لقائدهم أن يقع في الأسر، فهو صيد ثمين للعراقيين. كان «وهبي زاده» يدير قيادة السرايا عبر اللاسلكيّ. ثمَّ توجَّه من القناة شمال الجادة إلى «تشراغتشى»، حيث أصبح محاصراً هناك. حين التفت «واهبي زاده» إلى أنَّ كلَّ شيء قد انتهى، رفع يده السليمة ووقع أسيراً. لكن العراقيَّين وفي زحمة الغبار والقصف والرَّمال لم ينتبهوا إليه، فاستطاع هو أيضاً استغلال الفرصة، ركض ناحية «بيك أب» صغير ويده المجروحة نوح بالفرار منهم إلى «تشراغتشى» ومن ثمَّ استطاع الوصول إلى «تقاطع المحور». لقد جرح قائد كتيبة رسول الله ﷺ في أصعب الظُّروف. كان «واهبي زاده» من أولئك القادة الَّذين يتصفون بالتَّيبر وحلِّ المشكلات حتَّى في أصعب الظُّروف وأكثرها تعقيداً. قاد كتيبته بأقلِّ الخسائر، وكان يتخذ القرارات الصَّائبة في أسرع وقت. عاد بسرعة من «تقاطع المحور» إلى ميدان «تشراغتشى»، ثمَّ تابع بجسده المجروح قيادة كتيبته. كان آخر اتِّصال له «السَّيِّد صالح» في السَّاعة النَّاسعة صباحاً. عندما انقطع الاتِّصال بينهم، ولكي يحافظ «السَّيِّد صالح» على ارتفاع معنويَّات الشَّباب في الموقع؛ بدأ ينشد للشَّباب شعراً ملحقاً لازمته «يار يار» أي «حبيب، حبيب». غلبت الدَّمة «واهبي زاده» الَّذي رأى حوالِي الثَّمانين أو التَّسعين من شبابه على قباب قوسين من الأسر،

كانت حكاية شباب «الخنديق» حكاية مؤلمة ومُمرّة. فهناك الكثير من الأسئلة كانت تقلق أذهان الشّباب، أسئلة دون إجابات: لماذا كانت أسلحتنا وذخيرتنا قليلة؟ لماذا لم يصل الدّعم، الأسلحة والإمدادات؟ لماذا لم يُقدّم أحد على مساعدتنا، ويحاول خرق الحصار؟ لماذا كان مصير جزيرة «مجنون» هكذا؟ ولماذا ولماذا؟

لقد قاوم شباب «موقع الخندق» ببسالة وشراسة على أمل وصول الدّعم من خلف الجبهة. لم يتوقّعوا الوقوع في الأسر. قال «السّيّد علي صالح»: لو أنّ الشّباب عرفوا أن لا دعم، ولا محاولات لكسر الحصار، لاختلّفت الأوضاع؛ لما وقعنا في الأسر؛ كان كلّ الشّباب يعرفون السّباحة، لو كانوا يعرفون ما سيحصل، لرموا بأنفسهم في الماء

وبدأ يعتذر من «السّيّد صالح» على عدم قدرته على إنقاذهم من هذا الوضع. قال: «لن أسامح نفسي لو كنت أستطيع أن أقوم بعمل ما ولم أقم به». تابع استلام دفعة الأمور إلى اللّحظة التي أغمر عليه بسبب إصابته.

إنّ القنّة التي حضرها الشّباب في الجهة الخلفيّة لـ «موقع الخندق» أثناء هجوم الأعداء كانت استراتيجية؛ لأنّها جعلت مياه الجزيرة تملأ هذا المكان فصعّب مرور الأعداء أو هجومهم من الخلف علينا؛ لأنّ هذا الأمر جعل تقدّم الدّبابات وحاملات الجند صعباً جداً. ولكن محاصرة الشّباب في هكذا ظروف، زاد من إحساس الشّباب بالغربة والوحدة، وها هم عاجزون عن الحركة. إذا ما تم احتلال «موقع الخندق» سترجع الشّباب ويستقرّون في موقع «بيت اللّهي» وفي موقع «الطبرسي». أي: التحصينات الواقعة خلف القنّة التي تحدّثنا عنها. مع وجود هذه القنّة كان من الصعب جداً خروج الشّباب، والانتشار على الجادّة الأساسيّة، وبالتالي مواجهتهم للعراقيين، ثمّ قتالهم وعدم الوقوع في الأسر. لقد تحوّل الموقع إلى جزيرة تحيط بها المياه من جهة، والعراقيون من جهة أخرى. فلم يعد بالإمكان إيصال الإمدادات البشريّة أو الغذائيّة. إنّ توقع هذا الأمر منذ عدّة أيّام هو الذي جعل «واهبى زاده» قائد كتيبة رسول الله يقدّم استقالته؛ لشدّة غضبه؛ لأنّه قال إنّ بهذا العمل قد حكمنا على شباب الموقع بأن يُحاصروا داخله؛ لأنّ إمكانية ردم هذه الهوة أمر صعب جداً. ولكن عندما رأى الطّروف الضّربة التي تشير إلى الهجوم الحتمي للعراقيين تراجع عن استقالته. وها هو الموقع وحيد مع شبابه الذين يواجهون هجوم العراقيين الذين أحاطوا بنا من كلّ الجهات، وعلى الرّغم من أن المستنقعات كانت تحيط بالموقع فإنّ العراقيين.. وبعد ساعات من المحاولة.. هاهم أمامنا بكامل أسلحتهم.

ونَجَّوا من هذه المحنة.

عندما سألتني عن تقدّم العراقيين، أجبتُه:

- كان العراقيون قد تقدّموا إلى جادّة «سيد الشهداء»، منذ السّاعة العاشرة صباحًا.

- ماذا عن المقرّ السّادس للحرس؟

- يقولون: إنّ الأعداء قاموا بإنزال خلف المقرّ.

عندما كانت السّماء تشتعل بالنّار والرّصاص ظهرًا، وقف «عليّ خجّر شفيعي نسب»⁽¹⁾ في أعلى نقطة من الموقع ورفع صوته بالأذان، كان يشجّع الشّباب على الجهاد، وكان يرتجز دائمًا. عند الطُّهر، وفي قلب المعركة، وقف وأذن، وقال للشّباب بعد الأذان: إنّ سريتنا اسمها سرّيّة القاسم بن الحسن، واليوم عاشوراؤنا، يا أبناء الخميني! قاوموا حتّى آخر رصاصة، لا تُهدروا طلاقاتكم، إنّ دمنا ليس أفضل من دم مولانا الإمام الحسين (عليه السّلام)، إذا سقطت هذه المنطقة فبماذا سنجيب الإمام ونقول له؟ فاليوم عين الله، وعين الإمام الحسين (عليه السّلام) على هذه المنطقة.

عندما نفذت ذخيرة الشّباب ورفعوا أيديهم، لم يكن «عليّ خجّر» مستعدًّا للوقوع في الأسر. وقف كـ«أبي ذر» في أعلى الحصن (المتراس)، بالقرب من جسد الشّهيدين «جان محمّد» و«إبراهيم»،

(1) كان «عليّ خجّر شفيعي نسب» أكبر شباب التّعبئة سنًّا. منذ العام 1981م، دخل الحوزة العلميّة «في كهكيلويه». كان من محبّي «السّيّد مير أحمد تقوي»، رئيس الحوزة العلميّة في «دهدشت». في منتصف اللّيل، وقبل ساعة من الهجوم العراقيّ، اغتسل غسل الشّهادة. ينقل «علي رضا كرمي»، أحد الشّباب الّذين أسروا في «موقع الخندق»، أن عليّ خجّر، وفي اليوم السّابق، أخرج من جيبه خمسين تومانًا وعشرين تومانًا (حوالي خمسين ليرة لا غير)، وقال: «أيها الشّباب، لربما استشهدت، أعطوا هذا المال لمالّيّة الكتيبة، تبرّع منّي للجهة».

وقال: إنّ دمي ليس أفضل من دماء «جان محمّد وإبراهيم»، لم أعش هذا العمر كلّه كي أصبح أسيراً في النّهاية. عندما سقطت دشمتنا كأنّه أراد أن يقول: إذا لم تكن إيران، فما نفع جسمي؟ وقف في أعلى نقطة من الموقع، وصرخ بأعلى صوته: هيهات منّا الذلّة، الموت لصدّام. أطلق أربعة أو خمسة عراقيّين النّار على أكبر التعبويين سنّاً. تلقى «حبيب بن مظاهر» سرّيّة القاسم بن الحسن عشرات الطلّقات في صدره، وقع جسد هذا الشّهيد النحيف واللّطيف بالقرب من الشّهيد «جان محمّد» و«إبراهيم».

لجأ الأعداء، ومن أجل السّيطرة على «موقع الخندق»، إلى الحيلة. اقترب ستة عشر قارباً، وقد نصبوا عليها علم بلادنا، داخل القناة التي حفرها الشّباب في الخلف، فرح الشّباب، وبدأ البعض منهم يصرخ بصوت عالٍ: «لا تطلقوا النّار، لا تطلقوا النّار، إنّهم مقاتلون».

في الصّباح كان شباب «الآر بي جي» في كتيبة رسول الله ﷺ قد قصفوا أكثر من عشرة قوارب في الجهة الشرقيّة للخندق. لم يمرّ الكثير من الوقت، وانكشفت حيلة العراقيّين، واللّه خير الماكرين. لقد فهم «السّيّد عليّ صالح»، وهو صاحب التّجربة والباع الطّويل في الجبهة، أنّ في الأمر حيلة، وطلب من السّيّد «عليّ شير قيطاسي» قائلاً: اقصفوا قوارب العراقيّين! لكن «عليّ شير» الذي صدّق أنّهم إيرانيون، قال: يا «سّيّد عليّ!» إنّهم يرفعون العلم الإيرانيّ، لن أقصفهم، إنّهم قوّاتنا. صرخ «السّيّد عليّ» بصوت عالٍ: لقد رفعوا القرآن على الرّماح! إنّّه مكر الأعداء، اقصفهم! لكن «عليّ شير» كان لا يزال عند إصراره على أنّهم إيرانيّون. لكنّ «السّيّد عليّ صالح»، الذي كان يعرف ما

يقوله، نادى «مهدي كريمي»، وهو أحد شباب الآربي جي «الفطنين» في الكتيبة، وقال: «مهدي، ارم هذه القوارب، أجب مهدي: «تكليف»؟! ردَّ «السَّيِّد عليّ»: «طبعاً، تكليف، إِنَّه عَلِمَ مكرهم». رمى مهدي القارب الأوَّل على بعد ستين متراً من الموقع، وبدأ عندها شباب الآربي جي، وكذلك «عليّ شير»، الَّذي عرف بوضوح خديعة الأعداء، بدأ برمي قوارب الأعداء، ودون توقُّف. عندما كان «إسماعيل صولت دار» يرمي القوارب، نادى بأعلى صوته: «يا شاه قاسم (وهو أحد أبناء الأئمَّة المدفونين في محافظة بوير أحمد) نذرتُ لك أفضل خرافي، ساعدني كي أدمِّر هذا القارب». وها هو يصيب القارب العراقيّ، وترتفع الصَّلوات والتَّكبيرات، أمَّا السَّيِّد «نادر السَّادات» و«حميد مهدي» فقد سال الدَّم من أذنيهما؛ لكثرة ما رموا بسلاح الآربي جي. كان «حميد» الأصغر سنّاً بين رماة «موقع الخندق». عندما انكشفت خطَّة العراقيّين لاذوا بالفرار، وتراجعوا عن الموقع. جمع «السَّيِّد عليّ صالح» قادة المجموعات، ورماة الآربي جي، وقال لهم: «أيُّها الشَّباب، لم يبقَ من العمر الكثير، هنا نقطة النِّهاية، لا نملك شيئاً لنخسره. الكثير منّا قد شهد عمليَّات (بدر) و(خيبر) على هذه الجزيرة. لكن اليوم ليس كباقي أيام الحرب، وبما أنَّ الوضع قد وصل إلى ما وصل إليه؛ قسِّموا أطراف الموقع بينكم، ولا يجب أن تقع في الأسر إلاَّ عندما نأخذ بثأر الشُّهداء...».

خارت قوى الشَّباب، وذخائرهم آلت إلى النِّفاد. لا مجال لإرسال الدَّعم والذِّخائر إلى «موقع الخندق»، سيطر العراقيُّون على الخطوط الخلفيَّة، وقد أخذ العطش مأخذه من الشَّباب، لم تكن مياه الجزيرة

قابلة للشرب. حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر، توقّف إطلاق النّار من قبل شباب «الخنْدَق». في اللحظّات الأخيرة، قاتل الشّباب بالحجارة، لقد كانت الفرصة الأخيرة والرّصاصة الأخيرة. عندما كان العراقيّون يصعدون على تحصينات وسواتر «موقع الخندق» كان الشّباب يواجهونهم بالحجارة والعصيّ والحجارة الإسمنتية. قليلة هي الأوقات التي واجه فيها العراقيّون الشّباب الإيرانيين وهم يحاربونهم بالحجارة والتّراب. كان اللّور (أهالي منطقة لورستان في إيران) أصحاب هذه الأفكار. كان العراقيّون يظنّون عندها أنّ الإيرانيين يرمونهم بالقنابل اليدوية، فكانوا يقفزون من القوارب إلى الماء خوفاً. لقد سيطر الأعداء على «موقع الخندق»، ولكن ليس على «الحصن» الذي تترس فيه الشّباب والذي يقع خلف الموقع. كان هذا «الحصن» النّقطة الأخيرة التي قاومنا فيها.

في اللحظّات الأخيرة، تراجع كلّ القوارب العراقيّة. عرف «السّيّد عليّ صالح» الذي كان قائداً، وصاحب خبرة ما الذي يريده العراقيّون، كانوا يريدون رَمِينا بالصّواريخ؛ لذلك جمع الشّباب؛ لكي يعطيهم التّوجيهات اللازمة، أو كما يُقال «أخذ التّكليف» منه. كان معنا، بالإضافة إلى شباب سرّيّة القاسم بن الحسن، أعضاء فريق الإمداد الطّبيّ، وقادة القوارب أيضاً، قال يومها «السّيّد صالح»: ...أنا أعرف ما الذي تشعرون به في هذه الأثناء، أنا أيضاً يخالجنني الشّعور نفسه... هل تظنّون أنّني أحبّ أن يأسرني العراقيّون؟ نحن محاصرون، لا ذخائر، ولا طعام. لقد كان تكليفنا حتّى هذه اللحظّات أن نقاتل، وتكليفنا الآن أن نؤسّر.

في تلك اللَّحظة، عندما أراد الشَّباب اتِّخاذ القرار، ظهرت مروحيَّة عراقِيَّة وحلَّقت فوق الرُّوَّوس، وكان أحد الجنود يتلو بلاغًا باللُّغة الفارسيَّة باسم قائد الفرقة 16 في الجيش العراقيّ: «إنَّكم محاصرون، لا خيار أمامكم سوى الاستسلام، والأفضل أن تسلّموا أنفسكم، وإلَّا سنقصف الموقع بالصَّواريخ». طلب السيّد من أربعة من الشَّباب أن ينزعوا قمصانهم التي يرتدونها تحت بزّاتهم، وأن يغرسوها على الجهات الأربع للموقع.

كانت لحظات قاسية ومؤلمة بالنِّسبة إلى الشَّباب. وهم حتّى اللَّحظات الأخيرة لم يفقدوا أملهم، وكانوا يتصوِّرون أنّه قد تصلهم الإمدادات البشريَّة والعسكريَّة ويتمّ إنقاذهم. كانت جثث الشُّهداء المحترقة «جان محمّد كريمي»، و«إبراهيم نویدی⁽¹⁾ بور»، وغيرهم من شهداء الخندق كـ «أرجاسب عليّ زاده»، و«عليّ خجر شفيع نسب» ملقاة على الأرض، كما قال «أحمد سعيدي» إنّ أشلاء الشَّهيد «أرجاسب عليّ زاده»، قناص الكتيبة، التصقت بجائط الخندق المجاور. لم يستطع الشَّباب أن يدفنوا شهداء «الخندق» قبل الوقوع في الأسر، وقيل: إنّ «محمّد صادقي فرد» و«درويش رومينا» قد استطاعوا دفن جثّة «بيران⁽²⁾ مستوفي زاده» فقط. لقد تمّ تعريف «بيران» في اللَّيلة السَّابقة على «الموقع»؛ إذ تمّ إرساله من وحدة المعلومات. في اللَّحظات الأخيرة، عندما أراد الشَّباب سحب الجثث؛ لدفنها بين ألواح «الموقع»، تمّ كشفهم وأسرهم.

(1) نویدی: تلفظ: Novede.

(2) بيران: تلفظ: Piran.

ما ذكرته هو ما شهدته من أحداث في «موقع الخندق» و«حصنه». وها نحن الآن خمسة أشخاص فقط، مكبلين بالقيود، جراحنا نازفة، وأسرى بيد الأعداء. سيطر صمت مُميت على «موقع الخندق»، وعلى جزيرة «مجنون»، لم تعد تُسمع أصوات الطلقات النارية، كان هناك فقط أصوات الصراخ البرية، والضفادع التي تهادت إلى مسامعنا من بين قصب المستنقعات الموجودة هناك؛ كذلك لم يرحمنا بعوض الجزيرة المؤذي ولو للحظة واحدة، ها هي أول ليلة من ليالي الأسر نرميها خلف ظهورنا بذكرياتها الجميلة والحزينة. و... إلى الغد.

الأحد 26 حزيران 1988م- جزيرة «مجنون»- «موقع الخندق»
 كنّا نقرب من وقت أذان الصبح، كلٌّ منّا يتألم بطريقة خاصة، كانت فكرة أنني أسير تؤذيني بشكل كبير، على الرغم من الألم الشديد الذي كان ينتابني، لكن وبعد قضاء نهار صعب،، شعر جسمي الجريح بالسكينة بين تراب الموقع، امتلأت جراحي بالتراب والدماء، جفت الدماء على ملابسي، واسودّ لونها، لم استطع النوم لشدة الألم والتفكير والتخيلات. عندما رفع «السيد علي» صوته بالأذان غضب العراقيون منه، وانهالوا عليه بالشتم والصراخ؛ كي يتوقف عن الأذان. صليت الصبح متيمماً لشدة تعبتي وإرهاقي، غفوت بعد صلاة الصبح، وكانت الكوابيس بانتظاري.

كان اليوم السابق أسوأ يوم في حياتي، إبتدأ تاريخ أسري مع بداية

الأسبوع، نهار السَّبْت⁽¹⁾، ولشدة ما كانت فكرة الأسر تعذبني، عندما غفوت لساعتين لم أستطع إلا أن أرى في منامي أن المقاتلين الإيرانيين قد أتوا لإنقاذنا، وكنت أكرّر في نفسي أثناء الحلم: «أعرف أنني أسير الآن بيد العراقيين، وكلّ ما أراه هو حلم، ولكن يا ليتني أستيظ ويكُون أمر تحريرنا حقيقياً».

عندما أشرقت الشمس، تحوّل المكان المحيط بالموقع إلى تجمّع وممر للسيّارات والعسكر. استمرّت الانفجارات في أحد مخازن أسلحة الأعداء إلى منتصف الليل. كنت أعرف أن مستودع الذّخيرة في الفيلق 25 العراقيّ، الواقع في الجهة اليمنى من جزيرة «مجنون»، قد تعرّض للهجوم والقصف من قبل مقاتلينا. مهما حدث، لكن الحقيقة هي أن صوت الانفجارات قد استمر لأكثر من 12 ساعة. لم تستطع السيّارات وناقلات الجند العرافيّة الدّخول إلى «جادة الخندق» من جهة «موقع الخندق»، بل كانوا يتحرّكون ويتنقلون في القوارب بين الجزيرة والموقع، وفهمت من أحاديثهم أنّهم غاضبون جدّاً بسبب القناة (الحفرة التي حضرها الشّباب وفصلوا بها الموقع عن الجزيرة؛ ممّا جعل حركة العراقيّين أكثر صعوبة، وقد أكّد هذا الأمر ما قاله لي أحد أعضاء جماعة «المنافقين» هنا). كان العراقيّون الذين يستخدمون المنافقين كمرجمين قد ذكروا مرارًا وتكرارًا، أنّه لولا هذه الحفرة (القناة) لوصلوا إلى المحمّرة والخفاجيّة. ما زال العراقيّون إلى الآن يسمّون خرّم شهر الإيرانيّة باسم المحمّرة، وسوسنكرد⁽²⁾ يسمّونها

(1) نهار السَّبْت هو أوّل أيام الأسبوع في الجمهوريّة الإسلاميّة، والجمعة عطلة نهاية الأسبوع.

(2) سوسنكرد: Sosangherd.

الخفاجية، والأهواز يسمونها الناصرية، وخوزستان يسمونها عربستان.

سأل أحد العراقيين الذي كان برفقة المنافقين:

- لماذا فصلتم بين الجزيرة ودشمتكم، وحفرتم هذه الحفرة التي لولاها لما وقعتم أسرى بين أيدينا؟

- الأهم هو ألا تستطيع دباباتكم العبور إلى الجادة الأساسية (جادة الخندق).

- لو لم تكن هذه الحفرة لكنّا الآن في الهويزة.

- هذا ما كان يتوقعه قادتنا؛ لذلك، حفروا الحفرة بالمتفجرات؛

كي تصبح أعمق وأكبر؛ وبالتالي يصبح من المستحيل ردمها.

لقد هدأت آلامي وخفّ تعبي قليلاً عندما سمعت أحد القادة العراقيين يقول لي: «إنني أقبّل هذا الواقع حتّى لو كانت خلاف رغباتنا، لقد أخطأنا في معرفة قوتكم وقدرتكم الحقيقية أيّها الـ«بسيج» (التعبئة). كنّا نمتلك المعلومات الدقيقة حول قدراتكم وتجهيزاتكم العسكرية، ولكنّا لم نكن نعرف هذه الروحية المعنوية التي لديكم».

ساورني القلق، وكنّت أريد معرفة ماذا تخبّي لنا الأيام القادمة؛ لا دواء، ولا ضمادات. كان العدو فرحاً جداً؛ لأنّه استطاع احتلال جزيرة «مجنون»، وبدأ أحدهم يغني والآخرون يرقصون رقصاً عربياً تعبيراً عن فرحهم.

في الصباح، أحضروا لنا بعض الخبز والجبن والبندورة. لم نستطع تناول الطّعام، فقد انقطعت شهيتنا للطّعام، كنّا نقرأ أسماء الشهداء التي كتبت على الجدار الإسمنتي للموقع، والذين سبق أن كانوا هنا في

«موقع الخندق»، وقد كُتب فوق هذه الأسماء عبارة بالطبشور: «هؤلاء المسافرون إلى السَّماء، وهذه السَّنُونُوات المدمَّاة، بذلوا دماءهم؛ لأجل بناء هذه الموقع، علينا، أنا وأنت، أن نتابع المسير ونحفظ ذكراهم»⁽¹⁾.

بين السَّاعة العاشرة والحادية عشرة ظهرًا، أخرجونا من الخندق، وضع «السَّيِّد علي صالح» يده تحت كتفي وسحبني إلى الخارج، على الرِّغم من فقدانه إحدى يديه، فقد كان الأفضل حالاً بين المجروحين، على الأقلِّ لم يكن يشعر بالألم. كان بعض العراقيين يكرهون الإمساك بأيدينا أو مساعدتنا. كانوا يقولون لنا: أنتم الإيرانيون نجسون، وإذا ما أمسكنا بأيديكم علينا أن نطهرها. كنَّا نلاحظ أنَّهم إذا ما أعطونا الماء وشربنا بأكواب، لا يستفيدون منها؛ لذلك كانوا يعطوننا بقايا علب الطَّعام المعلَّب؛ لنشرب بها.

عند الظَّهيرة، جاء ضابطان عراقيَّان ليأخذوا «السَّيِّد علي»، وكانَّهم عرفوا عمله ورتبته في الحرس، لم نكن نعرف إلى أين سيأخذونه، وما الذي سيحلُّ به، طلب السَّيِّد من العراقيين السَّماح له بالتكلُّم معنا، وقد قبل الضَّابط الأعلى أن يكلمنا على انفراد. جلس «السَّيِّد» بالقرب

(1) في أواخر شهر فروردين [منتصف شهر نيسان]، انتقل لواءنا إلى جزيرة «مجنون» بعد عام من القتال في منطقة كردستان، واستلمنا مكان شباب «لواء القوائم 12»، وهم من منطقة سمنان. أمَّا أسماء الشَّهداء المكتوبة على جدران الموقع فكانت لشهداء خراسان وأصفهان. ينقل «هوشنگ روثين» مبعوث وحدة المعلومات وعمليات اللِّواء، وهو جاء من كردستان؛ لاستلام «موقع الخندق»: «عندما أردت استلام الموقع بادرني القائد السمناني قائلاً: «أنتم الذين كنتم تقاتلون في الجبال الباردة، كيف ستتحملون الهواء الرطب والحار في حقول القصب هذه؟» فقلت له يوماً: «نحن جنود الإمام، أينما نؤمِّر نقاتل، في الجزر والمد، في نهر أروند في عمليات «والفجر 8» كنَّا أوَّل من كسر حصار الخطوط الأمامية، ونحن هنا إن شاء الله سنفرح قلب إمامنا، وسندافع عن الموقع والجزيرة بدمائنا.

مَنَّا، قَبْلُنَا وَاحِدًا وَاحِدًا، وَكَانَ حَزِينًا جَدًّا لِفِرَاقِنَا. كَانَ قَلْقًا عَلَيْنَا. أَمَّا نَحْنُ فَكُنَّا قَلْقَيْنَ عَلَيْهِ، وَكَانَ الْعِرَاقِيُّونَ يَنْتَظِرُونَهُ، قَالَ «السَّيِّدُ عَلِيٌّ»: «أَعْرِفْ أَيُّهَا الشَّبَابُ أَنْكُمْ فِي وَضْعٍ سَيِّئٍ جَدًّا، مَعَ هَذَا الْوَضْعِ الْجَسَدِيِّ السَّيِّئِ، هَا أَنْتُمْ تَتَعَرَّضُونَ لِمَتَحَانٍ صَعْبٍ، وَالْآتِي أَصْعَبُ، وَقَدْ تَسْتَشْهَدُونَ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ الَّتِي اخْتَرْتُمُوهَا أَنْتُمْ بِأَنْفُسِكُمْ، وَهِيَ هُوَ اللَّهُ يَبْتَلِيكُمْ مَرَّةً ثَانِيَةً؛ لِيَعْرِفَ مَعَادَنَكُمْ أَيُّهَا الرِّجَالُ. وَكَمَا ابْتَلَى اللَّهُ النَّبِيَّ يَعْقُوبَ، هِيَ هِيَ يَبْتَلِيكُمْ، وَيَمْتَحِنُكُمْ مَرَّةً ثَانِيَةً، وَلَا تَنْسُوا وَصِيَّتِي، أَيْنَمَا أَخَذُوكُمْ، ابْقُوا مَتَّحِدِينَ، لَا تَغْفُلُوا عَنِ التَّوَسُّلِ بِأَهْلِ الْبَيْتِ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ)، تَأَكَّدُوا أَنَّ التَّوَسُّلَ بِهِمْ سَيَحِلُّ الْكَثِيرَ مِنْ مُشْكَلاتِكُمْ، هِيَ هِيَ يَأْخُذُونَنِي، لَا يَهْمُنِي مَا الَّذِي سَيَحِلُّ بِي، كُنْتُ أَتَمَنَّى لَوْ أَبْقَى بِالْقُرْبِ مِنْكُمْ، لَوْ لَمْ يَنْلُنَا مِنْ هَذَا الْأَسْرَافِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُعْرِفُنَا وَيُشْعِرُنَا بِمَا حَلَّ بِسَيِّدِنَا الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وَأَهْلِ بَيْتِهِ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) فَهَذَا يَكْفِينَا، إِنَّ كُلَّ مَا سَمِعْنَاهُ فِي مَجَالِسِ الْعِزَاءِ عَنْ مَصَائِبِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، نَرَاهُ هُنَا، وَنَفْهَمُهُ هُنَا، هِيَ هِيَ نَفْهَمُ الْآنَ مَا الَّذِي فَعَلَهُ يَزِيدُ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ بِأَهْلِ الْبَيْتِ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ)، وَإِنَّ لِهَذَا الْأَسْرَافِ قِيَمَةً؛ فَقَدْ سَاعَدْنَا عَلَى الْوُصُولِ إِلَى هَذَا الْفَهْمِ وَهَذَا الْإِدْرَاكِ».

عِنْدَمَا سَمِعَ الْعِرَاقِيُّونَ اسْمَ يَزِيدٍ غَضِبُوا، فَقَدْ ظَنُّوا أَنَّ السَّيِّدَ يَشَبَّهُهُمْ بِيَزِيدٍ. عِنْدَمَا سَحَبَ أَحَدَ الْعِرَاقِيِّينَ السَّيِّدَ بِكُمِّ قَمِيصِهِ الْخَالِي، حَزْنَتْ وَسَخَطَتْ عَلَيْهِمْ. لَقَدْ أَخَذُوا «السَّيِّدَ»، لَمْ يَتَوَجَّهُوا نَحْوِ الْمَنَاطِقِ الْعِرَاقِيَّةِ، بَلْ نَحْوَ مَوْقِعِ «بَيْتِ اللَّهِ». عِنْدَمَا أَخَذُوهُ، سَيَّطَرَ الْهَمُّ عَلَيْنَا. كَالْعَادَةِ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْأَلَمِ الَّذِي كَانَ يَشْعُرُ بِهِ، حَاولَ «السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ شَفَاعَتَ مَنْشٍ» أَنْ يَلْطِّفَ الْأَجَوَاءَ بِنِكَاتِهِ، وَيَرْفَعَ مِنْ

معنويّات الشَّباب، كان يصف بعض العراقيّين بكلمات وصفات، لو فهموها لاقتصّوا منه، فكان يسخر من بعض العراقيّين⁽¹⁾ وذلك بلهجته اللّورية (أهل لورستان) اللّطيفة.

كان «السَّيِّد محمّد» يطلق كلماته السّاخرة بجديّة، ودون أيّ ابتسامة، فيظنّ العراقيّون أنّه يريد شيئاً. كنّا كلّنا نضحك إلّا هو، فكان يتكلّم دون أن يتغيّر شيئاً في تقاسيم وجهه، فكان العراقيّون يقولون له: «ما الذي تقوله أنت؟».

سمحوا لنا بالدّخول إلى المتراس، زحفنا كي نستطيع الدّخول، كنّا نعرف أنّهم كانوا سيستجوبوننا، ولم أشك لحظة في أنّهم سوف يعذبوننا للحصول على المعلومات التي يحتاجونها حول وضع الوحدات العسكريّة والقادة.... قلت «للسَّيِّد محمّد»:

- إنني متأكّد من أنّهم عرفوا أنّنا كذبنا عليهم بالنّسبة «للسَّيِّد عليّ صالح»، إذا حقّقوا معنا مرّة ثانية ماذا سنفعل وما الذي سنقوله لهم؟

- سنُكْمَل في خداعنا لهم. (استلامنا لهم).

- دَعنا من المزاح، برأيك ماذا نقول لهم؟.

- لنتكلم باللّغة (اللّهجة) «اللّورية»، وندّعي أنّنا لا نفهم اللّغة الفارسيّة.

- سيكتشفون أمرنا، فقد تكلمنا معهم منذ أن جاؤوا إلى هنا باللّغة الفارسيّة.

- أنا لا أقصد هنا، عندما ينقلوننا إلى هناك، إلى مناطقهم،

(1) كأن يقول بعض الأمثال السّاخرة: «هذا الشّخص لديه أذنان كبيرتان يمكن أن نزرع خلفها قمحاً».

سَلِّتَقِي بِأَنَاسِ جَدَد، سَنَتَكَلِّمُ مَعَهُم بِاللُّهْجَةِ اللُّورِيَّةِ المَحَلِّيَّةِ، أَلَا تَذَكُرُ كَم خَدَعْنَاهُمْ عَلَى اللَّاسَلَكِيِّ⁽¹⁾، وَالْآنَ أَيْضًا سَنَتَكَلِّمُ بِاللُّهْجَةِ اللُّورِيَّةِ حَتَّى يَفْقِدُوا صَبْرَهُمْ، وَيَمْلَأُوا مَنَّا لِأَنَّنَا لَا نَفْهَمُ لُغَةَ الْبَشَرِ.

قَالَ «السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ»: «كَلِّمْنَا سَأَلُوا سَوَلاً نَجِيبُهُمْ: قَالُوا لَنَا: لَا تَقُولُوا شَيْئاً».

كَانَتِ الْجُمْلَةُ الْأَخِيرَةُ مِنَ الْمَصْطَلَحَاتِ الرَّائِجَةِ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ بَيْنَ شَبَابِ الْجَبِيْهَةِ، فَكَلِّمْنَا سَأَلْنَا أَحَدَهُمْ عَنِ وَضْعِنَا الْعَسْكَرِيِّ، كُنَّا نَجِيبُ جَدِّيْنَ، أَوْ مِمَّا زَحِينِ: «قَالُوا لَنَا: لَا تَقُولُوا»، أَوْ «لَمْ يَقُولُوا لَنَا أَنْ نَقُولَ». كَانَ الْوَقْتُ عَصْرًا. عِنْدَمَا جَاءَ إِلَيَّ جَنْدِيَّانِ، سَحَبَانِي إِلَى سَاتَرِ الْمَوْقِعِ التَّرَابِيِّ. لَقَدْ جَاؤُوا مَرَّاتٍ وَمَرَّاتٍ، وَصَوَّرُوا جَزِيرَةَ «مَجْنُونٍ»، لَمْ يَكُنْ فِي الْمَوْقِعِ أَسْرَى غَيْرِنَا، تَقَدَّمَ الْمَصَوِّرُ الْعِرَاقِيُّ نَحْوِي، وَفِي الْوَقْتُ نَفْسَهُ، جَلَسَ بِالْقَرْبِ مِنِّي ضَاطِبُ آخِرِ بِلْبَاسِ مَرْقُطٍ، حَمَلَ «مِطْرَةَ» الْمَاءِ، قَرَّبَهَا مِنِّي، وَكَانَ يَرِيدُنِي أَنْ أَشْرَبَ، كَانُوا يَرِيدُونَ تَكَرَّارَ مَا فَعَلُوهُ مَعَ «تَاجِ مُحَمَّدٍ عَلِيِّ بَوْرٍ»، نَحَيْتُ قَتِينَةَ الْمَاءِ بِيَدِي، وَخَفَضْتُ رَأْسِي. عَلَى الرَّغْمِ مِنْ شَعُورِي بِالْعَطَشِ الشَّدِيدِ؛ فَإِنِّي لَمْ أُسْتَطِعْ إِلَّا أَنْ أَرْفُضَ الشَّرْبَ رَافِعًا يَدِي بِالْئَنْفِي، أَمَّا الصَّحْفِيُّ الْعِرَاقِيُّ الَّذِي يَبْدُو أَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ الْإِنْجِلِيزِيَّةَ، فَقَدْ كَرَّرَ مَرَّاتٍ عَدَّةَ كَلِمَةِ «victory» (النَّصْر). كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّهُمْ لَنْ يَبِثُّوا هَذِهِ الْأَفْلَامَ، لَقَدْ اقْتَنَعَ الْعِرَاقِيُّونَ أَنَّ الْهَزِيمَةَ الَّتِي يَتَصَوَّرُونَهَا هُمْ، تَعْتَبَرُ نَصْرًا فِي مَدْرَسَتِنَا الدِّفَاعِيَّةِ،

(1) كَانَ شَبَابُ اللَّاسَلَكِيِّ يَسْتَعْمَلُونَ بَعْضَ الْمَصْطَلَحَاتِ الْمَعْقَدَةِ وَالْكَلِمَاتِ اللُّورِيَّةِ، الَّتِي يَجْهَلُهَا الْكَثِيرُ مِنَ الْفَتِيَّةِ الصَّغَارِ الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ بِاللُّغَةِ اللُّورِيَّةِ الْيَوْمَ؛ كَيْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَشَوْشُوا أَذْهَانَ الْأَعْدَاءِ؛ وَبِالْتَّالِي لَا تَتَكَشَّفُ الْأَسْرَارُ الْعَسْكَرِيَّةُ.

لقد ورثنا هذه الفكرة من المدرسة التَّكليفِيَّة لـ «عاشوراء الإمام الحسين (عليه السلام)». ذهبوا إلى «السَّيِّد مُحَمَّد»، لم يقبل أن يحاورهم أمام الكاميرا، حاول المنافقون أن يدفعوا بنا حتَّى نشتم الإمام، كانوا يريدون أن يحصلوا على سبق صحفيٍّ مصوَّر ونحن نهين الإمام، لم يضعف الشَّباب أبداً، قال «الله خواست» للعراقيين: أنتم، طيلة هذه السنوات، ألم تعرفونا؟ ألم تعرفوا أنَّنا لا نهين مرجع تقليدنا؟ قال السَّيِّد مُحَمَّد: ألا يكفيكم أنَّنا أسراكم؟ ثمَّ قال «أحمد سعيدي» بغضب: «غداً، يوم القيامة، عندما سترَمُون في جهنَّم بسبب أعمالكم، ستطلبون المساعدة من الخميني نفسه!»

قال الضَّابط (ذو الرَّتبة العسكريَّة): «سنقتلكم جميعاً، وندفنكم هنا».

رفعت يدي، وأشرت إلى أعلى الموقع؛ حيث أحرقوا الشَّهيدان «جان مُحَمَّد كريمي»، و«إبراهيم نویدی بور»، وقلت لهم:

«دماؤنا ليست أفضل من دماء أحبَّائنا، إذا كان من المفترض أن نُذَلَّ، فمن الأفضل أن نُقتل».

تراجع المصوِّرون والضَّابط، وتركونا في حالنا. أحضر العراقيُّون اثنين من الشَّباب وهم يضربونهما ضرباً مبرِّحاً، سحبوهما مباشرة إلى الطبقة السُّفلى للموقع⁽¹⁾، وهناك أيضاً ضربوهما بشدَّة، أحضرهما

(1) كانت تحصينات الخندق [موقع الخندق] ضخمة جداً، وهي مؤلفة من طبقتين، عليا وسفلى، وكانت دائرية الشَّكل. عندما سيطرنا بعد «عمليات بدر» على موقع «الخندق» وسوره، كان الموقع يقع في نهاية الجادة. وتحيطه المياه من الجانبين، مياه «شطِّ علي» من اليمين، ومياه جزيرتي «مجنون» الشَّمالِيَّة والجنوبيَّة من اليسار. كان سور (ساتر) الخندق، هو الجبهة الأمامية لجادة الخندق. وكان عرضه حوالي 30 متراً. كان طريق العراقيِّين يمرُّ من «الهدامة» المواجهة لمياه جزيرتي المجنون. وينتهي بـ «ساتر الخندق». كانت المسافة بين «ساتر الخندق» و«ساتر» العراقيِّين خمسين متراً فقط.

بعدها إلى الأعلى، وانهالوا عليهما بأعقاب بنادقهم، ودفعوهما بقسوة كي يسرعا في المشي، اعتصر قلبي ألمًا حين رأيتهما يقعان أرضًا، كانا في غاية الطيبة والبراءة. فمع كل الضرب الذي تلقياه لم يصرخا أبدًا. كان وجه أحدهما أزرق داكنا من شدة الضرب، لم يكن صوتهما يُسمع من شدة إعيائهما. جلسا بالقرب منا والدماء تسيل من أنف أحدهما، بقيا على هذه الحال قرابة الساعة. عندما جاء العراقي الذي يجب أن ينقلهما إلى الخطوط الخلفية، أول ما فعله كان أن تقل في وجه الأسير صاحب اللحية الطويلة. كان أحد الأسرى شابًا نحيلًا، أشقر، شعره ذهبي اللون، لم يتكلم معنا إلا بضع كلمات، لم يسمحوا لنا بالحديث معه. أخبرنا الأسير الملتحي عن اسم وحدته وكتيبته، كان من شباب «أسطول» أمير المؤمنين عليه السلام البحري، وكان الآخر من شباب «كتيبة مسلم بن عقيل»، التابعة لفرقة «كربلاء 25». عندما سألتهما: «في أي مكان من الجزيرة كنتما؟»، أسكتني ضابط صف

تملؤها المستنقعات و برك «الهور العظيم». كان الشباب يشرفون على المنطقة ويراقبونها باستمرار من الفتحات التي حفروها بأنفسهم داخل «ساتر» الخندق. في نهاية هذا المكان تقع التحصينات والدشمات الأخرى التي نضع فيها معدّاتنا. كانت المنطقة الأمامية للساتر على شكل وعاء (كاسة). كان في الطبقة السفلى من السور، حوالي عشرين خندقًا بناها شباب «جهد البناء أصفهان» بالإسمنت المُجهز مسبقًا. كانت الطبقة السفلى من الموقع تصلح عمليًا لاستراحة حوالي مئة شخص في الظروف العادية. وكان الشباب يصعدون كل بدوره إلى الموقع وإلى أعلى السور ويتمركزون هناك. خلف الموقع، تم حفر قناة الباب الأسير للموقع والتي كانت تمتد إلى مقدّمة تحصينات الموقع. بعد «عمليات بدر»، غطى شباب فرقة الإمام الحسين عليه السلام من أصفهان، وشباب فرقة الإمام الرضا عليه السلام من خراسان، هذه القناة بالألواح الخشبية والصفائح المعدنية. فصارت هذه القناة كخندق تونلي، حيث كان الشباب يتقلون وينقلون المعدات عبرها. كانت بطاريات المدفعية العراقية تمطر «موقع الخندق» وسوره بالقذائف ليلاً نهارًا. كنا نضيء الطبقات السفلى من الموقع والقناة بواسطة مولّد كهربائي يعمل على الديزل. كانت مقدّمة الموقع ترتفع حوالي 1.5م، وضع الشباب فوقها أكياس الرمل لحمايتها. لقد قدّم شباب فرقة الإمام الحسين عليه السلام لبناء وتجهيز هذا الموقع أكثر من مئة شهيد.

سودانيّ بشتائمهِ وسبابهِ، كان وجه الأسيرين مغطّى بالوحل، كان وضعهما وشكلهما ينبئ بما جرى لهما البارحة في مياه المستنقعات المحيطة بالجزيرة، كان أحدهما يلبس قميصه الأبيض القطنيّ، ولشدة (لكثرة) ما تحرّك البارحة في مياه المستنقع، فقدّ القميصُ لونه الأبيض وتمزّق، كانا حافِيَي القدمين، ويلبسان سروالاً عسكرياً ممزّقاً من تحت الرُّكبة.

نقلهما العراقيّون إلى الخطوط الخلفية، انقبض قلبي مرّة ثانية. ها هي ذكريات شتاء العام 1987م؛ خلال عمليات «كوجار» في كردستان (إحدى محافظات غرب إيران) تتداعى إلى ذهني⁽¹⁾، تلك الذكريات التي حين أذكرها، أشعر بالغضب، وأمقت الأسر، وأنقم عليه بشدّة. كان «أحمد سعيدي» يسأل عن «السيد فاضل فاضليان». البارحة، وحين قرّر شباب «موقع الخندق» أن يستسلموا، وبالتالي أن يؤسروا، كان «السيد فاضل» و«محمد ديناروند» الوحيدين اللذين استطاعا الخروج من الموقع، لكن.. وبما أنّ المنطقة كانت تحت سيطرة

(1) الشتاء الماضي، أسر الشّباب جنديّين عراقيّين، في مرتفعات «كوجار الكردستانية»، كان أحدهما مصاباً بقدمه. لفّ الشّباب جرحه بالضّمادات. كانت الطائرات العراقية قد هدّمت جسر «سيد الشهداء» فوق نهر «قلا تشولان» في كردستان، فقطعت بالتالي كلّ خط إمداد يمكن أن تصلنا من خلاله المعدات والدّم الغذائيّ.. كان الثلج يرتفع أكثر من مترين على تلك الجبال. فعانينا يومها من الجوع الشديد. وصلت حالتنا إلى درجة كنّا مضطرين حينها إلى أكل الخبز الجافّ الذي كنّا قد رميناه جانباً. توقفت حركة السيارات التي كانت تنقل لنا الإمدادات. كنّا ولمدّة أسبوع.. الوقت الذي أعيد خلاله بناء الجسور، وعودة الحركة الطبيعيّة للسيارات.. نعاني بشدّة من النّقص في المؤن. كل ما كنت أملكه يومها «سمك معلّب» علبه واحدة فقط. فتحنتها وقدمتها للأسيرين العراقيّين، اللذين أكلاها بشهية كبيرة، كان كل ما أملكه يومها هذا السمك المعلّب، وقليلاً من الخبز اليابس. لم يتعاط أحد مع الأسرى بقسوة أو عنف. يومها نقل شباب فرقة «النصر 5» الأسيرين إلى الخطوط الخلفية. بادر كلّ منهما ودون أيّ ضغط منا بالهاتف «الموت لصدام»، ها أنا أقارن بين سلوكنا مع الأسرى العراقيّين وما نعانيه اليوم.

العراقيين، وكانوا قد تقدّموا إلى عمق 5 كلم داخل الجزيرة.. تمّ القبض عليهما وسط الجادة من قبل المنافيين، وتسليمهما إلى العراقيين. لقد استطاعا التّخفي عن أعين العراقيين داخل حقول القصب لأكثر من 24 ساعة، وعندما كانا يشعران بالجوع، كانا يأكلان جذور القصب. كانت الساعة تشير إلى السادسة والنّصف عصرًا. ما زال هناك بعض المنافيين الذين كانوا برفقة العراقيين داخل الموقع. في الصباح، أعدوا برنامجًا تلفزيونيًا للمنافيين. كان اثنان منهم يقومان بالترجمة، لم أعرف وأنا على هذه الحال؛ «جسمي المجروح، وقدمي المهشّمة»، إلى متى سنبقى هنا، مع أنّي كنت أتمنّى لو أنّهم يبقوننا في «موقع الخندق» لعدّة أيّام أخرى. كنت أفكر أحيانًا متمنيًا أن يأتي شباب «كتيبة الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)» التي كانت مستقرّة على «شطّ عليّ» لمساعدتنا، كان قائدهم «حسين كيواني أصل» رجلًا شجاعًا ومدبّرًا. كان كلّ هذا، خواطر تدور في ذهني، وتجعلني أكثر أملًا بالحرّية. أفكارٌ لم تكن بعيدة المنال.

ساعة واحدة تفصلنا عن الغروب، جاء إلينا الضّابط العراقيّ الذي يضع نظّارات على عينيه، وصاحب اللّباس المرقّط. كان ظاهره يوحي بالطّيبة، وقرينًا من القلب.

لم أكن أفهم ما يقوله، لم أكن أعرف لماذا لم يطلب من أحد أفراد «مجاهدي خلق» الموجودين هناك، أن يترجم كلامه، بعض كلامه لم يكن مفهومًا لي، كان من الضباط الذين لا يبدو في سيماهم علامات العداء والحقد، أجال نظره نحونا، ثمّ كرّر لعدّة مرّات: «صورة الخميني تحت التّراب».

حاول قدر المستطاع أن يُفهمنا ما يقوله، فكان يكرّر طلبه كلمة بكلمة، وعلى مهل. اعتقدت أنه يقول لنا: «ادفنوا الخميني تحت التراب». كان كلما اقترب منه أحد الجنود العراقيين أبعدّه طالباً منه القيام بعمل ما، أو كان يغيّر كلامه. من الطبيعي ألا يثق ببقية العراقيين، كان يشعر بالضيق لعدم قدرته على إفهامنا ما يريده؛ لأنّه لو عرف العراقيون الآخرون ما الذي يحاول أن يقوله لنا، لدفع الثمن غالباً؛ فقد كان تاريخ الجنود العراقيين الشيعة الذين يحبّون الإمام والإيرانيين تاريخاً دموياً ومحرّناً، كان كلامه نابعاً من حبه للإمام. في النهاية أفهمنا الضابط العراقي أنّ صورة الإمام الخميني الموجودة بالقرب منّا، يجب إخفاؤها تحت التراب. كان رجلاً أسمر اللون، ذا شعر داكن، له من العمر أكثر من نيّف وخمسين عاماً. أمر الجنود بإحضار الماء لنشرب، عندما ذهب الجنود قال محاولاً إفهامنا: أنا شيعي، أنا لست بعثياً. نظر حوله، ثمّ قال بصوت خافت: «والله العظيم الخميني زين». وعندما أراد الرّحيل نظر حوله للمرّة الأخيرة، ثمّ وضع يده على قلبه وقال: «الخميني هنا، صورة الخميني في بغداد موزين، استخبارات موت»، أي: يقصد أنّ المخابرات تقتل من يحبّ الخميني. كانت هذه الكلمات أكثر الكلمات وضوحاً، حاول الضّابط العراقي أن يُفهمنا ما يريد قوله، لقد كان أمراً لطيفاً بالنسبة إلّي أن أرى بعض الضّباط العراقيين يحبّون الإمام. وفهمت أكثر عظمتها وأبهة الإمام في بلاد الأعداء، وقد أفهمنا أنّه بدل أن تحملوا صورة قائدكم، ضعوه في قلوبكم. في الوقت الذي كان هذا الضّابط معنا، حوالي عشرين دقيقة، لم يقترب أيّ من الجنود

منّا، ولكن عندما ذهب، تغير سلوكهم معنا، وأصبح سيئاً كعادتهم. جاء عددٌ من الجنود نحونا، وقال أحدهم: «اشتموا الخميني، حتّى أقول لهم أن يحضروا لكم عصير الفاكهة».

أنا لا أقول أنّ أحداً من الأسرى لم يشتم الإمام الخميني⁽¹⁾، فقد نقل لنا أحد المنافقين، أنّ أحد الإيرانيين، ومن أجل علبة عصير.. شتم والده فكيف بالإمام.

لا أعرف كيف رفعت صوتي وقلت له:

- قد يشتم والده، ولكنّه لا يشتم الإمام.

بعد صلاتي المغرب والعشاء، وقبل أن ندخل مرّة ثانية إلى الموقع، جاء إلينا اثنان من المنافقين (من منظمة خلق)، أحدهما في العقد الرابع من عمره، أمّا الثاني، صاحب شعر كستنائي، في العقد الخامس من العمر. كانا يرتديان لباس الضباط العراقيين. كان أحدهما يحمل بيده نصف بطيخة، قسّمها إلى خمسة أقسام، ووزّعها علينا، مع أنّنا 5 أفراد، أكلا النصف اللذيذ منها. وعلى ما يبدو كانا يريدان أن يظهرنا لنا محبتهم، التي لم تدم طويلاً، وتعكّر صفوها بسرعة. كنت أتألم

(1) كان العراقيون يجدون أنفسهم أمام عدّة أنواع من الأسرى الإيرانيين:

المجموعة الأولى، أولئك الذين قد يواجهون الموت، ولكن.. وتحت أي ظروف أو ضغوط.. لا يشتمون الإمام، وكانوا يشكّلون الجزء الأكبر من الأسرى الإيرانيين.. وهم أشخاص ملتزمون ومؤمنون، لا يقبلون شتم الإمام بأيّ ثمن. كان العراقيون يصفون هذه المجموعة أو يسمونها: حرس الإمام. المجموعة الثانية من الأسرى الإيرانيين، أولئك الذين لم تكن لهم المقدرة على تحمّل تعذيب وضرب وشتم الأعداء لهم، هؤلاء، وعلى الرغم من محبتهم للإمام، كانوا لا يستطيعون التّحمّل.. وخلافاً لميلهم الباطني..، كانوا يضطّرون لشتم الإمام.

أما المجموعة الثالثة فكانوا يعتقدون أنّ شتم الإمام لا يؤذي الإمام بشيء، ولا يُنقص من شأن الإمام شيئاً. بعضهم كان يقول إنّ الإمام قال بنفسه: «إذا كان أسرانا تحت التعذيب وهم في خطر، لا مشكلة في شتمنا من قبلهم». لكنّي لا أعرف إن كان الإمام قد قال هذا الكلام أم لا، ومتى.

كثيراً أن أراهما في جبهة أعدائنا، وكنت أكرهما أكثر من العراقيين، وكان هذا الأمر ظاهراً بوضوح على وجهي، وفي نظرتي إليهما، وقد لاحظنا هذا الأمر بسرعة، كانا يحاولان التَّحادُّثَ معي لمعرفة من أيِّ منطقة أنا. سألني أحدهما، الأكبر سنّاً، وكان يتكلّم باللهجة الطَّهرانيّة غير الأصيلة يظهر بوضوح أنه ليس من طهران، ولكنّه يحاول أن يتكلّم باللهجة (الطَّهرانيّة) سألني عن مسقط رأسي، عن الوحدة التي كنت أخدم فيها، وكيفيّة أسري. على الرغم من أنّه كان إيرانيّاً، لكن كلامه كان لادعاً كالعراقيين تماماً. عندما جلس بالقرب منّي، سألني:

- «لماذا ذهبت إلى الجبهة؟ لو لم تأتِ لما كنت هنا الآن.

- أنت بالذات لماذا تسأل هذا السؤال؟

- وهل تتضايق من سؤالِي؟

- إذا ما سألنا أولئك [أي: العراقيون] عن هذا الأمر، فلا بأس، ولكنك إيراني، وتعرفُ كل المجازر والجرائم الحربيّة التي قاموا بها. - ضحك من كلامي، وأكمل قائلاً: «أولا يصبحُ الإيرانيُّ عدوًّا؟ نحن لسنا موافقين على حكومة رجال الدّين، وفي الواقع قدّم العراقيون لنا الملجأ واستقبلونا».

- رجال الدّين الذين تتحدّث عنهم، وقع اثنان منهم بالأمس شهداء هنا في هذه المنطقة، أخذ العراقيون عمامة أحدهما، وكان «سيّداً»، وبدأوا يرقصون بعمامته، ودهسوا جسده بسيارتهم الـ«لاند كروز». حاولت أن أفهمه أنّني أكرهم بشدّة؛ لوقوفهم في صفّ العدو. عندما أعرب عن كرهه للإمام والعلماء، قلت له: «لأنك إيراني، أستطيعُ أن أتكلّم معك بسهولة أكبر، ثم أكملت:

- «هل تعرف ما الذي يزعجني أكثر من وقوعي في الأسر وقطع قدمي؟»

- «الألم الذي تشعر به، وتفكيرك بالوضع الذي صرت إليه؟»
 - «إنّ ألمي سيخفّ تدريجيّاً وسأتحدّثن، لكنّ ألمي الحقيقيّ هو أن أراكم إلى جانب هؤلاء».

سكت، وكأنّه لم يكن يعرف بماذا يجيبني؛ مع أنّهم كانوا أشخاصاً «كالتماسيح» لا يتأثّرون بهذه السرعة، وقد غضب لأنّني لم أجارِه بأفكاره وعقيدته. شعرت بأنّه أراد أن نشعر بالندم عندما نسمع كلامه عن الإمام والعلماء وشتمه لهم. في نهاية المطاف، عندما همّ بالمغادرة، أكملت كلامي قائلاً:

- «إنّ هؤلاء الذين تدعمونهم اليوم، وتساعدونهم، قتلوا الآلاف من أبناء وطنكم، واليوم بالذات قتلوا حوالي السبعين هنا، في هذه المنطقة».

لم يكن يسمع ما كنت أقوله له، كان يكابر، ولكنّني أكملت: «هناك، انظر، في مقدّمة الموقع»، كان يريد أن يسمع ما الذي سأقوله، فنظر إلى مقدّمة الموقع.

- هناك، البارحة، وبعد أن استشهد اثنان من شبّابنا، أحرق العراقيّون جسّتيهما.

- إنّها الحرب، يحرقون، يقتلون، يمزّقون.

- برأيك هل يتمّ إحراق جثّة من يموت؟

كان منزعجاً من كلامي، وبدأ عليه أنّه إنسانٌ عديم الإحساس والعاطفة، حاول جاهداً، ليؤكد وجهة نظره، أن ينفي آراء الآخرين،

حاول التأثير عليّ كي أغير رأيي بـ«مجاهدي خلق»، وأن أمدحهم، فقال لي:

- إننا أناس جيّدون، أنتم أبناء التعبئة، تمتلئ رؤوسكم وقلوبكم بمشاعر سيّئة تجاهنا، لو كنّا كما تظنّون، سيّئين، لطلبنا من العراقيّين أن يقتلوكم، ولفعلوا، نحن إذاً أشخاص طيّبون.
- لأنّكم لا تطلبون من العراقيّين أن يقتلونا، فأنتم أناس طيّبون، يا ما شاء الله، ما أحسنكم!

عندما نطقت بهذه الجملة، غضب منّي وفقد صوابه، قائلاً:
- «يبدو أنّك طويل اللسان».

ثمّ شتم الإمام، عندها لم أعد أسمع في كلامه، أيّ تهذيب أو احترام، ثمّ قال بغضب، وهو يحاول أن يبرهن عن إنسانيّته وعن كونه محقّقاً:

- يمكنك أن تسمّي هذا الأمر ما تشاء، نحن نوصي العراقيّين بعدم إيذاؤكم، وأن يهتمّوا بكم، ولو كنّا نقول غير ذلك لرموكم في البحر والتهمتكم الأسماك.

أردت أن أعبر عمّا يجول في ذهني، ولعلّ العراقيّين كانوا يظهرون احتراماً خاصّاً لهم أماناً لكي يثيروا حفيظتنا، ويزعجوننا لا غير، فقلت له بتهكّم:

«إنّهم يحترمون كلّ من يُظهر العداء للشعب الإيرانيّ، أمر جيّد أنكم لا تطلبون من العراقيّين قتلنا، ولكن تأكد أن موت البشر هو بيد الله».

بعد ساعة أو ساعتين من إزعاجهم لنا، وخذشهم لأرواحنا كالمبرد، ذهبوا دون وداع والحمد لله.

عندما دخلنا الخندق، كان الليل يشرف على الانتهاء، وما زلت أنتظر ما الذي سيحلّ بنا، وما الذي سيحصل. وقف أحد الجنود العراقيين على مدخل الخندق لمراقبتنا، وكأنّه كان شديد الإعجاب باللواء الركن ماهر عبد الرشيد؛ لأنّه سألنا:

- «من يعرف اللواء الركن ماهر عبد الرشيد؟»

أشرت بيدي إلى قدم «السيد محمد شفاعت منش»، وقلت له:

- «طبعًا كلنا نعرفه، فقد قطعنا قدمه في الـ«فاو».

ثمّ أكمل «السيد محمّد»: «طبعًا أنتم لم تقصّروا، وردًا على ذلك، فقد أقعدتمونا جميعًا».

كنت متأكدًا أنّه لو فهم ما قلناه عن ماهر عبد الرشيد ما كان ليتركنا أبدًا.

كان العراقيون يدبكون (رقص شعبي) في الموقع، بينما كان أحدهم، صاحب صوتٍ جهوريّ، يغنيّ لهم، كانت ليلة سعيدة بالنسبة إليهم، والليّلة الأسوأ في عمرنا.

كنت أفكر بعوائل الشهداء الذين سقطوا البارحة على «جادة الخندق»، كان يمكنني أن أفهم وأدرك أحوال أهالي الشهداء في القرى والمدن في هذه الأيام.

كانت أجواء الحداد على الشهداء الذين سقطوا على بعد أمتار منّا تعمّ مدن «كتشساران، كهكيلوية وياسوج». اعتقدتُ أن عائلتنا، نحن الخمسة، تظنّ أنّنا في عداد الشهداء أيضًا. كنّا نعرف أنّ خبر مقاومة

الشَّباب البارحة، من لواء «الفتح 48»، وتضحياتهم هنا، قد وصلت إلى مسامع الإمام وقادة الحرب⁽¹⁾.

الاثنين 27 حزيران 1988م - جزيرة «مجنون» - «موقع الخندق»

في الصباح الباكر فكّوا القيود من أيدينا، وأحضروا لنا القليل من الجبن والخبز، عندما تذوّقت الجبن العراقيّ، لم استطع تحمل طعمه، وأحسست بالغثيان، كان نوعاً من الجبن الأصفر المملّب، ولم يكن ينسجم مع ذائقتنا. قلت للجنديّ العراقيّ:

«إلى متى سنبقى هنا؟ إذا كنتم تريدون قتلنا فأسرعوا في الأمر وأريحونا».

أعتقد أنّه فهم ما أقول، لم يبدُ أنّ هذا الجندي كان شخصاً سيّئاً. كرّر جملة «اليوم العمارّة»؛ ليفهمنا أنّهم سينقلوننا اليوم إلى مدينة «العمارّة».

طيلة المدّة التي قضيتها في الجبهة لم أسمع أنّ الإيرانيين قد تركوا أسيراً جريحاً في الجبهة. بدأت جراحنا، نحن الخمسة، تتعفّن بعض الشيء، وبدأت تصل روائحها إلى مشامنا. لم نكن نستطيع مداواة جرح «السَّيد محمّد في منطقة الفخذ»؛ حيث أصيب بطلقة. وتفتّت عظم

(1) عرفت فيما بعد، أن الشيخ رفسنجانيّ الذي كان نائباً للقائد العامّ للقوّات المسلّحة، والقائد العامّ للمقرّ المشترك «خاتم الأنبياء» قد أثنى على مقاومة شباب «موقع الخندق»، وفيما يلي متن الرّسالة التي وجّهها آنذاك إلى القائد الشّهيد «سيف الله حيدر بور»، قائد اللّواء «فتح 48»:

بسم الله الرحمن الرحيم.

جانب السَّيد حيدر بور،

أرجو إبلاغ سروري وتقديري للواء «فتح 48» الذين قاوموا في «موقع الخندق» ببسالة وشجاعة.

هاشمي رفسنجاني

26 حزيران 1988م (أرشف مؤتمر القادة)

قدمه في منطقة الفخذ، وقد لفوا قدمه عند الفخذ والساق بالقماش مع قطعة خشب؛ ومع هذا، كانت معنويات السيّد محمد المرتفعة مثيرة للإعجاب. كان كلّ واحد منّا نحن الخمسة نتألم بشكل ما، كانت حالتي الأسوأ بينهم. أصرّ أحد الضباط العراقيين على «السيّد محمد» أن يشتم الإمام، وكان يكرّر باستمرار: «أكّله الموت للخميني»، أي: «قل: الموت للخميني»، أجاب السيّد محمد: «مور جوسقيل للخميني»⁽¹⁾.

فظنّ العراقي أن السيّد محمد قد شتم الإمام؛ لأنّه كرّر عدّة مرّات: «زين... زين...»، ثمّ أحضر الماء للسيّد محمد وسقانا الماء.

ساعدني كلّ من «هجير» و«الله خواست» في ربط قدمي وتثبيتها على قطعة من الخشب. أحضر لنا الجندي العراقي من صندوق المعدّات قطعة خشب، قال هجير: «إذا ما نقلونا الليلة، فسوف تتألم كثيراً إذا بقيت قدمك معلقة بهذا الشكل».

ربط الشّباب قدمي من الكعب إلى الرّكبة، وقد تألمت كثيراً. قال السيّد محمد يجب أن تجهّز نفسك أكثر فأكثر، فكلّما اقتربنا من بغداد وصدّام سوف تتألم أكثر.

عند الغروب، أمر أحد القادة العراقيين بنقلنا إلى خلف الجبهة. قبل الغروب بساعة، أخرجونا من الخندق، هذه المرّة كان أحد الجنود العراقيين يكرّر: بغداد المستشفى؛ كي يفهمنا أنّهم سينقلوننا إلى المستشفى في بغداد. اصطفينا نحن الخمسة، بالقرب من السّاتر الترابيّ للموقع، إلى جانب الضّفة النهرية حيث رست القوارب. وقف

(1) مور تعني باللغة اللّوريّة: العشب الأخضر. كان اللّور يقولون للقمح القصير الأخضر: جوسقيل. وكان «السيّد محمد» يقصد أن الخميني كالجوسقيل أخضر وحيّ.

أربعة عراقيين يحمل كلُّ منهم بيده «كلاشينكوف»، وطاب لهم المزاح، وكأنَّهم يريدون أن يختبرونا كم نخاف من الموت. كانت حركاتهم أشبه بفيلم سينمائي، وقف الأربعة أمامنا، وجَّهوا أسلحتهم تجاهنا، صرخ أحدهم: «استعدّ»، لقَّموا بنادقهم، حاول الضَّابط أن يُظهر لنا أن كلَّ شيء جدِّي وأنَّهم سيطلقون النَّار علينا، فقال: «فتح»، أي: استعدَّوا للإطلاق. فصوَّبوا علينا، وفي النهاية قال لهم الضَّابط: «أطلقوا النَّار»، وبدأ الجنود الأربعة بإطلاق النَّار. للحظة أحسست أن الأمر قد انتهى، كنت أجلس على اليمين، بينما جلس «السَّيِّد محمَّد»، «هجير»، و«الله خواست» في الوسط، و«أحمد» إلى اليسار. أصابت الرُّصاصات التي أُطلقت عن يميني، وفوق رؤوس «هجير» و«السَّيِّد محمَّد» و«الله خواست» وعلى يسار «أحمد»، الساتر العُلويَّ للموقع.

قال «الله خواست» للعراقي الذي أمر بإطلاق النَّار: «نحن أكثر ذكاءً وحنكة ممَّا تظنُّون، لا تخيفونا من الموت»، وأكمل السَّيِّد محمَّد مستعيناً بكلام للشَّهيد «أشرفي أصفهاني»: «إذا كنتم تخيفون السَّمكة من الماء، تخيفونها من الشَّهادة».

حلَّ اللَّيل، بدأ العراقيُّون يحتفلون، تحوَّلت السماء إلى مسرح للقنابل المضِيئة وطلقات الخطَّاط، كان صوت هلهلة العراقيين وفرحهم مرتفعاً. لقد احتفل العراقيُّون كلُّهم بمناسبة احتلال جزيرة «مجنون»، قال «هجير آبسوران»: «إذا كان ما قاله ذلك الجندي (اليوم العمارة) صحيحاً، فلا بدَّ من أن ينقلونا في ساعات اللَّيل الأخيرة إلى العمارة». كنت أظن أن أيَّ مكان ينقلونا إليه هو أفضل من البقاء هنا على الجبهة.

كانت الساعة حوالي التاسعة أو العاشرة ليلاً، وما زال لدي أمل بأن ينقذونا. حسب معرفتي بجزيرة «مجنون»، فإنّ بإمكان الإيرانيين القيام بهجوم من محور «شطّ عليّ»، أي: من جهة الضلع الأيمن «لموقع الخندق». كنت أظنّ أنّ الإيرانيين لا بدّ وأنهم أعادوا تجديد قوّاتهم ليحضّروها ويستردّوا «جادة الخندق» و«موقعه» من العراقيين.

وضعونا داخل القوارب. لشدة الألم؛ فككْتُ رباط قدمي من الرُّكبة، لا أعرف لماذا كنت أعتقد أنّه بفكّ رباط قدمي سيخفّ وجعي، وأنها كانت تعذبّني أكثر من أي شيء. لقد وضعونا داخل القوارب دون الأخذ بعين الاعتبار حالتنا الجسديّة وإصاباتنا. جاء جنديّان عراقيّان، سحبانا على الأرض بالقرب من الرّصيف، وأيضاً عندما أرادا إخراجنا من وراء أعلى الساتر الترابيّ، شعرتُ بألم شديد لم أستطع تحمّله، فبدأتُ بالأنين. إنَّهم لا يريدون نقلنا على الحمّالات. يا ليتني استمعتُ إلى كلام «هجير» ولم أفكّ رباط قدمي، رغماً عنيّ طلبت من الجنديّين، دون أيّ إحساس أو التفات، أن يضعاني للحظة على الأرض، لكنَّهما لم يستمعا إليّ، فكرّرت طلبي مقسماً عليهم بأبي الفضل العباس، عندما سمع أحد العراقيّين، وكان عريضاً أكبر سنّاً من البقيّة، اسم «أبو الفضل» صاح بهم: «أوقف، خلّي ولي» أي: توقّفوا اتركوه. لم أعرف ما قالوه فيما بينهم. لكنّني عرفت أنّ أبا الفضل قد أنجز عمله. أعتقد أنّ الجنديين قالوا للرّقيب: «إنّ القارب على وشك الحركة»، فأمرهم بالانطلاق، تحرّك قارب الشّباب باتجاه الجادة الترابيّة التي كانت تصل الجادة الأصليّة «العمارة. البصرة».

قلت في نفسي: إذا لم يأخذوني إلى حيث الشّباب؟! أخاف ألاّ ألتحق

بهم مرّة ثانية. بعد أن نقلوا الأسرى، غير الجرحى (السّالمين)، إلى إحدى المدن العراقيّة، وفصلوا «السَّيِّد عليّ صالح» عنّا، كانت فرحتي ببقائي مع الشّباب، دعوت الله ألاّ يفصلوني عن الشّباب. كم تمنّيت لحظتها ألاّ يحركني أحد من مكاني؛ لأنّ ألمي قد سكن قليلاً، مع أنّه كان سكوناً مؤقتاً، ولكنّه كان أمراً جيّداً. تقدّم العريف العراقيّ المسنّ نحوي، نظر إليّ، حاول أن يفهمني بحركة من رأسه وابتسامة أنّه قام بما طلبته منه، ولكن الآن يجب أن نتحرّك مرّة ثانية، شكرته ودعوت له من صميم قلبي، طلبت منه أن يربط قدمي مرّة ثانية، فأحضر قطعة خشب، ودون أن يثني قدمي، ثبّتها إلى قطعة الخشب. تصرّف معي بلطف، شعرت بأنّه يريد مساعدتي من كلّ قلبه، أحضر لي الماء، وأمر الجنود بنقلي بقاربٍ آخر، كما أوصاهم أن يحتاطوا بنقلي، وهكذا كان. ابتعد القارب عن «موقع الخندق»، بعد عشر دقائق، رسا بالقرب من جادة تحيط بها المياه من الجانبين. قبل الأسر، وعندما كنت أرصد المنطقة من أعلى البرج، كنت أعرف كلّ هذه الأماكن، هذه هي الجادة التّرابيّة إلى جنوب «موقع الخندق»، هذه الجادة التي كانت تنطلق من منطقتي «البيضة» و«الصّخرة» شمال نهر دجلة مقابل جزيرتي «مجنون»، وتنتهي بـ«الاسكله» و«الجويبر».

أنزلني الجنديّان من القارب، وعادا من حيث قدما. كنت أفنّش عن الشّباب في تلك الجادة التّرابيّة، لم أستطع رؤيتهم، لا أعرف أين كانوا، قلت في نفسي: «يا إلهي أين أخذوهم؟»

كان عرض الجادة يسمح بعبور شاحنة (كاميون). في مقدّمة الجادة كانت الجرافة العراقيّة تحاول توسعة الطّريق. قبل سقوط

الجزيرة، لم يكن العراقيون يستطيعون العمل على توسعة الطريق أو على حفر خنادق في الجبهتين الأولى والثانية؛ لأنهم كانوا على مرمى نيران شبابنا الذين لم يسمحوا لهم بهذا.

كنت أتلو من شدة الألم. لا مجال لمرور سيارتين بالاتجاهين في الوقت نفسه على الجادة. كلما قطعت مئة متر كنت تجد بعض المساحات الأوسع قليلاً من الطريق الرئيسية التي كانت تتوقف السيارات المارة على جنبها للسماح بعبور بقية السيارات.

كنت وحيداً، كانوا يعرفون أنني لن أستطيع الفرار وأنا على هذه الحال. لو كنت أفضل بقليل لما تركوني هكذا، كنت أجلس على جانب الجادة، توقفت سيارة عسكرية دون سقف (جيب) على بعد عشرة أمتار مني.. ترجل السائق برفقة أحد العسكريين الذين كانوا معه، وتوجهوا نحوي، لقد ظننا أنني عراقي، لم أفهم حديثهم، عندما لم يسمعوا جواباً مني، عرفوا أنني أسير إيراني. عاد سائق الجيب ورفاقه إلى سيارتهم، بقي أحد الضباط في المقدمة، ولم يترجل. قبل أن يستقلوا الجيب مرة ثانية، قالوا للضابط الذي نادوه بـ«العقيد»: إنه أسير إيراني جريح.

كانت مصابيح السيارة موجهة على عيني مباشرة، كنت أركز نظري على الـ«جيب». فجأة، تحرك بسرعة شديدة، وخلف وراءه غباراً كثيفاً، أحسست للحظة أنهم سيقومون بدهسي، كانت عجلات الـ«جيب» اليمنى تسير على حافة الطريق، حيث كنت أجلس بالضبط. عندما توجهت السيارة نحوي، عرفت أنهم سيقومون بدهسي حقاً، لم أصدق الأمر، بدا كل شيء مفاجئاً بالنسبة إلي. كان على جانب الطريق مستنقع، وقد

غَطَّى القصب والأعشاب المائيَّة الطويلة جانبي الطريق، عندما رأيت أَنَّهُم يريدون دهسي، رميت بنفسي إلى أسفل الجادَّة، فإذا بالأعشاب تمنع وقوعي في الماء. قلت في نفسي، أَفْضَلُ الفرق في هذا المستنقع على أَن تدهسني سيَّارة العراقيَّين. كانت يداي مكبَّلتين من الخلف، في مياه هذا المستنقع وأعشابه الطويلة، ويدين مكبَّلتين وقدم مجروحة، لم أقم بشيء إلا طلب المساعدة والتَّوسُّل بالأئمَّة الأطهار عليهم السلام، وبأبي الفضل عليه السلام. لم يكن لي أمل بالنَّجاة أبدًا، قلت في نفسي، وهل يُعقل بعد كلِّ محاولات الجنود العراقيَّين لقتلي على هذه الجادَّة، أَن تكون نهايتي الفرق في المستنقع؟ كان النُّصف الأيمن من جسدي غارقًا في الوحل والمياه. لو لم تكن يداي مغلولتين؛ لاستطعت أَن أزيح الوحل من حولي، ولَعُدْتُ مرَّةً ثانية إلى الجادَّة، مع أَنَّهُ لو كان بإمكانني ليلتها أَن أسحب نفسي إلى طرف الجادَّة مرَّةً ثانية، لما سلِمْتُ من السيَّارات العسكريَّة السَّريعة التي كانت تسير هناك، خاصَّةً أَنِّي إيرانيٌّ وجريح أيضًا. مع أَنِّي سقطتُ على القصب النَّابت على جانب المستنقع، إلا أَنَّ لباسي وجزءاً من جسمي قد تلطَّخ بالوحل الذي لا يخلو منه مكانٌ في تلك المنطقة، حاولت جاهداً سحب نفسي إلى جهة يكون فيها القصب والأعشاب أكثر كثافة، وركَّزت ثقل جسمي عليها.

توقَّفت «جيب» عسكريٍّ لقيادة عراقية، لم يكن مهمًّا بالنَّسبة إليهم ما الذي حلَّ بي، ألقى السائق نظرة خاطفة على جانبي الطريق ورحل، مع أَنَّهُ قد أضناني الوجع والألم إلا أَنِّي لم أنبس ببنت شفة. كنت أشعر.. على الرُّغم من صغر سنِّي، ومع كلِّ هذه الغربة والألم.. أَنَّ الله ينظر إليَّ بلطفه. أَظنُّ أَنَّ المصائب التي تحمَّلتها في طفولتي جعلتني أقوى

على تحمّل هذه الشدائد والمصائب والمشاكل. فبعد حادثة «ده بزرک» (اسم القرية التي كان يسكن فيها) والتي عشتها وأنا في التاسعة من عمري، صرّت أكثر خبرة في تحمّل المصائب ومواجهة المشاكل.

كانت العتمة شديدة، تمنّيت أن يأتي العراقيّون ويأخذونني من هنا، وأخيراً، بعد عشرين دقيقة من وقوعي على القصب بالقرب من المستنقع، ظهر الجنديّان العراقيّان المأموران بنقلي إلى خلف الجبهة، رسا قاربهم على بعد 15 متراً منّي، كانا يبحثان عنّي على الجادة، وهما يعرفان أنّني لن أستطيع الهرب بهذه القدم المجروحة واليدين المكبّلتين. عندما اقتربا منّي، ناديتهما، نزلا نحوي، أمسكاني بكتفي وسحباني من بين الأعشاب والقصب، كانت ملابسي مبلّلة وموحلة، لم يعرفا لماذا سقطت عن الجادة وما الذي حلّ بي، كانا يكرران كلمة «الموت، الموت». استطعت أن أفهم أنّهما يظنّان أنّني كنت أريد أن أقتل نفسي؛ كي أخلص منهما.

حملاني ووضعاني في الد«أيفا»⁽¹⁾، ولم يراعيّا حالتي أبداً. لم يفتحوا الباب الخلفيّ للصندوق حيث وضعاني، إذ كان بالإمكان عندها أن أرتاح قليلاً، بل حملاني ورمياني في الصندوق من فوق الباب الخلفيّ، حاولت أن أحمّل الألم ولا أرفع صوتي، ولكن لا مفرّ من الألم والصّراخ. كبّل العراقيّون يديّ بقضبان شباك السيّارة الحديدي، وها هي السيّارة تنطلق.

توقّفت السيارة على مسافة 200م، على الرّصيف إلى جانب الجسور العائمة، كان القارب قد أنزل الأخوة في ذلك المكان من الجادة

(1) سيارة عسكريّة عراقية تشبه الشاحنة الصغيرة، كانوا يتنقلون بواسطتها في الجبهة.

«السَّيِّد مُحَمَّد»، «هَجِير»، «الله خواست» و«أحمد»، وها هم العراقيُّون يُركبونهم إلى جانبي في الـ«أيضا»، ثمَّ يكملون مسيرهم، كم فرحت ببقاء الشَّباب ثانية.

بعد حوالي 200م، أُضيف إلينا سبعة أسرى أيضًا. كان غير مسموح لنا التَّكلم معهم. كانت وجوه الشَّباب الملتحين مليئة بالكدمات، وقد كبل العراقيُّون أيديهم أيضًا بقضبان السيَّارة الحديديَّة، كان صندوق السيَّارة، حيث نحن، مليئاً بالطَّنَاجِر الكبيرة، ووسائل الطَّبْخ الأخرى، التي كانت تتحرَّك كلِّما تحرَّكت السيَّارة على الجادَّة التَّرابيَّة، وترطم بأيدينا وأرجلنا؛ ممَّا يزيد من آلام جراحنا. من كثرة ما تأذَّيت وتألَّمت أحسستُ أن أمعائِي ومعدتي تتحرَّك من مكانها، وستصبح خارج جسمي. كان بعض العراقيَّين يتفون على أطراف السيَّارة لمراقبتنا، وكم تمنَّيتُ لو استشهدتُ، ولم أقع أسيرًا بين أيدي هؤلاء القوم. كان الأسرى الإيرانيُّون يعانون بشدَّة، ويحمِّلون فوق طاقتهم في الأسر، وخاصَّة أولئك المصابون بأقدامهم.

كانت ذكريات «جادَّة الخندق»، تخطرُ في ذهني، فمقاومة الشَّباب اليوم كانت عاشوريَّة. لم أستطع أن أبعد عن ذهني، منظر ذلك الشَّهيد الذي كان يركضُ عندما أصابت إحدى الشُّظايا رأسه، ولكنَّه لم يمت مباشرة، بل كان يركضُ يمينًا ويسارًا إلى أن وقع في مياه المستنقع، واستشهد هناك. كان قلبي عند الشَّهيد «صفر عليَّ كردلو». منذ سنةٍ مضت، عندما رجعنا سويًّا من ثكنة الشَّهيد «غلامي» في الأهواز إلى «كتشساران»، أخبرني عن قضية مجيئه إلى الجبهة قائلاً: لم يقبل الشَّباب بتسجيل اسمي للالتحاق بالجبهة بسبب صغر سنِّي،

لكنني قلتُ لهم: كيف تتجرؤون على عدم قبولي في جيشكم بينما قبل مسؤول (استقطاب الموارد البشرية) في جيش الإمام الحسين عليه السلام أن يسجل أسماء: علي الأكبر، والقاسم، وعلي الأصغر في جيشه، فكيف.. وأنتم في جيش الإمام الخميني.. ترفضون تسجيل اسمي لأقاتل صدام؟! يقول «صفر علي» أن كلامه هذا دفعهم إلى القبول بتسجيل اسمه، وها هو في الجبهة هنا.

توقفت سيارة الد«آيفا» للحظات في عدة نقاط على الجادة أمام الحراس «المزعجين» لمدينة «العزير»، وحرس مدخل مدينة «العمارة» إلى أن دخلنا إحدى الثكنات العسكرية.

الفصل الثالث:

«الميمونة» - الفيلق (1) العراقي الرابع

الثلاثاء 28 حزيران 1988م - «الميمونة» - الفيلق الرابع

كانت الساعة حوالي الثالثة صباحاً عندما وصلنا إلى الثكنة العسكرية للفيلق الرابع، في مدينة «الميمونة»⁽²⁾. كانت الثكنة مضاعفة بالمصاييح الكبيرة (بروجكتور). عند دخول سيارات الـ«آيفا» العسكرية إلى الثكنة ظهر أمامنا عشرة أو خمسة عشر جندياً من جنود الأمن (الحرس) الموجودين هناك. كان الجنود يحملون بأيديهم العصي والكابلات، وينتظروننا على الباب الخلفي لسيارات

(1) قد يطلق عليه أيضاً الجيش العراقي الرابع. تختلف تشكيلات وفرق الجيوش من بلد لآخر حسب ضخامة الجيش وعدد أفرادهم ومهامهم. وتتشكل القوات العسكرية لبلد ما مثلاً من عدة جيوش يضم الجيش الواحد (2-4) فيالق. يراجع جدول التشكيلات العسكرية ملحق رقم (1-2) (مركز نون).

(2) يقع مقرّ (الفيلق) الرابع العراقي في مدينة «الميمونة»، في محافظة ميسان العراقية. مدينة العمارة مركز محافظة ميسان. كان تحت إمرة الفيلق الرابع في «الميمونة» أكثر من خمسة عشر لواءً وفرقة مشاة مدرّعة ومجهزة. كانت الوحدات التي يشرف عليها الفيلق الرابع، تتولّى مباشرة مسؤولية جزء كبير من محاور العمليات في الجنوب، من جملتها «جزيرتي مجنون». كان يتولّى قيادة الفيلق الرابع اللواء الركن ثابت سلطان التكريتي الذي خلف اللواء الركن هشام صباح الفخري. كان الفيلق الثالث يتركز في مدينة البصرة وكان بقيادة العميد الركن ضياء توفيق إبراهيم. أمّا الفيلق السادس العراقي، فقد تمّ تشكيله بعد عمليات خبير لحماية منطقة «الهور العظيم» وشرق دجلة، وكان مركزه في «القرنة». كنت قد سمعت بأسماء كلّ من اللواء ماهر عبد الرشيد قائد الفيلق السابع (ابنته زوجة قُصّي بن صدام)، واللواء الركن طالع خليل الدوري قائد الفيلق الخامس أكثر من غيرهم من قادة الجيش العراقي.

الـ«أيضا»، وهم يصرخون بنا: انزل يا «قرد»، «يا عجل»، هيا أسرعوا بالنزول. في البداية، أنزلوا الأسرى الأصحاء (غير الجرحى)، بعد ضربهم وشتهم توجهوا إلينا، وقد غضبوا؛ لأننا لم نستطع التّرجل من السيارة: أنا، «السيد محمّد»، «هجير»، «أحمد»، و«خدا خواست»، اقتربوا من السيارة وانهاّلوا علينا بالضرب بما أوتوا من قوّة. أعتقد أنّهم ظنّوا أنّنا لم نترجّل؛ كي لا نتعرّض للضّرب، ثمّ صعدوا؛ كي ينزلونا على طريقتهم الخاصّة، ولكن عندما رأوا حالنا توقّفوا عن ضربنا، وتركونا داخل السيارة. كنّا نتوقّع أن يساعدونا على النزول، وكنّا قد طلبنا من بقيّة الأسرى الموجودين معنا مساعدتنا على النزول قبلهم، لكنّ العراقيّين لم يسمحوا لهم بذلك.

أمّا «السيد محمّد» الذي لم يتوقّف عن المزاح حتّى في أصعب اللحظات، ابتسم قائلاً: إنّ عبارة «اليوم العمارة» التي شبعنا من سماعها منذ البارحة، تعني: «صحتين على قلبنا، وهنيئاً لنا هذا المكان الجديد».

فتح الجنود الباب الخلفيّ لسيارة الـ«أيضا»، أفهمنا أحدهم بإيماء منه أنّه علينا النزول، تقدّمنا الواحد تلو الآخر زحفًا إلى حافة الباب، مدّ أحدهم يده إلينا، وقد تفاجأت من طريقة وضع يده؛ لأنّها لن تستطيع تحمّل وزن جسمي إذا ما رميت بنفسي عليها، أعطيت يدي، وكنت متيقنًا أنّه لن يدعني أقع أرضاً، ولكن.. وكما توقّعت.. لم يتحمّل ثقل وزني، وقد تركني فوقعت أرضاً، بدأت أتململ من شدّة الوجع، ولم استطع منع نفسي من شتم هذا الجنديّ الذي ظننت أنّه أراد مساعدتي: «أيّها القرم، ابن حرام».

فهم الجنود من كلامي أنني شتمتهم. انهال أحدهم عليّ بالركل والشتم، وبدأ بضربي بجزمته على ظهري، فهمت ما كان يقوله، لكنني كنت أشعر بالارتياح؛ لأنه فهم أنني شتمته، وأحسست، بالفعل، أن ثقلًا قد انزاح عن قلبي، مع أنني لم أكن أريد أن أصبح مثلهم شتمًا.

تعامل الجنود بالطريقة نفسها مع بقية الأسرى، سحبونا على الأرض، كنّا نتوقع أن ينقلوننا على الحمّالات، أخذونا إلى الممرّ، أمام دورات المياه الخاصة بالثكنة، كان الممرّ واسعًا وكبيرًا، فقد أحضروا البارحة أسرى موقع «الخدق» إلى هنا، عدد منهم لا أعرفه، كان رأس ووجه أحدهم مليئًا بالكدمات والدماء. هناك عدد من الشباب في الغرف المجاورة. كان ممر «دورات المياه» متسخًا، ومليئًا بالنجاسة. كانت وجوه الشباب تموج بالتعب، والإرهاق، والألم. جلس الجرحى أمام أبواب الحمّامات، متكئين على الحائط حيث صنادير المياه، التي فيها كلّ شيء إلا المياه. هناك في مكان ما من الممرّ، خرّجت أمعاء «احمد سعيد» من مكانها.

تفصلنا ساعتان عن أذان الصبح، ثقلت جفوني فغفوتُ، استيقظتُ على صوت الأذان يرفعه أحد الأسرى، تجادل أحد الشباب مع الأسير الذي رفع صوته بالأذان قائلاً: «وهل يُعقل أن تؤذن في دورات المياه؟»، فأجاب الأسير الذي أذن: «وهل جئنا إلى هنا بإرادتنا؟ نحن مجبرون؛ لذلك يمكننا أن نؤذن حتّى في دورات المياه».

فكّ كلّ واحد منا، قيود الآخر بأسنانه، صليّنا الصبح من جلوس دون تيمّم، ودون سجّدت، في ممرّ الحمّامات. كان المؤذن سيئ الحظّ، فبعد أن جادله بعض الشباب وانتقدوه على رفع صوته بالأذان

في هذا المكان، سحب العراقيُّون إلى الخارج وانهالوا عليه ضرباً. كان من أصفهان. عندما عاد كان وجهه مليئاً بالكدمات والدماء. انزعج العراقيُّون؛ لأننا صلينا في الممرِّ قرب الحمامات، فقالوا: «أنتم أيُّها الإيرانيُّون الكاذبون، صلاتكم ليست سوى خداع ورياء».

في الصباح الباكر، أخرج الجنود الشَّباب ليحقِّقوا معهم، ولتسجيل أسمائهم. اصطَفُّوا في خمسة صفوف، كان التحقيق يجري في غرفة اسمها: «غرفة الحرب».

لأنَّه اليوم الأوَّل لنا في الثَّكنة؛ كان الضَّبَّاط العراقيُّون في هذا الفيلق يتحرَّكون ذهاباً وإياباً. انقطعت أخبارُ بعض شباب موقع «الخدق» الذين تمَّ نقلهم إلى إحدى ثكنات الفيلق الثالث.

قبل أن يأخذوننا إلى التحقيق في غرفة الحرب، حضر، إلى هناك، بعض الجنود من ذوي القُبَّعات المرقَّطة والبنِّيَّة، وبـ«شاراتهم» التي كانت على شكل «عقاب»، وأحزمتهم البيضاء، وألبستهم العسكريَّة المرقَّطة. يبدو أن هذه الثَّكنة تتميَّز بالنَّظام والدَّقة والانضباط، يظهر ذلك من ألبسة هؤلاء الجنود النظيفة المرتَّبة.

أجلَسَ الجنودُ الأسرى في صفوف منظَّمة، استعداداً للتحقيق. كان الجنود العراقيُّون يخافون من الضباط الأعلى منهم رتبة، ويحسبون لهم حساباً. فهِمَّت ذلك من طريقة تأدية التَّحيَّة لهم، وطريقة وقوفهم أمامهم. عندما نظرت حولي، رأيت الأبنية، الغرف والسَّاحات الكبيرة في الأجزاء المختلفة من الثَّكنة.

كنت مستعداً للتحقيق، كانوا يحقِّقون مع الأسرى الجرحى بعد التحقيق مع الأسرى الأصحَّاء. قلت «للسيِّد محمَّد»:

- يا سيّد، هل نتكلّم فعلاً باللغة اللوريّة الأصلية⁽¹⁾؟

- عندها سيتضون علينا.

بعض الأسرى، رغماً عنهم، أو برضاهم، كانوا يعطون العراقيين معلومات لا ينبغي البوح بها، وكان بعضهم الآخر عندما يتعرّضون للضرب والشتائم يفقدون صبرهم على التحمّل، ويعترفون ببعض المعلومات للمحقّقين العراقيين الذين كانوا محترفين في عملهم. حاول العراقيون، اليوم خلال التحقيق معنا، التوصل إلى أسماء القادة، شباب المعلومات والعمليّات، الأفراد الذين قصفوا قواربهم في جزر «مجنون»، الأفراد الذين استهدفوا المروحيّات العراقيّة، ومعلومات عسكريّة حول عدد الجنود، الأعتدة اللوجستيّة، ومعنويّات المقاتلين الإيرانيين...

أخرجوا أسيراً الى ساحة الثكنة وهو على حافة الموت؛ لأنّه رفض البوح بمعلومات. كان بعض الأسرى، ونتيجة تعرّضهم «لصدّات الكهرباء»، والضرب المبرّح، يفقدون وعيهم. في ساحة الثكنة، ضرب الجنود العراقيّون أحد الشباب الخوزستانيّين إلى حدّ الموت، بعد أن أفشى أمره أحد رفاقه، ضربه بطريقة جعلت الدم يخرج من فمه وأنفه. ويظهر أنّه أصاب زورقاً عراقياً برمائيّاً في المياه بالقرب من جزيرة «مجنون» الجنوبيّة بالـ«آر. بي. جي».

أخذوا «السيّد محمّد شفاعت منش» قبلي للتحقيق. عندما عاد كان وجهه مليئاً بالكدمات، كان «السيّد محمّد» رجلاً شجاعاً

(1) إحدى اللغات المحلية المحكية لدى سكان أحد الأقاليم في إيران، تتميز بألفاظها الغريبة، يصعب على غيرهم فهمها. (نون)

وسريع البديهة. كنّا، كلّما انتهى التحقيق معنا، تجمّعنا بعضنا حول البعض الآخر، وبدأنا نستعيد الأسئلة التي وُجّهت إلينا، والإجابات التي أعطيناها. قال المحقّق «للسيد محمّد»: لقد قتلنا الكثير من الإيرانيين في جزيرة «مجنون»، لقد «مسحنا بكم الأرض»، أجابه «السيد محمّد»، الذي لم يستطع تحمّل الإهانات التي كان يوجّهها هذا العراقيّ، قائلاً: «لقد كنتُ قائد مجموعة في جزيرة مجنون، لقد قضيت لوحدي على سرّيّة مغاوير عراقيةً بأكملها، نحن أكثر شجاعة منكم، ولكنّ معدّاتنا العسكريّة أقلّ ممّا عندكم بكثير». لكنّ كلام «السيد محمّد»، الذي كان شخصاً عنيداً، أغاظ المحقّق العراقيّ، فانهال عليه بالـ«كابل»⁽¹⁾، وبدأ ذلك على وجهه، مع أنّهم كانوا حتّى هذه اللحظة قد راعوا وضع قدمه المصابة. سأله المحقّق: إذا ما قصفنا المدن الإيرانيّة بالأسلحة الكيميائيّة فما الذي ستفعلونه؟، أجاب السيد محمّد: إنّ كلّ البلديّات في إيران، في كلّ القرى والمدن، قد درّبت أهلها على استعمال الأقنعة الواقية، حتّى الأطفال الصّغار قادرون على استعمال الأقنعة الواقية، أنتم تستعملون الأسلحة الكيميائيّة في الحرب، لقد فهمنا هذا الأمر، إنّ قائدنا يعتبر استعمال الأسلحة الكيميائيّة أمراً محرّماً. أمّا أنتم، فلم ترحموا حلبجة العراقيّة، فكيف بنا نحن الإيرانيين؟

كان الشباب يتكلّمون بقوة خلال التحقيق، كنت اعتقد أن الأسير لا يملك إلاّ سلاح لسانه. إنّ فعاليّة هذا السّلاح في كربلاء، والذي لجأت إليه السيّدة زينب، لا يخفى على أحد. في كثير من الأحيان، كان

(1) قطعة سلك كهربائيّ مغلف بالبلاستيك أو حبل معد للتعذيب والضرب.

هذا السلاح عند الأسرى الإيرانيين أكثر تأثيراً من الرصاص وقذائف الـ«آر. بي. جي».

بعد «السيد محمد»، جاء دوري، وضعني اثنان من الجنود على الحمالّة، ونقلاني إلى «غرفة الحرب [التحقيق]». عندما دخلت إلى الغرفة، وجدت نفسي أمام أربعة ضباط عراقيين يجلسون خلف طاولة. أكثر ما لفت نظري، خلال فترة التحقيق، ذلك الإبريق المليء بعصير البرتقال الموجود أمامهم.

كم تمنيت لو يسمحون لي بشرب هذا العصير، فهم لا يشربون منه، ولا يسمحون للأسرى أيضاً بالشرب، فظننت أن وضع هذا الإبريق هناك، أمام أسير عطشان في حرّ حزينان، هو جزء من التعذيب. كان بين المحققين، شخصٌ ضعيفُ البنية، وذو عينان ملوّنتان، وهو أرفعهم رتبةً، ذو شعر بنيّ أجعد قليلاً، برتبة عقيد، يبدو أنّه شخصٌ جدّي وقاس. أمّا المحقق الثاني فكان يرتدي بذلة خضراء اللون، لا رتبة عسكرية له، وأكبر سنّاً من البقية، كان يعطي توجيهات للمحقق. كان مترجمهم إيرانيّاً، شكله يشبه الإيرانيين، لكنّ لولم يتكلّم لاعتقدته عراقياً، فقد كان يرتدي بذلة عسكرية عراقية، وهو برتبة رائد، لا لَكَنَة في كلامه تمكّننا من معرفة المحافظة التي جاء منها في إيران، كان يتكلّم باللغة الفارسيّة بلهجة غليظة، وهو أحد أعضاء منظّمة «منافقي خلق».

أمّا العسكري الآخر، صاحب البذلة الخضراء، فهو برتبة ملازم أوّل، وكان عمله تسجيل معلومات الأسرى. خرج الجنديّان اللذان حملاني على الحمالّة من الغرفة. كان على الطاولة جهاز للصدمات

الكهربائية، عرفت خلال التحقيق كيفية عمله.

في ثكنة «الميمونة»، كان التحقيق يُجز بشيء من الحيلة والمكر، فكان المحققون أصحاب خبرة، ومحترفين في هذا المجال. بعد تسجيل المعلومات الخاصّة بي، وقف الضابط صاحب الشعر البني ممسكاً بيده عصاً، وأشار بها إلى خريطة على الحائط، أوضح لي موقع جزيرة «مجنون»، أين كنا نحن، وأين كانوا هم، ماذا فعلنا، وما الذي فعلوه هم، ثم طلب منّي أن أوضح أين كانت تستقرّ وحدتنا من الجيش والحرس في جزيرة «مجنون» و«طلائئة» و«جفير». حاولوا، وبحنكتهم..، أن يسحبوا المعلومات العسكريّة والشخصيّة لمقاتلينا، أماكن الكتائب والوحدات، القادة، الأسرى المهمّين، الخطوات اللاحقة للإيرانيين و.....

مع أنّني كنت مُلمّاً، خلال وجودي على الجبهة، بالخرائط والـ«كالك» (أوراق المخطّطات الشفافة)، لكنني أظهرت لهم أنّني لا أعرف شيئاً عن هذا الموضوع.

سألني العقيد:

- كم عمرك؟

- ستة عشر عاماً.

- هل أنت من التعبئة؟ هل تطوّعت للقدوم إلى الجبهة؟

- نعم أنا تعبويّ.

سأل المحقّق الأكبر سنّاً:

- لماذا أتيت إلى الجبهة؟

تذكّرت حينها ذلك اليوم من شهر شباط العام 1986م، بعد

عمليّات «كربلاء ٥». تذكّرت كلام «محمود آقاسي» يومها، ونكات شباب التخريب⁽¹⁾. مع أنّي لم أكن أحفظ الآية 190 من سورة البقرة، لكنّني قلت ترجمتها بالّلغة الفارسيّة (والآية هي: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين»).

لم يقل مسؤول التحقيق شيئاً، لكن العقيد صاحب العينين الملونتين قال لي:

- «تعرف القرآن إذا، علّمكم علماء الدين هذا الكلام: أنّا المعتدون، إنّ الله لا يحب العراقيّين! بل يحب الإيرانيّين فقط! فالله هو الهكم أنتم فقط». حينها أصبح صوته أكثر حدّة وارتفاعاً ثمّ قال:

- أيّها المجوس! لقد علّمناكم نحن العرب هذا القرآن، ولولانا

(1) بعد عمليّات «كربلاء 5»، تم تسليم «تقاطع الموت» في شلمجة الى شباب التخريب. في أحد الأيام، وفي منطقة «قناة ماهي»، أو «قناة السمك»، تجمع شباب التخريب حول «محمود آقاسي»، كان «آقاسي» من مدينة «شهرضا»، ونائب مسؤول وحدة التخريب. في العام 1988م أصبح مسؤول وحدة التخريب. كان قائداً حسن المعشر، وقليل الكلام. كان يأنس بالشباب. تكلم يومها عن الأسر، فسأل الشباب: «إذا وقعتم في الأسر يوماً وسألوكم لماذا جنّتم الى الجبهة، فماذا تجيبونهم؟»، لم يأخذ الشباب الأمر بجدّيّة، فضحكوا يومها، وقال كلّ منا شيئاً ما. لم نفكر يومها أن هذا الأمر قد يحصل يوماً، لم أتخيّل للحظة أنّي سأقع تحت رحمة العراقيّين. أجاب «بمان عليّ أنصاري»، وهو من منطقة «نورآباد»: «أقول لهم يومها، سيّدي، جاء الجميع إلى الجبهة فجئت معهم»، أمّا «رضا عليّ باك نسب»، من منطقة كهكيلويه، فقد قال: «سأعترف أنّني كنت جندياً، وقد أتيت الى قناة السمكة؛ لأصطاد السمك فوقعت بين أيديكم»، بينما قال «عليّ عالي منش»، من منطقة «استهبانات»، من محافظة فارس: سأقول لهم جنّت؛ لأدافع عن وطني، ثم قرأ هذا الشعر: لو قطعتم رأسي عن بدني، لن أتخلّى عن تراب من وطني. عندما جاء دوري قلت: بثقة: أنا لن أقع في الأسر، فأجابني «آقاسي» ممزحاً: إذا وقعت في الأسر، ولكي لا يقتلونك؛ قل لهم إنك سيّد؛ لذلك أنت عربي، ومنذ عدّة سنوات فقط جنّتم إلى إيران، لكن الإيرانيّين طردوكم من أرضهم، وها أنا أعود إلى العراق. في النهاية وكما عودنا «آقاسي» دائماً أنّه في كلّ جملة يقولها، حتّى لو كان يمزح، هناك ما يريد أن يوصله لنا: قال إذا سألوكم لماذا جنّتم تقاتلون فاجيبوهم بهذه الآية القرآنيّة: «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ».

لبقيتكم كما كنتم، قومًا يعبدون النار، لو لم نعلمكم القرآن لكنتم جميعًا كفَّارًا الآن.

- الحمد لله، لقد اعترف أخيرًا أحد العراقيين أننا لسنا كفرة. فمنذ عدة أيام وكلما التقينا بعراقي كان يقول لنا: مجوس، وكفرة وما إلى ذلك.

كان غضبه يزداد، في المقابل، كان مسؤول التحقيق الأكبر سنًا، ساكنًا، وضابطًا لأعصابه، ويسمع كلامي بدقة، لكنه كان يُظهر غضبه كلما استشهدتُ بالقرآن في كلامي. سألتني المحقق العقيد، وفي الوقت نفسه كان المترجم ينقل كلامي له بهدوء ودقة:

- في أيّ وحدة كنت متطوعًا؟

- في لواء «الفتح 48».

- أي: أنّ لواءكم قد انتصر 48 مرة في الحرب؛ لذلك أسميتموه هكذا؟

- لا لقد انتصر أكثر من 48 مرة، ولكن اسمه 48 فتح لسبب آخر.

- وما هو هذا السبب؟

- إنها السورة الـ 48 من سور القرآن، سورة الفتح؛ لذلك سمينا وحدتنا «الفتح 48».

عندما قلت هذه الجملة، استشاط غضبًا. وأنا لم أستطع منع نفسي من الاستشهاد بالقرآن الكريم، وكأنّ كلامه كان يجرّني جرًّا إلى العودة لكلام القرآن، لم أعرف لماذا كان العقيد يغضب كل هذا الغضب، وأكمل قائلاً:

- ليقسم القرآن ظهوركم، تريد أن تفهمني أنّ الخميني في إيران لا

يتصرّف إلا على أسس القرآن؟ لماذا يسمّي الكتائب والألوية بأسماء مأخوذة من القرآن؟

- كل شخص يعرف نفسه، إذا كان يعمل على أسس القرآن أم لا، ولكن القرآن يقول ألا يغزو أحد بلاد الآخرين. لكن إذا هوجمتم عليكم بالدفاع عن أنفسكم. كان العقيد يزداد غضباً والمسؤول الأرفع عن التحقيق يدعوه للهدوء وضبط النفس. مع أنه لم يكن مرتاحاً لإجاباتي، لكنّه أكمل طرح الأسئلة، وكنت أجيبه على قدر معلوماتي وفهمي. كان العقيد رجلاً لجوجاً وحشرياً. ثم أكمل وسألني عن جزيرة «مجنون»:

- أين تمّ أسرك؟

- في جزيرة «مجنون» على جادة «الخنديق».

- هل رأيت كيف استرجعنا منكم جادة «الخنديق»؟ ومسحنا بكم الأرض؟

أحسست بالإهانة وفكرت بماذا أجيبه.

- نحن لم نخسر، كنّا 200 عنصر، وكنتم عدّة ألوية، وعندما أسرنا كانت ذخيرتنا قد نفدت، ولم يكن بحوزتنا أيّة رصاصة.

- لكننا استطعنا أن نأسر كل هذا العدد في جزيرة «مجنون».

- صحيح، لقد اسرتم حوالي 100 مقاتل من لوائنا، بينما نحن أسرنا حوالي 17 ألفاً من جنودكم في عمليّات «بيت المقدس». لقد أتينا إلى الجبهة امتثالاً للتكليف والواجب.

غضب المحقّق مرّة ثانية، لكنّ المسؤول الأعلى عن التحقيق كان هادئاً، وبارد الأعصاب، وكأنّه كان يفكر بما أقوله، لقد تذكّرت إحدى اللوحات التي كانت على جانب الطريق، فقلت للعقيد:

- هناك على جادة «الخنديق»، بالقرب من تقاطع «المحور» توجد لوحة على جانب الطريق، لربّما دمرتموها، مكتوبٌ عليها: «علينا القيام بواجبنا، ولا يجب الاهتمام بالنتيجة». لقد تعلّمنا هذا الكلام من سيّدنا الإمام الحسين (عليه السلام).

كان العقيد رجلاً معقداً ومتعصباً لبلده، ولا يفهم الكلام المنطقي، ولكن المسؤول الأعلى عن التحقيق، ذلك الضابط الأكبر سنّاً، كان فهِمًا، ومنطقيًا أكثر. عندما كان العقيد يغضب، ويبدأ بالشتم، كان يطلب منه الحفاظ على هدوئه وحفظ لسانه. فهمت أنّه يطلب منه عدم السبّ والشتم. فقد كان العقيد يحاول قدر المستطاع أن يتّهمني ويدينني. فأكمل قائلاً:

- لقد أسرناكم في جزر «مجنون»، وهذه أرض عراقية، وليست أرضكم أيها المجوس، عبّاد النار، أيها المعتدون!.

- أقسم بالله، أنّنا لا نعبد النار، نحن لا نعبد إلّا الله .

- لقد أسرناكم في أرضنا، ألا يجب أن نقلكم، ونرمي بجنثكم إلى كلاب العمارة؛ لتأكلها. الكلاب الحدودية في العمارة تحبّ أكل لحمكم أيّها الإيرانيون.

- أنا لا أخاف من القتل، لو كنت أخاف لما أتيتُ إلى الجبهة. أنا أسيركم الآن، ويمكنكم أن تفعلوا بي ما يحلو لكم، أمّا إذا سألكم أحدهم لماذا هاجمتم «خرمشهر»، «الهوية»، «سوسنكرد»⁽¹⁾، وبقية المدن الإيرانية، واستوليتم على هذه الأراضي، فماذا ستجيبونهم؟ أولستم تحتلون إلى الآن الكثير من الأراضي الإيرانية؟ فعندما تحتلون

(1) سوسنكرد: تلفظ: Sosangherd.

أرضاً إيرانيّة، ستحتل إيران بالمقابل بعض أراضيكم!
حوّل العقيد موضوع التحقيق إلى «شطّ العرب»، وكما يبدو قام بهذا الأمر عندما شعر بالانزعاج من كلامي:

- «شطّ العرب»، ماذا تقول بالنسبة إلى «شطّ العرب»، ألا تحتلونه أنتم الآن؟ وهو أرض عراقية؟
- للعراق؟! لطالما كان العراق ملكاً لإيران.

أغضبت هذه الجمل العقيد. فقد كان العراقيّون حسّاسين كثيراً بالنسبة إلى «شطّ العرب». لم يستطع العقيد أن يضبط غضبه فقال:
- إذا كان لكم، فلماذا يسمّونه «شطّ العرب»، أليس؛ لأنّه ملك للعرب؟

- لا يهمّ اسمه، ففي محافظة خوزستان يعيش الإيرانيّون العرب؛ لذلك يطلقون عليه اسم «شطّ العرب». وهل الهوزة مثلاً هي لكم؟
- مساكين لقد غسل رجال الدين أدمغتهم.
- مشكلتكم أنكم تظنّون أنّنا صغارٌ في السنّ، ما دون الـ ستة عشر عاماً، لا نفهم شيئاً، وقد أحضرونا إلى الجبهة. لا، لقد جئنا إلى الجبهة انطلاقاً من عقيدتنا.

قال المحقّق المسنّ، الذي حافظ على احترامه إلى آخر التحقيق:
- ما هي أمنيّتك الآن؟ هل تتمنّى أن تتحرّر؟

كنت أتمنّى أن أقول له: إنّ كلّ ما أتمناه هو أن أحمل إبريق العصير البارد الموجود على الطاولة أمامكم؛ كي أشربه. يا إلهي، كنت على وشك قول هذا، ولكنني في اللحظة الأخيرة تذكرت حديثاً جميلاً عن أمير المؤمنين عليه السلام، حفظته من مفكرة الجيب، فقلته بصوت عالٍ:

«أشرف الغنى ترك المني».

سكت الجميع، وها هم يتركونني وشأني. حملني الجنديان اللذان أحضراني مرة أخرى إلى الخارج. كنت مرتاحاً لسير التحقيق، مع أنّ حديثي كان بالنسبة إلى العقيد مزعجاً واستفزازياً، إلاّ أنّه كان بالنسبة إلى مسؤول التحقيق الأكبر سنّاً متنوّعاً وجذاباً. بدا هذا الأمر على وجهه واضحاً. عندما أعادوني، لم نرجع إلى الممرّ قرب «دورات المياه»، فتنفّست الصّعداء.

قراصة الظهر، جاء أحد الضباط العراقيين، برفقة أحد الإيرانيين من جماعة المنافقين. نادى الضابط أربعة من شبابتنا بأسمائهم: «عليّ هاشمي»، «عليّ أصغر كرجي زاده»، «هوشنك جووند» و«تقي إيماني».

سكت الشّباب. نظر كلّ منّا إلى من كان بجواره. لم أكن أعرف أيّاً من أصحاب هذه الأسماء إلاّ «عليّ هاشمي» الذي رأيته مرة واحدة. قال الضابط: «إذا كان هؤلاء الأربعة بينكم فليخرجوا الآن».

لم يذكروا أحداً من هؤلاء الشّباب في تحقيق الصباح. بعد الظهر، جاء أحد الضباط، برتبة «مقدم»، إلينا، وقال لنا: - كلّ من تمّ أسره خارج موقع «الخندق» في جزيرة «مجنون» فليرفع يده.

رفعتُ يدي أنا وعدّد من الشّباب، لم نكن نعرف لماذا يفتّش العراقيّون عن الذين أُسروا خارج موقع «الخندق»، ظنّ العديد من الشّباب، وأنا منهم، أنّهم يريدون أن يعرفوا مكان أسر كلّ واحدٍ من

الإيرانيين؛ لأنهم يريدون أن يحصوا وبدقة ملف أسر كل واحد منا. أخرجوا الأشخاص الثمانية الذين أسروا خارج «الموقع»، جلسنا في ظل حائط المبنى المجاور، تظهر أمامنا صورة لصدام على الحائط الكبير في الجهة المقابلة لنا، وهو يرتدي شالاً (كاب) أسود طويلاً أثناء الرماية.

جلس أسرى جزيرة «مجنون» و«طلائية» في صفوف من خمسة أشخاص في ساحة الثكنة، وقد أضيف إليهم عددٌ جديد من الشباب، لم أكن أعرفهم. وقع نظري على «محمد كردلو»، من بين الشباب الجالسين في باحة الثكنة، تعجبت لهذا الأمر، لم أكن أظن أنه مازال حيًّا، فعندما أخرجونا من «الموقع» بعد ظهر نهار السبت، لم أره بين الشباب، فاعتقدت أنهم قتلوه في موقع «بيت الله».

فصل العراقيون الأسرى الذين تم أسرهم في جزيرتي مجنون الشمالية والجنوبية، عن بقية الأسرى. قال أحد العسكريين الذي كان يرافقه مترجم إيراني:

- ليتقدم الذين تم أسرهم في «جزر مجنون الشمالية والجنوبية». تقدم حوالي عشرة أخوة، بينهم جريحان، كانا يتكئان على الحائط بالقرب منا، لم أعرف لماذا يركزون على شباب «جزر مجنون». في الصباح، سجل المحقق المعلومات المتعلقة بي، وكذبت في شيء واحد فقط، وهو الفرقة (التشكيل) التي كنت أخدم فيها. لو اعترفت للعراقيين بأنني من جماعة المعلومات، لانتهى أمري. لقد قلت للمحقق أنني من أفراد كتيبة الشهداء الخاصة. صدقوني ولم يكملوا السين والجيم.

كنت جالساً بالقرب من الحائط، جاء عدد من الضباط إلينا، كان يرافقهم اثنان من الإيرانيين؛ أحدهما يتكلم بالعربية، وهو من الأسرى، كان وجهه مليئاً بالبثور الملتهبة. كان لباسه موحلاً وفي حال يرثى لها. أعتقد أنه أُسر في جزيرة «مجنون». نظر إلى الإخوة واحداً واحداً، لم أعرف عمّ يفتشون، عندما وصل إليّ سمعته يذكر اسم «السيد عليّ هاشمي»⁽¹⁾، ثم قال: «سيدي هذا هو»، لم أعرف ما الذي يقصده بـ«سيدي هذا هو».

في تلك اللحظة جاء اثنان من العراقيين وحملوني على الحمالة، نقلوني إلى غرفة غير تلك التي أخذوني إليها في الصباح؛ حيث ينتظرن محققون لم أرهم من قبل.

في تحقيق الصباح، سجّل العقيد العراقي معلومات شخصية: الاسم، العائلة، رقم السجل، مكان الولادة، المحافظة التي أسكن فيها، نوع العمل الذي كنت أقوم به في الجبهة، الوحدة أو الكتيبة التي كنت أخدم فيها، تاريخ الأسر، المكان الدقيق للأسر، وضعي الجسدي. أمّا الآن بعد الظهر، لم يسجلوا شيئاً ممّا ذكرت، بل سجّلوا فقط اسمي، واسم عائلتي، ومكان أسري، ثم سألوني مباشرة عن «الحاج عليّ

(1) ولد اللواء القائد «الحاج عليّ هاشمي» في الأهواز العام 1961م. عُيّن منذ بداية الحرب قائداً لفيلق «الحميدية»، وقائداً للواء «37 النور». نتيجة للقدرات التي أظهرها تمّ تعيينه قائداً للكتلة «نصرت». كان نجاح عمليات «بدر» و«خيبر» المهمتين بهمة «الحاج عليّ هاشمي». إلى أن تمّ تعيينه من قبل «الحاج محسن رضائي» قائداً لفيلق الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) السادس. لقد استطاع في مدة محدودة أن يعيد تنظيم حوالي 13 وحدة عسكرية واحتياط في خوزستان. اختفى «عليّ هاشمي» في 25 حزيران 1988م في جزيرة «مجنون»، وقد عثر على بقايا جثته في أيار 2010م في حقول القصب في جزيرة «مجنون». كان هو أحد القادة الخمسة الشهداء في محافظة خوزستان برتبة «لواء»: «محمد جهان آرا»، «حسين علم الهدى»، «إسماعيل دقاقي»، و«الدكتور مجيد بقائي».

هاشمي». سألني المحقق:

- «هل تعرف قائد (الفيلق) الإيراني السادس؟»

كنت قد رأيت «الحاج عليّ هاشمي» قبل يومين من هجوم العراقيين على موقع «الخندق». كان قد جاء لزيارة جادة «الخندق»، حينها قال لي «بيران مستوفي زاده»: «إنّه عليّ هاشمي»؛ كان ضعيفاً، أَسْمَرَ الوجه، عيناه كبيرتان، ونظرته ثاقبة، لحيته جميلة وسيماؤه قريبة للقلب.

كان يرتدي لباساً كوريّاً. تعجّبت يومها عندما قال لي «مستوفي زاده» إنّهُ قائد جيش الإمام جعفر الصادق عليه السلام السادس، ورأيتهُ ينتعل «نعلًا» مفتوحاً⁽¹⁾. يقال: إنّهُ كان معظم الوقت ينتعل «الحذاء المفتوح»، حتّى خلال الجلسات في الثكنة. لم يكن يظهر عليه أنّه قائد الجيش السادس الجنوبيّ، وأنّه يقود عدّة فيالق وألوية عسكريّة. قلت في نفسي يومها: إذن، «سيف الله حيدر بور» قائد لوائنا مع كلّ شأنه وعظمته، هو تحت إمرة أشخاص مثل الحاجّ.

لم أعرف لماذا يبحث ضباطُ ثكنة «الميمونة» عن «الحاجّ عليّ هاشمي». أنا أسير هنا، ولا معلومات لديّ عما يجري في الجبهة. عرفت فقط أنّ العراقيين قاموا بإنزال على مقر الفيلق السادس⁽²⁾ ظهرًا، هذا ما قاله «الحاجّ عباس هواشمي» للإخوة في لوائنا، وهو

(1) عرفت بعدها من القائد «عليّ ناصري»، صديقه الأقرب إليه، أنّ «عليّ هاشمي» كان يعاني من مشكلة جلديّة في القدم تمنعه من ارتعال الحذاء العسكريّ في أيّام الصيف الحارّة.

(2) تقسيمات القوات العسكريّة الإيرانيّة على النحو التالي: القوات المسلحة: عدّة جيوش/ الجيش: عدّة فيالق/ الفيلق أو الفرقة: (عدة الألوية) / اللواء: (مجموعة كتائب) / الكتيبة (عدّة سرايا) / السرية (مجموعة فصائل) / الفصيل (وهو أصغر مجموعة عسكريّة). (مركز نون)

أحد معاونين في مقرّ الجيش (الفيلق). لم أكن أعرف أين «الحاجّ عليّ هاشمي»، وما الذي حصل له. كان المحقّق يحمل صورة «الحاجّ عليّ هاشمي». كان «الحاجّ عليّ هاشمي» في الصورة يرتدي لباس الحرس المعروف، وكأنّها أخذت في مناطق الجبهة في الجنوب. كنت أفكّر ما الذي تفعله صورة «الحاجّ عليّ هاشمي» عند العراقيين. قلت في نفسي: «يا إلهي، ما الذي حصل للحاجّ عليّ هاشمي إذن؟» وبينما كنت أفكّر في مصيره سألتني المحقّق:

- هذا «علي هاشمي»، هل تعرفه؟

- لقد رأيته قبل يومين من هجومكم على جزيرة «مجنون»، رأيته على جادة «الخنديق».

- وهل رأيته أثناء الهجوم على جزيرة «مجنون» بتاريخ 25 حزيران؟⁽¹⁾

- لا لم أره أثناء هجومكم في ذلك اليوم.

- أيّها المجوسّي الكاذب، أنت بريد⁽²⁾ «علي هاشمي».

- لا لست ساعي بريد «عليّ هاشمي».

غضب المحقّق، فضربني بالهراوة الخشبيّة التي كان يحملها على وجهي، وقال:

- أنت ساعي بريد «عليّ هاشمي»؟ أين ذهب «علي هاشمي»؟
ثم أكمل المحقّق قائلاً:

(1) يقصد عمليات الرابع من تير 1367 ش. (1988).

(2) بريد، أو ساعي بريد، شخص مهمته إبلاغ البرقيات والرسائل لأصحابها، وكان موجوداً لدى كل المقرات وقيادات الألوية. (مركز نون)

- لقد قالوا لنا: إن ساعي بريد «عليّ هاشمي» كان شاباً في السادسة عشرة من العمر، وكان قبل الظهر حاضراً في الجزيرة مع «عليّ هاشمي»، عندما حاصرنا المنطقة تلقى طلقة في قدمه، وجرح، ثم وقع في الأسر، وذهب «عليّ هاشمي» مع عدد من قادته إلى حقول القصب، واختفوا هناك. اين ذهب «علي هاشمي»؟

- صحيح أنني في السادسة عشرة، وكنت على الجزيرة، وأُصِبتُ في قدمي، لكنني لست من تبحثون عنه.

كان المحقق غاضباً، وها هو يستشيط غضباً. وقف في مكانه، وركلني على ظهري، ثم ألحقها بركلة على كتفي، ثم أكمل قائلاً:

- لماذا تكذب، في أيّ كتيبة كنت؟

كنت أريد أن أقول ما قلته في الصباح، أنني في كتيبة الشهداء الخاصة، هذه الكتيبة التي كنت دليلها، كنت أريد أن أعيد ما قلته، خاصة أنهم صدّقوني. فكّرت ما الذي سأقوله، فقد كانوا مقتنعين بأنني ساعي بريد «الحاجّ عليّ هاشمي». لا أعرف ما الذي قاله لهم الأسير الذي يتكلّم بالعربيّة. كنت متيقّناً دون أدنى شكّ أنهم سيسألون بقيّة الأسرى عن مكان ونوع خدمتي في الجبهة، وعندها سينفضح أمري، ففضّلت قول الحقيقة؛ كي أقنعهم.. بالفعل..، بأنني لست ساعي بريد «الحاجّ عليّ هاشمي». لم أعترف سابقاً بأنني من شباب وحدة الاستطلاع؛ لأنني لم أكن أتوقّع ما الذي سيحلّ بي وبالشباب حينها، فالعراقيّون كانوا حسّاسين لكلّ ما يتعلّق بالمعلومات. ممّا لا شكّ فيه أنّ جرم كوني ساعي بريد «الحاجّ عليّ هاشمي» أكبر بكثير من كوني أحد شباب وحدة الاستطلاع والعمليات.

لذلك، ولكي أخفف من جرمي ومن تهمتي لدى العراقيين؛ قررتُ قول الحقيقة؛ لذلك، قلت له:

- أنا لست ساعي بريد «الحاج علي هاشمي»، بل كنتُ في وحدة الاستطلاع والعمليات!.

شعرت أنّ المحقق قد صُدم عندما سمع العبارتين: «الاستخبارات والعمليات»⁽¹⁾، وتعجب كذلك. لم يستطع أن يصدق، وأنا في مثل هذه السن، وهذا القوام النحيف، أن أعمل في وحدة المعلومات. سألني بتعجب:

- هل حقًا، أنت أيها الصّوص التّعبويّ الخميني، تعمل في وحدة الاستطلاع؟

- «نعم»

لولم تكن قدمي مجروحة لاختلف الوضع. لو كنت معافى، لانصبت المصائب على رأسي، وكأنّهم لم يتوقعوا أبدًا أن أعترف بمكان عملي. سأل المحقق:

- لدينا الكثير من العمل معًا، لا بدّ من أن يعرف شباب المعلومات (الاستطلاع) أين كلّ من «علي هاشمي»، «علي أصغر كرجي»، «هوشنك جووند»، و«تقي إيماني»، وما الذي حصل لهم؟

- ثلاثة من الأسماء التي ذكرتها، لا أعرفها، لكنني أعرف أن «علي هاشمي» هوفي إيران.

- الإيرانيون يكذبون كثيرًا، فأنتم لا تقولون الحقيقة أثناء التحقيق معكم.

(1) ورد في الكتاب: «اطلاعات وعمليات»، ولكنّه يقصد الاستطلاع، وقد يكون المحققون العراقيّون فهموا منه المخابرات أو الاستخبارات والعمليات. (مركز نون)

- لم أقل سوى الحقيقة، فالأحمق هو الذي يعترف لعدوه بأنه في وحدة المعلومات والعمليات، لقد قلت لكم الحقيقة فقط؛ كي أثبت لكم أنني لست ساعي بريد «الحاج علي هاشمي».

- ولولا ذلك ما قلت الحقيقة؟

- لا، لما قلت الحقيقة.

كان العراقيون يظنون أن وجودي في جادة الخندق، وأسري هناك، يعني أنني رأيت «الحاج علي هاشمي»، وأعرف أين هو الآن.

كان المحقق العراقي شخصاً لجوجاً وصلباً، قال لي:

- كيف تريدني أن أصدق بأنك كنت في تلك المنطقة المهمة للإيرانيين، ولم تر «علي هاشمي»؟.

- إن «علي هاشمي» هو قائد الفيلق السادس، وكانت كل الكتائب والفرق في المنطقة تأتمر بأوامره. لقد كان يشرف على عمل القادة من مقره، ولم يكن يأتي إلى الجبهة الأمامية في الأحوال العادية.

كان العراقيون يملكون معلومات كثيرة عن معنويات القادة الإيرانيين، وكانوا يعرفون أيضاً أن القادة الإيرانيين يحاربون جنباً إلى جنب مع الجنود العاديين. كنتَ تستطيع أن تفهم هذا الأمر من كلامهم غير المباشر. عندها قال لي أحد المحققين هناك، كي يثبت لي أن القادة الإيرانيين يأتون إلى الخطوط الأمامية:

- إن القادة الإيرانيين يأتون عادة إلى الجبهة الأمامية؛ ولذلك قُتل الكثير منهم هناك.

كان يقول الحقيقة بالفعل، لم أكن أملك جواباً، شعرت بالفخر؛ لأنَّ

أعداءنا يعرفون هذا الأمر. كان المحقق شخصاً ذكياً ومحنّكاً، فأكمل قائلاً:

- إنَّ أَسْرَ «عليّ هاشمي» مهمٌّ جدًّا بالنسبة إلينا، إذا كنت تعرف شيئاً فقل لنا، وسنساعدك، سنأمر بنقلك إلى المستشفى لعلاج قدمك.

يظهر من كلامه أنّه يعرف الكثير من المعلومات الدقيقة، لذلك قال لي:

- إنَّ معلوماتنا تقول: إنّهُ أثناء إنزال قوّاتنا على مقرّ الفيلق السادس، كان كلُّ من «عليّ هاشمي»، «عباس هواشمي»، وعددٌ من القادة الآخرين، وعامل اللاسلكي، كانوا في المقرّ في جزيرة «مجنون»، حاصرتهم قوّاتنا، وقد قصفت مروحيّاتنا المقرّ بالصّواريخ؛ لذلك يبدو أنّ «عليّ هاشمي» ومن يرافقه قد لجأوا إلى حقول القصب، أو انتقلوا إلى جادّة «الخنّيق»، أو ذهبوا إلى جادّة «هَمّت»⁽¹⁾، أو أنّهم قد بقوا في الجزيرة الشّماليّة. ف«عليّ هاشمي» ليس الآن في إيران، وجسده ليس بين الجثث، إذن لا بدّ من أنّه وقع في الأسر، وها أنتم قد اتّفقتُم جميعاً على أن تخفوه عنّا، ولكن ها نحن معاً هنا، وسنجدّه، حتّى لو اضطررنا إلى مقارنة صورته بكلّ واحد منكم، صغيراً كان أم كبيراً.

فهمت من كلامه، أنّ «الحاجّ عليّ هاشمي» الآن هو إمّا شهيدٌ أو أسيرٌ. أنا لم أر كلّ الأسرى السّالمين، مع أنّي لم أره إلّا مرّة واحدة، لكن قلبي قد انقبض لدى سماعي عن إمكانيّة شهادته أو أسره. لن

(1) في الجبهة كانت المواقع والطرق تُسمّى بأسماء الشهداء أيضاً. يُقصد هنا جادّة الشهيد القائد «محمّد ابراهيم هَمّت» (نون).

أندم يوماً على أنني كشفت عن هويّتي الحقيقيّة بسبب «الحاجّ عليّ هاشمي». يحقّ للعراقيّين أن يُستنفروا على هذا الشكل للتعرّف على «عليّ هاشمي»؛ لأنّهم لو أسروا «عليّ هاشمي» بالفعل، لكانوا، وللمرّة الأولى، قد أوقعوا بالقائد العسكريّ الأعلى رتبة في الحرس. على الرّغم من أنّه إلى اليوم لا يوجد معلومات موثّقة، أو شاهد عيان، يثبت أنّ «عليّ هاشمي» قد استشهد أو أُسر إلا معلومة واحدة⁽¹⁾. في ذلك اليوم الذي نزل العدو في جزر «مجنون»، حاول «عبّاس هواشمي»

(1) في تشرين الثاني من العام 1990م، وبعد شهرين من خروجي من المعتقل، سألت أحد أصدقائي الأهوازيّين عن مصير «عليّ هاشمي». لم يكن لديهم أيّة معلومات عنه. كنت أريد أن أعرف إن تمّ إطلاق سراحه أم لا. وقد أرسلت رسالة في شهر كانون الأوّل من ذلك العام الى قيادة مقرّ كربلاء في منطقة الجنوب، وبعد تعريفهم بنفسي، نقلت لهم بالتفصيل ما جرى أثناء التحقيق معي في «الميمونة». في كُتلة الفيلق الرابع العراقيّ، وفي سجن الرشيد، وما نقله لي ك. جلال، الذي كان سائق شاحنة صغيرة «بيك أب»، والذي وقع بين يدي العراقيّين في اليوم نفسه الذي أسرْتُ فيه، وقد التقينا في مخيم الأسر، قال لي يومها إنّهُ رأى في البصرة شخصاً يشبه كثيراً «الحاجّ عليّ هاشمي». فسألته يومها، هل هو حقاً عليّ هاشمي؟ أجابني: «كان كثير الشبه به». قلت: «وما الذي فعله العراقيّون يومها؟»

أجابني أنّ العراقيّين قد فرحوا كثيراً لأنّهم قد اعتقلوا «عليّ هاشمي». وقد صدّق جلال أيضاً بأنّ ذلك الشخص هو «عليّ هاشمي». عندما جاء القائد «علي ناصري» برفقة عدد من شباب مقرّ كربلاء من أجل الحصول على المعلومات من ك. جلال، قال لهم مرّة ثانية إنّهُ رأى شخصاً يشبه «عليّ هاشمي» كثيراً في البصرة، وقد أخذه العراقيّون. أولم يرجع الى إيران؟ هذا ما قاله أخيراً جلال. قال يومها القائد ناصري: إنّ «محسن رضائي» يتابع موضوع «الحاجّ عليّ هاشمي» عن طريق وزارة الخارجية، ثم أضاف أنّ الدكتور «عليّ ولايتي» قد طلب من السيّد «محسن رضائي» أن يزود وزارة الخارجية بأية معلومات جديدة عن «الحاجّ عليّ هاشمي»، وسيتابع هو الأمر بالوسائل الدبلوماسية بشكل خاصّ وسريع. لم يتمّ العثور على أحد يعطي معلومات دقيقة وصحيحة حول الموضوع سوى ك. جلال الذي رأى في البصرة، وكان العراقيّون ينقلونه الى المعتقل على أنّه «عليّ هاشمي»، يومها قلت لـك. جلال: إنّ العراقيّين قد فهموا بعد ذلك بقليل أنّ من معهم ليس «الحاجّ هاشمي»؛ لأنّ الضباط العراقيّين استمروا الى أوائل شهر تشرين الأوّل في ذلك العام يفتشون في المعتقل عن «الحاجّ عليّ هاشمي» خاصة بين الأسرى الذين كانوا في جزر «مجنون». (ملاحظة: هذا الكتاب تم تسليمه لمكتب الأدب والفن المقاوم في «حوزه هنري» [الدائرة الفنيّة] قبل شهر فقط من العثور على رفات «عليّ هاشمي» في جزر «مجنون»).

أحد مساعدي «علي هاشمي» الوصول بنفسه إلى جادة «الخنديق»، وكالذي يبحث عن حبيب أضاعه، صار يفتش عن «علي هاشمي». كان «الحاج عباس»، المقرّب جدًّا من «الحاج علي هاشمي»، وصديقه المقرّب والحميم، قلقًا ومصدومًا؛ كان يفتش عن «علي هاشمي» في كلّ طرقات وقنوات المياه في الجزيرة.

بعد إنزال العراقيين على مقرّ الفيلق السادس، فقد «عباس» أثر صديقه «علي هاشمي» في جزيرة «مجنون». «هواشمي» الذي كان يبحث يومها عن ضالته، توجه إلى «علي مردان روستاد»، قائد كتيبة الإمام عليّ (عليه السلام)، و«حسن وكيلى»، ساعي البريد في وحدة المعلومات، قائلًا: قولاً للشباب الذين يقاومون في جادة «الخنديق»، إذا ما شاهدوا أحدًا يتوجّه نحو جادة «الخنديق» من ناحية اليسار، لا تطلقوا النار عليه، قد يكون «علي هاشمي».

انتقلت هذه الوصية من فرد إلى آخر حتّى وصلت إلى جميع الشباب الذين كانوا يقاتلون في جادة «الخنديق». نحن الذين كنّا نعرف «علي هاشمي» انتظرنا يومها طيلة النهار أن يطلّ علينا من حقول القصب ناحية اليسار، ويتولّى بنفسه قيادة هذه المجموعة الفدائية التي كانت تقاتل لوحدها، ودون قيادة. لكن «علي هاشمي» لم يظهر يومها أبدًا.

هناك فرضيتان تتعلّقان باختفاء «علي هاشمي»: الأولى: أنّه استشهد، واختفت جثته في جزيرة «مجنون»، والثانية: أن يكون قد وقع في الأسر. الفرضية الثانية ضعيفة بعض الشيء؛ لأنّ العراقيين لو كانوا قد أمسكوا «بعلي هاشمي»، لفعلوا به ما فعلوه بالشهيد «محمد جواد تندكويان» وزير النفط في حكومة «الشهيد رجائي»، حين اعتقاله

ثم استشهد تحت التعذيب، دون أن يفصحوا عن أية معلومات تتعلق به إلى الصليب الأحمر، أو إلى الإعلام، أو إلى المسؤولين الإيرانيين. كانوا يعرفون أنه المسؤول الأعلى لـ «جيش (فيلق) الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) السادس»⁽¹⁾. فالبعثيون وكافة ضباط الدرجة الأولى الذين كانوا في «الميمونة»، مقرّ الجيش (الفيلق) الرابع العراقي وفي سجن الرشيد في بغداد، والمخابرات العسكرية، كانوا يبحثون عن «علي هاشمي»، ويعرفون أنه في الرتبة نفسها للمشير ماهر عبد الرشيد، قائد الجيش (الفيلق) السابع العراقي، أو هشام صباح الفخري، قائد الجيش (الفيلق) الرابع العراقي، أو اللواء خليل طالع الدوري، قائد الجيش (الفيلق) الخامس العراقي.

قلت للمحقق العراقي اللجوج:

- أعرف أنكم إذا أسرتم «علي هاشمي» ستفرحون كثيرًا، لكنني أعتقد أنه ليس من الأشخاص الذين يؤسرون بسهولة. نحن جنود عاديون، إذا أُسرنا فالأمر عادي وليس مهمًا كأسر أحد القادة. أمّا هو فيعرف أنه إذا وقع في الأسر فسيُدفع هو وقائدته «محسن رضائي» الثمن غاليًا؛ لذلك لن يسمح بوقوع هذا الأمر، حتّى إذا حصل ورأى أنه.. ورغمًا عنه.. سيقع في الأسر، فسيطلق على نفسه رصاصة الرحمة، ويقتل نفسه.⁽²⁾

(1) ذكر السيد «محسن رضائي» في كتابه «كمشده من / ضالّتي» وفيه ذكرياته حول «علي هاشمي»، يذكر أنّ رتبة «علي هاشمي» هي ما يُعرف في جيوش العالم بـ «اللفاتن جنرال أو الفريق الأول أو المشير».

(2) لم أفكر يومها بما قلته؛ لأننا كما نعرف، أن إطلاق رصاصة الرحمة على نفسه هو نوع من الانتحار، وهذا الأمر حرام في الشريعة الإسلامية. أعتقد أنه كان من الخطأ في ذلك التحقيق أن أقول ما قلته. ولكن هذا ما خطر في ذهني.

عندما قام العراقيون بهجوم مضاد، كان «علي هاشمي» في مركز قيادة مقرّ «خاتم الأنبياء ﷺ»، كان هذا المقرّ في الشمال الشرقي لجزر «مجنون»، في آخر جادة «الشهيد همّت». يا إلهي ما الذي حصل «للحاج هاشمي» وما الذي حلّ به؟ كنت أفكر بهذا الشاب الذي قضى سنين شبابه في «الهور العظيم» وجزر «مجنون»، والذي كان فاتح «عمليات خيبر»، ولكن هل يعقل، وفي أيامه الأخيرة، أن يشهد سقوط جزر «مجنون». وكأنّه لم يكن يريد أن يبقى حيّاً، ويشهد هذه الأيام، ويشعر بالذنب لما يراه. كان العقل المدبّر لعمليات خيبر. قبل «عمليات خيبر»، وعندما أمر «محسن رضائي» بتشكيل وحدة الاستطلاع «للهور»، وتأسيس مقرّ سرّي للمعلومات والاستطلاع، عاش «علي هاشمي» أياماً متتالية دون نوم. لم يكن أحد في البلاد غير السيّد «محسن رضائي» يعرف بأمر تأسيس هذا المقرّ السريّ، الذي كان تحت إمرة «علي هاشمي». بعد أحد عشر شهراً من الاستطلاع، والتعرّف على منطقة «الهور»، تمّ التخطيط «لعمليات خيبر». يقول «علي ناصري»، أحد مساعدي «علي هاشمي»: لقد مسحنا كلّ المنطقة، لدرجة أنّنا أخذنا قياس عرض وعمق نهر دجلة، حتّى إذا ما اضطرّ شبابنا إلى عبور نهر دجلة، يومًا ما، عرفوا كم مترًا عرضه وعمقه. إنّ «علي هاشمي»، و«جزر مجنون»، هما حكايتان لا تتفصلان إحداهما عن الأخرى.

عندما كنت في السجن، وكنت أفكر بـ«الحاج علي هاشمي»، كنت أقول في نفسي: لا بدّ من أنّه كان من الصعب أن يرجع الحاج إلى المدينة بعد سقوط جزر «مجنون». لأنّه لم يكن يستطيع تحمّل أن يقول

البعض: هذا هو «عليّ هاشمي» الذي سلّم جزر مجنون للعراقيين. لا أشك للحظة في أنّ عليّ هاشمي قد قاتل إلى النّفس الأخير، ولم يستسلم، ولم يقع في الأسر. سألني المحقّق العراقيّ:

- وهل تعرف «عليّ أصغر كرجي زاده»؟⁽¹⁾
- لم أسمع باسمه قط.
- هوشنك جووند؟⁽²⁾
- هذا أيضًا لا أعرفه.
- تقّي إيماني؟⁽³⁾
- كلّ هؤلاء الأشخاص الذين ذكرت أسماءهم لا أعرفهم.
- لم يقتنع الضابط العراقيّ بما قلته، كان حاسمًا ولجوبًا، وحاول ألاّ يلجأ إلى العنف، فقال:

- لا أفهم كيف أنّك لا تعرف أيًا من هؤلاء الأشخاص؟
بهذه العبارة انتهى التحقيق الأساسي. لقد شعر العراقيّون بالغضب لعدم حصولهم على أيّة معلومات مفيدة حول «عليّ هاشمي»، وبقية أصحابه. لم أكن أعرف كيف أقتنعهم بأنني لا أملك أيّة معلومات عنهم.

(1) «عليّ أصغر كرجي زاده»، رئيس السّتاد (الأركان)، في جيش (فيلق) الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) السادس. بعد أسره وعودته صار قائد الحرس الثوريّ في منطقة خوزستان، ثم تسلم مسؤولية الحرس في طهران الكبرى. وهو يشغل اليوم قيادة الحرس في مطارات إيران.

(2) هوشنك جووند، قائد محور العمليّات في «مقرّ نصرت». يتسلّم حاليًا إحدى المسؤوليّات في فرقة «ولي عصر 7».

(3) «تقّي إيماني هو قائد إحدى كتائب «فرقة النصر 5». كان مقرّهم في وسط جزيرة «مجنون»، وقيل: إنّهُ قائد مقر «بعثت»، والذي كان يتولى مسؤولية المقرّ التكتيكي لفرقة النصر 5. الجواسيس العراقيّون أخبروا عن طريق الخطأ أنّ «تقّي إيماني» هو بين الأسرى.

قبل أن يخرجوني من الغرفة وأنتهي من التحقيق، دخل أحد الضباط العراقيين من كبار السنّ، فوقف العقيد العراقيّ وأدّى الجميع التحية له، وقف أحد المحقّقين ذو الرتبة الأدنى، وأعطى مكانه للوفاد الجديد، فجلس هذا الأخير بالقرب من العقيد المحقّق، كان رجلاً شديد السمرة، يشبه السعوديين، بدا وجهه ممتلئاً، حليق الذقن، في الستين من عمره، يظهر على كتفيه عقاب وثلاث نجومات، فهمت أنّه عميد ركن. تبادل المحقّقون الحديث، سمعت عدّة مرات اسم «علي هاشمي» في كلامهم. لا بدّ من أنّ العقيد العراقيّ ينقل للعميد الركن ما جرى بيننا من حديث، كان العميد يستمع لكلام المحقّق وينظر إليّ. وكأنّه كان يقيّمني من خلال كلامهم، ويحرّك رأسه مؤيداً ما يسمعه. سمعت عدّة مرات عبارة «استخبارات»، ففهمت أنّه يقول له أنّي أسير وحدة المخابرات أو المعلومات. لم يسألني عن «علي هاشمي»، أو عن أيّ شيء يتعلّق به، بل كان أوّل ما سألني عنه:

- قل لي إذن، الحقّ مع من؟

لأنّ رتبته عالية؛ حاولت أن أتكلّم معه بطريقة واعية ومدرسة؛ فالضباط من ذوي الرتب العالية والأكبر سنّاً كانوا أفضل قليلاً من غيرهم، حاولت قدر المستطاع ألاّ أغضبه بكلامي، فقلت:

- الله هو الأعلم.

أجبني عن سؤالي، لن أوّذك أبداً، قل لي الحقّ مع من؟

- تقصد في الحرب الإيرانية العراقية؟

- أحسنت.

- ما قيمة كلام أسير بالنسبة إليكم، أنتم تعتقدون أنّكم على حقّ،

ونحن نقول: إننا على حق، لا أحد يقول إنه ليس على حق، ولكنني على الرغم من صغر سنّي أدرك الكثير من الأمور.

سكّْتُ وكنْتُ متردِّداً في قول ما يجول في قلبي؛ لأنّ ما سأقوله لن يرضيهم، ولا طاقة لي بعدُ على تحمّل أذاهم، فوضعي الجسديّ لم يعدّ يُطاق، ولشدة إحساسي بالضغط، والضعف، كانت كلماتي بالكاد تُسمع. لقد كنت متعباً بالفعل، وأتألّم كلّما قابلتهم، وكلما نظرت إلى أحدهم قلت في نفسي: قد يكون هذا قاتل أخي الشهيد «هدايت الله». قال العميد الذي كان يبدو عليه أنّه متعطّش لسماع جوابي:

- لم تجبني إلى الآن؟

- أنا أعرف أنّكم ستعذّبونني، ولكن من ابتدأ الحرب، لا يمكن أن يكون الحقّ معه.

أظنّ أنّه لم يكن يتوقّع إجابتي هذه، كان كلامي بسيطاً، ولكنّه دفعه للتفكير، مع أنّي كنت قد قرّرت ألاّ أتكلّم، لكنني لم أستطع، وعندما كنت أفكر بوضعي في الأسر، أجد أن لا شيء لديّ لأخسره، لم أكن خائفاً، لقد تعبت من نفسي ومن كلّ عراقيّ أراه، أردت أن أتكلّم بصدق وصراحة؛ لأنّني كنت أشعر بارتياح عندما أتكلّم بصراحة. قلت في نفسي، بما أنّني لا أملك السلاح، فليكن كلامي كالرصاصة التي تستقرّ في قلوب العراقيّين. باعتقادي أنّ كلام الحقّ الذي عبّر عنه هونصر بالنسبة إليّ، وهذا الكلام هو أحد أشكال المعركة، فالمعارك لا تكون فقط بالأسلحة. كنت أشعر بعد كلّ تحقيق، ومن خلال نظراتهم، وتعابيرهم، أنّ بعض العراقيّين يُعجبون بصراحتنا وصدقنا. بالطبع كان هناك عدد من الضباط والجنود لا يعجبهم كلامنا، ولا يمكنهم

تحمّلنا، لقد كان العراقيّون المعجبون بصراحتنا، يُفَنِّعون البقيّة بعدم اللجوء إلى العنف والقوّة معنا.

نظر العميد الركن متفاجئاً، حدّق بي قائلاً:

- «أنت حقّاً لا تخاف من الموت؟»

- الموت لا يُخيف، بالطبع هناك بعض البشر يخافون من الموت، ولكن نحن الذين جئنا بملء إرادتنا إلى الجبهة، ونواجه كلّ لحظة إمكانيّة الشهادة، أو الأسر، أو الإصابة، فلا معنى للخوف من الموت عندنا، إنَّني أكره أن أموت على السرير، فالشهادة هي أمنيّة كلّ تعبويّ. كان العراقيّون ينزعجون من كلمتي «الشهيد» و«الجنّة». ويكرهون أن نذكر كلمة «شهيد» على مسامعهم. وإذا ما ذكرناها تظهر ردّة فعلهم على كلامنا بشكل سريع، ويشرعون بقذفنا بالسباب والشتائم، فقد تمّ تفهيمهم أنّ القتلى العراقيّين هم فقط شهداء، وسيُفوزون بالجنّة وحدهم، وأنّ الإيرانيّين لهم جهنّم. وإذا سمعوا شيئاً غير هذا الكلام كانوا يفقدون صوابهم.

في الجبهة الأماميّة، شاهدنا العراقيّين وهم يأخذون الـ«بلاكات» (القلادات المعدنيّة) من شبابنا، كانوا يقولون بسخرية:

- «هذا هو إذن مفتاح الجنّة الذي أعطاكم إياه الخميني؟»

عندما تحدّثت عن الجنّة خلال كلامي، ضحكوا. لم أعرف ما الذي كان مضحكاً في كلامي، هل حقّاً صدّقوا أنّهم يذهبون لوحدهم إلى الجنّة، ونحن سنردّ جهنّم؟ حاولت قدر المستطاع أن أتكلّم بدقّة.

سأل العميد العراقيّ: كيف يمكن أن تعشقوا الشهادة؟ كيف نشأت هذه الحالة في أعماقكم، فدفعتمكم إلى التقدّم بكلّ رضا؛ لتواجهوا

رصاصنا، ثم تقتلون، أو تمشون في أراضٍ مليئة بالألغام، ثم تقطعون إربًا إربًا. هل أطعمكم الخميني شيئاً أيها الحمقى؛ لتصبحوا هكذا؟ ثم ضحك وأكمل بسخرية: إذا كان هناك حبة، أو شراباً خاصاً يمكن بواسطته أن نصبح شجعان، ولا نخاف بعدها من الموت، فحبذا لو تعطينا إيّاه؛ كي لا نخاف بعد الآن من الموت!

بعدما سمعت ذلك منه شعرت بالفخر والعزة، كنت فرحاً جداً للنظرة التي يملكها العراقيون عن الشباب الإيرانيين في الجبهة، الذين لا يخافون الموت ويعشقون الشهادة؛ لذلك حاولت ألا أعطي أية أهمية لسخريتهم منا، مع أنهم كانوا يستفزوننا بشكل كبير، لكن وضي لم يكن يسمح أن أفرغ كل ما كان يدور في خلدي، فقلت للعميد العراقي:

- إنَّ الخميني لم يُطعمنا شيئاً، بل تعلّمنا هذا الأمر من عقائدنا، ومن ديننا، لقد علمنا الإسلام هذا الأمر.
وكأنَّ العميد العراقي أراد معرفة الدافع الذي حرّكني من الداخل، فسألني:

- أحب أن أعرف، إلى أي مدى تحبّ الخميني؟
عندما سألت هذا السؤال، شعرت بإحساس مريح، وغبطة؛ إذ إنني أستطيع، على الرغم من كلّ المصائب التي حلّت بي، أن أفرغ ما يجول في خاطري، كم كنت أشعر بالفرح عندما كانت عقائدي تزعجهم وتفقدهم الصواب، لربّما كان جوابي نوعاً من الانتقام من ذلك الضابط، فقلت مجيباً:

- إنَّ الخميني قائدنا، وإذا ما صادفتم أسيراً إيرانياً، وقال لكم إنّه

لا يحبّ الخميني؛ بسبب عدم تحمُّله للضرب والتعذيب..، فاعلموا جيّدًا أنّه يكذب عليكم، وأنّه يخفي حبّه للخميني؛ كي تتوقّفوا عن ضربه فقط، واعلموا أنّه يحبّ الخميني من صميم قلبه.
سأل عندها:

- وأنت أيضًا تحب الخميني من صميم قلبك؟

كنت أتمنّى.. ومن صميم قلبي..، أن أظهر حبّي الشديد لإمامي؛ بقولي: إنني أحبّ الخميني كثيرًا. كنت أحبّ أن يعرف العراقيون أنني في هذا السنّ، وقدمي المهشّمة، وأنا في الأسر، أحبّ إمامي من كلّ قلبي. لقد كان الأمر ممتعًا؛ أن أظهر أمامهم حبّي للإمام.
انتهى التحقيق معي، وكأنّه لا يملك سؤالًا آخر ليطرحه عليّ، فأمر الجنود بنقلي إلى الخارج.

قال لي المترجم الإيراني عندها:

- يقول العقيد، بما أنّك لا تريد أن تعترف بشيء عن «عليّ هاشمي»، فقد اخترت لنفسك العذاب والهوان. اذهب الآن وقف قليلاً تحت نور الشمس لتنظر إليها، فقد أمرونا ألا نضربك وقدمك على هذه الحال». حملني اثنان من الجنود على الحمالة إلى الباحة؛ حيث مكان التجمّع الصباحي. كُتب فوق الباب الرئيسي للمبنى المجاور لي، والمؤلف من طبقتين: «قيادة انضباطية الفيلق الرابع»، وقد كُتب أيضًا على الحائط جملة باللغة العربية: «من يقاتل بشرف يستحقّ المجد». كنت أتمنّى أن أقول للعراقيين: إنّ مصداق هذه الجملة هم الإيرانيون، ولستم أنتم، فنحن من نقاتل بشرف، ألا يخلجون من كتابة هكذا كلمات وهم المعتدون.

لقد راعى العراقيون وضعي؛ حيث طلب المحقق العراقي أن أبقى في الخارج، وأنظر إلى الشمس أربع ساعات. في الباحة الخارجية، كان العلم العراقي معلّقاً على رأس عمود حديديّ. أمّا المكان الذي نحن فيه، فقد كان قسم الشرطة العسكرية العامّة للفيلق العراقي الرابع. رُسمت صورة كبيرة لصدّام على الحائط الخلفي لساحة الاستعراض الصباحي. اتّكأت على الحائط، وكانت الشمس أمامي، كنت مجبوراً على النظر إلى الشمس، كان يوجد على يميني بناءً صغير من طبقتين مبنياً من الآجر، منفصلاً عن بقية الأبنية، وبعض الجنود الذين يرتدون لباساً عسكرياً مختلفاً عن البقية، ينزلون أكياساً من الأرز، علباً من السمن، فواكه، خضار، وأغذية أخرى. لا بدّ من أنّه المطبخ، أعتقد أنّه المطبخ الخاص بالضباط، كان الجنود ينزلون وسائل الطبخ من السيارة الرّماديّة (البيك أب). عندما كنت أنظر إليهم، ضربني الحارس، المأمور بمراقبتي، بالكابل على رأسي، قائلاً: «انظر إلى الشمس». فقد كان عقابي، بسبب عدم تقديم معلومات عن «الحاج عليّ هاشمي» أن أنظر إلى الشمس لمدة أربع ساعات. في الجهة المقابلة، هناك أمام دورات المياه، كان بعض العراقيين يضربون بالكابلات حوالي عشرة أو اثني عشر أسيراً إيرانياً. عندما دخلتُ مساءً إلى المعتقل، كان الشباب يتحدثون، كيف أنّ العراقيين أخذوا اثنين من الشباب إلى داخل دورة المياه، وضعوا رؤوسهم داخل المرحاض؛ وصرخوا بهم: «هيا كلوا، كلوا». كان المسؤول عن تنفيذي لأمر النظر إلى الشمس، رجلاً طويل القامة، ضعيف البنية. سأل جنود المطبخ الحارس المكلف بي عن بعد أربعين متراً، فأجابهم: «هذا

أسيرٌ إيرانيٌّ». سألوهُ مرّةً ثانية: «هل هو جنديّ مكلف؟»، فأجابهم حارسِي: «لا، إنّه حرس الخمينيِّ». بعد أن أنهى الجنود تفريغ وسائل المطبخ، توجه أحدهم ناحيتي ويده بيضة، ولمّا اقترب منّي رمانِي بها وانكسرت على رأسي. كانت يداي مكبلتين، والجندي يفرغ حقه عليّ، وهو يصرخ: «مجوس، جيش الخمينيِّ...»، بعدها، جاء آخر، وفي يده عدد من البيض أيضًا؛ كان يريد أن يضربني بها، ولكن بعد أن رأي عليّ هذه الحال، تركني وشأني. عندما شاهد قدمي المجروحة، أحسست بمشاعر الندم على وجهه، فبدأ يتكلّم بغضب مع صديقه قائلاً: «هذا معوّق، جريح، شاب صغير...»، معظم كلامه كان غير مفهوم بالنسبة إليّ. وكأنّه أراد أن يوقفه عن هذا العمل المشين، ولكن المروءة لم تتبض في عروق صديقه. حاول الأوّل أن يأخذ البيض من يد صديقه؛ كي يرميها عليّ، لكنّه رفض؛ ولأنّه شعر أنّه لن يستطيع منع صديقه، تشاجر معه وذهب. أصابتنِي بيضة على رأسي، وثلاث بيضات على صدري وبطني، وبيضتان أصابتا الحائط ورائي.

تداعت إلى ذهني ذكريات الطفولة في قريتي، عندما كان الصبية الصغار يخضعون للختان، كانت العادة أن يرمي الطفل الذي يتمّ ختانه رأس المُطهرّ ببيضة، فقلت في نفسي: وكأنّني الآن أعوّض ما فعلته في طفولتي عند الختان.

بقيت عشر دقائق وأنا ملطّخ بالبيض، بعدها، اقترب منّي أحد العاملين، وكان أسمر اللون، مجعدّ الوجه، قصير القامة، أصلع الرأس، بنيّ الشعر على الجانبين، ويناhez الخمسين عامًا. ممسكًا بيديه دلوًا من الماء، وإبريقًا. أعتقد أنّ ذلك الجنديّ العامل في المطبخ، صاحب

الضمير، قد أخبره بما حصل معي. عندما اقترب مني، شعرت بحنانه وعطفه، كانت تبعث من ثيابه وجسمه رائحة الطعام والمطبخ، ما إن وصل إليّ، حتّى بدأ يحدثني، مع أنّي لم أفهم معظم كلامه، إلّا أنّني عرفت أنّه يتحدث عن التصرف السيّئ لذلك الجنديّ، أعتقد أنّه كان يريد أن يخفّف عني، أو كأنه يعتذر عمّا حصل. طلب من الحارس المكلف بمراقبتي، أن يفكّ يديّ. نفّذ الحارس ما طلبه احتراماً له. كانت الأرض الحارقة، تلسع قدميّ بلوّم، والحرّ قد أعياني. كان الطباخ يريد أن يغسل وجهي ورأسي بالماء. ولكي لا ينساب الماء على لباسي وأتبلل؛ أمسكني من تحت إبطي، وسحبني إلى آخر الباحة. كان الأسفلت الذي يغطي الباحة المجاورة منخفضاً عن باحتنا حوالي السّتين أو السبعين سنتيمتراً، كي يستطيع صبّ الماء على رأسي، اتّكأت على مرفقي الأيمن، وخفّضتُ رأسي، وكان يصبّ الماء من الدلو في الإبريق، ومنه على رأسي. عندما كنت أحاول مسح وجهي بيدي، ساعدني؛ كي أغسله بشكل أفضل.

كان قميصي متسخاً جداً بسبب زلال البيض وصفاره. أشار عليّ الجندي عند سكبه للماء، ففهمتُ أن أخلعه، كان القميص أخضر اللون بجيبين، متسخاً وملطّخاً بالدماء. رمى الماء عليه، فصرت أغسله بيدي التي لا أتكلّ بها على الأرض، لكنّه، ولشدة اتساخه بالدم والوحل، لم يكن من الممكن تنظيفه بسهولة، حاولت تنظيفه بقوة بماء دلو آخر، عصر الجنديّ قميصي بنفسه، ثمّ وبحالاته المبلّلة، ألبسني إياه، شعرت بالانتعاش، والتحسّن للحظات.

كان عددٌ من الجنود، وضباط الصفّ، والضباط في معسكر الفيلق

الرابع في العمارة، أتراكاً وأكراداً، من أكراد «أربيل» والمحافظات الشماليّة في العراق. كان الفرق واضحاً جداً بين سلوك الأكراد وسلوك العرب، فبعضهم لديه مشاعر إنسانيّة. وكان بعض الجنود العراقيين الكرّد والترك يتكلّمون باللغة الفارسيّة، ولكن معظم حراس الثكنة كانوا بعثيين عرباً.

في الليلة السابقة، وبشكل سرّي، قام أحد الضباط الأكراد العراقيين بسحب الشظية التي بقيت تحت جلد أخصص قدم «تاج محمد علي بور»، وقال له: في منتصف الليل، عندما ينام الجميع، سأحضر لك معقمّ الجروح الـ«بتادين». ثمّ مكث قليلاً أمام النافذة، وقال لي: «إنّ حالتك صعبة جداً، لا يمكن مساعدتك هنا، وجرحك لا يمكن علاجه».

ساعة تفصلني عن وقت انتهاء القصص، كانت عيناوي تؤلماني من شدّة النّظر إلى قرص الشمس الملتهب. كلّما كنت أغمض عينيّ، كان صراخ الحرّاس الأوفياء لواجبهم يرتفع، فهم يسعون لتطبيق أوامر رؤسائهم على أفضل وجه، كانوا يوضحون لي أنّ عليّ النظر إلى قرص الشمس. كم كان يومًا سيئًا، إذا ما أغمضت عينيّ، انهالوا بالكابلات على رأسي. كنت أفضل النظر إلى الشمس على ضربتي بالكابلات، كنت أتصبّب عرقًا. أمر رئيس الحرّاس الجنود بنقليّ إلى داخل الزنزانة. حملني جنديّان عراقيان، على مضض، كما لو أنّهما يحملان شيئاً نجسًا. عندما دخلت الزنزانة، لم أع كيف غفوتُ.

الاربعاء 29 حزيران 1988م - «الميمونة» - الفيلق الرابع

صباح هذا اليوم، فتحوا باب الزنزانة متأخرين، لا خبر عن الفطور. لقد أمضى الشباب ليلة البارحة وهم يعانون من العطش الشديد؛ لشدة ما كان الهواء حاراً أحسست أننا «استويناً»، كان العرق يتصبّب منّا. لم ينم بعض الأسرى السّالمين طيلة الليل، وهم يسهرون على الاهتمام بالأسرى الجرحى، حاولوا أن يهيئوا مكاناً أوسع للجرحى ليتمدّدوا بشكل أفضل. كان معظم الأسرى في زنزانتنا من شباب «الفرقة 92 لمدرعات الأهواز»، الذين أسروا في «الطلائع». عدد آخر من الشباب في زنزانتنا هم من فرقة «النصرة»، ولواء «الإمام الرضا عليه السلام» خراسان.

جاء عقيد عراقي برفقة عدد من الحراس إلى زنزانتنا. قارن كل الأسرى واحداً تلو الآخر مع الصورة التي كانت بحوزته. لم يكن البعض يعرف من هو الشخص الذي في الصورة. البارحة أثناء التحقيق، قالوا: إنهم سيقارنون كل واحد منّا بصورة «علي هاشمي»، كان العقيد يقوم بهذا الأمر، وبكل دقة واهتمام. أخرج العقيد اثنين من الشباب الذين كانوا يشبهون إلى حد ما «علي هاشمي» إلى الخارج، وسألوا عن «حسن بهمني»، و«محمود نویدی»⁽¹⁾ أيضاً.

ضرب الجلّادون الشباب بشكل فظيع في باحة المقرّ الخارجيّة، كانوا يمسون عصياً لم أر مثلاً من قبل، عندما يتمّ الضرب بها مرّة واحدة ترتدّ مثل «الراسور» لوحدها، وتضرب عدّة مرّات المكان نفسه. وتمّ جرّ الشباب إلى غرفة التحقيق، تمدّد الجرحى كل في

(1) نویدی: تلفظ: Novede.

زاوية، كان الحرَّاس والضباط العراقيُّون يبحثون عن «علي هاشمي»، فهم مقتنعون بأنَّه بيننا: «إنَّه بينكم لكنكم لا تريدون أن تعترفوا بهذا الأمر». كلٌّ من ينتهي من التحقيق يعيدونه إلى الزنزانة.

أخرج الحراسُ الشباب قبل الظهر إلى الباحة، كان الصحفيُّون هناك لالتقاط صور لنا. كان وضع أحد الجرحى وخيمًا. كان تقريبًا بعمرى، رأيتُه البارحة للمرَّة الأولى، تمَّ أسره في «موقع الخندق»، لم أكن قد رأيتُه من قبل في الموقع، وكان حظه جيّدًا أنهم أحضروه منذ اليوم الأوَّل إلى معسكر الفيلق الرابع. عندما أحضروني إلى الموقع بعد ظهر ذلك اليوم، تم نقله هو إلى معسكر الفيلق الرابع، يدعى «يد الله زارعي»، وهو من شباب «بهمه»، كان مساعد رامى الدّ. آر. بي. جي «مهدي كريمي» في كتيبة رسول الله ﷺ، إنَّه شاب محبوب وطيّب جدًّا، أصابته إحدى الشظايا في رأسه، وانكسرت إحدى عظام جمجمته؛ لذلك فقد أصيب جنبه الأيسر بالشلل، عندما يبدأ بالارتجاف كنت أتألّم من أجله كثيرًا، لم يستطع في معظم الأوقات أن يوقف ارتجاج يده.

قبل أن يُخرجونا من الزنزانة انهالوا علينا بالضرب المبرِّح، وكانوا يقولون لنا: لن نترككم في حالكم ما دام «علي هاشمي» لم يسلم نفسه. أمّا المشكلة الأخرى معنا، فكانت أنَّ قادة المجموعات والفصائل لم يعلنوا عن أنفسهم بعد.

عندما بدأوا بضربنا وشتمنا، كان أكثر ما قلّقتُ لأجله حالُ رأس «يد الله زارعي»، فضربةٌ من هذه الكابلات على رأسه يمكنها إخراج دماغه والقضاء عليه. كان الشباب يعرفون وضع «يد الله زارعي»؛

لذلك وقف أحد شباب مشهد، وكان يدعى صادق، أمام «يد الله»، وصار يحميه من ضرباتهم، غضب العراقيون من صادق طالبين منه الجلوس، لكنّه لم يكن مستعداً للجلوس مهما كلف الأمر، صرخ أحد الجنود هناك قائلاً: «وين العربستاني»، ويقصد أين الأسير العربيّ الخوزستانيّ. وقف أحد الأسرى الذين يتكلمون العربيّة للترجمة للجنديّ العراقيّ.

قال الجندي العراقي: أسأله لماذا لا يجلس؟

- إنني أهتمّ بهذا الجريح.

- هؤلاء كلّهم جرحى ألا يحتاجون للانتباه والعناية؟

- هل رأيت رأسه هنا؟ هذا الجريح يختلف وضعه عن بقيّة الجرحى.

وقفت أمامه كي لا يصيب الكابل رأسه.

لقد كان صادق يتلقّى الضربات بيديه وجسده في سبيل حماية «يد الله». عندما شاهد العراقي رأس «يد الله»، طلب من بقيّة الجنود استثناءه من الضرب.

صادق يستحقّ الاحترام والتقدير لشدة مروءته وحنكته. على الرغم من الضرب الذي كان ينهال علينا من العراقيين لم يتوقّف صادق عن الكلام معهم قائلاً: «إذا كنتم تريدون قتل كلّ هؤلاء الجرحى هنا، لماذا لم تتخلّصوا منهم على الجبهة؟»

في الباحة الخارجية للثكنة، طلب أحد المحقّقين الذين رأيتهم البارحة أثناء التحقيق، من قادة السرايا، الكتائب والمجموعات الخروج إلى الباحة.

لقد أحضر العراقيون البارحة السيّد «علي صالح راكان» إلى هنا.

عندما رأيته بيننا لم أصدّق عينيّ، فحين أخذه من موقع «الخدق» إلى موقع «بيت الله»، لم أتوقّع رؤيته مرّة ثانية، كنت أظنّ أنّهم سيقضون عليه في موقع «بيت الله»، وكأنّهم لم ينتهوا من التحقيق معه في «الميمونة». سألت «أحمد سعيدي» الجالس بقربي: «أحمد! هل تعتقد أنّ العراقيين يعرفون أنّ السيّد «علي صالح» هو قائد شباب الخندق؟»

- لا أعتقد ذلك، لو كانوا يعرفون لما أحضروه إلى هنا.

أخذ الحراس السيّد «علي صالح» إلى «غرفة الحرب»، بعد انتهاء التحقيق، جاء وجلس بالقرب من الجرحى، عندما رأيته فرحت من كلّ قلبي، لقد طال التحقيق معه، واستمر أكثر من ساعتين. وضع المحقّق ورقة الـ«كالك» (المخطّط) على كلّ الخريطة وطلب من السيّد «علي» أن يريهم المواقع المتنوّعة. إذا تبين أنّ الأسير يعرف المناطق على الخريطة، يفصلونه عن بقية الأسرى ويأخذونه إلى مقر المخابرات؛ لأنّهم ساعثون يتأكّدون أنّه أحد القادة في الجبهة، أمّا السيّد «علي» فقد تذاكى عليهم، قائلاً: «أنا لا أعرف شيئاً عن كلّ هذه الأوراق على الحائط، أنا تعبويّ بسيط، إذا أردتم أن تسألوني عن شيء أفهمه فاسألوني عن قيادة القوارب، ونقل جثامين الشهداء، وإمكانات الدّعم من الطعام والماء الذي كنّا نجهّزه للشباب في كتيبة الرسول الأعظم ﷺ، أنتم تعرفون أنّ التعبويّين العاديّين لا يتدخلون في أيّ شيء لا يعينهم». كما سأله عن «علي هاشمي» وبقية القادة معه، لكنّه أجابه: «أنا لا أعرف أيّاً منهم، ولم أسمع بأسمائهم من قبل، فالتعبويّون لا يتدخلون في هذه الأمور».

كان الأمر أشبه بالمعجزة؛ أن يصدّق المحقّقون ما قاله السيّد «عليّ صالح». لقد سجّلوا اسمه في ملفاتهم ضمن التعبويّين العاديّين، ولكنّهم ضربوه بشدّة بسبب مقاومة شباب الخندق، فكانت الكدمات تملأ وجهه، وكانت عينه متورّمة.

أنهوا التحقيق مع «عليّ محمّد كردلو»؛ وهو قائد إحدى المجموعات في كتيبة الشهداء الخاصّة، الكتيبة التي كنتُ دليلاً فيها، عندما أحضره كان وجهه مليئاً بالكدمات، لقد قاوم شبابه في موقع «بيت الله» حتّى الرصاصة الأخيرة، مع أنّهم لم يتجاوزوا العشرة أو الخمسة عشر فرداً. لقد أعدّم العراقيّون أحد عناصر مجموعته ويدعى «حسين برويزي»؛ حيث كان مجروحاً وممرئاً على الأرض الى جانب الجادّة. قال «عليّ محمّد» خلال التحقيق معه أنّه لم يكن من عديد لواء «الفتح 48»، ثمّ أضاف: «منذ عدّة أيام فقط سلموني مسؤولية هذا اللواء؛ ولذلك لم يتسنّ لي التعرف على الشباب فيه»، غضب الضباط العراقيّون كثيراً لعدم وصولهم إلى أيّة معلومات عن «عليّ هاشمي»، «عليّ أصغر كرجي»، «هوشنك جووند»، و«تقيّ إيماني». وكانوا يفتّشون أيضاً عن «حسن بهمني»، و«محمود نویدی»، من شباب «مقرّ الفيلق السادس».

كان العراقيّون يعتقدون أنّ الشباب ذوي القامة الطويلة، والضخمة، وأصحاب اللحى الطويلة، هم قادة. عندما اختار العراقيّون السيّد «نادر بيران»، و«محمد صادقي فرد»، وأخرجوهما من الزنزانة فهمت هذا الأمر. كان أحد الضباط العراقيّين يتنقّل بين الشباب الأسرى، وعندما يرى أحدهم ملتجئاً، يوقفه، وبواسطة «الكمّاشة»، كان يشدّ

لهم لحاهم، ويقتلها من مكانها. فهت عندها كم يكره العراقيون أصحاب اللحي.

لقد ركّز الجنود العراقيون شنائمهم وضربهم على اثنين من شباننا؛ لأنّ الجواسيس قد أخبروهم أنّ هذين الاثنين لديهما معلومات عن «علي هاشمي»، وأنّهما قد وقعا في الأسر بالقرب من المقرّ الذي كان موجوداً فيه؛ انكسر أنف أحدهما وسالت الدماء من فمه؛ وبسبب الركل بالأحذية العسكريّة، تمزّقت شفتاه. عادةً، لم يكن الجنود العاديون من شباننا يرتدون اللباس الكوري؛ لذلك بدا كأنّه أحد قادة الحرس. أمّا الأسير الآخر، المرافق له، فكان يرتدي لباس التّعبئة، وكان عريض المنكبين قويّ البنية، مما جعله يتحمّل الضرب، والسيّاط؛ إذ إنّ له لم يُسمع صوته تحت التعذيب الشديد.

كنتُ جالساً برفقة بقيّة الجرحى، خارج الزنزانة، وألم قدمي ينغص عليّ راحتي، كان أحد الضباط العراقيين يسجّل المعلومات حول الجرحى: الإصابات، نوعها ومكانها، كانت تظهر الكدمات والجراحات على وجه كلّ من يخرج من غرفة التحقيق بشكل واضح. أحرقوا لحية أحد شباب فرقة «الإمام الرضا (عليه السلام)» بالولاعة (القداحة)، كان يعتني بي، ويسهر على جراحي طيلة الليلة السابقة. أمّا «أحمد سعيدي» الذي كان يجلس بالقرب مني، فقد التهبت معدته، وأمعاؤه، بعد مرور عدّة أيّام على إصابته، لقد ضمّد بعض الأسرى معدته بقمصانهم، لكن ورمها، والتهاباتها، كانت تزداد يوماً بعد يوم.

أحضروا لنا طعام الغداء، ولكن أيدينا كانت متّسخة جدّاً، كان الشباب مجبرين على تناول الطعام بهذه الأيدي المتّسخة، كان أحد

الجنود العراقيين يمرّ من أمامنا حاملاً وعاءً من الأرز، وكان كل واحد منّا يأخذ حفنة من الأرز بمقدار سعة كفّه. كان بعض الشباب يلحسون أكفّهم ولا يفرطون بأيّة حبة أرز. قال «أحمد» مماًزحاً: «كي لا أكون مسرفاً».

توجّه نحونا عددٌ من الضباط الذين كانوا يتمشّون في باحة الثكنة، أحدهم كان برتبة مقدّم، وتبدو الهيبة عليه، نحيل وطويل القامة. سأل أحمد سعيدي:

- «هل أصابتك شظيّة أم رصاصة؟»

- الاثنتان معاً.

- لو لم تأت لتقاتلنا لما أصبت بأيّ منهما.

لم يُجبه أحمدُ بأيّة كلمة. عندما وقف المقدّم أمامي، ونظر إلى قدمي، ثم نظر إليّ من رأسي إلى أخمص قدميّ، بدأ يتبادل الحديث مع مرافقيه وكأنهم كانوا يتكلّمون عن عمري الصغير. قال موجّهاً كلامه إلى الأسرى، مستعيناً بـ«ناجي» الأسير الذي يتكلّم بالعربيّة كمتّرجم له:

- أنتم أتيتم لتنتقموا من خسارة آبائكم؟

- ومن هم أبائنا يا ترى؟

- يزدجرد الثالث.

كان يقصد إذاً القادسيّة، وخسارة «يزدجرد الثالث» أمام جيش سعد بن أبي وقاص. لم أكن أملك أيّة معلومات عن يزدجرد الثالث. لذلك قلت له:

- أنا لا أعرف شيئاً عن «يزدجرد الثالث»، وعندما بدأت الحرب

كنت صغيراً جداً، لكنني أعرف أنّ الإيرانيين لم يأتوا ليثأروا لآبائهم، بل جاؤوا ليحرّروا خرّمشهر، ثمّ أكملت قائلاً: هذه الجملة المكتوبة هناك على الحائط، «من يقاتل بشرف يستحقّ المجد»، تعيننا نحن، فمن يدافع عن شرفه، نحن أم أنتم؟

انزعج المقدّم من سؤالي، لكنّه أكمل حديثه عن افتخار العراقيين بحرب القادسيّة:

- ما زلتم أيّها الإيرانيون تحقدون علينا بسبب القادسيّة، وخسارتكم يومها.

أجابه الأخ «أحمد سعيدي» موضّحاً: «إن كان هناك حقد في قلوبنا، فهو الحقد الذي سبّبتموه بأعمالكم منذ بداية هذه الحرب».

قال عقيد آخر: كان الخميني يريد أن يصدر الثورة إلى بلادنا، ونحن لا نريدها، لا نريد أن تدخل ثورتكم إلى العراق.

لقد فهمت ما يجول في قلوب وعقول العراقيين. قبل وقوعي في الأسر، لم أكن أعرف بماذا يفكرون، ومن أيّ الأمور يتحسّسون: تصدير الثورة، القادسيّة، يزدجرد الثالث، انتصار سعد بن أبي وقاص....

كنت قد اعتدت على كلامهم اللاذع، فهم أعداء، ولا يجب أن نتوقّع منهم غير هذا. في معظم الأحيان لم يكن بإمكانني البوح بما يجول في قلبي، فقد اضطررت، وبسبب وضعي الجسديّ، أن أرجّح بعض المصالح التي لم أكن أريدها من صميم قلبي.

توقّف العقيد العراقيّ عن الكلام بشأن القادسيّة ثمّ قال:

- إنكم تريدون العبور إلى القدس عن طريق كربلاء، لماذا لا

تسلكون طريق تركيا للوصول إلى القدس؟

ولكي أستفزّه أكثر، قلت له:

- لا بدّ من أن نختار أحد الطريقتين، إمّا كربلاء أو تركيا.

ثم أكمل «أحمد سعيدي» قائلاً:

كي نحرّر القدس، علينا المرور في كربلاء

بالقرب من صاحب الرأس المقطوع

كان هذا شعراً يردّده الرادود «صادق آهنگران» للمجاهدين أثناء

الحرب.

فأجابه عقيد آخر:

- نحن أيضاً علينا المرور في طهران، نفتحها للوصول إلى شمال

إيران، ومن ثم نحرّر مشهد.

انتهى الحوار مع مجيء قائدهم.

كان الوقت ما بعد الظهر، ونحن بانتظار نقلنا إلى بغداد. لم نكن نعلم إن كانت بغداد أفضل أم أسوأ. قالوا لنا: إنّنا سننطلق بعد ساعتين إلى بغداد، كان بعض الضباط فضوليين، يأتون للكلام معنا عندما كانوا يتمشّون في الباحة الخارجية. اقترب أحدهم منّي وكان برتبة نقيب، نظر إلى قدمي المجروحة ثم قال: «الخمينيّ جيلكم هالمصيبة»، ثمّ اقترب أكثر، وضع حذاءه العسكريّ على كاحلي، وسألني بحقد:

- «ما رأيك لو طحنته بقدمي؟»

لم أشأ الجدل معه، خاصّة أنّه كان يضغط على قدمي بشدّة، تحمّلت الألم الشديد، ومنعت نفسي عن الأنين أمامه، وهكذا تيقّنت أن بعض أعصاب قدمي ما زالت حيّة. وهذا النقيب عامل السيّد

«محمد شفاعت منش» بالطريقة نفسها. في الليلة السابقة، كان أحد العراقيين الأكراد، من شمالي العراق، قد ثبت قدمي على لوح من خشب. ردّد النقيب مقولة العقيد ذاتها: «أنتم الإيرانيون تريدون تصدير الثورة إلى بلادنا»^٩.

لا أعرف لماذا كان معظم العراقيين يظهرون حساسية شديدة لقضية تصدير الثورة، وكأنهم قد روجوا كثيرًا لهذه الفكرة بين جنودهم. لشدة ما شعرت بالألم حين كان يضغط بحذائه على قدمي؛ قلت له: «ولماذا نريد تصدير الثورة إلى بلادكم، ألا يكفيكم حزب البعث، إنه يليق بكم». بعد أن ترجموا له ما قلته، أراح حذاءه عني، وذهب إلى «هجير آبسواران»، و«أحمد سعدي».

كنّا نقرب من وقت الغروب، عندما استقلّ الشباب الحافلات، لم أستطع الجلوس على مقعد الحافلة بسبب وضعي الجسدي، وقف أحد الجنود العراقيين على باب الحافلة، وكان ينادي ساخرًا: «هيا بغداد، ركّاب بغداد، هيا اصعدوا». وضعوني والسيد «نادر بيران»، و«تراب عليّ توكل»، في الممرّ وسط الحافلة، بعد أن نقلونا إلى الأعلى دون حمالة. كان السيد «نادر» ينتبه إلى قدمي؛ كي لا يصيبها مكروه، عندما تمددت في أرض الحافلة، لفت انتباهي نظرة الشباب الحزينة والمكسورة، كان بعض الأسرى، منهم «صفر بخشي» كلّما نظروا إليّ وأنا ممدّد على الأرض، أجهشوا بالبكاء، عرفت من نظراتهم الحنونة كم كانوا قلقين على وضعي. كان السيد «محمد شفاعت منش» أيضًا ممدّدًا أمامي في ممرّ الحافلة. لقد قسم العراقيون ممرّات الحافلات بين الأسرى المجروحين الذين لا يستطيعون الجلوس على المقاعد.

قبل أن نترك ثكنة «الميمونة»، قيّد الحرس أيدي الشباب مرّة

ثانية، أسدلوا ستائر نوافذ الحافلة، ثم انطلقنا مغادرين إلى بغداد. دخل أربعة جنود مسلّحين إلى الحافلة، صعدت «بطن» (كرش) أحد العراقيين لشدة سمنته قبله إلى الحافلة. كان فكري مشلولاً، وكنت مصدوماً لكل ما حدث في الأيام القليلة الأخيرة. كان قلبي منقبضاً؛ لشدة الحزن، كنت أريد البكاء من كل قلبي. عندما توجّهت الحافلة باتجاه بغداد، قلت في نفسي: ربما أنا في كابوس، وكل ما عشته هو حلم سأستيقظ منه. كنت كمن يشاهد حلماً، ولا ينفك يردد: «عندما أستيقظ سيكون كل شيء على ما يرام».

لكن كل هذه الأحداث كانت واقعاً أعيشه، ويجب عليّ تحمّله. كلّما كنّا نبتعد عن محافظة ميسان العراقية، كنّا نقترّب من كربلاء. بالقرب من بغداد، قال أحد الحرس الموجودين معنا: «كربلاء، إنها على بعد سبعين كيلومتراً».

عندما ذكر اسم كربلاء، تفجّر حزن الأسرى العميق القديم، وكأنّ دجلة قد انفجر في العيون. أجهش الأسرى بالبكاء، وأنا أيضاً بكيت بصوت عالٍ، لعلّي أفرج عن همّي وغمّي؛ لشدة ما أحسست بالعطش، بالأذى، والقسوة، والكلام اللاذع، والإهانات. كان قلبي يكاد ينفجر، لقد تحمّلت في الأيام الماضية ما لم أكن أتوقّع يوماً أن أتحمّله في يوم من الأيام. كنت أفتش عن حجة؛ كي أبكي من كل قلبي، شعرت أنني إذا ما بكيت سأرتاح، وسينزاح عن صدري حملٌ ثَقِيلٌ. وهكذا، بينما كنت ممدّداً، وضعت يدي على وجهي كثيراً بحجة الإمام الحسين (عليه السلام)، وبكيت بصوت عالٍ. ولأجل ما مرّ علينا أنا وأصدقائي، بكيت بسبب كل هذا الإذلال، والإهانات، بكيت للظلم الذي تعرّض له شهداء «الخدق»، لجثث الشهداء الذين بقوا على تلك الجادة، لإهانة الشهداء، لخسارة

جزر «مجنون»، لعدم معرفتنا بمصير «عليّ هاشمي»، للشهداء الذين أطلقوا عليهم رصاصة الرحمة، للشهيد الذي نُصب فوق بطنه علم العراق، للشباب الذين قاتلوا دون دعم أو إمداد، لشهادة «محمد حسين حق جو» الذي كان لديه خمس فتيات، دون صبية، ينتظرنه، لشهادة «جعفر أوند نجاد⁽¹⁾» الذي كان وحيد عائلته القروية، وها هي جثته بيد العراقيين، لحرق جثة «محمد كريمي»، و«إبراهيم نویدی بور»، لعمامة ذلك الشهيد التي حملها العراقيون كي يرقصوا بها فرحين، لجثث الشهداء التي داستها الناقلات العسكرية.... كانت كل هذه الأمور، وغيرها التي لم أذكرها، ترمي بثقلها على قلبي.

في الحادية عشرة من عمري، كنت في مسجد الإمام السجاد عليه السلام في «باشت»؛ ذلك المسجد الذي كان المرحوم عمي السيد «غلام حسين بلادي» إمام جماعته.

يومها كنت رادوداً حزيناً هناك طيلة الأيام العشرة من المحرم. لقد بكيت الليلة وبحجة الإمام الحسين عليه السلام من كل قلبي، لقد بكيت لكل ما مرّ عليّ وعلى الشباب، أحسست أن حملاً ثقيلاً قد انزاح عني، كنت على يقين أن قلب الإمام الحسين عليه السلام قد تفتّر؛ لأجل أبنائه الشهداء في جزيرة «مجنون». لو كنت في ظروف عادية وبكيت، لأحسست بالخجل من بكائي؛ لأنّ العراقيين والشباب الأسرى يقولون حينها: «انظروا إلى هذا التعبوي، لا يمكنه التحمل».

(1) الوند نجاد: تلفظ: Alvand Nejad.

الفصل الرابع:

بغداد⁽¹⁾ - سجن الرشيد

الخميس 30 حزيران 1988م - بغداد - سجن الرشيد

وصلنا إلى بغداد مع ساعات الصباح الأولى، عندما دخلت الحافلات إلى سجن الرشيد، فكَّ أحد الجنود المكلفين بحراستنا القيود من أيدي الشباب، فنزلنا الواحد تلو الآخر، أمَّا الجنود فكانوا يقفون على باب الحافلة حاملين في أيديهم الهراوات والكابلات. شكَّل الجنود العراقيّون ممراً بشريّاً من صفّين، عرضه نحو مترين، وطوله نحو عشرين متراً. كان العراقيّون، وفي كلّ المخيمّات، يستقبلون الإيرانيّين بهذا الشكل، وكأنّهم يريدون .. كما يقول المثل .. أن يقطعوا رأس القطعة من اليوم الأوّل. فكان على الأسرى المرور من هذا الممرّ؛ كي يصلوا إلى باحة السّجن الأساسيّة، والجنود على الطّرفين يضربون الشباب حين يمرّون، وإذا ما صودف ووقع أحد شبابنا في الممرّ، فالويل له من ضرباتهم. لا أعتقد أنّ هناك أسيراً لم يذق طعم «نفق الموت» هذا. حمّلني «السيد نادر بيران» و«محمد كاظم كريميان»، وأخرجاني من الحافلة دون حمّالات، عندما كنّا نقطع الممرّ بين الجنود العراقيّين، كان «نادر» و«محمد كاظم» يتلقّيان

(1) قيادة الحرس المركزي - بغداد.

ضربات الهراوات والكابلات على رأسيهما ووجهيهما، وهما يحملانني من كتفائي ويسرعان في المشي.

دخلنا إلى باحة السّجن، يقع سجن الرّشيد في معتقل (معسكر) بغداد المركزي⁽¹⁾. يبدو أنّ العراقيين، وبخاصّة صدّام، يحبّون هارون الرشيد كثيرًا، ليطلقوا اسمه على معظم الأماكن في العراق: سجن الرشيد، فندق الرشيد، مستشفى الرشيد، مطار الرشيد، متجر الرشيد، ساحة الرشيد، ثكنة الرشيد، ستادיום (ملعب) الرشيد.... كان الجنود الذين يتولّون حراسة سجن الرشيد يعمّرون قبّعات حمراء اللون، أمّا الجنود العاديّون فيضعون القبّعات السوداء، ويضع الممرّضون، أو العاملون في المستوصف، القبّعات الزّرقاء. كانت القبّعات العراقيّة تشبه قبّعاتنا العسكريّة (Beret). وتظهر شارة العقاب على طرفها، وكانت الأحزمة العسكريّة التي يضعها حراس السجن بيضاء اللون، وضيقة بذاتهم العسكريّة رفيعة بيضاء اللون أيضًا، تلتفّ على أكتافهم، ثمّ من تحت إبطهم، ويعلّقونها بأحد الأزرار اليسرى لقمصانهم.

تبلغ مساحة السجن حوالي 300 م²، وللوصول إلى داخل السجن كان لا بدّ من عبور عدّة نقاط حراسة، على جدران السجن وُضعت أسلاكٌ شائكة لولبيّة الشكل، توجد أمام كلّ قاعة حجز شجرة سرو تدلّ على قديم هذا المكان، في السّجن اثنتا عشرة زنزانة، وكلّ زنزانة لا تتعدّى

(1) كان الأسرى الإيرانيّون يقضون شهرًا في سجن الرشيد قبل نقلهم إلى المخيّمات. كان هذا السجن عبارة عن تصفية حساب العراقيّين مع الأسرى الإيرانيّين. فهنا تتمّ المراحل الأخيرة من التحقيق؛ لجمع المعلومات حول القادة، الحرس، التعبويّين، وبعد ذلك يتمّ توزيعهم على المخيّمات التي سيقضون فيها مدّة اعتقالهم. يقع هذا السجن في جنوب شرقي مدينة بغداد.

الـ22 مترًا مربعًا، ويضعون فيها نحو50 أسيرًا إيرانيًا. بسبب التعب الشديد، غفا العديد من الشباب. جلس بعضهم في زوايا الزنزانة دون حول ولا قوة، أما الذين لم يسعهم المكان، فقد أخذهم النعاس واقفين متكئين على الجدران. كانت الممرات ممتلئة بالأسرى، وقد نام العديد منهم في ممرات المراحيض.

في اليوم الماضي ضرب بعثيو ثكنة «الميمونة» البارحة الشباب ضربًا مبرحًا، كان الضرب سلفًا عن الأيَّام القادمة التي سنبتعد فيها عنهم. كنَّا نشعر بالعطش الشديد، ولا خبر عن الماء. كان تصوُّري عن بغداد مختلفًا عما أراه الآن، فالألم الشديد والشعورُ بالاختناق ينغصان راحتي. كان «فرج الله حيدري» يهتَمُّ بي، ويحميني؛ كي لا يدوس الأسرى عند ذهابهم وإيابهم على قدمي المجروحة. كان بعض الأسرى يصرون على الوقوف متكئين على الجدران؛ كي يفسحوا المجال للأسرى المجروحين بالتمدد على الأرض، كانت ليلة صعبة، مرَّت ببطء شديد. فالحُرُّ الشديد قد أعياني، فلا مروحة في السقف لتبرِّد الهواء ولو قليلًا. وقف «تراب عليّ توكل بور» ليحرِّك الهواء فوق رؤوسنا بقطعة «كرتون»، وكان العرق يبلُّ ملابسنا.

رأيت عددًا من الأسرى الذين تمَّ أسرهم في شلمجة الشهر الماضي، بدا أنَّهم قد قضوا أيَّامًا صعبة في سجن الرشيد، فبعضهم كان نائمًا على الأرض الأسمنتية لأحد الممرات الخارجية، كانت وجوه الكثير منهم مليئة بالكدمات والدماء، وظهر بوضوح أنَّ جراح الشباب، الذين تمَّ نقلهم إلى هنا، كانت حرجة، أما الجرحى الذين كانوا أفضل حالاً منِّي، فقد تعاطفوا معي كثيرًا، وكلَّما مرَّوا بالقرب

مَنِّي تبادلوا معي أطراف الحديث عن مدينتي، وكيفية أسري، وآخر أخبار الحرب... إلخ.

عند انبلاج صباح اليوم، صلينا دون تيمّم ودون سجّادات. حوالي الساعة الثامنة صباحاً، فُتِحَ باب الزنزانة، ودخل الجنود العراقيّون، وهم يحملون العصيّ والكابلات، وانهاّلوا ضرباً على الأسرى. استطاع بعض الشباب الفرار إلى الخارج، فنجوا بذلك من الضرب والشّتائم. كُنْتُ برفقة بقيّة الجرحى داخل الزنزانة، عندما دخل الرائد العراقيّ مع عدد من الجنود، شاهد وضعنا، فطلب من الأسرى غير المجروحين إخراجنا من الزنزانة. أحضروا لنا الفطور، كان مقداراً قليلاً من حساء العدس، وضعوه في وعاء مستطيل الشكل يُدعى «قسوة»، كان تناول الفطور سريعاً، كانوا يحملون «قسوة» حساء العدس أمامنا، وعلى كلّ منّا أن يأخذ أربع حفنات (جُرعات) من العدس.

لم أهدأ من شدّة الألم، كما أنّ الحرّ سلبني راحتي، كنت أشعر بالعطش منذ الليلة السابقة. ولشدّة الحرّ؛ رفض الكثير من الشباب حساء العدس؛ كي لا يزدادوا عطشاً.

أمر الرائد الشباب بخلع أحذيتهم، مما زاد من آلامهم، فالجلوس في هذا الحرّ الذي لا يُطاق، وبقدمين عاريتين، أمر لا يُحتمل. لم يكن يُسمح لنا، بأيّ شكل من الأشكال، أن نشرب من ماء الصنبور (الحنفية) عند الباب. أراد أحد الإخوة الشرب، فإذا به يشربُ نار حقدهم ضرباً وشتماً. كان معظم الشباب بقمصانهم (الداخلية البيضاء)، فقد تمرّقت ثياب الكثيرين منهم لشدّة الضرب والتعذيب. كما أن العراقيين استولوا في الجبهة على الألبسة والأحذية الجيدة، التي كان

الشباب يرتدونها. لم أعد أقدر على تحمّل العطش، ولم يُطاوعني قلبي على طلب شيء من العراقيين. تقدّم «عليّ أصغر باقر زاده»، وهو من الرجال الهادئين والوقورين، من الحارس العراقي، وقال له: «نحن الأسرى السّالمون لا نريد أيّ ماء، ولكن أحضروا الماء للجرحى، ولا تعذبوهم بالعطش، فانهال عليه بالضرب بالكابل. توجه بعده «عليّ رضا كرمي» نحو الحارس وقال له: «لا يهّمنا ضرب كابلاتكم وضربكم، ولكن ارحموا هؤلاء الجرحى».

انهال الحارس بالضرب أيضاً على «عليّ رضا» حتّى ارتمى أرضاً بلا حراك.

قراة الظهيرة، جاء عقيدان عراقيّان، وكانت تؤدّي لهم التحيّات العسكريّة، ودخلوا إلى السجن. كان الحرس قد قسّموا الأسرى كلّاً حسب الوحدة العسكريّة التي كان يخدم فيها. اجتمع شباب «لواء الفتح 48»، والذين تمّ أسرهم في «جزيرة مجنون»، في الجهة اليسرى للسجن. تجمّع بعض شباب «فرقة ثار الله 41»، الذين أسروا في أوائل أيار في منطقة شلمجة، في ناحية أخرى، وشباب الوحدات العسكريّة الأخرى من بينهم شباب «لواء الغدير 18» من يزد، شباب «فرقة النصر 5» من خراسان، وشباب «أسطول أمير المؤمنين (عليه السلام) البحري»، كلٌّ في طرف من الباحة بشكل تجمّعات صغيرة.

أولى التحقيقات بدأت في بغداد، كان الأسرى يذهبون واحداً تلو الآخر إلى طاولة العقيد للتحقيق. قبل أيّ سؤال كانوا يأخذون معلوماتنا الشخصية والعسكريّة، كان العقيد. وكالمحقّقين السابقين في الفيلق الرابع، يبحث عن القادة بين الأسرى. كان معظم الشباب يعرفون

أنفسهم على أنهم من وحدات الدعم والإسناد، الإمداد، السائقين، الطبابة والممرّضين، مضيفي المطبخ، التموين والهندسة. فبعد تحقيق اليوم، صار «محمد صادق فرد» مسؤولاً في الدعم، و«السيد نادر بيران» أحد أفراد التعاونية الغذائية، و«السيد نادر السادات» من شباب الدعم، و«محمد كاظم كريميان» في وحدة التمريض، و«تراب علي توكل بور» سائقاً، و«الله رضا سعدي» سائقاً أيضاً، و«تاج محمد علي بور» مساعد ممرّض، و«فرج الله حيدري» موظفاً في المستودع. كان الأسرى يجيبون المحققين إجابات لا أصل لها ولا فصل، إجابات مبهمة وغير مفهومة، هذا الأمر أغضب العقيد والمحققين، وأفقدتهم صوابهم. قبل أن ينتهي التحقيق، وعندما دخل «محمد صادق فرد» و«فرج الله حيدري»، بأجسامهم الضخمة، وعرفوا أنفسهم بأنهم من الإمداد الصحي، ومن الشباب الذين كانوا يتولّون أمور المستودع، وقف المحقق غاضباً، تقدّم نحو الأسرى، وقال بصوت عالٍ: «كلّكم كاذبون».

طأطأ الشباب رؤوسهم، فكذبهم واضح، ولم ينبسوا ببنت شفة. فمن بين 200 أسير تجمّعوا في الباحة، عرّف أكثرهم أنفسهم بأنهم غير عسكريين، ويخدمون في المجال المدني، وكان العراقيون لا يتعاطون كثيراً مع العناصر المدنية.

اقترب العقيد، الذي كان يعرف الكثير من المعلومات حول مواقع الوحدات في «جزيرة مجنون»، «طلائية»، «شلمجة»، «تقاطع جفير»، وبقية المناطق العسكرية، وأشار بيده إلى شباب «موقع الخندق» قائلاً: «كلّكم عناصر كتيبة محمد رسول الله ﷺ».

ثمّ أكمل، ليُبرهنَ لهم كِذبَ كلامهم: إذا كنتم كلّكم أيها الإيرانيون في وحدات الدعم، والإمداد الصّحي، والمطبخ؟ فأين قادتكم العسكريين، قتّاصوكم، رماة الـ«آربيجي» وطواقم المدفعية؟

ثمّ أكمل قائلاً: تريدون أن تقنعونا بأنّه لا قادة بينكم؟ لا رماة آربي جي؟ لا قتّاصين؟ من هم إذن الذين كانوا يقاثلوننا؟ من كان يضرب زوارقنا في «جزيرة مجنون»؟ هل هذا يعني أنّ كلّ ضاربي الـ«آربيجي» والقذائف والقناصين قُتلوا جميعاً؟ ثمّ صرخ العقيد، الذي احمرّ وجهه من الغضب، قائلاً: «الدّبّاغ، الطّبّاخ، النّجدة، السّائق».

نادى العقيد أربعة أسرى من ذوي اللّحى، والأجسام الضخمة، وكالعادة، ولحظّهم السيئ، كان بينهم «محمّد صادقي فرد»، السيّد نادر بيران»، و«فرج الله حيدري».

قرأ العقيد أسماء عدد من القادة الإيرانيين، من بينهم: «عليّ هاشمي»، «عليّ أصغر كرجي زاده»، «حسين إسكندري»، «هوشنك جووند»، و«تقيّ إيماني». هم القادة الذين كان المحقّقون في «الميمونة» يبحثون عنهم. لم أسمع في الميمونة باسم «حسين إسكندري». عندما لم يسمع جواباً من أحد، أكمل غاضباً: «سندفعكم للاعتراف، إنّ كلّ من لا يتعاون معنا في هذا السجن، جعلناه يتمنّى الموت».

قال العقيد الذي لا ينفكّ عن تكرار كلمة «والله العظيم» في تهديداته: «إنّ بعض الأسرى الإيرانيين لا يقولون لنا أسماءهم الحقيقية؛ كي لا يُعرفوا، ثمّ نعرف بعد مدّة، وعندها نجعلهم ينسون أسماء أمهاتهم».

ثم تكلم العقيد العراقي الأكبر سنًا قائلاً: «إذا كان (علي هاشمي) بينكم فليعرف عن نفسه». لم يتقدم أحدٌ من الأسرى. قال لنا: «سنعود بعد الظهر، لديكم فرصة إلى ذلك الحين. فكروا جيداً وقولوا لنا الحقيقة، خاصة القادة منكم، فليعرفوا عن أنفسهم».

عند العصر، دخل المحققان، كلُّ منهما برتبة عقيد، كان حراس السّجن قد وضعونا في الباحة الخارجية قبل ساعات من حضورهما، أخرج العقيد من جيبه سيجاراً، سحب نفسين عميقين منه، وقال: «أرجو أن تكونوا قد راجعتم أفكاركم، لن يندم من يقول الحقيقة، لا وقت لدي كي أضيعه معكم أيها المجوس، ليقف قادتكم وليتقدموا لوحدهم إلى الأمام». لم يقف ولم يتحرك أحدٌ من الأسرى، عندما وجدوا الأمر كذلك تقدّم العراقيّون، واختاروا نحو عشرة من الأسرى، وطلب منهم العقيد الاعتراف بأنهم من القادة، كان بينهم «هوشنك جووند»، الذي قُطعت قدمه أثناء إحدى عمليّات الاستطلاع في شمال منطقة «كرخة»، وقد تمّ أسره بقدمه الاصطناعيّة، لقد كان قائد أحد محاور العمليّات في «مقرّ نصرت». بأمر من العقيد، انهال الجنود عليه بالركل والضرب دون هوادة. انفصلت قدمه الاصطناعيّة، ووقعت أرضاً. كان العراقيّون يعرفون أنّ «هوشنك جووند» قائد إحدى محاور العمليّات في مقرّ «نصرت»، وأنّ إحدى قدميه اصطناعيّة. عندما ضربه العراقيّون، قال لهم: «اضربوا، اضربوا ألن أموت يوماً وتأكّل جسدي الأفاعي والعقارب، اضربوني إذن».

كان رجلاً كثير المزاح، صاحب معنويّات عالية، وكان مضرب المثل

بصبره وثباته تحت ضربات العراقيين. ثم أخذه، ولم أره بعدها أبداً. تقدّم العقيد وهو يدخن سيجاره، ويظهر الفرح عليه، وقال: لقد عرفنا منذ عدة أيام «باقري»، وهو قائد أحد الألوية، وكان قد فقد إحدى يديه، وكانّ القادة الإيرانيين كلّهم، إمّا صاحب قدم مبتورة، أو رجل مبتورة!

يحقّ للعراقيين أن يصفوا قادتنا بفاقيدي الأيدي والأرجل، فقد كان بين أسرانا هذا العام: الحاجّ «مرتضى باقري»⁽¹⁾، قائد لواء الهندسة (زرع ونزع الأنغام) في فرقة «41 ثار الله»، وكان مبتور اليد، «هوشنك جووند» قائد أحد محاور العمليات في «مقر نصرت»، وكان مبتور القدم، السيّد «علي صالح رايمان»، الذي كان نائباً لقائد كتيبة رسول الله ﷺ، وقائد القوات التي كانت مستقرّة في «موقع الخندق»، مبتور اليد أيضاً. «محمد أفشين»، قائد سرّيّة الإمام السجّاد عليه السلام في كتيبة محمد رسول الله ﷺ، كانت أصابع يده اليمنى مقطوعة. لقد أبلغنا المحقّق العراقي بفخر وسرور خبر شهادة «العقيد قاسمي» قائد اللواء الثالث المدرّع لفرقة الأهواز 92، يبدو أنّ الشهيد قاسمي قد استشهد في «الطلائية»⁽²⁾.

في آخر الليل، سألت «خدا رضا سعدي» عن أخبار «سليمان دانشي»، قائد سرّيّة «أبي ذر» الذي أصيب بخمسة عشر رصاصة في

(1) الحاج مرتضى باقري من محافظة زاهدان. قُطعت يده في إحدى العمليات. عندما تحوّلت وحدة الهندسة في فرقة ثار الله إلى لواء الهندسة (وحدة زرع ونزع الأنغام) تمّ تعيينه من قبل قاسم سليمانيّ قائداً للواء التخريب في الفرقة المذكورة. أسره العراقيون في شلمجة. وقد كشف أمره في سجن الرشيد، لينقله العراقيون، وبعد أيام، من التعذيب إلى المخيم 12 في تكريت.

(2) اسم منطقة واقعة على جادة الأهواز. خرمشهر، عبارة عن مثلث طرق وطريق فرعية لجهة الغرب بالقرب من الحدود الدولية، العراقية - الإيرانية.

جادة الخندق، ووقع هناك على الأرض. كان يبعد عني نحو 200م، نقله العراقيون إلى البصرة؛ لأنه كان ملتحياً. أخبرني «خدا رضا» أنّ «دانشي» قد استشهد في ثكنة الفيلق العراقي الثالث، وبقيت جثته مرمية تحت أشعة الشمس.

الجمعة 1 تموز 1988م - بغداد - سجن الرشيد

اليوم هو الجمعة، وليست المرة الأولى التي يدخل فيها المحققون السّجن، كان بينهم ضابطٌ برتبة عميد، لقد وضعوا لهم الفاكهة، وإبريقاً من العصير البارد على الطاولة، كانوا يشربون العصير، ويأكلون الفاكهة أمام الأسرى العطاشى؛ ليزعجوننا فقط. كما في «الميمونة»، كان قلبي عند إبريق العصير على الطاولة، كان العميد يردّد اسم «علي هاشمي»، ويقول: «نحن نريد عليّ هاشمي». وكأنّهم لن يغلقوا ملفّه بهذه السهولة. وقد تحوّل اختفاء «عليّ هاشمي» إلى لغزٍ عجيب.

عندما ذهب العميد، طلب الجنود الحاضرون هناك من الأسرى أن يخلعوا قمصانهم الدّاخلية البيضاء، ويتمدّدوا على الأرض الملتهبة. كانت شمس تمّوز قد ألهبت أرض السجن؛ لدرجة كان يمكن .. على حدّ قول الشباب .. سلق بيضة عليها. كان الشباب يتمدّدون دون لباس على الأرض، فتحترق جلودهم، وقد جعلهم هذا التعذيب يرفعون أصواتهم بالأنين. كان الحرّاس، وفي ربع الساعة الأولى، يراقبون فقط، ويتدخّلون لركل أو ضرب من يحاول من الشباب رفع بطنه عن الأرض، فكانوا يقتربون منهم، ويقفون على ظهورهم بأحذيتهم

العسكريّة، ويضربونهم بالكابلات، كانوا يريدون أن يُلصقوا بطون الشباب بالأرض؛ ليشعروا بحرارتها.

كنت مع الأسرى المجروحين، نجلس على الأرض الحارقة بالقرب من الجدار الأيمن للباحة، كانت قدمي تكتويان بشدّة، وكنتُ مجبوراً على تقليب جسدي كلّ خمس دقائق على جهة؛ كي أستطيع تحمّل شدّة الحرارة. فعندما كنت أتكى على الطرف الأيمن، كنت أحترق لدرجة أعيد جسدي بسرعة إلى الطرف الأيسر؛ كي أرتاح قليلاً. فقد استطعت اليوم، وللمرة الأولى في حياتي، أن أستشعر حرّ مال الجزيرة العربيّة، وأن أدرك بالفعل ما عاناه «عمّار بن ياسر»، والتعذيب الذي كان يتعرّض له أصحاب الرسول ﷺ.

لم يسمحوا لنا بشرب الماء، فقدَ اثنان أو ثلاثة من الشباب وعيهم من شدّة العطش، وقد استشهد أحد الأسرى. أُلقيت جثّته في زاوية السجن في هذا الحرّ الشديد. العطش الشديد لا يحتمل. لقد سمحوا فقط برشّ بعض الماء على وجوه الشباب الذين يفقدون وعيهم. عندما تركونا وشأننا، يومها، اقترب منّي «فرج الله حيدري»، وقد تحمّل ضربهم وتعذيبهم، كان رجلاً صبوراً، عريض المنكبين، وقوياً. كان القماش الذي يلفّ جرحي مليئاً بالدماء والقحح والالتهاب. مزّق «فرج الله» قميصه، وضَمّد به قدمي المجروحة، كان يسعى لمساعدتي، فسحبني قليلاً بمحاذاة الجدار، ووضع جانبيّ المجروح تحت الظلّ القليل، والمتبقّي منه في الباحة، نحو 30 أو 40 سم من الفيء، فلم تعد الشمس تلسع قدمي المجروحة. عندما طلب الحارس من «فرج الله» التوجّه إلى الزنّانة، قال لي: «يا سيّد، صرْتُ أكره نفسي؛ لأنّني

لا أستطيع أن أساعدك». عندما ذهب، قال باللغة التركية: «ليقضي العباس عليه السلام عليكم يا أبناء يزيد».

لم يتناول معظم الشباب الطعام من شدة العطش، وقد جفّ ماء فمي. كان الجرحى في باحة السجن، وبقية الأسرى، موزعين على زنزاناتهم. بعد الظهر، أخرجوهم إلى الباحة، كان الجميع يريد مساعدتي، ولم يتركوني وحدي أبداً. «فرج الله»، الذي كان يعرف أن الجرحى لا رمق فيهم من شدة العطش، توجّه نحو صنبور الماء، لكنّ الحراس منعه، وانهاهوا عليه ضرباً بالكابلات، لقد كنت مستعداً للبقاء عطشاناً، ولا أراه لحظة يُضرب على هذا النحو أمامي لأجل الماء. كان ثلاثة من الحراس يضربونه دون توقّف. لو كان أيّ شخص غيره، لانهار أرضاً من شدة هذه الضربات.

عند الغروب، أعطى العراقيّون الأمر بالدخول إلى الزنازين، حملني الشباب إلى الداخل أولاً، جلست في الممرّ أمام الزنزانة، واتّكأت على الجدار.

عندما كانوا يدخلون إلى الزنازين، كان العراقيّون يضربونهم بوحشية بالهراوات والكابلات، كان هذا الأمر يتكرّر كلّ غروب، بعض الأسرى كانوا يُسرعون في الدخول اتقاءً من الضرب والشتم. عند الدخول، داس أحد الأسرى على قدمي، غبت عن وعيي لشدة الألم. عندما استفتت كنت مستلقياً في الممرّ، كان «ظهراب محمّدي»، الذي داس على قدمي، جالساً بالقرب منّي، ينتظر أن أعود إلى وعيي ليتسامح منّي، قبل رأسي قائلاً: «يا سيّد أرجوك سامحني».

- لا دخل لك في الموضوع، لا يهمّ.

- لن أسامح نفسي، على كلِّ حال، أرجوك يا سيّد، أقسم عليك بجِدِّكَ أن تسامحني.

- إذا كنتُ منزَعَجًا، فانزعاجي هو من العراقيين.

كانت الزنازين مكتظةً إلى درجة جعلت حياة المجروحين مؤلمة وصعبة، كنت أحترق من شدة الألم عند كلِّ حركة أو ضربة خفيفة، كنت لا أهتم إلاّ لقدمي حتّى لا يركلها أحد، لم أكن أعرف ماذا عليّ أن أفعل حتّى لا يحرك أحدٌ قدمي. ناديت «تراب عليّ توكلُّ بور»؛ كي ينقلني إلى ممرِّ المراحيض، كنت أريد قضاء اللّيلة هناك؛ لأرتاح أكثر، كان وضع المراحيض مزريًا، كان للزنازين ثمانية مراحيض لا تصلح للاستعمال، وتتصاعد منها روائح نتنة. كان العراقيون، ولكي يبقى الأسرى عطاشى طيلة الليل، يقفلون موزّع [سكر] صنابير المراحيض من الخارج؛ لذلك لم تكن المياه موجودة في أيِّ وقت. كان الأسرى يستعملون المراحيض الخارجيّة لقضاء حاجاتهم في فترة بعد الظّهر، ولا يستطيعون استعمال أيِّ مراحيض (عصرًا)، وحتّى ظهر اليوم التالي، فكان عليهم التحمّل عند الضرورة، أو استعمال المراحيض داخل الزنازين. طلبت من «تراب عليّ» أن يُحضّر لي قطعة من «الكارتون»، سألني: «وما الذي تريده من هذه الكرتونة؟». أحضرها لي فقط. كان الشباب يضعون «قطع كرتون» عوضًا عن الأغذية القماشية وأدثرة النوم، وكان الحراس العراقيون يعطون الأسرى الجرحى قطع كرتون لتوضع على الأرض؛ كي لا تتسخ الأرض بالدماء والقيح. كانت المراحيض وسخة جدًّا. عندما وضعت الكرتون على الأرض لم تتسخ ثيابي كثيرًا، على الرغم من الأوساخ التي كانت

تملاً الأرض، حاولت قدر المستطاع أن تكون قدمي فقط على الكرتون، فجلستُ خارج المرحاض ووضعت قدمي في الداخل، بدأ «تراب علي» بالبكاء عندما رأيَ أحاول التمدد هناك، وكأنَّه تذكّر منذ ستّة أو سبعة أيّام عندما كنّا ننام أحداً قريب من الآخر في «جزيرة مجنون»، كم كانت تلك الليالي جميلة! قال «تراب علي»، وقد شعرتُ أنّ وضعي يزعجه بشكل كبير: يا سيّد كيف ستقضي الليلة وسط هذه الرّوائح؟ - هذه الرّائحة بالنسبة إليّ أهون بكثير من آلام ركل قدمي المجرّوحة.

- لكنّ ضميري يعدّ بني كثيراً أن أتركك تنام هنا.
- المهمّ أنّني سأرتاح هنا أكثر، ألا تريدني أن أرتاح؟
لم يقل شيئاً، لكنّه تنهّد من صميم قلبه وهو يشتمّ العراقيّين. جلس لأكثر من ساعة بالقرب منّي، ثمّ ذهب ليتفقد «هجير آبسواران»، و«أحمد سعيدي». وكان يعود إليّ كل ساعة، ويقول لي: «يا سيّد ألا تريد شيئاً؟»، كنت أضحك في نفسي، فهل من شيء في هذه الزنزانة يمكن أن أطلبه منه. كان معظم الأسرى نائمين عندما جاء أحد الرجال من كبار السنّ، ووقف بالقرب منّي، وكان يهتمّ بالجرحى كثيراً، ويدعى «العمّ حسن»، وهو الأسير الأكبر سنّاً في تلك المجموعة، وكان بمثابة الممرّض الخاصّ لي في تلك الليلة والليالي التي تلتها.

تمّ أسره مع بداية شهر أيّار في منطقة شلمجة، كان عجوزاً ضعيفاً، ونحيفاً في الستين من عمره، أشيب الرأس واللّحية، وجهه نورانيّ وودود، يشبه خدام المساجد. احتفظ العراقيّون به في إحدى الثكنات العسكريّة في البصرة لمدة عشرين يومًا، أحسست أنّني أقضي أيّام

الأسر بالقرب من والدي، كان يُظهر حزنه لرؤيتي ممدداً في الحمام. عندما شرحتُ له سبب بقائي هنا، اقتنع بذلك.

لم أستطع النوم من شدة الألم، كان «العم حسن» يرفع من معنوياتي، يقول لي مؤملاً: سيأخذونك إلى الطبيب، وستشفى وستبقى حياً.

- لا يهّم، نرضى برضا الله، هذا هو قدرنا.

- أنا سعيد؛ لأنك لم تفقد معنوياتك على الرغم من ظروفك

الصعبة.

أسبوعان قضاهما «العم حسن» بالقرب منّي، كان بالنسبة إليّ الهادي والمربي، لا ينفكّ يوصيني وبقية الشباب المجروحين، قائلاً: يا شباب، توسّلوا بالإمام السّجاد (عليه السلام)، لقد عانى الأسر والمرضى معاً، توسّلوا بالله والإمام السّجاد (عليه السلام)، وسيساعدكم الله.

صبر وتقوى «العم حسن» مضرب مثلاً، كان يكرّر بيت الشعر هذا:

«لا تشكّ الألم في طريق الطلب، فلا وصول لمن لا يعاني».

عندما غفوت ليلاً، لم أكن قلقاً أن يمسه أحدهم قدمي. في منتصف الليل، وللحظات، تركني الألم وشأني، وصار العطش يقضّ مضجعي، فطلبت من «العم حسن» أن يجلب لي الماء، لم أفكر للحظة واحدة كيف سيحضر المسكين الماء، توجه مع أحد الأسرى العرب إلى شبّاك السجن، منادياً الحرّاس، وطلباً الماء، لم يحترم بعض الحرّاس شبّيته، فعاد خالي الوفاض، وكان مستاءً، جلس بالقرب منّي، وقال: «يا بني، لقد بذلنا جهدنا، لكن هؤلاء السفلة، أناس لا يعرفون الله».

عندما أرهقني العطش، فتحت صنبور الماء في المرحاض، وبدأت

بالمصّ، ظننت أنّي بهذه الطريقة قد أبّلت حلقي، لكن لم أذق سوى الهواء وطعم الحديد، آلمني فكّاي لشدة ما مصصت الصنبور. ليلاً، غفوت بصعوبة، حلمت أنّي في قريتي بالقرب من عين الماء، وكنت أشرب وأشرب ولا أرتوي. بقي «العمّ حسن» بالقرب منّي إلى منتصف الليل تقريباً، إلى أن جاء أحد الأسرى الأرمن، وطلب منه أن ينام ليهتمّ هو بي.

السبت 2 تمّوز 1988م - بغداد - سجن الرشيد

ها قد أمضيت يومي الثالث في سجن الرشيد، في الليلة السابقة، عانيت الأمرين من العطش، لكنني كنت مرتاح البال بالنسبة إلى قدمي، لم يطأها أحد، كانت شظيّة قد أصابت فخذي من الخلف، ولم أكن قد التفتّ إلى الأمر حتّى هذا اليوم، عندما ضغطت عليها، خرج القيح والالتهاب منها.

أخرجونا في الصباح، وأحضروا عددًا من الأسرى المجروحين من الزنزانة المجاورة إلى زنزانتنا، تعرّفت على عدد من الشباب الذين أسروا في مناطق «الطلائيّة»، «الجفير»، و«جزر المجنون الشماليّة والجنوبيّة». مع أنّ معظم أسرى الجيش كانوا في الزنزانة المحاذية لزنزانتنا من الجهة اليمنى، كان معنا أيضًا عدد من شباب فرقة «المدركات 92» والذين أسروا في منطقتي «كوشك» و«الطلائيّة». قام الحراس بحرق حاجبي أحد الأسرى بالسيجارة، وكان ذنبه أنّه ملتح!

صباح اليوم، وزع الأسرى الأصحاء المسؤوليّات فيما بينهم، فتكفّل

كل واحد منهم بأحد الجرحى، وقد تكفل اثنان من الأسرى بالجرحى ذوي الإصابات البليغة والجرحة مثلي، ومثل «يد الله زارعي». كان «العم حسن» والأسير الأرمني هما ممرضاي، كان الأسير الأرمني حنوناً، ويتحمل المسؤولية، بقي البارحة بالقرب مني حتى الصباح، على الرغم من أنه لا حيلة بيده، فإن جلوسه بالقرب مني قد بث في الصلابة والثبات. في الصباح، عندما أخرجوا الأسرى، أخرجني من المرحاض، كان يراقبني؛ كي لا يمس أحد قدمي.

كنت أشعر بالارتياح، لكون أحد الأرمن هو «ممرضي» (من يهتم بي)⁽¹⁾. عندما شكرته، قال لي: «إن خدمتكم واجب علي».

كان في عداد فرقة المشاة، ويخدم في «فرقة المدرعات 92»، وأسر في منطقة كوشك أو طلائية. لقد دخل قلبي، وأحبيته منذ اللحظة الأولى، سألته عن اسمه، قال: سر كيس داوتيانس.

في اليومين الأولين كان صعباً علي أن ألفظ اسمه، ولكنه بدأ يسهل يوماً بعد يوم.

(1) كان الأرمن في الدفاع المقدس كثيرهم من الجنود الإيرانيين ملتزمين بالأهداف العليا للإمام الخميني (قدس سره). نقل «الحاج أحمد رضا حاجتي» إمام جمعة الأهواز المؤقت، خلال إحدى خطبه في أسبوع التعبئة في العام 1995م نقلاً عن أحد الكتب: ينقل أحد الأسرى العراقيين أنه في إحدى العمليات، رأى اللواء ماهر عبد الرشيد قائد الفيلق السابع العراقي، أحد ضباطه يضرب أسيراً إيرانياً ضرباً مبرحاً دون توقف، فسأل ماهر عبد الرشيد ذلك الضابط: لماذا تضرب هذا الأسير المسكين كل هذا الضرب، رفقاً به، فأجابه الضابط: سيدي، إن هذا الأسير يرفض شتم الخميني فقال «ماهر عبد الرشيد»: حتى لو لم يشتم الخميني، فالأمر لا يستحق كل هذا الضرب، فقال الضابط مرة ثانية: «إن ما يزعجني يا سيدي، كون هذا الأسير أرمينياً، ومع ذلك لا يريد شتم الخميني»، فيما بعد، عرفت مصدر هذه القصة وهو كتاب «تقرير عن تحقيق» الذي كتبه «السيد مرتضى بشيري» الذي حقق معه العراقيون أثناء الحرب. كان الكتاب تقريراً عن تحقيق قام به العراقيون مع العقيد العراقي محمد رضا جعفر الجشعبي، وقد نقل العقيد هذه القصة لبشيري.

لم يكن النهار قد انتصف بعد، أجلس العراقيون الأسرى السالمين في باحة السجن، في الحرّ الشديد، كان داوتيانس جالسًا بالقرب مني، لم يتناول الشباب الفطور من شدة العطش، كانوا يريدون أن يضغطوا علينا من خلال العطش، فالحراس والمحققون يريدون أن يجعلوا الظروف أصعب؛ لأنّ الشباب لم يفشوا أسماء قاداتهم. عند ذلك توجه «داوتيانس» إلى أحد الحراس العراقيين، ثمّ عاد ومعه إبريق ماء، تعجبت من ذلك، سألته: «ماذا حدث حتّى أعطوك الماء؟» قال «داوتيانس»، الذي يعاني هو أيضًا من العطش في هذا الحرّ الشديد: «لقد أخذته منهم، اشربوا بطريقة تمكّن الأسرى المجرّوحين كافّة من الشرب».

مع أنّ الماء كان ساخنًا، لكنّه كان نعمةً أنقذتنا من العطش. «داوتيانس» نفسه لم يشرب الماء، عندما شربت قلت له: «داوتيانس! إنّ الحراس لا يعطون الماء لأحد!».

- «أحد الحراس العراقيين، أرمني، وقد اهتمّ لأمرني، وأعطاني الماء».

كان «داوتيانس»، ودودًا، مضحّيًا وعطوفًا. حمل إبريق الماء، ومرّره للجرحى؛ كي يشرب كلّ منهم بضع رشقات. كان الحارس العراقي الأرمني يحترم «داوتيانس». أعتقد أنّه أوصى بقيّة الحراس العراقيين أيضًا به، فبقيّة الحراس العراقيين كانوا يحترمونه «داوتيانس»؛ لأجل زميلهم الأرمني. في الأيام اللاحقة، أصبحت حركة «داو» مقيدة، فلم يعد بإمكانه الاهتمام بنا.

بعد الظهر، جاء العراقيون إلى «داوتيانس»، وتكلّموا معه، كان

برفقتهم الحارس الأرمني أيضاً، خاطبه الضابط ذو الرتبة العسكرية والأكبر سنًا من البقية: «بما أنك أرمني، فلماذا تحارب لأجل الخميني؟» - «صحيح أنني أرمني، لكنني إيراني أيضاً، وأنا جندي، وعليّ القيام بالخدمة العسكرية في الجيش».

بدا الانزعاج على وجه الضابط العراقي، فكلام «داوتيانس» لم يعجبه. كانوا يتمنون أن يُظهر ندمه وألا يكون ملتزماً بولاءٍ للإمام ولإيران. أكمل الضابط العراقي، الذي كان يتكلم برفق مع داوتيانس، قائلاً: «لو فررت من الخدمة لجئت إلى العراق، أنت تعرف أن هناك الكثير من الأرمن يعيشون في العراق، ولا دخل لنا بكم، ما يهمنا هم هؤلاء، حرس الخميني، قالها مشيراً بيده إلينا وإلى بقية الأسرى الإيرانيين، فإنهم يسعون للقضاء على العراق، يريدون فتح العراق، فالخميني يريد، بالإضافة إلى إيران، أن يكون رئيس جمهورية العراق، هؤلاء أعداؤنا، وليس أنتم أيها الأرمن».

شعرتُ أن «داوتيانس» لا يرغب بالجدال معهم، وكأنه فضل، وبسبب محبة الحارس الأرمني ولطفه، أن يبقى ساكناً، تنهّد «داوتيانس»، وقد بدا وكأن شيئاً يزعجه، وقال: «ليس للأرمن الإيرانيين ذكريات جيدة عن العراقيين، فقد قتلتم في تبريز عائلتي بانوسيان وهاروطونيان وهم نائمون، ولم يبقَ منهم أحداً على قيد الحياة»⁽¹⁾.

(1) في العام 1994م، وعندما كتبت مذكراتي، كنت لا زلت أذكر كلام الأسير الأرمني «سركيس داوتيانس»، كنت أتمنى أن أحصل على معلومات حول العائلتين الأرمنيّتين «هاروطيان» و«بانوسيان»، في تلك السنة، اتصلت بوحدة المعلومات والإحصاء في مؤسسة الشهيد في مدينة تبريز؛ كي أحصل معلومات كاملة عن هاتين العائلتين الأرمنيّتين. في تاريخ 21 كانون الثاني 1986م، قامت المقاتلات العراقية بقصف مدينة تبريز، وكان نتيجة هذا القصف استشهاد عائلة روبيك مانوك هاروطيان وزوجته جانيت بوداغيان وابنهم الوحيد بروانديك مانوك هاروطيان، وفي تلك الليلة أيضاً استشهد كل

الأحد 3 تموز 1988م - بغداد - سجن الرشيد

إنه اليوم الرابع، وضعوا الأسرى المجروحين في السجن رقم (1) والسجن رقم (3)، كنت قد رأيت بعضهم في «العمارة»⁽¹⁾. اشتدَّ التهاب جرح ساقي وبدأت تفوح منه رائحة كرائحة الجيفة، وتورم مُشط قدمي، وبدأ يسوء يوماً بعد يوم. لم نكن نعرف كم سنبقى في السجن على هذه الحال، لم يكن مصيرنا معلوماً. وهناك أيضاً ثلاثة أو أربعة من الجرحى كانوا يعانون من وضع وخيم، «حسين اسكندري»، الذي كان العراقيون يبحثون عنه، كان جسده محروقاً بشكل فظيع، وقد تقرح جلده بالكامل. هو من «اللور البختياريين»، وقد عاش وترعرع في الأهواز. يقال: إنه قائد وحدة زرع ونزع الألغام (في لواء الهندسة) في مقرّ كربلاء. كان العراقيون بسبب حروقه الشديدة، يشكّون بأمره أقلّ من غيره، كان إنساناً كتوماً، وكثير التحمّل، وصبوراً جداً. احترق حسين في «جزيرة المجنون» داخل القصب، وكان قد ركض لمسافة طويلة بين حقول القصب المشتعل بسبب القنابل الحارقة. لشدة حروقه البليغة كان يترشّح سائل بدنه على أرض الزنزانة. لم يسمح الحراس له بالتمدّد في الظل، ولم يعطوه مرهماً لمعالجة الحروق، وقد هاجمه البرغش وانتشر في أنحاء جسمه، كان ممدّداً بالقرب مني، وعندما أردت أن أبعد البرغش عنه منعني قائلاً: «أنا مديون لهذا البرغش، فلولا له لما كنت على قيد الحياة»، ثمّ أكمل: «في هذه الأرض التعيسة،

من ماطوسبانوسيان وزوجته وابنتيهما أني بانوسيان البالغة من العمر تسع سنوات وأدرينة بانوسيان وعمرها ثلاث سنوات بسبب القصف الذي نفّذه النظام العراقي البعثي.

(1) المقصود: معسكر الميمونة الكائن في العمارة. (الفصل الثالث).

لم نتلق سوى الشتائم والسباب والضرب، لكن البرغش العراقي؛ عن قصد أو عن غير قصد، يقدم لنا خدماته مجاناً.

لقد اجتمع البرغش على جسده المحروق، وعلى القروح، لدرجة أنه غطى كل جراحه، وكان يمضّ التهاب جسده وإفرازات تقرّحاته، كانت معنوياته تستحق المديح. عندما طلبت من الحراس راجياً أن يسمحوا بإدخاله إلى الزنزانة، قال حسين: «لا أَرْضَى بأن يطلب لي أحد شيئاً من العراقيين، فلن يصبح العدو يوماً صديقاً لنا، أو رؤوفاً بنا».

كان يتألم طوال الساعات التي تسطع الشمس بأشعتها على جسده المحروق، لكن قدرته الكبيرة على التحمّل، جعلته يكتّم صوته ولا يخرج من فمه، وكان فقط يتمتم بقراءة القرآن.

وحيث إنني كنت جالساً إلى جانبه، كنت أفهم جيداً ما الذي يعانيه بجسده المحروق في ذلك الحرّ اللاسع. عندما واساه الشّباب، قال لهم: «وكان الله أراد أن يضعني في هذا الحر، وبجسد محروق؛ كي يقلل من حرقى في جهنّم».

قلت له: «يا حسين! وهل من المفترض أن تذهب إلى جهنّم؟»

- إذا ما رحمني ربّي وخفّف حرارة جهنّم قليلاً، فأنا راضٍ!

بعد ظهر هذا اليوم، توجّه «العمّ حسن» إلى العراقيين، وطلب من الحرس أن يسمحوا لحسين اسكندري بالتمدّد في الظلّ، وذهب «داوتيانس» أيضاً إلى الحارس الأرمني، وتوسّل إليه؛ لينقلوا «إسكندري» إلى المستشفى، أثمرت جهود «العمّ حسن»، وباءت جهود «داوتيانس» بالفشل.

جريح آخر، كان مصاباً في (نحره)، أحضروه من السجن رقم

(1)، نسيت اسمه، وهو من شباب «لورستان»، وقد ثُقبَ حلقومه، فإذا ما أغلق أنفه وفمه، يستطيع بسهولة أن يتنفس من ثقب حلقومه، كان شاباً نحيف البنية، وصغير السن، وقد تمَّ أسره في «جزيرة مجنون الشمالية»، وقد استشهد بعد عدة أيام بسبب التهابات داخلية.

كانت الساعة حوالي الرابعة عصرًا، عندما حضر عددٌ من ضباط مخابرات الجيش إلى السجن؛ كان أعلاهم رتبة عقيداً، حسن الوجه، أسمر، نحيل البنية، مع شعر أسود غير مرتب، وقد أحضر معه ملف المعلومات العسكرية لأسرى «موقع الخندق».

نادى العقيد المترجم الإيراني الذي يتحدث العربية، وخاطب الأسرى قائلاً: «هذه المعلومات الخاصة بكم، وقد أرسلها لنا قسم مخابرات الجيش في العمارة».

أكمل العقيد كلامه، وهو يضرب بعصاه على كفِّ يده الأخرى، قائلاً: لقد قُتل أخي في هجوم ذلك اليوم في «جزيرة مجنون».

كان العراقيون يبحثون عن شباب الـ آريجي، والقناصين، الذين دمروا في ذلك اليوم أكثر من ثلاثين زورقاً عراقياً. شباب «الآريجي» في «موقع الخندق» هم: «مهدي كريمي»، «فرج الله حيدري»، «محمد صادقي فرد»، «السيد نادر السادات»، «إسماعيل صولت دار»، «علي شير قيطاسي»، و..... عندما بدأ العراقيون بجلد الشباب بالأسلاك والهراوات، وقف السيد «نادر السادات»، و«محمد صادقي فرد»، وقالوا: لا تضربوا الشباب، نحن كنّا رماة الـ «آريجي».

قال العقيد وهو يشاهد ضرب وشتم «السيد نادر» و«محمد»: «إن الذين دمروا زوارقنا، لم يكونوا ثلاثة أشخاص»، ثمَّ أكمل: «أنتم،

أيها الإيرانيون، تسعون دائماً كي تدافعوا بعضكم عن البعض الآخر، في السابق عندما كنّا نحضر الأسرى إلى هنا، وعندما كنّا نبحث عن شخص معين، كان أحد الأسرى يسلم نفسه نيابة عن القائد الذي كنّا نلاحقه، وفيما بعد، يتّضح لدينا كذب ذلك الأسير وأنّه كان يريد أن يضحّي بنفسه».

أراد العراقيّون، بالتلميح والسخرية، ومن خلال نقل الأحداث السابقة، أن يفهمونا ألاّ نضحّي لأجل قادتنا.

بأمر من العقيد، اختاروا عدداً من الشباب، ثمّ أوقفوهم اثنين اثنين وجهاً لوجه، ثم قال العقيد: «اصفعوا بعضكم بعضاً».

تفاجأ الشباب، ما الذي بإمكانهم فعله؟ فهّم أسرى، رفاق سلاح، أصدقاء، ويطلبون منهم أن يصفع أحدهم الآخر، لم يكن الشباب مستعدين للقيام بذلك؛ فالحرّاس، وبعد سنوات من العمل هنا، اكتسبوا تجارب متنوعة في إيذاء وتعذيب الأسرى، اعتقد أنّهم كانوا يريدون أن يحقد الشباب بعضهم على البعض الآخر.

اقترب «إسلام أكبر زادة»، وهو من شباب «مازندران»، وكان لعدّة أيّام مضت يأتي لعيادتي في الزنزانة، وينقلني من مكاني كلّما اقتضى الأمر، وقال للعقيد: «القرار بيدكم، ويمكنكم ضربنا متى شئتم، فنحن أسرى هنا، ولا نستطيع أن نشكي، ولكن أن نضرب بعضنا بعضاً، لا! لم يكن «خدا رضا سعيدي» مستعداً لصفع «محمد ثار اللهّي» على وجهه، كذلك «ظهراب محمّدي»، لم يكن مستعداً لصفع ذلك الأسير الذي لا أعرفه. طرح الحراس «ظهراب» على الأرض، وانهاالوا عليه ضرباً بالسلك، عندما كانوا يضربونه على ظهره، حضرت النكتة،

وكالعادة عند «السيد محمد شفاعت منش»، فقال بلهجته اللوريّة الثقيلة: ما كان عندكم ماء، ولا خبز تأكلونه في بيوتكم؛ كي تأتوا إلى هنا وتأكلوا «خبيط»⁽¹⁾.

ليلاً، أحضروا من البصرة مجموعة أسرى. لم يسمح البعثيون هناك للأسرى بقضاء حاجتهم، فكانت رائحة العفونة تتبعهم، عندما دخلوا إلى الزنزانة كانت قدرتهم على التحمل قد نفدت، قام بعضهم بقضاء حاجته في الممر، فانتشرت رائحة مزعجة جداً، داخل الزنزانات. تلك الليلة، صار الوضع في الزنزانة صعب التحمل.

تُظهر الكدمات على وجوههم ما قد عانوه، وكان كثير منهم بلا قمصان قطنية (داخلية)، وبعضهم الآخر دون سراويل. لا أعرف ما الذي حصل في البصرة، لكنني متيقن أنهم قضوا أسوأ أيامهم، هذا ما قالوه. استشهد معظم الجرحى في البصرة. حدثنا أحدهم، ويدعى «منصور»، وهو من «اللور البختياريين»، عن البصرة وما مرّ عليهم هناك قائلاً:

«لا بدّ من أن صلاة أهلكم يوماً أو صيامهم، أو عمل خير قاموا به، قد شفع لكم، فلم يحضروكم إلى البصرة!»

- «وهل البصرة أسوأ من هنا؟»

هزّ رأسه موافقاً، وقال: لقد استشهد معظم الشباب في البصرة، كان البعثيون يدوسون على الشهداء، جمعوا الجثامين في إحدى زوايا باحة المعسكر، وقد تركت الجثامين أيّاماً وليالي هناك، والجنود يأتون تَكَرَّاراً لالتقاط الصور أمامها...

(1) «خبيط»، كلمة عاميّة تعني: الضرب والركل.

الاثنين 4 تموز 1988م - بغداد - سجن الرشيد

إنه اليوم الخامس لوجودنا في سجن الرشيد، تسوء حالة قدمي يوماً بعد يوم، وقد تَجَمَّع الدم المتخثر، والالتهاب، والقريح تحت جلدي، وتورم جلد «مُشط قدمي»، وصار كالبثور (الفقايع) الكيميائية، تَجَمَّع تحت جلدي نوع من الالتهاب يشبه سائلاً أصفر اللون، عندما كانت تتخرم الفقايع تخرج السوائل منها. وفي ازدحام الزنزانة، عندما يرتطم العراقيون بقدمي عن قصد، والأسرى عن غير قصد، كانت الفقايع تنفخ كالبالونات.

جاء المحققون مرّات عديدة، واليوم، وعلى خلاف الأيام السابقة، تغيّرت نبرتهم، كانوا «يذبحون بخيط قطني»⁽¹⁾، أعتقد أنهم توصّلوا إلى أنّ استخدام هذا الأسلوب أكثر فائدة من العنف وسوء الأخلاق. بدأ العقيد، الذي كان البارحة هنا، بالكلام: «انتم ضيوف العراق، والقادة الإيرانيون ضيوفنا، إنّ بلدنا يحترمهم احتراماً خاصاً، إنّ طعامهم ووسائلهم ومخيماتهم منفصلة عن البقية، إنّ قادتهم محترمون، لهم مكانتهم الخاصة، لدينا...» والكثير من هذا الكلام.

كان يتكلّم بهدوء ولين، أنهى كلامه طالباً من القادة الإيرانيين أن يعرفوا أنفسهم ويتقدّموا إليه، إنّّه اليوم الوحيد الخالي من العنف، ولكي يجذب الأسرى الإيرانيين قام العقيد بمعاينة أحد الجنود الذي يمسك بيده «سلكاً» وطلب منه رميه بعيداً. كان عالم نفس جيّد، ثمّ قال للحارس: «عندما تكون اللغة الحسنة والاحترام غالبية، فلا مكان

(1) اصطلاح للدلالة على استعمال الحيلة والمكر المخفي للوصول إلى الهدف. (مركز نون)

للعنف، إن الإيرانيين هم أصحاب حضارة، العنف ليس أمراً جيداً، من يريد من القادة التقدم، وتعريف نفسه فليُفعل».

بعد كلام العقيد، تقدّم خمسة أو ستة من الحرس، ويبدو أنّ واحداً منهم كان قائد سرّيّة وآخر نائب قائد كتيبة. لا أعرف لماذا انخدعوا بكلام عقيد المخابرات الماكر، أخرجهم الحراس من الزنزانة، قالوا إنهم سيأخذونهم إلى مخيم خاصّ بالقادة يشرف عليه الصليب الأحمر الدولي، صدّق بعضهم هذا الكلام لدرجة أن بعضنا قد ندم لعدم ذهابه معهم.

في ما بعد، رأيت أحدهم في الزنزانة الانفراديّة، وكان وجهه المليء بالكدمات دليلاً على الاحترام الذي يكنّه العراقيّون للقادة الإيرانيين، لقد صدّق العقيد عندما قال: إنّ للقادة الإيرانيين معاملة خاصّة.

كان السيد «عليّ صالح رايمان» منزعجاً من بساطة الأسرى الذين صدّقوا هذا الكلام، وذهبوا بأنفسهم إلى الفخّ، كان يكرّر بسخط: «على القائد أن يستغلّ الفرص، أن يكون عالم نفس، ومحنّكاً، ألاّ ينخدع بسهولة، وأن يعرف أنّ العراقيّين لا يريدون الخير لنا أبداً». لشدّة ما ضربه الحراس، لم يكن السيّد «فاضل فاضليان» قادراً على الرؤية، كان معاوناً في سرّيّة القاسم بن الحسن عليه السلام التابعة لكتيبة الرسول الأعظم عليه السلام. عندما رأيته اعتقدت أن زنبوراً قد لسعه، فقد تورّمت عيناه، وملأت الكدمات وجهه، ولكي يستطيع الرؤية؛ كان يرفع جفنيه بيديه، ويفتح عينيه. لقد وشى به شخص اسمه (ك، م) ⁽¹⁾،

(1) (ك، م) نادّم حالياً. ولا مصلحة في ذكر اسمه، فقد اعترف باسم السيّد فاضل لشدة ما تعرّض له من تعذيب.

وقال للعراقيين: هو أحد القادة. ثم بدأت التحقيقات، والد «سين جيم» مع السيد فاضل، حتى أتلّفت أعصابه، فاضطر للاعتراف قائلاً: «لستُ قائداً، إنّما استلمت مسؤولية مجموعة ليوم واحد مكان المسؤول الذي كان في مأذونيّة».

استغلّ الحراس كلامه، ونقلوه إلى سجن المخابرات، وبسبب هذا الخطأ البسيط، بقي في سجن المخابرات لخمسة أشهر. وفيما بعد، عندما نقلوا شباب «موقع الخندق» إلى معسكر (مخيّم) «الرمادية 13» نقلوا السيّد فاضل إلى (معسكر) «مخيّم تكريت 16». لو لم ينطق السيد فاضل بهذا الكلام لانتقل مع شباب «موقع الخندق» إلى معسكر «الرمادية 13»، ولصار اسمه على لألحة الصليب الأحمر، ولما صار بين الأسرى الـ «مفقودي الأثر».

بعد الظهر، تغيّرت لهجة المحقّقين من جديد، لم أعرف ما الذي أغضبهم مرّة ثانية. على ما يبدو، أن أحداً من بين الخمسة أو الستة الذين ذهبوا معهم في الصباح، قد اعترف بشيء ما تحت التعذيب. أوقف الحراس الشباب صفوفاً مرصوفة، 15 إلى 20 أسيراً في كلّ صفّ، وانهالوا علينا بالأسلاك والهراوات، اختلفت أدوات الضرب والشتم، وتعدّدت هذه المرّة؛ السلك، الخرطوم (النريش)، عصيّ الخيزران والهراوات، وكان الخيزران أكثرها ألماً، إذ كان يرتدّ (كالرّسور) حين يُضرب بقوة ويلتف على الجسد وينغرز مع الجلد واللحم، كذلك السلك الكهربائي الذي أزيل الغلاف الأسود عنه فصار يؤلم بشدّة. لم يكن الحراس يفرّقون بين الأسرى المجروحين والأصحاء. انهالوا بالضرب على رأس «أحمد سعيدي» الجالس

بالقرب من المدخل، فكان مشهداً محزوناً يُدمي القلب. كل الأسرى، باستثناء «أحمد»، كانوا يضعون أيديهم على رؤوسهم؛ ليحتموا من الأسلاك والهراوات. لقد أصابت شظية في «موقع الخندق» معدة أحمد، فمزقتها، أعاد الشباب أمعاه إلى داخل معدته، ولفّوه بأقمشة إضافية؛ كي لا تخرج الأمعاء من مكانها. ولكن لا فائدة من هذا الأمر. خلع «تاج محمد علي بور» قميصه، وكذلك أخذ القميص الداخلي لـ«خدا رضا سعیدی»، وربطوا معدة أحمد، أثناء التنقل، كانت الأمعاء تخرج من مكانها، وتتلطّخ بالتراب والرمال. أثناء الضرب والشتائم اليوم، أمسك أحمد أمعاه بيديه، فلم يعد باستطاعته أن يحمي رأسه ووجهه من الهراوات والأسلاك، لذلك عندما ضربه الحراس على رأسه، غضبوا منه، وأكثروا من ضربه؛ لأنّهم اعتقدوا أنّه يتحدّاهم، ولا يغطي رأسه بيديه؛ وكأنّه يقول لهم مهما ضربتموني بالأسلاك، لا أشعر بالألم. أخذ أحد الحراس يتحدّاه، ويزيد الضربات على رأسه. عندها تدخل «خدا رضا سعیدی»، وقال للحارس: «أيها الكفّار، اتركوه وشأنه، ألا ترى وضعه؟» عندها قال «فاضل»، أحد الأسرى الإيرانيين العرب: «سيّدي، إنّ هذا الأسير لا يرفع يديه ليتّقي السلك، لأنّه يمسك أمعاه بيديه».

ضُرب «يد الله زارعي» أيضاً، مع أنّ «العمّ حسن» يراقبه، ويحميه؛ كي لا ينزل السلك على رأسه. عندما انطلق الحراس ليضربوا بقية الجرحى، كان «العمّ حسن» «ترساً» يحمي رأس «يد الله».

بعد الانتهاء من جولة الضرب والشتائم، بدأ «العمّ حسن» يفكّر جدّاً بحلّ لوضع «يد الله» لم يبق سوى حارسان أو ثلاثة، إذ خرج البقية

للتناول الطعام، كان الطقس حاراً، ومعظم الشباب لم يتناولوا الغداء لشدة عطشهم، قال «العم حسن»: «إن هؤلاء الحراس متوحشون، سيقتلون هذا الشاب يوماً ما، ثم أضاف: «لن يهدأ لي بال إلى أن ينقلوا (يد الله) إلى المستشفى، علي القيام بشيء ما». الحق مع «العم حسن»، فقد كان من الممكن أن تقتله إحدى الضربات لو أصابت رأسه. «العم حسن» رجل حنون وصاحب خبرة في الحياة، لكن إصراره ومحاولات الآخرين لنقل «يد الله» إلى المستشفى باءت بالفشل. عندما كانت يده تتشج يداً جسده بالارتجاف، ويتدخل اثنان أو ثلاثة من الشباب؛ كي يمسكوا يديه وقدميه بالقوة لتثبيتته على الأرض.

لكن «العم حسن»، بدأ يفكر بأمر آخر. ظهرت البسمة على شفثيه للمرة الأولى وهو يقول: سنحل مشكلة «يد الله» بـ «كرة بلاستيكية»! ضحكت قائلاً: «وكيف ستحل الكرة مشكلته؟»

- «سنقصها نصفين، ونضعهما على رأسه كقبعة متينة، عندها لن يصيبه مكروه إذا ما أصابه السلك، سيكون غطاءً جيداً لرأسه في هذا الحر».

حل جيد في مثل هذه الظروف، لم يخطر ببالي أبداً. ذهب «العم حسن» برفقة «فاضل» من عرب إيران؛ للتحدث مع العراقيين؛ شرحوا قضية «يد الله»، وطلبهم لـ «صباح». يعرف صباح وبقية الحراس وضع «يد الله». طلب «العم حسن» من صباح كرة بلاستيكية، ضحك «صباح» لهذا الطلب، وكي يجمعهم حوله ويضحكوا معاً؛ نادى «صباح» بقية الحراس، وعندما شرح لهم القضية ضحكوا جميعاً. انتظر «العم حسن» الجواب، قال صباح بلهجة ساخرة: «سأعطيك كرة بلاستيكية، ولكن ليس

لتحوّلها إلى قبعة بل للعب كرة القدم، مباراة بين إيران والعراق».

الثلاثاء 5 تموز 1988م - بغداد - سجن الرشيد

قبل الظهر، جاء أحد الحراس لرؤيتي، تفحص قدمي، وقال: «هل تعرف ما الذي يجب فعله بك؟» أجاب «حسين اسكندري»: «يجب نقله إلى المستشفى»، فقال الحارس: «في إحدى مناطق كركوك الجبلية، كان أخي ينقل حملاً على ظهر حمار، وقع حمارنا عن منحدر في الجبل وكسر قدمه، وقد تفتت عظام حمارنا كعظام قدمك، وبالتالي لم يعد ينفعنا، والخدمة الوحيدة التي كان يمكننا تقديمها له هو إراحته رماً برصاص رشّاش، وأنتم أيّها الجرحى الإيرانيون، والتي أصبحت أقدامكم مثل قدم حمارنا، يجب إراحتكم بإطلاق رصاصة الخلاص عليكم، لا تنزعجوا من كلامي، فهذا أفضل لكم، عذابكم سيقلّ، فحمارنا كان يتعذب قليلاً، وقد ارتاح عندما أطلقنا الرصاص عليه».

حاولت كثيراً، لكنني لم أستطع ضبط نفسي وعدم الإجابة، ولشدة ما انزعجت من كلامه، قلت له: «لا أحد يمسك بيدكم ويمنعكم، اقتلونا وأريحونا كحماركم».

كنّا داخل الزنانات ليلاً والجنود في الخارج يدبكون ويغنون. لم نعرف السبب، والشباب من الداخل يراقبون فرح العراقيين، ولكي يُظهروا لنا سبب فرحهم؛ دخلوا إلى الممرّات، قال لنا «صباح»، وهو يشير بيده إلى السماء: الطيّارات الإيرانية في الخليج العربي، بمباد. لم أفهم ما قاله، كان «صباح» مسروراً، نادى المترجم الإيراني،

وقال: «لقد استهدف الأمريكيون إحدى طياراتكم بالصواريخ». ظننتُ في البداية أنَّ الطائرات العراقية أو الأمريكية أسقطت إحدى الطائرات العسكرية الإيرانية، فتدمير طائرة حربية هو أمر طبيعي بالنسبة إليّ.

لكن مع التوضيحات التي أضافها «صباح»، فهمت أن الأمريكيين قد استهدفوا إحدى الطائرات الإيرانية المدنية⁽¹⁾ فوق مياه الخليج الفارسي. عندما سمعت هذا الخبر أحسست أن الدنيا تدور من حولي، وشعر الجميع بالإحباط لهذا الخبر. قال «صباح» فرحاً: «لقد قُتل 300 إيراني». على الرغم من الألم والصعوبات التي كنّا نواجهها، سالت دموعنا لهذه المصيبة، قال «خدا رضا سعیدی» لـ«صباح» وبقيّة الحراس: «أي نوع من البشر أنتم؟ تفرحون لمقتل 300 إنسان مدني؟»

أجابني «صباح»: «بالطبع، إنَّ موت الإيرانيين يبعث الفرح، أولاً تفرحون أنتم لموت العراقيين؟»

قال «ظهراب محمّدي»: «نحن لا نفرح لموت المدنيين منكم». ظهر الإحراج على «صباح»، الذي لم يعرف بما يجب، لكنّه استدرك قائلاً: «أكثرهم من الحرس الثوري وعسكر الخميني!». قال «إسلام أكبر زاده»: «وما الذي يريد أن يفعله عسكريو الخميني في دبي؟».

(1) استهدفت البارجة الأمريكية «فينسانس» طائرة «إيرباس» مدنيّة إيرانيّة، صاحبة الرحلة (655) وهي متوجّهة من بندر عباس إلى دبي؛ وذلك بإطلاق صاروخين عليها. كانت تحمل مئة وستة وخمسين رجلاً، وستاً وخمسين امرأة، وسبعة وخمسين طفلاً بين الثانية والثانية عشرة من العمر، وثمانية أطفال تحت السنتين. وقد استشهد ركاب الطائرة جميعاً، وقد قدّم الرئيس الأمريكي إلى «ويل روجرز» قائد هذه البارجة ميداليّة كمكافئة على عمله هذا.

وصلتنا الأخبار المفصلة لهذه الحادثة المحزنة بعد عدة أيام عبر الأسرى الذين يتكلمون باللغة العربية.

قال «العم حسن» لـ«صباح» الذي كان يخرج من الممر بين الزنانات: «إذا كنتم مسلمين بحق، فكيف تفرحون لمقتل مسلمين مثلكم على أيدي غير المسلمين؟».

الأربعاء 6 تموز 1998م - بغداد - سجن الرشيد

في ساعات الصباح الأولى، أخرجوا عددًا من الأسرى إلى الباحة، ما بين الـ10 و الـ15 أسيرًا، بينهم اثنان أو ثلاثة من الإيرانيين العرب، والذين كانوا من شباب وحدتنا، وقد وقعوا في الأسر في «موقع الخندق» أيضًا.

أرجعهم بعد الظهر وأخبرونا أنّ العراقيين قد اهتموا بهم كثيرًا؛ أكلوا حتى الشبع، طعامًا لذيذًا وجيدًا، قدّموا السجائر للمدخنين، كما أعطوا، لمن كانت ثيابه متسخة، عباءات (دشداشات) نظيفة، ولمن كانت أحذيتهم ممزقة أعطوهم «شحاطات». أحدهم كان يدعى ناجي⁽¹⁾، عندما دخل الزنانة، توجه مباشرة إلى السيد «علي رايسان»، وأشار بيده إليه قائلاً للحراس الذين كانوا يرافقونه: «هذا هو قائد الأفواج»، فهجم الحراس على «السيد علي»، وانهالوا عليه بالضرب حتى ازرق جسمه. اقترب أحد الأسرى ويدعى هادي⁽²⁾، هو

(1) كان ناجي في كتيبة الرسول الأعظم ﷺ، جنديًا وسائق قارب. يحكى أنه قد خان الشباب كثيرًا في السجن. عندما تحرر الأسرى في العام 1990، انضم إلى منظمة «مناقصي خلق»، وبقي في العراق.

(2) كان هادي أحد المجندين في كتيبة الرسول الأعظم ﷺ، وهو من قرية «خلف آباد» في الأهواز. بعد تحرير الأسرى، جاء مع عائلته لزيارة السيد، وطلب المسامحة منه. وقد سامحه السيد على الرغم من الحقد والقسوة التي عامله بها في السجن.

من الإيرانيين العرب، كان أيضاً في كتيبة الرسول الأعظم ﷺ، قائلاً لأحد الحراس: «سَيِّدي، إذا كنتم لا تعرفون الضرب جيداً فدعوني أقوم بهذا الأمر»، لا أعرف كيف طاوعته نفسه أن يضرب «السيد علي» - الذي فقد إحدى يديه - بهذه الطريقة المتوحشة والقاسية، عندما كان السلك يقع على يد السيد المقطوعة، كان كبدي يحترق عليه.

بعد ظهر ذلك اليوم، وحتى يخفّف من حزننا عليه، قال «السيد علي»: «لقد ضربني الحراس بطريقة غير جيّدة، أما هادي فقد أجاد ضربني. وبالفعل كانت آثار ضرب هادي ما زالت واضحة على جسد السيد علي. لم أستطع أن أقنع نفسي، كيف يمكن أن يضرب أسيرٌ إيرانيٌّ قائده الطريقة القاسية، مقابل بعض الطعام والماء وبضع سجائر».

أخذ الحراسُ «السيد علي»، الذي استطاع التملّص منهم حتى ذلك اليوم ونفذ بجلده. بعد الظهر، حقّق رجال المخابرات معه في سجن المخابرات، لأكثر من ساعتين. كان «السيد» رجلاً ذكياً ومحنّكاً، فقد نجا من قبضة المحقّقين في «الميمونة»⁽¹⁾، كما أنّ جدّه ساعده خلال

(1) لم يستطع المحقّقون أن يثبتوا أن «السيد علي» من القادة، فواجهوه مع ناجي، الذي لم يستطع أيضاً أن يثبت هذا الأمر. فقالوا للسيد: «لا شيء بيننا وبينك، فمن وشى بك هو ابن وطنك. حيث استطاع السيد أن يقنعهم أنّه جنديّ بسيط في لواء «فتح 48» كما حصل في تحقيق «الميمونة»، فصدّق المحقّقون أنّ ناجي يكذب عليهم؛ أحضروه ومدّوه على الأرض وانهالوا عليه بالضرب. كانوا يعتقدون أنه كاذب. قال «السيد»: لقد ضربوه بطريقة رقّ قلبي لحاله. لكنني كنت أقول في نفسي: ناجي! لا يجب أن تشي بابن بلدك، هذا عقاب الخائن والوضع. سأل المحقّقون السيد عن يده المقطوعة فأجابهم: «وقعت عن الحصان»، فسألوه: «لماذا لم تعالجها؟» أجابهم السيد: «إنّ منطقتنا هي منطقة عشائر جبلية، لا طريق يمكن للسيارات المرور عليها، وكنا نبعد عن المدينة كثيراً، وبسبب عدم وجود الدواء والطبيب، قطع طبيب منطقتنا المبتدئ يدي».

هذا التحقيق أيضًا، لم أكن أتوقع أبدًا أن يخرج السيّد حيًّا من زنزانته الانفراديّة في سجن المخبرات.

الخميس 7 تموز 1988م - بغداد - سجن الرشيد

كان جلدي يسودّ يومًا بعد يوم، وتعمّنت قدمي بسبب الالتهابات الشديدة، وظهر الدّود على جراحي. اسودّت قدمي بسبب عدم وجود الدواء، إهمال العراقيين، الظروف غير الصحيّة في السجن، والأهم عدم نقلي إلى المستشفى. لقد أدّت الالتهابات الشديدة إلى تكاثر الديدان على جراحي، وبدأت تنتشر على كلّ جلدي، وتسلبني راحتي. كانت تنتقل ليل نهار على وجهي ورأسي أيضًا، وكانت تسلبني النوم ليلاً، ولكي لا تدخل إلى أذني، وضعت عليهما قماشة تغطّيهما.

شيئًا فشيئًا بدأت أفقد الإحساس بقدمي، كنت أعرف أنّ قدمي قد انتهت أمرها. لا يقتلوننا، ولا ينقلوننا إلى المستشفى. أعتقد أنّ العراقيين يريدون ترك الأسرى هنا، إلى أن يموتوا. لقد توفي إلى الآن نحو عشرين أسيرًا. بدأت أتعبّ من نفسي أيضًا. حاولت أن أبتعد عن الجميع خلال وجودنا في الباحة الخارجيّة، شعرت أنّه لم يعد باستطاعتهم تحمّل وضعي، كنت أريد أن أبقى بعيدًا عن عيون الآخرين؛ كي لا تؤذيهم رائحتي النتنة. لشدة انبعاث الرائحة من جسدي، لم يعد يرغب إلا القلّة بمساعدتي، حتّى الحرّاس ورجال الشرطة العسكريّة كانوا ينزعجون عندما يرونني. كنت أرى هذا الأمر في نظراتهم، فكانوا يمسون أنوفهم بأيديهم، ويشيحون وجوههم عني.

بعد ظهر هذا اليوم، حضر إلى السجن عددٌ من المصوّرين والصحفيّين، يرافقهم ضابطٌ عراقي. يرتدي الصحفي بذلة خاصة بالصحفيّين، يظهر على «ميكروفونه» شعار التلفزيون العراقي، كان الصحفي شاباً أسمر، بدأ بالمقابلات مباشرة أمام المدخل الرئيسي. كان الجرحى متّكئين على الحائط، بدأ الشباب يجيبون على أسئلة الصحفي العراقي الذي يرافقه مترجمٌ إيراني، كانت معظم الأسئلة تتعلّق بمعلومات شخصيّة حول كلّ منّا: الاسم، اسم الكتيبة التي نخدم فيها، ومكان الأسر. أما السؤال الأخير فكان: هل لديكم رسالة توجهونها إلى عائلاتكم؟

سررتُ؛ لأنّه على الرّغم من المشاكل التي أعانيها والصعوبات والآلام، سنحت لي الفرصة؛ كي أطمئن أهلي أنّني بخير. جاء دور «السّيّد محمّد شفاعت منش»، بعد تعريفه بنفسه، قال: «أرجو من والدي «علي مردان» أن يقوم بواجبه على أحسن حال، أن يهتمّ بالخراف، ساعياً بجِدٍّ ليكون راعياً جيّداً؛ أن ينتبه للقطيع جيّداً وليعلم أنّ أي تقصير في أداء واجبه أمر غير مقبول⁽¹⁾.

بعد «السّيّد محمّد»، جاء دور «نصر الله غلامي» ابن مدينة «بوشهر»، كان يتكلّم باللغة الفصحى، بعد ذكر اسمه وكافّة التفاصيل الخاصّة به، قال: «أرسل سلامي إلى والدي روح الله، لقد اشتقت إليك، أسأل الله أن يحفظك فوق رؤوسنا، في النهاية، أتوجّه إلى

(1) قصد السّيّد محمد بكلامه، قائد كتيبة الإمام علي عليه السلام علي مردان روستاد، حيث كان السّيّد محمد قائداً لمجموعة في تلك الكتيبة، التي كانت تحارب في موقع بيت اللّهي. أراد السّيّد محمّد أن يقول: يا علي مردان! انتبه للقوّات التي تتراأسها، وقم بتكليفك على أحسن وجه. أمّا الخراف فقد عنى بها الشباب الذين هم تحت إمرته.

أهل مدينتي «بوشهر»، وأقول لهم: نسعى لأن يفخر بنا قائدنا «علي دلواري»، معنوياتنا مرتفعة، رسالتي الأخرى هي: أحوالنا جيّدة ولا تقلقوا علينا.

إنّ الجملة الأولى التي قالها «نصر الله» واضحة، فطيلة فترة الأسر، ولكثرة ما استعمل الأسرى كلمة «روح الله»، صار الكثير من العراقيين يدركون أنّنا نقصد الإمام الخميني قدس سرّه. بالطبع كان قسم الحذف في المخابرات العراقية يحول دون بثّ هذه المقابلات. ضحك المترجم الإيراني الذي كان برفقة الصحفي، فهم أن «نصر الله» قصد الإمام بكلامه، فشرح للصحفي الموضوع، عندها انهال الحراس عليه ضرباً بالأسلاك.

جاء دوري، جلس الصحفي مقابلي، جهّزت نفسي للكلام، لكنّ المسؤول عن السجن لم يسمح لي وللجرحى الآخرين ذوي الحالات الصعبة بالكلام، ودار حوار بينه وبين الصحفي، فهمت بعض ما كانوا يقولونه، وعرفت لماذا لا يريدنا أن نجري المقابلة. بعد أن رحل الصحفي والضابط والحراس، أوضح لي «فاضل» القضية، فقال: «إنّ الصحفي كان يريد أن يجري معكم مقابلة، لكن الضابط لم يوافقه الرأي».

- «وهل عرفت السبب؟»

- قال الضابط: «وضعهم سيئ، وقد قُتل بعضهم هنا منذ عدّة أيّام، وبقاؤهم على قيد الحياة أمرٌ غير معلوم. لا تتحدّث معهم فقد يموتون، وسيشوّش ذلك على علاقتنا بالصليب الأحمر».

الجمعة 8 تموز 1988م - بغداد - سجن الرشيد

إنَّه ظهر يوم الجمعة، الطقس حارًّا جدًّا، والبخار يتصاعد من الأسفلت، كانت الأرض الأسمنتية حارقة لدرجة «شَوْت» جلودنا، لم أستطع الجلوس، فقد انسلخت جلودنا لشدة حرارة الأرض. اليوم، وكالأيام السابقة، علينا الجلوس لساعات في الباحة الخارجية تحت أشعة الشمس. خاطب الحارس العراقي، الذي ينادونه «خميس»، أحد الأسرى الذي طلب منه الماء قائلاً: «أشتم الخميني لأعطيك الماء». اقترب خميس من الأسير، وبلهجة ساخرة قال له: «هل انزعجت؟ لا تنزعج، فليأت الخميني ويعطيك الماء».

لم أكن أعرف اسم هذا الأسير، سكت ولم يجبه، ثم أكمل خميس، -ويبدو من تصرُّفاته أنَّه شخصٌ معقّد.. وهو يرفع يديه إلى السماء قائلاً: عليكم بالدعاء، ادعوا...

قصده واضح، فهو يعرف أن الإيرانيين يؤمنون إيماناً قوياً بالدعاء، والتوجُّه إلى الله، وأهل البيت (عليهم السلام)، فأراد السخرية منهم بحركته هذه. غاب اثنان أو ثلاثة من الشباب عن الوعي من شدة العطش، ولم تصل محاولات كلٍّ من «محمد كاظم كريميان» و«محمد صادقي فرد» للحصول على الماء إلى نتيجة، وقد أغضب إصرار «محمد كاظم» الحارس العراقي «خميس» وإلحاحه عليه، فانهال عليه ضرباً بالسلك الكهربائي.

بعد نصف ساعة، توجَّه «صباح» وبيده إبريق ماء، نحو صنبور الماء، ملأه، وأثناء عودته إلى غرفة الحراسة، قفز «محمد كاظم» نحوه، خطف الإبريق من يده، وأسرع تجاه الجرحى، أراد أن يوصل

الماء إليهم بأيّ طريقة، دون التفكير بعواقب هذا الأمر. نادى صباح، وهو يعرف أنّه لن يستطيع التغلّب على «محمّد كاظم»، ثلاثة حراس لمساعدته، فأمسكوه وانهاّلوا عليه ضرباً، ركض «محمد صادقي فرد» نحوه وهو يقول بأعلى صوته: «يا قتلة العباس، يا أبناء الشمر، الماء عطية الله، وأنتم تمنعونه عن الجرحى؟». لفّوا خرطوم الماء حول رقبة «صادقي فرد» وجروّوه، كانوا يجروّونه بطريقة عنيفة، ويسحبونه بالخرطوم حتّى ظننت للحظة أنّه سيختنق. دون شك، لو لم يكن «صادقي فرد» شخصاً قوياً وصلباً لضُفّ أمام الحراس الثلاثة واختنق، لكنّه وضع يده بين الخرطوم ورقبته؛ كي يقوّى على التنفّس، ازداد غضب الحراس لعدم قدرتهم على إخضاعه.

امتنالاً لأمر رئيس الحراس، اضطر «المحمّدان» أن يتمدّدا على الأرض الحارقة بعد خلع قمصانهما، وانهاّل الحراس عليهما ضرباً دون شفقة، كان المشهد مؤلماً، لكنّ شهادتهما ورجولتهما كانتا تبعثان على الفخر.

ارتفع صوت «العمّ حسن»، الذي لا يعرف الخوف وهو دائم الذكر. كان الحراس يهينون «محمّد» بنعته بالمجوسيّ، عابد النار، وكافر. مما دفع «العمّ حسن» إلى الوقوف حيث لم يستطع التحمّل وشرع بالكلام. حاول «صباح» أن يجلسه مكانه، لكن رئيس الحراس صاح به قائلاً: «خليه يوّلي» (اتركه).

سمحوا له بالكلام فقال متوجّهاً للحراس ورئيسهم: لقد أهنتمونا ما أمكنكم ذلك، قلتم مجوساً، عبّاد نار، كفّاراً، نحن لسنا كفّاراً، ولا عبّاد نار... نحن أتباع سيدنا الإمام الحسين عليه السلام. ألا تفكّرون

لَمْ هُوَلاء الشباب يتحمّلون إهاناتكم وأذاكم ولا يضعفون أو يشكون؟ لأنّهم يتوسّلون بأهل البيت عليه السلام. أنتم تتعنوننا بالكفّار والملحدين. ولكن هل تعتقدون أنّ كافراً يمكن أن يحبّ أهل البيت عليه السلام إلى هذا الحد؟ إنّ رمز نداء عمليّاتنا هو أسماء الأئمة عليه السلام. إنّ شبابنا يرمون قلاذاتهم⁽¹⁾ في الصحراء تأسياً بسيدتنا الزهراء؛ لأنّ لا قبر لها، ويريدون أن يكونوا مثلها مجهولين ودون قبر. أولئك الذين شاركوا في العام 1982 في عمليّات «مسلم بن عقيل»، لم يشربوا قطرة ماء؛ لأنّ نداء [رمز] العمليّة كان يومها «يا أبا الفضل العباس». ولأنّ أبا الفضل العباس قد استشهد قرب نهر الفرات عطشاً كانوا يردّدون، «نريد أن نستشهد عطاشى». لقد قتل أبأؤكم أبا الفضل العباس وحرّموه من الماء، وأنتم اليوم مثلهم. كم من الجرحى قد استشهدوا في الأيام القليلة الماضية؟! وقد تقتلونني أيضاً بسبب كلامي، لكنني عشت بما فيه الكفاية فلا يهمني.... تقولون أنّنا كفّار وملحدون، أتمنّى أن أعرف، وهل أعمالنا تشبه أعمال الكفّار، أو ما تقومون به أنتم؟. انتفض قلبي وانتعش لسماع «العمّ حسن»، وكنت أتوسّل إلى الله؛ كي لا يؤذونه بسبب كلامه هذا.

كنت مندهشاً ومنجذباً لهذا الكلام الثوريّ. ترجم «فاضل» ما قاله «العمّ حسن» للعراقيين. كم تعجّبت لعدم ضربهم أو تعذيبهم له. فاعتقدت أنّ الأمر يرجع إلى كونه الأكبر سنّاً بيننا. لكنّ القضية لم تكن كذلك، فعندما دخلنا الزنزانة بعد الغروب،

(1) يقال لها بالفارسي: «بلاك»، وهي قلاذات معدنيّة ذات أرقام تسلسليّة، تُعطى لكلّ جنديّ في المعركة ليسوّى التعرّف عليه من خلال رقمها لو قُفِد أثناء الحرب. (مركز نون)

اقترب «فاضل» من «العم حسن» وقال له: «يا والدي! ألا تهملك حياتك؟ إذا استمررت بهذا الكلام فستؤدي نفسك وتؤدي الآخرين». أجابه «العم حسن»: «أنا أقول الحق».

أكمل فاضل قائلاً: «وأفقد الرأي، لكن لا أحد يستوعب كلام الحق هنا، فلو لم أغير كلامك اليوم، لانتهى أمرك ولتقتلوك». عندما عرف «العم حسن» أن فاضل قد غير كلامه أثناء الترجمة، غضب كثيراً وحزن لهذا الأمر. أتفهم انزعاج «العم حسن» من الموضوع وأعطيته الحق. وقصد فاضل حماية «العم حسن». لكن الأخير الذي كان يتمنى لو انتقل كلامه بكلمة إلى العراقيين، قال لـ«فاضل»: «لقد خنت، ولم تكن أميناً، لن أسامحك».

أجاب فاضل: «يا والدي العزيز، لا يجب أن تنزعج مني، لقد غيرت فقط جملتين أو ثلاث: عندما قلت، أعمالنا تشبه أعمال الكفار، أو ما تقومون به أنتم، والجملة التي قلت لهم فيها «إن آباءكم قتلوا أبا الفضل العباس عطشاناً»، هذا فقط!».

السبت 9 تموز 1988م - بغداد - سجن الرشيد

كانت حالة أحد الأسرى الخمسة الذين أحضروهم من الزنزانة رقم (1) في سجن الرشيد صعبة جداً، فقد مزقت إحدى الشظايا معدته وأمعاءه، تماماً مثل «أحمد سعيدي». كما أصيب صدره ورأسه أيضاً. لهجته مازندرانية، ويناhez عمره الخمسة والأربعين عاماً، من شباب «فرقة كربلاء 25»، شعره فاتح اللون أشقر. كلما رأته ذكرني بأخي «قدرت الله»، يرتدي بنطالاً كوريّاً، وقد مزق العراقيون قميصه

الذي يُظهر أنه من الحرس الشوريّ، وقد انتزع العراقيّون جزءاً من شعره ولحيته بالكُمّاشة. كانت لحيته طويلة وجميّلة. على الرّغم من جراحاته، كان العراقيّون يحاولون إهانته والسخرية منه. كان «صباح» يدير يده فوق رأسه سائلاً إياه: «أين عماّمتك؟»، فبعض الحراس كانوا يعتقدون أنّه عالمٌ دين، وأنا أيضاً ظننت ذلك. هو رجل هادئ ورصين، وكان عندما يتكلّم يغيّظ العراقيّين بشدّة. هو من شباب الحرس، لم يكن.. وتحت أيّة ظروف.. مستعدّاً لإنكار هذا الأمر.

سأله معاون السجن وهو ملازم أول: «أنت حرس الخميني؟» فأجابه: «نعم أنا حرس الخميني».

أكمل الملازم كلامه وكان «فاضل» يترجم ما يقوله: «وهل ما زلت متمسّكاً بالخمينيّ وأنت على هذه الحال؟».

أجاب: «كلّ واحد منّا يحبّ قائده، وهل ستقول لي أنّك لا تحبّ صدام، إن الأسر لا يغيّر العقيدة، بل يقوّيها».

قال الملازم وكان يقضي أوقات فراغه مناقشاً الأسرى محاولاً التعرّف عليهم أكثر: «إنّك نادمٌ، أنا على يقين من ذلك».

فأجابه الأسير: «لم يكن أسر السيّدة زينب عليها السلام أقلّ من الشهادة، وأنا لست نادماً على الإطلاق، إنّ هذه الظروف هي أمورٌ عاديّة في الحرب، وقد تحصل».

كان الطقس حارّاً جدّاً. بدأ الحراس يقومون بالاستعدادات لقدم الضباط من ذوي الرتب العليا إلى السجن. عادةً ما يزور السجن يومياً ضابط أو ضابطان في الأيام الخمسة الأولى بهدف جمع وتسجيل المعلومات الشخصية والعسكريّة عن الأسرى، وفي الأيام التالية لأجل

البحث عن القادة الذين لم يتم التعرف عليهم بعد.
أخبر الملازم الأول الأسرى عن زيارة أحد الضباط من وزارة الدفاع إلى السجن. ووجه كلامه إلى الأسير الذي كان يتكلم عن رحلة السيِّدة زينب في الأسر، قائلاً له: «إذا أردت أن يأمرنا بالاهتمام بك، لا تتشاطر أثناء حضوره وتسعى لإظهار شجاعتك، بل عبّر عن ندمك أمامه، وقل له أنك نادم، فيشفق عليك ويأمر بنقلك إلى المستشفى».

وتوجه الملازم بالكلام إلى بقيّة الجرحى الجالسين والمستندين إلى الجدار، قائلاً: «أنا أخاطبكم، من يُظهر الندم، سيُنقل إلى المستشفى».

كان يكذب. حتّى لو أعلنّا ندمنا فلن ينقلونا إلى المستشفى، بل هدف الملازم إذلال الأسرى أمام الضابط؛ لأنّه سيفرح برؤية الأسرى يُعلنون ندمهم. أكمل الملازم قائلاً:

«في الشهر الماضي، عندما زار هذا الضابط السجن، قام أسيران إيرانيّان بالتعبير عن ندمهما؛ حيث قبّل أحدهما صورة صدام أمام الجميع، فأمر الضابط بنقله إلى المستشفى». عندما قال هذا الكلام تيقّنت أنّه يكذب، فمن الصعب تصديق أن أحد الأسرى الإيرانيّين يقبّل صورة صدام وذلك أمام الجميع.

قال له الجريح المازندرانيّ وهو يحني رأسه بوجهه المرهق: «تريدون إذلالنا، وأن نعرب عن ندمنا، وأن نقبّل صورة صدام، فهذا أمر مستحيل! إنّنا ملتزمون ببعض المبادئ التي.. وإن متنا لأجلها، لن نتراجع عنها، ولن نعلن ندمنا عن تمسّكنا بها، ومن يعتقد أنّه

بندمه وتقبيل صورة صدام سيجعلكم تشفقون عليه، لهو مخطئ جداً».

حاول الجريح الإيراني، وبكلامه هذا، أن يفهمنا أنه لن يقوم بهذا العمل، وأنه علينا التنبيه وعدم الوقوع في الخطأ وألا نلعب بماء وجه بلادنا وشهامتها.

بعد نصف ساعة، دخل ذلك الضابط السجن، كان رجلاً قويّ البنية، غائر العينين، وأصلع الرأس، يضع نظارات، ويرتدي بذلة عسكريّة مرقّطة بكمّين قصيرين، مناسبة لبنيته تماماً. يبدو عليه أنه في الخمسينات من عمره. ما إن دخل إلى الباحة حتّى ألقى نظرة سريعة على الأسرى وخاصّة المجروحين منهم. عندما وصل إلى الجرحى، توقّف وراح يتأملنا. سأل الجرحى أسئلة متنوّعة. لفتت لحية الأسير المازندرانيّ نظره. فوقف أمامه وسأله: «أنت حارس الخميني؟» أجابه: «نعم أنا حارس الخميني».

ثم سأله: «وهل أنت معمم (طالب علوم دينيّة)؟» أجابه: «لا أنا في الحرس الثوري».

نقل الملازم للعقيد أنّ هذا الأسير يعترف علناً أنه ما زال يحبّ الخميني، وأنّ الأسر ليس أقلّ من الشهادة، ورسالة هؤلاء الأسرى هي كرسالة زينب في الأسر. قال العقيد، الذي حاول بلهجة ساخرة واستفزازية أن يوضح للأسير أنّ الإمام الخميني هو المسبّب الأول لكلّ الشدائد والتعذيب الذي يتلقاه الأسرى: «وما الذي تريدون إيصاله لنا هنا في العراق؟ أين الخميني الآن ليأتي لمساعدتكم، ما الذي ستفعلونه وأنتم على هذه الحال؟ ما الذي ستفعله بجراح

معدتك وأمعائك، هل سيأتي الخميني لمساعدتك؟».

أمّا الجريح الإيراني الذي لا رَمَقَ فيه، شدَّ على شفاهه اليابسة العطشى، ابتلع ماء فمه الجاف بالقوَّة، وأجاب العقيد: «لقد عملتُ في الجبهة في التثقيف العقائدي للحرس، وكنتُ أدرِّس الشباب نهج البلاغة، فقط أستطيع أن أجيبك بهذا الشعر من نهج البلاغة. يقول الإمام عليّ عليه السلام (1):

فإن تسأليني كيف أنت؟ فإنني
صبورٌ على ريب الزمان صليب
يعزُّ عليّ أن تُرى بي كآبة
فيشمت عادٍ (2) أو يُساء حبيبٌ.

لم يكن هناك حاجة لترجمة هذا الشعر. وقف العقيد مصدومًا مبهوتين أمام هذا الجواب وهو ينظر للأسير المازندراني. بدا من منظره أنه لم يكن يتوقَّع جوابًا بهذا الجمال. أحسست به كالبالون الذي انخرم فجأة وفرغ من هوائه. لم يضربوا الأسير، ولم يتكلَّم العقيد بعدها مع أيِّ أسير.

كان الأسير المازندراني وفي هذا الحرِّ اللاسع، يتلو القرآن. في اليوم التالي، وعند الغروب صمت صوته للأبد واستشهد. لقد كان من المتزكِّين والمتكاملين في مدرسة الإمام عليّ عليه السلام، ومن حرس

(1) من الكلمة «36» في نهج البلاغة: من كلمة له إلى عقيل بن أبي طالب. لقد أخرج كلامه الألم من جسدي للحظات. في ذلك الزمن لم يبق في ذهني إلا الكلمات الأربعة الأولى للبيت الأول: «فإن تسأليني كيف أنت» ونسيت ما بقي. لكن عندما تحرَّرت، ولكي أجد الشعر، قرأت للمرة الأولى نهج البلاغة بشكل كامل إلى أن وجدت هذا الشعر العربي. عندما وجدت الشعر تداعت إلى ذهني ذكريات ذلك اليوم. ففهمت مدى أنسه بنهج البلاغة.

(2) عادٍ: عدوٌّ.

الإمام الأوفياء. ستبقى جدران وأبواب سجن الرشيد شاهدة على ذكاء هذا الأسير وشهامته وقدرته على تشخيص العدو دائماً. كان القرآن ونهج البلاغة يجريان في شرايينه ودمه.

الأحد 10 تموز 1988م - بغداد - سجن الرشيد

كنت أعيش في أسوأ ظروف ممكنة، تَوَزَّمت قدمي بشكل فظيع، تمَّيَّت الموت فأرتاح من هذا الوضع، وقد فقدت الإحساس بقدمي، كان اسوداد جسدي والتهابه يزدادان يوماً بعد يوم. مضت أيام على انضمام حارس جديد إلى جمع الحراس، كان «صباح» يناديه «عُبيد». و«عُبيد» هذا كان حقوداً على الأسرى؛ فقد قال للسَّيِّد «محمَّد شفاعت منش» الذي يعاني من كسر في قدمه ولا جراح ظاهرة على جسده: «أنت لا تعاني من شيء، هيا قم وامش»، قلت له: «لقد سَحَقَتْ إحدى رصاصاتكم عظام رجله من أعلى الركبة». لكنَّه لم يقتنع. لم يكن يَسمح للأسرى السالمين الاهتمام بالجرحى؛ إذ كان لديه نظرية مفادها أنَّ الجرحى قد قاوموا وقاتلوا أكثر ممن بقي سليماً، وبالتالي قتلوا عدداً أكبر من العراقيين.

اليوم قام «عُبيد» بفصل «العم حسن» عن الجرحى، ووَضَعَهُ مع الأسرى السالمين.

منذ الليلة السابقة تزايدت الديدان في جسمي، فقد انتشرت على جسدي وكلِّ لباسي. كأنَّما مشط قدمي قد مات، وقد بدأت الديدان تظهر في جروح قدمي اليسرى أيضاً. كنت متعباً منهكاً. لم أستطع النَّوم في الليلة السابقة. ما إنَّ أغمض عيني، حتَّى توقظني الديدان

التي تنتقل على جسدي ووجهي، وتحاول الدخول إلى أذني. كنت أضغط على أذني الخارجية باتجاه الداخل؛ كي أسحقها وأقضي عليها. فصارت هذه الديدان مصيبة حياتي، كانت صفراء اللون وصغيرة، وتموت لمجرد الضغط عليها، تشبه ديدان الأرض، ولكي أمنعها من الدخول ليلاً إلى أذني وأنفي وفمي؛ كنت أسدّ هذه الأماكن بقماش. ظهر اليوم، طلبتُ من «عليّ شير قيطاسي»، الذي كان في الحرس ومن ضيعتي، أن يساعدي. لقد أسِرَ أيضاً في «موقع الخندق». معظم الأحيان لم يكن يتركني في الظروف الصعبة. عندما كان العراقيون يدخلون علينا بالهراوات والأسلاك، ينادي أسيراً آخر ليحمياني معاً من الضربات. ذلك اليوم، كان «عليّ» بمثابة أخ رؤوف بي. كان طيباً، فعلى الرغم من رائحة قدمي الكريهة والمزعجة، تصرّف معي بحبّة وتعاطف. عندما اقترب منّي قلت له: «يا عليّ شير، والله لا قدرة لي على التحمّل ذرة أخرى».

لأنّني شعرت بالضعف، أردت البكاء من كلّ قلبي. أزاح «عليّ شير» الديدان عن جسدي ووجهي، وصار يسحقها على الأرض. انزعج العريف «عبيد» لرؤيته «عليّ شير» يساعدي، فقال قاصداً الإهانة والإذلال: «لقد ظهرت الديدان في جراحك وأصبحت رائحتك كالعفن».

لم أكن أتوقع كلاماً أفضل من هذا، إنّه عدوّ، وحاقد. قلتُ له: لا بهم، يُقال: إنّ النّبِيَّ أيوبَ (عليه السلام) أيضاً ظهر على جسمه الدود، ومن نحن أمام النّبِيَّ أيوب، لا نرقى إلى التراب تحت قدميه!

أمّا «حسين اسكندري» الذي شهد كلامي مع العريف «عبيد»،

قال لي: «يا سيّد! انتبه. إنهم كالشيطان، الذي كان يلوم النّبّي أيّوب عليه السلام ليزرع الشك والترّد فيه. يريدون بلومهم هذا، أن يضعفوا إرادتك، انتبه جيّدًا، لا تضيّع أجرك أبدًا، كن ثابتًا، لا تسمح للترّد بالوصول إلى قلبك، تأكّد أنّ الله يحبُّك ليبتليك هذا البلاء، لا تنخدع بكلامهم، فتشعر في باطنك بالندم».

لقد أراحني كلام «حسين اسكندري»، الذي كانت حالته سيّئة جدًّا، بجسده المحروق والفقاعات الظاهرة عليه. لم يكن أقلّ المأْمَنِي. أكمل «عبيد» الذي لم يفهم ما قاله حسين اسكندري، فقال: «أنتم، أيها الشباب، لماذا جئتم إلى الجبهة لتلقون هذا المصير؟»

- جئنا في سبيل الله ولأجل بلدنا.

- جئتم في سبيل الله لتقتلوا العراقيّين؟ وهل طلب منكم الله قتل

العراقيّين.

لقد سئمت من «عبيد»، لم أكن أميل للجدال مع هذا الإنسان اللجوج، العاطل عن العمل، والحاقد. كم تمنّيت لو يتركني ويبتعد. لكنني لم أُرِد وبسبب سأمي من الكلام معه، أن أوافق الرأي على أمل تركي والابتعاد عني. عندما كرّر سؤاله أجبته: «إنّ الله لم يقل لنا أن نقتلكم، لكنّه قال لكم: اقتلونا».

كان هذا أفضل جواب قد يقوله شاب في مثل عمري لعلّه يتركني وشأني، ويكف شرّه عني. ولكي يغيظني أكثر فأكثر قال لي، وبكل برودة أعصاب: «نعم، لقد طلب الله منّا نحن العراقيّين أن نقتلكم».

كنت عطشانًا. لم يكن وضعي جيّدًا. ولم يبق لي في ذلك الحرّ أيّ رفق؛ كي أتكلّم كلمة واحدة. ولشدة «ضربات الشمس» التي لحقت

بي، لم أعد أحتمل نفسي، فكيف بتحمّل رجل كـ«عبيد». مهما حاولت يومها منع نفسي من الإجابة، لم أستطع. ولكي أخفف غيظي وأزيد انزعاجاً، قلت له: «قال الله لنا نحن الإيرانيين، اقتلوا من يريد أخذ خوزستان بالقوّة».

مع أنّ العريف «عبيد» قد ركلني بقوّة على صدري، لكنني أحسست بالراحة من حمل ثقيل. لم يكن «عبيد»، وهو رجل حقود، ليتراجع. مع أن «صباح» كان يناديه لتناول الطعام لكنّه لم يذهب، وكأنّه ما زال لديه الكثير من الكلام ليقوله. قال «علي شير» له: «ألا ترى وضع هذا الجريح، لماذا لا تتركه وشأنه؟ أليس من الأفضل أن تعالجوا قدمه، بدل الجدل معه؟ فالله ورسوله يوصيان أن تعالجوا أسيركم، لا أن تزيدوا من عذابه!»

قال «عبيد» لـ«علي شير»: «هل تريدني أن أطلب معالجة قدمه؟» أجابه علي شير: «نكون لك من الشاكرين، فنحن نعالج أسراكم كما نعالج مجروحينا، لا فرق بينهما».

كنت متيقّناً أن عبيد يخدع «علي شير»، فقد صدّق ما قاله عبيد. فقال عندها: هيا قف، وابدأ بالركل والدوس. تفاجأ «علي شير» بكلامه، فاعتقد للحظة أنّه يمزح معه، تعجبت لهذا الطلب، لكنّه أعادها مرّة ثانية، فسأله «علي شير»: «أنت تمزح، أليس كذلك؟»

لكن العريف عبيد، وكان فاضل يترجم لنا كلامه، قال: «أنا جاد في ما أقول، نحن لا نمزح مع أعدائنا».

فأجاب علي شير: «لن أقوم بهذا العمل».

غضب عُبِيد، وكان يريد بالفعل أن ينفذ «علي شير» طلبه، فقال: «عليك التنفيذ؛ لأنني أنا مَنْ أَمَرَكَ».

أجابه علي شير: «وهل كل ما تقولونه صائب؟ ماذا دهاكم؟» استشاط عبيد غضبًا، ويظهر أنه غير متوازن من الناحية النفسية.. وانهاه عليه ضربًا. فقد حُكِمَ بخمسين جلدة؛ لأنه رفض ركل قدمي والدوس عليها. مدّده «عبيد» تحت تلك الشمس الحارقة على الأسفلت اللاسع وبصدر عارٍ، وانهاه عليه ضربًا. في الليل، عاتبته بمحبة: لو أنك ركلت قدمي، فأنا لا أشعر بها منذ مدة. احتضنني والدمع في عينيه، وقال وهو يمسخ على رأسي ويقبل جبهتي: «ما فعلناها يا سيّد».

الاثنين 11 تموز 1988م - بغداد - سجن الرشيد

عند ظهيرة هذا اليوم، وبسبب رائحة قدمي الكريهة، أخرجوني إلى باحة السجن، فالتكأت على حائطٍ أَجْرِيٍّ⁽¹⁾، بالقرب من شجرة صنوبر، كان وضعي بالنسبة إلى الحراس العراقيين غير قابل للتحمّل، وكذلك بالنسبة للأسرى الإيرانيين. لم يسمح العراقيون «للعَمِّ حسن» ولـ«علي شير قيطاسي» بالاهتمام بي. باءت كل محاولات الشباب الحثيثة لإرسال الجرحى إلى المستشفى بالفشل. وقد استشهد الكثير من الجرحى.

عندما كان الجنود العراقيون يتنقلون في الممرّات الضيقة للسجن، فيقتربون منّي، يتوقفون قليلاً، ينظرون إليّ ثم يكملون طريقهم.

(1) الأجر مفرداً أَجْرَةٌ وهي الطين الذي يبني به.

ويضطر بعضهم لإغلاق أنوفهم لتفادي رائحة قدمي. شخصيًا، كنت منزعًا جدًا من رائحة قدمي المتعفنة، والتي تشبه رائحة الجيفة، ولكنني اعتدت على هذا الأمر؛ لأنها جزء من جسمي، اعتدت على تحمّل رائحتها.

توقّفت إحدى سيارات الـ«آيفا» العسكرية أمام مدخل سجن الرشيد، أنزل أربعة من الحراس طنجرة الطعام الكبيرة، ونقلوها إلى الداخل. اصطفّ الأسرى صفًا واحدًا، ليأخذوا حصّتهم من الطعام. وقف مسؤول السجن مع الحراس بالقرب من «حلة» الطعام ليراقبوا كيفية التوزيع. معظم الأسرى في سجن الرشيد لا يتناولون الطعام، لشدة الحر والعطش. تقدّم أحد الأسرى الإيرانيين⁽¹⁾ لأخذ حصّته من الطعام، وكان في الثلاثين من عمره تقريبًا. وضع مسؤول توزيع الطعام مغرفة من الأرز وحساء القُنْبِيْط في صحنه، لكن وبطرفة عين، أخذ الضابط الواقف هناك الصحن من يده، ورماه أرضًا، ودفعه على الحائط، ولكمه بقوة على وجهه. لم أفهم ما الذي أرادوه منه، كنت أريد معرفة سبب هذا التصرف، فمن النادر أن يضرب الحراس الأسرى أثناء الطعام؛ لأنّ لديهم الوقت الكافي لضربنا وشتمنا، فكانوا يتوقّفون عن هذا الأمر أثناء توزيع وتناول الطعام. كان المترجم «فاضل» واقفًا هناك، عندما دققت النظر، عرفت أنّ ما كتبه

(1) فيما بعد رأيتُه من خلف الأسلاك الشائكة، في مخيم تكريت. هو من شباب فرقة 25 كربلاء. يدعى منصور قاسمي. وقد أُسر في جزيرة مجنون الجنوبية. رأيتُه في مقر (الفيلق) العراقي الرابع في مدينة «الميمونة». عندما رأيتُه، أظهرت له افتخاري الكبير بمقاومته في ذلك اليوم. فسألته: «إلى أين أخذوك يومها؟ ما الذي فعلوه بك؟ الحمد لله أنّهم لم يقتلوك. فقال: «بقيت عشرة أيام في الانفرادي. لقد أحرقوني بالكمّواة. بعد عشرة أيام نقلوني إلى سجن الرشيد، وها أنا هنا».

الأسير على كم قميصه هو الذي أغضب العراقيين. قبل الأسر كتب هذا الأسير الإيراني على كم قميصه عبارة: «إن لم تعشق الخميني لن تصبح عاشقاً للمهدي».

طننت بدايةً أنه وشَم هذه العبارة على زنده. ما إن وقع نظر الضابط على اسم الإمام حتّى غضب وثار، فطلب من الأسير الإيراني: «وهو يعطيه ولّاعته»، أن يحرق الجملة التي على كم قميصه.

بعد تأمل بسيط، أجاب الأسير الإيراني: «إن هذه الجملة لا تضرّكم بشيء».

فقال الضابط: أحرقها؛ كي نتركك بأمان. أجاب الأسير: سأعطيك إياها وأحرقوها بأنفسكم، لن أحرقها بنفسي.

لم يتراجع الأسير الإيراني عن موقفه، وكذا الضابط العراقي، فلم يكن الأسير مستعداً لحرق قميصه أمام الجميع. لم يُفلح عناد الضابط، وقد أصرّ على أن ينفذ الأسير طلبه أمام الجميع، فبدا من تصرّفه أنه يحاول وبأية وسيلة كانت أن ينفذ الأسير أوامره. عندما واجه الأسير الإيراني كلّ هذه اللجاجة من الضابط، قال له مرّة ثانية: خذ القميص وأحرقه بنفسك، فلن أحرقه أنا، حتّى لو أحرقت قطعة القماش هذه، لن ينقص شيء من الإمام الخميني.

غضب الضابط، ركله بشدّة، ورماه تجاه الحائط، ثم أمر الحراس بضربه، فانهالوا عليه بالركل والكابلات، أخفضت رأسي وغطيت عيني؛ كي لا أرى هذا المشهد. ركله أحد الحراس على وجهه، فسالت الدماء من أنفه. استشاط الأسير الإيراني غضباً، وهو على هذه الحال،

مرمياً بالقرب من الحائط، بدأ يصرخ بصوت عالٍ، حاول كثيراً ضبط نفسه وعدم قول شيء. كان رجلاً شجاعاً مقداماً. لا أعرف ما الذي حدث، وهو جالس هناك، وضع يده تحت أنفه، كانت الدماء تتسرب من بين أصابعه، كتب بأصابع يده اليمنى على الحائط أمامه: «خميني!»

لم يتصور العراقيون أن يقوم بهذا العمل. في ذلك الوقت، حين كنت أراقبهم، كانوا يقضون مدهولين مصدومين، لم يتوقعوا هذا الأمر، لا نحن، ولا العراقيون توقعنا هذا التصرف منه، مددوه على الأرض، وبدأوا يضربونه بأحذيتهم وهرأواتهم على رأسه ووجهه، كان وجهه مليئاً بالكدمات ولباسه ملطخاً بالدماء لشدة ما ضربوه، وقع على حافة الجدار منهكاً بلا حراك، الجدار نفسه حيث كتب بدمه: «خميني».

نقله الحراس إلى زنزانة انفرادية، ثم جاء أحد عمال التنظيف، بيده سطل ماء، وبدأ بإزالة الكتابة عن الحائط.

بالنسبة إليّ، كان مشهداً جميلاً، وأحد أفضل أيام أسري. لقد سَكَنَ عمل الأسير الإيراني ألّمي ووجعي. خلال الأسر، كنت ترى على الألبسة وعلى ظهر القمصان بعض العبارات ك: مسافر إلى كربلاء، زائر كربلاء، كل من يشترك إلى كربلاء، بسم الله نمضي مع الخميني حتى الشهادة، أذهب لآخذ بثأر صفة الزهراء، ممنوع دخول الرصاص والشظايا، والعديد من العبارات المستقاة من ثقافة الجبهة، والتي كانت تزعج العراقيين، وفي المقابل تؤذي الشباب [داخل السجن].

في ساعات الليل الأخيرة، دخل ضابطان إلى الممر بين الزنانات، بدأ رئيس السجن بقراءة أسماء عدد من الأسرى الجرحى، وكأنهم

حقاً سينقلوننا إلى المستشفى.

الأسرى السالمون الذين كانوا يعدّون الأيام لخلاصنا من سجن الرشيد، فرحوا أكثر منا. قضيت ستة عشر يوماً مع هذه القدم المتعفّنة وأنا أصارع الموت. لم أصدّق أنّهم سينقلوننا إلى المستشفى. قبل خروجنا من الزنزانة، حضر بقيّة الأسرى لوداعنا معبرين عن فرحهم. كان «العم حسن» أكثرهم تأثراً وفرحاً. بكى «علي شير قيطاسي» من الفرع، قبلت جبهته، لم أستطع أن أمنع نفسي من البكاء، قال «العم حسن» لي: «يا بني، هذه دموع الفرع والحزن معاً. الفرع لنقلكم أخيراً إلى المستشفى، عندما يقطعون قدمك سترتاح ويتحسن وضعك؛ أمّا الحزن فلا فتراقنا ومن يدري، قد لا نلتقي أبداً، لقد اعتدت عليك في هذه الفترة القصيرة»، قلت له: «يا عم، إنني أعتبرك أباً لي، لن أنسى اهتمامك ومحبتك ما حييت». فالوجود الأبوي «لعم حسن» ظللني، فأحسست بالأمان. أكثر من طلب السماح مني هم أولئك الأسرى الذين ارتطموا مرّة أو أكثر بقدمي أثناء تنقلهم عن غير قصد.

ودّعت الشباب، الذين لم أرهم بعد ذلك أبداً. سعدنا الإسعاف برفقة بقيّة الجرحى، خرجت الإسعاف من سجن الرشيد، لم أعرف إلى أيّ مستشفى نحن منتقلون، لكن وبسبب خلاصي من سجن الرشيد، سجّلت هذا اليوم الـ 11 تموز من العام 1988 في ذاكرتي كأحد أفضل أيام حياتي.

كنتُ فرحاً؛ لأنّهم يخرجونني من سجن الرشيد. عندما أتذكّر الإهانات التي تحملتها في «الميمونة» في معسكر الفيلق الرابع العراقي

وفي هذا السجن، ينقبض قلبي بشدة. تعذبني ذكريات اليوم الأول في «الميمونة». كم تمنيت لو قُطعت قدماي اللثتان، وما تعرّضت يوماً لِمَا تعرّضت له في الميمونة من الإذلال.

في صباح اليوم الأول لوصولنا إلى «الميمونة»، عندما وضعونا في ممرّات «دورات المياه»، كنت متّكئاً إلى الحائط عند المدخل، دخل أحد الجنود لقضاء حاجته، فتبول عليّ، أخفضت رأسي، أغمضت عينيّ، وأقفلت فمي؛ كي لا يدخل البول إلى فمي وعينيّ. أصبح تذكّر هذا المشهد داءً روحي، ومصدر انزعاجي وقهري.

الفصل الخامس:

مستشفى الرشيد - بغداد

الاثنين 11 تموز 1988 - مستشفى الرشيد - بغداد

دخلت سيارة الإسعاف الرمادية اللون التابعة لمديرية الصحة في الجيش العراقي إلى باحة مستشفى الرشيد⁽¹⁾ العسكري في بغداد. وقف الحراس أمام مدخل المستشفى، وكان على الجرحى الذين يستطيعون الحركة نقلنا، أنا والسيد «محمد شفاعت منش»، إلى داخل المستشفى. قام «هادي كنجي» و«نصر الله غلامي»، وعلى الرغم من جراحاتهما، بإنزال السيد محمد من الإسعاف أولاً، وبينما كنت أنتظر دوري، قام حارسان عراقيان بإنزالني، أدخلونا بعد ذلك إلى غرفة في المركز الصحي التي لا تزيد مساحتها عن 30 م²، وهناك صليت ركعتين شكرًا لله على خلاصي من سجن الرشيد.

يوجد في باحة المستشفى مبنى كان يستخدم كمخزن، تم إخلاؤه لاستقبال جرحى الحرب الإيرانيين. يحيط بالمبنى سور لا يزيد ارتفاعه عن 2م، ويعلو السور شبكة من الأسلاك الشائكة الدائرية.

(1) مستشفى الرشيد في بغداد هو مستشفى عسكري تحت إشراف مديرية الصحة التابعة للقوات المسلحة العراقية. جميع أطبائها وممرضيهما كانوا من العسكريين. يوجد في إحدى زواياها معتقل سري يضم 4 مراكز صحية حيث يعالج فيها الأسرى الإيرانيين الجرحى بعيدًا عن أعين الصليب الأحمر الدولي وفي أسوأ الظروف.

تبلغ مساحة المكان حوالي 1000 م²، ويضمّ مركزين صحيّين منفصلين مع غرفة عند المدخل. كما يضمّ مركزاً آخر لجرحى الحرب العراقيّين.

يوجد داخل القسم، إضافة إلينا نحن الستّة، ثلاثة جرحى إيرانيّين آخرين أحضروا إليه بعد ظهر أمس. كان أحد الجرحى يعاني من مشكلة في الرئتين بسبب تعرّضه للقصف بالقنابل الكيميائيّة، فيشتدّ سعاله عند التحدّث؛ لذلك تحاشى الإخوة التحدّث إليه. كما أنّ شظيّة أصابت بطنه، وسببت له التهابات داخلية، فخارت قواه كليّاً. هو من مدينة «رشت» في الشمال على ما أظن.

جريح آخر من مدينة «مشهد»، شعره كستنائيّ اللون في السنة الخامسة والثلاثين من العمر تقريباً، وقد أصيب بارتجاج في المخّ جراء انفجار قذيفة دبابة بالقرب منه، كما أصيب بشظية في الكتف الأيسر، وأخرى في فقرات العنق ما أفقده القدرة على تحريك رأسه. بدأ بالهذيان تلك الليلة، ولا أنسى بعضاً مما قاله في هذيانه: «هيا تقدّموا.. سوف أتبعكم مباشرة.. أين جعيتي؟؟.. يا فيلق الحسين إلى كربلاء، أولاً يا حسين ثانياً يا...». كان يلتهب من شدّة الحمّى، فبدأ الإخوة بوضع كمّادات الماء على جبينه. «هادي» كان أفضل الجرحى حالاً، لذا تولّى مهمة وضع كمّادات الماء على جبينه. عبثاً حاول، فالحرارة لم تنخفض أبداً، عندها طلب المساعدة من الحراس العراقيّين، لكن دون جدوى.

جريح إيرانيّ آخر يدعى «أحمد شريفی»⁽¹⁾ من «نجف آباد»، كان

(1) حالياً لا أعرف شيئاً عن أحمد شريفی.

أكبر مني بسنتين أو ثلاث، ظل يئن من شدة الألم حتى الصباح، عندما كان في قسمنا كان الجرحى القادرون على الحركة يساعدونه في الوصول إلى المرحاض، وقد أعطانا العراقيون سطلاً ليستخدمه كمرحاض، لكن الإخوة كانوا يحتفظون بمياه الشرب داخله. لشدة معاناته من الألم كان يُضطر للصلاة وهو ممدد، يا له من فتى رائع.

«نصر الله غلامي»⁽¹⁾ من «بوشهر»، كان في كتيبة «والفجر»، لواء «المهدي»⁽²⁾، وقد أسرف في جزيرة «مجنون»، أصابته رصاصات رشاش «غرينوف» في بطنه وظهره ويده اليسرى، نصر الله كان عامل الإشارة لدى قائد الكتيبة.

السيد «محمد شفاعت منش»⁽²⁾، من محافظة «كهكيلوية وبوير أحمد»، أسر أيضاً في جزيرة «مجنون»، وقد أصابته رصاصات كلاشنكوف، كما أصيب بحروق بالغة بسبب انفجار قذيفة دبابة على مسافة قريبة منه.

«إسماعيل صولت دار»⁽³⁾، من «بوير أحمد»، كان رامي «آربي جي» حاذق وماهر، وقد شارك في ملحمة الخندق المعروفة بـ «موقع الخندق»، وسطع نجمه. أصيب إسماعيل بشظية في رأسه أعطبت أعصاب جمجمته ما أدى إلى شل إحدى يديه.

كان معنا أيضاً الجريح «خدا خواست»⁽⁴⁾ «بزشك»⁽⁵⁾ من «بوير

(1) يعمل حالياً في البنك الوطني فرع «تنكستان» .

(2) تحدثت عنه في الفصل الثاني من الكتاب.

(3) متقاعد من الحرس الثوري في قضاء «بوير أحمد».

(4) خدا خواست: تلفظ: خاست.

(5) تحدثت عنه في الفصل الثاني.

أحمد»، وقد جرح ناحية الصدر والقدم.

«قاسم فقيه»⁽¹⁾ من منطقة «خورموج» في «بوشهر»، من كتيبة أبو الفضل العباس، في لواء «أسطول» أمير المؤمنين البحري، وكان قنّاصاً. ربط العراقيّون يديه بعد الأسر وتركوه ملقى في حقل القصب في جزيرة «مجنون»، وقد أنقذه جنديّ عراقيّ شيعيّ بعد ثلاثة أيّام. «هادي كنجي»⁽²⁾ من مواليد «خرمشهر»، لكنّه نشأ في مدينة «ماهشهر»، وقد جرح في قدمه اليمنى. هادي من كتيبة «الإمام الحسين عليه السلام» لواء موسى بن جعفر عليه السلام في «ماهشهر»، وهو الأسير الوحيد من تلك الكتيبة. كان يساعدنا في أغلب أعمالنا على الرغم من جراحه، فهو الوحيد القادر على السير والحركة وتقديم المساعدة، كان حنوناً، رؤوفاً، ومضحياً.

تمدّدت في المركز الصحيّ وقد خارت قواي، فلم يعد من أحد يدوس على قدمي المجروحة، سواء أمّن الإيرانيّين كان أم من العراقيّين. لم يكن في القسم الصحيّ أكثر من ثلاثة أسرّة، وقد تقرّر تقديم الأسرّة للذين يعانون من جراح بليغة. كانت شراشف الأسرّة ملوثةً بدماء من سبقونا، ومع أنّ هادي كان جريحاً مثلنا فإنّه كان يسهر الليل للعناية بنا، نادراً ما كنّا نراه نائماً، وفي أغلب الليالي التي لم أستطع النوم فيها من شدّة الألم كنت أراه مستيقظاً.

كان الطبيب المعالج في قسم الجرحى الإيرانيّين يدعى «عزيز ناصر»، وهو رجل نحيل، متوسط القامة، ذو شعر أحمر. كما كان

(1) حالياً هو مسؤول مخازن دائرة التربية والتعليم في «خورموج».

(2) يعيش في «يلام»، ويعمل في مجال الأعمال الحرة.

للقسم مسؤول أمنيّ بعثيّ، يزوره مرّة كلّ بضعة أيّام، ويدعى «سعدون فياض»، كان سعدون يكيّل الشتائم للإمام، فإن اعترض عليه أحد من الجرحى كان يعيده مباشرة إلى سجن الرشيد حتّى قبل انتهاء فترة العلاج. كان هذا أقلّ عمل انتقاميّ يمكن أن يقوم به.

في أحد الأيّام تشاجر مع جريح في القسم المجاور؛ حيث شتم الإمام الخمينيّ كالعادة، فردّ عليه جنديّ إيرانيّ بشدّة ويدعى مجيد. «مجيد» إنسان غيور، فإنّه كان من أشدّ المدافعين عن الإمام، كان جنديّاً قوياً وشجاعاً ويعاني من لكّة في اللسان.

مجيد من «طهران»، كان جنديّاً في «فيلق حمزة 21»، أُسر في «دهلران» أو «موسيان». أصيب برصاصة في القدم والظهر. كان شابّاً واعياً، وقد وشم على ذراعيه وظهره صورة أفعى وتيناً وشمعاً وبعض كلمات الحبّ، وعبارة «الأمّ في القلب»، كان يردّد كثيراً عبارتي «أعزكم الله وحيّاكم الله»، لا توحى ملامحه وتصرفاته بأن يكون من أشدّ المدافعين عن الإمام، لكن شهامته وفتوّته كانا يطغيان على سلوكه وتصرفاته الأخرى. كان من نزلاء القسم المجاور، إلّا أنه كان يقضي معظم أوقاته معنا.

قرّر الضابط الأمنيّ إعادة مجيد إلى سجن الرشيد بسبب دفاعه عن الإمام، وعندما جاؤوا ليأخذوه إلى السجن قال: «صحيح أنّ مظهري وكلامي لا يُوحيان بذلك، إلّا أنّني إيرانيّ؛ وسوف أداّفع عن إمامي على أرض الأعداء، وهل هناك ما هو أشدّ من القتل؟! أنا لن أتزحزح عن مواقفي أينما كنت».

الأربعاء 13 تموز 1988 - مستشفى الرشيد - بغداد

فُتِحَ باب المستشفى في الصباح الباكر، فدخل الضابط الأمني «سعدون فياض» إلى قسم الجرحى، يرافقه الدكتور «عزيز ناصر». الجريح المشهدي الذي كان يهذي طوال الليل إثر إصابته بارتجاج في الدماغ، ممدداً على الأرض أمام الباب، وقف سعدون هناك محدقاً بجميع الجرحى، متقصياً أخبارنا من الدكتور. كان وجه الجريح المشهدي ملتصقاً بالأرض بالقرب من حذاء الضابط، فجأة أمسك بالحذاء ولكمه عدة مرات، بدا فاقداً صوابه ولم يكن مدركاً ما يقوم به، عندها استشاط الضابط غضباً، وانهاش على رأس الجريح ركلاً وضرباً دون رحمة أو شفقة، فسالت الدماء من فمه وأنفه، وتعالص صيحات الاستنكار من قبل الإخوة، وقال هادي كنجي لسعدون: «إنه مصاب بارتجاج في دماغه، وقد فقد صوابه»، لكن الضابط لم يُعِرْه أي اهتمام.

أخرج العراقيون جسد الجريح من القسم وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، وبعد نصف ساعة عاد الحارس العراقي الشيعي ليخبرنا نبأ استشهاد، فتوجه السيد «محمد شفاعت منشي» إليه بهذه الأبيات:

غير أهل الفضائل لا يقتلون والماكرون الأراذل لا يقتلون
إن كنت عاشقاً فلا تخش المنون جيف من على مذبح العشق لا يقتلون
لا تضميد لجراحنا اليوم، كما أن طعام الفطور كان حساء العدس.
بعد الفطور نقلونا إلى الخارج، كانت تفوح من القسم رائحة العفونة.
جعل كل من يدخل إليه - أطباء وممرضون - يضعون أيديهم على أنوفهم

وأفواههم. أمر الطبيب الممرّضين أن يغسلوا جراحنا الملتهبة بالماء، ولم يكن يهتمهم عواقب ذلك.

على الرغم من الجروح الملتهبة نقلوني قرب صنبور (حنفية) الماء، تحت الخيمة التي يركن الدكتور سيارته فيها، هناك أجبرت على خلع جميع ملابسني ما عدا الملابس الداخلية. رجوت الممرّضين أن لا يغسلوا جروحي الملتهبة بالماء، وأن يعطوني قطعة من النايلون، أو ما شابه، لأغطيها بها، لكنهم لم يهتموا بأمرني.

أمسك حارس القسم خرطوم المياه، وكأنه ينوي ريّ الحديقة، وعندما رشّ الماء على جراحي اعترض كلّ من «هادي كنجي» و«إسماعيل صولت دار»، فرد الحارس: «نحن نريد أن نعقم له جراحه!»

فقلت: بالماء!!

ما إن وصلت المياه إلى الجروح حتّى سالت وتدفقت الدماء من قدمي.

كل المسعفين في المستشفى من العسكر، وليس فيهم أيّ ممرّض أو ممرّضة، أدركت من خلال تصرّفاتهم أنّه لا خبرة لهم في هذا المجال. فقدمي اليمنى لا ينفع معها العلاج، بل كان يجب بترها، بينما التهاب جرح قدمي اليسرى المصابة بشظية، ووجب نزع اللحم الميت عنه، وقد تصاعدت الروائح الكريهة منه، فقام الممرض باستئصال اللحم الميت بمبضع الجراحة من الجزء الأمامي لفخذي، ومن دون حقني بأيّ مسكّن للألم، وكانت تلك المرة الأولى التي يُغسل بها جراحي بسائل مضاد للالتهاب.

الخميس 14 تموز 1988 - مستشفى الرشيد - بغداد

إنَّه اليوم الثالث لنا في المستشفى، أيقظنا هادي لصلاة الصبح، لكن عندما ذهب لإيقاظ أحد الجرحى وَجَدَ أنه قد قضى نَحْبَهُ. جاء حارسان عراقِيَّان وأخرجا الجثَّة، إلى أين؟ الله وحده يعلم. أخبرنا «توفيق أحمد» فيما بعد أنَّهم أخذوه إلى مقبرة تقع في محيط مدينة بغداد، وهي مخصَّصة لدفن جثث الأسرى الإيرانيين. عندما أخذوه بقي حذاءه العسكري في الغرفة، فأخذت منه الأربطة لأصنع بها تقويمًا⁽¹⁾ يساعدني على حساب الأيام والأسابيع والشهور والسنوات. تفاقت حالة قدمي وساءت من جرَّاء المياه التي صُبَّت عليها، وأصبح من الضروريِّ التعجيل ببتراها. الليلة الماضية أخبرني أحد الممرّضين بأنَّهم سيبترون قدمي هذا اليوم. ولشدة معاناتي وألمي كان بترها أسعد شيء بالنسبة إليّ. القدم التي شاركتني في كثير من المهامّ، عبرتُ بها الأنهار والجداول والفيافي، من حقول قصب نهر «أروند رود»⁽²⁾، وجزر «مجنون»، إلى حقول الأغنام ومستقعات «سلمجة»، من ممَرَّات الخنادق إلى الجبال المكسوّة بالثلوج في

(1) التقويم الذي صنعتُه من أربطة حذاء الشهيد كان يعمل على الشكل التالي: قطعت أحد الرباطين إلى نصفين واستخدمتهما لحساب أيام الأسبوع والشهور فالرباط القصير لحساب أيام الأسبوع والطويل لحساب الشهور. كنت أعقد عقدة يمكن حلها بسهولة. ولكلِّ يوم من أيام الأسبوع عدد من العقد تشير إلى عدده، فمثلا كنت أعقد ثلاث عقد ليوم الثلاثاء أربع ليوم الأربعاء وهكذا دواليك إلى انتهاء أيام الأسبوع أي الجمعة، فاعقد حينها سبع عقد، وأحلَّ عقد الأسبوع كلها آخر ذاك اليوم. لأعواد الكُرَّة في الأسبوع المقبل، وكذا الأمر بالنسبة للشهور، عقدة لكلِّ يوم من الأيام: عقدة لليوم الأوَّل واثنان للثاني وهكذا حتَّى نهاية الشهر. بهذه الوسيلة تمكنت من حساب الأيام والشهور والسنوات طوال فترة الأسر، وكنت أخبر بها كلَّ من يسألني عنها؛ لذا أطلق عليَّ «محمَّد كاظم بابائي» و«علي أصغر انتظاري» لقب «السَّيد ناصر تقويم الأسرى».

(2) أروند رود: تلفظ: Arvand roud.

«کردستان». كم قضينا معاً أحلى الأوقات وأصعبها، وفي مختلف المهمّات والعمليات، القدم التي تعرّضت مراراً وتكراراً لخطر القطع والبتّر، القدم التي عملت على نزع الألغام لمدة سنتين من الحقول والأودية والمرتفعات، القدم التي أصابتها عشرات الشظايا في حقول الألغام في مرتفعات «شاشوي كردستان»، القدم التي عبرت مرتفعات «آلا غلو»، «شاشو»، «كردرش»، «كامو»، «كوجار»، «قاميش»، و«ياغ سمر» في شتاء عام 1987، حيث بلغت درجة الحرارة 15 درجة تحت الصفر.

كم تحمّلت هذه القدم الحرّ والبرد أينما كنت، لم تتأفّف أو تتذمّر مهما أنعبتها، رافقتني كصديق وفيّ على الدوام، لكن لشدة ما عانيت من الألم لم أعد أطيقها. القدم التي تحمّلتني كلّ هذه السنوات لم أعد قادراً على تحمّلها الآن. رافقتني إلى أيّ مكان شئت، لم تعصني يوماً، أقرّ وأعترف بأنني كنت لها رفيق منتصف الدرب. لكن منذ أكثر من عشرين يوماً وأنا لم أعد أطيقها، كم رغبت في فصلها عن جسدي لتذهب في سبيلها، قصّتي معها قصّة آلام وعذابات، ستدفن قدمي اليوم بين نفايات المستشفى. كم تخطر على بالي، وفي خلواتي ذكرى تلك القدم التي بقيت هناك.

قبل الظهر حملني جنديّان على حمالة إلى خارج القسم، وقبل أخذي إلى غرفة العمليات قلت لرفاقي: إنّ هذا اليوم هو أسعد أيام حياتي، اليوم الذي سأستطيع النهوض والسير والحركة إلى حيث أشاء، اليوم الذي سأودّع فيه أوجاعي، مع أنّه يُقال: إنّ الألم للرجال. انتظرت حوالي الساعة خلف باب غرفة العمليات، وقد أغمض

العراقيّون عيني كي لا أرى ما يدور حولي. في ممر المستشفى غطّوا رأسي بالقماش وأنا ممدّد على الحمالّة. وكلّ من يمرّ ويصادفني يسأل الحراس المرافقين عني. كم تمنّيت لو تُبترّ قدمي في إحدى مستشفيات وطني، وأن تدفن في ترابه، وتداعت إلى مخيلتي ذكريات الأيام التي قضيتها في مستشفى «لقمان الحكيم»⁽¹⁾ في «طهران».

على رغم الظلم الذي لحق بنا، وعلى رغم كلّ مجازر البعثيين، كنت أقول لنفسي: إنّ بقاء قطع من أجسادنا في تراب العراق لأهون بكثير من بقاء شبر واحد من تراب الوطن بيد هؤلاء الأعداء. عندما دخلتُ غرفة العمليات، وقبل أن يتمّ حقني بالمخدر، قاموا بنزع عظامي المهشمة من قدمي بواسطة المقصّ، فعضضت شفتيّ من شدة الألم، لم أرغب بإظهار ضعفي أمامهم، كان بإمكانهم فعل هذا بعد التخدير، لكنّهم لم يفعلوا. أعلم أنّني توقّعت أكثر ممّا ينبغي توقّعه من عدوّي هذا، توقّعت أن يتصرّفوا كالدكتور «أميري» الجراح المتخصّص في مستشفى «لقمان الحكيم».

(1) في ربيع عام 1987 عندما كنت أزرع الألغام في محيط موقعنا العسكريّ أُصيب قدمي بجروح، فنقلت إلى مستشفى «توحيد» في «سنندج»، ومن هنالك نقلت مع عدد آخر من الجرحى بالطائرة من «كرمانشاه» إلى مطار «مهرآباد» في طهران، ومنه إلى مستشفى «لقمان الحكيم». هناك ساعدني أحد الأشخاص الذين التقيتهم في إخبار خالي المقيم في طهران عن وجودي في المستشفى، فجاء أخوا لي الثلاثة لعيادتي في الليلة نفسها واكتشفت حينها أن الممرضة مسؤولة القسم السيّدة «رفعت رخشا» هي زوجة خالي الأكبر «بهزاده». أخيراً لم أعد اشعر بالوحدة التي شعرتها في الأيام الأولى لقدومي إلى المستشفى، وبعد إجراء العملية الجراحية كانت السيّدة «رخشا» تهتمّ بي كالأمّ الحنون، وقد أصرت على اصطحابي إلى منزلهم، والبقاء في طهران، ومتابعة دراستي، وعدم الذهاب إلى الجبهة. لكن عندما تماثلت للشفاء أصريت عليهم شراء تذكرة سفر بالحافلة إلى شيراز، فوافقوا بشرط أن أعود إلى بلدتي وأتابع الدراسة هناك، طلبت منهم أن لا يبقوا معي في محطة الحافلات، وما أن رحلوا حتّى استبدلت البطاقة إلى الأهواز، وانتقلت من هناك مباشرة إلى كردستان (إلى حيث أصبت). كم تمنّيت اليوم لو كنت في مستشفى لقمان الحكيم ليقوم الأطباء الإيرانيّون بترّ قدمي.

كان الطبيب الذي نزع العظام المهشمة كهلاً، نحيلاً وأسمر البشرة، ويقارب الستين من العمر، بينما الطبيب المساعد كان شاباً ضخماً الجثة في الأربعين من العمر على ما أظن، وهو من قام بتر قدمي. في اليوم التالي، عندما جاء إلى القسم برفقة الدكتور «عزيز ناصر» أخبرني بأنّ قدمي هي القدم الثالثة التي يبتها حتى الآن، ثمّ ذهب نحو الأخ: «محمد كاظم بابائي» من «يزد»، فهو أيضاً من بتر له قدمه، لكن «محمد كاظم» أخبرنا بأنّه كان يمكن معالجة قدمه بالبلاطين فحسب.

يقوم الطبيب الشابّ بمتابعته دراسة الطب إلى جانب التطبيق العمليّ من خلال إجراء العمليات الجراحية للأسرى الإيرانيين الجرحى، كانت أولى عمليّاته الجراحية هي بتر أيدي وأرجل الجرحى الإيرانيين. لقد أخبرنا هو بنفسه بذلك.

قبل أن يتمّ تخديري أعطى الطبيبُ المسنُّ التعليمات اللازمة للطبيب الشابّ. استعدتُ وعيي على السرير النّقال، فكانت تلك اللحظة التي حرّكت فيها قدمي تحت الغطاء من دون ألم، من أفضل لحظات عمري، فقد ارتحتُ من العظام المهشمة، ومع أنّ الحياة بقدم واحدة في الأسر صعبة جداً. فإنّ ذلك اليوم كان من أفضل أيام حياتي.

الجمعة 15 تموز 1988 - مستشفى الرشيد - بغداد

لم أنم الليلة الماضية حتّى الصباح من شدّة الألم، كان حارس القسم يأتي مراراً إلى النافذة ليأمرني بالسكوت قائلاً: «اسكت قشمار» [اسكت يا محتال].

من اليوم الأوّل للأسر وأمعائي لا تعمل كما يجب، كما أنّهم استخدموا أنبوب «القسطرة» لإخراج البول من مثانتي. الليلة الماضية تشاجر «هادي كنجي» مع الممرّض المناوب، فقد طلب منه إعطائي المسكّن لتخفيف ألمي، لكن الممرّض رفض ذلك، ووجّه إليّ السُّباب والشتائم. من الجيّد أنّ «هادي» إنسانٌ صبورٌ ومتعقّل فلم يتشاجر معه. حاول الإخوة الاهتمام بي قدر الإمكان، ففي المستشفى يقدّمون كوبًا واحدًا من الحليب لكلّ ستة جرحى. «هادي كنجي» و«إسماعيل صولت دار» كانا يقدّمان لي حصتهما من الحليب.

فقد جرت العادة على أنّه عندما يخضع أحد الجرحى لعملية جراحية فإنّ باقي الإخوة يقدّمون له حصصهم من الحليب. ولما شكرتهم على تضحياتهم، نظر إليّ هادي، وقال: «هذا أقلّ شيء يمكن أن نفعله لأجلك».

لقد اعتدت على الإخوة، وأنست بهم. قال لي «هادي» في إحدى المرّات: «يا لسعادتك يا سيّد، فقدمك سبقتك إلى الجنة، افعل شيئاً لتلحق بها أنت أيضًا». كان مزاح هادي يحمل في طيّاته الكثير من العبر والرسائل. ثمّ تابع قائلاً: «لديك قبران يا سيّد، قبر لقدمك، وقبر لك، لا أحد يعلم عندما تموت، إن كنت ستلحق بقدمك إلى الجنة، أم أنّها ستلحق بك إلى جهنم». كان يدفعني مزاحه، الذي يحمل الكثير من المعاني الخفية، إلى التفكير ملياً في سلوكي، ومراقبة أهواء نفسي، فكنت أقول لنفسي: «إن سرّت على درب الصواب والهداية فسأصل إلى قدمي اليمنى وإلا فلا!».

جاء الدكتور هذا اليوم باكراً برفقة الطاقم الطّبي، سألني الدكتور

عما إذا كان بتر قدمي قد أزعجني!!
ولكي أَفْهَمُهُ أَنتَني لست منزَعَجًا على الإطلاق، قلت له: «لقد ارتحت
من قِصِّ خمسة أظفار». ما إن قلت هذا حتَّى تعالت ضحكات الإخوة.
كانت تصرفات الممرّضين العراقيّين تنمّ عن حقد دفين؛ فقد جاء
اليوم ممرضان لتغيير ضمادات الجرحى، وكانت صرخاتهم تتعالى
مع سلخ اللاصق، والضمادات، وعرز المقص في الجروح. هذان
الممرّضان لم يكن لديهما أدنى استعداد لوضع سائل «البتادين» على
الجروح قبل نزع الضمادات، وفوق ذلك لم يسمحا لنا بنزعها بأنفسنا.
أحدهما كان من تكريت مسقط رأس صدام، ويدعى «خالد»، كان ينزع
الضمادات بعنف شديد، بحيث ينسلخ معها قطع اللحم، فينزف الجرح
مجدّدًا ويتعالى الأنين. صحيح أن الممرّضين لم يكونوا مسلّحين
لكنّهم كانوا يفرغون حقدهم وغضبهم من خلال نزع الضمادات وعرز
المقصات، ممّا حدا بقاسم إلى القول: «إنّ جرح الرصاص لأهون
بكثير من مقصّاتكم». في الأيام الأولى كانوا يستخدمون حقنة واحدة
لحقن عدّة جرحى، وعندما اعترضنا، ولم نسمح لهم بحقننا، تراجعوا
عن ذلك.

خرجتُ بعد الظهر إلى باحة المستشفى لأتتّشّق بعض الهواء النقيّ،
وهناك التقيت بأسير يدعى «لطيف دهقان»، «لطيف» شابّ إيرانيّ
عربيّ من مدينة «ماهشهر» الإيرانية، أسّر في «الفاو»، وهو شاب أبيض
البشرة، بهي الطلعة، ممتلئ الوجه، واسع العينين، محبوب وحييّ، كان
نزيرًا في القسم المجاور لنا، ومهمّته الترجمة للدكتور «عزيز ناصر»
والممرّضين في القسم المجاور لقسمنا.

بينما كنت أجلس في فيء سقف موقف سيارة الدكتور، جاء «لطيف دهقان»، وجلس بقربي. أحببته من المرة الأولى، وكأنني أعرفه منذ أمد بعيد، ربّت على ظهري، وقال: «جُعلتُ فداءً كلَّ «سيد» شريف النسب». لدهقان تجارب عديدة ومفيدة، اكتسبها في الأسر. كان عاقلاً ومتّزناً. وطوال فترة إقامتنا في المركز الصحيّ كان يساعدنا في حلّ مشاكلنا، فقد استطاع من خلال علاقته الجيدة مع الدكتور «عزيز ناصر»، والممرّضين والحراس، أن يقدم لنا النصائح على الدوام.

هذه بعضُ من النصائح التي قدمها لطيف لي اليوم: «... لا ينبغي أن تخبر أحداً عن طبيعة مهمّتك، ورتبتك، واحتفظ بذلك لنفسك، فكلّنا هنا أسرى. لا تثق بالعراقيين حتّى لو عاملوك بلطف؛ جلّ سعيهم الحصول على معلومات منك، لذلك تراهم يتوسّلون بشتّى السبل للوصول إلى هدفهم، يصادقونك ويصاحبونك، وحتّى أنّهم يشتمون صدام أمامك لتركن لهم، وتعتقد أنّهم معارضون له، كل ذلك لأجل الحصول على معلومات منك، وللتعرّف على القادة. لذا الأفضل لنا جميعاً أن لا نطّلع بعضنا على رتبة بعض أو مهمّته، وهكذا لن يتسبّب أحداً بالأذى والمشاكل لغيره».

كلام «لطيف» كان حصيلة تجارب واسعة، استمعت إلى نصائحه بدقة وعملت بها.

شعرت منتصف الليل بعطش شديد، فالإخوة.. بسبب عملية البتر.. لم يقدّموا لي الماء. كان الجميع نياماً، حتّى «هادي كنجي» الذي كان

يقضي معظم الليالي مستيقظاً. حاولت بمفردي الوصول إلى إبريق الماء الذي كان على حافة النافذة، وقد ذهب عن بالي عملية بتر قدمي، نهضت ووضعت قدمي اليسرى على الأرض، وما إن حاولت وضع قدمي اليمنى حتى هويت أرضاً، وصرخت من شدة الألم، أيقظ صراخي جميع الجرحى من النوم، حتى الحارس الليلي «غانم حسان» الذي قفز إلى النافذة ليستطلع الأمر.

الشعور بأنّ قدمي ما تزال موجودة سبّب لي الكثير من المشاكل، هويتُ فارتطمتُ قدمي المبتورة بالأرض، فتمزق الجرح ونزف مجدداً. أخذ «هادي كنجي» برأسي ووضعه في حجره، ومن ثمّ مدّني على السرير، وقال: «أخي العزيز، سيّدي، إن احتجت لأيّ شيء فاطلبه منّي؛ فإنّ شعورك بالقدم سيرافقك لوقت طويل، فاحذر أن تؤذي نفسك».

السبت 16 تموز 1988 - مستشفى الرشيد - بغداد

مضى خمسة أيام على وجودي في المستشفى، وقد غيّروا لي الضمادات قبل ظهر اليوم. سمعنا من العراقيين أن الجيش العراقي تقدّم شرق مدينة «مهران»، ودخل الحدود الإيرانية. ما زلت أذكر بعض عناوين صحيفة القادسيّة: «إلى الأمام والله معكم يا جند صدام». تقدّم حارسان جديان منّي، وضعاني على «الكرسي المتحرّك»، وقاما بتغطية رأسي بقماشة بيضاء، ثمّ دفعاني إلى الخارج، لم أدر وجهة السير إلى أين، كان كلّ من يمر بجانبني ويعلم أنّني أسير إيرانيّ يكيّل لي السُّباب والشتائم، «شلونك يا حمار»، و«مرحبا يا عجل».

انتظرت حوالي نصف ساعة في ممرٍ مزدحم، إلى أن أدخلوني إلى غرفة، وهناك نزعوا القماش عن رأسي. قدّم الحارسان التحية العسكرية، ثمّ انصرفا. في الغرفة جلس عسكريّان خلف الطاولة المواجهة لي، أحدهما برتبة مقدّم، كان في مقتبل العمر، كثيف شعر الرأس والشاربين، ويرتدي بذلة عسكريّة خضراء اللون، قصيرة الكمّين، والآخر كان كهلاً في الخمسين ونيف، ضخّم الجسم، ملامحه تشير إلى أنّه إنسان عطوف، ولم يكن يحمل أيّة رتبة عسكريّة. علّقت خلف الجنديّان صورة التّقطت لصدّام عندما كان شابّاً، وإلى جانبه «ميشال علق» مؤسّس حزب البعث. أسفل الصورة خُطّت العبارة المعروفة «حزب البعث العربي الاشتراكيّ، أمة عربيّة واحدة ذات رسالة خالدة»، وإلى جانب العسكريّين، جلس مترجم إيرانيّ، يرتدي بذلة رماديّة اللون، أنيقة، يبدو من لهجته أنّه من مدينة «شيراز». اعتقد أنّه من جماعة «المنافقين»⁽¹⁾. نهض المقدّم من مكانه، صبّ الماء في أحد الأكواب، وقدّمها لي قائلاً: «تفضّل اشرب الماء».

- شكراً لست عطشاًناً.

أشعل المقدّم سيجارته الطويلة بالقداحة، ثمّ قال: «سيجارة؟»

- شكراً لست مدخّناً.

- هل تشرب الكحول؟

- نحن التبعيّة لا نشرب الكحول أبداً.

كانت هذه أوّل مرّة ألّتقي فيها عراقيّاً يتصرّف بلطف ورأفة. تولّى المترجم ترجمة كلام المقدّم الذي أردف قائلاً: «لقد بُترت قدمك

(1) جماعة المنافقين: أفراد منظمة مجاهدي خلق.

فأصبحت معوّقاً، يؤلمني رؤية أولاد في مقتبل العمر، وهم على هذه الحال. لا أدري كيف أنّ قلب الخميني يطاوعه في نزع أولاد صغارٍ مثلك من أحضان والديهم؟!»

بعد أن نفث دخان سيجارته، تابع قائلاً: «أليس من المؤسف أن تصبح على هذه الحال وأنت ما تزال صغيراً؟» لم أكن أفهم قصده في البداية، لكن من الواضح أنّه كان يهدف إلى أمر ما من خلال تلك الكلمات. مهما يكن فقد كانت بدايةً موفقة لخداع «الأولاد» أمثالي، فقد ضرب على أوتار حساسة.

تابع المقدّم كلامه قائلاً: «نظراً للحال التي أنت عليها يجب أن يُطلق سراحك، وأن تعود إلى إيران، فإذا كنت عاقلاً يمكنك التخلص من الأسر والعودة إلى وطنك، لكن بشرطٍ واحدٍ». عندما سمعت كلامه عن الحرية والعودة إلى إيران غلى الدم في عروقي، إنّه حلمي، «أنا وإيران ثانية؟!» فسألته دون أيّ تفكير: «أيّ شرط؟» افترّ عن ثغره بابتسامة مأكرة، وقال: «إجراء مقابلة تظهر فيها ندمك، وتقول إنهم أجبروك على الالتحاق بالجبهة، قل: إنّ حرس ثورة الخميني يقتلون الأسرى العراقيين في الجبهات، في المقابل تحدث عن معاملة العراقيين الحسنة لكم، هذا كلّ شيء».

لقد نال منّي، ظننت من البداية أن يكون هذا هدفه فسألته نفسي: «لكن لم أنا؟»

لا أدري لمّ اختارني أنا من بين كلّ هؤلاء الأسرى، تلاطمت الأفكار في رأسي، الجيدة منها والسيئة، كنت أفكرّ بالجواب المناسب حين قال الجنديّ الكهل: «بني، لقد أتتك فرصة نادرة فلا تضيعها من يدك».

كان، العراقيّون يتحدّثون بطريقة تجعل ضعاف النفوس يُذعنون لهم، بالطبع كنت أتمنى العودة إلى وطني، لكن عزيزاً وليس مُهاناً. تابع المقدّم: «خلال الأيام القادمة سيتم إطلاق سراح عددٍ من الأسرى المرضى والمعوقين، وأنت من بينهم، لقد صدرت الأوامر بهذا الشأن، لكن بالشرط الذي أخبرتك عنه».

كانت أصداء كلامه تتكرّر في ذهني، إظهار الندم، معاملة العراقيّين الحسنة للأسرى الإيرانيّين، ومعاملة الإيرانيّين السيئة للأسرى العراقيّين. في الحقيقة لم أكن لأحتمل قول كلّ هذا الكذب، لكن لا أعلم لم لم أستطع مواجهة المقدّم بالأمر.

حينها سألت المقدّم العراقيّ: «هل كلّ من يريد الحرية عليه أن يجري هذه المقابلة، وأن يقول هذا الكلام؟»

- لا، فقط الأولاد الصغار الذين هم في مثل سنّك.

احترت بم أجيب، ثمّ أضاف: «الأمر ليس بحاجة إلى التفكير، إنّها الحرية، جُلّ ما عليك فعله هو إجراء المقابلة، وتكرار الكلام المُدوّن في هذه الورقة».

أدركت من كلامه أنّ الأسرى المعوقين والجرحى الذين هم في مثل سنّي سيكونون الضّحية والطّعم، أرادوا بذلك إصابة هدفين بحجرٍ واحدٍ؛ لهذا لا يجبرون الأسرى الأكبر سنّاً على فعل ذلك.

كان قلبي يخفق بشدّة، نعم أرغب كثيراً بالحرية، مع العلم أن لا ضماناً لتنفيد العراقيّين لوعودهم. كان الشيطان يوسوس لي. كنت أريد الذّئب والعنب معاً⁽¹⁾، الدنيا والآخرة معاً. لكن لم أشأ الوصول إلى

(1) مصطلح يعني «كلا الأمرين» ويقصد بهما العزّة والحرية.

ذلك بإرافة ماء الوجه، أو بجلب العار لي ولبلادي، كنت أعلم أنّ هذه المقابلة ورقةٌ إعلاميةٌ رابحةٌ بيد العدو من أجل أن يقدم لي المقدم إثباتاً على حسن نواياه، ووعوده، سألني عن مكان ولادتي :

- من أيّ محافظة أنت؟

- من محافظة «كهكيلوية وبوير أحمد».

وبينما كان يقبّل الأوراق على الطاولة كرّر اسم محافظة (كوكيلوي أحمد)⁽¹⁾، ثم أخرج لائحة من داخل إحدى الملفات، وقرأ أسماء ثلاثة أشخاص من المحافظة نفسها، والذين كما يدّعي سوف يُطلق سراحهم. فقرأ أسماء: «أحمد سعيدي»، «سلمان غلامي مقدّم»، و«عبد المجيد محمّدي فر».

صدّقته في البداية، فأنا أعرف اثنين منهم، «أحمد سعيدي»، و«سلمان غلامي مقدّم»، أسّر الاثنان في جزيرة «مجنون»، وقد رافقني أحمد طوال رحلة الأسر من الجبهة الأمامية حتّى سجن الرشيد، لكنني لم ألتق «عبد المجيد محمّدي فر» من قبل. تابع المقدّم كلامه قائلاً: «لقد صدر أمر إطلاق سراحك أنت وهؤلاء الثلاثة، والآن الأمر يعود لك وحدك».

كان الشيطان يوسوس لي، فيقول: «يا سيّد، اغتنم الفرصة، قم بإجراء المقابلة، وعد إلى إيران، لم التردّد؟! فليذهب ماء الوجه إلى الجحيم، إن لم تغتنم هذه الفرصة للتخلّص من هذا الجحيم، فقد لا تسنح لك ثانية». كانت الأفكار تتدافع في رأسي، فقطع المقدّم عليّ حبل أفكاره، ووضع نص المقابلة بين يديّ.

(1) لم يكن العراقيون يجيدون لفظ اسم المنطقة بشكل صحيح.

كانت الأسئلة مدوّنة على صفحتين.. وباللغة الفارسيّة..، قرأتها بكلّ تَمَعْنٍ ودقّةٍ، كان لديّ فكرة عن طبيعة هذه الأسئلة، وعندما قرأتها تيقّنت من صحة حدّسي.

انشغلت بقراءة الأسئلة، فقال لي المقدّم: «إن كنت تخاف العودة إلى إيران بعد إجراء المقابلة يمكنك طلب اللجوء، والبقاء في العراق».

كان جواب السؤال حول سبب مشاركتي في الحرب على الشكل التالي: «أصدر آية الله الخميني قائد إيران، فتوى بوجود المشاركة في جبهات القتال، وأن لا حاجة لأخذ الإذن من الوالدين؛ لذا أحضروني أنا وزملائي في المدرسة مرغمين إلى جبهات القتال دون إذن أولياء أمورنا». أمّا جواب السؤال حول معاملة العراقيين لنا، فكان ما يلي: «كانت معاملة العراقيين لنا جيّدة، حتّى عندما أسرونا في الجبهة الأمامية، قدموا لنا الماء والطعام، ومن ثمّ نقلونا بكلّ احترام إلى خلف جبهات القتال، ونحن الآن في مستشفى الرشيد في بغداد، في حين أنّ حرس ثورة الخميني يعاملون الأسرى العراقيين بقسوة شديدة، فهم يُطلقون النار عليهم بعد الأسر، ويظلمونهم كثيراً».

وحول إذا ما كنّا نادمين على المشاركة في القتال، كان الجواب: «أنا، ومن هم في مثل سنّي، لم نوافق أبداً على المشاركة في الحرب، لكن الحرس الثوري غرّر بنا، وأحضرنا إلى الجبهة بالقوّة. أنا نادم كثيراً على مشاركتي في القتال، وحزين جداً؛ بسبب البلاء الذي أصابني».

عندما قرأت نصّ المقابلة، تأثّرت، وغضبت كثيراً، وأدركت ما

عليّ قوله. أبعدت وساوس الشيطان عني، تشجّعت، وقلت، للمقدم..
بكثيرٍ من الهدوء، وبيرودة الأعصاب..: «لقد قرأتُ هذه، [في إشارة
إلى الإجابات]، صحيح أن عمري 16 عامًا فحسب، وربما أنا بنظركم
مجرد ولدٍ صغيرٍ لا يفقه شيئاً، إلّا أنّني لا أنكر بأنني مجاهد، وقد
اعترفت بذلك أثناء التحقيق، وفي إيران لا يجبرون أحداً على
الذهاب إلى الجبهات، ولم يذهب من هم في مثل سنّي إلى الجبهات
دون إذن الوالدين، فالمركز في المسجد، لا يسجّل أسماءنا إن لم
نحضر لهم استمارة الموافقة الموقعة من الوالدين».

- تعني أنّك لا تريد العودة إلى إيران؟

- بلى، أتمنّى ذلك كثيراً، لكن ليس بهذه الطريقة، لقد فقدت أخي
في الحرب، كما فقدت قدمي، وفوق هذا أسرت، عليكم أن تتصفوني
إن فكّرت بحفظ ماء الوجه.

- أنت لا تعي ما تقوله، ولا ما تفعله، فقد لقّنك الحرس الثوريّ
للخمينيّ هذا الكلام، لقد سيطر الخمينيّ على عقلك، اللعنة عليك،
أيّها الأحمق.

حاولت أن لا ألتفت إلى ما يقوله، لكن عندما بالغ في تحقيري تابعت:
«لقد أُوذيتُ كثيراً خلال هذه المدة، يشهد الله أنّني زوّرت بطاقة
الهويّة، وزوّرت تاريخ ولادتي؛ كي أتمكّن من الالتحاق بالجبهة، إن
كان هناك من مذنبٍ في هذه القضية، فهو أنا».

سمح العراقيّون لي بالعودة إلى المركز الصّحّي، وعندما كنت
أهمّ بالخروج من الغرفة، قال لي المقدّم: «كان سيطلق سراحك مع

زملائك⁽¹⁾ لكّنك لم تشأ ذلك».

سُررت لأنني واجهت أشخاصاً منطقيين، ولو بالظاهر، فلم يتعرّضوا لي بالأذية، الأذى الوحيد الذي سبّبوه لي أنّهم أرسلوني إلى معتقل أسرى «مفقودي الأثر»، وليس إلى معتقل الأسرى الجرحى. عدت إلى المركز الصحي، وكنت أعلم بأنّ «قاسم فقيه»، من بلدة «خورموج» في «خرمشهر»، سيكون ضحية مناسبة لهم، فقد كان في مثل عمري، ما إن وصلت إلى المركز حتّى أخبرت «قاسم» بما جرى، وطلبت منه أن لا يقع ضحية مكرهم. «قاسم» إنسانٌ بسيطٌ، وقليل الكلام، لكن في الوقت نفسه غيور وملتزم. بعد ساعة، عاد «سعدون فياض» ضابط الاستخبارات في المعتقل مع اثنين من الحرّاس، وأخذوا «قاسماً» إلى غرفة الدكتور «عزيز ناصر»، لقد أخبرهم «قاسم» أيضاً بأنّه زور بطاقة هويته، ليتمكّن من الالتحاق بالجبهة.

لم يفهم العراقيّون أيّ خدع استخدمها الأولاد الذين هم في مثل عمري، ليتمكّنوا من الالتحاق بالجبهة، وتداعت إلى ذهني ذكريات صيف 1984م، حينما هربت أنا و«كرامت» من المنزل للتحقق بجبهات القتال⁽²⁾.

(1) أسرت مع «أحمد سعدي» و«سلمان غلامي»، من بلدة «سوق» من توابع «كهكيلويه» عام 25 تموز 1988 في جزيرة «مجنون»، وقد أطلق سراحهما بعد 6 أشهر من الأسر؛ بسبب شدة جراحهما، كما أطلق سراح «عبد المجيد محمدي» في التاريخ نفسه من دون إجراء المقابلة، ذلك أنّهم كانوا أكبر سنّاً مني، وهذا لا يساعدهم على تحقيق أهدافهم الإعلامية، بينما حذف اسمي من لائحة المفرج عنهم.. (وذلك باعتراف العراقيّين أنفسهم)؛ لرفضني إجراء المقابلة.

(2) لقد هربت من المنزل برفقة زميلي في المدرسة «كرامت محمدي» الذي استشهد أخوه. حاولنا كثيرًا الالتحاق بالجبهة، لكنّنا لم نفلح لصغر سننا، فقرّرنا أن نجرب حظنا في مدينة شيراز، فكُنّا.. ومن أجل الحصول على ثمن بطاقات السفر بالحافلة إلى المدينة، نبيع البلاستيك في شارع الشهيد «بلاديان كجساران». وفي أحد الأيام، رأيت أخي «السيد نصرت الله»، وكنت منزعجاً منه؛ لأنّه لو شاء لاستطاع

الأحد 17 تموز 1988 - مستشفى الرشيد - بغداد

كان قلبي يتألم من أجل «قاسم». قام الإخوة في الصباح الباكر بتدليك قدمه بالماء الساخن، لكن دون فائدة. لم يستطع مدّ قدمه، لم يستطع ذلك إلا بعد أن أخرجوا له الرصاصة من ركبته، لقد ضعفت عضلة قدمه، وهزلت كثيرًا. بالمناسبة، كان «قاسم» أنحف جريح في القسم.

جاء الدكتور «ناصر عزيز» قرابة الظهر، وقال: وين «قاسم كوك علي حسين»؟. الدكتور «عزيزي» والممرضون في القسم لم يكونوا قادرين على لفظ اسمه بالشكل الصحيح فكانوا ينادونه «كوك علي»

أن يساعدنا في تسجيل أسمائنا، والالتحاق بجبهات القتال؛ لذلك لم أشأ أن يراني، فاختبأت خلف أحد الأعمدة هناك. بعد ذلك لجأنا إلى بيع التين؛ بالاستفادة من ميزان دكان والد أحد الأصدقاء، وكنت علاوة على ذلك أذكر كل ما أحصل عليه من مصروف. ولو كان أخوالي يعلمون أن ما يعطونني إياه أذكره من أجل الجبهة لما أعطوني شيئاً. صيف عام 1984، وبعد نهاية العام الدراسي، كنت أنا و«كرامت» على استعداد للهرب، فقد ادخرت 1500 تومن، وكرامت 800 تومن. ارتدينا اللباس العسكري الذي أخذناه خلسة من أخواننا، وقمنا بتقصيره ليناسبنا، ومن ثم غادرنا منزلنا دون أن نخبر أحداً، واتجهنا نحو شيراز. هناك قمنا بتزوير تاريخ الولادة، لكن بطريقة غير مثقنة، فلم يقبل بها أحد، ولم يسمحوا لنا بالانضمام إليهم، والذهاب معهم إلى جبهات القتال. وطلبوا منا العودة إلى المنزل. لعدة أيام كنا ننام في صناديق الكرتون على قارعة الطريق، ونأكل الخبز فحسب، وعندما علم أفراد التعبئة أننا بلا مأوى سمحوا لنا بالإقامة في الحسينية لعدة أيام. بعدها طلبوا منا بشدة العودة إلى منازلنا، وقد شارف المال الذي بجوزتنا على النفاذ. العودة إلى المنزل كانت صعبة عليّ مع تلك الرسالة التي كتبها لوالدي، والتي أخبرته فيها بأنني في الجبهة حيث تتساقط علينا نيران الأعداء، وبأنني لن أسمح للعدو بالتقدم إلى مدنتنا والاستيلاء على أرضنا، وأن لا يبك عليّ إن استشهدت. بسبب صغر سنّي لم ألتفت إلى أن عنوان البريد المرسل منه الرسالة يكون مدوناً خلفها، فافترض أنني، وكنت محطاً لتدبر أهلي، وخاصة أخي «السيد هدايت الله» لمدة من الزمن. وكنت أأجل من الحضور بينهم، فقد سألني أخي مرة أقسم عليك أن تخبرني أين كنت عندما كتبت تلك الرسالة. بأنك الآن في كردستان، وأنتك تقاات البعثيين العفالة، وأنه لا يجب البكاء على الشهيد، وأن نيران الأعداء تنصب عليك من كل حذب وصوب. ٩. مع أنني كنت خجلاً من نفسي فإنني أجبت بأنني كنت في محطة الحافلات في شيراز. ما إن قلت ذلك حتى تعالت ضحكات الجميع.

بدل «كرك علي»، أحضر الدكتور «عزيز ناصر» معه صورة الأشعة لقدم قاسم، كانت رصاصة «الكلاشنكوف» قد اخترقت ركبته، واستقرت فيها بزاوية 90 درجة، أشار الدكتور مسرورًا إلى مكان الرصاصة وقال لقاسم:

- انظر يا قاسم إلى مدى دقة قناصينا في إصابة الهدف!
فأجابه قاسم: «قناصوكم ليسوا دقيقين على الإطلاق، فهم أطلقوا النار عليّ بهدف قتلي، لكنهم أصابوا قدمي، وأي شخص مبتدئ يستطيع فعل ذلك».

- لسانك طويل جدًا

- لا أقصد الإساءة، لكن أهداف القناصين كانت إنصافًا دقيقة جدًا؟

قراية الظهر، أحضروا أسيرًا من «مستشفى 17 تموز»، اسمه «باقر درخشان»⁽¹⁾. تقع تلك المستشفى في «الفلوجة»، وكانت تضم عددًا آخر من الجرحى الإيرانيين. كان باقر من فصيلة القوة الضاربة في (أسطول) «أمير المؤمنين (عليه السلام)» البحري، وقد أُسرق سائر الكمين الأمامي لكتيبة «الإمام الحسن (عليه السلام)» في «جزيرة مجنون الجنوبية». لم يبقَ أي جزء سالم في جسمه، أصيب في رأسه، ووجهه، وفكيه، وتحطمت أسنانه الأمامية إثر أصابته بشظية قذيفة «هاون»، جروح وجهه كانت عميقة جدًا، وظهره كان مليئًا بالدوب الملتهبة، كما غطت الكدمات معظم جسمه؛ جراء الضرب المبرح. يُقرأ من عينيه

(1) عمل بعد الحرية في مصفاة الغاز «الفجر» في «كنكان عسليوه».

أنَّه إنسان مقاوم وصبور. عندما جُرح بقي مَغْشِيًّا عليه إلى غروب ذاك اليوم. عند المغيب، جمع العراقيّون جثث الشهداء في حفرة مائيّة، تمهيدًا لتغطيتهم بالتراب بواسطة الجرّافة. عندما بدأت الجرّافة عملها، عاد باقر إلى وعيه، أراد بعض العراقيّين دفنه حيًّا مع باقي الجثث، لكن الجنود الشيعة عارضوهم، فأُنقذه اثنان من أصحاب الضمير الحيّ، ونقلوه إلى خلف جبهات القتال. اليوم أخبرني بنفسه عما جرى معه.

شعرت بالرّافة تجاه «باقر»، وأصبحنا صديقين حميمين. بسبب تحطّم أسنانه لم يستطع تناول شيء غير السوائل، وعندما قلت له: «إن شاء الله ستحرّر وتعود إلى إيران، فيعالجك طبيب الأسنان»، ضحك، وقال: «وما أدراك لربما شاء الله لي أن أستشهد هنا في العراق، فلا أحتاج لكلّ تلك المصاريف من أجل علاج وجهي وفكّي». قال «باقر» بروحه المتسامية: «إذا كان من المقرر أن أستشهد، فلم كلّ تلك المصاريف من أجل علاج وجه سيّلي؟»

كان باقر منسلخًا عن الدنيا، وعندما كان الإخوة يواسونه؛ بسبب ما أصاب وجهه، كان يقول لهم: «لا تقلقوا بشأن وجهي، وقلقوا بشأن أنفسكم»، ثمّ قال لي: «يا سيد! جمالُ الوجه دنيويّ، وقصير الأمد، فما أكثر أصحاب المُحيا الجميل، جاءوا إلى هذه الدنيا، ورحلوا، ولم يبق لهم ذكرٌ أو أثر؟! يجب أن تكون أعمالنا جميلة، وأن لا تقيدنا هذه الأمور». كانت لي بداية جيّدة مع «باقر».

أحضروا بعد الظهر «السّيّد محمّد شفاعت منش» من غرفة العمليات، لا أدري لمّ لمّ يكن الطبيب العراقيّ على استعداد لوضع

قطعة بسيطة من البلاتين لا يتعدى طولها 10 سم بدل كل هذه الأسياخ المعدنية؟! كانت ساقه بحاجة إلى شخص يهتم بها، ويراقبها على الدوام، لقد تهشمت عظام ساق «السيد محمد» من أعلى الركبة إلى أسفل عظام الحوض؛ إثر إصابته برصاصة قناص. أحدث الدكتور ثلاثة ثقوب في أعلى ركبته، وثلاثة أخرى أسفل عظام الحوض، ثم أخرج من هذه الثقوب ثلاثة أسياخ معدنية بشكل أفقي، يتراوح طولها ما بين 15 إلى 16 سم، ثم قام بوصل الأسياخ الثلاثة العليا مع السفلى بثلاثة أسياخ عامودية، وثبتها بواسطة البراغي. ظلت تلك الأسياخ تسبب للسيد محمد الأذى والعذاب لسنتين، خاصة في ذلك المكان المزدحم، إلى أن قام الدكتور بنزعها له قبل حوالي شهرين من تاريخ تحريرنا (1).

الاثنين 18 تموز 1988 - مستشفى الرشيد - بغداد

بعد ظهر هذا اليوم، وافقت إيران على قرار الأمم المتحدة رقم (598)، ونحن لم نكن على علم بذلك، لم أكن أصدق ذلك، فقد أنست بالحرب، وتوديعها مؤلم جداً بالنسبة إليّ. لا أدري لم تعلقت بالحرب إلى هذه الدرجة، ربما بسبب الدشم الصغيرة التي لا يزيد ارتفاع سقفها عن سقف المنازل العصرية اليوم. وبمناسبة انتهاء الحرب طلب صدام من العراقيين الاحتفال لمدة سنة كاملة.

(1) لقد قاموا بنزع الأسياخ من قدمه صيف عام 1990 من دون استخدام المخدر، وقالوا: إنَّ على عناصر تعبئة الخميني تحمل الألم، فقال لهم: أنا على استعداد لتحمل شتى أنواع الألم، لكن قيّدوا قدمي ويدي جيداً بالسريّر، واسمحوا لي بقراءة القرآن الكريم.

الثلاثاء 19 تموز 1988 - مستشفى الرشيد - بغداد

كنّا نسمع هلهلات العراقيين من الخارج احتفالاً بالقرار (598). كذلك دخل الدكتور «عزيز ناصر» والممرضون بسعادة لا توصف إلى القسم، وكان برفقته «لطيف دهقان»، فقال: «لقد انتهت الحرب، لقد وافقت إيران على القرار (598).

شعر الإخوة بالإحباط من هول الصدمة، لقد سيطر علينا الحزن والغمّ عندما سمعنا هذا الخبر. تفاجأ الدكتور والممرضون وحرّاس القسم من ردّة فعلنا، وتعجّبوا كثيراً: لأنّنا لم نفرح لهذا الخبر. فسألنا الدكتور: «ما بكم؟! على الأقل بانتهاء الحرب ستعودون أنتم إلى بلادكم، ويعود أسراننا إلى بلدنا».

بكيتُ كثيراً. كان الإخوة يؤمنون بقرارات الإمام وحكمته. أمّا بعض العراقيين كانوا ينظرون بشكٍّ وريبةٍ إلى قبول إيران بالقرار (598)، وكانوا يقولون: «أنتم تخذعوننا، وتكذبون بشأن قبولكم بالقرار، أنتم تهدفون إلى إعادة بناء قوّتكم العسكرية؛ لتتمكّنوا من الهجوم ثانية على العراق». لم يستطع معظم الإخوة تمالك أنفسهم عن البكاء، مع أنّ الحرب مكروهة بحد ذاتها، إلّا أنّ بكاء الإخوة كان لشيءٍ آخر. الحرب التي استمرت ثماني سنوات، والتي فرضها علينا الاستكبار الشرقي والغربي والأوروبي مع الدول العربيّة، علاوةً على آثارها المدمّرة، كان لها مكاسب عديدة، وحزنُ الأخوة ليس بسبب انتهاء الحرب، بل لأنّنا كنّا نشعر بأنّ كل تلك الفضائل، والمعنويات، والشوق الجهادي، والإلهي الثوري، قد انتهت.

كيف نستطيع أن نفهم العراقيين بأنّ الجبهة محل صناعة

للإنسان، الجبهة أرض العبودية والولاء. كيف لنا أن نفهمهم بأن في دُشمننا وخيمنا الجماعية قد رسخت مفاهيم الصمود، الصبر، التعفّف، نبذ الظلم، الوفاء، الاستقامة، التواضع، الصدق، العفو، الحمد، الوطنية، المروءة، المحبة، الكمال، الاعتماد على الذات، الإخلاص، الصداقة، الإنصاف، التعاطف، التوكل، الرضا، الخشوع، الخضوع، المعرفة، الأدب، الكرم، العزة، الكرامة، الأمانة، اليقين، والانتظار؟.

قال الدكتور: «لا أستطيع أن أفهم سبب انزعاجكم من سماع خبر طيّب كهذا؟! إذ ليس من خبر آخر قد يفرح العراقيين بقدر هذا الخبر». كان العراقيون يقيمون الاحتفالات في كل أنحاء العراق، شاهدنا ذلك على شاشة التلفزيون العراقي، فقد نزل الناس إلى الأزقة والشوارع يَعتقدون حلقات «الدبكة»، احتفالاً بانتهاء حرب استمرت ثماني سنوات.

لم تسع الفرحة الحراس والممرضين، وكانوا يقولون لنا: «هيا افرحوا أنتم أيضاً، عبّروا عن ذلك، ارقصوا وغنّوا وصفّقوا». لهم الحقّ في أن يفرحوا. كان «توفيق أحمد» حارساً مثقفاً، قال لنا: «هذه الحرب لم تجلب للعراق سوى 70 مليار دولارٍ من الديون الخارجية، ومئات الآلاف من القتلى و...».

الأربعاء 20 تموز 1988 - مستشفى الرشيد - بغداد

بعد ظهر هذا اليوم، تشاجرت مع مسؤول الممرضين، فالعراقيون لم يعطوني مضادات الالتهابات إلا في الأيام الثلاثة الأولى بعد إجراء

عملية البتر، كان جرحي قد التهب كثيراً، وعندما طلبتُ من الممرض مضاداً للالتهاب، كالعادة قال لي: «يجب إعطاء الإيرانيين الرصاص بدل مضادات الالتهاب».

- مكانُ رصاصاتكم التي أصابت بدني هي في ذاكرتي.
دخل الدكتور، الذي كان يزور الأسرى الجرحى مرةً كل ثلاثة أيام إلى القسم، وأخبر «نصر الله» بأنه يجب قطع يده، وقد صدّقهم «نصر الله» للوهلة الأولى، فالعراقيون كانوا جاهزين دائماً لقطع أيدي وأرجل الأسرى الإيرانيين. أرادوا قطع يد «نصر الله» اليسرى التي أُصِبت بعدد من الطلقات فتهشّمت عظامها، لكنها لم تكن بحاجة إلا لوضع قطعة من البلاطين ريثماً تلتئم كسور العظام.

لم أكن أريد أن تُقطع يد «نصر الله»، فقلت له: «نصر الله» هؤلاء الأطباء مجرد طلاب في كلية الطب، وقد أخبرنا «توفيق أحمد» بأنهم إلى جانب دراستهم يقومون بالتطبيق العملي بإشراف الأطباء المتخصصين، ويرغبون كثيراً بإجراء العمليات الجراحية لاكتساب التجارب.

جاء الممرضون لاصطحاب «نصر الله» إلى غرفة العمليات، فرفض ذلك. وكانوا قبل عدة أيام يريدون قطع ساق «قاسم فقيه» من الركبة فرفض ذلك أيضاً. قال لهم «نصر الله»: «لن اذهب إلى غرفة العمليات». فقالوا له:

- سنسوّد يدك وتموت.

- لا يهم. إذا اسودّت، عندها يمكنكم قطعها.

بعد شهر شفيت يده، لكن كسور العظام التأمّت بشكل غير صحيح، حينها قال لي «نصر الله»: «لولا مشورتك لفقدت يدي».

كانوا قد أحضروا قبل الظهر جريحين جديدين من سجن الرشيد، أحدهما أصابته شظية في وجهه، فذهبت بعضلات خدّه الأيسر، وتشوّه وجهه، وأنفه كلياً. كما تضرّر فكّه الأسفل وأسنانه، كان من عناصر الجيش الإيراني، وقد أُسر في منطقة «دهلران». أخبرني بأنّ دبابة عراقية تعقّبتة في الصحراء، فقد أراد قائد الدبابة أن يتسلّى في ملاحقته، كان يعدو في الصحراء؛ كي لا تدوسه الدبابة، وفي النهاية سقط أرضاً، بعد أن أنهكه التعب، لكن الدبابة لم تدس سوى على قدمه، نسيّت اسمه، لكنني أذكر أنّه كان جندياً في «فرقة حمزه 21».

الخميس 21 تموز 1988 - مستشفى الرشيد - بغداد

عصر هذا اليوم حدّثنا «توفيق أحمد» عن الإمام الخميني والقرار (598)، وعن كأس السمّ، لم أفهم قصده تماماً، لكن حسبما قال، فالإمام الخميني وجّه البارحة رسالةً حول القرار (598)، وما إن سمعنا كلام الإمام حول «كأس السمّ الذي تجرّعه» حتّى فاضت دموعنا، وأردنا سماع المزيد عن الإمام وإيران.

الجمعة 22 تموز 1988 - مستشفى الرشيد - بغداد

تم نقل عددٍ من جرحى القسم المجاور إلى المعتقل المركزي، مع أن أكثرهم كان لا يزال بحاجة للعناية الطبية، كما تم صباح هذا اليوم، وبأمر من الدكتور، تنظيف فناء المستشفى بالماء، فمُسحت أرضيات غرف المركز الصحي ورتّبت. أخبرنا الدكتور بأنّ عددًا من مسؤولي المركز الصحي التابع للجيش العراقي سيزورون المكان مع عددٍ من الأطباء المدنيين.

الحارس الذي علمت باسمه حديثاً ويُدعى «عبد الجبار»، قال للجرحى: «لا يحقّ لكم الاعتراض على المركز الصحيّ أمام الأطباء المدنيين، أو أمام العقيد».

كما أكّد الدكتور «عزيز ناصر» بنفسه: «إذا سُئِلْتُم عن العناية الطبيّة، والاهتمام بكم هنا، فقولوا إنّ كلّ شيء على ما يرام، لا تواجهكم مشاكل على الإطلاق».

وقال «عبد الجبار»: إذا تفوّهتُم بغير هذا فسيكون حسابكم بعد رحيلهم عسيراً. وتابع الدكتور: ولا يحقّ لكم إخبارهم عن الجرحى الإيرانيّين الذين قتلوا في هذه المستشفى.

بعد أن انتهوا من التهديد والوعيد نقلونا إلى القسم المجاور، وقبل وصول العقيد والأطباء، أحضروا الأذرة والفرش للجرحى الذين كانوا ينامون على الأرض.

لقد توّسل القيّمون على القسم بشتّى السبل؛ لإظهار المكان بأفضل صورة أمام الضبّاط المفتشّين، فرتّبوا كلّ شيء ونظّموه. كان بين الجرحى رجل كرديّ عجوز، ناهز السبعين من العمر، وقد أُسر مع ابنه - الموجود حالياً في سجن الرشيد - بالقرب من حدود محافظة «إيلام» الإيرانيّة. كان العجوز نحيل الجسم، أوهنه الضعف، فبالكاد يستطيع فتح جفنيه. رجاهم كثيراً أن لا يفرّقوا بينه وبين ابنه، لكن أحدًا لم يصنع إلى رجائه. فرح العجوز كثيراً عندما علم بزيارة العقيد، وقد أدرك العراقيون أنّه سيطلب من العقيد إرساله إلى ابنه، فقد أخبر أحد الحراس بالأمر. أحضروا له «دشداشة» عربيّة، وطلب منه حارس القسم «غانم حسان» أن لا يذكر شيئاً عن هذا الموضوع. أظنّ أنّهم

لم يريدوا أن يُذكر هذا الموضوع أمام الأطباء المدنيّين. قال «أحمد شريفي»: «عندما كانوا يجلدون ابنه بالسوط في سجن الرشيد، هجم على الحارس محاولاً نزع السوط منه، لو كنت حاضراً لترى مدى فجاعة المشهد، انهال الحراس بالسياط على الأب والابن كزخّات المطر، وفي النهاية، عندما علموا أنّ العجوز والد الشاب تراجعوا عن جلدهما».

حاول الدكتور «عزيز ناصر» أن لا يقول له شيئاً، لكن «عبد الجبار» سيئ الخلق، تصرّف بكلّ حقارة مع العجوز «الإيلامي»، وقال له: «اسمع أيّها العجوز، والله العظيم إذا تفوّهت بشيء عن ابنك للعقيد فسأقطع لسانك، يجب أن لا يعلم الأطباء المدنيّون بالأسرار العسكريّة».

استاء «هادي كنجي» أكثر من غيره لهذا التصرّف، فقال «لعبد الجبار»: صحيح أن هذا العجوز أسير عندكم، لكنّه في سنّ والدك، كيف ستصرّف إن تحدّث أحدهم بهذه الطريقة إلى والدك؟! - ومتى كان عدوّي أباً لي؟!

انزعج العجوز الكرديّ منه كثيراً، وقال: «اللجنة على من يسأل الناس شيئاً دون ربّ العالمين، لن أطلب من عقيدكم شيئاً، كنت سأطلب منه أن يرسلني إلى ابني، لكن صرفت النظر عن ذلك، سأطلب ابني من الله، وليس منكم».

تنفيذاً لأوامر الدكتور، أحضروا عدداً من أباريق مياه الشرب، ووضعوها على حافة النافذة. وصل العقيد العراقيّ قبل الظهر، كان مربوع القامة، كثيف الحاجبين، ممتلئ الوجه، أسمر اللون، وكان

برفقته عددٌ من الأطباء باللباس المدنيّ، دخلوا إلى القسم، وكان الإخوة يجلسون في الممرّ بهدوء وصمت، الجميع بقي صامتاً، قدّم الدكتور «عزيز ناصر» للعقيد والأطباء تقريراً حول أوضاع الأسرى الجرحى، هزّ العقيد، القادم من المركز الصحيّ التابع للفيلق العراقيّ، رأسه علامة على الرضا، أعتقد أنّ تقرير الدكتور «عزيز ناصر» كان على الشكل التالي: يتم تغيير ضمادات جروحهم يومياً، ويُقدّم لهم الطّعام المناسب. تم إجراء أغلب العمليات الجراحية لهم في هذه المستشفى. نسمح لهم بالخروج واستنشاق الهواء، ولا أحد يضايقهم هنا، كما ونعاملهم معاملة إنسانيّة.

أنصت العقيد إلى تقرير الدكتور، ثمّ نادى المترجم الإيرانيّ «لطيف» وقال:

- لقد تجرّع قائدكم كأس السّم، لقد انتهت الحرب، أعلمتم بذلك؟
- لقد عقد الإمام الحسن المجتبيّ عليه السلام الصلح مع معاوية أيضاً، نحن جميعنا نحترم قرارات إمامنا.

بدا العقيد كأنّه مستمع جيّد، ثمّ قال: «أنتم الإيرانيّون تكذبون في هذا الشأن، فقواتكم تتحصّر لشنّ هجوم جديد على العراق، نحن نعلم أنّكم تخدعوننا».

- الجميع يعلم أنّ قائدنا لا يكذب، ولا يخادع.
وقال «هادي كنجي»: لم أشأ ذكر المثل القائل: «الكافر يعتقد أنّ الجميع على شاكلته». وأنتم تعتقدون أنّنا مثلكم؟!
- على أيّ حال، وبما أنّنا نعرف أنّكم تكذبون، قرّرنا أن نهجم على

بلادكم⁽¹⁾، تمامًا كما بدأت الحرب، سنقوم باحتلال مناطق من بلدكم تمكّننا من فرض شروطنا عليكم في المفاوضات القادمة، وأن نتزع منكم «شطّ العرب».

فقال له أسيرٌ جريحٌ من ضباط الجيش الإيرانيّ، من فرقة «حمزه 21»: «من جهة توافقون على وقف إطلاق النار، ومن جهة أخرى تقومون بالهجوم على الحدود الإيرانية، كيف ستسوّغون تصرفاتكم للعالم؟». من بين كلّ الكلام الذي تبادلناه مع العقيد، أشعل كلام الضابط الإيرانيّ غيظه، ففرّ العقيد من الساحة، وقال بكثير من الغرور والتعجرف: «وهل من المقرر أن يسوّغ الرئيس القائد تصرفاته لأحد؟ نحن لا نسوّغ تصرفاتنا لأحد، أعني: إنه ليس علينا فعل ذلك». كان الغرور والتكبر باديين في كلّ كلمة قالها. فقلت له: «وحتّى الله؟».

السبت 23 تموز 1988 - مستشفى الرشيد - بغداد

اليوم كان عدد من الممرّضين والحراس عصبيّي المزاج، فقد منعوا عنّا الحليب وطعام الفطور، بل حتّى الدواء، وتغيير الضمادات. أخبرنا «توفيق أحمد» الذي تربطنا به علاقة طيّبة عن سبب غضب العراقيّين، كان يحمل معه صحيفة «القادسية»، فأشار إلى خبر في الصفحة الثانية، وقال: «العراقيّون غاضبون بسبب مقتل أحد القادة في هجمات البارحة». لقد نُشرت صورة القائد العسكريّ البعثيّ في الصفحة الثانية من صحيفة القادسيّة، ويدعى «سالم محمّد عليّ

(1) قام العراق بالهجوم على الأراضي الإيرانية بعد 4 أيّام من القبول بالقرار (598)، وقرأ دهقان هذا الخبر في الصحف العراقية، وترجمه لنا.

حمودي»، قائد «لواء المشاة الخامس» في الجيش العراقي الذي قتل البارحة في «شلمجة» على يد قواتنا، وفي الصفحة الأولى من الصحيفة ذاتها كُتب بالخط العريض ما يلي: «إلى الأمام يا أحفاد خالد وسعد وصلاح الدين، يا رجال قادسيّة صدام».

الثلاثاء 26 تموز 1988 - مستشفى الرشيد - بغداد

عند الظهيرة كانت الفرحة بادية على وجوه العراقيين، كالعادة أردت أن أعرف سببها، فقد رأيت الفرحة تغمر وجوه العراقيين ثلاث مرّات حتّى هذا اليوم، المرّة الأولى عندما كنت في سجن الرشيد، حينها وصلنا خبر قصف القوّات البحريّة الأمريكيّة للطائرة المدنيّة الإيرانيّة، المرّة الثانية منذ عدّة أيّام، عندما وافقت إيران على القرار (598)، واليوم هي المرّة الثالثة التي أراهم فيها فرحين بهذا الشكل، ناديت «لطيف دهقان» من خلف النافذة وسألته:

- ماذا هناك يا لطيف؟ لمّ العراقيّون سعداء هكذا؟

- لقد هجم «المنافقون» على إيران.

- هكذا إذن! لأجل هذا صدّحت أصواتهم؟!

بعد قبول إيران بالقرار 598، استخدم صدام آخر ورقة رابحة في يده، ألا وهي «المنافقين». دخل الدكتور «عزیز ناصر» الذي كان مهتمّاً بتلك المواضيع إلى القسم وقال:

- لقد انتهى أمر إيران .

- وكيف ذلك يا دكتور؟ هل لأنّها وافقت على القرار؟

عندما سمعت كلام الدكتور أدركت أنّه لا يعني القرار، فالبارحة

قامت منظمة «المنافقين»، وبمساعدة الجيش العراقيّ بالهجوم على حدود إيران الغربيّة، ودخلوا اليوم منطقة «سربل ذهاب»، و«إسلام آباد». انتهت الحرب، وعلى الرغم من القبول بالقرار 598، فإنّ الجيش العراقيّ هاجم الأراضي الإيرانيّة. تحدّث «غانم حسن، وسعدون فياض» ضابطا الاستخبارات عن النصر، إلّا أنّ أشخاصاً منصفين، أمثال «توفيق أحمد» تحدّثوا عن هزيمة نكراء.

وقد أعلن التلفزيون العراقيّ أنّ أئمة المساجد في إيران قد ارتدوا زيّ المجاهدين، وانطلقوا إلى جبهات القتال أيضاً. بدايةً لم يفصح العراقيّون عن دعمهم لمنظمة «المنافقين»، إلّا أنّ الصحف العراقيّة لم تستطع إبقاء الأمر طيّ الكتمان، كان الجميع فرحين، ما عدا «توفيق أحمد». يحقّ لهم ذلك، فهجوم المنافقين على إيران كان آخر ورقة رابحة في يد العراقيّين.

تعجّبنا كثيراً لوقوع المعارك بعد صدور القرار، وعلمنا، من خلال المعلومات التي زوّدنا بها «لطيف دهقان»، أنّ عملاء المنظمة، وبقية «مسعود رجوي»، قد هاجموا إيران تحت عنوان «عمليات النور الخالد»⁽¹⁾، وأعلن «مسعود رجوي» في مقابلة بثّها التلفزيون

(1) لقد قامت منظمة مجاهدي خلق، وبعد 9 أيام من قبول إيران بالقرار 598، بجمع عناصرها من الدول الأوروبية الذين بلغ عددهم حوالي 15 ألف عنصر مدعّمين بالآلة العسكريّة العراقيّة، وانقضوا على الحدود الغربيّة لإيران، وقد ساندتهم القوّات الجويّة العراقيّة أيضاً، فاحتلوا بعض المناطق الحدوديّة، وقتلوا عناصر من حزب الله الإيرانيّ، وأحرقوا المستشفيات. لكن الشعب الإيرانيّ الغيور، وبعد اطلاعه على أمر الهجوم، توجّه إلى الحدود الغربيّة للبلاد وصدّ هجومهم. فقتل للمنافقين 4800 عنصراً من عناصرهم، إضافة إلى مئات الجرحى، وكانت تلك المنظمة قد قدّمت خدمات جليلة لصدام طوال سنوات الحرب، من القيام بعمليات اغتيال، وتجسس، وبثّ الشائعات، وجمع المعلومات العسكريّة، وتقديمها للعدوّ.

العراقي أنّ كلّ (تشكيل) من وحدات «المنافقين» تساوي ثلاث أو أربع وحدات من الحرس الثوريّ، والجيش الإيراني. ووعد جنوده بأن عملية «النور الخالد» ستكون تحت شعار «ذهاب بلا إياب»، وسوف تقضي على الثورة، وعلى حكومة رجال الدين.

قال العراقيّون: إنّ رجوي، قال في لقائه مع صدام: عليكم تأمين الأعداة والذخائر العسكريّة الحديثة لنا، وعلينا نحن أسر الخمينيّ، وجلبه إلى بغداد. كان العراقيّون يناقشوننا كثيرًا في هذا الأمر، اثنان فقط كانا يوافقان على كلامنا وتحليلاتنا. عندما قالوا: إنّ إيران قد انتهت أمرها، أجبناهم: «لوا جتمع جميع المنافقين فهل سيصل عددهم لفيلق واحد من فيالق الجيش العراقيّ؟ أنتم وبكلّ قدراتكم، وتجهيزاتكم، لم تستطيعوا التغلّب علينا طوال ثماني سنوات من الحرب، فكيف للمنافقين أن يهزمونا؟».

البعض منهم وافق على كلامنا، والبعض الآخر لم يكن يفكر إلّا بالقضاء على إيران.

بسبب هجوم المنافقين على إيران، تساهل العراقيّون معنا، وسمحوا لنا بالخروج إلى فناء المستشفى، وقضاء ساعات أطول هناك.

السبت 30 تموز 1988 - مستشفى الرشيد - بغداد

هُزم المنافقون في عملية «المرصاد» شرّ هزيمة، وكانت تصلنا أخبارهم عن طريق «توفيق أحمد»، لكنّا حاولنا إخفاء معرفتنا بتلك الأخبار، فلم نتحدّث معهم حول تلك المواضيع، وهم أيضًا لم يخبرونا بأيّ شيء، كما لم يعلموا أنّنا على علم بها، لكن بعضهم كان يُقرّ بأنّه

لا يمكن هزيمة نظام «رجال الدين» بهذه السهولة.
قال «باقر درخشان» للعراقيين: «صحيح أننا أسرى، ولا يمكننا الوصول إلى المنافقين، لكن لو كنت مكان «مسعود رجوي» لأسميت العملية باسم «الهلاك الخالد»؛ كان ذلك أكثر واقعية».
وقال «توفيق أحمد» الحارس المثقف: «في حين لم تتمكن السلطة «البهلوية»⁽¹⁾، ومع كل اقتدارها من هزيمة حكومة «رجال الدين»، فكيف للمنافقين أن يفعلوا ذلك؟».
كانت تحليلات بعض العراقيين شبيهة بتحليلات الإيرانيين، لكن بعضهم الآخر.. وبسبب حقدهم الدفين علينا، كانت تحليلاتهم جوفاء بلا أساس. تعجبت، وقلت في نفسي: «بهذه التحليلات ظن صدام أنه يستطيع احتلال إيران خلال أسبوع واحد؟». وقال هادي كنجي: «بما أن صدام يفكر بهذه الطريقة، فماذا تتوقع من هؤلاء؟ إنهم كخفافيش الليل لا يرون سوى الظلام، هم لا يرون النور».
قال أحد ضباط فرقة «حمزة 21» للعراقيين: «في عهد الشاه، كان المسؤولون العراقيون يهابونه، ويخافونه كخوفهم من الموت، وقد هُزم ذلك الشاه، الذي كنتم تحسبون له ألف حساب، على يدي الخميني الذي أخرجتموه من أرضكم، فكيف بـ«رجوي» هذا؟».

الأثنين 1 آب 1988 - مستشفى الرشيد - بغداد

كنت أتابع اليوم أخبار إيران، وقد سمعت أخباراً طيبة، فقد تمكن الإيرانيون البارحة من تحرير مدن «قصر شرين وسومار» من يد

(1) المقصود: نظام الشاه البائد «محمد رضا بهلوي».

الأعداء. وقد انسحب العراقيون بكل مهانة من الأراضي الإيرانية الجنوبية. فقد حاولوا جهدهم بعد قبول إيران بالقرار، السيطرة على أجزاء منها، ولونجحوا في ذلك، وبناءً لقول أحد الإخوة، لقامت حرب أخرى بعد الصلح معهم لاسترجاع تلك المناطق. وكما قال «هادي كنجي» فإن احتلال مناطق الجنوب بالنسبة إلى صدام ألذ من احتلال بقية المناطق!

السبت 6 آب 1988 - مستشفى الرشيد - بغداد

اليوم هو يوم اليأس بالنسبة إلى العراقيين. أعتقد أن بوابة العبور لاحتلال مناطق من إيران قد أقفلت في وجههم بعد قبولهم رسمياً بوقف إطلاق النار.

الخميس 11 آب 1988 - مستشفى الرشيد - بغداد

أحضر أحد الأطباء العراقيين ابنه الذي يبلغ من العمر قرابة تسع أو عشر سنوات معه إلى المستشفى، كان الصبي كوالده أسود البشرة كالحا، أخبره الأب بأننا أسرى إيرانيون، وعندما سمع بذلك هجم علينا بسيف بلاستيكي كان في يده، وشرع بضربنا على رؤوسنا ووجوهنا، كان والده ينظر إليه ويضحك دون أن ينهره عن فعل ذلك. ترجم لنا «منصور»، الأسير العربي، كلام الدكتور الذي كان سعيداً لسعادة ابنه في ضرب الأسرى الإيرانيين.. وكى لا تنزعج من ذلك..، قال وهو يتسم بخبث: «ابني يكره المجوس، لم أطلب منه أن يضربكم، فقد نشأ على كره الإيرانيين».

ظل الصبي يضرب بسيفه البلاستيكي على رؤوس ووجوه الإخوة

حتى تعب وانصرف، تمنيت لو لم أكن أسيراً، فأصنعه على وجهه صفة قوية.

رأيت الليلة الماضية «أحمد فروزان، والسيد شريف بنجه»⁽¹⁾ بند⁽²⁾ في عالم الرؤيا. كان أحمد من أعزّ أصدقائي، ما كان أحوجني إلى وجوده معي في تلك الأيام، لقد اشتقت إليه كثيراً، فقد قضيت معه أوقاتاً عصيبة في جبهات القتال، في الجنوب الغربي من إيران. قضيت معه 18 شهراً في تفكيك الألغام، كانت من أجمل أيام حياتي. دخلنا شتاء عام 1987م الأراضي العراقية في عملية «كموندوس»، لا أنسى أبداً بكاء أحمد حزناً على فقد السيد «شريف».

في تلك السنة دخلنا إلى كردستان العراقية في عملية «كموندوس» مع مجموعة من الأكراد المعارضين، وقد استشهد «السيد شريف» إثر إصابته بشظية قذيفة «هاون»، وهو يصلي في حال «القنوت»، كما تجمد عددٌ من الإخوة بسبب البرد الشديد.

تمكّن «أحمد»، وبصعوبة بالغة، - مع ما له من لياقته البدنية، وبمساعدة أحد أفراد فرقة الاستطلاع - من إنزال جسد الشهيد من المرتفعات الجبلية الوعرة إلى الطريق العام، وقال قائد العملية «جواد عظيمي فرد» لسائق الجرّار الزراعي الكردي: «خذ ما تشاء من المال لقاء سحب جثة الشهيد إلى الخلف». لا أدري كم أعطاه من الدنانير،

(1) بنجه: تلفظ: Panjeh.

(2) كان الشهيد السيد «شريف بنجه بند» من الإخوة في استخبارات وعمليات لواء «الفتح 48»، وقد استشهد في شباط عام 1987م في «ماروت كردستان»، وكتب في وصيته: .. اطلب السماح من والدي وإخوتي وأخواتي وخاصة أمي الحنونة .. ومن زوجتي .. وأطلب منكم الإنفاق في سبيل الله ووضع مبلغ 5 آلاف تومان في حساب الجبهة؛ لأنني مدين بهذا المبلغ لها .. واطلبوا من الله أن يحشرني مع شهدائه .. (كتاب وثائق الشهداء والإثاريين لمحافظة «كهكيلويه وبوير أحمد» الكتاب الأول صفحة 589).

لكن أحمد قال: لولا «عظيمي فر» لبقى جسد الشهيد هناك. كان أحمد بطلاً حقيقياً في الدفاع المقدس، لقد افتقدناه عندما احتل الأعداء جزيرة «مجنون». التقيتُ «أحمد» أول مرة في عمليات «كربلاء أربعة»، في جزيرة «مينو»، وقد أصبنا بالقصف الكيميائي؛ إذ لم يكن بحوزتنا أفتعةً وافيةً من الغازات السامة، فحقنني أحمد بحقنة «أتروبين فأميل نيتريت» الخاصة به بالقوة في فخذي. بعد عمليات كربلاء أربعة، فررنا معاً من مستشفى «الشهيد كلان تري» في «دزفول»، وعدنا إلى مقرّ عمليات اللواء.

حدثت اليوم «باقر درخشان» عن ذكرياتي مع أحمد. أخبرني إخوتي، فيما بعد، أنّ «أحمد» جاء قبل عشرين يوماً من شهادته إلى منزلنا، وقرأ لي الفاتحة، وبكى كثيراً لفقدي، كما طلب من الله، وفي حضور أفراد عائلتي، أن لا يبقى حياً بعدي. وقبل ستة أيام من شهادته أفصح في رسالة لأخي عن مكنونات قلبه تجاهي⁽¹⁾.

الاثنين 15 آب - 1988 مستشفى الرشيد - بغداد

إنّه الثاني من شهر محرّم الحرام، دخل الدكتور «عزيز ناصر» إلى القسم الصحيّ برفقة شخص آخر لم أره من قبل. كان يرتدي اللباس المدنيّ، فقد ارتدى بزّة أنيقة. طلب الدكتور منّي، ومن قاسم فقيه،

(1) لم أعد أعي نهاري من ليلى.. أقسم أن لا رياء في مشاعري.. وأشعر حقاً أن فقد ناصر سوف يقضي عليّ، ولم أكن لأحزن على شهادة جميع أهل إيران بقدر حزني على شهادة ناصر. البارحة ذكرناه في السيارة، وبكى، وكنت أقول لنفسني: لمَ لمَ يترك هذا الشجاع رسالة! وما إن وصلت إلى الغرفة حتّى أعطوني رسالته. أخي إنّ قلب والديك كبير ويدأوى ذلك بمؤاساتهم ومواساتهم بتضيحات براعم الثورة الذين تناثرت على أيدي الغرياء. حديثي هذا موجّه الى الشهداء «شريف»، «هدايت»، و«ناصر حسيني». «عزيزي ناصر» رحلت وما زالت صورتك محفورة على لوح قلبي، رحلت والقلب حزين حزين.

وأحمد شريفي، ونحن أصغر الأسرى سنًا في القسم، أن نجيب عن أسئلة الطالب العراقي الذي هو بصدد كتابة أطروحته في الدكتوراه، أعتقد أنها كانت تدور حول الحرب والأسرى الإيرانيين الصغار السن. قال ذلك الطالب: إنَّ الجيشَ الإيرانيَّ عاجزٌ بمفرده عن الدفاع عن الحدود الإيرانية؛ لذلك قرَّر النظام الحاكم في إيران الاستعانة بالأولاد الصغار الذين يجلبونهم بالقوَّة من المدارس إلى جبهات القتال.

لقد طرح علينا أسئلة متنوعة، لكن بذهنيته الخاصة، كان يريد أن يعرف كيف لقوى التعبئة الشعبيَّة.. التي أطلقوا عليها في العراق اسم «الجيش الشعبيّ».. أن تكون أقوى من الجيش الرسميّ. أيًا كان، فقد سمحت له وزارة الدفاع والاستخبارات بإجراء المقابلات مع الأسرى الإيرانيين الصغار السنّ لكتابة أطروحته في الدكتوراه. كان يدون الملاحظات والأجوبة التي أعطيناه إياها، ولا أعلم كم كان منصفًا وأمينا في ذلك. سألنا عن دوافعنا وعن طاعة التعبويين لأوامر الإمام الخميني دون اعتراض.

وقد أجابه «قاسم فقيه» بلغته البسيطة، ولهجته المحببة: «أنا لا أفقه من الدافع والدوافع شيئًا، فقد جئت لأدافع عن وطني». عندما أخبرناه عن حقيقة مشاعرنا اندهش كثيرًا، وقال: «هذا السؤال لا علاقة له بأطروحتي، لكن أخبرني، ألسنت منزعجًا؛ لأنك فقدت قدمك، وأسرت عندنا، وأنت لا زلت صغيرًا؟».

- ولم ينبغي أن أنزعج؟

- لم أفهم!

- لقد جئت بنفسي إلى الجبهة، وأنا أعرف عاقبة عملي.

غادر طالب الدكتوراه، لكنني أعتقد أن نزاعاً شبَّ في داخله ذلك اليوم. فقد اندهش للروح المعنوية العالية للجرحي الصغار السنّ. أنشدتُ الليلة السابقة لطميّة للإخوة:

صوتك من كربلاء ينادينا فدتك الأرواح وا حسينا.
تلك كانت اللّطيّة التي أنشدها الحاجّ «صادق آهنگران» في حشد من المقاتلين.

أخرجني «عبد الجبار» من القسم الصحيّ، وصفعني على وجهي صفعة قويّة، وهذّمني بأنّه سيعاقبني بشدّة إذا عدت إلى تكرار ذلك. قرّرت أن أنشد اللطميّات كلّ ليلة دون الرضوخ لتهديدات «عبد الجبار». لقد سمعت من «توفيق أحمد» أنّ هناك ضوابط لإحياء الشيعة مراسم عاشوراء في العراق. لم أطق الامتناع عن إنشاد اللطميّات للإخوة أيّام محرّم. الليلة الماضية أيضاً جاء «عبد الجبار»، وبعد أن ضرب رأسي بقضبان النافذة الحديدية، تشاجر مع الإخوة حول عاشوراء، والإمام الحسين (عليه السلام)، والإيرانيّين.

قال عبد الجبار: «الإمام الحسين عربيّ، فما شأنكم به أنتم الإيرانيّون؟».

مع أنّي اغتظت منه، إلّا أنّني أحبته بهدوء حتّى لا يضربني: «الإمام الحسين (عليه السلام) للجميع»،

وقال «باقر درخشان»: «ماذا تريدنا أن نفعل إن كنّا نحبّ الإمام الحسين؟»، وقال «هادي كنجي»: «أنا من إيّلام، وعلى الحدود عند منطقة «خسروية» هناك لوحة تدلّ على مدى حبّنا للإمام الحسين (عليه السلام) كتب عليها: (505 كلم إلى كربلاء)».

الثلاثاء 16 آب 1988 - مستشفى هارون الرشيد- بغداد

إنَّه الثالث من محرَّم الحرام، أنشدت لطمية للإخوة، مع علمي بأنَّها ستغضب «عبد الجبار».

عندما كنتُ صغيراً، كنتُ أنشد اللطميات ليلة العاشر من محرَّم في مسجد الإمام السجاد عليه السلام في حيناً. وبعد أن التحقْتُ بالجبهة كنتُ أيضاً أقرأها في العاشر من محرَّم من عام 1986 في جبهات القتال جنوب البلاد، وفي عام 1987 في منطقة كردستان حيثُ كنتُ رادودَ مجموعة شباب التخريب⁽¹⁾.

عندما أنشدت هذه اللطمية تذكّر الأخوة أيام الحرب والجبهة، وبكوا كثيراً.

«من كربلاء صوتك ما زال قادماً، فدتك الأرواح يا حسيناً».

في تلك الأيام كنتُ أنشد لطميات الحاجّ «صادق آهنگران» للإخوة في مناسبة، ومن غير مناسبة. قبل أن ألحق بالجبهة كنتُ قد حفظت أغلب لطمياته، وكنتُ في العادة أنشدها للإخوة مع بداية أية عملية عسكرية، لقد حفظتُ أغلب تلك اللطميات بفضل أشرطة التسجيل التي سجّلها أخي الشهيد بصوت الحاجّ «آهنگران»⁽²⁾.

عندما كنتُ أنشدُ اللطميات، كان العراقيّون يقتربون من النافذة وينصتون، فقط «عبد الجبار» و«توفيق أحمد» كانا يدركان معنى

(1) تشكيل عسكري مهمته زرع ونزع الالغام.

(2) كان أخي الشهيد السيّد «هاديت الله» يكن محبّة خاصة للحاجّ «آهنگران»، وكان إلى يوم استشهاده يواظب على تسجيل جميع لطمياته التي كانت تبتُّ من الإذاعة. اتصل الحاجّ «صادق آهنگران» بي عام 2009 م، وقال لي: «لقد أخبرني إبراهيم سنائي» بأنّ أخاك الشهيد كان قد جمع أشرطة مسجلة بكل لطمياتي، وأنا حالياً بصدد جمعها، فهل لك أن تقرضني إياها لبعض الوقت؟»، فسألته: «ألا تملكها؟»، فقال: «لقد فقدتُ كلها»، فقلت له: «سوف أحضرها لك إلى «الأهواز».

لطميتي، البقية كانوا يعتقدون أنني أنشد شيئاً من أشعار «داريوش» وغيره، بعضهم كان يقول: جيد، هيا أنشد ثانية، أنشد.

في المرة السابقة، ترجم لطيف دهقان لطميتاتي بشكل مغاير؛ لأنه يعلم أنّ الترجمة الحقيقية ستسبّب لي المشاكل؛ لذا ترجم لهم شعراً من أشعار «بروين اعتصامي»، اليوم أوقعت الترجمة الصحيحة للطميتات لطيف دهقان بالمشاكل، كان العراقيون يتقنون بلطيف، لكن قال له عبد الجبار: «لطيف! في هذا الشعر ذكر للمعارك».

نفى «لطيف» ذلك، لكن «عبد الجبار» أصرّ على أن هذا شعر ثوريّ. في البرنامج التلفزيوني «صدى المقاومة» الذي كانت تعدّه منظمة «المنافقين»، ويُبث من التلفزيون العراقيّ، تحدّثوا كثيراً عن دور «صادق آهنگران» في إيجاد الحماس، ورفع معنويات المجاهدين، كما تحدّث التلفزيون والإذاعة العراقية مراراً عن «بلبل الخميني»⁽¹⁾.

قلت في نفسي: «سيسبّب الفيلم، الذي التقطه لي «رضا منطقي» مصوّر لواء «الفتح 48»، الوحيد قبل عمليات «كربلاء 4» المتاعب يوماً من الأيام».

ففي ذلك اليوم، وبإصرار من رضا، أنشدت لفرقة نزع الألغام لطمية:

«أيّها المجاهدون، حسين معكم والله حاميك».

أراد رضا، الذي استمع إلى أغلب لطميتاتي في الجبهة، أن أكرّر البيت الذي يقول: «نحن قادمون للجهاد، لنمرّغ جباه العدو بالتراب». فقلت في نفسي حينها: «رضا! إن وقع هذا الفيلم بيد

(1) يقصدون به الحاجّ صادق آهنگران.

الأعداء فسيمرغون جبھتي برصاصة واحدة في التراب». لكن من جهة أخرى كنت سعيداً بأن يكون هذا الفيلم ذكرى لعائلي، فسيروني دائماً في الرابعة عشرة من عمري.

بعد الظهر جاء لطيف، وقال لي: «يا سيّد مرّ إنشادك للطميّات «أهنكران» حتّى الآن بخير وسلام، وقد حاولت جاهداً أن أخفي عنهم حقيقة أشعارك، لكن العراقيّين أدركوا اليوم بأنني كنت أكذب عليهم، لكن إن فقدوا ثقتهم بي فسوف يضرّ ذلك بنا جميعاً.

- تعني أنهم أدركوا أنّي أنشد لطميّات أهنكران؟

- أجل، عندما تتشد لطميّات أهنكران أضطر؛ لأن أترجمها لهم بشكل مغاير، لكن «عبد الجبار» شابّ ذكي. كما لم أستطع أن أترجم اسم «كربلاء والحسين»؛ إذ لا يمكن ترجمة الأسماء.

لم أستطع قول شيء، لم أشأ أن يفقد العراقيّون ثقتهم بلطيف، فوجوده كان ضرورياً جدّاً للجرّحى الأسرى، يمكن صرف النظر عن لطميّات «أهنكران»، لكن لا يمكن التفريط بلطيف. قام «لطيف» بحذف كلمات، كالإمام الحسين، كربلاء، القدس، وما شابه. لكن العراقيّين قالوا للطيف: هذا الولد يذكر كلمة «الحسين، وكربلاء، والقدس»!

عند المغيب استدعاني «عبد الجبار»، وقال لي: «لقد حاول «لطيف»

مساعداً، ألم تتشد أشعار «أهنكران» الخميني الحماسيّة؟

- أنا لا أنشد لأهنكران.

- أقسم بالحسين.

- لن أقسم.

- إذا، كنت تتشد أشعار «أهنكران»، ومحرّم؟

اشتد غضب «عبد الجبار»، وصفغني صفتين شديتين على وجهي، أحسست حينها بأن طيلة أذني قد ثقبت، ثم أمطرنني بسيل من الشتائم، وأعادني إلى (القسم) المركز الصحيّ. ظهرت الكدمات على وجهي، فأخبرت الإخوة بما جرى بيني وبين عبد الجبار.

وطوال إقامتي في المستشفى لم أنشد لطميات «آهنكران».

جلب «توفيق أحمد» الكعك لي، لقد زادت علاقتي به يوماً بعد يوم، فقد شهد توفيق أحمد جيداً مدى علاقة الأسرى الجرحى بأبي عبد الله الحسين (عليه السلام)، وقال: لقد أدركتُ أن الله لن يذلّكم، أنتم الإيرانيين، في هذه الحرب، فطالما جعلتم الخميني، الذي عانى ما عاناه من النفي والتشرّد، قائداً لإيران، وجعلتم شاه إيران يلوذ بالفرار، كما أدركتُ أن الله سيذلّ جنودنا الذين كانت سميرة توفيق، ومي أكرم مع زوجها المغني، يقيمون لهم حفلات الفسق والرقص والغناء في «جبهة مهران»⁽¹⁾. وبعد أن سيطرتم أنتم على «مهران» أعدم صدام قائد الفيلق العراقي الثاني «ضياء توفيق إبراهيم». وبأمر من صدام أيضاً أعدم أغلب الجنود الذين انسحبوا من تلك المنطقة، وكُتب على نعوشهم «جبناء عملية مهران».

في ذلك اليوم، أدركت أن الله يحبّكم، وأنّ الجنود العراقيين، قبل أن يُقتلوا بأيديكم ويدي صدام، هم قتلى طمع رئيس بلادهم بالجاه والسلطة.

(1) مهران: اسم منطقة ومدينة حدودية بين العراق وإيران في محافظة ايلام الغربية...

الأربعاء 17 آب 1988 - مستشفى الرشيد - بغداد

جاءوا اليوم لرشّ المركز بمبيد للحشرات، دفعت رائحة المبيد المؤذية العراقيين للبقاء في غرفهم. كانت حالة أحد الجرحى وخيمة، ويدعى «عليّ» من قضاء «ساوه»⁽¹⁾، وعلى الرغم من محاولات الإخوة فإنّه لم يتناول الطعام، ولا الشراب منذ ثلاثة أيّام، لقد أصبح نحيلًا جدًّا، وتحوّل إلى كومة من الجلد والعظام، وكلّ محاولات «هادي كنجي، وباقر درخشان» لحثّه على تناول الطعام ذهبت سدى.

جلست مع «محمد كاظم بابائي» أمام مدخل المركز الصحيّ، وكان الجرحى العراقيون من المركز الصّحيّ المواجه يمشون في الفناء الخارجيّ. إلى اليوم لم أكن أعلم لم هؤلاء الجرحى هنا، ولم لا يزورهم ذويهم، وكنت أتعب كثيرًا من عدم اهتمام الحراس العراقيين بهم. سألت أحد أسرى الجيش الإيرانيّ العرب، ويدعى «منصور»، وقد أسر في «مهران»:

- هل هؤلاء عراقيون؟

- أجل عراقيّون، جرحوا في الحرب.

نادى «محمد كاظم»، وهو إنسان مرح ومحبّ للمغامرات، أحد الجرحى العراقيين، فجاء أحدهم، وجلس بالقرب منّا، كانت ملامحه تدل على المظلوميّة، كان جميع الحراس ما عدا «توفيق أحمد» في غرفهم التي لم تتوقّف المكيّفات عن العمل فيها لحظة واحدة، كما كان عمّال المبيدات مشغولين برشّ المبيدات في المركز.

قال «محمد كاظم» للجريح العراقيّ: «أنتم العراقيين قطعتم

(1) ساوه: تلفظ: Saveh.

ساقيناً نحن الاثنين، لكن لا يهم، تلك هي الحرب».

استطاع «محمد كاظم» من اللحظة الأولى التواصل معه جيّداً. كانت يد «حسين رحيم»، الجريح العراقي، مضمّدة، وقد جرح في ناحية البطن أيضاً.

كان «حسين» نحيل الجسم، أسمر اللون، صغير العينين، يحدّق بنقطة واحدة عندما يتكلّم. حسين شيعي من «الغاضرية» في كربلاء، وقيم عند شاطئ الفرات، ما إن سمعت باسم الفرات حتّى انهمرت دموعي دون قصد منّي. صديق حسين يدعى «عرفان عبد الرزاق»، كان ضخم الجثة، قوي البنية، شديد السمرة، أسود العينين، وشعره كستنائي اللون، كان شيعياً من النجف، يقيم، بحسب ما أخبرني، في «شارع السدير» في النجف.

طرح «محمد كاظم» عليهما الكثير من الأسئلة، فأجابوا عن كلّ الأسئلة دون أيّ خوف، أو وجل.

لكنني قلت لـ «محمد كاظم»: «قد لا يرغبان في الخوض في تلك الأمور؟» فأجاب «محمد كاظم»: «أريد أن أعرف لِمَ هما في هذا المكان غير المناسب إلّا للأسرى أمثالنا؟!»

تمّ ملامحهما عن حزن دفين، وددت كثيراً أن أعرف المزيد، كان منصور يترجم كلامنا، وقد وثق «حسين رحيم» بي وبـ «محمد كاظم»، وقال في بداية الحديث: «هذه الحرب هي لقتل الشيعة، البعثيون يعلمون تماماً ما فعلوه»، وقال: «نحن من أتباع آية الله محمد باقر الصدر الذي أصدر في بداية الحرب فتوى تحرم قتال الإخوة الشيعة الإيرانيين»، وقال أيضاً: «لا شيء أغضب صدام حسين بقدر

ما أغضبته هذه الفتوى، فقد حاول كثيراً أن يثني آية الله الصدر عن فتواه التي قال فيها: (إنَّ البعثيين ليسوا بمسلمين، وإنَّ أيَّ نوع من التعامل معهم حرام)، وفي النهاية قتلوا آية الله الصدر.

أضاف «حسين رحيم»: الكثير من العراقيين، وبسبب هذه الفتوى، لم يكونوا على استعداد لمحاربة الإيرانيين.

لم أدر ما أقول، وكذلك «محمد كاظم»، وعلى ما يبدو أنَّه إنسان مثقَّف، وقد أخبرنا بأمور لم أسمعها من قبل؛ منها فتوى «آية الله الصدر»، وتابع «حسين رحيم» قائلاً: كان البعثيون يرسلون الشيعة للقتال في الجبهات الأممية؛ كي يقتلوا هم أيضاً، وهكذا يصل البعثيون إلى تحقيق أمانهم حسب ما يقولون، فإذا ما قُتل إيراني يتخلَّصون من مجوسي، وعدوٍّ خارجيٍّ، وبقتل العراقي الشيعي يكونون قد تخلَّصوا من عدوٍّ داخليٍّ. بالنسبة إلى صدام أنتم عدوٌّ خارجيٍّ، ونحن عدوٌّ داخليٍّ؛ لذلك عندما كان صدام يزور مسقط رأسه تكريت كانوا يردِّدون هذا الشعار له: «يا صدام لا تهتمَّ، شيعي شيعي، يجري الدم».

كنت أسمع منه الكثير من الأخبار التي لم أسمع بها من قبل. فقد أخبرنا أنه في 1968، وبسبب الظلم الشديد والقتل اللاحق بالشيعة العراقيين من قبل الحكومة العراقية، وقع خلاف شديد بين «آية الله الحكيم» والجنرال «عبد السلام عارف» رئيس جمهورية العراق آنذاك، وقد رفض آية الله الحكيم استقبال «عبد السلام عارف»، مما أثار غضبه، فأمر بنزع صور «آية الله حكيم» من الأزقة والأسواق والمحال التجارية في المدينة. لم يبق ظلم «عبد السلام عارف» وعمله هذا دون جواب، فبعد أسبوع من إصداره هذا القرار قتل بحادثة تحطُّم طائرته

أثناء عودته من البصرة والقرنة إلى بغداد. كان يومها قد أهان..، في خطاب له في تلك الليلة.. الشيعة والإمام عليّ عليه السلام، وعندما علم أهل البصرة من السنّة والشيعة على السواء بسقوط مروحية عبد السلام ردّدوا الشعار التالي: «صعد لحم، نزل فحم»، وكان آباؤنا يقولون أن جد هذا السيّد (يقصدون الإمام الحسين عليه السلام)، هو من قضى على «عبد السلام عارف».

وقال: «هل تتصوّرّون لم الشيعة لا يصلّون إلى أعلى المراتب في الجيش العراقيّ، مع كلّ ما يقدّمونه من توضّيات؟! فما إن يصل أحدهم إلى مرتبة عالية حتّى يُحال إلى التقاعد فوراً، ويبقى العقيد الشيعيّ يتخبّط في تلك المرتبة سنوات عدّة، قبل أن يُحال إلى التقاعد الإجماليّ. البعثيّون لا يثقون بالشيوعيّ أبداً، بينما تجد أن الضابط البعثيّ يترفّع فجأة من رتبة ملازم إلى رتبة عميد». وقد أخبرنا «حسين رحيم»، نقلاً عن أخيه، أنّه عندما احتل العراقيّون «الهوية وسوسن كرد» كان أخوه في «الفرقة 9» العراقية، التي كان يقودها صديق صدام الحميم. ثمّ سألنا إن كنّا قد سمعنا باسم «طالع خليل الدوريّ» من قبل؟

فقال محمّد كاظم: «لقد سمعت باسمه كثيراً»

وقلت: خلال السنوات التي شاركت فيها في جبهات القتال سمعت بأسماء ماهر عبد الرشيد، هشام صباح الفخريّ، وطالع خليل الدوريّ كثيراً، لكن اسم ماهر عبد الرشيد تردّد أكثر من غيره.

فقال «حسين رحيم»: «الثلاثة حقيرون، لكن طالع خليل الدوريّ أحقرهم وأقساهم قلباً». وتابع نقلاً عن أخيه: «كان أخي في أوائل

الحرب يخدم في «الفرقة 9»، وأخبرني أنه عندما احتل الجيش العراقي «سوسن كرد» لم يكن في المدينة سوى العجائز والأطفال والأولاد الصغار الذين لم يتمكنوا من الفرار من المدينة، وبأمر من «طالع خليل الدوري» الذي كان عقيداً في ذلك الحين، جُمع من بقي من أهالي المدينة في الساحة الرئيسية، وقيل لهم إن قائد الفرقة يريد التحدّث إليهم، وقد عرض عليهم الذهاب للعيش في مخيم المهاجرين في البصرة، صدّق المساكين مقولتهم، وعندما اجتمعوا في ساحة المدينة، وبأمر من «طالع خليل الدوري»، أُطلقت النيران عليهم، ومن ثمّ داسوهم بالدبابات، وناقلات الجند. وبناءً على كلام «حسين رحيم»، فإنّ أخاه عانى بعد تلك الحادثة من مشاكل نفسية، وهرب من الجيش، لكن مخابرات الجيش ألقت القبض عليه في منزل عمّه، وكان عمّه من نشطاء حزب الدعوة⁽¹⁾. كان النظام البعثي قد ألقي القبض على عمّه عام 1984، أي في العام نفسه الذي قُتل فيه حزب البعث عدداً من علماء النجف. اعتقل العم لمدة 5 سنوات في سجن «أبو غريب»، وكما قال، فقد ألقي جهاز المخابرات القبض على ابن عمه بتهمة توزيع بيانات لواء الصدر⁽²⁾، فأعدم. سألته: «أين جرحت؟»

(1) نشط شيعة العراق في إطار حزب الدعوة، وتجمّع العلماء، وغيرهم لمناهضة حكم صدام الذي منع أيّ نشاط للشيعة من أي نوع كان. وكان للشيعة منشوراتهم الخاصة التي يديرها آية الله الحكيم، وآية الله الصدر، ومنها «لواء الصدر»، وقد خطب الشهيد الصدر بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران في جمع من طلاب الحوزة العلمية قائلاً: لقد انتصر اليوم موسى على فرعون وتحققت أمنيات جميع الأنبياء. اليوم قضى الإمام الخميني على حكم الشاه؛ لذا علينا جميعاً أن ننضوي تحت لوائه ونأتمر بأوامره.. هذا ما أخبرنا به الدكتور «مؤيد»، الطبيب المساعد في مستوصف المعتقل.

(2) وهي من منشورات المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق.

قال: كنا 4 مجندين في خدمة العلم، في «لواء المشاة 34»، وقبل انتهاء الخدمة بقليل، وفي عملية 22 تموز⁽¹⁾، تشاجرنا مع قائد الكتيبة التكريتي، فأصبحنا على هذه الحال.

كانت قصة هذين الجنديين العراقيين مؤلمة، تشاجر «حسين رحيم و عرفان عبد الرزاق» مع قائد الكتيبة. قال «حسين»، وهو إنسان منطقي ومثقف، لقائد الكتيبة: «سيدي، بما أن إيران قد وافقت على اقرار 598 فما الداعي لمهاجمتها؟». أرسل قائد الكتيبة بلاغاً بالأمر إلى قائد اللواء العقيد «نزار ساقى» الذي جاء إلى مقر الكتيبة، فأخذ كلاشينكوف أحد الجنود، وأطلق النار على الجنود الأربعة، فأصيب «حسين رحيم» في الساق والبطن، و«عرفان عبد الرزاق» في القدم اليسرى والمثانة.

لقد تأثرنا، أنا و«محمد كاظم» بما سمعناه من هذين الجنديين كثيراً، واغرورقت عيناى بالدموع. قال «محمد كاظم»: «يا لسذاجتي؛ لأنني توقعت أن يعاملني العراقيون برفق بسبب بتر قدمي»، وأضاف: «أنا منزوع من نفسي؛ لأنني قلت لهما ذلك الكلام».

- أي كلام؟

- حين قلت لهما: إنكم قطعتم قدمينا.

- لن ينزعجا منك، فأنت لم تكن تعلم أنهما كانا أيضاً هدفًا

لرصاص البعثيين.

وقال «عرفان عبد الرزاق»: «حاليًا نحن هنا، لكن من المقرر، وخلال الأيام القادمة، نقلنا إلى المحكمة العسكرية، توكلنا على الله، ولا يهملنا مهما يحدث لنا».

(1) وهو آخر هجوم عراقي على «شلمجه» بعد القبول بالقرار 598.

الخميس 18 آب 1988 - مستشفى الرشيد - بغداد

لم تتفع جميع محاولات الإخوة لحض «علي» على تناول الطعام والمشى، وقد التصق بطنه بظهره من شدة النحول، وأصبح من السهل جدًّا عدُّ عظام قفصه الصدريّ.

منذ أسبوع وهو على هذه الحال، لم يستطع أن يتناول شيئاً من الطعام، فاستشهد قرابة الظهيرة، كما أنّ العراقيين لم يعيروه أيّ اهتمام في أيامه الأخيرة.

كانت حالته مزرية تماماً، تُحرقُ فؤاد كلِّ من يراه، فقد تحوّل إلى كتلة صغيرة من العظام، فغارت عيناه، وتجوّف خداه، واختنق الصوت في حنجرته، كما أنّ رثتيه قد التهبتا، فلم يعد يستطيع التنفّس بسهولة، في الأيام الأولى التي كان يستطيع فيها تحريك يده، كان يصليّ وهو ممدّد، فيضع تربة السجود على جبينه، لم ير الإخوة سوى حركة يده وشفاهه للصلاة، لكن في الأيام الأخيرة، لم يعد يقوى حتّى على تحريك يده تلك.

عندما رجونا الحراس أن يحضروا له المصل المغذّي، قالوا: «نحن لا نقدّم المصل المغذّي لأعدائنا»، فقال «هادي كنجي» للممرّض: «ليس الوقت مناسباً لهذا الكلام، كما أنّ الحرب قد انتهت، فاهتموا قليلاً بمداواة هذا الجريح، نحن أيضاً لدينا أسرى عراقيون جرحى في إيران، ونعاملهم معاملة الجرحى الإيرانيين».

كان «علي» أكثر الجرحى الأسرى مظلوميّة، أساساً لم أدرك كيف استشهد، تحلّق الإخوة حول جسده، ولم يتمالك أيّ واحد منهم نفسه عن البكاء. حين قال «باقر درخشان»: لعلّه في الأسر، ومن بين كلِّ

مئة أسير إيرانيّ، ينال أسيران شرف الشّهادة، تذكرت كلام السيّد «عنايت الله مرادي»، فالشهيد مرادي حارب الصهاينة لسنوات في لبنان، كان قائد مجموعتنا في وحدة «زرع ونزع الألغام»، واستشهد في عمليات «كربلاء 5»، كما استشهد بعد فترة «بارني شيخ»، أحد أصغر عناصر الوحدة سنّاً، قال (عنايت الله): أيّها الإخوة، من بين 35 مليون إيرانيّ يمنح الله شرف الشّهادة لـ 200 أو 300 ألف إيرانيّ فقط، والباقي يموتون لعلّ وأسباب أخرى. ثمّ قال: «تبقى أمنية العجائز، أو الذين يموتون على فراش الموت، أو لأسباب أخرى، لو أنّهم كانوا من بين هؤلاء الـ 300 ألف شهيد، لنالوا حسن العاقبة، وضمنوا الجنة».

جاء الحرّاس والمرضّون على أصوات البكاء، وقف «هادي كنجي» أمام الجسد، وبدأ بتلاوة الحديث القدسيّ، كنت قد سمعت هذا الحديث في جبهات القتال، لكن عندما قرأه «هادي كنجي» أمام جثّمان الشهيد المظلوم غصصت بالبكاء، كما بكى الجميع معي. قال «هادي كنجي» وقد خنقته العبرات: «من طلبني وجدني، ومن وجدني عشقني، ومن عشقني عشقته، ومن عشقته قتلتته، ومن قتلتته فعليّ ديتّه، ومن عليّ ديتّه فأنا ديتّه».

بعد أن شرح هادي معنى الحديث بالفارسية، قال: أيّها الأخوة، يا لسعادة «عليّ» وأمثال «عليّ» ممن ديتهم الله، لقد رأيتم كيف كان يصليّ، ورأيتم مظلوميته، حتّى إنّ العراقيّين لم يكونوا على استعداد لحقنه بالمصل المغذّي، أيّها الإخوة، كم كان «علي الأكبر» مظلوماً في هذا البلد التّعس. يا لسعادة «علي» الراحل هذا، ويا لسعادة من

يرضى عنه «عليّ عليه السلام»، نحن بقينا؛ لأننا عاجزون، بقينا لنشهد حُزن إمامنا، بقينا لنشهد تجرّع إمامنا لكأس السمّ، لم نكن جنوداً وتعبويين جيّدين لإمامنا، ولو كنّا كذلك لما وقعنا في الأسر، لقد تجرّع إمامنا كأس السمّ بسبب تقصيرنا، بالتأكيد أخطأنا في مكان ما، حتّى يقول لنا العراقيّون إنّ قائدكم تجرّع كأس السمّ.

جاء «أحمد توفيق» إلينا أواخر الليل، وكان حارس الليل، كان حزيناً لشهادة «عليّ»، وقد ملئ قلبه قيحاً من الحارسين «سعدون فياض وعبد الجبار»، لقد وثق بنا، وحدّثنا عن مكنونات قلبه، فقال: «كان عمّي من تجار سامراء الكبار، لكن البعثيّين صادروا جميع أملاكه وثرواته بتهمة تقديم المساعدة للحوزة العلميّة في النجف الأشرف»، وقال لا يسمح البعثيّون، بهدف إضعاف الشيعة في العراق، للتجار الشيعة بتوسيع أعمالهم وثرواتهم ودعم الحوزة العلميّة والعلماء في العراق، وقال أيضاً: «لتحقيق هذا الهدف؛ فإنّ من مهامّ فروع حزب البعث العراقيّ في المحافظات مصادرة ممتلكات و ثروات التجار الشيعة».

الجمعة 19 آب 1988 مستشفى الرشيد - بغداد

صادف البارحة الذكرى السنويّة الثامنة لفاجعة «ده بزرگ»⁽¹⁾، فقبل 8 سنوات، وفي مثل هذا اليوم، وقع أسوأ حدث في حياتي، وكأنّ قدري قد جُبل بالمصائب والألم.

(1) اسم قرية مسقط رأس الأسير والكاتب ناصر حسيني بور. والحديث عن تفاصيل هذه الحادثة سيأتي خلال الفصول الأخيرة من الكتاب.

السبت 20 آب 1988 - مستشفى الرشيد - بغداد

صباح هذا اليوم، أعلن الأمين العام للأمم المتحدة «بيريز دكويار» عن وقف إطلاق النار بين إيران والعراق بشكل رسمي، لا أدري إلى أي مدى سيلتزم العراق بوقف إطلاق النار، وبالقرارات الدوليّة، لكن ما علمته أنّ الدول الغربيّة لم تكن لتحرك ساكنًا إزاء نقض العراق لتلك القرارات.

الخميس 25 آب 1988 - مستشفى الرشيد - بغداد

أحضروا لنا الصحف قبل الظهر، وقد تحدثت صحيفة «القادسيّة» عن بدء مهمة مراقبي منظمة الصليب الأحمر الدوليّ؛ تمهيداً لبدء عملية تبادل الأسرى بين البلدين، وتحدثت أيضًا عن بدء مفاوضات وزير الخارجية الإيراني والعراقيّ برعاية الأمين العام للأمم المتحدة في «جنيف».

كان قد مضى 38 يومًا على نهاية الحرب، والقبول بقرار وقف إطلاق النار. كنّا نتناول الغداء عندما دخل «توفيق أحمد» وأخبرنا بأنّ استخبارات الجيش ودائرة الأمن الخاصّ قد أخذوا البارحة «حسين رحيم وعرفان عبد الرزاق» إلى المحكمة العسكريّة، كم وددت لو أنّني رأيتهما للمرة الأخيرة؛ إذ لم تسنح لنا الفرصة لرؤيتهما مجددًا، أنا و«محمد كاظم بابائي». كان «توفيق أحمد» سعيدًا لانتهاء الحرب، فقد قاتل في جبهات «مهران» و«دهلران» مدّة عامين، حدّثنا عن صدام، وعن أحداث سبتمبر 1983، وكيف أنّ الشعب العراقيّ كان عليه إطاعة رجلٍ يحمل بيدٍ سيفًا، وباليَد الأخرى ذهبًا، يقصد به صدام، فمن لم يكن على استعداد لتقديم حياته مقابل الذهب

والسيارة والدينار، سيصطدم بسيف صدام ويخسر رأسه، وأضاف: «لا أدري كيف استطاعت التعبئة الشعبية في إيران مواجهة الجيش العراقي طوال 8 سنوات». وبعد أن أخبرناه عن روحية مقاتلي التعبئة وشجاعتهم، قال: «في عام 1980 لم يكن الجيش العراقي يملك أكثر من ستة فرق من المشاة والآليات والمدرعات، لكن تزايد عام 1984 العدد ليصل إلى 44 فرقة، فكيف استطعتم الصمود ومقاومة كل تلك الجيوش المدرعة والآلية والمشاة؟!».

جُمعنا بعد الظهر في باحة المستشفى، حيث أخبرونا بأنهم سينقلوننا إلى المعتقل، وقالوا لنا إن هذا القسم (المركز الصحي) سيتم إخلاؤه نهائياً من الجرحى الإيرانيين، فبعد انتهاء الحرب لم يعد من جريح ليحضروه إلى هنا.

فرحتُ لأنهم سينقلوننا إلى (المخيم)، كان «لطيف دهقان» يقول: «المعتقل أفضل من سجن ومستشفى الرشيد». انتظرتنا سيارة «فولز فاكن ستيشن» طحينية اللون أمام المدخل لتقلنا إلى المعتقل، قبل أن أصعد السيارة أردت توديع «لطيف»، وكم تمنيت لو أبقى معه في المعتقل ذاته، جاء «لطيف دهقان»، وجلس بالقرب مني، قبل رأسي وذرف الدموع، لا أنسى دموع «لطيف» ذلك اليوم، كان رجلاً حنوناً وغيوراً، كان رفيقاً جيداً للجرحى في مستشفى الرشيد، قلت له: لا أريد أن أودع «توفيق أحمد» أمام أعين الممرضين والحراس، حتى إن «توفيق أحمد» ذاته لم يشأ أن يُطلع أحدٌ على علاقته بالجرحى وعاطفته نحوهم، فقلت للطيف: عندما تغادر قل لتوفيق أحمد «وفكك الله»، وأنتا سندعوله، وإنه كان رجلاً شهماً، لكننا ندعو الله أن لا

يرحم «غانم حسان»، ولا ضابط الاستخبارات «سعدون فياض». من أفضل الذكريات التي علفت في ذهني عن «توفيق أحمد» أنه كان يحدثنا في إحدى ليالي شهر محرّم الحرام بأحاديث عذبة ومعبرة، وفي آخر ليالي محرّم كان يأتي إلى النافذة، ويقول: «الطموا بشكل لا يسمعونكم فيه»، وعندما يرتفع صوتنا أكثر كان يعود إلى النافذة، ويشير إلينا بيده؛ أن أخفضوا أصواتكم، ويقول: «ليس من مصلحتكم أن يتم نقلي من هنا».

في الأيام الأخيرة، كان طلبه الوحيد من الأسرى الإيرانيين، وكما كان يقول: «عندما تتحرّرون وتذهبون إلى مشهد، أوصلوا سلامي إلى الإمام الرضا (عليه السلام)، وقولوا له: إنني لم أقس على الأسرى الإيرانيين أبداً». أدركت أنه إنسان متدينٌ ويخافُ الله، عندما أخبر الإخوة في المعتقل بأنّ أمّه مريضة، تعاني من مشاكل في القلب، وطلب منهم الدعاء لها، فهو يؤمن بأنّ دعاء الأسير مستجاب عند الله.

كنت أشعر بقيمته أكثر عندما كنت أقارنه مع ضابط الاستخبارات في قسم الجرحى «سعدون فياض»، الذي قال لي يوم عاشوراء: لو وافق الإيرانيون على نقل قبر «هارون الرشيد» إلى العراق، ونبشتم قبر «الحسين»، ونقلتموه إلى إيران، لكانت مقايضة جيّدة، «هارون الرشيد» مقابل «الإمام الحسين».

وأضاف: «في عهد الشاه طلب الرئيس صدام حسين من شاه

إيران أن يسمح له بنقل قبر هارون الرشيد إلى بغداد، لكنّه رفض⁽¹⁾. عندما كانوا ينقلوننا معصوبي الأعين ومكبّلي الأيدي من مستشفى الرشيد، تذكّرت كلام «توفيق أحمد» قبل عدّة أيام، حيث قال: «يا سيّد، أدركت أنّ الله ليس معنا عندما قام «هشام صباح الفخري» في مركز «اللواء 413» في قلعة «ديزه» بحمل ثلاثة أسرى إيرانيين في المروحية ورميهم من علوّ شاهق إلى الأرض، كلّ الجنود العراقيين يعرفون مدى قساوة قلب هشام، وأدركت أنّ الله معكم عندما أخطأ «لواء 47» للمشاة العراقيّ الهدف في منطقة «أبو الخصيب» في معركة «شلمجه»، وأطلقوا النار بعضهم على بعض، فوقعت كلّ تلك الخسائر».

(1) لقد تحققت من صحّة مقالته، فقد ذكر المحقق والباحث التاريخي في إيران «خسرو معتضد» أنّ صدام طلب ذلك في أوّل زيارة له إلى إيران، لكن الشاه أجابه حينها بأنّ أمر نبش القبور يعود إلى المراجع وعلماء الدين.

الفصل السادس:

سجن الرشيد⁽¹⁾ - بغداد

السبت 27 آب 1988م- سجن الرشيد - بغداد

كُنَّا ثَمَانِيَةَ أُسْرَى، ولم نكن نعرف وجهتنا، «أنا»، و«محمد كاظم بابائي»، «نصر الله غلامي»، «باقر درخشان»، «هادي كنجي»، «يد الله زراعي»، «قاسم فقيه»، «إيرج شباني» و«إسماعيل صولت دار». ما إن تَرَجَّلْنَا من سيارة الـ«فولز فاكِن» حتَّى وقعت عيناى على «سجن الرشيد»، تعجَّبت، وقلت في نفسي: «لَمَ سَجَن الرَشِيد ثَانِيَةً؟!» السَّجَن الَّذِي ضَمَّتْ جُدرانَه الكثير من الذكريات المُرَّة للإخوة في عَمَلِيَّات «موقع الخندق»، السجن الذي أَمَقَّتْ سَجَانِيَه. أرسلونا إلى الزنزانة رقم (1)، بينما كنت في المرة السابقة في الزنزانة رقم (2)، تَمَنَّيْتُ لو أَنَّهُم أرسلوني إلى الزنزانة نفسها لأكون مع الإخوة، أُسْرَى «موقع الخندق»، فلم أَكُنْ أَعْلَم أَنَّهُم نُقِلُوا إلى معتقل «المُخَيَّم (13)» في الرماديَّة، ولم أَلْتَقِهِم ثَانِيَةً منذ ذلك التاريخ. لقد حَالَفَهُم الحظ؛ فقد سَمَحَ العراق لمنظمة الصليب الأحمر الدوليّ بزيارتهم⁽²⁾، وهكذا

(1) قيادة الحرس المركزي في بغداد.

(2) كان العراق يعتقل أكثر من 20 ألف أسير إيرانيّ في معتقلات «تكريت» المخفّية و الرهيبة بعيداً عن أعين منظمة الصليب الأحمر الدوليّ. وقد طلبت المنظمة من العراق تزويدها بأسماء الأسرى الإيرانيين الذين أُسروا في السنة الأخيرة للحرب.

دُوِّنت أسماء الإخوة أسرى «الخنديق» في لوائح المنظمة.

كتبَ الإخوة أسرى «موقع الخندق»، ومنهم «الله بخش حافظي»، عني وعن أحوالي مرّة أو مرّتين في رسائلهم التي أرسلوها إلى أهلهم في الوطن، لكن قسم الرقابة في دائرة الاستخبارات العراقيّة منع إرسال تلك الرسائل إلى إيران.

كُنْتُ سعيداً لأنّني أستطيع التنقل في سجن الرشيد، فقد عانيتُ الأمرين عندما كنت نزيل الزنزانة المجاورة في المرّة السابقة، ولا أدري إن خرجتُ من ذلك الامتحان مرفوع الرأس أم لا؟ أعتقد أنّي أخفقتُ في مواقع مُتعدّدة.

علا صوت السجّان النّكرة، وهو يقول لنا: «يلّا بسرعة، يلّا ادخل». دخلنا إلى السجن، كنت أظنُّ أنّني لن أرى سجن الرشيد ثانيةً وإلى الأبد. قال السيّد «محمد» لي، وكان يتمتّع بحسّ أدبيّ: «كأنّنا وهذا السجن أنسباء، وكأنّنا خلقنا أحداً لآخر، ومن دوننا سيتآكل من الوحدة».

لم أكن أعرف أحداً من نُزلاء سجن الرشيد، ولولا وجود الإخوة الجرحى لشعرت بالغربة. كان أكثر نُزلاء الزنزانة رقم (1) من جنود الجيش الإيرانيّ الذين أسروا في جبهات: «زبيدات، مهران، دهلران، فكه، سومار وموسيان». كانوا من جنود «فرقة حمزة 21»، وفرقة «خراسان 77» و«المُجوّل 92»، كما أنّ عدداً من الإخوة في الحرس الثوريّ والتعبئة الذين أسروا قبل شهرين في «شلمجة» ما زالوا في السجن نفسه، كانت وجوههم كالحة؛ لأنّ العراقيين كانوا يُبقونهم أربع أو خمس ساعات يومياً تحت أشعة الشمس الحارقة.

كُنْتُ فِي الزَنَازَةِ رَقْمَ (4) عِنْدَمَا دَخَلَ رَئِيسُ الْحِرَّاسِ، وَهُوَ يَأْكُلُ الْفُسْتُقَ، فَكُنْتُ أَشْعُرُ بِمُلُوحَتِهَا فِي فَمِي.

كَانَ «هَادِي كُنْجِي»، وَكَالْعَادَةِ، يُقَدِّمُ لِي كُلَّ مَا أَحْتَاجُهُ، يُحْضِرُ لِي الطَّعَامَ وَالْخُبْزَ، يَسَاعِدُنِي فِي الذَّهَابِ إِلَى الْمَرَحَاضِ، وَيَنَامُ بِالْقَرَبِ مِنِّي؛ كَيْ لَا أَتَعَرَّضُ لِلرُّكْلِ مِنْ قِبَلِ الْأَسْرَى الْأَصْحَاءِ أَثْنَاءَ مَرُورِهِمْ.

تَعَرَّفْتُ الْيَوْمَ عَلَى أَسِيرٍ مِنْ «كِيْلَان»، مِنْ قِضَاءِ «صَوْمَعِهِ سَرًا»، وَيَدْعَى «عَبَّاسَ كُلْزَارَ بَوْر صَادَقِي»⁽¹⁾. كَانَ «عَبَّاسٌ» أَحَدُ عَنَاصِرِ الْحَرَسِ الثَّوْرِيِّ، وَعَلِمْتُ فِيمَا بَعْدَ أَنَّهُ أَحَدُ قَادَةِ مَوْقِعِ «رَمَضَانَ». عَيْنَاهُ خَضِرَاوَانٌ، وَشَعْرُ وَجْهِهِ وَرَأْسُهُ أَشْقَرُ اللَّوْنِ، وَقَدْ أَسْرَبَ بَزِيَّ الْحَرَسِ الثَّوْرِيِّ، كَمَا أَنَّهُ التَّزَمَ بِنَهْجِ الْحَرَسِ الثَّوْرِيِّ طَوَالَ مُدَّةِ الْأَسْرِ، فَلَمْ يَكُنْ مِنَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِالنَّقِيَّةِ وَمَا شَابَهُ. شَعْرُ لَحْيَتِهِ الْأَشْقَرُ سَبَبٌ لَهُ الْأَذَى، فَقَدْ أَشْعَلَ ضَابِطُ الاسْتِخْبَارَاتِ النَّارَ فِي لَحْيَتِهِ «بِالْوَلَاةِ»، وَأَمَرَهُ بِإِهَانَةِ الْإِمَامِ، فَأَجَابَهُ «عَبَّاسٌ»: «الْخَمِينِي مَرْجِعُ تَقْلِيدِي، وَلَنْ أُهَيِّنَهُ». عِنْدَمَا عَلِمْتُ أَنَّنِي مِنْ وَحْدَةِ الاسْتِطْلَاعِ وَالْعَمَلِيَّاتِ اطمأنَّ لِي، وَأَخْبَرَنِي بِمَجْرِيَّاتِ أَسْرِهِ، وَكَيْفَ حَالْفُهُ الْحَظُّ إِذْ لَمْ يَقْتُلْهُ الْبَعِثِيُّونَ.

حَمَلَ «عَبَّاسٌ» مَعَهُ أَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ عِرَاقِيٍّ، مَعَ خَرِيطَةٍ، وَمُخَطَّطٍ عَسْكَرِيٍّ لِلْمَنْطَقَةِ، وَاتَّجَهَ إِلَى النَّقْطَةِ الْمُحَدَّدَةِ لِلِقَاءِ أَحَدِ قَادَةِ الْمُعَارِضَةِ الْكُرْدِيَّةِ الَّذِي كَانَ مِنَ الْمَقَرَّرِ أَنْ يُسَلِّمَهُ الْمَالَ وَالْخَرِيطَةَ؛ كَيْ تَسْتَخْدِمَهَا الْمُعَارِضَةُ الْكُرْدِيَّةُ فِي عَمَلِيَّاتِهَا ضِدَّ صَدَامَ فِي «كَرْكُوكَ». قَامَ الْعِرَاقِيُّونَ بِعَمَلِيَّةِ إِنْزَالِ، وَأَسْرَوْا «عَبَّاسًا» مَعَ الْخَرِيطَةِ وَالْمَالَ.

(1) أَصْبَحَ عَبَّاسٌ بَعْدَ التَّحَرُّرِ نَائِبَ قَائِدِ «الْوَلَاءِ 2» فِي «فِرْقَةِ الْقُدْسِ 16» كِيْلَانِ، وَقَدْ أُحِيلَ إِلَى التَّقَاعِدِ حَالِيًّا.

فَقَدَ الضابطُ العراقيُّ صوابه عندما رأى 40 ألف دينار بحوزته، قال «عباس»: لم تسعهُ الفرحة وقد أعمى الطمعُ بصيرته، فقام بعمليةٍ مُقايضة، وقال لِعَبَّاس: «لا تُخبرِ الاستخبارات والمحققين العراقيين بأمر المال، وأنا بدوري لن أخبرهم شيئاً عن الخريطة، ولا عن هُويَتِكَ، وسأقول لهم: إِنَّكَ مجردُ مقاتلٍ عاديٍّ، وإنَّا لم نجد معك أيّة وثائق». مَرَّقَ الضابطُ العراقيُّ الخريطة، الوثائق الثبوتية، تصريح المهمة وغيرها من الوثائق والصور التي كانت بِحِوزَةِ «عباس»، والتزم الطرفان بالعهد الذي قطعاهُ كلُّ واحدٍ للآخر، لم يُفَشِ الضابطُ السرَّ؛ حيث لم يتمّ التحقيق معه بهذا الأمر.

نَامَ الإخوة على الأرض ليلاً، فالعراقيُّون لا يُعطون البطانيات للنزلاء الجُدُد، أعطانا «عباس» بطانيته، فطَويناها واستخدمناها كوسادة للنوم. نمنا أواخر الليل دُونَ أَيِّ فِرَاشٍ على الأرض. وقد اتسَعَتِ الوِسَادَةُ (البطانية) لنا نحن السبعة.

كانت ليالي سجن الرشيد حارةً جداً، لكن محبةَ الأخوة كانت أشدَّ حرارةً. لم يكن في السجن مَراوح في السقف، وقد استخدم العراقيُّون الحَلَقَةَ المُخَصَّصة للمروحة في سقفِ الزنزانة الأخيرة، وهي أوسعُ الزنانات، لتعليق الأسرى أثناء التحقيق معهم. قلت لِعَبَّاس عندما كانوا يعدُّون الأسرى في الزنزانة الأخيرة: «عليك أن تُصلي ركعتي شُكْرٍ لله يومياً؛ لِأَنَّكَ أُسِرْتَ مِنْ قَبْلِ ضابطٍ طماعٍ».

- كان ذلك من حُسْنِ حظي.

- لكنَّ الله لا يمنحُ حُسْنَ الحظ هذا لأَيِّ كَانٍ.

- لقد شَمَلَنِي اللهُ بلطفه، وسأبقى شاكرًا له ما حَيَّيت.

- كانوا يُقدِّمون لنا كلَّ شيء بمقدار مُحدَّد، وكانت حصتي من الماء كوباً واحداً لهذه الليلة، فتقاسمتُ كوب الماء مع «قاسم»، وطلبتُ منه أن يريق ماءً كُوبه على الأرض حيث ننام لنشعر ببعض البرودة؛ مع أنَّها برودة سريعة الانقضاء، إلَّا أنَّها مُنعشةٌ في هذا الطقس الحار.

الأحد 28 آب 1988 - سجن الرشيد - بغداد

كان الوقتُ ظهراً، وجميعُ الأسرى داخل زنزاناتهم. دخل رئيسُ حُرَّاس السجن وقرأ اسمي. عندما خرجتُ من الزنزانة وجدتُ رئيسُ السجن واقفاً يحملُ عصاهُ تحت إبطه، وقد اتسعت عيناه، وهو يُحدِّقُ بوجهي وجسمي بكلِّ دقَّة، نظرَ الضابطُ إليّ وقد عَقَدَ إبهامه على حِزام الرصاص، ونفثَ دُخان سيجارته من أنفه وقال:

- أنت ناصر سليمان منصور؟

- نعم سيدي.

- كنت تعمل في الاستخبارات؟

شعرت بالغيثان، وقد تصبَّب العرقُ البارد على جبيني، وتواردت شتَّى الأفكار إلى ذهني.

قال الضابطُ لرئيس الحراس شيئاً لم أفهمه، فسلمني خارج باب السجن إلى حارس آخر، أخذني حارسان من ذوي القُبعات الحمراء، فسرتُ مستعيناً بالعصا مُدة 10 دقائق، دَخَلنا مَبْنَى فيه ممرٌ ضيقٌ وطويلٌ، ويبدو من أشجار النخيل الباسقة والجُدران التي ذهب طِلاؤها أنَّه سجنٌ قديم.

يوجد في الثكنة المركزية في بغداد، والتي تضمُّ سجن الرشيد،

العديد من الزنانات الانفرادية. رُسِمَ على المدخل الرئيسي للسجن صورة كبيرة لصدّام بالزّي العسكري برتبة «المهيب الركن». ما زلتُ أذكر أنّه كُتِبَ على مدخل المبنى المجاور: «مديرية الاستخبارات العسكرية». عبَرنا قاعةً طويلةً ناهز طولها على 50م وعرض 2م، أدركتُ.. من شكل الأبواب الحديدية التي لا تزيد المسافة التي تفصلُ بينها على المترين.. أنّها زناناتٌ انفراديةٌ، حاولتُ أن أحفظَ في ذهني كلّ ما أشاهدهُ، يوجد في كلّ بابٍ حديديّ كُوّةٌ صغيرةٌ لمراقبة السُجّناء في الداخل. دخلتُ الزنانة ما قبل الأخيرة، فتشّ الحارس مَلاسي، وأخذ مِنّي «تربة الصلاة» التي أعطاني إياها «توفيق أحمد» في مستشفى الرشيد. تتسّع الزنانة لنوم شخصٍ واحدٍ فقط، أغلقَ الحارسُ بابَ الزنانة وغادر. مضتُ 6 أو 7 ساعات قبل أن يأتي أحدٌ إلي. كان لصوت فتح وإغلاق أبواب الزنانات دويًّا يتردّد في الأرجاء. جِعتُ، وعطشتُ، لكنّ شعوري بالعطش كان أشدّ من شعوري بالجوع. مضتُ ساعة أو ساعتان على أذان الظهر، ولم أكنُ أعرف اتّجاه القبلة؛ لذا طرقت بابَ الزنانة عدّة مرّات، جاء السّجان إليّ، فتَحَ الكُوّة التي في الباب، في البداية سألته عن اتّجاه القبلة، ومن ثمّ طلبتُ منه إعطائي «تربة الصلاة»، لم يستجب لي، بل كال لي الشتائم باللغة العربية، وغادر، فقلت في نفسي: لو أرادوا إعطائي «تربة الصلاة» لما أخذوها مِنّي أساسًا، تَيَمَّمْتُ وصَلَّيتُ على الأرض بالاتجاهات الأربعة. بعد الصلاة، غلبني النّعاس، استيقظتُ مدعورًا على صوت فتح بابَ الزنانة، فهمتُ من كلام وإشارات السّجان أنّه يريدني أن أتبعه، أخذني إلى غرفةٍ كبيرةٍ موجودةٍ على مدخل الممرّ، كان في

الغرفة ثلاثة أشخاص: ضابطٌ عراقيٌّ، شعره بنيٌّ، مائلٌ إلى الأشقر، يرتدي بزّةً عسكريةً قصيرةً الكمّين، عراقيٌّ آخر يجلسُ بقُربه، يرتدي «الدشداشة» العربيّة مع «الحطّة والعقال» على رأسه، كان سمينًا، مُنتفخ الوجه، مُترجمٌ إيرانيٌّ يرتدي بزّة رماديّة اللون، مُقلّمة وأنيقة، تُوحي ملامحه أنّه في الأربعين ويُنّف من العمر، وكانوا - ثلاثتهم - يجلسون خلف طاولة واحدة.

قَبْلَ أن أدخل، كانوا قد أخرجوا للتوّ أسيرًا آخر لا أعرفه، فهو لم يُكن من وحدتنا، ويظهر من ملامحه أنّهم قد عذّبوه كثيرًا. تَقَضَّحَ عيناه المُتعبتان، والكدمات المُزرّقة على وجهه، عمق معاناته. عندما رأى قَدَمي المبتورة، بَانتَ علائمُ الحُزن والشفقة على وجهه، مع أنّنا لم نستطع التحدّث بعضنا إلى بعض أبدًا. دخلتُ غرفة التحقيق، فسمحوا لي بالجلوس على الكرسيّ، سألتني ضابط التحقيق العراقيّ الذي لا يحمل رتبة عسكريّة:

- هل أنت ناصر سليمان منصور؟

- نعم سيّدي.

حمل زجاجة الخمر الكبيرة التي على طاولته، وصبّ قدحًا وسألني:

- هل تشرب؟

- أنا لا أشرب الخمر.

فقال ضابط التحقيق بكلّ هدوء، وبرودة أعصاب.

- أوراق التحقيق الخاصّة بك موجودة هنا. هل أنت من وحدة «عليّ

هاشمي»، أو من وحدة الاستطلاع والعمليات؟

- ظلّوا في «الميمونة» أنّني ذلك الشخص الذي هو يريد «عليّ

- هاشمي»، لكن ثَبُتَ بعد ذلك أنني لست هو، وأخبرتهم خلال التحقيق أنني من وحدة الاستطلاع والعمليات.
- هل حقًا أنت لست بريد «علي هاشمي»؟
 - لو كنت كذلك، لأخبرتكم.
 - إذن لِمَ قلت أثناء التحقيق، صباح ذلك اليوم، أنك من كتيبة عسكرية؟
 - ليس لدي ما أقوله.
 - ولمَ قلت في التحقيق، نفسه أنك من كتيبة الاستشهاديين الخاصة؟
 - كذبتُ؛ كي لا يُؤذوني.
 - إذًا لِمَ عُدْتُ وُقِلْتُ في التحقيق، بعد ظهر اليوم عينه، أنك من وحدة الاستطلاع والعمليات؟
 - لأنَّ الجنديَّ العربيَّ قدَّمَنِي لضباطكم على أنني بريد «علي هاشمي»؛ وكَي أثبتَ لهم أنني لست كذلك، أخبرتهم بالحقيقة؛ لِيَقْلَ جُرْمي.
 - فقال الضابط العراقي الذي كان يُدخِّنُ السيجارة تلو السيجارة، وينفثُ الدخان في وجهي:
 - أصدِّقُ كلامك أنك لست من وحدة «علي هاشمي»، لكنَّك قُلْتَ في «الميمونة» أنك من وحدة الاستطلاع والعمليات، صحيح؟
 - نعم صحيح.
 - فضِلْتُ قَوْلَ الحقيقة، ولو أخفيتُ شيئاً لأوسعوني ضرباً؛ كي أعترف به؛ لذا لم أرَ من داعٍ لإخفاء أمرٍ كنت قد اعترفت به في معسكر «الميمونة»، وقلت في نفسي: لقد انتهت الحرب، وأصبحتُ عنصرًا في

وحدة استطلاع وعمليات لا تفيد معلوماته العراقيين في شيء؛ لذلك قُلْتُ الحقيقةَ كاملةً حول ما جرى في تحقيق ذلك اليوم في معسكر «الميمونة».

كان العراقي الذي يرتدي «الدشداشة» يُدَوِّن محضر التحقيق. قال لي ضابط التحقيق الذكي:

- صدَّقْتُ أنَّك لست من وحدة «علي هاشمي»، لكن أجبني بدقّة عن الأسئلة التي أ طرحها عليك.

بدأ ضابط التحقيق كلامه بمُقدِّمةٍ حول انتهاء الحرب، فقال: لقد انتهت الحرب، ولم تعد المعلومات حول مناطق القتال مُهمّةً لنا من الناحية العسكرية، ما يُهمُّنا هو معلومات رجالكم من داخل الحدود العراقية، تلك المعلومات لا تزال مُهمّةً لنا. كانت قواتكم في وحدة الاستطلاع والتجسس تدخل الأراضي العراقية، فيبقون فيها أيّاماً وشهوراً في بعض الأحيان، وكانوا في أغلبهم من عملاء وأقرباء المجاهدين العراقيين في «فيلق بدر9»، كانت تلك العناصر تدخل قُرى: «الحسان، الزجية، وأبو سعيد»، فيبقى العديد منهم لعدّة أشهر في أهوار «عصارة، الناصرة والقرنة». أيّ منازل كانت تأوي عناصركم في القرى التي ذكرتها؟ نحن نريد أسماء أولئك الأشخاص الذين قدّموا لعناصركم المأوى، إلى جانب أسماء قُراهم. بقيت صامتاً، وأنا أنظرُ إليه مبهوئاً، وقلت في نفسي: «يا إلهي من هم هؤلاء؟ وعمّ يبحثون؟». حُرْتُ بما أجيب، ثمّ تابع: «أجب عن أسئلتي، ولا تكذب، لا تستطيع الادّعاء بأنك لا تعرف شيئاً، إذا تعاونت معنا فسوف أمرهم بإعادتك إلى أصدقائك، ولن نتعرّض لك بشيء».

عندما سمعتُ كلام المُحقِّق، أدركتُ أنَّ الاستخبارات العراقيَّة قد وَجَدَتْ بعد انتهاء الحرب مُتَّسَعًا من الوقت لتُتَّاحق المجاهدين العراقيين مع أقربائهم وأصدقائهم الذين تعاونوا طوال سنوات الحرب مع إيران، فأووا، بتنسيق مُسبق، الأخوة من وحدات الاستطلاع والتجسس في منازلهم. إنَّ حصلَ العراقيُّون على معلومات عنهم، فلن يكون مصيرُ أولئك الذين تعاونوا مع إخواننا زمن الحرب، وقدَّموا لهم منازلهم، وكانوا أدلاءً وعيوناً لهم في الأراضي العراقيَّة، وزوَّدوهم بالسيارات، والمعلومات، والصور، والخرائط عن ما خُلف الجبهات، وعن المعسكرات، والمناطق الاستراتيجية العسكريَّة العراقيَّة... إلَّا الموتَ الحتميَّ.

ما قاله ضابط التحقيق حول تعاون المجاهدين من «فيلق بدر9» مع عناصر وحدات الاستطلاع والعمليات للحصول على معلومات حول المراكز العسكريَّة للأعداء وإيوائهم لهم أيَّامًا وشهورًا داخل الأراضي العراقيَّة كان صحيحًا.

قُلْتُ لضابط التحقيق: «لا أعرف إلى أين كان يتَّجه العناصر الذين دخلوا الأراضي العراقيَّة، فتلَّك المعلومات سرِّيَّة، وليست في متناول الجميع، وأنا لا أعرف شيئًا».

حدَّق الضابط بي، وكادت عيناه تخرُجان من محجريهما، تركَ لُطفَه جانبًا، نهض من مكانه، واتَّجه نحوي، فأمسك بياقة قميصي، وصفعني صفعَةً قويَّةً على أذني، ثمَّ تابع كلامه.

- كلامُك هذا غير مقبول؛ إذ كيف يمكنُ لشخص يعمل في وحدة الاستطلاع والعمليات أن لا يعرفَ إلى أيِّ مكان كان أصدقاؤه

ورفاقه يذهبون، وإلى أيّة منازل كانوا يأوون ليلاً داخل الأراضي العراقية؟..

- كانت مهمّتي رصد تحرّكات العدو، وكنت أقضي معظم أوقاتي في أعلى أبراج المراقبة، هذا عمل الراصد لا غير.

- من كان قائد وحدتك؟

- «ولي عزت الله»⁽¹⁾

عندما لفظت اسم «ولي عزت الله»، ضربني بالعصا التي في يده على وجهي، علمت سبب غضبه قبل أن يتفوّه بأيّة كلمة، بالتأكيد علم أنني أكذب، حاولت أن أبقى نظري للأسفل، مع أنّه كان عدوّي، إلا أنني شعرت بالخجل من النظر إلى وجهه؛ لأنني كذبتُ وافتضحَ أمري، من الواضح أنّه يعرفُ الاسم الحقيقيّ لقائد الاستطلاع والعمليات في لواء «فتح48» حتّى غضب وتصرّف بهذا الشكل. تابع ضابط التحقيق:

- هل تقول الحقيقة، أيّها المجوسّي اللعين؟

بقيت صامتاً، وكان يُحملك في وجهي مُنظرًا أن أكّرر كلامي ثانية. كأل لي الكثير من الشتائم: مجوس، مسخرة، قرد، ذُبابة، وغيره. وعندما لم أُجبه رَمَى كوب الماء الذي كان على طاولته، على رأسي.

- قل ثانية ما اسمُ قائدك؟

كنتُ مُضطرباً أن أُصرّ على الكذبة، وأن لا أترجع عن كلامي؛ لذا كرّرتُ ثانية:

(1) كان «عزّت الله ولي بور» قائد الاستطلاع والعمليات في لواء «فتح48 من» ساري. كان يقول للإخوة: إذا أسرتكم، وسألوكم عن اسم قائدكم فاجعلوا اسمه الأوّل على أنّه اسم العائلة، وأضيفوا إليه شيئاً. واذكروا اسم العائلة على أنّه الاسم الأوّل، واحذفوا منه شيئاً، فعلى سبيل المثال يصبح اسمي «ولي عزت الله».

- ولي عزت الله

- ألسنت تكذب؟

- ربّما كان هذا اسمه المستعار، فأنا لا أعلم.

نهض المُحقّق من خلف الطاولة، واتّجه نحوي. وطلب منّي الوقوف بإشارة من يده، عندما وقفت صفعتني صفعة قويّة على وجهي، كانت يده ثقيلة، فقدت توازني، وسقطت على الأرض، أردت النهوض فركّلتني على كتفي، وتابع كلامه بعد أن عاد إلى مكانه.

- أيّها المجوس الكاذبون، أنتم الإيرانيون لا تُجيدون شيئاً غير الكذب، أتريد أن أذكّر لك أسماء بعض من قيادي وحَدِّتْكَ؟! اعتقدت أنّه يُخادع، كنت أعلم أنّ للجيش العراقي جهازاً استخبارات قادراً وقويّاً، لكنني لم أكن أتصوّر أنّه يملك معلومات دقيقة عن قيادة وحدتنا. أخرج ضابط الاستخبارات ملفاً، وقرأ أسماء عددٍ من قادة وحدتنا:

«سيفُ الله حيدر بور⁽¹⁾، جواد عظيمي فر⁽²⁾، علي روستاد⁽³⁾، شكر الله واهبي زاده⁽⁴⁾، عوض شهابي فر⁽⁵⁾، عزّت الله ولي بور⁽⁶⁾ ومحمود آقاسي⁽⁷⁾». عندما قرأ الأسماء بقيت صامتاً، فالأسماء التي قرأها كانت لقياديين في الكتائب الهجومية التابعة للواء «فتح 48». لم يبقَ أيُّ

(1) سيف الله حيدر بور قائد اللواء «فتح 48».

(2) جواد عظيمي فر رئيس قيادة (مقرّ) اللواء «فتح 48».

(3) علي روستاد قائد كتيبة «الامام علي (ع)».

(4) شكر الله واهبي زاده قائد كتيبة «الرسول الأكرم (ص)».

(5) عوض شهابي فرو قائد التخطيط والعمليات.

(6) عزّت الله ولي بور قائد وحدة الاستطلاع والعمليات.

(7) محمود آقاسي قائد وحدة التخريب.

كلام لأضيفه، فأنا لم أتوقع أن أسمع أسماء قاذبتنا على لسان ضابط التحقيق في سجن الاستخبارات في بغداد. شعرتُ بالندم لأنني كذبت. تابع ضابط التحقيق:

- نحن نعرف أيضًا أن أحد قاذبتكم أبكم.

كان يقصد «جواد عظيمي فر»، كنت مستغرّفًا في التفكير حين سألني المحقّق:

- هل تريد أن أذكر اسمه لك؟

لأثبت له أنني أقول الحقيقة هذه المرّة، قلتُ دون أيّ تأخير:

- جواد عظيمي فر.

ابتسم المحقّق، وقال: «هل تريد أن يحضروا لك المياه الغازيّة؟» كنت عطشانًا، وأردتُ شربَ الماء. لم أدري ما حدث حتّى أراد ضابط التحقيق أن يُقدّم لي المياه الغازيّة، اعتقدتُ أنّه أراد تكريمي؛ لأنني أفصحتُ عن اسم «جواد عظيمي فر»، كنت أفكر بماذا أجيب، حين كرّر سؤاله ثانية: «هل أطلب منهم أن يحضروا لك المياه الغازيّة؟» - لا مانع إن وُجد.

تبادل ضابط التحقيق والعراقيّ صاحب «الحطّة والعقال» الكلام. حدّقا بي، وعلّت محييّهما ضحكات مريية. سألني ضابط التحقيق:

- أتريد البرتقاليّة أم السوداء؟

- البرتقاليّة.

- لا يوجد لدينا برتقاليّة، فهل تشربُ السوداء؟

- لا فرق.

طلب ضابط التحقيق من السّجان الذي أحضرني أن يُقدّم لي

المياه الغازية السوداء اللون. ما إن أخرجني من الغرفة حتى انهال عليّ بالكابل، كان عديم الرحمة، جلدني على ظهري حوالي 30 جلدة. عندما انهالت الضربات عليّ أدركت أنّ المُحقّق قد خدعني، وأنّ المياه الغازية السوداء ما هي إلّا كابل السّجّان الأسود. عندما كانت الضربات تنزلُ على ظهري قلت في نفسي: لو كنتُ أعلم أن المياه الغازية السوداء هي هذا الكابل الكهربائي، لما اشتبهتُ المياه الغازية بتأتًا.

الاثنين 29 آب 1988 - سجن الرشيد - بغداد

كانت الساعة حوالي العاشرة صباحًا عندما رجّع السّجّان إليّ ثانيةً ليأخذني إلى التحقيق. نمتُ الليلة الماضية وحدي دون دثار. عندما دخلتُ الغرفة رأيت ضابط البارحة مع المترجم الإيراني، لكن الرجل «صاحب العقال» لم يكن موجودًا.

ضحك الضابط وقال:

- هل شربت البارحة المياه الغازية السوداء؟ هل كانت لذيدة؟
لم أقل شيئًا، كنتُ أعلم أنني استحقّ تلك المياه الغازية. لقد راعوا حالتي بسبب بتر قدمي، كرّر العراقيّ أسئلة البارحة، وكذلك فعلتُ أنا، لو كنت أعلم أنّهم يعرفون اسم «عزت الله ولي بور» لقلت الحقيقة، مع أنّني أحبُّ «ولي بور»، وقد تأخينا صيف العام الماضي في مقرّ «كردوي كردستان»، إلّا أنّني.. ولكي يدعوني وشأني، ويُعيدونني إلى أصدقائي..، شتمته وقلت لضابط التحقيق:

- إذا، لم قال لنا ذاك الرجل المُخادع أنّ اسمه «ولي عزت الله»،

لربما كان يكذب علينا طوال الوقت؟!

- أنتم تأكلون من خُبزِ وِملحِ العراق وتكذبون علينا!

بَاءَتْ جميعُ المُحاولات -لإقناعه بأنني لا أكذب- بالفشل. سألني الضابط عن «علي أصغر كرجي زاده»، وقد سُئِلْتُ السؤال نفسه خلال التحقيق معي في مدينة «الميمونة». كنت أعرفُ مسؤوليته في الحرس الثوري، فيلق «الإمام جعفر الصادق عليه السلام» 6. كان «كرجي زاده»، رئيس أركان الفيلق السادس.

قلت له: «لا أعرفه».

كان واضحاً من نظراته أنه لم يُصدّقني، تابع المُحقّق الذي حاول السيطرة على غضبه:

- لقد شارك في «هجوم 25 تموز» في جزيرة «مجنون»، حيث أُسِرَتْ أنت، كان هذا الرجل مع «علي هاشمي»، وقد أخبرنا جواسيسنا، الذين هم من أبناء وطنك، بأن «علي هاشمي، وعلي أصغر كرجي زاده» ليسا في إيران، فهل تعرف «كرجي زاده»؟

كان العراقيّون يبحثون عنه من «الميمونة» إلى «بغداد». وكانوا مُتعطّشين للإمساك بـ«علي هاشمي» قائد الفيلق السادس أكثر من أيّ شخص آخر. كان ضباطُ الاستخبارات يدخلون سجن الرشيد يومياً بحثاً عنه، وكانوا في معسكر «الميمونة» والمعسكر المركزي ببغداد، ينقلون أيّ شخص بينه وبين «علي هاشمي» أدنى شبه، أو يشكّون به، إلى السجن الانفرادي. أخرجوا البارحة شخصاً من غرفة التحقيق يشبه «علي هاشمي» في الجزء السفلي من وجهه. قد سأله المُحقّق:

- بما أنّك من عناصر الاستخبارات، فهل تعرف «فريدون كرم زاده»؟

- إنها المرة الأولى التي أسمعُ بها بهذا الاسم.
 - إنه شخص ضخم الجسم، وقويّ.
 - لا أعرفه.
 - ماذا عن «مهديّ نريمي»⁽¹⁾، ألا تعرفه أيضاً؟
- كان «السَّيِّدُ فاضل فضليان» نزيلَ السجن الانفراديّ المجاور لي، وكان السَّجَّان يأخذه للتحقيق، سألته: من هما «مهديّ نريمي، وفريدون كرم زاده» اللذان يبحث العراقيُّون عنهما بهذا الشكل؟ فقال: لا أعرف «مهديّ نريمي»، لكن «فريدون كرم زاده» هو نفسه «علي أصغر كرجي زاده». وكما أخبرني السَّيِّدُ فاضل، فقد عُدِّبَ «كرجي زاده» في السجن الانفراديّ نفسه، وكان قد عرِّفَ عن نفسه بأنَّه «فريدون كرم زاده»، وقد عُدِّبَ العراقيُّون كثيراً كي يعترف، لكنَّه صَمَدٌ وأصرَّ على اسمه المُستعار، فلم يستطع العراقيُّون.. رغم كلِّ التعذيب.. أنَّ يحصلوا منه على معلومات حول شخصيَّته الحقيقيَّة، أو حَوْلَ «علي هاشمي». اطمأنَّ «كرجي زاده» للسَّيِّد «فاضل»، وقال له: «أنا علي أصغر كرجي زاده، فإذا تحرَّرت فاذهبْ إلى أركان الفليق السادس، وأخبرهم بأنني أسيرُ». فقال له السَّيِّدُ فاضل الذي كان يعرفه: «أنا أعرفُك، لكنني لم أשא أن أقول شيئاً».
- انكشف أمرُ «كرجي زاده»، فقد علِمَ العراقيُّون أنَّ «فريدون كرم زاده» هو نفسه «علي أصغر كرجي زاده»، قائد الأركان في فليق «الإمام جعفر الصادق عليه السلام» السادس. حصلت استخبارات العراق عبر

(1) مهديّ نريمي هو مسؤول استخبارات فليق الإمام جعفر الصادق عليه السلام السادس الذي اختفى مع «علي هاشمي» في جزيرة «مجنون».

جواسيسها وعملاتها على فيلم مُصوّر لـ «عليّ أصغر كرجي زاده أثناء إلقاء كلمة له في جمع من مقاتلي تشكيل» حضرة محمد ﷺ⁽¹⁾ في مدينة «عبادان»، فأنكشف أمره.

كان ضابط التحقيق يرمي للحصول على معلومات حول «عليّ هاشمي، وعليّ أصغر كرجي زاده»، فقال لي:

- هل تعلم أننا أسرنا وزير النفط في بلدك⁽²⁾؟
- أجل أعلم.
- وما رأي الإيرانيين؟ هل شقّ عليكم أن أسرنا وزيركم؟
- وزير النفط ليس عسكرياً، لقد حانهُ الحظ فوقع بأيديكم.
- إذا عرّف القادة الإيرانيون عن أنفسهم فسوف ننقلهم إلى جانب وزيركم.

حاول ضابط التحقيق في المرحلة الأخيرة أن يحصل منّي على إجابات للأسئلة التي طرحها عليّ البارحة حول عمليّ وحدات الاستطلاع والتجسس الإيرانيّة في الأراضي العراقيّة وإلى أين كانوا يذهبون؟ فأجبته:

- لقد كنتُ راصداً في وحدة الاستطلاع والعمليّات، وكنتُ أراقب مُرورَ وعُبورَ آلياتكم في مناطق: «الصخرة، البيضة، وقناة صُويب»، ولا علم لي بأيّ أمرٍ آخر.

(1) كان تشكيل مقاتلي «حضرة محمد ﷺ» من أكبر القوَّات الشعبيّة التي التحقت بجبهات القتال في خريف 1987، كانت منقطعة النظير طوال فترة الدفاع المقدّس...

(2) أسر النظام البعثي عام 1980 المهندس «محمد جواد تندكويان» وزير النفط في حكومة الشهيد رجائي آنذاك، على طريق عام «آبادان - ماهشهر» عندما كان في زيارة تفقديّة للمناطق النفطية في جنوبيّ البلاد. استشهد بعد سنوات من التعذيب في معتقلات النظام البعثي، وقد سلّم جثمانه النظام البعثي آنذاك إلى البعثة المُرسلة إلى العراق عام 1991.

أمرَ بإعادتي إلى السجن. أحضروا لي القليل من الأرز والحُمص، بمقدار «كُل حَتَّى لَا تَمُوت». كُنْتُ قَدْ نَوَيْتُ الصَّيَامَ بَنِيَّةِ النِّجَاةِ، فاحتفظتُ بوجبةِ الغداء للإفطار. لم أعلم متى حلَّ موعدُ الإفطار. أحضروا عند العشاء القليل من الأرز مع مَرَقِ القُنْبِيْطِ، فاحتفظتُ بهما للسَّحُور. لم أعلم موعد السَّحُور؛ لذا تناولت وجبةَ السَّحُور بعد 4 ساعات من تناول الإفطار. اتَّابَنِي أَلَمٌ فِي السَّاقِ، فَكُنْتُ أَمْشِيْ يَوْمِيًّا، وَبِصُعُوبَةٍ بِالْفَعْلَةِ، مَدَّةَ 20 دَقِيقَةٍ مُسْتَعِينًا بِعُكَّازِي فِي زَنْزَانَةٍ لَا يَتَرَاوَحُ طُولُهَا الْمَتْرَيْنِ وَعَرَضُهَا الْمَتْرُ الْوَاحِدُ. فِي اللَّيْلِ اقْتَرَبَ السَّجَّانُ مِنْ زَنْزَانَتِي، وَقَدْ أَدْرَكْتُ مِنْ صَوْتِهِ النِّكْرَةَ أَنَّهُ يَعْتَرِضُ عَلَيَّ الضَّجَّةَ الَّتِي أَسْبَبُهَا. لَقَدْ تَلَفَ الْغِلَافُ الْبِلَاسْتِيكِيَّ أَسْفَلَ عُكَّازِي فَكَانَ يُصْدِرُ صَوْتًا عِنْدَمَا يَصْطَدُّمُ بِالْأَرْضِ يَتَرَدَّدُ صَدَاهُ فِي أَرْجَاءِ السَّجْنِ فَيَزْعَجُ السَّجَّانُ وَالسَّجَّانِينَ. حَاوَلْتُ أَنْ أَتَجَنَّبَ الْإِصْطِدَامَ بِالسَّجَّانِينَ؛ لِذَلِكَ مَزَقْتُ كُمِّي «الدَّشْدَاشَةَ» الْعَرَبِيَّةَ الَّتِي كُنْتُ أَرْتَدِيهَا مِنَ الْمَرْفَقَيْنِ، وَرَبَطْتُهُمَا أَسْفَلَ الْعُكَّازِ. لَمْ يَعْذُ عُكَّازِي يُصْدِرُ أَيَّ صَوْتٍ أَثْنَاءَ السَّيْرِ، فَتَرَكْنِي الْعِرَاقِيُّونَ وَشَأْنِي.

الثلاثاء 30 آب 1988 - سجن الرشيد - بغداد

صباح هذا اليوم، كُنْتُ أَتَلَوَّى مِنَ أَلَمِ الْبَطْنِ، فَقَدْ أَصَبْتُ بِالْإِسْهَالِ، كُنْتُ أَرْغُبُ بِالصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ بِثِيَابٍ نَظِيفَةٍ؛ لِذَا طَرَقْتُ بَابَ الزَنْزَانَةِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ، فَتَحَ السَّجَّانُ الْكُوَّةَ، فَأَفْهَمْتُهُ بِالْإِشَارَةِ وَالْإِيمَاءِ أَنَّنِي أَصَبْتُ بِالْإِسْهَالِ، وَأَنَّهُ عَلَيَّ الذَّهَابُ إِلَى الْمَرْحَاضِ، غَضِبَ كَثِيرًا فَأَغْلَقَ الْكُوَّةَ وَذَهَبَ. كَانَتْ ثِيَابِي وَجَسْمِي بِحَالَةٍ يُرْتَى لَهَا، شَعَرْتُ مَعَهَا بِالْقَرْفِ،

فقد فاحتَ منهما رائحةٌ كريهةٌ. لا يحتاجُ المصابُ بالإسهالِ سوى للذهابِ إلى المرحاضِ، الأمرُ الذي لم يكن ميسراً. كنتُ أصلي في تلك الزنزانة القذرة والثياب المتنجّسة، صلاةً لم تكن مرضيةً لديّ. طرقتُ باب الزنزانة عدّة مرّات من قلّة حيلتي، دخل السّجان فضربني بالكابل على رأسي، وكال لي بعض الشتائم التي لا تليقُ إلّا به، وخرج. دَعَوْتُ عليه في نفسي وطلبتُ من الله أن يصيبه ما أصابني من الإسهال، ولا يُسمحُ له بالذهابِ إلى المرحاض.

قَبْلَ أن يأخذوني إلى التحقيق، بعد ظهر ذلك اليوم، سُمحَ لي بغسلِ ثيابي وبالاستحمام؛ لأنّ السّجان قد أشفقَ على حالي، بل أراد أن أكون نظيفَ الثّياب والرائحة في حضور ضابط التحقيق. قيل: إنّه لا يوجد حمّامٌ في سجن الاستخبارات، وإن وُجدَ لا يُسمحُ لأحد باستخدامه حتّى في أصعب الظروف. أدركتُ من إشارة السّجان أنّه عليّ غسلُ ملابسي والاستحمام داخل المرحاض.

كانت ثيابي عند الغروب ما تزال مبلّلة، فجاء السّجان إلّي ثانيةً، واصطحبني إلى غرفة ضابط التحقيق. سألتني ضابط التحقيق:

- هل كنتَ في «شلمجة» عام 1986 ؟

قلت في نفسي، وما أهميّة ذلك للعراقيين؟! لم أجد مبرراً لنفي ذلك، فأنا لم أكن أعلم الهدف من هذا السؤال.

فقلت: «شاركتُ في عمليّات «كربلاء 5».

- سأذكرُ لك عدداً من الأسماء، فأخبرني إن كنتَ قد سمعتَ بها؟
ذكرَ المحقّق اسمين لضابطين كبيرين في الجيش العراقيّ، هما:
العميد «أمير أحمد» قائد اللواء 506، والعقيد «محمد عبود» قائد

المدفعية في الفرقة 19 العراقية⁽¹⁾.

لقد أسَرَ الإيرانيون هذين الضابطين عام 1986 في عمليات كربلاء خمسة. وقال أنَّ عناصر من منظمة المنافقين قد أخبروهم أنَّ الإيرانيين قتلوهما بعد الأسر. عندما كرَّر سؤاله، قلت له:

- لا أعلم شيئاً عن هذين القائدين، لكنني أعلم جيداً أنَّ الإيرانيين، وبسبب معتقداتهم الدينية، لا يقتلون أسرى الحرب.

- سأسألك سؤالاً، وإن أجبت عليه سأطلبُ إعادتك إلى مخيم الأسرى.

اعتقدت أنَّه سيسألني عن «موقع الخندق»، عن «علي هاشمي، وعلي أصغر كرجي زاده»، أو غيرهما من القادة الإيرانيين. سأل المحقِّق:

- هلاً أعلمتني أيُّ الموجودات التي كان من الأفضل أن لا يخلُقها الله؟

لم أفهم أيُّ موجودات يقصد، فلم أجد جواباً لسؤاله، ولذتُ بالصمت. كنتُ انتظر أن يوضِّح لي السؤال أكثر، وكنت أفكرُ بالجواب عندما ضحك، وقال:

- إذا طُلب منك أن تذكرَ أسماء ثلاثة موجودات مؤذية للطبيعة، فأَيُّ الموجودات ستذكرُ؟

- لكلِّ موجودٍ من مخلوقات الله سرُّه الخاص.

(1) من أجل استكمال كتابة مذكراتي سألت لجنة الأسرى عن مصير هذين القائدين البعثيين، فأخبروني بأنهما كانا أسيرين في معتقل الضباط تحت نظر منظمة الصليب الأحمر الدولي. وقد أطلقا من الأسر عام 1990. كانت منظمة مجاهدي خلق قد أعطت معلومات خاطئة للعراقيين حول مصيرهما آنذاك.

- هل تريد أن أذكر لك تلك الموجودات؟
 - أنا لا أعرفهم.
 - ثلاثة مخلوقات: الإيرانيون، اليهود، والذُّباب⁽¹⁾.
- انزعجت كثيراً من كلامه. كانوا يضحكون وأنا أنظرُ إليهم. تمنَّيت لو لم أكن في قبضتهم، حتَّى أقول له إنَّ البعثيَّين واليهود سلبوا الناس أَمْْنَهُم. كنْتُ أخشى عواقب هذا الكلام، وكنت أتمنَّى أن يُعيدوني إلى رفاقي؛ لذا لم أبح بما في نفسي. لو كانوا لا يتعرَّضون لي بالأذية لقلتُ له: اشكروا الله على أنَّ من يزعجكم هم الإيرانيُّون واليهود والذباب، مع أنَّي متيقِّن أنَّ اليهود لا يُسبِّبون لهم أيَّ إزعاج. أعادوني إلى الزنزانة بعد التحقيق.

الأربعاء 31 آب 1988 - سجن الرشيد - بغداد

نمتُ الليلة الماضية في الزنزانة الانفرادية؛ قرابة العاشرة صباحاً، قدِم إليَّ سَجَّانان واقتاداني إلى سجن الرشيد. عندما دخلت السجن رقم (1) فرح الإخوة كثيراً لرؤيتي، ومنهم «هادي كنجي، نصر الله غلامي، أيرج شباني». وكان صديقاَي «السَّيد محمد شفاعت منش، وأحمد شريفِي» في السجن رقم (2). كان السَّجَّانون قد مدَّدوا عددًا من الأسرى على الأرض في باحة السَّجن، وكانوا يدُوسون بأحذيتهم العسكريَّة على ظُهورهم، فقد أخبرهم أسيرٌ خائنٌ بأنَّه رَاهِم يرمون

(1) سمعتُ المقولة نفسها بعد ذلك في المعتقل رقم (16)، وعلى لسان الحارس العراقي حامد. أخبرني الحارس العراقي الطَّيِّب «سامي» بأنَّ صدام قال ذلك أوائل الحرب. وعندما أراد البعثيون تحقير الإيرانيين كانوا يُرددون الكلام نفسه. بعد التحرُّر سألت العقيد «مرتضى»، مدير مكتب الفن والأدب المقاوم «عن أول من قال ذلك الكلام، فقال هو «خير الله طلفاح» والد زوجة صدام في مقالة خاصة، أمر صدام فيما بعد بأن تُدرس في التعليم العقائدي لحزب البعث.

دبابات إحدى التجمّعات العراقيّة بقذائف «الأر بي جي» في منطقة «دهلران وموسيان». والله أعلم إن كان صدقًا أم كذبًا.

قَرابة الظُّهر استشهد أحد الإخوة، قيل: إنّه كان من أفضل الملاحين في «كيلان»، ولم أعرف اسمه. أصرَّ الإخوة على البعثيين لنقله إلى المستشفى، لكن دون نتيجة، وقالوا: سننقله إلى المقبرة بدل المستشفى. تحوّل ذلك الجسم القويّ إلى كتلة من العظام والجِلد. أُسر ذلك الشهيد في «سومار»، فقد أصيب بشظيّة في ناحية البطن والقفص الصدريّ. فكان، كما قيل،، يتنفّس بصعوبة بالغة. نقل العراقيّون جثّمانه خارج السجن، ودفنوه في مكانٍ مجهول. ولم أكن قد رأيته الشهر الماضي في مستشفى الرشيد.

رفع أحد الإخوة أذان الظهر، وبينما كان الإخوة يُصلّون صلاتي الظهر والعصر، دخل نائب قائد المعسكرات إلى السّجن، فسألني، وكنت أصليّ من قعود: «أنتم تصلّون؟»

ثمّ تابع بلهجة وابتسامةٍ ساخرة: «وهل يصليّ المجوس؟». فقال له «محمد كاظم بابائي»: «أولاً، لسنا مجوساً، ثانياً، الصلاة تعبيرٌ عن العبوديّة لله، وإن ظننّتم أنّ الإيرانيين لا يُصلّون، فاذهبوا أنتم، وأدّوا أعمالكم كما يجب، فالله وحده هو من يحقّ له أن يسأل. وليس أنتم، إن كان العراقيّون يُصلّون أم الإيرانيّون، الأمريكيّون يصلّون أم الكويّتيّون».

فردّ الضابط على «محمد كاظم»، وقال: «نحن العرب، وبقوّة السيف أجبرناكم أنتم الإيرانيّون على قبول الإسلام». فقال «محمد كاظم»: لقد تراجع عن كلامك الأوّل، وهكذا إن استمرّيت بالتراجع

عن كلامك خُطوةً خُطوةً، فستصل إلى نتيجة، وهي أننا نحن الإيرانيين من أفضل عباد الله بعد عصر النبي ﷺ.

غضب الضابط من كلام «محمد كاظم»، حاول الإخوة الامتناع عن الجدل مع حراس السجن والضابط. فهؤلاء عندما لا يروقهم الكلام يلجؤون إلى العنف. أشرتُ بحاجبي إلى «محمد كاظم»؛ كي يتوقف عن الجدل معهم، لكن دون فائدة.

فقال الضابط مخاطباً الجميع:

- نحن من أحفاد قعقاع بن عمرو⁽¹⁾ الذي مرَّغ أنف العجم بالتراب، يجب أن نولِّكم أنتم الإيرانيين إلى سيف «سعد بن أبي وقاص»⁽²⁾.
عندما قال هذا، أجبته: نحن لدينا «سلمان الفارسي» الذي كان مستشاراً للرسول محمد ﷺ، وأضاف محمد كاظم: «الإيرانيون لم يُسمِّموا أحداً من أئمة الشيعة، بل العرب هم من قتلوهم».

الجمعة 2 أيلول 1988 - سجن الرشيد - بغداد

دُهِشْتُ عندما وقعت عيناى عليه، فقد أشار إليّ في مقرّ «الضليق العراقي الرابع»، وقال للعراقيين: «هذا رسول (بريد) عليّ هاشمي». قلت لإيرج شباني من «هرمزكان» وكان يجلس بجانبى:
- اذهب يا «إيرج»! إلى «عباس بهنام»، وقُلْ له أنني أريده في أمر.
كان «عباس» طويل القامة، وأقوى الأسرى بنية. جاء «عباس» إليّ، وقال: «ماذا هناك يا سيّد؟»

(1) كان قعقاع من قادة العرب في حرب القادسيّة

(2) كان سعد بن أبي وقاص قائد الجيوش العربيّة في حرب القادسيّة

- هل ترى ذلك العربي يا «عباس»؟
- أيًا منهم تقصد؟
- الرابع من اليمين؟
- رأيته، وما به؟
- ذلك الرجل كشف أمري عند العراقيين في «الميمونة»، وقال أنني بريد «علي هاشمي»، أقسم عليك بالعباس عليه السلام أن تنتقم لي منه متى سُنحت لك الفرصة.
- وَعَدَنِي «عباس» أن يَخْتَلِقَ سببًا لَضَرْبِهِ اللَّيْلَةَ فِي الزَّانَةِ. لم أتمالك نفسي، فما إن غَادَرَ السَّجَّانُونَ حَتَّى نَهَضْتُ، وَذَهَبْتُ إِلَيْهِ، مَا إِنْ رَأَيْتِي حَتَّى انْخَطَفَ لَوْنُهُ، فَهُوَ لَمْ يَتَوَقَّعْ رُؤْيِي، كُنْتُ سَاخِطًا عَلَيْهِ، وَأَكْرَهُهُ مِنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَمِنْ شِدَّةِ انْزِعَاجِي، قُلْتُ لَهُ:
- أَيُّهَا الْعَمِيلُ الْخَائِنُ، لَمْ كَذَبْتَ عَلَيَّ الْعِرَاقِيِّينَ وَادَّعَيْتَ أَنَّ بَرِيدَ عَلِيِّ هَاشِمِيِّ؟ هَلْ تَعْرِفُنِي أَسَاسًا؟ لَمْ اخْتَلَقْتُ ذَلِكَ الْكَلَامَ؟!
- أَحْبَبْتُ أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ، فَمَاذَا تَرِيدُ أَنْ تَفْعَلَ؟ هُنَا كُلُّ شَيْءٍ لَيْسَ فِي صَالِحِكَ.
- فَقُلْتُ لِعَبَّاسٍ وَ«إِيرَجٍ» لَوْ أَنَّهُ لَمْ يَدَّعِ أَنَّ بَرِيدَ عَلِيِّ هَاشِمِيِّ لَمَا أُجْبِرْتُ عَلَى إِخْبَارِ الْعِرَاقِيِّينَ بِأَنْتِي مِنْ وَحْدَةِ الْاِسْتِطْلَاعِ [المخابرات]. قُلْتُ لِعَبَّاسٍ: «حَالَتِي الْجَسَدِيَّةُ لَا تَسْمَحُ لِي بِمُقَارَعَتِهِ، لَكِنْ أَقْسَمُ عَلَيْكَ بِاللَّهِ أَنْ تَنْتَقِمَ لِي مِنْهُ، فَكُلُّ مَا أَعَانِيهِ هُوَ بِسَبَبِ هَذَا الْخَائِنِ».

السبت 3 أيلول 1988 - سجن الرشيد - بغداد

قبل الظهر جمعوا الأسرى في باحة السجن، فقد أرادوا إرسال عددٍ منهم إلى أحد المعسكرات. اختار رئيس الحراس عددًا من مجموعتنا، منهم «هادي كنجي». كان السّجانون يعلمون أنّ «هادي» يقوم بمساعدة الجرحى، ويُعيننا في كلّ أعمالنا، وأن لا أحد يستطيع أن يحلّ مكان «هادي كنجي». كان الحراس أنفسهم يرون مدى تضحياته في الليل والنهار، كان يَسْتغني عن الطعام والنوم من أجل راحتنا، وكَمّ مَرَّةً وَاجَهَ الحراس، وبكّل غرور من أجلنا. كنت أعلمُ أنّ العراقيين سينتقمون منه، شخصٌ واحدٌ كان بإمكانه الاهتمام بيد الله زارعي، وهو «هادي كنجي». إنّ فكرة إبعاده أحرزنا جميعًا.

ذهبتُ إلى رئيس حراس السجن، ورجوته أن يسمح لـ «هادي كنجي» بالبقاء، وقلتُ له:

- بدون هذا الرجل ستكونُ حياة الجرحى صعبةً جدًّا وَسَطَ ازدحام السجن.

لم يبالِ رئيس السجن بكلامي. قال الأسير العربيّ، الذي تجادلتُ معه البارحة، للسّجانين أنّني من الاستخبارات. وقال «محمد كاظم بابائي»: بما أنّكم قررتُم ترحيلَ 40 أسيرًا مع «هادي كنجي»، فليكن الجرحى من ضمنهم، أرسلوا جميع الجرحى مع «هادي» إلى ذلك المعسكر.

تصرّف رئيس الحراس بكلّ قساوةٍ مع «محمد كاظم»، فأدركت أنّ هدفهم الأذية فحسب، أرادوا إبعاد «هادي كنجي» عن الجرحى، فقد تجادل «هادي» مع العراقيين أكثر من مَرَّةٍ، وأغاضهم من أجلنا.

فصلَ رئيسُ الحُرَّاسِ «هادي» عنا، ووضعوه مع الأربعين أسيراً المَنَوِيَّ ترحيلهم. لقد حزنْتُ كثيراً لفراق «هادي».

أولَّ الليل، دخل رئيس الحُرَّاسِ إلى الزنزانة، كان يَجْلِدُ الإخوة بالكابل عندما كان يُحصيهم، كان قاسياً جداً، ضرب «إسماعيل صولت دار» على رأسه في مكان إصابته بالشظية، وكذلك ظَهَرَ «نصر الله غلامي»؛ حيث نَزَعَت الشظية التي أصابته جزءاً من لحمه. كنّا حين نُبدِّلُ له ضماداته نضع بضعَ ضماداتٍ داخل التجويف الذي أحدثته الشظية في ظهره، ثم نكمل تضميد كامل الجرح ليستوي مع الظهر.

الأحد 4 أيلول 1988 - سجن الرشيد - بغداد

اسمه «محمّد»، من «لاهيجان»، كان العراقيُّون ينادونه «محمّد محمود عبد الله»، كان يستخدم اسماً مستعاراً، ولا أدري لِمَ يَضْرِبُهُ جميعُ الحُرَّاسِ بهذا الشكل! كان بعد الضّرب، يقرأ هذا الشعر للحُرَّاس:

حتّى لو مُلئتِ الدنيا بيزيدٍ فلن نتخلّى عن سيّد الشهداء

كان يقول: «أنا من أقارب الحاج مصطفى أكبري»، وهو عجوز في العقد التاسع من العمر، من «كيلان». عندما سمعتُ بعد ظهر ذلك اليوم قصّة الحاج «مصطفى»، قلت له: «لك الحقّ في أن تفتخر به». وكما قال، فإنّ الحاجّ «مصطفى» من أهل قرية «باركو سرا»، وله 90 ابناً وحفيداً، وقد استشهد 8 من أبنائه وأحفاده في معارك الدفاع المقدّس، إضافة إلى أسير، وآخر جريح. تشاجر «عباس بهنام» مع

الأسير العربي الذي كشفَ أمرِي في «الميمونة»، وأوسعهُ ضربًا. كما أنَّ الحراسَ لم يرحموا «عباسًا»، وضربوه ضربًا مُبرِّحًا دفاعًا عن جاسوسهم. غَطَّتِ الكدماتُ وجهَ عباس، فشعرتُ بالندم؛ لأنَّني طلبتُ منه أن يضربَ الجاسوس. جاء «عباس» إليّ، وقال: «لقد نفذت المهمةَ التي أوكلتها إليّ». أخبرني «محمد كاظم» بأنَّ «عباسًا» تشاجر مع الجاسوس العربيّ في ممرِّ المرحاض، وأوسعهُ ضربًا، فشعرتُ بالرضا. كان الأسرى الأصحاء يشعرون بنوعٍ من الحميّة على الجرحى. لا أدري لِمَ قال «عباس» هذا: «يا سيّد، في ذلك الزمن الذي كسَرَ فيه الأوغادُ ضلعَ الزهراء عليها السلام، تمكّنوا من ذلك؛ لأنّها كانت وحيدة، لكن لم أمت أنا بعدُ حتّى أدع هؤلاء الأوغاد يتعرّضون لك بالأذية»، ما إن قال ذلك حتّى انهمرت الدموع من مُقلتيّ.

تم جمعُ الأسرى في فناء السجن قرابةَ الساعة العاشرة صباحًا، وقالوا لنا: إنَّهم سينقلوننا إلى المعتقل. قلقتُ كثيرًا من أن يتمَّ التفريق بيننا، فقد اعتدنا بعضنا على بعضٍ، وتشاركنا حلاوة السّجن وممراته. كنتُ سعيدًا؛ لأنَّني سأتخلّصُ من بعض الحراس، وخاصة رئيسهم الحقود.

الفصل السابع:

تكرت - المخيم الملحق

الأحد 4 أيلول 1988 . تكرت - المخيم الملحق

صعدنا حافلات وزارة الدفاع الرمادية اللون، وخرجنا من سجن الرشيد في بغداد. أُسِدَّت ستائر الحافلة بأمر من رئيس الحراس، وقالوا لنا: «لا يحقّ لكم النظر إلى الخارج». كما صعد إلى الحافلة عددٌ من الحراس ذوي القبعات الحمر والمسلّحين بكلاشنكوفات AKM (أخمص حديديّ).

أيّ مكان آخر سيكون أفضل من سجن الرشيد. كان سائق الحافلة شخصاً مرحاً، ممتلئ البطن، رفع صوت «المُسجّلة» عاليًا، فكان الحراس يصفقون، ويفنون مع سائق الحافلة، والمطرب العربيّ، بينما يقوم آخر بتبديل أشرطة التسجيل باستمرار، ويُعرِّفنا على أسماء المطربين: فاضل العوّاد، حسين نعمة، سعدون جابر، مي أكرم، وأم كلثوم.

كنت غارقاً في عالمي الخاصّ، لا أشعر بكلّ ما يدور حولي في الحافلة، اختلستُ النظر من شقوق الستائر، فشاهدتُ أشجار النخيل، لا أدري لِمَ أثارت رؤية تلك الأشجار شُجُونِي؛ ربّما لأنّها تذكّرني بمعاناة أهل البيت (عليه السلام). ما إن وقعت عيناى على أشجار

النَّخِيل حَتَّى انْقَبَضَ قَلْبِي حَزْناً، وَكَأَنَّ تِلْكَ الْأَشْجَارَ تَحَدَّثَنِي عَنْ مَظْلُومِيَّةِ عَلِيٍّ وَأَهْلِ الْبَيْتِ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ). لَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ بِحَاجَةٍ إِلَّا لِلْقَلِيلِ مِنَ الْإِخْلَاصِ، وَالْوَجْدِ، لِتَشْعُرَ بِوُجُودِ أَهْلِ الْبَيْتِ بَيْنَ تِلْكَ الْأَشْجَارِ، وَلِلْقَلِيلِ مِنَ الْعَشْقِ كَيْ تَشْعُرَ بِوَحْدَةِ عَلِيٍّ (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، وَنَقْضِ «أَهْلِ الْكَوْفَةِ» الْعَهْدَ مَعَهُ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ الْمَلْعُونَةِ. انْهَمَرَتْ دُمُوعِي لِرُؤْيَا تِلْكَ الْأَشْجَارِ؛ لَكِنَّ الصُّورَ الْكَبِيرَةَ الْمُنْتَشِرَةَ عَلَى طُولِ الطَّرِيقِ سَلَبَتْ مِنِّي ذَلِكَ الشُّعُورَ الْمَعْنَوِيَّ الْجَمِيلَ.

تَتَشَتَّرُ عَلَى طُولِ الطَّرِيقِ بَيْنَ الْمَدَنِ الْعِرَاقِيَّةِ الْعَدِيدِ مِنَ الصُّورِ الْكَبِيرَةِ لَصَدَّامِ حُسَيْنِ بِقِيَاسِ: (3×2م) وَ(4×3م)، تَمَثَّلُ تِلْكَ الصُّورُ الَّتِي رَسَمَهَا أَمَّهَرُ الرِّسَّامِينَ عَلَى لُوحَاتِ أَسْمَنْتِيَّةٍ كَبِيرَةٍ «صَدَّامُ حُسَيْنٍ» بِوَضْعِيَّاتٍ وَأَزْيَاءَ مُخْتَلِفَةٍ، صَدَّامُ حُسَيْنِ بَزِيَّ الْجَنَرَالَاتِ، الزَّيَّ الْعَسْكَرِيِّ، الزَّيَّ الْعَرَبِيِّ: «الْجَلْبَابِ (الدَّشْدَاشَةِ) وَالْعَقَالِ عَلَى الرَّأْسِ»، الزَّيَّ الْعَسْكَرِيِّ الْأَمْرِيكِيِّ مَعَ النُّظَارَاتِ الشَّمْسِيَّةِ، الزَّيَّ الْكُرْدِيِّ وَالْعَشَائِرِيِّ. تَرْمِي تِلْكَ الصُّورُ الْمُتَفَاوِتَةَ الْمَقَابِييسَ، وَالْأَزْيَاءَ، وَالْوَضْعِيَّاتِ، إِلَى إِظْهَارِ عَظَمَةِ صَدَّامٍ وَشَجَاعَتِهِ الزَّائِفَتَيْنِ. كَصُورَتِهِ وَهُوَ يَمْتَشِقُ السَّيْفَ إِلَى جَانِبِ «سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ»، أَوْ إِلَى جَانِبِ «الْقَعْقَاعِ بْنِ عَمْرٍو»، «أَشُورْبَانِيَّالِ»، أَوْ نَبُوخَذَنْصَرٍ»، صُورُهُ لَهُ وَهُوَ يَمْتَطِي الْحَصَانَ، وَيُطْلِقُ النَّارَ، أَوْ خَلْفَ الْمِدْفَعِ، أَوْ وَهُوَ يَلْقِي خُطَاباً مِنْ عَلَى الْمَنْبَرِ. لَقَدْ زُرِعَتْ تِلْكَ اللُّوحَاتُ عَلَى جَانِبِي الطَّرِيقِ، وَيَفْصِلُ الْوَاحِدَةَ عَنِ الْآخَرَى مَسَافَةٌ 5كلم تقريباً.

بعد حوالي أربع ساعات من السَّفر قطعنا خلالها مسافة 300 كلم

تقريباً، دخلنا إلى باحةٍ ترابيةٍ لمعسكرٍ يضم معتقل الأسرى «مفقودي الأثر»⁽¹⁾.

ترجّلنا من الحافلة، أينما نظرتُ وقعتْ عيناى على الصّحراء. يحيط بالمعسكر ثلاثة صفوف من الأسلاك الشائكة، كروية الشكل. يقع «معسكر صلاح الدين» بالقرب من الطريق العام الذي يربط «تكريت» بمحافظتي «أربيل والموصل»، ترتفع جدران المعسكر ما يزيد على أربعة أمتار، وقد نُصبت في أعلاها زوايا حديدية بطول مترين، النُقّت عليها أسلاكٌ شائكة متشابكة، فأصبح طول الجدران مع الأسلاك الشائكة نحو ستة أمتار ونيف؛ فالعراقيون الذين تمنّوا طول فترة الحرب بفريق هندسةٍ عسكريٍّ مُحترَفٍ، قد راعوا في المخيم أقصى جوانب الحِيطَة والحذر؛ بحيث يتعدّر فرار أيٍّ أسير إيرانيٍّ على الإطلاق.

جلسنا صفّاً واحداً مقابل المخيم، ويُشاهد في أطرافه ناقلات الجُنْدِ والمدرعات، وقد ارتفعت أربعة أبراجٍ للمراقبة في زواياه الأربع.

(1) مدينة تكريت هي مسقط رأس صدام، وإحدى أقضية محافظة «صلاح الدين». يحدّها من الشّمال محافظة أربيل والموصل، من الشرق محافظة ديالة ومندلي ونهر دجلة، من الغرب محافظة الأنبار وبحيرة ثرثار، ومن الجنوب بغداد وسامراء يمرّ أنبوب النفط إلى الغرب من تكريت، وينقل النفط من أبار «جيجال» في محافظة الموصل إلى بغداد يضمّ معسكر صلاح الدين المعتقلات 13، 15، 16، 17، 19، 20. كان من المقرّر أن يكون هذا المعسكر من أهمّ المعسكرات العراقية، حيث يضم عدداً كبيراً من الأولوية والفيالق العراقية المدرعة والمؤلّلة. تعتبر معسكرات: «صلاح الدين، التاجي، الراشدية، الرشيد وأبو غريب: أكبر خمسة معسكرات في العراق، وكانت تضمّ في زواياها معتقلات الأسرى الإيرانيين. أمّا العنابر التي نزلنا فيها في معسكر «صلاح الدين» فكانت محلاً لركن دبابات ومدركات الجيش العراقي. وقد قام العراقيون عام 1988 بتحويلها إلى مكان لاعتقال الأسرى، وكانوا يعقلون فيها حتى أوائل شهر أيلول من عام 1991، وبعداً عن أعين الصليب الأحمر الدولي، ما يقارب الـ 20 ألف أسير إيرانيٍّ مفقود الأثر.

في كلِّ برج جنديّ مسلَّحٌ برشاش «غرينوف»، فالحرَّاس متموضعون في تلك الأبراج لحراسة المخيم ليل نهار، ويبدِّلون مناوراتهم كل 12 ساعة.

عندما رأيت أبراج المراقبة انقبض قلبي، وتذكَّرت الأيام التي قضيتها على برج المراقبة لرصد تحرُّكات العراقيين في جزيرة «مجنون»، لكن دارت الأيام، وأصبحتُ أسيرًا، وأصبحوا هم من يراقبونني، فقلت في نفسي: لو سنحت لنا الظروف يومًا ما، وتمكَّن جميع الأسرى من الفرار، لما استطعنا أنا و«محمد كاظم بابائي» ذلك، فقد حُرِّمنا نعمة امتلاك قدمين.

تبلغ مساحة المخيم المربع الشكل 1000م² تقريبًا. دَخَلنا المخيم بثلاثة صفوف، وقف الحرَّاس الذين يحملون الكابلات على جانبي المدخل، وكانوا ينهالون بكابلاتهم المزدوجة على أجسام الأسرى، لم يكن هذا النوع من الاستقبال غريبًا عنَّا، فقد خبرناه في «الميمونة» أيضًا. يعاني العديد من الإخوة الذين جرَّبوا «نفق الرعب» من مشاكل في المثانة، ومن آلام الفتق. دَخَلنا المخيم، وجلسنا في صفوف.

يُضَمُّ المخيم 25 زنزانة مختلفة الأبعاد والمساحات، تقع غرفة الضابط المناوب إلى يسار المدخل، وتقع الزنزانات من واحد إلى سبعة جنوبيّ المخيم، بينما تمتد الزنزانات من ثمانية إلى خمسة عشر غربيّ المخيم، من ستة عشر إلى اثنين وعشرين شماليّ المخيم، ومن ثلاثة وعشرين إلى خمسة وعشرين شرقيّ المخيم، ويوجد بالقرب من غرفة الضابط المناوب، وإلى يمين المدخل الرئيسيّ للمخيم، خمسة مراحيض، وخمسة حمامات. انتظر الحرَّاس قُدُومَ قائد المعتقل. كان

هواء «تكريت» شديد الحرارة، يقطع الأنفاس، وشمسها حارقةً تَسْلَخُ اللحم عن العظام. صيفُ «تكريت» شديد الحرارة، وشتاؤها قارسٌ، يخترق العظام. بعدَ ساعة تقريباً من جلوسنا في ذلك الجوَّ الشديد الحرارة، دخل قائد المعتقل على وقع تحية الحراس العسكرية له.

قائد المعتقل النقيب «خليل إبراهيم كاظم» من محافظة «الموصل»، مربوع القامة، كثيفُ شعر الحاجبين، أسودُ العينين والشاربين، أسمرُ البشرة، لباسه أنيق مع «برستيج خاص»، يرتدي لباساً عسكرياً أخضر اللون قصير الكُمين.

حمل «خليل» العصا الخاصة بالضباط، وقد لمعت النجوم على كتفيه، سلّمنا، بأمر منه، كلّ ما نملك من نقودٍ، ساعات يدٍ، خواتم، مسابح، وغيرها. كما أخذوا منا ثيابنا، وأحذيتنا، وأعطونا عوضاً عنها، قُمصاناً داخليّةً، سراويل قصيرة، وزوجين من النعال البلاستيكية.

بدأ «خليل» كلامه، وقد تولّى الأسيرُ الإيراني العربيّ «كريم جلالی» الترجمة حرفياً. تحدّث النقيب عن رعاية القوانين، والأنظمة، والنظم، والانضباط، إضافة إلى احترام الضباط والحراس في المعتقل. أدركت من كلامه أنّ اسم المعتقل «المخيم الملحق»⁽¹⁾، كما يُعرف أيضاً بـ«مخيم الجدران الأربعة». تحدّث «خليل» بكلّ جدّيّة وحزم، وبصوت مرتفع قائلاً:

(1) - يقع «المخيم الملحق» بالقرب من المعتقل (16)، وعلى مسافة 300 م منه. وكان في السابق مكاناً لاعتقال السياسيين الشيعة والمعارضين لحزب البعث. بناءً على ما أخبرنا به الحارس «سامي» فإنّ بناء «المخيم الملحق» يعود إلى عام 1984 م.

«الأسلاك الشائكة الكروية المحيطة بالمخيّم موصولة بأسلاك كهربائية عالية الفولتية⁽¹⁾، ستقتل كل من يلمسها، لذا حاولوا أن تبتعدوا فكرة الفرار عن أذهانكم، لأنه أمر مستحيل».

قدّم النقيب «سعداً» كرئيس لحراس المخيّم، وقال: سيُعرفكم «سعد» على قوانين المخيّم التي لا يُغفر تخطيها أبداً. بعد أن أنهى النقيب «خليل» كلامه وتوجيهاته، بدأ رئيس الحراس (سعد) الكلام. كان «سعد» طويل القامة، ممتلئ الجسم، ثقيل الوزن، كبير البطن، أبيض البشرة، شعره كستنائي اللون، ومنفتح العينين.

تحدث «سعد» عن القوانين والأنظمة بكل جزئياتها وتفصيلها. فقد وضعت قوانين خاصة بالمخيّم، كان علينا اتباعها. ومن الممنوعات التي ذكرها سعد:

إقامة البرامج الدينيّة، التجمّع لأكثر من ثلاثة أشخاص، إقامة صلاة الجماعة⁽²⁾، إقامة الأذان، صلاة الليل⁽³⁾، ذكر اسم صدام، الاحتفاظ بأيّة وسيلة حادة كالشفرات، المسامير، الإبر، المقصّات، وغيرها. الساعة التاسعة ليلاً هو وقت النوم، ويجب على الجميع التقيد بذلك، ومن لا يستطيع النوم عليه التمدّد، وإغماض عينيه واصطناع النوم. من يريد شيئاً من الحراس، عليه تقديم التّحية العسكريّة أولاً بضرب القدم اليمنى بالأرض، وأن لا يتكلّم إلّا عندما يسمَح له الحارس، أو الضابط بذلك. أُعفيتُ أنا و«محمّد كاظم» من تقديم

(1) التوتّر الكهربائيّ بالفولت؛ التوتّر العالي (فوق 650 فولتاً).

(2) فيما بعد، أجبرنا العراقيين على السماح لنا بإقامة صلاة الجماعة في الزنزانة رقم 2.

(3) لم يمتنعوا من إقامة الصلاة اليومية، لكن بعض الحراس منعونا من استخدام السجّادات للصلاة، وعندما اعترض الإخوة عادوا وسمحوا لنا باستخدامها.

التحيّة؛ لأنّ كلّ واحد منا بقدّم واحدة. كان يجري إحصاؤنا ثلاث مرات في اليوم، صباحاً، ظهرًا، ومساءً، فكان الأسرى يقضون مُعظَم أوقاتهم في صفوف الإحصاء. كان علينا عند الإحصاء الجلوس في خمسة صفوف، فكلُّ واحد يضمُّ رُكبتيه إلى صدره ويضع رأسه بينهما، ولا يحقّ لنا رفع رؤوسنا قبل أن يصل القائد أو الضابط المسؤول عن العدِّ إلينا. كما لا يُسمح لنا بالتهوُّض إلّا بعد الانتهاء من إحصاء كافة الزنانات. كان وقت الدخول إلى الزنانات الساعة الحادية عشرة ظهرًا والساعة الخامسة عصرًا، مع انطلاق صفارة رئيس الحراس. طوَّال مدة الأسر لم أر القمر أو النجوم. أُلزِمنا بحلق محاسننا مرتين في الأسبوع، الأحد والثلاثاء، وقد أعفيتُ من هذا القانون؛ لأنّ لا لحيّة لديّ. كانوا يعطون شفرةً واحدةً لكلِّ خمسة أسرى، يستخدمونها مداورةً الواحد تلو الآخر. فكان الإخوة، خلال الأسبوع الواحد وحسب ترتيبهم في الدور، تارةً يحلقون بشفرةٍ جديدةٍ قاطعةٍ، وتارةً أخرى يعانون من الحلاقة بشفرة مُستهلكةٍ فل⁽¹⁾ نَصَلُها. بعد الانتهاء من حلق اللحيّة أو الرأس، كان مسؤولو المعتقل يُحصون الشّفرات ويطابقونها مع العدد الذي تمّ تسليمه لنا، والويل كلّ الويل لنا إن فُقدَ نصفُ شفرةٍ، فكان العراقيّون ليقيموا الدنيا على رؤوسنا ولا يُقعدونها. كنّا نحلق رؤوسنا مرّةً في الشهر حيث يُعطون شفرةً لكلِّ أربعة أشخاص.

كانت ملابسنا صفراء اللون، إلّا أنّه في أواخر العام 1989، وبسبب النقص في الملابس الصفراء، أعطوا نُزلاء الزنانات ملابس كُحلية من قطعةٍ واحدةٍ، تُشبهُ ملابس عمال رشّ المبيدات في دائرة

(1) قلّ نصلها: صار حدُّها غير قاطع.

«الملايا» في عهد «الشاه البائد»، وقد وُضعت علامة تحمل حرفي «p.w» وهما اختصاراً للكلمتين الإنكليزيتين «prisoner of war»، أي: «أسير حرب». لقد خاطوا العلامة الرّمادية اللون على الجيب الأيسر للقميص، وعلى ظهره. وإذا نزعنا تلك العلامات نجد فراغاً مكانها. كان للمراحيض في «المخيّم المُلحق» قوانينها الخاصة، إذ كان ينتهي الوقت المخصّص للمرحاض لقضاء الحاجة عند الانتهاء من العدّ من رقم (1) إلى (10)، وكان على الأسير الخروج من المرحاض مباشرة بعد الوصول بالعدّ إلى الرقم عشرة، وإلا فإنّ المسؤول عن تنظيم الأدوار سيَرُكّل باب المرحاض بقوة؛ ليُجبر الأسير على الخروج، وكانت أقفال أبواب المراحيض معطّلة من الداخل. ما أن يصل مسؤول تنظيم الدور إلى العدد عشرة حتّى يَرُكّل الباب بشدّة، وإذا لم ينتبه الأسير داخل المرحاض فسيرتطم الباب برأسه بشدّة. لكن الإخوة كانوا يخرجون عادةً من المرحاض فور الانتهاء من العدّ.

في الأوقات القليلة التي كنّا نخرج فيها للفُسحة في باحة السجن، ويتمكّن أحدنا من الدّخول إلى المرحاض، يُعتبر ذلك فتحاً مبيّناً. لقد تَشَارَك كلّ عشرة من رفاق الزنزانة في «الإنفاق»، كان هؤلاء العشرة في الغالب من المدينة أو الكتيبة نفسها. وقد وُزِعَ مسؤولو السجن الإخوة الشّرّيين، أو أصحاب الشّهية الكبيرة على مختلف المجموعات. كان الإخوة، بسبب قلة كمّيّة الطعام، يُقسّمونهُ في القصّة⁽¹⁾ الواحدة إلى عشر حصص، وذلك برسم خطٍ وحدودٍ بالملعقة على سطح القصعة،

(1) كانت القصعة من فلز الرصاص، طولها 50 سم وعرضها 30 سم وارتفاعها 10 سم تقريباً، وتسمى

فيلتزم كل واحد بتناول كمية الطعام المحددة له، ولا يتجاوز التعدي على حصة الآخرين حد المعلقة الواحدة.

كانت حصتنا من الخبز رغيفين في اليوم، خبزٌ مُنتفخٌ يزُنُ حوالي 500 غرامًا، يطلقُ العراقيون عليه اسم «السَّمون». لا يخبز الرغيفُ جيّدًا في الفرن، ويبقى أكثر من نصفه عجينة؛ لذا كنّا نضع بقايا الخبز المُعجن تحت أشعة الشمس لتجف، فنطحنها مجدّدًا، ومن ثمّ نضيفها إلى الطعام أو الأرز.

كان الأسرى المشاركون في «الإنفاق» يحتفظون بحصّتهم من الخبز في كيسٍ واحدٍ، خاطّوه من القماش. فتحتفظ كل مجموعة بحصة أفرادها العشرة من الخبز الذي نتناوله للفطور والعشاء في ذلك الكيس.

كنّا نتناول حساء العدس للفطور، وهو طعام أشبه بالشوربا، مُعدّ من العدس، مع فُتات الأرز ورُبّ البندورة. كانت حصة أربعين شخصًا بالكاد تُشبع عشرة أشخاص فقط.

حصة كل أسير للغداء سبع أو ثماني ملاعق من الطعام تقريبًا، وقد تصل أحيانًا إلى عشرة. كان الحساء الذي يُقدّم مع الأرز للغداء متنوعًا خلال أيام الأسبوع، بسيطًا وغير مُكلف، مثل مرق القُنْبِيط (القرنبيط)، البامية، الكرَفَس، الباذنجان، اللفت النيء، مرق أوراق الشّمندر، الجزر، البطاطا المسلوقة، والبندورة مع البصل.

كان طعام العشاء عبارة عن حساء الباذنجان، البصل، الحمص، اللّوبيا، أو لحم البقر المستورد. وكانت حصة عشرة أشخاص من مرق لحم البقر، عبارة عن 20 % لحم و 80 % ماء، فلا تتعدّى

حصة الشخص الواحد ست أو سبع ملاعق، أو ما يعادل 20 غراماً من اللحم. أخبرنا «محمد رمضاني»، الذي يعمل في المطبخ، أنّ اللحم مستورد من بلغاريا، أو البرازيل أو أستراليا، وكثيراً ما كان فاسداً تملؤه الديدان، وقال: «عندما كنّا نعترض كانوا يقولون لنا: اطبخوا اللحم، وأعطوه للأسرى، ولا تتفوهوا بأية كلمة، وإلاّ فستطردون من هنا»، ولقد طرد العراقيّون أحد أمهر الطباخين بسبب انتقاده لتصرفاتهم، وعيّنوا مكانه طبّاخاً لا يعرف شيئاً عن الطبخ والمطبخ.

الاثنين 5 أيلول 1988 - تكريت - المخيم الملحق

كنّا نقضي الليالي حتّى الصباح كيفما كان، فالسجن مليء بالغبار، والصراصير، وخيوط العنكبوت، وكأنّ أحداً لم ينزل فيه منذ سنوات كثيرة. الليلة الماضية لم أستطع النوم، بسبب شخير أحد الأسرى. كنّا ثلاثين شخصاً في زنزانية لا يتعدى طولها وعرضها (4,30×4 م). وكنّا نُعاني من مشكلة في النوم، فقد جرّبنا طُرُقاً متعدّدة، كالنوم ثلاثة صفوف في عرض الغرفة، عشرة أشخاص في كلّ صفّ، كان يمكن تحمّل الوضع في النوم متلاصقين، لكن المشكلة في الطول، فلو قدّرنا أن متوسط طول الفرد منّا (170 سم) بينما المساحة المخصّصة له (143 سم) فقط، لكان على كلّ أسير أن يقصّر نحو (27 سم) حتّى يتمكن من مدّ قدميه والنوم براحة. حتّى ينام كلّ أسير بهذه الطريقة، يشغل مساحة (143×40 سم)، فينام الصفّان الأوّلان متقابلين ومُتداخلي الأقدام، بينما الصفّ الثالث تكون أقدامه باتجاه الحائط،

وهكذا تقل المساحة المخصصة للطول بنحو (40 سم)، فأصبحت المشكلة أكبر.

جربنا النوم في صفين، وعلى طول الزنزانة، على أن تكون رؤوسنا باتجاه الجدران وأقدامنا متقابلة، لكن المقدار المحدد للعرض قل إلى 29 سم بينما زاد المقدار المحدد للطول إلى 200 سم، ولم تُحل المشكلة، إذ أن المقدار المحدد للعرض أصبح قليلاً جداً وغير مناسب. ثم جربنا طريقةً ثالثة لم تنجح هي الأخرى.

الثلاثاء 6 أيلول 1988 - تكریت - المخيم الملحق

كان طعام العشاء حساء اللوبيا. مع أن كمية الطعام كانت قليلة جداً، إلا أن محبة الإخوة والفتهم قد تجلّت في انصرافهم السريع عن تناول الطعام؛ إفساحاً في المجال للأسرى الجرحى بتناول كمية أكبر من الطعام. مع أننا كنّا جوعاً على الدوام، لكن تضحية الإخوة الأصحاء المشتركين معنا في «الإنفاق»، من أجل الأسرى الجرحى قد تحوّلت إلى نوع من الثقافة. لم نستطع النوم بسبب الجوع في أغلب الليالي، وكان كل من يستيقظ ليلاً يقول للمستيقظين أنه لم يستطع النوم من الجوع، وأنه رأى في المنام أنه يأكل، ولا يشبع.

الأربعاء 7 أيلول 1988 - تكریت - المخيم الملحق

أصبحت صديقاً لكل من «علي يمانى»، و«محمد باقر وجداني». أصبح الاثنان بمنزلة «هادي كنجي» بالنسبة إلّى، كانا جنديين في الجيش الإيراني من مدينة «مشهد». سمح لنا العراقيون هذا اليوم، وبعد مضي مدة طويلة، بالاستحمام، لم يكن أغلب الإخوة قد استحّموا

حتى ذلك اليوم، لعدم وجود حمام في سجن الرشيد. طلب الحُرَّاس منّا الانتظام في صفوفٍ؛ تمهيداً لدخول الحمام. قام «محمد باقر» وهو أطول أسرى الزنزانة قامّةً، وقبل الخروج من الزنزانة، بربط قميصه بطرف عكّازي، ونظّف خيوط العنكبوت من زوايا سقف الزنزانة، وقال إنّ خيوط العنكبوت تجلب الغم.

كان «محمد باقر» فرحاً، نشيطاً، وأكثر الإخوة مرحاً وفكاهة، فكان بمزاحه اللطيف يضيف أجواء المرح على مَنْ في الزنزانة رقم (1). كان يقرأ الدعاء أثناء تنظيفه خيوط العنكبوت، دعاءً من ابتكاره لكنّه جميلٌ في آن.

كان يقول: «اللهم ارزقني الاستحمام كل خميس، وطعاماً يكفيني، ولو لم يكن لذيذاً، وزنزانةً دون سوط، ومكان نوم مريحاً، وأرح العراقيين من شرّ صدام، والمخيّم من شرّ وليد، ومن الأسر حررنا، ومع جدّ السيّد ناصر سليمان منصور احشُرنا، برحمتك يا أرحم الراحمين، آمين رب العالمين».

بعد عدّة أيّام، وصل هذا الدعاء المبكر إلى أسماع العراقيين عبر أسير إيرانيّ عربي، كان ذأبه نقل أخبارنا إليهم. كان «محمد باقر» يرعاني، وكأنّه ممرّضٍ الخاصّ، منذ اللحظة التي أدرك فيها أنّني لا أستاذ من المُزاح، شرّع بملاحقتي بمزاحه، في إحدى المرات، عندما دخلت إلى الزنزانة، قال: «من أجل سلامة السيّد عدّوا إلى عشرة»، لكنّه ما لبث أن صَحَّح مُزاحه، وقال: «من أجل سلامة السيّد الوحيد في الزنزانة، صلوات».

اليوم، ساعدني «محمد باقر» على الاستحمام في «المخيّم

المُلاحق»، كل واحد كان عليه الاستحمام خلال خمس دقائق فقط. لم تكن معتقالات تُكنة صلاح الدين العسكرية الكبرى متصلة بشبكة أنابيب مياه الشرب التابعة لمدينة تكريت، بل كانت الصهاريج تحمل المياه إلى الثكنة مرة واحدة في اليوم، فتملاً خزاني المياه الكبيرين في المخيم؛ لذا لم يكن بمقدورنا استخدام المياه كيف ما كان، وإلا فإن المياه لن تكفي لاستحمام الجميع، أو حتى لاستخدامها في المراحيض. عندما عانى المخيم من شح في المياه، ابتكر الإخوة طريقة جديدة في الاستحمام. فكان الأسرى يخرجون إلى مكان الصهرج في مجموعات من خمسين شخصاً فيقوم المسؤول عنه برشهم بالمياه، فيبذلهم في المرحلة الأولى، ومن ثم كان على الإخوة خلال بضع دقائق، وبعملية سريعة، تنظيف أجسامهم بالصابون، وفي المرحلة الأخيرة يصوب مسؤول الصهرج خرطوم المياه نحوهم لمدة ثلاث أو أربع دقائق. هكذا كانت تجري عملية الاستحمام، لكن لهذا النوع من الاستحمام مشاكله الخاصة؛ فالإخوة الأصحاء كانوا يقفزون عالياً لتصل المياه إلى كامل أجسامهم. وبما أنني عاجز عن القفز، كان «محمد باقر»، وآخرون يرفعونني عالياً ليبتل كامل جسمي. وكثيراً ما كان الإخوة يعودون إلى الزنزانة وأثار الصابون ما تزال على رؤوسهم، ووجوههم، وأبدانهم. ربّما لم تكن هذه الطريقة صعبة كثيراً على الأسرى الأصحاء، لكنها سببت مشكلة واقعية بالنسبة إلى الجرحى، فكان اثنان من الأسرى الأصحاء يستحمّون إلى جانب مساعدتهما للجريح على الاستحمام. وكما كان «محمد باقر» يقول: «لم يحررنا الله من الاستحمام بمياه العراقيين!».

الاثنين 12 أيلول 1988 - تكريت - المخيم الملحق

هذا هو اليوم الثامن الذي أمضيه في «المخيم الملحق». بعد الظهر جَلَسْتُ في ممرّ المخيم، ولم أكن قد اعتدت بعدُ على الحياة فيه، كنت أشعر بالغربة، كان المخيم مُحِشًّا، وفي قلب صحراء «تكريت» القاحلة، والشديدة القیظ. فرحتُ؛ لأنّني جئت إلى المخيم، لكنني اشتقت إلى «هادي كنجي»، وتمنّيتُ أن أعرف مصير «حسين رحيم»، و«عرفان عبد الرزاق». كنت أفكّرُ بكلِّ شخص، وبكلِّ شيء. لقد اشتقت إلى الإخوة رفاق الجبهة، وخاصةً «حسن وكيلی»، «محمود داربام»، و«هوشنك روئين». كانت تتوارد إلى ذهني في تلك الوحدة صورٌ ومشاهدٌ من حياتي، وكانت صورة والدي، أخواتي، وأخي السيّد «هدایت الله» أكثر ما تشغلُ بالي.

كنت أهيّمُ في زحام ذكرياتي وحيداً، فجأةً جلس بالقرب منّي أسيرٌ، لم أره من قبل. كان الأسرى الأصحاء يتمشّون في الفناء، بينما أقبع منطوياً على ذاتي في إحدى الزوايا، لقد شعرت بانجذاب نحوه من المرّة الأولى، اسمه «ميثم سيرفر»⁽¹⁾، توحى ملامحه بأنّه من أبناء جنوب إيران. قال الإخوة: إنّ كان في وحدة الإعداد والتخطيط، لكنّه كان «بريد» الحاجّ «قاسم سليمانی»، قائد فرقة «شار الله 41». لقد أرسله الحاجّ «قاسم» إلى قائد لواء التخريب في الفرقة «الحاج مرتضى باقر»، وعلى مفترق الطُرق قرب الحسينيّة أصيب بشظيّة

(1) «ميثم سيرفر» من مدينة «جيرفت» في محافظة «كرمان»، كان من عناصر التعبئة في فرقة «نار الله 41». كان أخوه قائد الكتبة المؤلّفة من دمج عناصر الجيش الإيراني النظامي وعناصر الحرس الثوري. وقد استشهد عام 1983 في عمليّات «والفجر 1» شمال غرب «فكه».

قذيفة «هاون» أدت إلى فقدته عينه اليمنى، كما أصيب برصاصة في القدم، فكان يسير متكئاً على عكاز واحد، لم يعطه العراقيون سوى عكاز واحد؛ لذا كان يستند إلى الحائط عند المشي عوضاً عن العكاز الآخر. لم يرض أن ينظر الآخرون إليه بعين الشفقة، على الرغم من معاناته الجسدية كان يقوم بجميع أعماله بنفسه.

بعد أن تعرّفت إليه أكثر، أدركت أنه من زهاد الدنيا. كان الإخوة يقولون له: «بجدية تارة، وممازحين له تارة أخرى».

يا ميثم! أنت تحب السيد ناصر أكثر منا، التفت إلينا قليلاً يا عديم الإنصاف.

فيجيبهم ميثم دون تبسم:

ليس الأمر كما تقولون، أنا أحبكم جميعكم، أقسم بجد هذا السيد إنني أنظر إليكم جميعاً بعين واحدة.

كان يقول الحقيقة، فهو لا يملك أكثر من عين واحدة. كان «حامد»⁽¹⁾ الحارس العراقي الغامض، محللاً نفسياً جيداً؛ فقد قال لسامي: يرقد خلف هذا الوجه الهادئ والصامت، تعبويّ مُقاتل، صعب المراس. هذا ما أخبرني به «سامي». كان «حامد» يمتدّ «ميثماً» كثيراً.

كان «ميثم» جالساً بالقرب مني، عندما جاء إليه «سعد» وسأله:

ماذا كنت تفعل في الجبهة؟

كانت أعمل في مدّ أنابيب المياه.

صحيح! «الجبهة ومدّ الأنابيب؟» وهل كنت تمدّ الأنابيب في

الجبهة الأمامية حتى تقطعت أوصالك هكذا؟!

(1) حامد وسعد وسامي، ووليد من حراس المعتقل العراقيين.

ثم تابع سيره وغادر. كان صديقاً «ميثم»، «أكبر دامغاني» و«محمد كمالي» من «كرمان»، يحاولان مساعدته فيقول لهما:
 ينبغي أن أتمرّن في الأسر على الاعتماد على نفسي، وإن لم أستطع
 فسأطلب منكما المساعدة.

كان «ميثم» يكن مشاعر خاصّة للسّادة، وعندما يريد إبراز تلك
 المشاعر كان يقول لي: «يا سيّد، نحن رصاصٌ سلاحك»⁽¹⁾.
 ما زلت أذكر دروساً كثيرةً تعلمتها من «ميثم» في الأسر. ومع أنّه
 كان قليل الكلام، إلّا أنّه كثيراً ما كان يتحدّث إليّ. قال لي في أحد
 الأيام:

«يا سيّد، علينا الانتباه في هذا المخيم، فلا ننسحب من
 متراس عقائدها.»

عندما كان يتحدّث عن العقائد، كان يستخدم ألفاظاً خاصّةً
 بالجبهة والحرب، على سبيل المثال:

«الانسحاب من العقائد، ليس كالانسحاب التكتيكيّ من المتراس،
 أو من أحد معابر الجبهة. عزيزي السيّد! لا يمكن الانسحاب من
 هذا المتراس أبداً!»

الثلاثاء 13 أيلول 1988 - تكريت - المخيم الملحق

في هذا اليوم، شكّلوا ملفات للأسرى. دخل عددٌ من الضباط
 العراقيين إلى المخيم ليُدوّنوا آخر المعلومات حول الأسرى «مفقودي
 الأثر». طلب رئيس الحراس منّا الجلوس في خمسة صفوف مقابل

(1) بالعاميّة: (خرطوش فردك) والمعنى «أنا خدامك».

الزنزانة، وقبل أن أدخل إلى غرفة رئيس الحراس للتحقيق، قال لي السيد «محمد شفاعت منش»:

بماذا ستجيب إذا سألك عن مهمتك في الجبهة؟ انتبه، لا تخبرهم بأنك كنت في «الاستخبارات والاستطلاع»!

لا يمكن الكذب، ولا شيء يستحق الكذب لأجله، سأكرر الكلام نفسه الذي قلته في «الميمونة»، وفي السجن الانفرادي في بغداد.

عندما وصل دوري، دخلت غرفة رئيس الحراس، كان النقيب «خليل»، ومقدم عراقي آخر يحققان مع الإخوة. المُقدم يسأل، والنقيب يُدوّن السؤال والجواب، وقد تولّى الأسير الإيراني العربي «خالد محمدي» من خوزستان أمر الترجمة.

في البداية سألني عن سجلي الشخصي، ثم سألني:

ما كانت مهمتك في الجبهة؟

كنت في وحدة العمليات والاستطلاع.

عندما سمع كلمة «الاستخبارات» من المترجم «خالد محمدي»، تعجّب كثيرًا. أخبرني «خالد» فيما بعد، بأنه بعد أن خرجت من الغرفة، قال المُقدم للنقيب «خليل»: «كنا نقاتل هؤلاء الأولاد خلال 8 سنوات! واستخباراتنا العسكرية أكثر خبرة، وعناصرنا أكبر سنًا، فيما نجد أولادًا صغارًا يعملون في مجال الاستطلاع في جيش الخميني!».

سأل المُقدم بكل تعجب وشغف:

كيف يمكن لشاب في السادسة عشرة من عمره أن يعمل في وحدة الاستطلاع والتجسس في الحرب؟!

- ليس أمرًا عجيبيًا، فأنا كنت في وحدة الاستطلاع والعمليات، مجرد

«راصدٍ عاديٍّ، ولم أكن قائدًا، كما أنَّ أغلب قادة الألوية والفيالق كانوا دون الثلاثين من العمر.

- كيف سمحوا لك بالمشاركة في الحرب وأنت في هذه السن؟
- كثيرًا ما سُئِلْتُ هذا السؤال في العراق، لِمَ هو عجيب بالنسبة إليكم؟! عندما نجد شخصًا كالشهيد «فهميده» الذي كان يَصْغُرُنِي بأربع سنوات تقريبًا، عندما احتلّت قوّاتكم «خرمشهر» حرّم نفسه بقنبلة يدويّة، ونزل تحت دبابتكم، بعدها قال قائدنا الإمام الخميني: «حسين فهميده» قائدنا⁽¹⁾.

- الجيش العراقيّ أقوى أم الجيش الإيراني؟
- صَمْتُ قليلًا، فقد علّمتني تجاربي السابقة، أن لا أُغضب العراقيين أثناء التحقيق، لذا لم أجبه، فقال المُقَدِّم:
- سكوتك يعني أنّ الجيش العراقيّ أقوى.

أثار حفيظتي عندما قال هذا الكلام، وعلى الرغم من أنّي قرّرت عدم قول أيّ شيء، إلّا أنّني غيّرت رأيي، فلم أستطع مع صغر سنّي تحمّل بعض كلامهم؛ لذا قلت له:

- بكلامي لن يقوى جيش ويضعف آخر، لكن برأيي الجيش الأقوى هو الذي يدافع عن وطنه بعقيدة وإيمان، سواء قُتل أو قُتِل. هذا ما تعلّمناه من إمامنا الحسين عليه السلام.

- لقد غسل رجال الدين عقولكم أيّها الأولاد.

(1) نقلت للمُقَدِّم خلال التحقيق ما قاله الإمام الخميني: «قائدنا هو ذاك الطفل ذو الاثني عشر عامًا، الذي بقلبه الصغير، الأثمن من مئة لغة وقلَم (أي: التعبير)، قد حرّم القنبلة ورمى بنفسه تحت دبابّة العدو فدمّرها، و شرب كأس الشهادة».

كثيراً ما سمعت هذا الكلام من العراقيين أثناء التحقيق، كلما تفوهنا بكلمة صدق، ينتقلون مباشرة للحديث عن رجال الدين وغسل الأدمغة، ولكي أتمكن من قول ما أريد دون أن أغضبهم كثيراً؛ قلت له: كان لديكم جيشاً قوياً وجيداً.

كان المُقدّم حاذقاً وذكياً، فعندما قلت: «كان لديكم جيشاً قوياً وجيداً». قال:

- كان لدينا أو لديكم؟

- لديكم.

بعدها كرّر كلمة «زين» عدّة مرات، ثمّ أكملت:

«كنتم أقوى من حيث التجهيزات العسكريّة، وأمريكا، والاتحاد السوفياتي، والعديد من الدول العربيّة قدّموا لكم كلّ الدّعم، بينما كنّا نحن نعانى من الحصار والمقاطعة». عندما رأيت أنّه مستمعٌ جيدٌ تابعت:

«عندما كنت في الصف الخامس الابتدائيّ، كنت أخاف من اسم «أُتندار»⁽¹⁾، كان اسمها مرعباً، وعندما كنّا نخرج في المسيرات، كنّا نردّد الشعار التالي: «سنحوّل مضيق هرمز إلى كربلاء وسوبر أُتندار» إلى بخار في الهواء. كنت أتمنّى لو أعرف ما هي «السوبر أُتندار» التي تملكونها دوننا، ثمّ علمتُ فيما بعد أنّ فرنسا أعطتها لكم. وقد شاهدتُ على شاشة التلفزيون في إيران مشاهد لأسرى أردنيين، سودانيين، ومصريين كانوا يقاتلون معكم. من تلك الناحية كنتم أقوى منّا».

(1) طائرة سوبر أُتندار (Super Etendard) مقاتلة قادمة للإسناد الجويّ القريب تحمل صواريخ من طراز «أكوسيت» لمهاجمة الأهداف البحريّة.

وصل دور السيّد «محمّد شفاعت منش» للتحقيق، وقد أعطاهم اسمًا غير اسمه، لم يعطهم اسمه واسم أبيه وجدّه، بل ابتكر لنفسه اسمًا آخر، «محمّد كاكّا يوتر». سأل المُقدّم محمّد: «هل أنت جندي؟» فأجابه السيّد محمّد: «نعم أنا جندي، لكن جندي إمام الزمان»، ثمّ سأله: «ما الذي دفعكَ للقدوم إلى الجبهة؟». فأجابه، وكان سريع البديهة: «عشقُ الحسين جرّني إلى هذا الوادي»⁽¹⁾.

بعد هذا التحقيق اشتهرتُ باسم «ناصر الاستخباراتي»، وأصبح «وليد» أكثر الحراس عداءً لي. كان الجميع يتحدث عن عدائه لي. «وليد» من البصرة، لكنّه نشأ في الناصرية، كان إنسانًا متشائمًا، بشرته صفراء اللون، متوسّط الحجم، رموش عينيه خفيفة، عيناه صغيرتان، متجهّم وعبوس، أصيب خدّه وحاجبه الأيمن بحروق، فكان يُنزّل قبعته العسكرية إلى حدود الحاجب ليغطّيّه.

عندما يدخل ضابط أو حارس جديد إلى المخيم، كان «وليد» يشير إليّ، ويقول للداخل الجديد: هذا «ناصر الاستخباراتي».

إنّ أشفق أحد الحراس عليّ بسبب حالتي الجسدية، كان «وليد» يأتي إليه تواء، ويقول له: «هذا ناصر الاستخباراتي». طوال مُدّة الأسر كنت الوحيد الذي لا يناديه «وليد» باسمه، ففي كلّ مرّة يصل إليّ، كان يقول: «وين ناصر الاستخباراتي؟» أحمل معي ذكريات أليمة عن «وليد». كانوا قبل التحقيق معي قد ضربوا أحد الإخوة من «آذربيجان»

(1) عشق الحسين جرّنا إلى هذا الوادي، فكريلاء ها هنا أيّها المجاهد. هذا من الأبيات الشعرية التي قرأها الحاجّ «صادق آهنگران» في جمع من التبعويين أيام الدفاع المقدّس، وقد اقتبس المصراع الأوّل منه في جوابه للمقدّم بينما تصرف في الشطر الثاني حيث قال: «قلّة حيلتنا وضعفنا جرّنا إلى هذا السجن».

الغربيّة، وعندما خرج من غرفة رئيس الحراس كان وجهه مليئاً بالكدمات. بعد عدة أيّام أخبرني عن سبب ضربهم له.

كانت الأسئلة المطروحة تدور حول الهوية الشخصية للأسير، وعن اسم القضاء الذي يعيش فيه، مكان الأسر والكتيبة التي كان يخدم فيها. في البداية كان المحقّقون يسألون عن الهوية الشخصية، ثمّ عن المعلومات العسكريّة. عندما سأله المُقدّم عن اسم القضاء الذي يسكن فيه أجابهم: سيّدي «ماكو».

غَضِبَ المحقّق، وسأله ثانية من أيّ قضاء من أفضية إيران أنت؟ فأعطاهم في المرة الثانية والثالثة الجواب نفسه: أنا من «ماكو».

ظن النقيب أن الأسير الإيرانيّ يمتنع عن ذكر اسم مدينته، فأمر بجلده. عندما كانت الكابلات والهراوات تنهال على رأسه ووجهه كزّخات المطر، كان يردّد باستمرار وباللغة التركيّة الآذريّة: «والله أنا من مدينة «ماكو»، لم تضربوني دُونَ سبب؟».

فقال المحقّق: بالتأكيد أنت من مدينة «خمين»، وتخاف أن تعترف بذلك! في نهاية المطاف أنقذه أسيرٌ من «خوزستان»، من الإيرانيّين العرب، ويدعى «حكيم خليفان»، إذ قال للمحقّق: يا سيّدي، إنّه من «ماكو»⁽¹⁾، هذا الأسير يقول الحقيقة، ف«ماكو» اسم القضاء الذي يعيش فيه، عندها تركوه وشأنه. كان العرافيّون طوال تلك المدّة، وقبل نقله إلى معتقل آخر، ينادونه: «شلونك ماكو؟».

كنت أنا والسيد محمّد جالسين عصر ذلك اليوم أمام مدخل

(1) ماكو: كلمة عراقية تعني «لا يوجد»، فكان العرافيّون يعتقدون أن الأسير يقول: «لا يوجد». بينما «ماكو» هي مدينة في محافظة «آذربيجان الغربية» في إيران.

السجن رقم (7). علم «حامد» أنني كنت في وحدة الاستخبارات
فسألني:

- كيف استطعتم أن تعبروا كل تلك الحواجز، وتأثتوا خلف جبهاتنا؟
- عندما كنّا نعبر من أمامكم كنّا نقرأ آية السدّ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ
أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، وعندما نصب
خلف جبهاتكم، كان الإمام الحسين (عليه السلام) يساعدنا فلم ترونا.

الخميس 15 أيلول 1988 - تكريت - المخيم الملحق

أخرجوا الأسرى الذين امتنعوا عن خلق لحاهم خارج الزنانات، إذ
يعتبر هذا عصيانياً للقانون. كنّا ستة أشخاص، أنا، «محمود يوسف» من
«ملايير»، «حسين مقيمي» من «كرمان»، «يد الله زارعي» من «بهبهان»،
«قاسم فقيه» من «بوشهر» و«إيرج شباني» من «هرمزكان». استدعى
«حامد» مسؤول المخيم الإيراني «كريم جلاي»، فجاء كريم، وقدم
التحية العسكرية، وقال له: نعم سيدي. تقدم «حامد» مني، أمسكني
من ذقتي أمام جميع الأخوة وقال: «لم لا تحلق لحيتك مثل الجميع؟»
- لأنّه لا حياة لي لأحلقها، إنّها بضعة شعيرات فحسب، أنا على
استعداد لنزعها، لكن لن أحلقها.

لم يكن بعض الإخوة يريد حلق محاسنهم؛ لأنّه أمرٌ مكروه، وأنا
لم أشأ استخدام الشفرة على وجهي بسبب بضعة شعيرات؛ لذلك لم
أخضع للأمر، ولم أبال إن تعرّضت للضرب، لم أكن أرغب أن تمرّ
الشفرة على وجهي وأنا في هذا السن، لكن تهديدات «حامد» اتخذت
منحى عنيّفاً.

طلب «قاسم»، وهو ضابط قسم الصيانة، وتربطه بي علاقة طيبة، من «حامد» أن لا يضربني، لكن «حامداً» شخصٌ عنيدٌ، فلم يستجب له. كان «قاسم» إنساناً مسالماً لا يعرف الحقد والعداء، وهو من مدينة «الكوت» في محافظة «واسط» العراقية. ضميره حيٌّ، ويعرف مدى قسوة «حامد» وعناده، قال لي: ناصر سليمان، لم تسبّب لنفسك المشاكل، اخلق لحيتك مرتين في الأسبوع كسائر الأسرى، وأرح نفسك من المتاعب.

- لكن لا لحية لي لأحلقها!

حاول قاسم جهده لإقناعي بالعدول عن رأيي.

أخذونا إلى الباحة الأسمنتية للمخيم، فقد دبّر الحراس عقاباً خاصاً للذين يرفضون حلق محاسنهم. بما أنني بقدم واحدة، وغير قادر على تنفيذ العقاب، فقد أمر «حامد» بجلدي خمسين جلدة. انهال «وليد» بسوطه على ظهري حتى أزرق من شدة الضرب. كانت العشرون ضربة الأولى مؤلمة جداً، لكن الضربات الأخيرة كانت أقلّ إيلاًماً.

وصل دور «محمود، حسين، قاسم وإيرج»، وتركوا «يد الله» وشأنه. أمر «حامد» كل واحد من الإخوة بأن بوضع سبّابته على الأرض، واليد اليسرى على الرأس، ومن ثمّ أمرهم بالدوران وهم في هذه الوضعية فداروا حول أنفسهم خمسين أو ستين مرّة، إلى أن أصيبوا بالدوار، وفقدوا توازنهم.

وبحسب أوامر حامد، كان على الإخوة أن يركضوا بسرعة نحو باب الزنازة رقم (12)، المقابل لممرّ أسمنتي وسط الباحة. فما إن ركضوا نحو الباب المغلق، حتّى تبعهم الحراس وهم يضربونهم بالسياط، وبما

أن الإخوة قد أصيبوا بالدوار فقد اختل توازنهم وسقطوا على الأرض. وبسقوطهم تعالت ضحكات الحرّاس، خاصّة «حامد» و«وليد». لكن «قاسم» انزعج كثيراً.

بعد معاقبة عدد من الإخوة، منهم «إيرج شباني وحسين مقيمي»، صرّفوا النظر عن معاقبة البقيّة، وفي اليوم التالي حلق الإخوة لحاهم. مع تعرّضي للضرب المبرّح في كلّ مرّةٍ إلاّ أنّني لم أخضع للأمر، وبعد مدّةٍ تركني العراقيّون وشأني.

السبت 17 أيلول 1988. تكرّيت - المخيم الملحق

كنا نعانى من مشكلة الوضوء داخل الزنزانة. عند خروجنا للفُسحة الصباحيّة، كان الأخوة يتوضّؤون لصلاة الظهر والعصر. وفي فُسحة بعد الظهر كانوا يتوضّؤون لصلاة المغرب والعشاء. لكن لم ندر كيف، وأين نتوضّأ لصلاة الصبح، حتّى إنّ الإخوة الذين يريدون تجديد الوضوء للظهر والعصر، أو المغرب والعشاء كانوا يعانون من المشكلة نفسها. كنّا ندخل إلى الزنزانة الساعة الخامسة عصرًا، ونظّل فيها حتّى الثامنة صباحًا، ولا يُفتح باب الزنزانة قبل الموعد المُحدّد تحت أيّ ظرفٍ من الظروف. «أين نرمي مياه الوضوء؟» كان هذا السؤال الذي يُطرح ليلاً. وقد قدّمت عدّة اقتراحات، قال أحد الإخوة: نتوضّأ على قطعة «نايلون» ثم نضع ماء الوضوء في كوب إلى الصبح، وقال آخر: نتوضّأ أمام باب الزنزانة وفي الصّباح، وقبل الإحصاء، ننظف الماء بقطعة من القماش. لم تكن الاقتراحات مناسبة لحالة الزنزانة.

كان الإخوة يتوضّؤون بمهارة كبيرة، ولم يذهب هدراً سوى بضع قطرات من الماء، فكان أربعة من الإخوة يتوضّؤون بكل سهولة بكوب واحد من الماء، بينما يصعب ذلك على الخمسة.

في النهاية تمّت الموافقة على اقتراح الأسير المشهديّ، الذي اقترح طيّ ثلاث قطع من البطانيّات بحجم (40×40سم). وخطّنا رباطاً في إحدى الزوايا لنتمكّن من تعليقها في أيّ مكان نشاء. كان الإخوة يتوضّؤون عليها، وهكذا لم تبتل أرض الزنزانة بماء الوضوء، ثمّ كنّا نعلق البطانيّات المملوءة بالماء بواسطة حبل بالنافذة خارج الزنزانة، وهكذا نتخلص من ماء الوضوء. لكن بعد مدّة، قال لنا وليد، بذريعة واهية ولؤم بني إسرائيل:

بهذا العمل تبللون ممراً السجن بالماء.

الخميس 22 أيلول 1988 - تكريت - المخيم الملح

أصبحتُ، ومنذ عدة أيام، صديقاً لـ «جعفر دولتي مقدّم»⁽¹⁾. اليوم هو أول أيام أسبوع الدفاع المقدس⁽²⁾، وذكرى اعتداء النظام البعثي العراقي على بلادنا. منذ عدة أيام وأنا أقضي أوقات الفسحة مع «جعفر وميثم». كان «حامد» حارس السجن يمتك «جعفرًا».

«حامد» من محافظة «الأنبار» العراقية، وهو من أقارب «صلاح قاضي» أحد قادة الجيش العراقي، كان قصير القامة، أَسْمَرَ اللون، مغروراً وشكاًكاً. وحسب كلام «سامي» الحارس العراقي الطيب، فإن «صلاح قاضي» هو عمّ «حامد». كان «صلاح قاضي»، وقبل أن يصبح قائد الفيلق العراقي الثالث، قائداً لفرقة المشاة 16. أعطى «صلاح» الأوامر للقوات بالانسحاب إثر عمليات «بيت المقدس» التي شنتها إيران لتحرير «خرمشهر»؛ لذلك أمر صدام بإعدامه بعد سقوط «خرمشهر». وكان صدام قد أعدم قبل عدة أيام العقيد الركن «جواد أسعد» قائد الفرقة المجوقلة الثالثة بتهمة الخوف والتردد في تنفيذ مهمة الهجوم المضاد، وبسبب عدم تعاطيه المناسب حيال

(1) جعفر من مدينة «زابل» في محافظة «سيستان وبلوچستان»، وكان نائب قائد الكتيبة في فرقة «نار الله 41». استشهد والده وأخوه عام 1992 خلال عملية إرهابية أُعد لها مسبقاً، على طريق «زابل- زهدان» حيث أصابت قذيفة «أر بي جي» السيارة التي تقل والده وأخويه. فاستشهد والده «غلام علي دولتي مقدّم» وأخوه «محمود دولتي مقدّم» وقد تحوّل جثمانيهما إلى رماد. بينما وقع الأخ الأصغر «علي أصغر» الذي كان يبلغ من العمر 22 عاماً آنذاك في أسر الأشرار. وبعد 3 أيام من الأسر سمع صوت مروحية فخرج من وكهرم وأخذ يلوح للمروحية بقميصه الداخلي، أغضب تصرفه هذا الأشرار فأطلق عليه أحدهم النار وأرداه شهيداً. شغل جعفر إلى العام الماضي منصب مدير مؤسسة حفظ و نشر آثار الدفاع المقدس في محافظة «سيستان و بلوچستان».

(2) الدفاع المقدس: يطلق هذا المصطلح على الحرب المفروضة على إيران في ثمانينات القرن الماضي، أي الحرب العراقية - الإيرانية (نون).

انتشار الخوف بين العناصر الذين هم تحت إمرته. كان «حامد» يجب عمّه كثيرًا، وقد أخبرنا أنه في السنة الأولى للحرب كان «ماهر عبد الرشيد، هشام صباح فخري، وحسين كامل» أقل رتبة من عمه، وقال أيضًا أن عمه كان عميدًا، وهؤلاء الثلاثة عقداً.

كان «حامد» يتحدث عن عمّه كثيرًا، فيقول: كان عمّي رئيس العشيرة، وصاحب مقام ووجاهة في العراق قبل أن يُصَبَّ «صدام حسين» عليه جام غضبه، وأن وزير الدفاع العراقي «عدنان خير الله زياد» أحبّه كثيرًا، وقد حاول الحوؤل دون إعدام «صلاح قاضي»، لكن مساعيه باءت بالفشل. حدّثنا «جعفر دولتي مقدّم» منذ عدّة أيام عن ذكرياته في عمليّة «بيت المقدس». وصل هذا الحديث إلى مسامع «حامد». فحامد يَكُنُّ عداوة خاصّة لكلّ من شارك في عمليّات «بيت المقدس».

يحمل «حامد» ذكريات مرّة عن تحرير «خرمشهر»، فهي تذكره بمقتل عمّه؛ لذا نراه يبحث دائماً عن حُجَج واهية ليؤذي «جعفر»، ولا يُقرُّ بأنّ صدام هو من قتل عمه؛ ربما لأنّه يخاف منه.

ناداني «حامد»، وأخذني إلى غرفة رئيس الحراس، كان الملازم «قحطان» المعاون الثاني في المخيم هناك. «قحطان» من محافظة «ديالة»، شخص ثرثار، نهم ولجوج، أسمر اللون قبيح المنظر. قلت له بعد مدّة من انتشار خبر تبادل الأسرى في الصحف: سيدي، برأيك متى سيُطلق سراحنا؟ فأجابني الملازم «قحطان»: إذا حبِلَ الرجل يُطلق سراحكم. وعندما بدأ الأسرى الإيرانيون بالعودة إلى الوطن قلت للدكتور «مؤيد» الذي تربطه علاقات جيّدة مع الملازم قحطان: «قل

للملازم قحطان، هل رأيت، سيُطلق سراحنا «ولم يحبل أيّ رجل»؟!
كان «قحطان» يحسّي الشّاي، لم يستطع «حامد وقحطان» أخذ
اعتراف من «جعفر» حول مهمّته، ورتبته في الجبهة، فسألني الملازم
قحطان:

أنت صديق لـ «جعفر دولتي مقدّم»، ويقولون أنّك ترافقه على
الدوام، فهل أخبرك ما كانت مهمّته في الجبهة؟
أنا لم أسأله، وهو لم يخبرني بأيّ شيء، لكن الإخوة الكرمانيين
يقولون إنّّه كان في وحدة الإسناد.

ما بكم عندما نسألكم عن مهمّة شخص ما في الجبهة تُجيبون على
الفور بأنّه كان يعمل في وحدة الإسناد؟!
كنت أعلم من الذي دفع «قحطان» إلى ذلك، فحامد لم ينس بعد
كلّ تلك السنوات عُقدة خسارته لعمّه، وبدل أن يكره «صدام» الذي
أمر بإعدامه، صبّ جام حقه على كلّ من شارك في عمليّات «بيت
المقدس»، أمثال «جعفر».

قال «حامد» للملازم «قحطان»: إنّ «جعفرًا» قائدٌ، نعم لقد أصاب،
فجعفر كان قائدَ محور العمليّات في «شلمجة»، وإلى ذلك اليوم لم
يُكشف أمره، لكن بعد مدّة انكشف الأمر.

قلتُ للملازم «قحطان» أعمل في الأسر بنصيحة أحد الأصدقاء الذي
قال لي: الأفضل لنا في الأسر أن لا يعلم بعضنا بمهامّ بعض ورتبهم.
فجأة تحوّل كلامه إلى صياح وسألني بغضب: «تريد أن تقول أنّكم
لا تخبرون بعضكم بعضًا بمهامكم في الجبهة؟!».

- أجل، إذ لا ضرورة لذلك.

فقال «قحطان» لوليد: «خذ ناصرا الاستخباراتي، واجلده بالكابل 30 جلد».

خرجتُ، وكانت تلك أمنية «وليد» الذي جلدني بالكابل 30 جلد على يدي، لقد تألمت كثيرا فقلت له: لا تجلدني على يدي. فهي بمثابة القدمين لي، واجلدني عوضا عن ذلك على ظهري. تقرحت يداي ولم أجد قادرا على حمل عصاي والسير بها.

قال «حكيم» «لوليد»: سيدنا، اضربني بدلاً عن السيد، دع السيد وشأنه، مسكين فهو معوق.

تضايقتُ من كلام «حكيم»، مع أنه كان يقصدُ مساعدتي، لكن استخدامه لعبارات مثل «سيدنا»، هذا «معوق»، و«السيد صغير السن»، وما شابه، ضايقتني كثيرا. فأنا لم أرد أن يُداس على عزة نفسي وكرامتي، فلا كلام الأسرى كان يروق لي، ولا شفقة العراقيين. ولشدة ما ألمتني يداي أمسكت بعكازي بصعوبة بالغة، وعدت إلى الزنزانة، ولم استطع استخدام يدي لعدة أيام آخر، تركتُ العصا، وكنت أتنقل قفزاً على قدمي. عندما كان العراقيون يأخذون مني العصا، وكانت يداي سالمتين، كنت أضع النعلين في كفي، وأنتقل من قعود مستخدماً يدي.

ذهبت إلى «جعفر» بعد الجلد المبرح الذي تلقّيته من «وليد»، وحدثته بأمر «حامد» وأسئلة الملازم «قحطان». كان جعفر كتوماً، لا ينبسُ ببنت شفة، فقلتُ له ممازحاً: «يا جعفر! أترى ما فعله بي «وليد» لأنني لم أكن على استعداد لفضح أمرك؟».

فأجاب جعفر بلهجته «الزابلية»⁽¹⁾ المحببة مماًزحاً:
يا سيّد! الأكثر قرباً في هذا الحفل ينالون النصيب الأوفر من الكؤوس.
فقلت له ضاحكاً: «يا جعفر! ماذا إن كنت لا أريد ذلك الكأس
منك، ولا من «حامد وقحطان!».

خلال فترة وجودي في «المخيّم المُلحق»، أخذ جعفر إلى غرفة
رئيس الحراس للتحقيق عدّة مرّات، وكرّر «جعفر» في كلّ تلك المرّات
الكلام نفسه، أي أنّه عنصر عادي من عناصر التعبئة⁽²⁾.

الأحد 2 ت 1 1988 - تكرّيت - المخيّم المُلحق

إنّها ذكرى أربعين الإمام «الحسين عليه السلام». هناك ضوابط
ومقرّرات محدّدة لإقامة الشعائر الدينيّة. كنت أعرف «حيدر راسّتي»،
من الأتراك الإيرانيين، أهل «كوكان تبريز»، وقد أنشد لنا اللطميّات
مرّة أو مرّتين بعيداً عن أعين العراقيّين. لقد انجذبت إليه، واتخذته
رفيقاً لي، كان يعلم أنّي أنشد اللطميّات أيضاً، فجاء إليّ قبل الظهر،
وطلب أن نُقيم مجلس عزاء للإخوة في الزنزانتيْن (7 و 16) بمناسبة
أربعين الإمام الحسين عليه السلام. أعرف جيّداً عاقبة هذا الأمر إذا وصل
إلى أسماع العراقيّين. لقد أبكت لطميّات «حيدر»، باللغة التركيّة،
وبذلك الصوت الحزين والجميل، عيون الجميع. كنت أذهب إليه أكثر
الأوقات، وأطلب منه أن يقرأ لي التّعزية. كان يقرأ التّعزية للجميع في
المناسبات، ويقرأ لي بشكل خاصّ من دون مناسبة.

(1) الزابلية أي نسبة إلى مسقط رأسه مدينة «زابل» الإيرانيّة.

(2) في الأيام الأخيرة للأسر، وعندما لفتت مهارة «جعفر» في الخياطة أنظار العراقيّين، كان «جعفر» يقول لهم تورية: «انظر يا سيّدي إلى مهارتي، فقد كنت قائد دار الخياطة في «فرقة ثار الله» 14».

عندما كان يقرأ التعزية كانت تبتل وجناتنا بالدموع دون إرادة منا. لا أدري لم للتعزية باللغة التركية كل هذا الأثر والشجون، حتى إن الإخوة الناطقين بالفارسية، كانوا يتأثرون بالتعزية التركية كثيراً مع أن أغلبهم لم يكن يجيدها. عندما كان «حيدر» يقرأ لهم التعزية كانوا يذرفون الدموع بكل حرارة.

ربما يكون السرّ علاقة الأتراك الإيرانيين المُميّزة بأبي الفضل العباس عليه السلام.

كنّا نقرأ التعزية أنا و«حيدر» في الزنزانتين اللتين كنّا فيهما، وقد حدّدا اثنتين من الإخوة الذين يحملون قطع «المرآيا» كمراقبين لممرّات المعتقل؛ لإنذارنا بقدوم الحراس المناوبين. مع أنّه كان من المقررّ التوقّف بشكل مؤقت عند قدوم الحراس، فإنّه، وبسبب الحالة المعنويّة التي عمّت الجميع، لم نقطع التعزية. لم نقطعها مع إشارة المسؤول عن المراقبة.

لم أقطع التعزية عند رؤيتي للعراقيين الذين حضروا خلف النافذة، ولم ألقت إليهم، ولا إلى كلامهم. كان «كريم» يترجم كلام «حامد» من خلف النافذة:

ممتاز، جيّد جداً! هذا يعني أنكم تشعرون بالأمن والأمان كثيراً حتى تقرؤون التعزية، وتلطمون الصدور! لعن الله آباءكم أيّها المجوس، سننزل عليكم من البلاء ما يجعل الحسين يأتي بنفسه إلى هنا لنجدتكم.

أخذونا أنا و«حيدر» إلى غرفة رئيس الحراس. قال «سعد» الغاضب جداً:

رأيت في الجبهة الجنوبيّة أسراكم، وقد كتبوا على ظهور قمصانهم، وعَصَبَات رؤوسهم، «مسافر كربلاء»! هل تريدون احتلال كربلاء؟! لم لا تحضرون شاحنة كبيرة فتحملوها معكم إلى إيران وتريحوننا منكم؟!

لم يكن كلام «سعد ووليد وحامد» في ظل نظام «صدام» المعادي للشيعية بالأمر العجيب.

جاء «خليل» الليلة، لإحصاء الأسرى، وكان غاضباً جداً. كان مقيّداً بأوامر من هم أعلى رتبةً منه، حيث يُعاقَبُ الحُرّاس الذين يبالغون في استخدام العنف، لكن عقاب من يقرأ التعزية للإمام الحسين عليه السلام كان كبيراً جداً، و«خليل» من الذين لا يعرفون الرحمة.

حُكِمْنَا أنا و«حيدر»، وبأمر من النقيب «خليل»، بسبعين جلدةً. جلد «حامد» حيدرًا بينما جلدني «وليد». بعد أن تلقينا سبعين جلدةً، قال «حيدر» لهما بلهجته التركيّة اللطيفة، ولمرتين على التوالي: «أقسم عليك بحياة أُمِّكَ أن تجلدنا جلدتين إضافيّتين؟!».

- يبدو أنّ الجلدات التي نزلت على رأسيكما قد أَفْقَدْتكما صوابكما! لكن لا حاجة للرجاء.

قال «حامد»، وهو يجلد كلّاً منّا جلدتين إضافيّتين: «خذا هاتين الجلدتين، واغربا عن وجهي». أثناء عودتنا إلى الزنزانة قلت لحيدر: - «يبدو حقاً أنّك فُقِدْتَ صوابك! لِمَ طلبت أن يجلدنا جلدتين إضافيّتين؟!»

- بحق أبي الفضل العباس، ما فهمت لم؟

- لا!

- أردت أن يكتمل النصاب، كان الأمر يستحق أن نلتقى 72 جلد في أربعين الإمام الحسين عليه السلام، بالله عليك أليس ذلك رائعاً؟! كان ذلك النوع من التفكير والشوق الذي يكنه «حيدر» للإمام الحسين عليه السلام درساً لي. شعرت بالسكينة لسماعي ذلك الكلام، وقلت: «أجل والله يستحق ذلك».

إلى أي مدى ذهب حيدر بأفكاره، إلى أن يطلب 72 جلد بعدد شهداء كربلاء! هذه العقيدة وهذا الحب جعل الجميع يتأثر بقراءته للتغذية، حتى الحراس العراقيين أمثال «سامي وقاسم».

الاثنين 3 تا 1 1988 - تكريت - المخيم الملحق

منع الماء عن المعتقل الليلة الماضية بسبب إحيائنا لمراسم أربعين الإمام الحسين عليه السلام، فطلب «حسن بهشتي بور»⁽¹⁾ في الزنزانة رقم (2) من رفاق زنزانه تكرار قراءة آية «أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء».

ترددت أصداً دعاء الإخوة في الزنزانة رقم (2) في جميع أرجاء المعتقل، لم يقرّر لنا قرأراً من شدة العطش، ولم يستطع العراقيون إسكات أصواتنا.

في الصباح الباكر، التقيت «بهشتي بور»، فقال: من الجيد أنهم

(1) «حسن بهشتي بور» إنسان متعلّم، ذو همّة وتديير. هو من طهران وطالب في السنة الأخيرة في فرع الاقتصاد في جامعة «بابلسر»، التحق مع 25 من زملائه الجامعيين بكتيبة «حضرت رسول الله» في فرقة «كربلاء 25» وتوجّهوا إلى «سلمجة» وقد وقع 9 منهم في الأسر، عام 1988. كان حسن موظّفاً في مؤسسة الإذاعة والتلفزيون الإيراني. وقد عينه السيّد «لاريجاني» بعد التحرّر مديراً لقناة «العالم». وهو خبير وصاحب رأي بارز في القضايا الإعلامية والشرق الأوسط. جاء في كتاب «ثقافة الجبهة» الجزء 5 الصفحة 59، أن أفراد التعبئة في فرقة «سيد الشهداء 10» قد منحوه لقب «البروفسور».

أعطونا الماء، وإلا لكان الإخوة قد هلكوا حتّى الصباح من شدة العطش».

- وهل أعطوكم الماء؟

- أجل، أعطونا القليل، كان قعر السطل مليئاً بالطين والوحل، لكنه سكّن عطشنا.

تعجّب «بهشتي بور» كثيراً عندما علم أنّهم أعطوا الماء لزنزانتة فقط، وقال: يا سيّد! هذا من بركات «أمن يُجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء».

قام العراقيّون قبل إحصاء الظهيرة بفصل عناصر الجيش الإيرانيّ عن عناصر التعبئة والحرس الثوريّ. فقد أراد حراس المعتقل فصل زنزانات عناصر الجيش عن عناصر التعبئة والحرس. برأيهم أنّ عناصر الحرس الثوريّ والتعبئة هم المنظمّون لمراسم أربعين الإمام الحسين عليه السلام، والمسبّبون للهياج في المعتقل. أظنّ بأنّ هذا الأمر من تدبير ضابط الاستخبارات في المعتقل. جُمعنا في الباحة، دخل الملازم فاضل. بلغ عدد عناصر التعبئة والحرس حوالي 80 عنصراً من أصل 850 أسيراً في المعتقل. 90 % من الأسرى هم من عناصر الجيش. كان هدفهم إثارة الفتنة والتفرقة، وهذا ما ظننته أيضاً، وذلك عملاً بالقول السائد «فرق تسد». وهذا ما استتبّطناهُ من كلام الملازم «فاضل» نفسه. فقد أرادوا إيجاد اصطفاك جديد بين الأسرى.

قال الملازم «فاضل»: من الطبيعي أن تكون معاملتنا لأسرى الجيش الإيرانيّ أفضل، فعناصر الجيش مُلزمون بتأدية واجب «خدمة العلم» في الحرب، لكن الحرس الثوريّ وتعبئة الخميني شاركو في الحرب

بكل رغبة وإرادة بهدف احتلال العراق، ولم يفكروا بهدف آخر غير احتلال العراق والقضاء عليه.

خَصَّصُوا الزنزانين رقم (11) و (12) للحرس الثوري وعناصر التعبئة. كان عددنا قليلاً، وتربطنا علاقات أخوية مع عناصر الجيش الإيراني، وغالبيتهم من الجنود في «خدمة العلم». كان هؤلاء الجنود الغياري يساعدوننا في أعمالنا واحتياجاتنا الشخصية. قال «وليد»: لَمْ أَكْثَرُ الْجَرْحَى هُم مِّنَ الْحَرَسِ الثَّوْرِيِّ وَالتَّعْبِئَةِ؟! أَجَابَ هُوَ عَنْ سَأَالِهِ: «لَأَنْكُمْ كُنْتُمْ تَقَاتِلُونَنَا بَعْنَادٍ، وَحَتَّى الرَّمَقُ الْأَخِيرَ».

الاثنين 10 ت 1988 - تكريت - المخيم الملحق

اليوم ذكرى ارتحال النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ ﷺ، وشهادة الإمام الحسن المجتبي عليه السلام. منذ عدة أيام وضع العراقيون مكبراً للصوت على السطح، كان صوته المزعج يُبْري أرواحنا كالمبرد، كانوا يبثون خلاله الأغاني العربيّة والفارسيّة. تضايق الإخوة، وغضبوا؛ بسبب بثّ الأغاني في ذكرى ارتحال النَّبِيِّ ﷺ. حزن «حسن بهشتي»، وقال «جعفر دولتي مقدّم»: «يا سيّد ما كان يجب أن نُؤسّر».

لَمْ لَا؟ فَالْأَسْرُ فِي النِّهَايَةِ جُزْءٌ مِّنَ الْحَرْبِ وَالْجِهَادِ. خَرَجَتْ «آه» مِّنْ أَعْمَاقِ صَدْرِهِ، وَقَالَ: «لَا يَا سَيِّدُ! لَا وَجُودَ لِلْأَسْرِ فِي الْمَدْرَسَةِ الَّتِي عَلَّمْتَ الشَّهَادَةَ».

عندما فكّرت بكلامه أدركت أن الحقّ معه. لم أكن حتّى ذلك اليوم قد تعمّقت بهذا الكلام. قال «جعفر»: «فهل هناك أسوأ من أن نُجبرَ على سماع الأغاني في ذكرى ارتحال النَّبِيِّ ﷺ؟!». تحدّث

«جعفر» قبلَ عدّة أيام مع الملازم «حميد» الذي جرح أثناء عمليّات «والفجر8». الملازم «حميد» من مدينة «الكوت»، كان نحيل الجسم، أنيقاً، قليل الكلام، بارد الدم. شعره أشقر اللون، طويل الوجه، مرحاً ومثقفاً، وخريج كلية الضباط في بغداد.

سأل جعفر: «كيف لكم أنتم الإيرانيّين أن تعبروا نهر «أروند» في ذلك الشتاء القارس، وتصلوا إلى الفاو؟» فأجابه قائلاً: «لقد طلبنا العون من الله، وأهل البيت (عليه السلام)».

حدثه «جعفر» عن غواصي عمليّات «والفجر8»، وكان الملازم «حميد» الذي يحمل ذكريات مُرّة عن شتاء عام 1986، يُلح عليه في الأسئلة، يرغّب كثيراً في معرفة ما جرى خلف تلك السواتر الترابيّة تلك الليلة، أجابه جعفر: «سيّدي!» عندما يجمع «قاسم سليمان» قائد فرقة «ثار الله 41» غواصي التعبئة في تلك الليلة الباردة على ضفة نهر «أروند»، ويقول لهم: هذا الماء الذي ترونه هو مَهْرُ «فاطمة الزهراء (عليها السلام)»، فأقسموا على الله بحق مَهْرِ السيّدة «فاطمة» أن تعبروا الماء، وتُقرّحوا قلب الإمام. فهل تتوقّع أن لا تساعدنا «فاطمة (عليها السلام)»؟»

بُهِتَ الملازم «حميد»، وهزّ رأسه بالإيجاب، وغاص عميقاً في أفكاره، فتابع «جعفر»: «يا سيّدي! لقد حاربناكم في الجبهات بعشقنا لله ولأهل البيت، وطلبنا منه العون، لكن أليس أهل البيت أنفسهم مظلومين هنا في بلدكم؟».

اندھش الملازم «حميد» أكثر فأكثر عندما قلت له: «لقد دمّرنا لكم في عمليات «والفجر ثمانية» 72 مقاتلة حربيّة بعددٍ شهداء كربلاء».

قبل أن يحين وقت إحصاء الظهيرة طلبت من «جعفر» أن يرافقني إلى غرفة رئيس الحراس. فقد أردت أن أطلب منهم أن يتوقفوا عن بث الأغاني من مكبر الصوت في المخيم احتراماً لذكرى ارتحال النبي ﷺ، وشهادة الإمام الحسن عليه السلام. دخلت أنا و«جعفر» غرفة رئيس الحراس. كان «سعد» منشغلاً بالكتابة فسألنا: ها شنو؟!

جاء المترجم «كريم»، فقلت لسعد: يا سيدي، صحيح أننا بنظركم أعداء لكم، لكننا مسلمون، ونؤمن بالله والنبي.

فقال سعد الذي يستاء من المقدمات: أجل أعرف أننا جميعاً مسلمون، ماذا تريد؟ فقال جعفر: «سيدي! للنبي الأكرم ﷺ حرمة، النبي هو لجميع المسلمين. فاحتراماً للنبي الذي يصادف اليوم ذكرى ارتحاله، أعطوا أوامرهم بوقف بث الأغاني».

لم يذكر «جعفر» شيئاً عن الإمام الحسن المجتبي عليه السلام، فقد حاول من خلال ذكر اسم النبي ﷺ فقط التركيز على القاسم المشترك بين المذهب السني والشيعة. أعطى «سعد» أوامره بوقف بث الأغاني.

الأربعاء 12 تـ 1988 - تكريت - المخيم الملحق

أينعت اليوم القرية الشعرية عند السيد «محمد شفاعت منش» فنظم شعراً، قال فيه:

قَبَعْتُ في زاوية السجن دون مؤنسٍ فاشفني يا خالقي وأعني. كان مسؤول توزيع الشاي في المخيم شأباً نحيل الجسم، وطويل القد، يُدعى «بهزاد روشن»⁽¹⁾. دخل الزنزانة وكان يحمل كوباً من الشاي في يده، فناداه مسؤول الزنزانة، وطلب منه توزيع كوب الشاي بين جرحى الزنزانة.

كانت حصّة كل خمسة أسرى في المخيم كوباً واحداً من الشاي. وكان العراقيّون يُعطون «بهزاد» المسؤول عن توزيع الشاي في المخيم كوباً إضافياً، لكنّه كان يكتفي بحصّته من الشاي التي يتقاسمها مع أربعة آخرين، ويوزّع حصّته الإضافيّة يومياً، وبالتناوب على الزنانات الخمس والعشرين. عندما علم مساعد طبيب المخيم (الدكتور مؤيد) أنّه طالب سنة ثانية في كلية الطب نقله إلى مستوصف المخيم.

قراية الظهيرة، عاد الإخوة الذين كانوا يقومون بأعمال السخرة إلى المخيم.

كان العراقيّون يأخذون يومياً وبالقوّة، عدداً من الأسرى للقيام بأعمال السخرة. كانوا يختارونهم من الأسرى ذوي البنية القويّة. مع ذلك، كان بينهم أيضاً أسرى ضعاف الجسم، أُجبروا على القيام بأعمال السخرة بسبب نقمة الحراس عليهم.

يقع بالقرب من المخيم مصنع لصناعة أحجار البناء الأسمنتيّة،

(1) الدكتور «بهزاد» من «كيلان». كان طالباً في السنة الثانية في كلية (شيراز)، وجاء إلى جبهات القتال برفقة عدد من الطلاب الجامعيين. أسر في «شلمجة» بتاريخ 25-5-1988 م. تابع دراسة الطب بعد التحرّر ويعمل كمدرس في كليّة الطب في «كيلان».

فكان الإخوة يقومون بتشغيله. وقاموا أيضًا بإنجاز أعمال البناء في عددٍ من الأبنية التي لم يُستكمل بناؤها بعدُ في معسكر صلاح الدين. كنت صديقًا «لحسين جعفري» من «كرمان» نزيل الزنزانة رقم (7)، وكان يقوم بأعمال البناء [بالسخرة]، وقد استغلَّه العراقيّون كثيرًا. هو المذنب في هذا الشأن، فقد كان يعمل دون كَلَلٍ، والعراقيّون يعجبهم الشخص الذي لا يعرف التعب، فلا يدعونه وشأنه.

مع أنّ «حسين» كان مريضًا في ذلك اليوم، إلّا أنّهم أخذوه للسخرة. بالكاد استطاع السير عند عودته إلى المخيم. بعض العنابر التي نُصبتْ هياكلها المعدنية، بُنيت على أيدي: «حسين جعفري، رضا زينلي»، وعددٍ آخر من الإخوة الآراكيين، الطهرانيّين، والهمدانيّين. كان مسؤول قسم الهندسة في المعسكر يُريد إنهاء بناء القسم الإداريّ، اللوجستيّ، وأحد المخازن في أسرع وقت. هزلت أجسام الإخوة (العاملين بالسخرة) بسبب سوء التغذية، ولم تعد لديهم القدرة على القيام بالأعمال الشاقّة والصعبة. كان عليهم ملء حُمولة عشر شاحنات أو اثنتي عشرة شاحنة صغيرة بالأحجار الأسمنتية. كان العراقيّون يُجبرون الإخوة على العمل كالعبيد، ولم يكونوا على استعداد للاهتمام بتغذيتهم وإطعامهم، بل كانوا يعطونهم كمية الطعام نفسها كالآخرين. كان الإخوة الذين اكتسبوا خبرة في هذا المجال، ولم يكونوا قادرين على مقاومة العراقيّين، يصبّون جام غضبهم على الأحجار الأسمنتية، فكانوا يضعون الكثير من الحصى والقليل من الأسمنت عند صبّ الأحجار الأسمنتية أو العكس. كانوا يهدفون من وراء تقليل كمية الأسمنت أن يصنعوا أحجارًا أقل مقاومةً وأسرع تلفًا.

ومن خلال زيادة كميّة الأسمنت أن يُعرضوا العراقيين لمشاكل نفاد كميّة الأسمنتية عندهم. هذا الشيء الوحيد الذي استطاع الإخوة القيام به.

قال «حسين جعفري»: عندما كانت تتحطّم الأحجار الأسمنتية، ويسألنا العراقيون عن السبب، كنّا نجيبهم بأنّنا لسنا مذبذبين، فقد خارت قوّانا، وكانت الحجارة تسقط من أيدينا وتتحطّم. وقد أخبرنا العريف «قاسم»، مسؤول قسم البناء في المخيّم، بأنّه قبل وصول الأسرى الإيرانيين إلى معسكر «صلاح الدين» كان عددٌ من العمّال التكريّتيّين، ومن القرى المجاورة، يعملون على بناء الأبنية غير المكتملة في المعسكر. لكن بعد وصول الأسرى طردوا العمّال قائلين: إنّ العمّال المجانيّين أفضل.

السبت 15 تا 1988 - تكريت - المخيّم الملحق

أُصِبتُ بحُمّى الأمعاء (الديزنطاريا). ولم أكن لأذهب إلى مستوصف المخيّم؛ حيث الدكتور «جمال» يسيء معاملّة الأسرى الإيرانيّين. كان «عليّ يمانى ومحمّد باقر وجداني» يقومان بتمريضى. جلست بكلّ صعوبة في صف الإحصاء. ما زال أماننا ساعة لانتهاء إحصاء الظّهيرة. حاول «بهزاد روشن» جاهداً إقناع الدكتور «جمال»؛ لكي يدخلني إلى مستوصف المخيّم. فقد كان الدكتور «جمال» على عكس الدكتور «مؤيد» لا يهتمّ بصحة الجرحى والمرضى الأسرى.

حاول الجميع مساعدتي. كان «مرتضى واحد بور»⁽¹⁾، المسؤول عن توزيع الخبز في المخيم. جاء إليّ وعَمِلَ على تمرّضي لعدّة ساعات. ألحّ عليّ كثيرًا؛ لأتناول شيئًا من الطعام، وأعطاني حصّته من الخبز. لقد اعتاد «مرتضى» أن يقسّم حصّته من الخبز كلّ يوم بين الأسرى الجرحى والمسنيين. كان إنسانًا ملتزمًا ومسؤولًا. أدركت بعد مدّة بأنّ العراقيين يُعطونه حصّة إضافية من الخبز.

حسب كلام «بهشتي بور»: في تلك الظروف التي لا يشبع فيها أحد، يعتبرُ الحصولُ على خبز إضافي بمثابة الحصول على سيارة مجانية ودون انتظار لشركة السيارات الإيرانية. لم يكن «مرتضى» ليأكل حصّته الإضافية من الخبز أبدًا.

لم يقبل في البداية الحصول على حصّة إضافية كـ«بهباز» تمامًا، بل أراد أن يكون متساويًا مع الآخرين. قبل عدّة أيام قال له الملازم «فاضل»: «حصّة كلّ أسير حربٍ من الطعام هي بالمقدار الذي يسمح له البقاء على قيد الحياة»، فقال له «مرتضى»: «يا سيّدي، يقول سقراط: نحن نأكل لنعيش، ولا نعيش لنأكل».

قال «أصغر إسكندري»⁽²⁾ لمرتضى: خذ الخبز وأعطه للأسرى المرضى والجرحى، إن لم تأخذه فسيأكله شخصٌ شرّهُ كـ«سلوان»⁽³⁾.

(1) كان الدكتور «مرتضى واحد بور» طالبًا في فرع الكيمياء في جامعة «بابلسر» وقد أُسر في «شلمجة» عام 1988. بعد التحرّر حصل على شهادة الدكتوراه في الكيمياء وهو حاليًا أستاذ معاون في جامعة «زنجان».

(2) «أصغر إسكندري» من طهران، عمل بعد التحرّر في قسم الأبحاث في وزارة النفط.

(3) «سلوان» حارس عراقّي بعثيّ سيّئ الطباع.

الاثنين 24 تـ 1988. تكريت - المخيم الملحق

قراية الظهر، دخل الملازم «فاضل» إلى المخيم، كان معه «وليد وسعد»، ومعهما كمية من «الشوكولا»، قال الملازم: أرسل الرئيس «صدام حسين» لكم «الشوكولا» لمناسبة ذكرى مولد النبي الأكرم ﷺ في 12 ربيع الأول، إنه يفكر حتى بأسرى الحرب، وقد أمر شخصياً بتوزيع «الشوكولا» عليكم. وزَّعوا «الشوكولا» على الأسرى بأمر من الملازم، فقال «رامين حضرت زاد»⁽¹⁾، وهو إنسان ذكي: يا رفاق لا تأكلوا «الشوكولا»، بل احتفظوا بها لنقدمها إلى العراقيين في 17 ربيع الأول ذكرى مولد النبي الأكرم ﷺ. أعاد حوالي 40 أسيراً «الشوكولا» إلى «رامين». كنت أرغب بشدة في أكل «الشوكولا»، فتناولها لذيذ جداً بالنسبة إلى أشخاص لم يذوقوا طعمها منذ مدة طويلة. احتفظ «رامين» بالشوكولا.

الأربعاء 26 تـ 1988. تكريت - المخيم الملحق

هذه الليلة صادفت الذكرى السنوية الأولى لاستشهاد أخي السيد «هدايت الله». شعرت بالانقباض، لكنني ارتحت قليلاً عندما بكيت. لم أعلم الإخوة سبب بكائي. اعتقد بعضهم أنني قد أنهرت. قبل سنة من الآن، وفي مثل هذه الليلة استشهد أخي في عمليات استرجاع تلة «دوقلو» في منطقة كردستان.

(1) عمل «رامين حضرت زاد» بعد التحرر في المجالين الاقتصادي والثقافي. فقد أسس المركز الثقافي والتبليغي «بعثت» في زاهدان. كما عمل كمدير تنفيذي لشركة «أحرار» محافظة «سيستان وبلوشستان» وعضو هيئة الإدارة في شركة الصناعات الغذائية في «القدس الرضوية» (نسبة إلى العتبة الرضوية المقدسة).

ما من شكٍ في أنهم يقيمون مراسم العزاء لي ولأخي في مسقط رأسي هذه الليلة.

أمضيت ليلتي مع ذكريات أخي السيد «هدايت الله»⁽¹⁾.

الجمعة 28 ت 1 1988 - تكريت - المخيم الملحق

جمع «حسن بهشتي بور» من كل زنزانة أسيرًا واحدًا. كان يتمتع بذوق وفكر متوقّد، واعتبره الأخوة قائدًا للمخيم. عندما كنت ألتقي به فيما مضى، لم أكن أعتقد أنّ هذا الجسم النحيل والصغير يضم كل هذا التخطيط وسعة الأفق. لقد أخبره الإخوة أن يوم أمس كان الذكرى السنوية الأولى لاستشهاد أخي، فجاء إليّ اليوم، وجلس بالقرب مني،

(1) كان السيد «هدايت الله» قبل استشهاد العام الماضي قد أطلق علينا نحن الفريق الذي عمل على زرع الأنغام في منطقة «ساشو» وثلة الغابات اسم «مزارعو الخضار الصيفية»، كان تعبيراً جميلاً. ففَرَّق زرع الأنغام، تزرع أنواع الأنغام وعلى مائدتها أنواع المواد المتفجرة التي كنّا نعدّها للضيوف غير المرغوب بهم. كان السيد «هدايت الله» في فرع الاستخبارات الذين يدخلون إلى دار الأعداء دون دعوة وترتبطهم مع وحدة التخريب علاقات قديمة. لم يخبرني أحد في البداية بنبأ استشهاد أخي، وعندما كنت في الطريق إلى كردستان سألت السيد «شريف بنجه بند» في معسكر الشهيد بهروز غلامي عن أخي فقال: «إنّه في المعسكر» ولم أدرك من تصرفاته ومحاولته إخفاء البكاء أنّ أخي قد استشهد. وقد حاول حسن أيضاً منعي من دخول الصالة قائلاً أنّ أخي ليس موجوداً وإنّه قد ذهب في إجازة، لكنني استطعت أن أرى اللوحة التي كتب عليها التبريك باستشهاد. من هناك عدت إلى قريتي وكنت أبكي باستمرار. وقبل أن تصل إلى «باشت» توقفت الحافلة؛ لتناول العشاء، وهناك التقيت أخي السيد «شجاع الدين» الذي كان يبدو سعيداً فاستقبلته ببرودة. كان عائداً من «الهور العظيم»، ولم أدر هل كان على علم باستشهاد السيد «هدايت» أم لا؟ سألتني عن أحوالي وعن السيد «هدايت الله». حينها أدركت أنه لا يعلم بخبر استشهاد. صادفتنا في الزقاق السيد «أرش» فأخبرته بصوت منخفض بأنّ السيد «شجاع» لا يعلم بالأمر. عندما لم نجد أحداً في المنزل، وعلم أنّ الجميع قد ذهب إلى القرية الكبرى، شكّ في أنّ شيئاً ما قد حدث. في الطريق قرع السيد «شجاع» باب أحد زملاء الدراسة ففتح الباب ولد صغير، سأله السيد «شجاع» هل استشهد أحد ما في «باشت»؟ فأجاب الولد الذي لا يعرف السيد «شجاع» بأنّ ابن السيد «سليمان» قد استشهد. ذهبنا إلى المقبرة وكانت أخواتي ما زلن عند قبر السيد «هدايت الله». مازال صوت أختي «فيروزة» يتردّد في أذني: «لقد وصلتتما متأخرين عن دفن أخينا «هدايت الله»!

وحدّثني عن الشّهادة والشّهيد، فكان كلامه يُسكّن آلامي. لقد استخدم اليوم تعابير جميلةً عن الشّهادة، فقال: «يا سيّدِي العزيز، في يوم من الأيام كنت أقارن بين شهداء الحرب المفروضة، وبين النبي إسماعيل عليه السلام، فقلت لنفسي: «أيّ مقام ومنزلة رفيعة لهم؟!» ثم تابع قائلاً: «النبي إبراهيم عليه السلام أحضر إسماعيل عليه السلام إلى مكان التضحية، ولم يذهب هو بنفسه، لكن شهداءنا ذهبوا بأنفسهم. كان الكباش فداءً لإسماعيل؛ لكن شهداءنا كانوا هم القرابين».

كان لبهشتي بور أصدقاء طيبون، أكثرهم من طلاب الجامعات، وقد وضع البرامج من أجل دنيا الإخوة الأسرى وآخرتهم، فقام الطلاب الجامعيّون الذين وقعوا في الأسر بنهضة ثقافية وعلمية في المخيّم بإدارة «حسن بهشتي بور».

تعرّض «بهشتي بور» للكثير من الأذية مع بداية مجيئنا إلى المخيّم، فقد أخذه العراقيّون إلى الاستخبارات وآذوه. اعتقدوا أنّه من أقارب الشهيد «بهشتي»، فقال «بهشتي بور» لهم: «إنّه لفخر لي أن أكون من أقارب الشهيد بهشتي، لكنني للأسف لست كذلك». لكن العراقيّين لم يصدّقوه.

كان يقول للإخوة: إنّ الوقت لا يقدر بثمن، ولا يُتلف أيّ شيءٍ بقدره؛ لذلك كان يقضي معظم وقته في الأعمال العلميّة والثقافيّة. كان بعض الأسرى الذين أصيبوا بنوع من اليأس والقنوط يقولون له: «نحن أسرى، ولا أمل لنا بالحرية على الإطلاق، وإذا كان من المُقرّر أن نتعفن في هذا السجن فما فائدة الدرس؟!».

كان «بهشتي بور» يتحدّث إلى تلك الجماعة التي تجذّر اليأس

واللامبالاة في فكرها، بكثير من المنطق الاستدلالي، فيقول: «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد». وفي بعض الأحيان يقول لهم: اطلبوا العلم ولو في «تكريت» في مخيم الأسرى رقم (16). وكان يقول أيضاً: لو كان النبي الأكرم ﷺ حاضراً بيننا الآن، وأراد أن يجيب عن سؤالكم لقال لكم: «اطلبوا العلم من الجبهة إلى معتقل الأسر».

كنت أؤمن بإخلاصه وأعماله.

فقد تولّى «حيدر راستي» تدريس الترجمة، والتجويد، والصرف، والنحو، كما تولّى «أصغر إسكندري» تدريس قواعد اللغة الفارسية. بينما قام الدكتور «بهازار روشن» بتدريس اللغة الإنكليزية، و«حكيم خليفان ومحمد آغا جري» تدريس العربية وترجمة الصحف العربية، تولّى «مرتضى واحد بور، وبهشتي بور» نفسه تدريس ترجمة الصحف الإنكليزية «Bagdad observer». منعنا الحراس بعد مدة من القيام بأنشطة علمية وثقافية، فكان على الأساتذة أن يُدرّسوا تلامذتهم باستخدام حيلٍ مختلفة، وعلى الإخوة أن يدرسوا بأية طريقة. كان التلامذة الذين يدرسون اللغة الإنكليزية يبسطون صحيفة «Bagdad observer» على الأرض، ويتحلقون حولها، ويدرسون. وافق عدد قليل من الحراس على عمل «بهشتي بور»، وكان يتوقف التدريس عند قدوم «وليد وحامد». وكان الإخوة يكتفون بترجمة الصحيفة إلى اللغة الفارسية فحسب. كنّا نقضي أكثر من ساعتين في اليوم في صف، كلّ ينتظر دوره للدخول إلى دورة المياه، فكان على من يُدرّس أن يجلس في الصف أمام الذي يدرّس عنده.

عانى الأسرى، «مفقودو الأثر»، في «تكريت» من ضوابط خاصّة،

فالويل لهم إن ضَبَطَ الحَرَّاس معهم قلم حبرٍ أو ورقة؛ لذا كان الإخوة يخبئون أقلامهم بعيداً من أعين العراقيين. استخدم الإخوة أكياس الأسمنت، وعلب مسحوق الغسيل الكرتونية، وحتى أوراق علب السجائر للكتابة عليها. وكان أغلبهم يُخفي قلمه الحبر، أو الرصاص داخل الوسادة، أو داخل معجون الأسنان. لكن الأسرى الذين حرّر الصليب الأحمر لوائح بأسمائهم لم يعانون من تلك الضوابط، حتى إنّ الصليب الأحمر كان يزودهم بما يحتاجون من كتب وأقلام وورق.

نظّم «بهشتي بور» صفوف التدريس في الباحة الترابية الخارجية للمخيّم بصورة مجموعات مؤلفة من ثلاثة أو أربعة أشخاص، وعلى فترتي الفُسحة في الصباح والعصر.

لكل أسلوب من أساليب التدريس مشاكله الخاصة، فكانت الباحة الترابية الخارجية للمخيّم بمثابة اللوح، وكف اليد الممحاة، بينما كان أصبع الأستاذ الطيشور. بعضهم كان يستخدم عيداناً خشبية للكتابة على الأرض الترابية، والنعل كممحاة. كان الإخوة في المعتقل رقم (12) يطحنون الملح مع مسحوق التنظيف جيداً ويبسطونه على صورة الأشعة (radiology)، ثمّ يستخدمون عود الخشب للتمرّن على الكتابة.

وكان للتدريس داخل الزنانات أساليبه الخاصة: مرةً أحضروا لوحاً خشبياً بقياس (20x30سم)، وخاط الإخوة على إحدى الجهتين قطعة من القماش، ثم وضعوا عليها القليل من الزيت، وأضافوا برش الصابون، ثمّ وضعوا اللوح أمام الشمس لتمتص القماشية الزيت والصابون بشكل كامل. في المرحلة الأخيرة، غطّوا القماشية بقطعة

من النايلون الرقيق، والشفاف، فأصبح اللوح الزيتي جاهزاً للكتابة. عندما نكتب على اللوح، كانت الكتابة تظهر جليئة، ومن أجل محو تلك الكتابة يكفي أن ننزع قطعة النايلون عن اللوح فتمحى الكتابة، ثم نعيدها إلى مكانها فيصبح اللوح جاهزاً للكتابة من جديد.

عملنا بهذا الأسلوب مدة من الزمن، لكن اكتشف العراقيون الأمر، بمساعدة جواسيس الداخل، فصادروا الألواح. حُرمتنا نعمة الألواح المصنعة داخلياً، فاضطر الإخوة بعد ذلك للكتابة بواسطة الصابون على بلاط أرض الزنزانة.

ابتكر الإخوة بعد مدة طريقة أخرى للكتابة؛ إذ يوجد داخل أكياس السكر قطع بلاستيكية بيضاء بقياس (30x30سم)، فكان الإخوة العاملون في المطبخ يُحضرون تلك الألواح بعيداً عن أعين الحراس. يضع الإخوة القطع البلاستيكية على قطع من الكرتون، ويكتبون عليها بأقلام الحبر، وفي الصباح التالي يمحون الكتابات بغسلها بالماء الساخن والصابون، ثم يجففونها تحت أشعة الشمس؛ لتُصبح جاهزة للاستخدام مجدداً. بعضهم كان يحرق معجون الأسنان ليَتحوّل إلى فحم، ثم يكتبون به على أرض الزنزانة.

كان في المخيم طيفان من الأفكار: فريق يعتقد أنّه علينا التقيد بجميع أنظمة وقوانين العراقيين، وأنّه علينا إطاعتهم، وتنفيذ أوامرهم ما دما في أسرهم، بينما رفع الفريق الآخر الذي يتزعمهم «بهشتي بور» شعار: «هيهات منا الذلة»، وهذا الفريق في أغلبه من عناصر التعبئة والحرس الثوري. كانوا يعتقدون أنّه شئنا أم أبينا فأجسامنا أسيرة عند العراقيين، لكن علينا أن لا نسمح لهم بأسر

معتقداتنا. كُنَّا نؤمن بأنَّه يتوجب علينا العمل بتكليفنا في حربنا العقائديَّة، تمامًا كما فعلنا في الدفاع المقدَّس، وأنَّه علينا الثبات على معتقداتنا وشعاراتنا، فلا نتنازل عنها. كانت تصرفات العراقيين عدائيَّة تجاه الفريق الثاني.

السبت 29 ت 1988 - تكريت - المخيم الملح

اتَّفَقْنَا على أن يذهب «رامين حضرت زاد»، اليوم، إلى الحرَّاس، ويقدم لهم «الشوكولا». ذهب «رامين» إليهم، فتعجب الحرَّاس، لأنَّهم عرفوا أنَّ هذا «الشوكولا» هو نفسه الذي وزعوه على الأسرى قبل عدَّة أيَّام بمناسبة الثاني عشر من ربيع الأوَّل؟ أخذ عدَّة منهم «الشوكولا»، وسأل «وليد» و«رامينا» عن المناسبة، فأجاب «رامين»: «بمناسبة السابع عشر من ربيع الأوَّل ذكرى مولد النَّبيِّ الأكرم ﷺ». غضب «حامد»، وقال: «أيُّها المجوسي تريد أن تقول لنا: إنَّ مولد الرسول هو في 17 ربيع الأوَّل؟».

أراد «رامين» أن يخفِّف من غضب «وليد وحامد ومؤذن» ضابط الاستخبارات، فقال لهم: 12 ربيع الأوَّل هو ذكرى مولد النَّبيِّ الأكرم حسب التقويم السَّني، و17 ربيع الأوَّل هو ذكرى مولده حسب الروايات الشيعيَّة؛ لذلك يوجد في تقويمنا ما يُسمَّى بأسبوع الوحدة الممتدَّ بين 12 و17 ربيع الأوَّل، وهو أسبوع الوحدة بين المسلمين الشيعة والسنة؛ لكي لا يتمكَّن الأعداء من إيجاد الفُرقة بين المسلمين».

فقال «مؤذن» «لرامين»: لقد تمكَّن قائدكم بتدبيره وحكته من القضاء على حكم الشاه.

الثلاثاء 1 ت 2 1988 - تكریت - المخيم الملحق

ذهبتُ إلى الزنزانة رقم (9) لأزور «يد الله زارعي»، فهو لم يخرج منذ عدة أيام إلى الفسحة. لقد وزَّع العرافيون الأسرى الجرحى على مختلف الزنزانات، الأمر الذي سهَّل على الأسرى الأصحاء تقديم المساعدة والعناية بهم.

كان الأسرى الأصحاء بمثابة عكازٍ صعبٍ⁽¹⁾ للأسرى المجروحين، فيتولَّى أحد الأسرى الأصحاء، وفي كلِّ آنٍ وأوانٍ، العناية وتقديم كلِّ أنواع المساعدة لأحد الأسرى الجرحى أو المسنين. تولَّى «محمد باقر وجداني» العناية بي، وتولَّى «أحمد أمانداري»⁽²⁾ العناية بـ«يد الله زارعي». كان أحمد إنساناً صبوراً لا يعرف الكلل، هو من عناصر التبعية، في «كتيبة 415»، من فرقة ثار الله 41. كان يتوجَّب على من يرعى شؤون «يد الله» أن يخصَّص جانباً مهماً من وقته لأجله. تقرَّر في الأيام الأولى أن يرعى عددٌ من الأسرى الأصحاء أحد الجرحى، فيتولَّون مُداورةً غسل ملابسه، وتوضيب دثاره، ومساعدته على الاستحمام، والذهاب إلى المرحاض، ومرافقته أثناء زحمة الأسرى. لكن بعد ذلك، وبسبب مشاعر العطف والألفة التي طغت على علاقة الجريح بالمسؤول عن رعايته، كان هذا الأسير يفضل الاستمرار برعاية الجريح بمفرده إلى نهاية مُدَّة الأسر.

(1) كان الأسرى الجرحى يشعرون بالحرج؛ لأنَّهم يتَّكلون في جميع أعمالهم وفي تأمين احتياجاتهم على الأسرى السالمين.

(2) أحمد أمانداري: من مدينة «بم» في محافظة كرمان. لقد قُتلت ابنته «فرشته» 11 عاماً، وابنه «رضا» 9 أعوام في الزلزال الذي ضرب «بم». بينما أنقذ هو وزوجته من تحت الأنقاض. يعمل حالياً كمدرِّب للرياضة في وزارة التربية والتعليم.

دخلت إلى الزنزانة رقم (9)، فرأيت «يد الله» يجلس حزيناً في إحدى الزوايا، لم يحدث أن رأيته حزيناً بهذا الشكل، ولم أطق رؤيته على تلك الحال، فقد كان «يد الله» صبوراً حتى في أقسى الظروف، جلست بالقرب منه وسألته:

- ما بك؟ لِمَ أنت منزعج هكذا «هل غرقت سفنك؟»⁽¹⁾
- أنا منزعج من تصرفات «عيسى» معي. دعاؤك مستجاب عند الله يا سيّد، فادعُ على «عيسى» من أجلي.
- كن متيقّناً أنّه لو شاء الله أن يستجيب لدُعاء أحدٍ فبالتأكيد سيستجيب لدعاؤك أكثر مني.
- حدثني عن تصرفاته العدائيّة معه. «عيسى» من أصل سودانيّ.
- جاء جدّه إلى العراق قبل سنوات، وتزوَّج من امرأة عراقية، فحصل على الجنسيّة العراقيّة. تعيش عائلته في مدينة «الناصرية»، وكان ابن عمه من الجنود السودانيّين الذين قاتلوا في جبهة «شوش»، وقُتل هناك. كان «عيسى» قصير القامة، بشرته سوداء اللون كالحة، وكان يكره «يد الله» كثيراً. كانت علاقته به كعلاقة «وليد» بي. كان العديد من الحراس يُقدِّرون «يد الله» بسبب حالته الجسميّة. لكن لم يكن يعلم سبب عدا «عيسى» له.

فسألته يد الله:

- حقاً، ماذا يريد «عيسى» منك؟ ما به؟
- دائماً يعترضني ويؤذيني.

(1) هل غرقت سفنك؟ مصطلح خاصّ يعني هل حدث لك مشكلة كبيرة بحجم غرق سفن التاجر أو البحار.

- هل شكوته إلى «سعد»؟

- لا فائدة من ذلك «فالتطور على أشكالها تقع».

البارحة شكى «يد الله» «عيسى» عند «سعد» رئيس الحراس. فرماه «عيسى»، الذي كان يصب الماء المغلي في وعاء الشاي الحافظ للحرارة، بالماء على ظهره، فقال له يد الله: «لم أر ظالماً مثلك في حياتي». لم يعترض «سعد» على تصرفات «عيسى» أبداً، فقال «يد الله» لعيسى: «لم رميتني بالماء المغلي أيها «المُعقد»؟ ما الذي فعلته لك؟». عندها حمل «عيسى» إبريق الماء البارد الموضوع على الطاولة، وأفرغه على «يد الله»، وقال له: «لقد أحرقتك بالماء المغلي، وبردتك بالماء البارد».

عندما أخبرت العريف «قاسم»، الذي يعمل في قسم الصيانة، بالأمر، قال لي: «عيسى شخص غير سوي نفسياً، وقد أخبر الدكتور «مؤيد» رئيس الحراس بأن تصرفات عيسى أشبه بتصرفات مريض نفسي؛ لكن بسبب علاقته الجيدة مع «سعد»، لم يتخذ الأخير أي إجراء ضده، بل كان يقدم له الحماية والدعم.. فقلت ليد الله: علينا أن نفكر بشيء ما.

- مهما فكرت لا أعرف سبب ابتلائي بهذا الرجل!!

- لقد تجاوز الأمر حد الدعاء، سأذهب، وأتحدث إليه، سأقول له:

إن «يد الله» قرر أن يشكوك إلى النقيب «خليل»، وسأرى ردة فعله.

كان «عيسى» يخاف قائد المعتقل خوفاً من الموت، ولقد أدركنا هذا في وقت لاحق. تضايقت كثيراً؛ لأنه بصق في وجه «يد الله».

كان «يد الله» حائراً، هل يشكوه إلى النقيب، أم لا؟! كان خليل يكفي

بتوجيه ملاحظة بسيطة للحارس الذي يشكوه الأسرى إليه، فهو يرجح الحراس على الإيرانيين. كان كلُّ من يشكو الحراس يتعرّض للمضايقة من قبل المشكّي (عليه)، فكان يأتي إلى الشاكي فور مغادرة القائد، أو الضابط، المخيم، ويذيقه الويلات؛ لذلك فضّل الإخوة السكوت. كان الحراس ينتقمون من الأسير الذي اشتكى عليهم، ويُسيؤون معاملته حتّى آخر أيّام الأسر. كان «يد الله» على دراية بالأمر؛ لذا لم يرغب في أن يكون مصيره كمصير أولئك الأسرى. تركتُ «يد الله» وذهبت إلى «عيسى».

كان «عيسى» يتناول الفاكهة، ما إن رأني قرب باب غرفة رئيس الحراس حتى سألني: «ها شينو؟»
فقلت له دون أن ألفظ كلمة سيّدي:
صحيح أننا أسرى، ويمكنكم أن تفعلوا بنا ما تشاؤون، لكن لماذا تُسيء معاملة «يد الله» بهذا الشكل؟
فقال لي، وقد أغضبه أسلوب كلامي:
أنت تطيل لسانك!

عندما رأيت أن لا أثر لكلامي معه، وأنّه شخص لا مُبالٍ، قلت له:
سأقول لك شيئاً واحداً فحسب، لا أعرف بماذا تؤمن، لكننا نحن الإيرانيين نؤمن بالإمام الحسين (عليه السلام) الذي قال: «إن لم تكن مؤمناً فكُن حُرّاً». أردت أن أقول لك: إنّ دعاء «يد الله» عليك سيقصم ظهرك.
- اذهب، واغرب عن وجهي أيّها المجوسي، هيا ابتعد من هنا.
ثمّ جلّدتني بسلك الكهرباء على ظهري، وشتمني، فعدت إلى «يد الله»، وأقّعتته بأن يشكو عيسى إلى النقيب «خليل».

الخميس 3 ت2 - 1988 تكريت - المخيم الملحق

ذهبت إلى «حسن بهشتي بور»، فكلامه يرفع المعنويات. عندما تحلقنا حوله، قال لنا: «نحن على متن قطار، وعلينا أن نسعى كي نصل إلى المحطة الأخيرة، المخيم الملحق ليس آخر محطة، بل إن «خير العاقبة» هي محطتنا الأخيرة».

اليوم، رمى «عيسى» بقطعة قماش أمام «يد الله»، وطلب منه أن يسمح له حذاءه العسكري.

يعلم عيسى تمامًا أن إحدى يدي «يد الله»، وإحدى قدميه، مشلولتان، فقال له «يد الله»: سأخبر النقيب «خليل» عن سوء معاملتك لي. فردّ عليه عيسى قائلاً: «لم تترك الشظية الكثير من جلد رأسك، فإن تفوهت بأية كلمة أمام النقيب «خليل» فسأسلخ ما تبقى منه بنفسه».

فقال له «يد الله»: «سأخبره بكل شيء، وأتوكل على الله، حتى لو لم يؤد ذلك لأية نتيجة».

كان النقيب «خليل» نظامياً ومنطقياً، وكنت واثقاً بأنه سيواجه «عيسى» بالأمر. لكننا لم نكن نثق بالملازم «فاضل»، أو بالملازم «قحطان»، فقرّرنا إن لم يكف «عيسى» أذاه عن «يد الله» أن نشكوه إلى النقيب «خليل»، وأن نطلب منه نقل «يد الله» إلى معتقل آخر ليتخلص من شر «عيسى».

وصل النقيب «خليل» إلى المعتقل ظهر ذلك اليوم، فقد عاد من إجازته. ذهب إلى «يد الله»، وأخبرته بأنه الوقت المناسب، وأن النقيب «خليل» قد عاد من الإجازة.

كان النقيب «خليل» يتمشى في ممَرِّ المخيِّم، فرفع «يد الله» يده طالباً الإذن بالكلام. كان النقيب «خليل» محاطاً بعددٍ من الحرَّاس، فنادى أحد الأسرى العرب، وسمح «لید الله» بالتحدُّث.

قال «يد الله»: سيِّدي أريد من «حسين آغا جري» أن يترجم كلامي. كان «حسين آغا جري» أهلاً للثقة، ولم يكن الحرَّاس راضين عنه. كان يترجم كلام الإخوة الأسرى دون زيادة أو نقصان، كما يفعل «حكيم خلفيان وخالد محمَّدي»، حتَّى لو سبَّب لنفسه الأذى. لقد كان شهماً وشُجاعاً. كان الحرَّاس العراقيُّون قد جَنَّدوا بعض الأسرى الإيرانيين العرب ليترجموا شكاوى الأسرى الإيرانيين بشكل مغاير أمام قائد المعتقل، أو ضبَّاط التفتيش، كي لا يتعرَّضوا للمساءلة، وقد تعاون بعض الأسرى العرب معهم في هذا المجال، ولم يكن الأمر ليُمَرَّ دون حصولهم على المكافئة؛ لذلك أراد يد الله أن يترجم «حسين» كلامه.

تحدَّث «يد الله» عن تصرُّفات «عيسى» السيئة معه، وترجم «حسين» كلامه دون زيادة أو نقصان. نادى «خليل» «عيسى» الذي تقدَّم منه، وقَدَّم له التحيَّة العسكريَّة، وقال: «نعم سيِّدي». سأله «خليل» عن الأمر، فنفى «عيسى» كلَّ شيء، وقال:

سيِّدي! إن هذا الأسير يكذب.

فقال النقيب «خليل»: «هذا الأسير لا يكذب، بل أعتقد أنك أنت

من يكذب».

شعرت بالارتياح، فقد أَمَرَ «خليل» بإخراج عيسى من المخيِّم المُلحق. ومنذ ذلك اليوم أصبح عيسى يحرسُ خارج الأسلاك الشائكة للمخيِّم إلى جانب عددٍ آخر من الحرَّاس، إضافة إلى ذلك فقد أُضيف

ثلاثة أشهر إلى مدة خدمته في الجيش؛ بسبب معاملته السيئة لـ«يد الله». علمت بعد مدة أنّ عيسى طلب من الحراس داخل المخيم أذية «يد الله»، قائلاً لهم: «انتقموا لي منه؛ لأنّه كان السبب في إخراجي من المخيم». فقال له «سامي»: «بل إن تصرّفاتك هي السبب في إخراجك».

الأربعاء 9 ت 1988 - تكريت - المخيم الملحق

تحدّث الصحف عن التوافق بين إيران والعراق على تبادل الأسرى المعوقين والمرضى، فجاء الأسرى الأصحاء إلينا ليُباركوا لنا. بدأتُ بمساعدة «حسين مروتى»، و«علي إسماعيلي» بتدوين أسماء أسرى المخيم خفية، فقد أصرّ الإخوة عليّ وعلى «محمد كاظم بابائي» بأن نطلع الصليب الأحمر عن وجودهم أحياء فور خروجنا إلى الحرية.. قرّرت بدءاً من اليوم تدوين أسمائهم في لائحتين، وأن أُودع اللائحة الثانية لدى «محمد كاظم»، فإن اكتشف الحراس لائحة يبقّى لدينا لائحة أخرى.

استغرق الأمر ثلاثة أسابيع للانتهاء من تدوين الأسماء على الوجه الآخر لورق علب السجائر الداخلي اللامع، وأوراق أكياس الأسمنت. كان ورق الأسمنت يأخذ حيّزاً كبيراً من تجويف عكازي، لكن ورق السجائر كان مناسباً أكثر لهذا العمل؛ لذا أعدنا تدوين الأسماء التي كنّا قد كتبناها على ورق أكياس الأسمنت، على ورق السجائر من جديد. حتّى إنّ العراقيين صدّقوا بأنّه سوف يُطلق سراح الأسرى الجرحى في أسرع وقت. فقد أعلن وزير خارجيّة العراق «طارق عزيز» من «جنيف» بأنّه سيُطلق سراح الأسرى المعوقين والمرضى بأسرع

وقت. لم يشأ صدام إطلاق الأسرى الجرحى في المعتقلات المخفية، فيفشي أمر أكثر من 20 ألف أسير مفقود الأثر، معتقلين في تكريت. ما كنا لنسر لو تحررنا، وبقي رفاقنا في الأسر.

السبت 12 ت 2 1988 - تكريت - المخيم الملحق

طلب طبيب المعتقل الدكتور «جمال» من «فاضل رحيم»⁽¹⁾ الذي يعمل في المستوصف أن يدخل إليه عددًا أقل من المرضى هذا اليوم. كان «د. جمال» عديم الصبر ومزاجيًا، يزور المعتقل مرتين أسبوعيًا، ويقضي باقي أيام الأسبوع في معتقلات معسكر صلاح الدين الأخرى. في كل مرة كان يأتي إلى المخيم لا يعاين أكثر من ثلاثين إلى أربعين أسيرًا مريضًا، وجريحًا. بينما كان عدد الأسرى الذين يطلبون من «فاضل رحيم، وبهزاد روشن» رؤية الطبيب يوميًا يفوق 200 أسيرًا. أصيب أكثر من 80 % من الأسرى بحُمى الأمعاء (الديزنتاريا). حاول «فاضل» إقناع الدكتور «جمال» بمعاينة عدد أكبر من المرضى، وكان قد تشاجر معه الأسبوع الماضي لهذا السبب، فقد وصل الأمر إلى حد أن قام د. «جمال» بطرد الأخ «فاضل» من المستوصف.

أعطى «فاضل رحيم»، وهو مساعد ممرض، الدواء خلسة إلى بعض الأسرى المصابين بالإسهال، لكن الدواء المخصص لمعتقل الأسرى محدود الكمية، ويمكن إحصاؤه بسهولة؛ لذلك كانت يدا فاضل مقيّدتين في هذا المجال. جلس عدد من الأسرى بعد إحصاء الصباح

(1) عمل فاضل رحيم بعد التحرر في دائرة الصحة في محافظة الأهواز (كان مسؤولو السجون العراقيون يستفيدون من الأسرى ذوي الاختصاص في كافة المجالات لمساعدتهم، ومنهم المتخصصون في مجالي التمريض والطبابة..).

في باحة المخيم بانتظار الدكتور. ما إن وقعت عينا الدكتور جمال على حشد المرضى حتى نادى «كريم جلائي» مسؤول المخيم الإيراني، وطلب منه أن لا يدخل أكثر من 20 مريضاً، فطلب «كريم» بقاء 20 مريضاً على أن يعود البقية إلى زنازينهم. يقع المستوصف إلى جانب مدخل المخيم، رجع عددٌ من الإخوة كلٌّ إلى زنزانته. وقد استُشهد حتى ذلك اليوم أكثر من 30 أسيراً في مستوصف المخيم. كانت حالة أكثر المرضى سيئة جداً، ويتوجب نقلهم إلى مستشفى «تكريت». تَفَشَّتْ أمراضٌ متعددة في تلك الأيام، كَحُمَى الأمعاء، دودة الأمعاء، الفطريات الجلدية، الدُمْلُ الملتهبة، التسمُّم الغذائي، وغيرها من الالتهابات، والاشترابات، وتساقط الشعر.

بلغ عدد الأسرى الذين بقوا أمام المستوصف حوالي 60 شخصاً. خرج الدكتور «جمال» من المستوصف، وألقى نظرة خبيثة على الأسرى المرضى، ثم قال: أخبرتكم بأنني سأعين 20 منكم فقط، مكث قليلاً، ثم تابع: لا يهم، سأعينكم جميعاً، إذ لدينا ما يكفي من الدواء اليوم. سعدنا لأنّ: الدكتور وافق على معاينتنا اليوم.

دخل المرضى واحداً تلو الآخر إلى المستوصف؛ لكنهم كانوا يخرجون بوجوه واجمة. لم ندرِ لِمَ طلبوا من المرضى الابتعاد عن المستوصف مسافة 30م، كما أنّهم رفعوا صوت المسجّل الذي كان يصدر بغناء «هي أكرم»، مغنيّة الدكتور «جمال» المفضلة، عالياً⁽¹⁾، ولم يأذن الحراس للأسرى - الذين يخرجون من غرفة الدكتور «جمال»

(1) كانوا يهدفون من وراء ذلك إلى منع الأسرى الذين ينتظرون دورهم في الخارج من سماع أصوات جلد المرضى الذين نُفِذَتْ وصفتهم في مكانهم مباشرة.

ويمرّون بالقرب منّا- في التحدّث إلينا، لكنّهم كانوا يُفهمُوننا بالإيماء والإشارة أن نرجع، ولا ندخل إلى المستوصف. أدركت من إشارة «حسين مقيمي، وإلياس نظري» أنّ أمرًا ما يحدث داخل المستوصف. نهض الذين أدركوا الأمر محاولين العودة إلى الزنانات، لكنّ الحراس منعوهم من ذلك. عندما دخلت إلى غرفة الدكتور «جمال» سألني مما أشكو؟

- قدمي ملتهبة، ولم تشف منذ أن بُترت.

- هل تعاني من مشكلة أخرى؟

- لا، فقط أحتاج لبعض الضمادات.

كتب لي وصفة، وأعطاهما لماجد، اعترض كلٌّ من «كامبيز فرح دوست»، و«فاضل رحيم» اللذان يعملان هناك، حتّى الدكتور «مؤيد» اعترض عليه. فقد كتب الدكتور في وصفته التي أعطاهما لماجد: «أنّه يتوجّب عليّ غسل جوارب وليد». أظن أن الأمر كان نوعًا من التسلية بالنسبة لوليد الذي كان يجلس بالقرب من الدكتور «جمال». فقد طلب منه أن يكتب هكذا وصفة.

كتب لكلّ من الأسرى المرضى وصفة خاصّة، فقد كتب «لمحمد كاظم بابائي»، «تنظيف زجاج غرفة رئيس الحراس»، راعى حالة «يد الله زارعي»، بينما كتب لقاسم فقيه، «مسح حذاء حامد». ونُفذت وصفة «إيرج شباني» في المكان حالاً. يلقي المرضى الأفضل حالاً عدّة جلدات داخل المستوصف، وقد راعى الدكتور.. كما ادّعى.. حالة الجرحى في عقاب اليوم.

لقد أذانا الدكتور «جمال» اليوم كثيرًا، فهو قد وصف عدّة صفعات

لعددٍ من المرضى، بينما وصف للبعض الآخر أمثال «عليّ حسيني، رضا زينلي، ومحمد رمضاني» القفز كالضفادع، وأيديهم متشابكة خلف رؤوسهم. ضربوا «حميد زارع زاده» أكثر من غيره؛ لأنّه قال للدكتور جمال: «هل تصف هذا للعراقيين أيضاً؟!»

تشاورت مع كاظم، وذهبنا ثانية إلى الدكتور «جمال»، وقتلنا له: يا دكتور لقد أدركنا ما ترمي إليه، «أي: موتوا ولا تأتوا إلى الطبيب».

- يا لكم من أذكياء!

- يا دكتور، اضربونا كباقي الأسرى الأصحاء، فنحن لسنا على استعداد لتنظيف الزجاج، أو غسل الجوارب، ومسح الأحذية.

- هل هذا رأي باقي الجرحى أيضاً؟

- أجل هذا رأيهم أيضاً.

اليوم، لم أغسل جوارب وليد، ولم ينظّف «محمد كاظم» زجاج غرفة رئيس الحراس، كما لم يمسخ «قاسم» حذاء «حامد»، لقد فضلنا الجلد على أن تُهان كراماتنا. أمر الدكتور «جمال» «حامداً ووليداً» بجلدنا، فنال كلُّ منا 20 جلدة.

الأحد 13 ت 2 1988. تكريت - المخيم الملحق

ذهبت اليوم إلى شخصٍ كنت أعلم أنّه يتجسّس لصالح العراقيين. حملت له خمس سجائر، فرح كثيراً عندما أعطيته السجائر. الليلة الماضية ضربه الإخوة بشدّة، لكنّه لم يخبر العراقيين بالأمر، تحدّث إليه فأعرب عن ندمه.

- يا سيّد هل سيغفر الله لي؟
- لم لا؟ فقد غفرَ للحرّ الرّياحيّ، فكيف لا يغفر لك؟
- أُملي هو رحمة الله.

رويت له قصة، نقلاً عن «باقر جاكبان»⁽¹⁾:

كان هناك شخصٌ معدّم، مجرم، خارج عن القانون، وقد انقلبت حاله أثناء تشييع جنازة أحد أصدقاء الطفولة، فالتحق بجبهات القتال، كان جسمه مملوءاً بالأوشام، وكان يقول لرفاقه في المتراس: إنّه قلق فيما لو استشهد، ورأى من يقوم بتغسيله، وتكفينه، تلك الأوشام على جثته، ألن يتساءل كيف لهذا المجرم أن يكون شهيداً؟! ثم قال ممازحاً: «أفضل الموت على أن يأتي ذلك اليوم!».

لقد أصابت قذيفة هاون متراسه في «شلمجة»، وتقطع جسمه إرباً إرباً. كان الله يحبّه كثيراً إذ لم يعد من حاجة لغسل جثمانه. ما إن أنهيت القصة حتّى فاضت دموعه، وأصبح منذ ذلك الحين من أفضل الإخوة في المخيم.

الاثنين 14 تمّوز 1988 - تكريت - المخيم الملحق

قبل ظهر هذا اليوم، قام العراقيّون بضرب اثنين من الأسرى «الفلقة»⁽²⁾، لأنّهما بدّلا زنزانيتهما دون إذن. فكانوا يبلّون باطن قدميهما بالماء ثمّ يجلدونهما بالكابل، وضربوا أسيراً آخر بتهمة ممارسة الرياضة، فقد اتهمه «حامد» الذي يحقد عليه، بأنّه يمارس

(1) كان من طلاب الحوزة العلمية وقد استشهد في «ماروت» كردستان.

(2) الفلقة: يُمدّد الأسير على الأرض وتُرفع قدماه على خشبة أو ما شابه للأعلى ويُضرب على باطنهما بالسوط أو العصي. (م. نون).

الرياضة بهدف الفرار من المعتقل.

قراة الظهر، جاء ضابطان، أحدهما برتبة مُقَدِّم برفقة الملازم «فاضل»، المعاون في المعتقل، إلى المخيم، فجمعنا في باحة المخيم بأمر من «سعد» كان المُقَدِّم نحيلاً أسمر البشرة. تحدث إلينا، وأدركنا أنه كان يبحث عن العقيد الركن «محمد الفاتح» قائد اللواء 429 العراقي، وينوي الحصول على معلومات حول مصيره من الأسرى الذين أسروا في شهر حزيران من هذا العام في منطقة «شلمجة». كان اسم هذا العقيد مألوفاً لدي، لكنني لم أشأ جلب المتاعب لنفسي، فقد أُسِرَ العقيد «محمد الفاتح» في 12 تمّوز من هذا العام، وقام الإخوة في وحدة الاستخبارات باستجوابه في اليوم نفسه في مقرّ «كربلاء»، وأخبرنا «ولي بور»، مسؤول وحدة المعلومات في اللواء، بأنّ العقيد «محمد الفاتح» أخبرهم أثناء التحقيق بأنّ العراق ينوي إقامة معسكر له في جزيرة مجنون بعد «شلمجة».

أعطى العقيد وعوداً كثيرة لمن يُقدِّم له المعلومات عن العقيد «محمد الفاتح». كان واضحاً من طريقة كلامه أنّ مصير «محمد الفاتح» يعنيهم كثيراً، إذ قال: «كلّ من يُطلعنا على مصير قائد اللواء سننقله إلى المخيم الذي يُشرف عليه الصليب الأحمر». عندما لم يتلقَ أيّ جواب، قال: يتابع الفريق أول «عدنان خير الله» وزير الدفاع العراقي هذا الأمر شخصياً.

كان «محمد كاظم» جالساً بالقرب مني، ويعلم أنّ «محمد الفاتح» أسير في إيران. فقال لي بصوت خافت، مخاطباً العميد: «حتّى لو قلت إنّ صدام شخصياً مهتمّ بهذا الأمر فلن أخبرك، مع أنّي أعرف

مصيره، فنحن بغنى عن المشاكل، ووجع الرأس». كان عددٌ من الإخوة الذين أُسروا في «شلمجة» على علم بمصير «محمد الفاتح» لكنهم كانوا في غنى عن تقديم المعلومات، والتسبب بالأذى لأنفسهم، فلم يتفوهوا بأية كلمة. عندها قال العقيد للإخوة: «أعلم أنكم لا تثقون بنا، وإنكم لن تخبرونا بأي شيء، حتى لو كنتم على علم بالأمر!».

لوشعرت بقليل من الصدق في كلامه، لأخبرته بأن عقيدهم أُسير في إيران، ويتناول الدجاج مع الأرز في معتقل الضباط. أخذ العراقيون معهم اليوم أحد الأسرى الذي كان في فرع المعلومات في مقر «النجف الأشرف - كرمانشاه»، فقد اكتشف أمره من خلال الجواسيس. لم ألتقه بعد ذلك اليوم أبداً.

الأربعاء 16 ت2 1988 - تكريت - المخيم الملحق

دخلت شاحنة «الآيفا» الصغيرة المُحمّلة بالخبز إلى المخيم، يقودها العريف الأوّل «إبراهيم يونس». يبلغ إبراهيم من العمر خمسين سنة ونيف، من مدينة «السمّارة»⁽¹⁾، كان نحيل الجسم، شديد السُمرة، ومحدودب الظهر، يعمل سائقاً للشاحنات في الجيش العراقي منذ أكثر من 25 عاماً.

لديه ابنٌ يدعى «ناصر»، وقد سمعته يقول: إنّه وُظّف كسائق للشاحنات الصغيرة في الجيش العراقي منذ عهد «حسن البكر»، وقد عمل على قيادة الشاحنات منذ بداية الحرب إلى نهايتها، وخدم أكثر

(1) إحدى مدن جنوبي العراق.

الأوقات في الفيلق الثالث.

كان يأتي إلى المخيم، بشاحنته المحملة بالخبز عصر كل يوم قبل وقت الإحصاء، كما كان ينقل بشاحنته تلك معظم كمية الخبز المخصصة لمعسكر صلاح الدين. لم يكن يتحدث إلى أحد. كان يقف بالقرب من الشاحنة بصمت أثناء تفريغ حمولة الشاحنة من الخبز، ويراقب جيداً كي لا يختبئ أحد الأسرى تحتها بقصد الفرار. فقد حدث ذات مرة أن اختبئ أحد الأسرى من المعتقل رقم (15) تحت سيارة نقل النفايات فاكشف الحراس أمره. عندما كان العريف أول «إبراهيم» يدخل إلى المخيم، كان يسأل عني، وإذا كنت داخل الزنزانة كان الإخوة يأتون إليّ، ويقولون: «صديقك العريف إبراهيم» يسأل عنك يا سيد.

كان يغمرني شعور طيب في كل مرة أراه فيها، مع أنه كان عرافياً، إلا أنني كنت أشعر بأنه إيراني حنون. لا أدري لم أنجذبت إليه، لكنني أدركت أنه شعور متبادل. ناداني العريف «إبراهيم»، وقال لي: «الأكل على حائط المرفق الصحي الأخير»، فهمت ما قاله لي، ثم ذهبت إلى ممر المراحيض وتلمست بيدي حائط المرحاض الأخير الذي لا يتعدى ارتفاعه القدم، فوجدت كيساً بلاستيكياً فيه بعض الخبز والعجة من صنع زوجته. لم يكن ليُعطيني الخبر أمام أعين الحراس، خوفاً من الوشاية به، كان بإمكانه أن يعطيني كمية إضافية من الخبز في الخفاء، لكنه كان يراعي الحلال والحرام، وحقوق الآخرين، كما أنني لم أكن لأرضى بأن يعطيني الخبز من حصة الإخوة. لقد حدثت زوجته عني، بأنني أصغر أسير في المخيم، وأن اسمي «ناصر» كاسم

ابنهما، وأنّني فقدت قدمي في الحرب، وأنّني سيّد أيضًا. حزّنت زوجتُهُ، وطلبت منه أن يهتمّ بي. ومنذ ذلك التاريخ وهو يُحضّر لي الطعام كل 10 أو 15 يومًا، فكان يضعهم على الجدار الأخير للمرحاض بعيدًا عن أعين الحراس، فأذهب وأخذهم. بعد مدّة أحضر لي دواءً للمعدة، فقد عانيتُ من ألم شديد في المعدة، وحرقة لا تطاق، حتّى أنّني لم أستطع النوم ليلاً من شدّة الألم، فطلبتُ منه أن يحضر لي الدواء بدل الخبز والطعام. استفاد الإخوة من الدواء أيضًا، لكنّني كنت أتناول الطعام وحدي. لم يطلع أحدٌ على ما كان يدور بيننا من حديث، إلّا «كاظم بابائي، وحكيم خلفيان» اللذان أثق بهما كثيرًا.

عندما ينشغلُ الإخوة بتفريغ حمولة شاحنته من الخبز، كنت أتحدّث إليه، ويتولّى حكيم الترجمة. حكيم إنسان كتوم، لم يستطع العراقيّون تجنيدُهُ للعمل معهم، فقد طلبوا منه نقل أوضاع الأسرى، ومشاكلهم إلى الضباط المفتشين بشكل مغاير، لكنّه لم يكن ليرضخ لأوامرهم. كان يقول: وماذا أفعل بوجداني؟!

تعرّض عدّة مرات للضرب المُبرّح على أيدي العراقيّين بسبب تلك المواقف. أخبرت العريف «إبراهيم» أن من بين الأسرى الإيرانيّين العرب في المخيّم يمكن الوثوق بـ«حكيم خلفيان»، وبناءً على كلامي، وثّق به. كان «إبراهيم» بداية الحرب سائقًا في أحد فيالق الجيش العراقيّ، ويحمل الكثير من الذكريات عن نهب ممتلكات أهالي مدينة «خرمشهر»، وغيرها من المدن الإيرانيّة التي احتلها الجيش العراقيّ. وقد شهد بنفسه نهب ممتلكات أهالي «خرمشهر»، وظل يعاني من

عذاب الضمير بسبب ما شهده من أحداث بعد احتلال تلك المدينة. حدثني بعد ظهر هذا اليوم عن «خرمشهر»، وقال لي: وقع العقيد «غفور فرج»، رئيس لجنة الإشراف على «غنائم الحرب»، على أكثر من أربعين استمارة مَهْمَة لي؛ لنقل ممتلكات وأموال أهالي «خرمشهر» إلى عناوين محدّدة لقادة عسكريين، وإلى أقربائهم، وأغلبهم من أنسباء وأقرباء زوجاتهم، وإلى عدد آخر من الأشخاص، حدّدوا لي عناوين محالّ إقاماتهم. وقال: كنت مجبراً على ذلك، زفر زفرةً من أعماق صدره، جرت دموعه، وتابع: في إحدى المرات كنت متوجّهاً من مدينة «خرمشهر» إلى مدينة «الكوت» على طريق العمارة - البصرة، فاصطدمتُ بـ «قاطرة» تحمل دبابة، كان ذلك الحادث بسبب خيانتنا للإيرانيين؛ إذ كنّا نَسْطُو على ممتلكاتهم في وضح النهار، ونقلها إلى مدنها، وقد تحوّلت تلك الأموال والممتلكات المغصوبة إلى جهاز عرس لعدد من فتيات العراق. يا لتلك الحياة المشؤومة التي بدأتها أولئك الفتيات مع ذلك الجهاز المغصوب!».

أضاف العريف «إبراهيم»: «عندما كنّا نضرّع حمولة الشاحنة، وبما أنّ القادة العسكريين لا يثقون بالسائقين، كنّا نُقدم اللوائح التفصيليّة بالوسائل المنقولة إلى رئيس مكتب القائد العسكري، وننتظر حوالي الساعة ليقوم المعاون بجرد الوسائل، ومطابقتها مع اللوائح».

سألته ما هي أكثر الأغراض التي أخذتها من «خرمشهر»؟ انزعج، وقال: «قُلْ أَخَذُوهَا». فصَحّحتُ سؤالِي.

يوجد في حمولة كلّ شاحنة: براد، تلفزيون، مُبرّد⁽¹⁾، جهاز تسجيل، مروحة سقف، غسالة كهربائية، فرن غاز، ماكينة خياطة، بطانيات، مدفأة، سجّاد، وغيرها من الوسائل.

وقال: يا سيّد، تُركت الوسائل التي لا قيمة لها في مدينة «خرمشهر»، وحمل جنودنا الطّمّاعون في الشاحنات كلّ الوسائل والأشياء القيّمة، ونقلوها إلى العراق. أقسم لي، وقال: مع أنّي كنت قادراً على أخذ ما أشاء، إلّا أنّي لم أفعل ذلك، لكن جنودنا قاموا ببيع ما سطّوا عليه في مدينتي البصرة والعمارة، وغيرهما من المدن العراقية. وقد علّم أغلب العراقيين المتديّنين أنّ تلك الوسائل مفسوبة من «خرمشهر»، فلم يقدموا على شرائها.

وقال العريف إبراهيم أيضاً: شهدت في أحد الأيام مشاجرة بين مؤهّل ورائد في الجيش العراقي، كان المؤهّل من مدينة البصرة، وقد هاجر العديد من أفراد عائلته منذ القديم إلى «خرمشهر»، وسكنوا فيها، بينما الرائد البعثي من مدينة «تكريت». لم يكن المؤهّل يهاب أحداً، فقال للرائد: ألا تخجل من كونك عربياً، وأنت تسطو على تلك الممتلكات؟! لو كانت تلك الممتلكات لإيرانيين فرّس ومجوس لما اعترضت، ولكنّ أخذتها أنا أيضاً، لكنّنا عرب، وهذه أموال عرب أيضاً. إنّهُ لأمر مخجل حقّاً أنّ يعلم كلّ عربيّ «خوزستاني» في إيران كمّ نحن حقّيون، أراذل، وعديمو المروءة. وصل الشّجار إلى حدّ دفع بالرائد التكريتيّ لاستهداف المؤهّل، صاحب الحميّة العربيّة، برصاصة قتلتَهُ على الفور.

(1) جهاز تبريد يعمل على الماء يقال له: «كولر».

السبت 19ت2 1988 - تكریت - المخيم الملحق

كان يوماً عصيباً، كنت داخل الزنزانة، عندما دخل السيد «محمد شفاعت منش» وقال: «أيها الإخوة! استمعوا إلى شكواي واضطرابي، استمعوا إلى قصة حيرتي وضياعي»، فسألته: «ماذا حدث يا سيد محمد؟»، فأجاب: «لقد ولدت بقرتناً⁽¹⁾، ضاعت نصف شفرة». كل من قضى عدة سنوات في سجون العراقيين يعلم جيداً عاقبة الأسرى عند ضياع نصف شفرة. كان على الإخوة حلق لحاهم مرتين في الأسبوع. في الأيام الأولى لم يعط العراقيون الإخوة الفرشاة، ومعجون الحلاقة؛ لذا استعاضوا عنهما بالصابون. كما كانوا يواجهون شح المياه في أغلب الأوقات.

قال العراقيون لمسؤولي السجن⁽²⁾ الإيرانيين: لن يُقدّم طعام الغداء ما لم يظهر نصف الشفرة الضائع. كانوا يعطون 175 شفرة لـ 875 أسيراً، أي بمعدل شفرة واحدة لكل خمسة أشخاص. عندما يصل دور الأسير الخامس في الحلاقة تكون الشفرة فلّ نصلها، مما يصعب عليه أمر الحلاقة كثيراً. وكان مسؤولو السجن يسلمون عدد الشفرات نفسها بعد الانتهاء من الحلاقة.

باءت جهود الإخوة في البحث عن نصف الشفرة الضائعة بالفشل، فانهال الحراس بالكابلات على الأسرى، ولم يفرّقوا بين الأصحاء والجرحى.

(1) مصطلح إيراني يُقصد به أنّ المصائب قد انهالت على رؤوسنا.

(2) عيّن العراقيون لكل زنزانة مسؤولاً (عريضاً)، اختاروه من بين الأسرى الإيرانيين؛ لتولّي شؤون الأسرى، والمتابعات مع الحراس العراقيين...

قام الحارس «سامي» بعمل وجداني، لم أظن أنه سيقوم بتضحية كهذه من أجلنا، كان يعلم أنه إذا لم يُعثر على الشفرة حتّى الغروب، فإنّ زملاءه سيُذيقونا الويلات.

أفهمني بإشارة من حاجبيه بأن أنتبه إلى يده، راقبت يده، فرأيتَه يرمي نصف شفرة قرب العامود، ويفادر. أشرت إلى «محمّد كاظم بابائي، وحسين مقيمي» لمكان الشفرة، لم يعلم الإخوة أنّ «سامي» هو من رماها على الأرض. لقد فرح «محمّد كاظم» كثيرًا.

كان «سامي» حارسًا نجيبًا، وصاحب ضمير حيّ، قليل الكلام، كتومًا، شفوفاً، وهو من مدينة «الديوانية» في محافظة «القادسية» العراقية، لكنّه نشأ وترعرع في مدينة «بغداد».

نهضتُ، وناديتُ الإخوة الذين كانوا يبحثون عن الشفرة في باحة المخيم. حاولتُ أن أخبرهم بطريقة طبيعية. اتّجه الإخوة نحو الشفرة الضائعة، بينما تعمّد سامي التأخر عن باقي الحراس في الوصول إلى المكان. لم يعلم أحد بما فعله «سامي» لأجلنا اليوم، لكنني وبعد عدّة أيّام، أخبرتُ السرّ «لحسين مرواني»، «ميثم سيرفر» و«محمّد باقر وجداني»، وهم موضع ثقة لدينا، وحافظون للسرّ.

أُغلق اليوم ملف نصف الشفرة الضائعة بفضل تضحية «سامي» الذي بقي سرّه خافيًا على العراقيين.

الأحد 20 ت 1988 - تكريت - المخيم الملحق

كان «سامي وماجد» يتحدثان عصر هذا اليوم عن ذكرياتهما في جبهة «الفاو وخرمشهر». قال «سامي»: «خبران أفرحا صدام

كثيراً زمن الحرب، ولا شيء أغضبهُ بقدرِ سَماعه لخبر سقوط «خرّمشهر». أخبرنا «ماجد» بأن «عدنان خير الله» قال في جمع من الجنود العراقيين: إنّ خرمشهر هي بمثابة الوسادة التي تتكئ عليها «البصرة». وقال قائد الجيش «ماهر عبد الرشيد»: «المحمّرة (أي: خرمشهر) هي بمثابة بؤبؤ العين». قال سامي: «خبران أفرحا صدام كثيراً، الأوّل خبر استشهاده الدكتور «شمران»، والثاني خبر سقوط الطائرة العسكريّة الإيرانيّة (C-130) في جنوب طهران⁽¹⁾. وقال «سامي»: «لقد بُثّ نبأ سقوط الطائرة العسكريّة الحاملة للقادة العسكريين الإيرانيين عام 1981 في الوسائل الإعلاميّة. وكان صدام حينها في زيارة لمعسكر الراشديّة برفقة «عدنان خير الله». كان «عدنان خير الله» أوّل من سمع بالخبر. وقبل أن يُعلم صدام بالأمر قال له: سيّدي، لديّ خبر مهم لك سيُسعدك كثيراً، لكنّي أريد الحصول على ترقية مقابله، فقال له «صدام»: اذا كان الخبر كما تقول فساوافق على ترقيتك. عندما سمع صدام بالخبر لم تسعه الفرحه، ضحك، وقال لـ«عدنان»: أفرح خبرك قلبي يا عدنان. وحصل «عدنان خير الله» على الترقية. أضاف «سامي»: لقد سمعت بهذا في إحدى خطب عدنان خير الله في معسكر التاجي.

(1) سقطت طائرة عسكريّة إيرانيّة من نوع (C-130) عام 1981 كانت متّجهة من الجبهات الجنوبيّة إلى طهران وعلى متنها وزير الدفاع الإيرانيّ اللواء «موسى نامجو»، والعميد ولي الله فلاحي قائد المشاة في الجيش الإيرانيّ، اللواء جواد فكوري قائد القوات الجوية في الجيش، ونائب قائد الحرس الثوريّ يوسف كلاه دوز، وقائد الحرس الثوريّ في خرمشهر محمّد جهان آرا الذين استشهدوا جميعاً.

الثلاثاء 22 ت 1988 . تكريت - المخيم الملحق

كان الوقت ظهرًا عندما دخل المخيم عددٌ من عناصر منظمة «مجاهدي خلق»، برفقة أحد الضباط في قسم التوجيه السياسي. كانت تلك هي المرة الأولى التي يأتي فيها أفراد من هذه المنظمة إلينا. كان العراقيون قد أخبرونا قبل أيام، بأن عددًا من الإيرانيين سيأتون لزيارتنا. فقد وسّعت المنظمة نطاق أنشطتها، لتشمل معتقلات الأسرى الإيرانيين، «مفقودي الأثر»، كانوا يسعون للحصول على مناصرين لهم من بين الأسرى وقد سمح صدام بدخول عناصر «مسعود رجوي» إلى المعتقلات المخفية للأسرى، «مفقودي الأثر»، في «تكريت»؛ بهدف جذبهم إلى المنظمة، في حين أوصد أبوابها في وجه الصليب الأحمر الدولي. وجودٌ وتردّدٌ «جماعة المنافقين» يدلّ على مدى ثقة «صدام»، وحزب البعث الزائدة بالمنظمة، وبشخص «مسعود رجوي»، ولم يكن صدام على استعداد لتقديم أية معلومات للصليب الأحمر الدولي عن الأسرى، «مفقودي الأثر»، ما بين عامي 1988 و1990.

كان صدام يُقدم 60 مليون دولار شهريًا لمنظمة «مجاهدي خلق». هذا ما قاله «سامي» شخصيًا. حاولت المنظمة وصدام الإيحاء بأنّهما، وبشكل ما، ليسا في جبهة واحدة. ونظرًا للحقد والكره الذي يَكُنُّه الشعب الإيراني للنظام البعثي الغاصب، فقد اضطرت المنظمة لاتخاذ مواقف مضادة للنظام العراقي، ولو في الظاهر. كما حاول النظام العراقي الإيحاء بأنّه قدّم المأوى للمنظمة لإنقاذها من التشرّد فحسب. لكن معاون صدام «عزت إبراهيم الدوري» صرّح بأنّ منظمة

«مجاهدي خلق» الإيرانية هي مقابل مجاهدي فيلق «بدر9» العراقي. وُزِعَ العراقيون اليوم كُتُبَ المنظمة، ومنشوراتها داخل الزنانات، كانت المرة الأولى التي تُوزع فيها الكتب في المخيم.

كانت معظم الكتب تعود للسنوات الماضية، وقد تأكلها الغبار في مخازن المنظمة. عندما دخل مسؤول الزنانية، وبيده هذا الكم الهائل من الكتب المزركشة، قلت له: ليتك قلت لهم أن يوزعوا «مصحفًا شريفًا» على كل زنانية، بدل كل هذه الكتب. لكنني اغتمت الفرصة، وانتزعت الصفحات البيضاء من آخر كل كتاب، وصنعت منها دفترًا صغيرًا للملاحظات. بدأت قراءة الكتب والمنشورات عند الظهيرة، بهدف ملء الفراغ، وإشباعًا لفضولي، فقد أردت معرفة ما يقولونه. قرأت النشرة الأسبوعية «الحقيقة» فوجدت فيها كل شيء، إلا الحقيقة. وفي نشرة «المجاهد» الأسبوعية، والتي هي النشرة الرسمية للمنظمة، قرأت مقابلة «مسعود رجوي» و«مريم عضدانلو» المعروفة باسم «مريم رجوي». وُزِعَ بين الإخوة أكثر من أربعين عددًا من أعداد نشرة «المجاهد». قال رجوي، الحانق من نتائج عمليات «المرصاد»، في أحد أعداد النشرة: سوف تنتقم منظمة «مجاهدي خلق» لعمليات «المرصاد» من الحرس الثوري. وكتب رجوي في افتتاحية عدد آخر من النشرة ذاتها: أن الأوان لمواجهة دكتاتورية ولاية الفقيه، والقيام عليه. وصرّح «مهدي أبريشمجي» في مقابلة معه: «إن سبب عدم نجاح المنظمة في إيران هو ولاية الفقيه، والحرس الثوري، والتعبئة»، كما قال «أبريشمجي»، وهو مسؤول الاستخبارات في المنظمة: «ليس لدى مجاهدي خلق أمل في تحرير الشعب الإيراني ما دام حكم ولاية الفقيه قائمًا في إيران».

رَحَّبَ الحُرَّاسُ العِراقِيُّونَ بما أَسَمَوْهُ الزَّوْاجَ الإيديولوجيَّ، والمخالف للشرع، بين «مَسْعُودِ رَجَوِيٍّ» و«مَريمَ عَضْدَانَلُو». حاولتُ أن أحفظَ في ذهني تلكَ الجُمْلَةَ التي قرأتُها في أحدِ أَعْدَادِ «المجاهد»، حيثَ كَتَبَ «أَبَرِيشْمَجِي»: إِنَّ مَعَارِضَةَ رَجَوِيٍّ أَشَدَّ كُفْرًا مِنْ مَعَارِضَةِ مَشِيئَةِ اللَّهِ. عَندَما قَرَأَ «حيدرَ راسَتي» هَذهَ الجُمْلَةَ قالَ: بِاللَّهِ عَلَيمُ انظُرُوا لَهَذا «البَطاطا!». كَانتِ «مَريمَ رَجَوِيٍّ» زَوجَةُ أَبَرِيشْمَجِي. دَفَعَ «رَجَوِيٍّ» «أَبَرِيشْمَجِي» لِكَي يُطَلِّقَها، وَيَتَزَوَّجَها هُوَ، ثُمَّ إِنَّ عَديمَ الشَّهَامَةَ وَالشَّرَفَ «أَبَرِيشْمَجِي» هَذا يَقولُ: «إِنَّ مَخالِفَةَ رَجَوِيٍّ أَشَدُّ كُفْرًا مِنْ مَخالِفَةِ مَشِيئَةِ اللَّهِ؟!». كَيفَ يَمكِنُ لِإنسانٍ أَنْ يَكُونَ مُنحَطًّا، ووَضِيعًا إلى هَذا الحدِّ؟

كَانَتِ زَوجَةُ رَجَوِيٍّ الأوْلَى هِيَ «أَشرفَ رَبيعيٍّ»، الَّتِي قُتِلَتْ في طَهران، وأُطْلِقَ اسْمُها على مَخيمِ المَنظَمَةِ في مَنتَقة «دِبالَةِ» العِراقِيَّة، أَمَّا زَوجَتُهُ الثَّانِيَةُ فَهِيَ «فَيرُوزَةُ بَني صَدَرَ»، ابْنَةُ «بَني صَدَرَ»، الَّتِي تَزَوَّجَها عامَ 1984، ثُمَّ انْفَصَلَا بَعدَ عَدَّةِ أَشْهُرٍ.

قَالَتِ «مَريمَ رَجَوِيٍّ» بِمَناسِبَةِ «يَومِ المَراةِ» جُمْلَةً عَليَتْ في ذَهنِي: كانَ لِلْمَراةِ قَبلَ الثَّورَةِ مَكانَةٌ خاصَّةٌ، وَقَدِ أَبْعَدَتِ الثَّورَةُ الإِسلامِيَّةُ النِّساءَ عَن مَكانَتِهِنَّ وَمَقامِهِنَّ.

مِن بَينِ مَنشُوراتِ وَكُتُبِ المَنظَمَةِ نَشْرَةُ «إِيرانَ نَامَه» (رِسالَةُ إِيرانَ)، التَّابِعَةُ لِلْمُطالِبِينَ بِإِعادَةِ الحُكْمِ «الشَّاهِنشاهيِّ». فَالْمَنظَمَةُ كَانتِ على عَلاقَةٍ وطَيدةٍ مَعَ أولئِكَ القابِعيينَ في أوروپا، في حينَ أَنَّ الأَسرى لا يَمَلِكُونَ أيَّ رابِطٍ يَربِطُهم مَعَ العالَمِ خارِجِ المَعْتَقَلِ، كَانتِ نَشْرَةُ «إِيرانَ نَامَه» الَّتِي تُطَبِعُ وتُوزَعُ بِإِشرافِ «أَشرفَ بَهلُويٍّ»، وَنَشْرَةُ

«راه زندكى» (طريق الحياة)، و«راه آورد» (التقدم) تُنقل من مطار في الولايات المتحدة الأمريكية إلى مطار الرشيد في بغداد. وعلى ما تسعفني به ذاكرتي أيام الشباب، فقد كان أشخاص أمثال «داریوش همایون» و«حمید خواجه نصیری» يكتبون في نشرة «إيران نامه»، وقد سَخَّروا كل طاقاتهم للهجوم على الثورة الإسلامية، وولاية الفقيه، وقيم الدفاع المقدس.

من بين الكتب التي أحضروها إلى المخيم، وقرأتها، كتاب «هدية برند» (هدية الثريا) لحميد خواجه نصيري.

طُبِع على إحدى صفحات نشرة «المجاهد» صورة «مجيد نيكو» الذي اغتال الشهيد «آية الله مدني»، وقد نشرت «جماعة المنافقين» سيرته الذاتية، وعددوا الاغتيالات الأخرى التي قام بها، وقدموه بعنوان «الشهيد البطل في جيش التحرير».

كنت أحب شهداء «المحارب» منذ الصغر، وقد ألصقت صورهم الأربعة داخل غلاف كتاب الصف الخامس الابتدائي.

الأربعاء 23 22 1988 . تكريت - المخيم الملحق

صباح هذا اليوم أخرجونا من الزنانات، وتقرر معاقبتنا نحن الثلاثة: «علي كوجك زاده، حسين شكري» وأنا؛ لأننا مزّقنا صور «رجوي». وكي لا يتكرر هذا الأمر، أخذونا إلى باحة المخيم الترابية، أمر ضابط التوجيه السياسي بجلد علي، وحسين مئة جلدة لكل منهما، وبالنظر إلى وضعي الجسمي، تم إعفائي من الجلد، وعوضاً عن ذلك وضع حامد طرف خرطوم المياه في فمي، ثم أطبق فمي بقبضته بكل

إحكام، وأمر «سلوان» بفتح صنبور المياه، حاولت جاهداً التملّص منه، فقد امتلأت معدتي بالمياه كالغريق، وسأل الماء من أنفي. جريمتي هي أنني ثقبْتُ عيني «مجيد نيكو» (في الصورة) الذي اغتال «آية الله مدني»، ومزَّقْتُ صور «مسعود رجوي، ومريم عضدانلو». أيقنت اليوم مدى علاقة العراقيين بقيادي «جماعة المنافقين».

الاثنين 28 ت 1988 - تكرت - المخيم الملحق

لم أرغب في تناول طعام الغداء اليوم؛ لذا احتفظ لي الإخوة بحصتي في الكوب المعدني. كان الغداء حساء القُنْبِيْط مع الأرز. عندما رأيت خبزاً يشبه خبز الـ «سنكك»⁽¹⁾ الإيراني في يد «حامد»، سأل لُعابي، وتذكرتُ الفرن في الشارع الرئيسي لمدينة «ياسوج». كنت أقيم حينها في منزل أختي «بي بي ماهتاب». وكنتُ أذهب أكثر الأوقات إلى الشارع الرئيسي للمدينة، وأشتري الخبز، ثم أجلس في أحد الأزقة الهادئة وأتناوله، كان طعمه لذيذاً جداً، وأفضل من طعم الأرز والدجاج المشوي وغيره، ورؤية الخبز في يد «حامد» دفعني إلى تناول غدائي. استخدمت صحيفة القادسية كمائدة، عادةً تطبعُ صُحفُ القادسية، الثورة، والجمهورية صورَ صدام على صفحتها الأولى، ولم أر صحيفة لا يوجد صورٌ لصدام على صفحتها الأولى. كنتُ أتناولُ الغداء عندما دخل «جميل» إلى الزنزانة. لم أدِرْ لما ضربني بالكابل على رأسي، فهو قد التحق بالحراس منذ نحو أسبوعين فقط. كان «جميل» طويل القامة، عيناه غارقتان في محجريهما، وعلى خده الأيسر آثارُ جُرحٍ

(1) نوع من الخبز يُخبز على الحصى داخل أتونٍ خاصٍ بحرارة عالية.

وَقُطِبَ، قال: إِنَّهُ جُرَحَ بِشَطِيطَةٍ قَذِيفَةٍ هَاوِنٍ فِي مَنْطِقَةِ «طَلَاثِيَّةٍ». كَانَ «جَمِيلٌ» «كَوْلِيدٌ» مِنْ عَشَاقِ «صَدَامٍ»، وَيَقُولُ: إِنَّ الْعَرَبَ سَيَخْتَارُونَ صَدَامَ فِي الْقَرِيبِ الْعَاجِلِ قَائِدًا لَهُمْ مِنَ النَّيْلِ إِلَى الْفَرَاتِ، وَسَيَقُومُ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ بِتَأْسِيسِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الْعِرَاقِيَّةِ الْكُبْرَى. فَقُلْتُ لَهُ بِالْفَارَسِيَّةِ بِمَا مَعْنَاهُ: «مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى الْمَرْءُ يَدْرِكُهُ»، فَسَأَلَ «جَمِيلٌ» حَكِيمَ خَلِيفَانٍ: هَذَا شَوْ يَقُولُ؟»

فَقَالَ حَكِيمٌ: «سَيِّدِي، لَا يَقُولُ شَيْئًا، يَقُولُ: إِنَّ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةَ سَوْفَ تَتَأَسَّسُ».

حَمَلَ جَمِيلُ الصَّحِيفَةَ، وَأَشَارَ إِلَى الْحَسَاءِ الَّذِي سَقَطَ عَلَى صُورَةِ صَدَامٍ، وَقَالَ: «هَذَا شَيْنُو؟».

لَفْظَ جَمِيلُ كَلِمَةَ «تَوْهِينٌ» الْفَارَسِيَّةَ بِشَكْلِ جَيِّدٍ، وَقَالَ بِغَضَبٍ: «مَجُوسُ! هَذَا تَوْهِينٌ».

- سَيِّدِي، لَا، مُو تَوْهِين.

رَكَلَ «جَمِيلٌ» كُوبَ طَعَامِي مِثْلَ الْكَرَةِ بِقَدَمِهِ، وَضَرَبَنِي عِدَّةَ ضَرْبَاتٍ بِالْكَابِلِ عَلَى رَأْسِي، ثُمَّ كَالَ لِي الْإِهَانَاتِ، فِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ، وَصَلَ «سَلْوَانٌ». «سَلْوَانٌ» مِنَ النَّاصِرِيَّةِ فِي مَحَافِظَةِ «ذِي قَارٍ»، وَهُوَ أَضْخَمُ حَارِسٍ فِي الْمَخِيْمِ بَعْدَ «سَعْدٍ»، كَانَ نَهْمًا وَبَاسِمَ الْوَجْهِ. عِنْدَمَا سَأَلَ «جَمِيلٌ» عَنْ سَبَبِ غَضَبِهِ، أَرَاهُ صَحِيفَةَ الْقَادَسِيَّةِ، فَقَالَ «سَلْوَانٌ» الَّذِي هُوَ فِي الْعَادَةِ إِنْسَانٌ لَامِبَالِي: «مَا يَخَالِفُ».

فَرَحْتُ، وَقُلْتُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْفَارَسِيَّةِ: سَيِّدِي، وَاللَّهِ أَنَا مُو «مَنْظُورٌ» (لَا أَقْصِدُ).

تَرَكَنِي «جَمِيلٌ» وَشَأْنِي، وَمِنْذَ ذَلِكَ الْحَيْنِ لَمْ أَعُدْ اسْتَخْدِمُ الصَّحِيفَةَ

كمائدة. قال «جميل»: «مو تكرر»، وغادر. كان «جميل» يعامل الأسرى بكثير من العدائية، فينتهي الأمر بالشكوى عند رئيس الحراس، حتى إنّ «سعداً» نفسه طلب منه التخفيف من عدائيته تجاه الأسرى.

كان الإخوة يُلقبون «جميل» بـ «أبو الشر».

أصبح بعض الإخوة يجيدون كيفية التعامل معه، فلا يجادلونه، كما اكتشفوا نقاط ضعفه، فجميل في الخامسة والثلاثين من العمر تقريباً، ويكفي أن تقول له: «سيدي، يبدو أنك في العشرين، أو الخامسة والعشرين من العمر، لا أكثر»، فيفرح ويغادر.

كان جميل يقول للإخوة الأسرى الجالسين في الممرّ، وهم يتبادلون الحديث: «ليش تجلسون هنا؟». فإذا أجابوه: «إذن أين نجلس؟!». عندها يقول لهم: «اسكت قشمار» (أي أحمق). كان يُشتّت تجمّع الأخوة، ويتلذّذ بذلك.

إذا دخل علينا، ونحن نتناول الغداء، ولم نقف له، يقول: «ليش ما توقفوا وتقدّموا للتحية العسكرية؟!» وإذا نهضنا يقول لنا: «ليش نهضتم؟ ما تعرفون إنو القيام عند الطعام مكروه؟!». كان يُحطّم «تربة الصلاة» بحذائه العسكري، ويقول: «أنتم الإيرانيون تعبدون الأصنام، أنتم جماعة من عبدة الحجارة والتراب».

كان نعل أحد الإخوة مقلوباً أمام مدخل الزنزانة قبل عدّة أيام، فنادى جميل صاحب النعل، وهو «قدرت الله قهرمان بور». جاء «قدرت الله» إليه، وقَدّم التحية العسكريّة، فضربه «جميل» بالنعل على رأسه عدّة ضربات قويّة، ثمّ رمى بالنعل على سقف المخيم. يعتبر العراقيّون أنّ النعل المقلوب إهانة، وكلمة «كُنْدرة» (أي

الحذاء) كانت إحدى شتائم «جميل» لنا. عندما يلوح «جميل» آتياً باتجاه الإخوة يقرؤون له آية السد: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾.

بعد مضي وقت على وجوده في المخيم، وصل الأمر بالحارس «قاسم» في قسم تجهيزات المخيم، لأن يقول له: «يا جميل! هل تشاجرت مع زوجتك اليوم؟ ما لك ول هؤلاء الأسرى المساكين؟!».

الثلاثاء 6 ك 1988 - تكريت - المخيم الملحق

جاء «كريم» المسؤول في المخيم الملحق إليّ، وكان من المدمنين على التدخين. مع نهاية كل شهر يأتي إلى الأسرى غير المدخنين، محاولاً أخذ سجائرهم. كان «كريم» الأسير المدلل عند العراقيين، وقد خصصوا الزنزانة رقم (27) له وحده. حدث أن ضرب كريم الأسرى عدة مرات بدلاً عن العراقيين، وعندما كان الإخوة يسألونه: يا كريم! ألا تريد العودة إلى إيران؟ لماذا تدمر كل الجسور من خلفك؟! لقد أعمى الغرور والتكبر بصيرته، فكان يقول: «لا، لن أعود إلى إيران، فبيتي الأول هو العراق»⁽¹⁾.

كان كل من يواجهه في المخيم الملحق يتعرض للضرب المبرح.

(1) كان «كريم» يقول: إنه لن يعود إلى إيران، لكنّه غير رأيه ليعود مع قوافل المحرّرين في تموز 1990. كان العراقيون على يقين من أن الأسرى سينتمون منه؛ لذا قاموا في الأيام الأخيرة لعملية التبادل بنقله إلى معتقل آخر، لا أحد يعرف عنه وعن سوابقه شيئاً، فلا يلحقه الأذى. لكن بعض الإخوة في المخيم الملحق قد اشتكوا عليه بعد التحرر لدى المركز الصحي (الكرنتينا) التابع للثكنة العسكرية - طهران، ووضعه المسؤولين على اللائحة الحمراء، وجردوه من جميع المزايا المعنوية والمادية للأسرى المحرّرين.

وقد تعرض «حسن بهشتي بور» أكثر من غيره للضرب على يدي «كريم»؛ بسبب إدارته للأنشطة الثقافية في المخيم. لقد أدمى كريم قلب «بهشتي بور».

كنّا نتقاضى في الأسر راتباً شهرياً مقداره ديناراً ونصف الدينار، أي ما يُعادل 1500 فلساً، وكان لزاماً على الأسرى، حتّى غير المدّخين، شراء علبتي سجائر من حانوت المخيم. كان سعر سجائر «سومر» الطويلة 350 فلساً، و«سومر» العادية 250 فلساً، وسعر سجائر «بغداد» 230 فلساً. كنّا على استعداد لادّخار جزءٍ من راتبنا من أجل شراء مُقلّم الأظفار، إذ كنّا نضطر أيام السبت والثلاثاء، أي: الأيام الملمزون فيها بحلق لحانا، أن نستخدم الشفرات لتقليم أظفارنا. باءت جهود الإخوة غير المدّخين لشراء أشياء أخرى بالفشل، فقد حاول العراقيّون بهذه الطريقة دفع غير المدّخين للتدخين. كان الأسرى المُدخنون ينفقون كلّ راتبهم على شراء السجائر، ولم يكن يكفيهم إلّا للأيام العشرة أو الخمس عشرة الأولى من الشهر، فيلجؤون بعدها إلى تدخين قشر البرتقال، أو العشب، وأوراق الصحف.

كنتُ أميلُ للتدخين في بعض الأحيان، إلّا أن «محمّد كاظم بابائي»، وهو من المدّخين، كان يراقبني عن كثب. أصرّ أحد الأسرى المُدخين عليّ بالتدخين، فسحبْتُ نفساً واحداً من سيجارته، رأي حينها «محمّد كاظم»، وأنبني بشدّة، كما أنب الأسير الذي قدّم لي السيجارة. كان «محمّد كاظم» يهتمّ بي، وكأنّني ابن له، فقال لذلك الأسير: «السيد ناصر بمثابة الابن لي؛ لذا أقسم بالله، إن تجرّأ أحدٌ ما وجعله من المدّخين فسأضربه بعصاي هذه على أمّ رأسه»،

ثم قال لي: «أنا أخاطبك أيضاً، إن تجرأت ثانية ودخت، فسأدع كل محبتي وعاطفتي لك جانباً، وأصفعك على أذنك».

قرّر «محمد كاظم» مقايضة حصتي من السجائر بمواد غذائية من حانوت المخيم.

كان بعض الأسرى آخر كل شهر يقايضون «جلابيبهم» العربية بعدد من السجائر، وفي بعض الأحيان بسيجارتين فقط. ووُصل الأمر ببعضهم الآخر إلى أن يقايض أعماله اليدوية القيمة، مثل السبجات، المجسمات الحجرية، أو المطرّزات الرائعة مع العراقيين لقاء سيجارة أو سيجارتين. عندما رأيت كم أن بعضهم يحقّرون أنفسهم في سبيل الحصول على سيجارة واحدة، استأثرت من نفسي كثيراً، وشكرت «محمد كاظم» على صنيعه معي⁽¹⁾.

مع دخول السجائر إلى المخيم، ازدهر سوق الجواسيس والمخبرين، فمنهم من كان يُعرّف بعض الأسرى للعراقيين على أنهم قادة عسكريين، وبعضهم الآخر كان يقول: «لقد كنت في الخطوط الأمامية للجبهة، ورأيت بأم العين كيف كان الأسير «فلان» يقتل العراقيين». كان يُفتضح كذبهم في أغلب الأحيان، فالذي قال: إنه رأى «جعفر دولتي مقدّم» يقتل العراقيين، كان قد أسر قبله بمدة طويلة، ولم ينل هؤلاء الجواسيس، لقاء عملهم هذا، أكثر من سيجارة أو سيجارتين. بعض الجواسيس كان ينقل أخبار المعتقل إلى العراقيين،

(1) بعد التحرر قبّلت «محمد كاظم»، وقلت له: سأبقى مديناً لك مدى الحياة؛ لأنك لم تسمح لي في تلك الظروف أن أصبح مدخناً. فقُبّلني، وقال لي: سامحني إن تصرّفت معك بقسوة، لكن ذلك كان من أجلك، فأنت بمثابة ابني، ولم أكن لأسمح أن يخدعك أحد، ويجعلك من المدخنين.

فَيُعْطُونَ عددًا من السجائر يتناسب وأهميّة الخبر المنقول. كان «كريم» يقصد الأسرى الضعفاء أو الجرحى، محاولاً سلبهم سجائرهم منهم. على الرغم من تأمين العراقيين لكافة احتياجاته، إلا أنه كان يتصرف معهم كالإقطاعي والرعية.

كنت مُمدّداً، قبل ظهر هذا اليوم، عندما جاء «كريم»، وهو يعلم بأنني لا أدخن السجائر، وقف خلف النافذة، وأراد أخذ سجائري بالقوة، فقاومته.

كان العديد من الأسرى يُعطون «كريماً» السجائر بمجرد أن يطلبها منهم؛ كي يأمنوا شرّ افتراءاته.

قال لي كريم: ماذا تريد أن تفعل بسجائرك؟

- أريدهم لأمرٍ ما.

- تريد إعطاءهم «لمحمد كاظم».

إنّها أمنيّة أن يطلبهم مني «محمد كاظم»، لكنّه لا يفعل. فبعضهم كان يعطي سجائره لـ«رامين حضرت زاد». كنت أعلم أنّه ليس مُدخناً وأعلم ما يفعل بالسجائر، فقد قال «حسن بهشتي بور»: علينا مواجهة الأشخاص الذين يبيعون أبناء وطنهم من أجل السجائر وقال رامين: علينا أن نردعهم عن الذهاب إلى العراقيين. فقد تُقبت طبلّة أذن أحد الأسرى «الطهرانيّين»، بسبب افتراءات هؤلاء الجواسيس، ومن أجل بضعة سجائر فقط.

أردت إعطاء سجائري لـ«رامين»، فقد كان يُخطّط لكل شيء. كان «كريم» يعلم أنّ «رامين» يُقدّم السجائر التي نعطيها للجواسيس؛ كي لا يتجسّسوا علينا. علمنا بعد ذلك أنّ بعض هؤلاء الجواسيس كانوا

يستغلّون الطرفين، فيأخذون السجائر منّا مقابل أن لا يتجسّسوا علينا، وفي الوقت نفسه يأخذون السجائر من العراقيين لقاء تجسّسهم علينا، وكان أكثرهم ينقل أخبارنا عبر «كريم» إلى العراقيين.

اليوم جاء «كريم»، وأطل من خلف النافذة، وقال لي بكناية واستهزاء: «أنا أيضاً جاسوس، ألن تعطيني السجائر؛ لأتوقف عن فعل ذلك؟»

كان «كريم» الأشدّ ظلماً من بين كل الجواسيس والخائنين. لقد طفح كيل أغلب الأسرى، فكانوا يتحينون الفرصة للقضاء عليه داخل المرافق الصحيّة. وكان العراقيون على علم بمدى مقت الأسرى له. كان «كريم» يضرب الأسرى بعنف شديد، وعلى مرأى من الجميع، ولا أشكّ في أنّ نصف الشفرة الضائع كان بيد أسير يتحين الفرصة المناسبة للقضاء عليه.

قلت لكريم: «أنت ستخوننا في جميع الظروف، سواء أعطوك السجائر أم لم يعطوك إيّاها».

- لا أحد يجرؤ في هذا المخيم على مخالفتي، سأغض الطرف عنك بسبب قدمك، وإلاّ لكنت أذقتك الويلات.

لم أكن لأقوى على مواجهة «كريم» وأنا بهذه الحال. لو كنت مُعافى لكنت قد تخليت عن فكرة العودة إلى إيران، والعائلة، والحياة، والمستقبل، وأنزلت به البلاء. كان «كريم» عنيداً لا ينحّ أحد من شرّه. إن حقد على أحد، فإنّه يكيل له الافتراءات عند العراقيين، أمثال «جميل»، ويحاول أن ينغص عليه حياته بأيّ شكل من الأشكال.

قدّم له العراقيون الحماية، أطلقوا يده في المخيم، وعينوه عريفاً

يصول ويجول في المخيم على هواه. عندما رأيت أنّ كريماً يحاول أخذ السجائر من الكيس بالقوة، سحبت الكيس من يده، وأخفيته بين جنبتي، ثمّ قلت له: «صحيح أنّي نصف إنسان بنظرك، لكنّ أبي لم يناهض الجور في بلدتنا؛ كي أخضع أنا له هنا. لن أعطيك السجائر».

- سوف أريك!

- اذهب يا «كريم» في حال سبيلك، وليرزقك الله في مكان آخر. تعالى صراخنا، فجاء كلّ من «حميد زارع زاده»، وهو من أهل «يزد»، «حسين مقيمي ومراد كمال» من «كرمان»، وصدّوا كريماً عني. لو كان «محمد كاظم» حاضراً لاختلف الأمر. قال «حميد» لـ«كريم»: «أعتقد أنّ الاستقواء على «نصف إنسان» عمل رجولي!».

كان «حميد زارع» صاحب حميّة، فتعارك مع كريم، وجاء الإخوة ففرّقوا بينهما. وقال له «منصور» من «تبريز» باللغة التركيّة: «آنا آتاسيز» (أي: يا عديم الشرف ماذا تريد منه؟) وصل «سامي» في تلك الأثناء، وكان «وليد» شاهداً على شجاري مع «كريم»، لكنّه لم يحرك ساكناً، على الرغم أنّه شهد سوء تصرفه، لكنّ «سامي» أنبه وشتّمه، فحاول «كريم»، الذي ظنّ نفسه واحداً من حراس المعتقل، أن يُبرّر تصرفاته.

كان «سامي» يمتدّ كريماً، فهدّده بأن يشكّوه إلى النقيب «خليل» إن استمر في معاملته السيئة للجرحى. بعد أن أنهى «سامي» كلامه، هدّدني «كريم»، وقال لي بغضب: «لك واحدة يا ناصر الاستخباراتي!». بعد أن غادر، قلت للإخوة: «لو أن العراقيين أرادوا أخذ كيس السجائر منّي بالقوة لما اعترضت، لكنني لم أطق ذلك من أسير مثل كريم».

ناصر بن «كريم» العداء، فأخذني عدّة مرّات إلى غرفة رئيس الحراس بتهمة قراءة اللطميّات، في محاولة للانتقام منّي. تشاجرت في أحد الأيام مع أحد الأسرى من «فرقة حمزة 21»، الذي كان من الفريق اللامبالي، ولقد تجرّأ على ذلك بتحريض من «كريم» نفسه، فقال لي: «نحن لسنا في إيران، ولا في الجبهة، وعلينا أن نتبع قرارات الحكومة العراقيّة، بينما أنت بقراءتك اللطميّات، وبتصرفاتك هذه، تُصعّب الحياة علينا، دعنا نُنهي مدّة الأسر براحة بال»، فأجبتّه دون تردّد: «سأقوم بأيّ عمل أراه مناسباً. ربما شئت أنت أن تكون علمانياً في هذا المخيم، فهذا شأنك، لكننا نحن أسرنا من أجل عقائدنا».

قبل إحصاء الليل، قلت لـ«كريم»: «لقد دعوت عليك الليلة، كن واثقاً بأنّ جدّي سيُلاحقك ويُعاقبك».

الجمعة 9 ك 1988 - تكريت - المخيم الملحق

تمزّق سروالي من عدّة نواح، وبقيت مدّة على هذه الحال، فكنتُ أبحث عن خيط وإبرة لأخيطه. بناءً لأنظمة المخيم، يُمنع اقتناء أيّ شيء ذي رأس حادّ. وبسبب حاجة الإخوة الماسّة للإبرة فقد تقرّر حذف «الإبرة» من لائحة الممنوعات. لم تكن نعاني كثيراً في الحصول على الخيوط، إذ كان الإخوة ينتزعونها من أنسجة البطانيّات، كما استخدم العديد منهم خيوط الجوارب أو المناشف، وآخرون كانوا يقايضون أعمالهم اليدويّة بالخيوط مع حراس السجن. فيما بعد، أحضر حانوت المخيم الخيوط لبيعها. في السنة الأولى للأسر،

عانينا من ندرة الإبر، فوعدونا بتأمينها. كان بعض الأسرى، لا يتعدى عددهم أصابع اليد، يملكون الإبر، وأغلبهم من الأسرى الإيرانيين العرب الذين تربطهم علاقات جيّدة مع حراس السجن، ولكن كانوا يقرضونها لمقرّبين منهم عادةً. كانت الإبرة في الأسر شيئاً ثميناً وقيّماً.

حاك أحد الأخوة، وهو من مدينة «أرومية»، نعلين قطنيين، باستخدام الخيوط المنتزعة من المناشف، كان النعل جميلاً ورائعاً، وقد استغرق عمل حياكته شهرين كاملين، لكنه اضطر لمقايسته بإبرة مع أحد حراس السجن.

قررتُ الوصول إلى الاكتفاء الذاتي من الإبر، ومن أجل ذلك، وجدت قطعة من الأسلاك الشائكة، فقامت بحفّ أحد أطرافها بالسور الأسمنتيّ للمخيّم، حتّى أصبح مسنّناً بشكل جيّد، وفي المرحلة الثانية، طرقت الطرف الآخر للسلك بحجر حتّى أصبح دقيقاً ومسطّحاً، وفي المرحلة الثالثة، صنعتُ ثقباً في الجزء المسطح بواسطة مسمار فولاذيّ، وفي المرحلة الرابعة قامت بحفّ الجزء الذي يحتوي على الثقب ليصبح مطابقاً للمواصفات المطلوبة في الإبرة، ويسهل استخدامها للخياطة. عانينا في بعض الأوقات من مشاكل في تأمين الخيوط، فكان الأسرى، المسؤولون عن تنظيف غرفة رئيس الحراس، ينتزعون الخيوط من بطانيّات العراقيين. وقد أسمى الإخوة عملهم هذا «بالابتكار الإلزامي».

لقد أثار إبداع الأسرى الإيرانيين، وعملهم الخلاق عجب العراقيين، وأقروا بأنّ الإيرانيين تمكّنوا، بفضل ابتكاراتهم، من الصمود طوال

ثمانى سنوات من الحرب، وكانوا يقولون: ماذا كنتم لتفعلوا بنا لو لم تكونوا محاصرين اقتصادياً؟ وقال جميل: «ما كان لأحد أن يسبقكم حينها إلى فلسطين».

قدّم جنودنا خلال سنوات الحرب نماذج من الابتكارات والإبداعات، أذهلت العراقيين. على سبيل المثال: الجسور «الخبيرية» في عمليات خبير، وهو جسر بطول 13 كلم تقريباً؛ عملية ربط القناديل على زوارق من دون ملاحين، وإطلاقها في نهري «كرخه وكارون»، فتضيئ النهرين بهدف خداع العراقيين، وإيهامهم بأن الإيرانيين يتقدمون عبر الزوارق، فصبّوا عليها وابل نيرانهم لبضع ساعات؛ شبكة أفخاخ الدبابات في منطقة عمليات «آزادكان»، حيث قام الإيرانيون بحفر الأرض عميقاً في تلك المنطقة، وغطوا الحفر بالخشب والتراب. تلك الحفر تسببت بإعاقة حركة الدبابات وتقدمها. وقيل: إن هذه الخطة كانت من ابتكار الدكتور «مصطفى شمran»؛ عملية ضخ المياه في مناطق سهوب «آزادكان»؛ كي تعلق أحوالها بالدبابات العراقية، فتعجز عن التقدم، ونسيطر عليها ونغنمها.

الاثنين 12 ك 1988 - تكريت - المخيم الملحق

دخل «وليد» إلى الزنزانة حاملاً خبر إقامة مسابقة في الرماية، كان الهدف الذي وضعه الحراس للرماية هو صورة الإمام. قال «وليد»: إن المسابقة عبارة عن رمي «الأسهم» باتجاه الصورة، وكان لكل جزء من أجزائها نقاطه الخاصة، فيُعطى 10 نقاط عند إصابة العين أو الجبين، 8 نقاط لإصابة الخدين والذقن، و6 نقاط لإصابة اللحية، و4 لباقي أجزاء الصورة.

«شفيق عاصم»، ضابط قسم التوجيه السياسي، هو الذي اقترح إقامة هذه المسابقة، وهو ضابطٌ غامضٌ، يزور المخيم مرةً أو مرتين في الأسبوع، وكان في كل مرة يحمل معه خطة من خططه القذرة، كان يُظهر الحقد والعداء للإمام أكثر من غيره من الضباط والحراس. اعترض الإخوة على إقامة المسابقة، ولم يُبدوا أيَّ استعدادٍ للمشاركة فيها، فغضب العراقيون من صلابة وغيره الأسرى، ولجأ «وليد» و«ماجد» إلى العنف، لكن الإخوة لم يوافقوا على المشاركة في المسابقة أبدًا. كانت صورة الإمام مع «حامد»، وبعد أن جُوبِها برفض الإخوة تراجعوا قليلًا عن قرارهم، وطلب الحراس من الأسرى أن يشاهدوا المسابقة التي سيقومونها فيما بينهم دون مشاركة الأسرى بها، فلم يجلس لمشاهدة تلك المسابقة المهيئة سوى بضعة أسرى. بعد انتهاء المسابقة، قال الملازم «فاضل»، بهدف إثارة الأسرى المدخنين وإغاضتهم، إنَّ جائزة الراحين في تلك المسابقة كانت 20 علبة سجائر.

لم يجرؤ الجواسيس والخائنون، الذين كانوا على استعداد لفعل أي شيء من أجل الحصول على سيجارة أو سيجارتين، على المشاركة في المسابقة. صحيح أنَّهم على استعداد لفعل أي شيء من أجل الحصول على السجائر، لكنَّهم كانوا أعقل من أن يخاطروا بحياتهم من أجل 20 علبة من السجائر؛ لما قد يتعرضون له من أذى على أيدي الأسرى في المرافق الصحيَّة.

السبت 17 ك 1988 - تكريت - المخيم الملحق

ظهر هذا اليوم، شرح لنا «حسن بهشتي بور» مقالة حول «ميشال عفلق». فقد كانت الصحيفة الرسمية في العراق تروّج لفكر حزب البعث العربي الاشتراكيّ، ولأفكار «ميشال عفلق، وصلاح الدين بيطار». كان «ميشال عفلق» مسيحياً ارتوذوكسياً من سوريا، ومن أهم أهدافه فصل العرب عن الإسلام.

ضربوا «علي أصغر إنتظاري» بشدة هذا اليوم، فازرّق لون وجهه من الكدمات. فقد اعتاد عند صفارة الإحصاء، وحركة الأسرى نحو الزنزانات الركض باتجاه الحمامات، فيستحمّ خلال خمس دقائق أو أقل.

كان حاذقاً ونشطاً، يستغلّ الخمس دقائق التي يستغرقها الإخوة للوصول إلى الزنزانات والجلوس في صفّ الإحصاء، ويتراوح الزمن الفاصل ما بين انطلاق صفارة الإحصاء، ووصول الأخوة إلى الزنزانات، وجلوسهم في الصفوف، من خمس إلى عشر دقائق.

اكتشف «حامد» الأمر، فأغلق الباب الخارجي للمرافق الصحيّة، تفاجأ «علي أصغر» بالباب المغلق، فلم يستطع الخروج، دخل الحراس إلى المرحاض، ورأوا «علي أصغر» قد استحم، ووقف خلف الباب، فاعتقدوا أنّه ينوي الهرب. كانت نافذة المرافق الصحيّة أصغر من أن يتمكن أحد من الفرار من خلالها، ناهيك عن وجود القضبان الحديدية. أخبر «علي أصغر» العراقيين بالحقيقة، وقال لهم: «لقد فعلتُ هذا الأمر مراراً، لكن كُشف أمري هذه المرّة». كان «علي أصغر» من الأشخاص المواظبين على الاغتسال، وكان على استعداد

ليتلَقَّى الضرب، لكن لن يتنازل عن الغُسل الواجب. كان بعض الإخوة في المخيِّم يغتسلون بمقدار كويين من الماء، وفي حال فقدان الماء كانوا يبلِّلون خرقة ما ويمسحون بها أجسامهم من الرأس إلى أخمص القدمين، فيغتسلون (الغسل الواجب) بهذه الطريقة، ولا أعلم مدى صحَّة ذلك من الناحية الشرعيَّة.

بعد الظهر، التقيت «علي أصغر» في باحة المخيِّم، فقال لي: يا سيِّد كنت أقرأ دائماً آية السدِّ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾⁽¹⁾، صدقتي لقد تقاعست هذه المرَّة، فلم أقرأها فكشفت أمري.

الاثنين 19 ك 1988 . تكرت - المخيِّم الملحق

يومياً، عندما تتطلق صفارة الدخول يُسارع الإخوة إلى زناياتهم للجلوس في صف الإحصاء. صباح اليوم الماضي انقطعت مياه المخيِّم، فلم يستطع عددٌ كبيرٌ من الأسرى الدخول إلى المرحاض، انهال الحراس بالكابلات على الإخوة، فالأسرى الذين مضى عليهم أكثر من ساعتين واقفين في صف الدخول إلى المرحاض، لم يكونوا على استعداد لترك الصف في اللحظات الأخيرة حين وصول دورهم، فيتحمَّلوا ألَمَ المئانة ستَّ عشرة ساعة أخرى بسبب عدم تمكنهم من دخول المرحاض.

كنت في طريقي إلى الزناينة حينما سقطت أرضاً فجأة، كاد أن يغمى عليّ من شدَّة الألم في مفصل ساعدي، التفتُّ لأرى من سحب

(1) سورة يس، الآية 9.

العصا من تحت إبطي، فرأيت «حامداً». لقد تحول عكازي إلى هراوة في يده، انهال بها ضرباً على رؤوس الأسرى، وعلى ظهورهم. إضافة إلى كيل الشتائم والسُّباب لهم. كان يأمرهم بترك صف المرحاض، والتوجّه إلى الزنانات للإحصاء، فكان صوته يصدح عالياً: «ادخل، يلاً، بسرعة، قشمار، إحصاء».. لم يحمل حامد الكابل معه، ولم يجد أفضل من عكازي ليحوّله إلى هراوة. صُعِبَ عليّ مشهد ضرب «حامد» للإخوة بعكّازي. فبعض الذين تلقوا الضرب كانوا بمثابة عكازي، أمثال: «حسين مقيمي»، «جلال لحمي»، «عليّ يمانی»، «عليّ كوتشك زاده»، و«حسن كشته كر»⁽¹⁾.

الثلاثاء 20 ك 1988 . تكریت - المخيم الملحق

نزعنا ملاحظاتنا وكتاباتي المهمّة التي كنت قد وضعتها في العكاز، وخبأتها بين طيّات الوسادة الإسفنجيّة، ثمّ اتجهت نحو غرفة رئيس الحراس، ما إن رأني «سعد» حتّى نادى المترجم، شرحت له أحداث البارحة التي شَهِدَها بنفسه في باحة المخيم. لقد شهد كيف انهال «حامد» على الإخوة ضرباً وشتماً. قلت له، كما في السابق دون أيّ مقدمات: سيّدي، لطف منكم إن أعدتم لي العكاز لأستعين به على المشي، لكن «حامداً» استخدمه لضرب الإخوة، وفي الحقيقة، لا أستطيع استخدام عكاز يُضربُ به الإخوة. أنا لم أعد أريده، ويمكنني العيش في هذا المخيمّ دونه».

ظل «سعد» صامتاً مستغرقاً بأفكاره. شعرت بنوع من الرضا؛

(1) الدكتور كشته كر من «زابل» ويعمل حالياً في زاهدان في قسم التصوير الشعاعي.

لأنّني قلت ما عندي، ولأنّني شعرت بأنّني قمت بواجبي. كنت أشكُّ بأنَّ «سعداً» هو خلفَ هذه القضية، وبينما أنا أفكرُ بهذا الأمر، ابتسم «سعد» بخبث، وقال: «لقد أعطاك العراق هذه العصا، ويحقُّ للعراقيين استخدامها ككابل للضرب متى شاءوا».

أدركت أن لا فائدة من كلامي، وأنَّ تصرّف «حامد» أمرٌ عاديٌّ بالنسبة إلى «سعد»، ولو كان غير ذلك لكان أنّبه بعض الشيء؛ لذا قرّرت، وبما أن «سعداً» يدافع عن «حامد»، أن أقوم بشيء يشعرني بالرضا، فقلت لسعد: «أخجل من رفاقي عندما أستخدم هذا العكاز!». - إذا كنت تخجل فلا تستخدمه!

- لن أستخدمه، وإن كنت لا أملك قدماً فأنا أملك يدين اثنتين.

وضعت عكازي بغضبٍ على الأرض، وسرّْتُ من جلوس معتمداً على يدي إلى خارج غرفة رئيس الحراس. انتابني شعورٌ طيّبٌ عندما خرجت من هناك، لم أستطع القفز على قدم واحدة؛ لذا رجعت إلى الزنزانة، وقد وضعت نعلي في يدي اليسرى. أخبرني «فاضل» فيما بعد بأنّه بعد أن وضعت العكاز على الأرض وخرجت من غرفة رئيس الحراس قال «حامد» «لسعد»: «انتقم من ناصر الاستخباراتي هذا، ولا تعطه عصاه قبل شهر أو شهرين»، فقلت لفاضل: «لا يهَم، فسيحلّ الإخوة محل قدمي». مع أن الحياة دون عكّاز في مكان مزدحم كهذا صعبة جداً، لكنّني كنت أشعر بالرضا. في الأسبوع الأوّل كنت أستخدم للسير [في يدٍ] نعلًا واحدًا فقط، وفي اليد الأخرى نصف حجر أسمنتيّ. قال لي «حامد»: «يُمنع إدخال الحجارة إلى الزنزانة»، فمُنعتُ من استخدامها. بعد أسبوع، حلّ الإخوة الذين يذهبون للسُخرة

مشكلتي، فقد أحضر «حسين جعفري» لي كعب حذاء بال. بقيت أكثر من 20 يوماً دون عكاز. لم أشأ أن يُعينني الإخوة في الذهاب إلى المرحاض، وقد أصبح النعل، وكعب الحذاء الذي أحضره لي «حسين جعفري» بمثابة نعلين ليدَيّ، فكنتُ أتنقّل بهما من جلوس. كانت يداي تتنجان أثناء دخولي المرحاض، وعندما أخرج كان الإخوة يريقون مقداراً من حصّتهم من ماء الشرب على يديّ؛ لأغسلهما. أصرّ الإخوة على حملي أثناء التنقّل، لكنني كنت أرفض. قال لي «أحمد أمانداري» بعد أن خرجت من المرحاض: «لَمْ تعاندي؟ دعني أساعدك».

الخميس 22 ك 1988. تكريت - المخيم الملحق

قراة الظهر، دخل الملازم «قحطان»، المعاين⁽¹⁾ في المعتقل، إلى المخيم. كان «قحطان» قصير القامة، سميناً، وهو الضابط الوحيد الذي لم أعرف اسم مسقط رأسه، كان نهماً يتناول على الغداء دجاجة كاملة، أي: ما يساوي 20 حصة أسير. قال «علي أصغر إنتظاري» لحامد، واصفاً الملازم «قحطان»: «رُبّ حريص يملك الدنيا، وهو جائع، ورُبّ قانع بكسرة خبز يشبع»⁽²⁾.

عندما التحق «قحطان» بالمخيم، حاول أن يظهر بمظهر الإنسان الجدّي والفاضب، فكان الأسرى، وحتى الحراس، يدركون أن صوته «كالطبل الأجوف»، لذلك عندما يغضب يصيح ويتوعد، كان «حسين شكري» يقول عنه: «أسمع جعجعة، ولا أرى طحناً»⁽³⁾. وقال «عارف

(1) قد يقصد من المعاين: نائب مسؤول المعتقل.

(2) ترجمة المثل بتصرّف من المترجم

(3) ترجمة المثل بتصرّف من المترجم

يزدان بنائه» عنه: «إنّه كالرعد والبرق دون مطر». كما أن الحرّاس أنفسهم لم يكونوا يهابونه. كان العراقيّون يهابون الضابط «حميد» الذي هو أدنى برتبتين من الملازم «قحطان».

كان «قحطان»، بالإضافة إلى نهمة بالطعام، نهماً أيضاً بما يصنعه الأسرى. فعندما دخل إلى المخيم قال: «زوجتي تحبُّ الصناعات اليدويّة الإيرانيّة كثيراً، فصناعاتكم اليدويّة أنتم الإيرانيين رائعة جداً، ماذا لديكم من أعمال مناسبة للزينة؟»

عندما قال هذا الكلام، أجابه «حسين عبد الله» الذي كان يجلس بالقرب مني: «لقد تكبّدت زوجتك العناء بإعجابها بصناعاتنا اليدويّة، فساجدة⁽¹⁾ أيضاً ستعجب بصناعاتنا اليدويّة إن رأتها». فتش قحطان جميع الزنانات للحصول على صناعات الأسرى اليدويّة، وكان يختار أفضلها وأثمنها، ويأخذها معه؛ لذا سعى بعض الإخوة لإخفاء أعمالهم الثمينة والقيّمة. كان الحرّاس يعرفون من يملك الأعمال الجيدة، وتملّقاً لقحطان كانوا يفتشون أغراض الإخوة، ويعطونه ما يجدونه من أعمال يدويّة، حتّى إنهم.. ودون الالتفات إلى رضا أو عدم رضا الإخوة.. كانوا يسطّون على بعض الأعمال القيّمة. عندما علم «قحطان» بالأمر غضب كثيراً، وطلب منهم أن يعيدوا له كلّ ما أخذوه من أعمال الأسرى اليدويّة.

كان النقيب «خليل» يعارض تصرّفات «قحطان» والحرّاس، وطلب منهم لأجل حفظ ماء وجه العراق أن لا يأخذوا صناعات الأسرى اليدويّة بالقوّة. لم يجرؤ أحد على إخبار النقيب «خليل» بأنّ «قحطان»

(1) ساجدة زوجة صدام المقبور.

وبعض الحرّاس يَعُصُونَ أوامره. لم يشأ الإخوة أن يتسبّبوا بالمشاكل لأنفسهم. كان النقيب «خليل» عفيف النفس، ولا يمكن له أن يتصرّف كما يتصرّف قحطان، كما أنّ الملازم «حميد» كان يتمتّع بروحيّة النقيب «خليل» نفسها. أحضر «قحطان» الأقمشة إلى المخيم، وطلب من الإخوة تطريزها.

صنع الإخوة العديد من الأشياء الثمينة، فمن النايلون صنعوا مفرش مائدة للطعام، ومن علب الصفيح صنعوا مجرفة للغبار، ملاعق ولوحات معدنيّة، ومن خيوط الجوارب، وأكياس الخيش، والمناشف، والبطانيّات، صنعوا قُبَعَاتٍ، شالاً، ثياباً للشتاء، أحزمةً وأحذية، كما صنعوا من الطين أنواع المجسّمات والأدوات، ومن جلد كرات القدم المثقوبة الأحذية الخفيفة، كما صنعوا أجمل المجسّمات الجصيّة، وصنعوا من الخشب غليوناً للسجائر، ولوحات فنية نفيسة. حضر أحد الإخوة مجسّماً لأحد الحرّاس، فأحضر له «سلوان» جميع الأدوات التي يحتاجها للحفر على الخشب، استغرق حضر المجسّم الذي طلبه «سلوان» حوالي شهرين، فكان الأخ يترنّم بالأناشيد أثناء العمل.

استخدم «قحطان» الغليون الخشبيّ الذي صنعه «عليّ يمانيّ» المشهديّ. فقد حضر الغليون بطريقة فنيّة رائعة. كان رأس الغليون عبارة عن تتين يضيفي جمالاً خاصّاً عندما توضع السيجارة فيه.

كان الإخوة، وعبرَ حَفِّ الأحجار العاديّة على أرضيّة الباحة الأسمنتيّة للمخيم، يصنعون أعمالاً فنيّة متعدّدة، وكانوا يقايضون تلك الأعمال، التي يستغرق صنعها أيّاماً وشهوراً، بالدواء والأقلام والورق مع الحرّاس.

قال الدكتور «جمال»: بما أنه علينا إعطاء بعض الأسرى المرضى الدواء، فسنأخذ منهم أعمالهم الفنية مقابل ذلك.

كان بعض الإخوة على استعداد لمقايضة أفضل وأثمن ما صنعوه من أعمال فنيّة بعدد من الأقراص والأدوية؛ لإنقاذ حياة الأسرى المصابين بَحُمى الأمعاء، وغيرها من الأمراض والالتهابات.

لقد توفي في المخيم أكثر من 85 أسيرًا إيرانيًا بسبب إصابتهم بَحُمى الأمعاء، وغيرها من الأمراض غير المعروفة.

أدرك العراقيّون ما هي احتياجات الأسرى، وأدركوا أيضًا قيمة أعمال الأسرى الفنيّة، فكانوا عندما يذهبون في إجازة إلى مدنها، يشترون الدواء بأبْخَسِ الأثمان، ويقايضونه مع أعمال الأسرى اليدويّة القيّمة.

الأربعاء 28 ك 1988 - تكريت - المخيم الملحق

مضى تسعة أيّام، وأنا أتقل دون عكاز. دخل «سعد» إلى الزنزانة، وصفعني صفعًا قويّة على وجهي، وأرسلني إلى الزنزانة رقم (10).

كنت أود البقاء بقرب «محمّد باقر وجداني»، و«علي يماني». وقد انزعجت كثيرًا؛ لأنّ سعدًا أبعدني عن أصدقائي. لم أدر ما حدث؟ عندما نادى «فاضل» علمت سبب غضبه، لم أكن أعلم أن قراءة شعر «صادق آهنگران» ستسبب لي المشاكل، قبل أن أجمع أغراضني وأنتقل إلى الزنزانة رقم (10)، أخذني إلى غرفة رئيس الحراس؛ حيث بقيت في إحدى زواياها حوالي نصف ساعة ريثما يصل الملازم «فاضل».

وعندما جاء أخبره سعدٌ بالأمر. كان العراقيّون يعرفون «آهنگران»

جيداً، فقال الملازم «فاضل» لحامد: «بما أننا لا نستطيع الوصول إلى بلبل الخميني فلنضرب هذا».

أخبر بعض الأسرى العرب الضباط العراقيين بأن «آهنكران» هو السبب في مجيء عناصر التعبئة إلى الجبهة، فسألني الملازم «فاضل»: هل صحيح أنه عندما ينشد «بلبل الخميني» تتوجهون جميعكم إلى الجبهات لقتل العراقيين؟

- ليس الأمر كذلك، فنحن عناصر التعبئة جئنا إلى الجبهة من أجل الإمام وإيران، لكن لا يخفى تأثير «آهنكران» على أحد.

في ذلك اليوم، أصرّ الملازم فاضل عليّ لأنشد الأشعار التي كنت أنشدها للإخوة في الرزانة، ففعلت ذلك. كان الأمر صعباً عليّ، لقد تصرفت بصبيانية وعدم نضوج، فقد أنشدت أشعاراً تسببت لي بمشاكل عظيمة. لم يستطع الجواسيس حفظ تلك الأشعار بدقة، لكن معاني تلك الأشعار أشعلت غضب العراقيين عليّ. فالأشعار التي أنشدتها ذلك اليوم. وكما قال «عليّ يمانى» كانت من «العيار الثقيل»: «سنجعل صدام يندم، سنقاتل كل الأعداء»، «طريق القدس تمرّ من كربلاء، علينا العبور من أمام ضريح قطيع الرأس، تقدّم أيها الأسد المقاتل، وحرّر الوطن من الأعداء».

اعتقدت أنه قُضي عليّ، وقلق الإخوة عليّ كثيراً. يحقّ للعراقيين أن يغضبوا كل هذا الغضب. في السابق أنشدت أشعار «آهنكران» للإخوة في مستشفى الرشيد، حينها أنقذني «لطيف دهقان»، مع أن ترجمة «لطيف دهقان» غير الصحيحة لتلك الأشعار كادت أن تُطيح به. كان يقول لي دائماً: «صوتك يشبه صوت آهنكران» وتتشد مثله، فاحذر من

أن تتسبَّب لنفسك بالمشاكل».

وَعَدْتُ لَطِيفًا بِأَنْ لَا أَعُودَ إِلَى ذَلِكَ مُجَدِّدًا؛ لَكِنْ لَا أَدْرِي لِمَاذَا لَمْ أَسْتَطِعَ ذَلِكَ. لَمْ أَمْلِكْ شَيْئًا لِادِّافَعِ بِهِ عَنِ نَفْسِي، وَلَمْ أَعْتَقِدْ أَنَّ مِنْ بَيْنِ مَنْ كُنْتُ أُنَشِدُ لَهُمْ سَيَقُومُونَ بِخِيَانَتِي. دَوَّنَ «سَعْد» بَعْضَ مَعَانِي تِلْكَ الْأَشْعَارَ وَقَرَّأَهَا لِي. لَمْ تَكُنْ دَقِيقَةً، لَكِنَّهَا صَحِيحَةٌ. لَشِدَّةُ غَضَبِهِ مِنِّي، طَلَبَ «فَاضِل» مِنْ «حَامِد» أَنْ يَضْرِبَنِي. وَضَعَ «حَامِد» النَعْلَ عَلَى رَأْسِي، وَقَالَ: «سَأُضْرِبُكَ بِالْكَابِلِ 30 ضَرْبَةً عَلَى يَدِكَ عَلَى أَنْ لَا يَسْقُطَ النَعْلُ عَنْ رَأْسِكَ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يَسْقُطُ النَعْلُ سَتَتَلَقَّى 10 ضَرْبَاتٍ إِضَافِيَّةً». سَقَطَ النَعْلُ مَرَّتَيْنِ عَنْ رَأْسِي، وَتَلَقَّيْتُ 20 ضَرْبَةً إِضَافِيَّةً. عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ «حَامِدًا» عَاقَبَنِي، إِلَّا أَنَّ «وَلِيدًا» لَمْ يَسْمَحْ لِي بِالْعُودَةِ إِلَى زَنَرَانَتِي. كَانَ يَنْتَظِرُ «شَفِيقَ عَاصِمٍ»، ضَابِطَ قِسْمِ التَّوْجِيهِ السِّيَاسِيِّ، الَّذِي وَصَلَ بَعْدَ حَوَالِي 15 دَقِيقَةً. كَانَ «شَفِيقَ عَاصِمٍ» قَدْ وَصَفَ الْإِيرَانِيِّينَ قَبْلَ عِدَّةِ أَيَّامٍ بِأَنَّهُمْ مَجُوسٌ وَكُفَّارٌ، وَأَنَّ الْعِرَاقِيِّينَ هُمُ الْمُسْلِمُونَ الْحَقِيقِيُّونَ، فَقُلْتُ لَهُ: «يَا سَيِّدِي، إِنْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ الْمُسْلِمُونَ، وَنَحْنُ الْكُفَّارُ، فَلِمَ تَضْرِبُونَنَا إِنْ أَقْمَنَا صَلَاةَ الْجَمَاعَةِ وَالتَّعْزِيَةَ لِأَهْلِ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ؟!»

أَمَرَ «شَفِيقَ عَاصِمٍ» «وَلِيدًا» بِإِخْرَاجِي مِنَ الْغُرْفَةِ وَمَعَاقِبَتِي. كُنْتُ أَرْغَبُ فِي أَنْ يَعَاقِبَنِي حَارِسٌ آخَرُ غَيْرِهِ، فَقَدْ تَلَقَّيْتُ عَلَى يَدَيْهِ قَبْلَ عِدَّةِ أَيَّامٍ ضَرْبًا مُبَرِّحًا.

فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، انْقَضَ «وَلِيد» كَالْوَحْشِ عَلَى أَحَدِ الْإِخْوَةِ، وَضَرَبَهُ ضَرْبًا قَاسِيًا، كَانَ ذَلِكَ الْأَسِيرُ مِنَ الْإِيرَانِيِّينَ الْأَتْرَاكِ التَّبْرِيزِيِّينَ، شَابًّا نَحِيلَ الْجِسْمِ، وَطَوِيلَ الْقَامَةِ. ضَرَبَهُ وَلِيدٌ بِقَبْضَةِ يَدِهِ عَلَى أَنْفِهِ

فسالت دماؤه، ولوئت قميصه. سألت عن السبب، فأخبرني «حسين رحيمان» أن الأسير التبريزي قد صنع سُبْحَة جميلة من نواة التمر، أراد وليد أن يأخذها منه بالقوّة، فلم يقبل الأسير، وقال لوليد: لقد صنعت هذه السُبْحَة لوالدتي.

فقال له «وليد»: وهل من المقرر أن يُطلق سراحك حتّى تصنع سُبْحَة لوالدتك؟! فأجابه الأسير: في نهاية الأمر سوف نُحرّر، ولن نبقي هنا، أعطيتها لك إذا بقيت هنا لعدّة سنوات أخرى. وبينما كان وليد يسحب السُبْحَة بالقوّة من يده انقطع خيطها، وانفطرت حباتها على الأرض، غضب وليد كثيرًا، وضربه بقبضة يده على وجهه. عندما رأيته مُدْمَى، في ذلك اليوم، انزعجت كثيرًا، وسألت «حسيناً» عمّن فعل به هذا؟ فقال: «وليد»، فقلت له: «وليد» ليس إنساناً، بل وحشٌ، ومكانه في حديقة الحيوانات، وليس في المخيم. وصل كلامي هذا إلى مسامع «وليد» فجاء إليّ وصفعني بقوّة على وجهي، وقال: أنت «كندره»⁽¹⁾ يا ناصر الاستخباراتي، من الذي مكانه في حديقة الحيوانات؟

عندما أمر «شفيق عاصم» «وليداً» بمعاقبتي، كنت أعلم أنه لا يزال يحقد عليّ بسبب ذاك الكلام، إضافة إلى طبيعته الحقودة. لقد أراد معاقبتي بعيداً عن أعين الأسرى. أخذوني خارج المخيم، كان وليد حائقاً جداً، حدّق بي، وقال: «سأريك حديقة حيوان، تتمنّى لو كنت فيها فعلاً». طأطأت رأسي كي لا يزداد غضبه عندما أحدّق به. كان «وليد» يحمل كابلاً كهربائياً بطول متر ونصف، رماه بعيداً، ثم أمر بتقييد يديّ خلف ظهري، عندما أنهى «ماجد» تقييدي، قال لي:

(1) تعني الحذاء، والقصد هنا الشتيمة.

«اذهب، وأحضر الكابل بفمك»، وكان «فاضل» يترجم له. منذ مدة انغرس أظفار قدمي في اللحم، والتهبت، فلم أكن قادراً على القفز بقدم واحدة؛ لذا قلت لفاضل: لقد عاقبني «حامد» في غرفة رئيس الحراس، فقل «لوليد» أن يختار لي عقاباً آخر. حاول «فاضل» أن يقنعه بالعدول عن ذلك، لكن دون جدوى. على الرغم من العذاب، وألم القفز على قدم واحدة، وصلت إلى الكابل، وحملته بأسناني. كنت أفقد توازني أثناء القفز على قدم واحدة، فيسقط الكابل من فمي، وأضطر للتمدد على الأرض، وحمله بأسناني ثانية إلى أن وصلت إلى «وليد»، ورميت الكابل أمام قدميه. ومن أجل أن يثير حنقي أكثر فأكثر، قال لي: «كرّر ذلك ثانية».

لقد كرّرت ذلك أكثر من 10 مرات، فتعفّرت ثيابي بالتراب. كان هذا العقاب صعباً جداً على شخص بقدم واحدة، مقيد اليدين من الخلف؛ إذ كان عليّ في كل مرة يسقط فيها الكابل من فمي، التمدد على الأرض لأتمكّن من حمله ثانية، ومن ثمّ كنت أتكئ على الجهة اليسرى من جسمي، وأجلس. إلى هنا كان الأمر سهلاً، لكن كنت أجد صعوبة بالغة في الوقوف، إذ كان عليّ بذل قصارى جهدي كي أتمكّن من الوقوف. في المرّات الأخيرة قلت لـ «فاضل»: «قل لوليد أن يجلدني بالكابل، فذلك أهون عليّ».

فقال «وليد»: «هل ستقلد بلبل الخميني ثانية؟!»

- سأسعى جهدي أن لا أفعل.

- من مكانه في حديقة الحيوانات؟

- القردة، والحيوانات البريّة، مكانها في حديقة الحيوانات.

قال «فاضل»: اعتذر منه، قل أنك أخطأت، فقلت «لفاضل»: حتى لو فعلت ذلك فلن يدعني وشأني.

اعتذرت «وليد» بإصرار من «فاضل». خارت قواي، وسقطت على الأرض في مكاني. لم ينته عقابي بعد، فقد أراد «وليد» أن أكرّر ذلك ثلاث مرّات أخرى، حتّى لو أدى ذلك إلى هلاكي، لم أعد قادرًا على الاستمرار، كان فمي وفكي يؤلماني كثيرًا، وقد تسارعت أنفاسي. سعدت؛ لأنّه تركني وشأني. لقد كانت تجربة جيّدة؛ كي أنتبه لتصرفاتي، فلا أنشد «لاهنكران»، أو أقول: إنّ مكان وليد هو في حديقة الحيوانات. عندما هدأ «وليد»، قال: «هذا المعتقل هو حديقة حيوانات، وجميع من فيه هم حيوانات، ونحن نقوم بحراستكم أيّها الحيوانات».

كنت مضطّرًا كي لا يؤذيني ثانية أن ألزم الصمت. لكن كنت أقول في نفسي: «أنت وأجدادك هم الحيوانات».

فكّ «فاضل» قيد يديّ، وعندما كنت أسير نحو المخيم، قال لي «وليد»: «قف».

وقفت معتقدًا أنّه يريد أن يستكمل تعذيبي. عندما ألتفتُ إليه قال:

- سأسألك سؤالاً يا «ناصر الاستخباراتي»، فهل ستقول الحقيقة؟

- أجل، أقول الحقيقة!

- لو كان معك الآن بندقيّة ماذا كنت ستفعل بي؟

أدركت ما يرمي إليه، فهو يعلم مدى كرهه له. كان يوّد أن أُعبر عن ذلك الكره. سكّ، وفكّر مليًّا فيما يجب قوله، لم أكن أرغب بالإجابة، وكنت أدرك أنّه في تلك الظروف ينبغي أن لا أُعبر عن مشاعري الحقيقيّة. لقد كنت مشمئزًا منه، ومن تصرفاته، لكن كي

يدعني وشأني قلت له:

مكان البندقية في جبهات القتال، كما أنني هنا لا أملك بندقية لأستخدمها.

أصرّ بأن أجيب عن سؤاله، ولم يكن ليدعني وشأني قبل أن أعطيه الجواب، ولم يسمح لي بالعودة إلى المخيم أيضاً، حاولت أن أجيب بتعقل ووعي، وكنت أفكر فيما أقوله، فتابع: «إلى أي مدى تكرهني؟» حاولت عدم المغالاة في الإجابة فقلت له: «كرهني لك لن يضرّك في شيء، فما أهمية أن يكرهك أسير، أو أن لا يكرهك؟»⁽¹⁾

- لو أطلق سراحك في يوم ما، وعدت إلى إيران، فماذا ستفعل لو رأيتني هناك؟

فرحت كثيراً عندما سألتني هذا السؤال، ومع أنني كنت أمقته كثيراً، ولكن يشهد الله بأنني إن تحرّرت في يوم من الأيام، والتقيته في إيران، فسيختلف الحال حينها.

قلت له: «أنا مستاء منك لأنك تُعذّبنني، لكن إن التقيتك في إيران فسأدعوك إلى منزلنا، وأستضيفك قدر استطاعتي»⁽¹⁾.

- أنت تقول هذا لأنك أسير.

- لو قدّر لي وأطلق سراحي وعدت إلى إيران، ثم التقيتك هناك، وهذا أمر مستبعد، عندها ستري بأننا نحن الإيرانيين لسنا سيئين كما تعتقدون.

(1) عندما كتبت مذكراتي عام 1991 قررت أن أهدي الكتاب إلى وليد، وقلت في نفسي: يا ليتني حينما سألتني وليد عما سافعله إن التقيته في إيران، أجبته بأنني سأكتب مذكراتي وأهديها لك.

الجمعة 1 لك 2 1988 - تكریت - المخیم الملحق

قايضت اليوم سبّحتي بنصف قلم رصاص مع «سلوان». تساوي سبّحتي التي صنعتها من نواة التمر أكثر من 10 دنانير، بينما لا يساوي نصف قلم الرصاص أكثر من مئة فلس⁽¹⁾.

منذ عدة أيام وأنا لا أملك قلم رصاص، ولا قلم حبر كي أكتب به. كنت أودّ الاحتفاظ بسبّحتي كي أقدمها لوالدي يوم يُطلق سراحي. كنت أرغب أن يسبّح والدي بالسبّحة التي صنعتها له من نواة تمر العراق، لأنني أشعر بأنّ نخيل العراق سيحيي في داخله ذكرى الأئمة عليهم السلام. استغرق صنعها حوالي شهرين. فرح «سلوان» كثيراً؛ لأنّه حصل على سبّحة جميلة مقابل نصف قلم رصاص، وقد هدّدني بقطع لساني إن أخبرت أحداً أنّني أخذت قلم الرصاص منه. أراد أن يعرف كيف صنعتها دون استخدام أية أدوات خاصّة.

شرحت له كيفيّة الصّنع، وقد تولّى «خالد محمّدي» أمر الترجمة: «في البداية، ننقّع نواة التمر في الماء لمدة 40 ساعة تقريباً كي تصبح لينّةً وجاهزةً للحفّ، ثم نصّب بعض الماء على قسم من أرضيّة السجن الأسمنتيّة، وبعدها نقوم بحفّ نواة التمر عليه، فنعطّيها الشكل الذي نريد. يجب أن تكون جميع نواة التمر بالحجم نفسه. في المرحلة الثانية نستعين بأداة ذات رأس حادّ لنقش الرسم الذي نرغب عليها. كان أغلب الأسرى يحضرون عليها أسماء الأئمة عليهم السلام. في المرحلة الأخيرة نصنع ثقبين من طرفي نواة التمر، ثم ندخل الخيط فيها».

(1) كل ألف فلس يساوي ديناراً عراقياً واحداً.

الأحد 8 ك2 1989 - تكريت - المخيم الملحق

كنت أشعر بضيق، فقصدتُ «حسن بهشتي بور»، فحديثه، ونصائحه تمنحُ الإنسان الطمأنينة والسرور. كان وجوده نعمةً في المخيم الملحق. أنشدَ لي الشعر الذي نظمَه بمساعدة «بهزاد روشن». الشعر الذي عُرف فيما بعد باسم «شعرُ الشاعرين».

كان «بهشتي بور» عندما يصل لبعض الأبيات والمصارع، يقدم لي النصائح. لقد ملأ قلبه قيحاً من بعضهم.

فكرّر هذا البيت مرّتين:

ابحثْ عن الشجاعة والكبرياء في شمعة

تحترق وتذوي شامخةً منتصبّة القامة.

قال: على الإخوة أن لا يستسلموا في الأسر، في التضحية والعطاء، وأن نتعلّم المروءة من الشمعة، أن يحترق الإنسان لكن بشموخ. إن أراد الإنسان أن لا ينحني أمام أيّ عدوّ، أو أيّ حقير، فعليه أن يتعلّم التضحية والصمود من الشمعة. الشمعة التي تحترق وتذوب بشموخ، تحترق بكلّ مروءة حتّى النهاية، تحترق ولا تنكسر حتّى النهاية. لكن بعضاً ممّا ينكسر بكلّ سهولة. ليتنا نتخذ الشمعة مثلاً لنا في الاحتراق والعطاء، في المروءة والصمود.

الشعر الذي أنشده «بهشتي بور» لي اليوم وفي الأيام التالية:

خسرتُ العزَّ والغرورَ والشموخ	خسرتهم يوم فقدت رشاشي
وتراكم غبار الهوان على سلاحي	واكفهرَّ الوجه مذ خسرت رشاشي
يوم شهدت السماء قصّة غيرتي	نثرتُ كلّ كبريائي فتناثرت آمالي

لم أملك الشجاعة لأختار الموت فعشتُ الهوان وخسرتُ الشهادة
ابحثُ عن الشجاعة في شمعةٍ تحترق وتذوي شامخة منتصبه القامة

الاثنين 9 ك 2 1989 - تكريت - المخيم الملحق

صباح اليوم أعادوا لي عكازي. لم أعلم حينها من أخبر الملازم
«حميد» بأنني دون عكّاز. لكن علمت فيما بعد أنّه الدكتور «مؤيد». لم
يعلم الملازم أنّ الحراس أخذوا منّي العكّاز، وأنّني أردتُ ذلك؛ لأنّ
«حامداً» كان يضرب به الإخوة. كان «حميد» يقدر مدى معاناتي، فقدّمه
الثانية كانت اصطناعيّة. لقد خسرها خلال عمليّات «والفجر8».

الأربعاء 18 ك 2 - 1989 تكريت - المخيم الملحق

لم يستطع أغلب الإخوة الذهاب إلى المرحاض بعد ظهر البارحة⁽¹⁾؛
لذلك اضطروا إلى التبول في أكواب شرب الماء، فمع بداية فصل
الشتاء، وبرودة الهواء لم يكن أمام الإخوة الذين يعانون من التبول
اللاإراديّ، أو من أمراض الكلى والمثانة، أو الإسهال الحادّ، إلّا
استخدام أكواب الشاي الخاصّة بهم لقضاء الحاجة. فقد كنّا نقضي
حوالي 14 ساعة دون الذهاب إلى المرحاض، أي: من الساعة السادسة
عصرًا وقت إحصاء الأسرى حتّى الثامنة صباحًا.

كان بعض الإخوة مضطرين لاستخدام صفائح السمن سعة 5
كلم، أو حتّى أكياس المصل، وعلب الفاكهة، ورُبّ البندورة لقضاء
حاجاتهم، مع العلم بأن الاحتفاظ بتلك الصفائح والعلب كان ممنوعًا.

(1) كان يمنع الأسرى من الخروج إلى المراحيض في غير الأوقات المخصّصة لذلك عند العدّ والإحصاء.

لكنَّ الإخوة كانوا يخبئونُها تحت بطانيَّاتهم بعيداً عن أعين الحراس. يومها كنت استخدمُ علبة معلّبات الكرز، لكن بعد أن أخذوها مني، أُجبرْتُ، كبقية الإخوة، على استخدام كوب الماء المعدنيّ. في الأسبوع الماضي كان «سلوان» يتناول الكرز المعلّب، وكنت أنظرُ إليه. أدركت من نظراته لي أنّه يظنُّ أنّي أَشتهي تناول الكرز المعلّب. كان على حقّ، فقد أَشتهيْتُ الكرز، لكنَّ نظراتي «سلوان» كانت لأجل العلبة أيضاً. أعطاني «سلوان» العلبة، وقد ترك فيها أربع أو خمس حبّات كرز، وقبل أن انتهي من تناولها كنت أفكّر بالعلبة. كنت ما أزال استخدم علبة الكرز حتّى هذا اليوم، فالليلة الماضية، وكالعادة استخدم أغلب الإخوة أكوابهم المعدنيّة، وعلب المعلّبات لقضاء الحاجة .

بعد صلاة الصبح، وقبل إحصاء الصباح، جمع الإخوة الأكواب والعلب في زاوية الزنزانة، ووضعوا عليها قطعة من الكارتون، ثمّ وضعوا عليها البطانيّات بعد توضيبيها. مع كلّ تلك التدابير الاحترازيّة لم تكن ندري ما العمل برأئحتها الكريهة. فقد أصبحت رائحة الزنزانة مُقرّزة جدّاً. وكان الإخوة يتحيّنون الفرصة لإفراغها في المراحيض بعد إحصاء الصباح.

دخل «سعد» في الصباح الباكر إلى الزنزانة من أجل الإحصاء، فاكتشف من خلال نظراته الفاحصة الأمر، لكنّه لم يُبدِ أيّة ردة فعل. بعد أن خرج من الزنزانة، قال للمسؤول أن لا يخرج أحد من الزنزانة قبل أن يسمح هو بذلك.

عند انطلاق صفارة الخروج من الزنزانات أسرع الأسرى بالأكواب

نحو المراحيض، كان «حامد ووليد وسلوان وماجد» بانتظارهم عند مدخل المرافق الصحيّة. فقال «حامد»: «قفوا كلُّكم». وقف الإخوة، فقال لهم «وليد»: «نحن نعلم أنكم تتبولون في أكوابكم».

كان الإخوة ينوون إفراغ الأكواب في المراحيض قبل توزيع الفطور والشاي؛ فيتمكنوا من الحصول على حصّتهم من الشاي. كانوا مضطّرين لشرب الشاي في الأكواب التي تبولوا فيها الليلة الماضية. كما أنّ أغلب الإخوة الصائمين كانوا يحتفظون بحصّتهم من الغداء داخلها إلى حين الإفطار والسحور. كنّا نغسل الأكواب بالماء دون استخدام سائل الجلي، أو أيّ منظف آخر، ولهذا السبب أصيب العديد منّا بحمّى الأمعاء. قال «حامد»: «ليصبّ كلُّ منكم كوبَ بوله على رأسه». اعترض الإخوة على ذلك، فقال وليد: «عليكم الاغتسال ببولكم».

كان «حامد» يضع قطعة من النيلون في يده، فأخذ أكواب بعض الإخوة وصبّها فوق رؤوسهم. كان المنظر رهيباً أمام الزنازة رقم (1)، وقرب مدخل المرافق الصحيّة، فقد انتشرت النجاسة في كلّ مكان. رمى الحراس من خلال تصرّفاتهم هذه إلى عدم تكرارنا للأمر. قلت «لسعد» الذي كان يقدرني أحياناً بسبب حالتي: لو كنت مكاننا أفما كنت لتبول في كوبك الذي تشرب فيه الشاي أو الماء؟!

وعندما لم يجب قلت له: «أعتقد أنّنا نرغب في فعل هذا طوعاً؟» طوال المدّة التي قضيتها في المخيم الملحق كان هذا المشهد يتكرّر، وخاصّة في فصل الشتاء.

الجمعة 20 ك 1989 - تكريت - المخيم الملحق

كان الهواء بارداً جداً، وهطل المطر والبرد بشكل متفرّق. هطول المطر وهبوب الرياح الباردة جعلت الإخوة يحتمون ببطانياتهم. كان العديد ممّن يعانون من مشاكل في المثانة والتبول اللاإرادي يتبولون في أكوابهم، وأمّا غيرهم، وكي لا يتعرّض للضرب، فكان يقضي الليلة بمثانة ممتلئة حتّى الصباح.

لقد ابتكرنا طريقة جديدة للتخلّص من البول، فالأشخاص الذين يُضطرون للتبول ليلاً يستخدمون أكياس المصل وعبوات ربّ البندورة الفارغة. البارحة أخذتُ من «فاضل رحيم» كيس مصل فارغ. جلست آخر الليل أمام باب الزنزانة لإفراغ البول من الكيس، وذلك عبر ثقب بجانب القفل إلى الباحة الخارجية للمخيم، كنت أريد الاستفادة من المطر كي أخفي آثار البول، كانت نوبة «حامد» في الحراسة تلك الليلة، وكان يسير في ممّر السجن، فرأى آثار البول أمام باب الزنزانة. يبدو أنّ عمليّة التخلّص من البول من ثقب الباب لم تجري بالطريقة الصحيحة! وكان «حامد» يراقب الأمر، فأنحنى ليراقب ما يجري داخل الزنزانة من خلال الثقب في الباب، ولم أعلم أنّه يفعل ذلك، وكانت عمليّة ضخّ البول على نهايتها عندما سمعت صياحه، فقد رششت البول، دون قصد منّي، على عينيه ووجهه.

في اليوم الثاني أخذني «حامد» إلى الخارج، وعاقبني هذه المرّة بطريقة خاصّة، فبعد أن صفعني عدّة صفعات على وجهي، قضى لي بخمسين جلدة. وقفتُ قرب حائط الزنزانة، وقبل أن يبدأ بجلدي، وضع على ظاهر كفّ يدي كوباً من الماء وبدأ بضربي على يدي اليسرى،

وقال لي: في كل مرة يسقط الكوب فيها ستتلقى 10 جلدات إضافية. العقاب نفسه نُفذه قبل مدة في غرفة رئيس الحراس، لكنّه في تلك المرة وضع النعل على رأسي بدل كوب الماء. على الرغم من أنّني حاولت جهدي لكي لا يسقط الكوب عن يدي، فإنّه سقط 4 مرات، وكان «حامد» يغيّر مكان الكوب من يد إلى أخرى مع كل 10 ضربات. حاول الإخوة التّضحية من أجلي، والقول بأنّ الأمر لم يكن فعلتي، لكنني لم أقبل بذلك.

فمن المؤكّد أنّ جواسيس الزنزانة سيخبرون «حامدا» بأنّها فعلتي، حينها سأعاقب أنا والرفيق الذي حاول التّضحية لأجلي.

الفصل الثامن:

تكریت - المخيم (16)

الأحد 22 ك 1989 2 - تكریت - المخيم (16)⁽¹⁾

بعد الظهر، أصدر «سعد» أوامره بالاستعداد للانتقال. كل ما أملكه كان كيساً واحداً، وكوباً معدنيّاً، وجلباباً (دشداشة عربيّة). كنت أتمنّى أن أنتقل إلى مكان لا وجود لـ «وليد» فيه. فالحياة من دونه كانت جميلة بالنسبة إليّ، وكنت أشعر بالارتياح لذلك، ووليد نفسه كان يعلم ذلك، لا أدري كيف قرأ أفكاري حينها، وليستقرّني نادي «وليد» المترجم، وقال: «ناصر الإستخباراتيّ! سألحق بك أينما ذهبت».

شعرتُ بالانقباض. كنت أتمنّى التخلّص من شرّه! وكأنّ مصيري كان مربوطاً به!

نُقلنا إلى العنابر، تقع العنابر الخمسة «للمخيم 16» إلى الشرق من ثكنة صلاح الدين، كانت تحيط بها أسلاكٌ شائكة دائريّة، أبراجٌ صغيرة للحراسة، وعددٌ من العربات المدرّعة. وكان المخيم محاطاً بدائرة حماية مُحكمة. وقد نُصبَ فوق باب كلّ عنبر كشّاف بروجكتور كبير. كان العنبران، (1) و(2) متلاصقان، وكان لهما فناء مشترك،

(1) ضم المخيم (16) معتقلاً للأسرى الإيرانيين.

مخصّص للمشّي. أمّا العنابر رقم (3)، (4) و(5) فتقع على مسافة 100م لجهة الجنوب، وكانت مفصولة بأسلاك شائكة كثيفة. كان عنبرنا يحوي خمسة مراحيض، وخمسة حمامات، وكانت المرافق الصحيّة تقع إلى الجهة الشرقية للعنبر.

كانت هذه العنابر في فترة الحرب (مقرّاً) لحفظ الدبّابات، والآليات المدرّعة لألوية الفيلق العراقيّ الثالث، وفريقه. وكانت بعض أقسام ثكنة صلاح الدين مكاناً لتدريب القوّات الجويّة.

كان لكلّ خمسة عنابر مطبخ مشترك، وكان المطبخ يقع إلى جانب مدخل المخيم. أمّا غرفة رئيس الحراس فكانت أمام مدخل العنبر.

كان عرض مدخل العنبر لا يتجاوز متراً واحداً. فعندما كان صوت الصفّارة ينطلق مؤذّناً بالدخول، كان العراقيّون، بحجّة الإحصاء، ينهالون على الشباب ضرباً بالأسلاك (كابلات الكهرباء) والهراوات. وحين دخول العنبر، غالباً ما كان الضرر يصيب المجروحين، وكبار السنّ.

في القسم الأعلى لمدخل العنبر كانت توجد فتحة صغيرة بحجم (40x30) سم، وكان الحراس يراقبون أعمالنا من خلالها ليلاً ونهاراً.

كانت الحياة في العنبر مختلفة عنها في معتقل «المخيم الملحق»، فكلّ عنبر كان يضمّ أكثر من ألف أسير. كنّا من أجل الإحصاء نجلس في عشرة صفوف، كلّ صفّ مؤلّف من مئة شخص، ليأتي أحد القادة أو الضباط ويحصي عدداً. كان الجرحى وكبار السنّ يجلسون في آخر الصفّ، ولم يكونوا يسمحون لنا بالانصراف ما لم ينهوا إحصاء العنابر الخمسة عند كلّ نوبة إحصاء، وكنا نبقي واقفين في الصفّ مدّة ساعتين.

كان الجلوس في الصفّ من أجل الإحصاء صعباً على الجرحى، والمستنّين، والأشخاص الذين يعانون آلاماً في الظهر.

الاثنين 23 ك 1989 . تكريت . المخيم 16

كانت الليلة الثانية لإقامتنا في العنبر، وقد انتظم أمره. لم أكن أعرف الكثير من الأسرى. فقد قُسم العنبر إلى اثنتي عشرة مجموعة، تتألف كل واحدة من 90 أسيراً. ست مجموعات مؤلفة من تسعين أسيراً في الجهة اليمنى، وست مجموعات مؤلفة من تسعين أسيراً في الجهة اليسرى. أمّا وسط العنبر فكان مخصّصاً للمشى ليلاً، ومكاناً لإحصاء الأسرى نهاراً. أمّا مكان نوم الجرحى والمرضى وسكناهم فكان في مؤخرة العنبر إلى الجهة اليسرى.

شعرت بالانقباض؛ لأنّ «وليداً» كان أحد حراس عنبرنا من بين العنابر الخمسة. كان كظلي، يتبعني أينما كنت أذهب.

تعجّبت كثيراً من رؤية أسير لم يتجاوز التاسعة من العمر. ظننت أنّه ابن أحد الحراس، وقد جلبه معه إلى المخيم. وقد أثار فضولي قولهم: «إنّ هذا الصبيّ ذا السنوات التسع أسير»، فقد كان أصغر أسرى المخيم، ويدعى «أمير». كان «أمير» هذا من إحدى قرى «إيلام» الحدوديّة، وقد وقع في الأسر مع أخيه «إبراهيم».

ذهبت آخر الليل إليه، وقد أخبرني قصّة أسره، أخذه العراقيّون وأخاه على حين غفلة. رجا أخوه الأكبر «إبراهيم» العراقيّين أن يأخذوا الخراف بدل أسرهما، فلم يقبلوا. عندما أنهى العراقيّون تحميل الخراف، طلب «إبراهيم» إليهم أن يأخذوه هو، وأن يتركوا أخاه وشأنه.

لم تجدِ محاولاته نفعًا!

كنت أُنْفِهم «أميرًا»، فقد أصبح منزويًا. حاولت أن أوْمِّله بالحياة والحرية. كان مشتاقًا في هذه الليلة إلى عائلته. كانا ابني أخ «العم إبراهيم».

كان العم إبراهيم، الرجل الإيلامي السبعيني، يعتني بـ«أمير»، وكان أكبر أسرى العنبر سنًا، وهو رجلٌ مسنّ نحيف، ومظلوم. كانت عظام وجهه بارزة، وقد ابيضَّ شعرُ رأسه ولحيته بتمامهما. وقع العم «إبراهيم» في الأسر عندما كان يبحث عن ابني أخيه «أمير وإبراهيم» في الخطوط الأممية، بالقرب من الحدود.

في هذه الليلة، قام الحاج «سعد الله كل محمدي»⁽¹⁾ أثناء الإحصاء من مكانه، من دون أخذ الإذن من حراس العنبر، وشرع بالكلام. كان العراقيون يستأوون من تكلم الأسرى مع قائد المخيم من دون أخذ إذن مسبق. أذن النقيب «خليل» للحاج «سعد الله» أن يقول ما عنده، فغالبًا ما كان يحترم الأسرى المسنين، والحاج «سعد الله» هو الأكبر سنًا في العنبر بعد العم «إبراهيم». كان رجلًا سمينًا ومربوعًا، يتمتع ببنية قوية، أصيب برجله في شلمشة، وعلى الرغم من إصابته، أطلق ضابط عراقي النار عليه من مسدّسه، فأصاب ستّ طلقات بطنه ورجله، وكأنّه كان يريد أن يقضي على الحاج، لكنّ إرادة الله شاءت أن يبقى على قيد الحياة. كان الحاج «سعد الله» بتلك الجثة الثقيلة يتنقل بصعوبة متكئًا على عصاه. ودائمًا ما كان يقول الحق، ولا يخشى شيئًا. تلك الخاصية التي طغت على سائر سجايه الفاضلة. كان بالنسبة

(1) عمل بعد التحرر في معمل لربّ البندورة «يك ويك» في كركان.

إلينا أبا معنويًا. كان يطيل في صلواته، وخاصّة القنوت. كنّا ننتظره على العشاء ليحضر إلى المائدة. عندما كان يتأخّر كنت أقول له:

- إنك تطيل في صلاتك كثيرًا!

- أرجو، إن قدّر لي أن أموت في هذا المخيم، أن يكون العمل الأخير لي حين الموت هو العمل الصالح.

أوليس من المؤسف أن نموت نحن البشر الذين حُرنا مقام خلفاء الله ونحن في حال الغيبة، والكذب، والتجسس، والوشاية بغية الحصول على عدد من السجائر؟

الليلة، قال الحاجّ «سعد الله» للنقيب «خليل»: ليس لدينا اعتراض أو شكوى، إنّ كلّ ما أصابنا فهو بفعل أيدينا، نحن أسرى حرب، وقد أتينا إلى الحرب بملء إرادتنا. ولكنكم أسرتم هذا الصبيّ ذا السنوات التسع، وأحضرتموه إلى هذا المخيم، هل هذا العمل يمتّ إلى الإسلام بصلة؟

لم يكن لدى النقيب «خليل» شيئاً ليقوله، فقد كان إنساناً منطقيًا، وحياديًا، قليل الكلام، يقبل الكلام المنطقي، لكن لا يجيب عليه، لا يسعى إلى تبرير أعمال الآخرين. عندما ناقش الحاجّ «سعد الله» الموضوع من النواحي العاطفيّة، قال للنقيب «خليل»: «سيدي! إذا أسرا الإيرانيون طفلك ابن التسع سنوات على الحدود، فماذا سيكون حالك؟ كم كنت ستألم؟»

فأجاب قائلاً: «لم أكن أنا الذي أسره، وحرية هذا الطفل ليست بيدي، سأطلب من المسؤولين إطلاقه، ولا أعلم كم سيؤثر ذلك، فالقرار النهائي يُتخذ في بغداد».

الثلاثاء 31 ك2 1989 - تكريت - المخيم 16

طُفَى على صحف اليوم خبر عائد إلى 26 عامًا مضت. في مثل هذا اليوم قام البعثيون بقيادة الجنرال عبد السلام عارف بانقلاب أطاحوا فيه بحكم الجنرال عبد الكريم قاسم.

الجمعة 3 شباط 1989 - تكريت - المخيم 16

أصرّ الحاجّ «سعد الله كل محمّدي» على أن نُؤدّي الصلاة جماعةً. وكان ذلك ممنوعاً في السابق. في اليوم الأوّل لدخولنا المخيم الملحق، قال لنا «سعد»: «الصلاة جماعة ممنوعة، الدعاء ممنوع، إنّي سلم لمن سألهم ... ممنوع».

لقد عُوقب «حسن بهشتي بور» في المخيم الملحق عدّة مرّات بهذا الجرم. لقد حاول إقناع العراقيين بالسّماح للإخوة بالصلاة جماعةً، فتعامل «حامد» معه بقسوة، أمّا بعض الحراس الذين كانوا يكتّون الاحترام للحاجّ «سعد الله»، قالوا: «دعك من صلاة الجماعة، لكنّ الحاجّ لم يكن ليتراجع».

قال الليلة الماضية: «سأقيم الصلاة جماعة، حتّى لو أدّى ذلك إلى قتلي!» انقسمنا ثلاث مجموعات: مجموعة غير مهتمة، كانت تريد أن تمضي فترة أسرها دون أيّ قلق، وهذه لم تلتحق بنا، وحزب اللهيو⁽¹⁾ العنبر الذين كانوا مصمّمين على هذا الأمر، وجماعة أخرى محايدة، لم تكن تنتمي إلى هؤلاء، ولا إلى أولئك، وقد التحق بنا بعضهم، لكن ما إن وصل الحال إلى الضرب، على حدّ قول الحاجّ «حسين شكري»،

(1) يطلق هذا العنوان على الملتزمين بخطر الإمام والعاملين بتوجيهاته والمضحيين حتّى الرمح الأخير. (م. نون).

حتى تركونا، والتحقوا بالجماعة غير المكترثة. كان الحاج يعتقد أننا لو استطعنا رفع الأذان في المكان، سنتقدم خطوات إلى الأمام. قال «رامين حضرت زاد»: «يمكننا من خلال هذا الأمر أن نجبر العراقيين على التراجع عن بعض القيود الأخرى التي فرضوها علينا». العراقيون أنفسهم كانوا يحرسون على أن لا يقوموا بأي عمل يؤدي إلى قيام الأسرى بالتمرد والعصيان على خلفية أمور دينية. وقال «علي جار الله» الذي كان يثق «برامين»:

. إذا وقفتم بتماسك وقوة سوف يتراجع العراقيون!

كان الحاج «سعد الله» قد أخبر الإخوة فردًا فردًا، أن صلاة الجمعة ستقام ظهرًا بعد الإحصاء. علم «سعد»، مسؤول العنبر بما يحضر له الإخوة؛ لذا توعدنا قبل أن يخرج منه.

بعد إحصاء فترة الظهر، وقف الإخوة في صفوف منتظمة للصلاة بإمامة الحاج «سعد الله». وفي الركوع الأول، دخل حراس العنبر بالأسلاك والهراوات، وعلى الرغم من الأسلاك التي كانت تنهال على رأس الحاج «سعد الله» ووجهه، تابع صلاته، فدفعه «عطية»، وسقط أرضًا، تفرقت الجماعة بضرب العراقيين وشتهم لنا. بعد ساعة، حضر الملازم «فاضل»، كان في غاية الغضب، قال: أنتم تتمردون، لقد دستم على قوانين المخيم، لستم في إيران هنا، قرارات هذا المخيم هي التي تُنفذ، لا قوانين الخميني! بمجرد ذكر اسم الإمام أطلق الإخوة ثلاث صلوات مدوية. ازداد «فاضل» غضبًا، وراح يسب ويشتم. أخذوا الحاج إلى غرفة رئيس الحراس، هدده «سعد» إن عاد وكرّر عمله هذا. عندما دخل الحاج إلى العنبر، كان مزرّق الوجه. في العنبر

رقم (1)، خلال الأسبوع الماضي، ضربوا «أكبر جعفري»، الذي كان يدير الأنشطة الثقافية هناك، بشدة. كان جعفري قد حاول إقامة صلاة الجماعة مثل الحاج «سعد الله».

التفّ الإخوة حول الحاج، قال الحاج لهم: أيّها الإخوة! ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾⁽¹⁾.

ثمّ تابع: «أنا مستعدّ لبذل دمي في هذا المخيم من أجل صلاة الجماعة هذه، لم نكن مؤهلين للشهادة في الجبهة، لربّما يوفّقنا الله تعالى للشهادة في سبيل إقامة صلاة الجماعة في العراق⁽²⁾. في هذا البلد، استشهد الإمام الحسين (عليه السلام) من أجل إقامة أحكام دين الله».

الاثنين 6 شباط 1989 - تكريت - المخيم 16

كانت «الديزنطاريا»⁽³⁾ قد انتشرت. عانى الكثيرون من الآم في الكلية والمثانة، وابتلي بعض كبار السنّ والمرضى بـ«سلس البول» (التبؤل اللاإرادي). حاول «بهزاد روشن»، و«أبو الفضل صادقان»، و«كامبيز فرح دوست» الذين كانوا يعملون في المستوصف أن يحلّوا مشكلة الإخوة. أمّن بهزاد، بصعوبة، بعض أقراص «الايبيبرامين»

(1) آل عمران: 139.

(2) فيما بعد، أُقيمت صلاة الجماعة من خلال مثابرة الحاج «سعد الله» والآخرين وجهودهم؛ عندما كنّا نصلي على محمد وآله ونقول بعدها وعجل فرجهم وأهلك أعداءهم وأعل شأن الإمام الخميني، كان العراقيون يقولون: يمكنكم أن تصلّوا على محمد وآل محمد، ولكن لا تصلّوها بعجل فرجهم و...، إذا التزمتم بذلك لن نتعاطى معكم، ولن نضربكم. لقد كانوا يتحسّسون من هذه العبارات. بعد فترة، حصروا المنع بدعاء الوحدة. كانوا يستاءون من دعاء الوحدة أيضاً. ويقولون: كلّ من يقرأ أنجز وعده ونصر عبده هذا، سوف يجلد مئة جلدة

(3) حمى الامعاء التي تسبب إسهالاً حاداً مع خروج دماء...

لكبار السنّ المصابين بـ«سلس البول». وأخذ «رامين حضرت زاد» من «علي جار الله» بعض الحقن البلاستيكية للأشخاص المصابين «بالديزنطاريا». كان تحمّل 16 ساعة من دون دخول المرحاض غاية في الصعوبة. بعد 16 ساعة، عندما كان صوت الصفّارة ينطلق، كان الإخوة يهرعون إلى دورات المياه، وكأنّهم يريدون اقتحام أحد السواتر الترابية العراقية. اليوم طرح الإخوة موضوع دورة المياه المتنقلة^(١). دخل الملازم «خليل» العنبر بغية الإحصاء، طرح المهندس «غلام رضا كريمي» أمامه، نيابةً عن الإخوة، موضوع دورة المياه المتنقلة. فوافق الملازم «خليل» على ذلك.

الأربعاء 8 شباط 1989 - تكريت - المخيم 16

اليوم، نُصبت دورة المياه المتنقلة في آخر العنبر، وقد تشكّلت من عدّة قطع من الحديد المضلّع بعرض متر وارتفاع مترين. كان الإخوة هم من عمل على تلحيم هيكل دورة المياه، وقد غطّوه بالبطانيات وأكياس الخيش من جميع الجوانب، ووضعوا فيه دلوًا كبيرًا، وأضيف إليه في الأيام التالية دلوًا آخر. عندما تفقد الملازم «فاضل» دورة المياه هذه، قال غامزًا من فتاة المهندس «غلام رضا كريمي»: «جيد، دورة المياه المتنقلة هذه هي صناعة إيرانية؟!» فردّ المهندس قائلاً: «أعلم أنّك تهزأ منّا، لكن لا تنسَ أيّها الملازم أنّ مصمّم مدينة بغداد كان إيرانيًا، يُعرف بـ«سهل السرخسي» فلم ينبس الملازم ببنت شفة.

(١) دورة مياه مؤقتة.

اليوم، وجّه «سعد» أوامره قائلاً: الأشخاص المصابون «بالديزنطاريا»، وبآلام في المثانة والكلى، والعم «إبراهيم» فقط، يمكنهم الاستفادة من دورة المياه هذه.

أكثر الأسرى الأصحاء لم يلتزموا بالأمر.

ومن أجل أن لا تُرفس أطرافنا المجروحة بفعل الذهاب والإياب، كنّا ننام في مؤخرة العنبر. لكن استخدام دورة المياه المتقلّبة صعب الحياة علينا؛ ففي الليل، على الرغم من امتلاء الدلو وسراية النجاسة إلى جوانبه، كان البعض يقضي حاجته في الدلو العائم. كانت النجاسة تسري من تحت مقصورة دورة المياه المتقلّبة، وتلوّث فراشي، وفراش «علي أكبر فيض»، والحاجّ «حسين شكري». كان بعض الأسرى الأصحاء يستغلّ الموقف بحجّة أنّه مصاب «بالديزنطاريا». كانت الروائح النتنة تفوح من داخل العنبر، والبطانيات وثيابي دائمة النجاسة، فيما كانت رائحة البول تصيبني بالدوار.

صباح كلّ يوم كان مسؤولو النظافة يخرجون الدلاء لإفراغها. كنتُ أنام، قبل انشاء دورة المياه المتقلّبة، آخر العنبر إلى الجهة اليمنى، وبعد ذلك كنت أقرب الأشخاص مسافةً إليها، حيث كنت أنام على بعد مترين منها، فكانت جازٍ سوءٍ بالنسبة إليّ. لم أكن أرغب في أن يضحي الإخوة ويتبادلون الأمكنة معي، فكلّ شخص كان ينام مكاني كان يدرك حالي.

أكثر ما كان يغضبني هم الأسرى الأصحاء. فعلى الرغم من رؤيتهم للدلاء وقد امتلأت، وأن لا مجال لاستخدامها، لم يكونوا يلتزمون بذلك. ولقد تكلمت إلى بعضهم بهذا الشأن. اليوم، سرّت النجاسة إلى

تحت قدمي، فبقيتُ مستيقظاً إلى الصباح. رجوتُ الأسرى الأصحاء أن لا يستخدموا دورة المياه المتقلّبة، لم يجد ذلك نفعاً! قلت لأحد الأسرى: «لقد امتلأ الدلو، وتنجّست بطانيّتي وفراشي بفعل سراية النجاسة، لا تدخل إلى دورة المياه».

لم يكثرث لكلامي، وحين قضى حاجته، وذهب لينام، ناديته، فوقف. أريته النجاسة السارية من حولي وإلى أطراف بطانيّتي، وقلت له: «كان من الأفضل أن تقضي حاجتك هنا، على هذه البطانيّة!» كان إنساناً عديم الشعور.

استفاق على صوتي عدد من الإخوة، فقال له «علي أكبر فيض»: يا رجل! ألا تخجل من قضاء حاجتك تحت أرجلنا؟ أجاب: أعاني مرضاً في الكلى. فقال علي أكبر: صحّتك أفضل منّا جميعاً، لست مستعداً للتضحية مقدار ذرّة، مثل البقيّة!

عند الخامسة صباحاً، صاح «محمد كاظم باباي»، وكان الأشجع من بين الجرحى، بأعلى صوته، مخاطباً أسرى العنبر، قائلاً: «إذا أراد أحد دخول دورة المياه المتقلّبة على الرغم من امتلاء الدلو، فليواجهني!»

كان «إسلام تقي زاده»^(١)، يغسل ملابسي معظم الوقت، وأحياناً كان يغسلها «رضا محمّدي»^(٢). وكان «رضا» قد أخذ خفيّة قطعة (لدينة) بلاستيك من المطبخ، وكان يمدّها ليلاً تحت بطانيّتي، لكن لم يُجد

(١) إسلام تقي زاده من أهالي أردبيل وترعرع في طهران، وهو الآن يعمل في البنك المركزي في جمهورية إيران الإسلامية.

(٢) «رضا محمّدي» من أهالي شاهرود، وهو الآن طبيب متخصص في الصّحّة العامّة، وصاحب عيادة في شاهرود.

ذلك نفعا. مهما حاولت كانت بطانيتي وملابسي تتنجّس، فبسبب قلة المياه، لم نكن نستطيع غسل البلاستيك الذي كنت أضعه تحت بطانيتي، ثمّ بعد ذلك أعرضت عن استخدامه.

صباح كل يوم، بعد الإحصاء، وقبل تناول طعام الفطور، كان الإخوة يخرجون من العنبر؛ ليقوم مسؤولو النظافة بمسح الأرض. فكانت أرض العنبر الذي تبلغ ثلاثين متراً عرضاً، وستين متراً طولاً، تُمسح، على الرغم من كل تلك النجاسة والتلوث، بخمسة أو ستة دلاء من الماء.

كانت الروائح النتنة تفوح من العنبر دائماً. وقد تسببت دورة المياه المتقلّبة بأمراض، من قبيل الديدنطاريا، الفطريات الجلدية، الجرب، تساقط الشعر، التهاب الجروح، والدمامل المتقيحة و... .

الخميس 9 شباط 1989 . تكرّيت . المخيم 16

اليوم، تجادل العريف «ماضي» مع «عطية» بسبب الإساءة التي ارتكبتها بحق «لطف علي»، أحد أبناء قزوين. كان «ماضي»، وهو من أهل منطقة «ذي قار» في العراق، رجلاً نحيفاً، بشوش الوجه، ضحوكاً، أسمر الوجه ومعقوف الأنف، ودائماً ما كان يمضغ شاربيه بأسنانه، ويمشي بطريقة منتظمة، وكان إنساناً صاحب وجدان. وكان «عطية» قد أساء إلى «لطف علي»، جريح النخاع الشوكي جرّاء إصابته بشظية أدّت إلى شلله. كان «رضا محمّدي»، و«إسلام تقي زاده» يتوليان نقله من مكان إلى آخر. أحياناً حين كان الحراس يؤذونه بالكلام، والهمز واللمز، يردّ بعبارة وحيدة: «ستجدونني إن شاء الله صابراً».

اليوم، وبعد مدّة من المنع، سمح «سعد»، رئيس الحراس، للجرحى بالاستحمام خارج دوام الاستحمام، فقال «عطية» لـ «رضا محمّدي»، و«إسلام تقي زاده»، اللذين كان ينقلان «لطف عليّ» إلى الحمام: «ارجعوا إلى العنبر».

قال «رضا محمّدي»: «رئيس الحراس نفسه سمح للجرحى بالاستحمام خارج دوام الاستحمام».

أجاب «عطية»: «أنتم تكذبون، فرئيس الحراس ذهب إلى مركز قيادة المخيم من أجل الحصول على الإذن بالتموين، تريدان غسله خلسة».

قال «رضا»: «ما هذا الكلام؟ لهذا الرجل أوضاع خاصّة».

أمر «عطية» بإرجاع «لطف عليّ» إلى العنبر، أخبر «رضا محمّدي» العريف «ماضي» بالأمر، الذي أوصل بدوره الخبر إلى «سعد»^(١)، المسؤول عن العنبر. عاد «سعد» من مركز قيادة المخيم متأخراً، دخل العريف «ماضي» إلى العنبر، وطلب من «لطف عليّ» الذهاب إلى الحمام، فأجابه «لطف عليّ»: «أبقى سنوات من دون حمام ولا أتحمّل المنّة».

كان العريف «ماضي» أعلى رتبة من «عطية». لم يبقَ هناك أكثر من شهرين. ذات يوم، ضرب «عطية» أحد الإخوة؛ لرفضه صبح حذائه، تجادل «ماضي» مع «عطية»، وقال: «إنّ هذه الأعمال تحطّ من سمعة العراق»، ثمّ أخبر الملازم «خليل» بالأمر. كان «ماضي» يتعاطف معنا،

(١) لا صلة نسب بين «سعد» مسؤول العنبر و«سعد» الذي كان مسؤول المخيم الملحق. فـ«سعد» هذا كان يُسمّى بـ«سعد الصغير»، وأمّا هو فكانوا ينادونه بـ«سعد الكبير». كان «سعد الكبير» صاحب أكبر بنية بين عراقيّتي المخيم، وسعد الصغير كان أقلّ عراقيّتي مخيم تكريت (١٦) شأنًا.

وقد نُقِلَ إلى قسم التجهيزات والمخازن التابع لقاعدة صلاح الدين. كان اليوم يحدثنا ويقول: «إنني أعاني من وجودي في مخيم الأسرى الإيرانيين».

عندما سألتناه عن السبب أجاب: إن ابن عمي أسير لدى الإيرانيين، وهو يعيش أفضل الأوضاع مع أفضل الإمكانيات، كان قد كتب إلى والده: إن الطعام الذي نتناوله في مخيم «كركان» أفضل من الذي كنت آكله في العراق.

فبسبب معرفة العريف «ماضي» بالأوضاع الجيدة التي يعيشها الأسرى العراقيون في إيران، كان من المدافعين عن الأسرى الإيرانيين.

كان «ماضي» في زمن الحرب يعمل في مقرّ «رعد» السري، الذي أنشئ في أوائل الحرب بأمر من صدام، وكانت مهمة هذا المقرّ تنظيم القوّات المرسلّة من البلاد العربيّة، والاستفادة منها في الحرب، وكان هذا المقرّ يُشرف على: تنظيم إدارة الحرب، إرسال القوّات إلى الجبهات، ودخول وخروج جنود الدول العربيّة. قال: «أغلب القوّات التي دخلت العراق لقتالكم كانت من مصر، والسودان، واليمن، والأردن». وكان يقول: كان يشرف على قسم «القتلى والمفقودين، والأسرى»، التابع لهذا المقرّ لواء بعثي ويتلقّى أوامره مباشرة من «عدنان خير الله» وزير الدفاع (العراقي) آنذاك. كان «ماضي» يقول: «إن السودان واليمن كانتا تسعيان لاسترجاع جثث قتلاهما إلى بلديهما، أمّا مصر والأردن فقد أرسلتا رسائل، طلبتا فيها دفن قتلاهما تحت عنوان قتلى مجهولي الهوية». لم أفهم السبب في

ذلك. حتّى «ماضي» نفسه لم يكن يعلم السبب، وكان يقول: ذات مرّة، أُعدم بأمر من صدام ثمانون مصرياً، كانوا قد فرّوا من الحرب، وقد سمح حسني مبارك لصدام أن يتعامل مع الجنود المصريين تماماً كالجنود العراقيين.

مع انتهاء الحرب، أزيل «مقرّ رعد» السريّ بأمر من صدام.

السبت 11 شباط 1989 - تكريت. المخيم 16

في الذكرى العاشرة لانتصار الثورة الإسلاميّة، أقام شباب تبريز وأرومية مسابقة. في هذه الأيام، كانت تزداد حساسيّة الحراس، وتشدّ مراقبتهم لنا. على الرغم من التضييق وقلة الإمكانيات، قرّر بعض الأسرى، قبل عدّة أيام وبشكل حماسيّ، الاحتفال بذكرى انتصار الثورة. كانت احتفالاتنا البسيطة تُقام بعيداً عن أعين العراقيين. باقتراح من الحاجّ «حسين شكري»⁽¹⁾، قام بعض الإخوة قبل عدّة أسابيع بتهيئة المقدمات اللازمة. باءت محاولاتي لشراء عشر شمعات من حانوت المخيم بالفشل. أردت شراء عشر شمعات بمناسبة ذكرى انتصار الثورة من أموالنا، وإضاءتها ليلاً. كانت المسابقة الثقافية من إعداد «يزدان بخش مرادي»، طُرحت عدّة أسئلة حول الإمام والثورة، ونال الرابعون الجوائز. أقامت العنابر الأخرى أيضاً، مباريات في المصارعة، والشعر، والمسرح، وتظاهر الإخوة في مسابقات المصارعة أنّهم يتصارعون واقعاً، لكنّ أمرهم انكشف في الأيام اللاحقة.

(1) الحاجّ «حسين شكري» من أبناء مهریز في مدينة یزد، وكان من عناصر لواء الغدير 18. هو الآن من متقاعدي حرس الثورة في یزد.

جَهَّزنا جوائز المسابقات من الأشغال اليدويّة التي كنّا نصنعها، وكانت عبارة عن حزام، قبعة، شال، مسبحة و...، وقد وضع الإخوة كلّ جهودهم في تصرّف المسؤول الثقافي.

طرّز أحد الإخوة الآذربيجانيّين، وهو من الأتراك أصحاب الذّوق، صورة الإمام الخمينيّ على قماشة جلباب، مستخدماً في ذلك خيوط المناشف والبطانيّات، وقد رسم هذه الصورة «علي يماني». كان عملاً جميلاً⁽¹⁾. قال علي: إنّ وجود صورة الإمام نعمة بالنسبة إلينا، نحن الذين لا نتمكّن من مشاهدة التلفزيون الإيرانيّ، ولا من رؤية صورة الإمام. كلّ من يشاق إلى الإمام، فليأت، ولينظر إلى هذه الصورة. بعض الإخوة خلط سُخام الحَمّام⁽²⁾ المتصاعد من السخانات النفطية بالزيت، ولوّّن بهذا الخليط صورة الإمام.

ادّخر الإخوة مخصّصاتهم الشهريّة، التي تبلغ ديناراً ونصف الدينار (للاسير الواحد)، قبل عدّة أشهر؛ لإعداد الحلوى والسكر، فأعدّوا الحلوى مستخدمين الحليب، والسكر، وعجين الخبز اليابس، وأعدّ الطبّاخون «الحزب اللّهيون» الحلوى من خلال اللوازم التي وفّرها الإخوة لهم.

بعد ظهر اليوم، تناول ثلاثة من الحرّاس، «عطيّة»، و«حامد»، و«سلوان»، حلوى الاحتفال بذكرى انتصار الثورة، التي قدّمها لهم المهندس «غلام رضا كريمي». سأل سلوان المهندس قائلاً: «شينو المناسبة؟» (ما المناسبة؟)

(1) عندما حُرّرنا، قدّم الإخوة صورة الإمام كتذكّار «لعلي جار الله»، الحارس العراقيّ الودود.

(2) آثار وأوساخ الدخان.

فأجاب المهندس «كريمي»: سيّدي بمناسبة «جاء الحقّ وزهق الباطل»^(١).

الأحد 12 شباط 1989 - تكريت - المخيم 16

قبل الظهر، انهال الحرّاس والملازم الأوّل، الذي لم أكن قد رأيته من قبل، بالسيّاط على «فرهنك خاكيان»، أحد أبناء تبريز، وقد أوسعوه ضرباً. لا أعلم لمّ أذوه كلّ هذه الأذية. كنت على علاقة جيّدة «بفرهنك»، فقد كان سائق المهندس «إبراهيم رستكار مقدّم»^(٢)، وكان «رستكار مقدّم» من أتراك تبريز، ومديراً عامّاً للنقل والطرق «قدس»^(٣). كان رجلاً أربعينياً أقرع قصير القامة، وقد تخرّج في العام 1980م من جامعة الخواجه نصير الدين الطوسي، قسم الهندسة المدنيّة. كانت المديرية العامّة، «قدس»، للنقل، تتولّى مسؤوليّة صيانة وتوسيع الطرقات العسكريّة في الجبهة الغربيّة للبلاد، والتي تشمل محافظات إيلام، «كرمانشاه»، و«کردستان»، و«آذربيجان الغربيّة». كان العراقيّون قد أسروا المهندس وسائقه في «وادي شيلر». لقد أصابتهُم رصاصات القنّاصة في «وادي شيلر»، وهم يستقلّون سيّارة «نيسان باترول»، بيضاء اللون. اخترقت الرصاصات الجهة اليمنى للسائق، وأصابت ركبته وركبة المهندس «رستكار مقدّم». اعترف

(١) الاسراء . 81

(٢) بعد التحرّر عمل المهندس إبراهيم مقدّم كنائب للمدير التنفيذي للمختبر الفنّي والميكانيكيّ للتربة في البلاد، وقد أصبح في الحكومة التاسعة مستشار وزير النقل لشؤون الجرحى.

(٣) قدس: اسم كان يطلق على مديريةية الطرقات والنقل. كثيراً ما يُطلق في إيران على المديرّيات والمؤسّسات ذات الانتشار أسماء من وحي الثقافة الإسلاميّة من قبيل: قدس، جهاد، قرض الحسنه، جمعية المؤثرين ... (مركز نون).

العراقيّون بأنّه ما كان ينبغي من البداية إحضار مدير عامٍّ إلى مخيّم الأسرى الـ«مفقودي الأثر». عندما التفتوا إلى أنّه ينبغي نقله إلى مخيّم الضباط والمسؤولين، كان الوقت قد فات. من الناحية الأمنية، لا ينقل العراقيّون أيّ قائد، أو مسؤول رفيع المستوى، إلى مخيّم الضباط، وأسرى الصليب الأحمر. كانوا يراعون كافّة جوانب الاحتياط، بأن لا يلتقي أيّ واحد من العشرين ألف أسيرٍ «مفقود الأثر» الموجودين في تكريت، بالأسرى المدوّنة أسماؤهم لدى الصليب الأحمر. لم يكونوا يريدون أن تتسرّب معلومات عن الأسرى الـ«المفقودي الأثر» إلى خارج «قاعدة صلاح الدين»، وإلى أسرى الصليب الأحمر.

لربّما أخطأ المحقّقون قبل عدّة أشهر في التحقيق الأوّل في المخيّم، في استمارة كلّ من المدير العامّ وسائقه، فبدّل المحقّق العراقيّ، الذي كان يرتدي ملابس التحقيق الخاصّة في استمارة التحقيق، صفة «رستكار مقدّم»، الذي كان المدير العامّ بصفة السائق وكذلك الأمر بالنسبة إلى «فرهنك خاكيان» حيث كتب في استمارته أنه المدير العامّ. اليوم كان «فرهنك» سيئ الحظّ.

كنت أعلم أنّ «فرهنك» هو سائق المدير العامّ.

قال «فرهنك» بذلك الوجه المزرقّ للعراقيّين: «لست المدير العامّ للنقل والطرق، بل سائقه، لكنني مستعدّ لتلقّي الضربات بدلاً منه!» قلت للعريف «ماضي»: «قل لهذا الضابط، هل يبدو على هيئة هذا الرجل أنّه مدير عامّ؟»

- إنّ أشخاصاً في سنّه يصبحون قادة فيالق في إيران!

كان «فرهنك» يكنّ محبّةً خاصّةً للمهندس «رستكار مقدّم»، كان

شاباً بديناً، قصير القامة، أجعد الشعر، ذا وجه جذاب، ومحَبَّب. عندما أراد العراقيون نقل «رستكار مقدّم» إلى «مخيم بعقوبة» (18)، قال لهم فرهنك: «أنا سائقه، ينبغي أن أكون برفقته دائماً». أحياناً، كنت أمازح «فرهنك»، وأقول: فرهنك! هنا كل واحد هو مدير عامّ على نفسه، وكان يجيب: صحيح أنني من دون سيّارة، ولكن يمكن من دونها أن أكون سائق المهندس. في النهاية، اقتنع العراقيون أنّ «فرهنك خاكيان» هو سائق المهندس «رستكار مقدّم بور».

الخميس 16 شباط 1989. تكريت. المخيم 16

أصبح «سعد» يظهر محبّة للإمام الخميني، وقد كان من قبل يسيء الكلام إليه. كان «عليّ جار الله» مسروراً؛ «فقد حَدَثَتْ أمورٌ جعلت سعداً، وبعض الحراس يظهرون المحبّة لقائدهم». بالأمس، نشرت الصحف العراقيّة خبرَ صدور فتوى الإمام الخميني التاريخيّة بإعدام مؤلّف كتاب الآيات الشيطانيّة، «سلمان رشدي». قال سعد: «صحيح أننا في حالة حرب معكم، لكننا نشترك معكم في أمور أربعة»⁽¹⁾. كان العراقيون يقولون: «إنّ فتوى أيّ من كبار أهل السنّة لم تمنح المسلمين مثل هذه العزّة». لم أعد أسمع أو أرى، من اليوم ولاحقاً، «سعداً» والسيد «حسين» يسيئان إلى الإمام. بعدها بفترة طويلة، قال «سعد» لي وللحاج سعد الله: «تعجبني

(1) الله، والقرآن، والنبيّ محمد ﷺ، والقبلة.

فيكم أنتم الإيرانيين مسائل ثلاث: أسبوع الوحدة، ويوم القدس، وفتوى قائدكم بحق سلمان رشدي».

الأربعاء 1 آذار 1989 - تكرت. المخيم 16

اليوم، جاءوا بالجريدة، فقد صادق بالأمس مجلس الشورى الإسلامي في إيران على مشروع قرار معجل لقطع علاقات إيران السياسية والدبلوماسية ببريطانيا نهائياً. وفيما كانت الصحيفة بين يدي «سامي» و«علي جار الله»، اللذين كانا يكرهان الإنكليز، كانا يثنيان على عمل مجلس شورى بلدنا. قال «سامي»، الذي كان دائماً يطلق على الإنكليز صفة الثعلب المكّار:

- الإنكليز أشدّ لؤماً من الأمريكيين، كان عليكم، وبعد الثورة مباشرة، قطع علاقتكم بالإنكليز.

ذهبت صباحاً، باحثاً عن «إبراهيم»، الأخ الأكبر «لأمير». أردت الحديث معه بشأن «أمير». كان «سلوان»، حارس العنبر، قد فرش بساط الصداقة مع أمير، محاولاً استمالته. قال لي «علي جار الله»: انتبه لـ«أمير»، يريد العراقيون أن يستخدموه كأداة.

في الأيام الماضية، كنت أقول لأمير مراراً: أمير! لقد سوّد العراقيون أيامك، لولاهم، لما كنت الآن وإبراهيم أسيرين...

كان أمير يتمشّى بشكل منتظم مع «سلوان» و«سعد» في فناء المخيم. كان الحراس يقدمون له الطعام لتزداد علاقته بهم.

قبل الظهر، قال لي «سامي»: يريد العراقيون أن يقوموا بأمر، بحيث إذا ما قرّروا معاقبة أسير ما، أن يقوم «أمير» بضربه!

- لماذا لا يقومون هم بضربه؟
- فيما بعد، ستدرك ما يخطّطون له. الملازم «فاضل» إبليس، لقد أبلغ الحراس كيف يستفيدون من «أمير».
- ألا تخبرني بها؟
- لا تكن عجولاً، أريد أن أرى إن كانوا واقعاً سيقومون بذلك أم لا؟
- قلت لإبراهيم: «العراقيون يحيكون مخطّطاً لأخيك!»
- كان «إبراهيم» شاباً بسيطاً، لا يمكن الاعتماد كثيراً على كلامه، كان إنساناً متقلّب المزاج.
- عصراً، أخرج «حامد» أحد الإخوة العاملين في المطبخ؛ لكونه دافع عن حقّ الأسرى^(١). وعندما أرادوا ضربه، نادوا «أميراً»، وقالوا: «أمير»، تعال واضربه أنت!
- قام العمّ «إبراهيم»، وأخذ السلك من يد «أمير». لقد كان «أمير» طفلاً بسيطاً، لا يدرك ما يفعل، وسريع الانخداع. اقترب «سامي»، الذي كانت تعلق وجهه ضحكة ذات معنى، منّي وقال: «أرايت يا ناصر سليمان؟»
- نعم، الآن فهمت قصدك!
- هذا ما كنت أريد أن أقوله لك!
- ماذا تنتظر من أسير ذي تسع سنوات، لعلّ أيّ أسير آخر مكان «أمير»، كان سينخدع. لقد حالف «أميراً» الحظّ، لأنّ عمّه وأخويه كانا يرعيانه.

(١) «كريمي»، أحد العاملين في المطبخ، عندما أراد أحد حراس العنبر أخذ نصف خروف من حصّة الأسرى من المطبخ، وقف بوجهه، وقال: «نصف الخروف هذا هو حصّة مئة أسير إيراني!» عندئذ صفعه الحارس العراقيّ على وجهه، ولما أراد أن يوجّه له صفعاً أخرى، أمسك كريمي بيده ولواها. لم يستطع الحارس العراقيّ منافسة كريمي.

لو كان «أمير» قد ضرب الأسرى نيابةً عن العراقيين، لكان العراقيون قد أذاعوا عمله هذا، وقالوا: «كم أنتم وضيعون أيها الإيرانيون، فحتّى أسير ذو تسع سنوات منكم لم يرحمكم، وقد ضربكم نيابةً عنا!»

بعد نوبة الإحصاء الليلي، ذهبتُ ثانيةً إلى «أمير»، تحدّثتُ إليه مطوّلاً... لم تكن مقاتلاً (كنت مدنيّاً)، وقد قضى العراقيون على حياتك؛ أخذوا خرافك، ألم يتوسّل «إبراهيم» إليهم ليأخذوه هو، ويتركوك وشأنك، هؤلاء الذين يظهرون لك كلّ هذه المحبة، لماذا لا يسمحون لك بمقابلة الصليب الأحمر... أم ينبغي لك، وأنت في هذه السنّ، أن تقضي فترة أسرك إلى جانب الأسرى «المفقودي الأثر»؟، ومثل هذا الكلام.

عندما تحدّثتُ إليه، تأثّر بكلامي، واقتنع به. لكنّ طبيعته الطفولية اقتضت أن يحدث «سلوان» بكلّ ما قلته له في اليوم التالي، وأن يكون في تصرّفه، وكما يريد هو.

السبت 11 آذار 1989 - تكرّيت - المخيم 16

عصر البارحة، قال «علي جار الله» لـ «رامين حضرت زاد»: اتّخذ القرار بتفقد العنبر، وتفتيش أمتعتكم الشخصيةً غدًا.

من بداية مجيئنا إلى العنبر، كانت علاقة «علي جار الله» بـ «رامين» وثيقة وجيدة. فقد كان شيعيّاً من أهالي مدينة سنجار، إحدى توابع محافظة نينوى، يقارب الخامسة والأربعين من العمر، ودوداً وكتوماً، قصير القامة، شهل العينين، خفيف شعر الأهداب، ورفيع الشارب.

كان أكثر الحراس معرفةً باللغة الفارسيّة، فقد علّمه رامين الكثير من كلماتها، حتّى لقد استدعى العراقيّون «رامين» عدّة مرّات إلى غرفة رئيس الحراس؛ ليعرفوا السرّ الذي بينه وبين «عليّ جار الله»، لكنّ «رامين» كان إنساناً متحفّظاً وكتوماً.

مساء البارحة، أخبرني رامين، وبعض الإخوة، الذين يثق بهم، عن مسألة التفتيش. منذ أن جرت المفاوضات بين وزيريّ خارجيّة إيران والعراق في مقرّ الأمم المتّحدة، أعلنت الصحف العراقيّة خبر تحرير الأسرى المعوّقين والمرضى. كنت قد كتبت أسماء أكثر من 400 أسيرٍ من «المخيّم الملحق» على أوراق علب السجائر، وهوامش الصحف، وقد خبّأتُ الأسماء في عصاي، وللاحتياط، أودعت لدى «محمد كاظم بابايي» نسخة أخرى أيضاً. لقد صدّقنا بأنه سيُفرج عنّا خلال الأيام القليلة القادمة.

في تلك الأيام كنت منهمكاً بتجهيز لائحة بأسماء أسرى العنبر، الذين لم يكونوا في «المخيّم الملحق»، وقد ساعدني في ذلك «محمد كاظم بابايي» و«عليّ أكبر فيض»، فقد بدأنا منذ أسبوع تدوين أسماء أسرى العنبر خفيةً. ومنذ اليوم الذي انتشر فيه خبر تحرير الأسرى المعوّقين، كان الأسرى الأصحاء يعطون عناوينهم، وأرقام هواتفهم للجرحى. قال لي المهندس غلام رضا كريمي: «سيدّ! استحلفك بالله، أن لا تنسانا، عندما تذهب إلى إيران، ولا تنسى تسليم أسمائنا إلى الهلال الأحمر!»

عند سماع خبر التفتيش، أخفى عددٌ من الأصدقاء المقرّبين لـ«رامين» ما يملكون من الوسائل الممنوعة والأشياء ذات الرؤوس

الحاّدة، كالأقلام، والأوراق، والدعاء، والشّفرة، والمسمار، والإبرة و...، كلّها بين طيّات الوسائد الإسفنجيّة. كان من غير الممكن إفشاء أمر التفتيش؛ لأنّ ذلك كان سيضرب بـ«علي جار الله»، الذي جعل «رامين» موضع ثقته. أعطى عدد من الجرحى كتاباتهم وأدعيتهم المكتوبة للجرحى، فأثناء التفتيش لم يكن العراقيّون يفتّشون ضمادات الجرحى، لم يكونوا يتصوّرون أنّ الجرحى يخفون الأشياء الممنوعة، وكتابات بعض الأسرى الأصحّاء في طيّات ضمادات أعضائهم المجرّوحة.

في الحقيقة، كان قلبي لا يزال غير مطمئنّ لـ«علي جار الله»، فعندما كنت أتذكّر كلمات «لطيف دهقان»، لم أكن أثق بالحراس العراقيّين بهذه السهولة. مع ذلك، كنت لا أنسى تعاطف «توفيق أحمد» في مستشفى الرشيد ببغداد، كما كنت أثق بـ«سامي». قلت لـ«رامين»: «رامين! كم هو مقدار معرفتك بـ«علي جار الله»؟»
كان «رامين» على علاقة وثيقة به، وكنت أصدّق كلّ ما يقوله، «فرايين»، على حدّ علمي، ليس بالشخص الذي يسهل خداعه. ضحك «رامين» وقال باطمئنان:

«سيد! أثق به بمقدار ما أثق بك!»

وليثبت رامين أنّ «علي جار الله» رجلّ شفوق وخير، تابع:

- أولم يخبرنا البارحة أنّهم سيفتّشون أمتعتنا؟

- نعم، جيّد!

- جيد، إذا فتّش العراقيّون أمتعتنا اليوم، سيّضح كم هو صادق،

وكم يريد أن يساعدنا!

قبل الظهر، دخل العراقيون العنبر، قبل أن يتوجّهوا إلى أمتعتنا، أجلسوا الإخوة في صفّ الإحصاء، وفتّشوا الجميع. بحث الحراس عن الأكياس الخاصة، فتّشوا في البطانيات والوسائد الإسفنجية، فقد تناهى إلى مسامعهم أنّ الإخوة أخفوا لوازمهم الممنوعة بين طياتها، لذا، مزّقوا كل الوسائد الإسفنجية، واستمر التفتيش هذا اليوم ثلاث ساعات. المكان الوحيد الذي لم يفتّشوه، كان داخل ماسورة عصيّ الجرحى، وطيات ضمادات جروحهم. أثناء تفتيش أمتعتنا، كان نظري منصباً على «علي جار الله»، تيقّنت أنّه عراقيّ مضحّ. لا أعلم كيف أصبح مستعدّاً للمخاطرة من أجلنا. في حملة التفتيش اليوم، لم يجدوا شيئاً هامّاً. وبسبب بعض المسامير، التي كان نحّاتو المخيم يتخذونها كأدوات للحفر والنقش، انهال العراقيون على الإخوة بالضرب.

في حملات التفتيش التي لم يكن الحراس يجدون فيها شيئاً من الممنوعات، كانوا يتّبعون أسلوباً خاصّاً، فيه الكثير من الخسّة، كما فعلوا اليوم، وكي لا تظهر خيبتهم؛ كانوا يضعون خلسة، وبنحو لا يراهم فيه أحد، بعض الممنوعات كالسكين والشفرة، والمسمار، أو أيّ أداة ممنوعة أخرى بين أمتعة الإخوة، ومن ثمّ يلتقطونها ويشيرون إليها، قائلين: لمن هذه؟

لم يذكروا يوماً في كيس من وجدوا تلك الأدوات. نحن أيضاً لم نكن نستطيع إثبات عدم مخالفتنا للقوانين، فكلّ واحد منّا كان يظنّ أنّ ذلك الشيء الممنوع خاصّ بأحد الأسرى، والحال أنّه لم يكن خاصّاً بأيّ أسير.

بعد التفتيش، قال لي «رامين»: سيّد! كيف رأيت «علي جار الله»؟

ضحكت، وكنت قد تيقّنت أنّ «علي جار الله» إنسان صادق. قلت
«لرامين»: «إنّه إنسان جيّد، خسارة، هو في صفوفهم!»

الاثنين 20 آذار 1989م - تكريت - المخيم 16

كانت الليلة الأخيرة من العام 1367 شمسي⁽¹⁾. كان «علي كلابي» يعاني من ألم في العين، فقد التهابت عينه بشكل كبير؛ ولم يكن مستعداً للذهاب إلى الدكتور «جمال» بسبب معاملته السيئة للجرحى. أُسِرَ «علي» مع 12 من رفاقه المجاهدين في جزيرة «مجنون» الجنوبيّة، لم يبقَ أحدٌ من هذه المجموعة حيّاً سواه، فقد أخبرنا أن الضابط العراقيّ أمر الجميع بالتمدّد على الأرض؛ لكي يُرموا بالرصاص. أصابت رصاصة عين عليّ، فأطفاؤها، بقي حتّى غروب ذلك اليوم غائباً عن الوعي. أخبرني «علي» عن ذلك اليوم المرير قائلاً: «أستفقت قبل الغروب، حين نظرت حولي، وجدت جميع رفاقي قد أصبحوا في عداد الشهداء!»

«كان ذلك اليوم، أي 25 حزيران 1988، بالنسبة إليّ يوماً مريراً، ومفعماً بالذكريات».

الثلاثاء 21 آذار 1989م - تكريت - المخيم 16

أمضينا العيد بهدوء، كنت أودّ أثناء «تحويل السنة»⁽²⁾ أن أكون إلى جانب عائلتي، وكنت أتمنّى هذا لكلّ رفاقي في الأسر، كان الكثير من

(1) يبدأ العام الشمسي الهجري، التقويم الإيراني، في 21 آذار من كلّ عام ميلاديّ.

(2) مصطلح يُطلق عند بداية العام الإيرانيّ الجديد، ويتمّ الاحتفاء بالمناسبة، والدعاء لجعلها سنة خير بدعاء تحويل السنّة: «اللهمّ حوّل الحول والأحوال، حوّل حالنا إلى أحسن حال» (مركز نون).

الإخوة منزعجين ومنقبضي الحال؛ فمعظمهم كان يائساً من مجيء يوم يتحررون فيه. قلت لـ «علي أكبر فيض»: «علي! إن شاء الله نكون العيد القادم في إيران!»

- في المنام!

- لم في المنام؟ لن نظل في هذا السجن إلى الأبد!

بالأمس وعدت الحاج «سعد الله»، والحاج «حسين شكري» أن أهّيء لوازم سفرة «السينات السبع». فالتفّاح (سيب)، والثوم (سير)، والخل (سرکه)، والنقود (سکه)، وحلوى السمّو، والسمّاق والخضار (سبزه) غير متيسّر في الأسر، لكنّي كنت أودّ أن يوجد على سفرة «السينات السبع» خاصّتنا، سبعة أشياء تبدأ بحرف السين. وقد هبّا الله لنا اليوم سينات سبع مختلفة: قطعة حجر (سنگ)، سلك شائك (سیم خاردار)، إبرة للخياطة (سوزن خیاطی)، بطاطا (سیب زمینی)، علبه سجائر (سیگار سومر)، حقنة (سرنج)، ومصل بلاستيكي (سرم)!

أخذ «محمد كاظم باباي» الـ «سرنج» من «أبي الفضل صادقاني»، العامل في قسم مستوصف المخيم، وأحضرت أنا بطريقة ما المصل البلاستيكي (سرم)، والسلك الشائك (سیم خاردار)، والحجر (السنگ)، أمّا إبرة الخياطة (سوزن) فكانت «ليزدان بخش مرادي»، وأحضر «كريم دلفي زاده» البطاطا (سیب زمینی) من المطبخ، والسجائر كانت «لمعز الدين أصغري»، وصنع «محمود يوسفی»، أحد أبناء ملاير، سمكة من العجين. قرأ الحاج «سعد الله» دعاء تحويل السنة: «يا مقلب القلوب والأبصار، يا مدبر الليل والنهار، يا محوّل

الحول والأحوال، حوّل حالنا إلى أحسن حال».

في الليل، أدخل الإخوة سنّة التزاور إلى العنبر، وتصالح بعض الإخوة ممّن كانوا متخاصمين. لقد بدّلت لحيتا الحاجّ «سعد الله» والحاجّ «حسين» الكثير من العداوات إلى محبة؛ فتصالح الكثير ممّن كانوا قد تخاصموا لأسباب تافهة.

الأحد 26 آذار 1989 . تكريت . المخيم 16

قبل عدّة أيام، أجبرنا العراقيّون في صفّ الإحصاء، أثناء الجلوس والقيام، على شتم الإمام!

لا أدري لِمَ كان يجب أن يبدأ إحصاء الصباح، والظهر، والمساء عام 1368 ش (1989م) بشتم الإمام؟ بعد صدور الفتوى التاريخية للإمام الخميني بحق المرتدّ سلمان رشدي، حلّت محبة خاصّة للإمام في قلوب المسلمين، ومن جملتهم أهل السنّة. بعد هذه الفتوى، أصبح بعض حراس المخيم من أهل السنّة، الذين كانوا من قبل يسبّون الإمام، يذكرون اسم الإمام بكلّ احترام.

لم يكن الإخوة مستعدّين للشتم (أثناء العدّ والإحصاء)، والعراقيّون لم يترجعوا، فقد كان هذا أمراً صادراً عن صدام مباشرة. وكأنّه عمّم على جميع المخيمات، أن يقوم الأسرى صباحاً وظهرًا ومساءً، بشتم الإمام!

عندما يدخل أحد ضباط المخيم العنبر للعدّ والإحصاء، كان المسؤول الإيراني عن العنبر يقف، ويصرخ «استعدّ»، وكان العراقيّون يقولون: ينبغي أن يقوم الأسرى بشتم الإمام وهم يضربون أرجلهم

بالأرض [وكانَّهم يؤدِّون التحية العسكريَّة] مباشرة بعد تلفظ المسؤول بكلمة «استعدَّ».

حين أعلنت حالة الاستعداد، وضرب الإخوة أرجلهم بالأرض، لم يَقم أحدٌ بشتم الإمام؛

عندها انهال العراقيُّون علينا ضرباً بالأسلاك والهرافات. لقد قاوم الإخوة اليوم بشدَّة، ولم يلتزموا بهذا التعميم.

كان «عليّ جار الله» ينزل سلكه بهدوء على ظهر الإخوة. قال له «رامين» يومها: «سيدي! اضربنا بقساوة، حتَّى لا يشكَّن فيك أحد!» طلب إليه «رامين» عدَّة مرَّات أن يعبس، وأن يتظاهر بالغلظة والقسوة، وأن يضربنا كما يضربنا الآخرون. لم نكن نحبُّ أن يعرِّض نفسه للخطر بسببنا. لم يستمع «عليّ جار الله» لكلام «رامين»، ولكي لا ينزعج «رامين»؛ كان أحياناً يتظاهر بالقسوة، وحينذاك لم تكن السماحة تغادر وجهه.

لم يتوانَ العراقيُّون، وكانَّ هذا الأمر ينبغي أن يُنفَّذ بأيِّ ثمن كان. كان رئيس الحراس يقول: «سيسيل حمَّام من الدماء في المخيم». لم يَقم أحدٌ بشتم الإمام سوى المنافقين، وبعض الأفراد الذين باعوا أنفسهم، واللامبالين.

في الأيام التالية دبر الإخوة خطَّة، إذ عملوا على تحريف الكلمات، وأطلقوا الشعار. عندما كان الإخوة يطلقون الشعار، سرَّ العراقيُّون لأسابيع عدَّة. أخيراً، فهم العراقيُّون أنَّ الإخوة يقولون مرد مرد خميني (الخميني، رَجُل، رَجُل) بدل مرك بر .. (الموت لـ ...)، أو مرد است خميني (الخميني رَجُل). في العنبر كان ثلاثة من الإخوة يقولون بدل

مرك بر .. : برق رفت خميني! (انقطعت الكهرباء يا خميني).
 عندما فهم العراقيون أنَّ الإخوة استبدلوا كلمة «مرك» بـ «مرد»،
 أو «برق» انهالوا علينا ضرباً، وآذونا كثيراً؛ قللوا حصتنا من الطعام،
 ضيقوا علينا بالماء، وبساعات الذهاب إلى المراحيض، والخروج من
 العنبر، واستخدموا كل وسائل الضغط علينا.
 لولم يصل الأمر عن طريق الجواسيس، ومن باعوا أنفسهم، الذين
 يسميهم الإخوة «الأنثينات» [الهوائيات]، إلى مسامع العراقيين، لم
 يكونوا ليفهموا أبداً أنَّ الإخوة بدّلوا الكلمات وحرفوها⁽¹⁾.

السبت 8 نيسان 1989 - تكريت - المخيم 16

دخل الحراس العنبر. ما إن اصطفينا حتى بدأوا بتفتيش أمتعتنا،
 ومن دون مقدّمات، قال سعد: «أين الراديو؟» كان الإخوة ساكتين،
 فحيازة راديو جريمة كبرى. أخرج الحراس كل من شكّوا فيه.
 بأمر من الملازم «فاضل» عصبوا أعين الإخوة بقطع من القماش،
 لم أكن أعلم ماذا كانوا يريدون أن يفعلوا بهم، ثم جعلوهم في صفين
 متقابلين، كل صف 20 نفرًا، يفصل بين الصفين 30 مترًا. أمر
 الملازم «فاضل» أن يركضوا بأقصى سرعة، الصفّ باتجاه الآخر،

(1) كان الإخوة الذين يأتون من مستشفى القادسية في تكريت يقولون: أراق البعثيون بسبب الاعتصام الذي أقامه الإخوة في المخيم (12). تكريت، من أجل الطعام، نهرًا من الدماء. كان النقيب «جمال» قائد المخيم (12) يؤذي الإخوة بأشد ما تكون الأذى. كان الإخوة يقولون: إنّه لم يرحم حتى الأسير «مهدي تاجر» الذي قُطعت كلا رجليه. وقد التقى الإخوة بعضاً منهم في مستشفى القادسية في تكريت. بعضهم كُسّر فكّه وأسنانُه إثر الضرب بالهراوات. شخص أو شخصان منهم تمزّقت شرايينهما وأصيبا بنزيف داخلي. قال النقيب «جمال» لهم: أنتم هنا لا تشملكم أي من القوانين الدولية. لو تمّم كلّمك هنا، لا تتعرّض للمساءلة!

وهم معصوبو الأعين. كان أسلوباً جديداً، وكان الإخوة مجبرين على تنفيذ الأوامر. عند الركض بأقصى سرعة، كانوا يصطدمون ببعضهم بشدة، ويسقطون أرضاً.

بعد عدة أيام عرفت أنّ العراقيين كانوا يكذبون بشأن حيازة أحد الأسرى لجهاز راديو، وقد حصل أحد الجواسيس بسبب هذه الكذبة على علبة سجائر!

الأربعاء 26 نيسان 1989 - تكريت - المخيم 16

كانت هذه الليلة ليلة القدر. ذهبت والسيّد «محمد شفاعت» بمحاذاة الأسلاك الشائكة، كنّا نبحث عن مصحف، كان مع الإخوة قرآن، وبعض أدعية المفاتيح المكتوبة بخط اليد.

بعث السيّد «محمد» وراء السيّد «فاضل فضليان»، حضر السيّد «فاضل»، الذي كان من أسرى العنبر رقم (4)، وراء الأسلاك الشائكة. لم يكن الحراس يسمحون لأسرى العنبرين بتبادل الحديث من خلف الأسلاك الشائكة، ولكي لا يفهم الحراس شيئاً، قال السيّد محمد للسيّد فاضل باللهجة اللوريّة:

- سيّد فاضل! وَاوْ تشيل «ملاّ غريب» نداري؟⁽¹⁾

- بالطبع عندي!

لم يفهم أحد ما قاله السيّد «محمد» سوى السيّد «فاضل». حتّى أنا، لم أكن أعلم المقصود من «الملاّ غريب». عندما دخلت العنبر، سألت عن قصّة «الملاّ غريب» هذه؟

(1) لديك «ملاّ غريب»؟

فضحك وأخبرني القصّة⁽¹⁾

من خلال تجميع الأسرى لأوراق أكياس الأسمنت، وأوراق علب السجائر البرّاقة، وكتابة أدعية المفاتيح، والسور القرآنية، صنعوا كتيبات جيب جميلة. معظم المصاحف المكتوبة بخط اليد، كانت تدور بالتناوب بين الإخوة، فكان كلّ شخص يستفيد منها مدّة ساعتين أسبوعياً.

لقد حفظ الكثير من الإخوة من خلال كتيّبات الجيب هذه، أدعية المفاتيح والسور القرآنية. وقد منح الإخوة الثقافيّون الأشخاص الذين حفظوا في المرحلة الأولى الجزء الأخير من القرآن هدايا من الأشغال اليدويّة.

أحياناً كنّا نحتاج إلى كمّيّة أكبر من الأوراق، فكان الإخوة يضعون علب مساحيق غسيل الثياب الخالية في الماء حتّى تتنقع، ومن ثمّ كانوا يفصلون بعضها عن بعض ويجفّفونها، وبعد جفافها، كانوا يصفّون بعضها فوق بعض، ويكتبون عليها.

عندما كنّا نحتاج إلى استعمال القلم بشدّة، كنّا نضطرّ لتجاوز الخطوط الحمراء، فكان الأسرى الذين يتولّون تنظيف غرفة رئيس الحراس، يسحبون الحبر من أقلام العراقيين التي كانت توضع على مكاتبهم عن طريق حقنة (السرّنج)، ويفرّغونها في أنابيب أقلامهم الخالية، ولإخفاء الأقلام، كنّا نضع الأنابيب الداخليّة لها في أنبوب

(1) «الملاّ غريب» علويّ النسب من أهالي قرية «جغل» في منطقة كهكيلويه. كان كاتب أدعية محلّي، يؤمن الناس به وبأدعيته. وكان رجلاً متعبداً، ممثلاً لأوامر الشرع، ومن أهل الروحانيّة. وكان يأنس بالقرآن أنساً استثنائياً. كان قصد السيّد «محمد» من ذكر اسم الملاّ غريب، أدعية المفاتيح، والآيات القرآنيّة المكتوبة بخط اليد.

معجون الأسنان، أو بين طيّات المساند الإسفنجيّة، أحياناً كنّا نهَيّ لها مكاناً داخل العِصِيّ.

الجمعة 28 نيسان 1989 - تكريت - المخيم 16

الليلة ليلة القدر، ليلة الأنس بالقرآن، وقد أغضبَ العراقيّين شروّعنا بالتلاوة. لم يسمح العراقيّون لنا بإحياء الليل، كان صوت تلاوة القرآن يُسمع في كلّ أنحاء العنبر وكان القرآن مصدرًا لسكون أرواحنا في جوّ المخيم الكئيب. وعلى الرّغم من أنّنا كنّا مجبرين على النوم في الساعة التاسعة، تمنّى الحاجّ «حسين شكري» على الحراس أن يتركوا الأسرى هذه الليلة وشأنهم. بقي العراقيّون على موقفهم، وقالوا لهم: ما إن يُطلب منكم الالتزام بوقت النوم، على الجميع الذهاب إلى النوم. قال «يزدان بخش مرادي»: المهمّ أنّ نشغل أنفسنا بهذه الأعمال؛ اسمحوا لنا أن نقوم بأعمال هذه الليلة؛ فلن يضرّكم ذلك شيئاً، وستكونون شركاءنا في الثواب.

قال سلوان: «أنتم تطلبون منا أن نضع السلاح بين أيديكم؟!»

أجاب يزدان بخش: «أيّ سلاح، هل تعي ما تقول أصلاً؟!»

قال سلوان: «أنتم تقاثلوننا بأدعيتكم هذه، وهل عندكم سلاح آخر

غير الدعا؟!»

كان أحد الأسرى المتعاملين مع العراقيّين، قد ألّب العراقيّين علينا من خلال توضيح عبارة «الدعاء سلاح المؤمن»، وقال للعراقيّين:

«اتّقوا دعاء الأسرى الصائمين!»

قال الحاجّ «سعد الله لسلوان»: ويل لأمة تحسب نفسها غنيّة عن

توجّه وعناية أهل البيت عليهم السلام .

الليلة، حَرَمْنَا «شفيق عاصم» (ضابط القسم السياسي البعثي التكريتي)، من بركات إحياء ليلة القدر.

الثلاثاء 2 أيار 1989 - تكريت - المخيم 16

اليوم، تمّ الإمساك بأحد الأسرى بعد أن حاول الفرار، كان من أسرى المخيم (15). يقع هذا المخيم على بعد 200 م جنوب مخيمنا، وكما قيل، فقد ألصق نفسه بأسفل سيارة الآيفا، حاملة الخبز، أو السيارة التي تنقل نفايات المخيم إلى الخارج.

أثناء خروج سيارة الآيفا من الباب الثاني للقاعدة وقع الأسير الإيراني بأيدي حراس البوابة. بالإضافة لبوابة المخيم، كان للقاعدة التي تحوي مخيمات للأسرى المفقودي الأثر، ثلاثة حراس، كل واحد منهم أكثر تشدّدًا وغلظة من الآخر. كان الحراس عند خروج الآليات يفتشون أسفلها.

ولكي لا يفرّ الأسرى بين أكوام النفايات، في السيارة الحاملة لها، كانوا يطحنون النفايات بواسطة جهاز خاص.

فقد شكّل فرار أسيرين إيرانيين من «مخيم الموصل (2)»⁽¹⁾ في زمن الحرب، طعنةً في كبرياء العراقيين. وكانوا يقولون: «انتُهكت حيثيتنا العسكرية والأمنية». لم يكن يوجد أيّ منفذ للفرار في «مخيم تكريت»، وعلى حدّ قول «سعد»، رئيس الحراس: بعد فرار هذين

(1) «ذاكرس ميرانبي» و«محمد رضا عبيدي» هما الأسيران اللذان كانا قد فرّا من «مخيم الموصل (2)». وقد نُشرت مذكرات محمد رضا عبيدي في كتابه «الفرار من الموصل» من قبل منشورات سورمه برعاية مكتب الأدب والفنّ المقاوم.

الأسيرين الإيرانيين من الموصل، عزل صدام القائد العام للأسرى الإيرانيين في العراق، وعيّن مكانه العميد الركن «حميد نظر»، وقال صدام في لقاء مع حميد نظر: «أيها العميد الركن! إذا فرّ أسير إيراني من مخيمات العراق، فمن الأفضل أن تفرّ أنت أيضًا من البلاد، وإلا ستلقى حتفك قبل أن تطأ رجلاً ذلك الأسير أرض إيران!»

كان «حميد نظر» قد نقل كلام صدام هذا إلى قادة المخيمات، وقد نُقلت تهديدات صدام ووعيده إلى الجميع، من أعلى سلسلة الرتب إلى أدناها. فهُدّد «صدام» «حميد نظر»، وهُدّد «حميد نظر» بدوره كلّ قادة المخيمات، وقادة المخيمات هُدّدوا رؤساء الحراس، والحراس هُدّدوا وتوعّدونا.

سبّبت لنا عمليّة الفرار غير الموفّقة للأسير الإيراني مزيداً من التشدّد والقسوة؛ فازدادت نوبات الإحصاء اليوميّ من ثلاث إلى خمس مرّات، وأضيف إحصاء قبل الظهر، وبعد الظهر إلى إحصاء الصباح، والظهر، والمساء.

حاول أسير آخر الفرار داخل صهريج المياه، فعلق داخل الصهريج ومات. لم يستطع الخروج من صهريج المياه، وبقيت جثّته داخل الصهريج ثلاثة أو أربعة أيّام، فكُنّا نشرب من الصهريج الذي كانت الجثّة فيه. فاحت رائحة الجيفة من الماء، ظنّ الجميع بأنّها مياه البئر. بعد أسبوع، حين تفقّدوا الصهريج، سحبوا جثّته المهترئة.

كان الجلوس في صفّ الإحصاء، لخمس مرّات يوميّاً، أمراً منهكاً، ومدعاةً للعذاب. كنّا نحن الجرحى، وكبار السنّ أشدّ معاناةً من الجميع.

كان الإخوة صائمين. اختار الأسير الإيراني الوقت الأسوأ للفرار. لا أدري كيف يتقبَّل البعض من خلال فرارهم تصعيب الحياة على عدّة آلاف من الأسرى الإيرانيين. إذا كان واحد أو اثنان سيراتحان بفرارهم من عذاب السجن، لكن يبقى على أربعة آلاف أسير إيراني أن يدفعوا ثمن فرارهم.

وأدنى معاقبة على الفرار كانت زيادة نوبات الإحصاء من ثلاث إلى خمس.

جُمع الإخوة في فناء المخيم، وبأمر من الملازم «فاضل»، أُجبروا على التمرغ بالتراب، وأمر الملازم فاضل الحراس برمي الأسرى في قناة الصرف الصحي، ودُفع بعضهم، ممّن قاوم، في قناة الصرف الصحي بواسطة الأسلاك والهرافات.

جاء الإخوة زحفًا بتلك الألبسة المتسخة والمبتلة إلى مدخل العنبر، كانت رؤوسهم ووجوههم متسخة، وملابسهم متنجّسة، وملوثة بالتراب، وقد فاحت رائحة النجاسة في العنبر كله.

بعد هذه المشاكل والعذابات، إذا كانت لدى أسير ما خطة للفرار، سينصرف عنها بسبب الأضرار التي سُلحقتها فراره بعشرين ألف أسير إيراني «مفقود الأثر».

الأربعاء 3 أيار 1989 - تكريت - المخيم 16

مضت ساعة على الإفطار، أصبنا بالإعياء من شدة الجوع. وقف العمّ «إبراهيم»، أكبر الأسرى في العنبر، من دون أخذ الإذن، وخرج من صفّ الإحصاء قاصدًا كيسه الشخصي، أخرج كسرة خبز منه،

وراح يتناول إفطاره دون اكتراث، كان يشكو من ألم في المعدة، ومع ذلك كان يصوم، كان إنساناً نحيفاً، وقليل الصبر، تنور ثائرته بسرعة؛ لعل ذلك يعود إلى طبيعة كِبَر السنّ. عندما كانوا يوجهون الإهانات له، كان يغضب بسرعة. كان الإخوة يقولون له: عمّ «إبراهيم»! دارِ العراقيين قليلاً، ما دمنا نحن هنا، علينا تنفيذ أوامرهم؛ لأنّهم لم يتمكنوا من هزيمتنا في الجبهة، فهم يعوّضون الخسارة هنا، صحيح أنّك لست عسكرياً، لكن دارهم من أجل عائلتك، ما من سبيل أماننا، علينا أن نتماشى مع قضايا المخيم، وقوانين هؤلاء البطّالين. لكن الكلام لم يُجدِ نفعاً.

في شهر رمضان المبارك، لم يستطع الكثير من الإخوة الجلوس بأمعائهم الخاوية في صفّ الإحصاء، وقد أصيب بعضهم بالإعياء، وسقط أرضاً.

غضب «وليد» عندما وقف العمّ «إبراهيم» في صفّ الإحصاء، فحتّى الوقوف في صفّ الإحصاء كان يتطلّب أخذ الإذن، لم يأذن «وليد» له، صاح «وليد»، فيما كان يراقب بنظره العمّ «إبراهيم» من خلال الطاقة الصغيرة لمدخل العنبر، بأعلى صوته، وطلب منه الرجوع إلى صفّ الإحصاء، والجلوس في مكانه، لم يكثرث العمّ «إبراهيم»، وظلّ يتناول كسرات خبزّه.

كثيراً ما كان يحدث أنّه إذا ما اشتكى أسيرٌ من الجلوس الطويل في صفّ الإحصاء، كان الحرّاس يزدادون عناداً، وبيقونه لفترة أطول، وكون العمّ «إبراهيم» لم يرجع إلى صفّ الإحصاء، جعل «وليداً» يستشيط غضباً. لم تُجدِ ضغوطات «وليد» لإجلاس العمّ «إبراهيم» في

صفّ الإحصاء. ما إن علا صوت صفّارة الانتشار، حتّى هرع الإخوة، من شدّة الجوع، إلى أوعية الطعام. كنت قلقاً على العمّ «إبراهيم»، دخل «وليد» العنبر، وأخذ بعنقه، وأحضره إلى وسط العنبر، المكان المخصّص للإحصاء، قائلاً له: «إنّك شيخ عنيد، عليك أن تجلس ساعة في صفّ الإحصاء!»

كان جميع الحرّاس، ما عدا «وليد» و«عطية»، يحترمون العمّ «إبراهيم». عندما أحسّ «وليد» بحقّ الأسرى عليه قال: على «إبراهيم» أن يجلس ساعة في صفّ الإحصاء؛ بسبب عدم امتثاله لقانون الإحصاء، لا فرق عندي بين الشيخ والشابّ، مفهوم؟⁽¹⁾ كان إفطار الليلة أشدّ الافطارات مرارةً. كان الإخوة يتألّمون في الصميم لمظلوميّة العمّ «إبراهيم»، ويكيلون اللعنات لـ«وليد»، وأنا أيضاً لعنته في قلبي.

لم تُجدِ توسّلات وتمنّيات «عليّ جار الله». حاول «مسعود شفاعت»⁽¹⁾ أن يقوم بعمل يجعل «وليداً» يترك العمّ «إبراهيم» وشأنه، وقد حاول الاستفادة من بعض الأحاديث والروايات قائلاً له: «صحيح أنّك تستطيع القيام بكلّ ما تريده، لكنّ الله سينتقم منك بسبب أفعالك هذه، هذا الشيخ الكبير يتألّم، لعناته تؤدّي إلى خراب عيش المرء، خفِ الله!»

عندما تابع المهندس كلامه، غضب «وليد»، وأجلسه إلى جانب «العمّ إبراهيم».

(1) كان المهندس «مسعود شفاعت» من الإخوة في مؤسّسة جهاد البناء في فارس. بعد التحرّر أصبح مسؤول أمور الجرحى في مؤسّسة جهاد البناء في محافظة فارس.

وحين لم يؤدّ كلام المهندس «شفاعت» إلى نتيجة، ذهب المهندس «غلام رضا كريمي» إلى «وليد» وكلمه، لم يقنع «وليد» بترك العمّ «إبراهيم» وشأنه. في النهاية، نادى المهندس «كريمي» المترجم «حكيم خليفان»، وطلب إليه أن يترجم لـ «وليد» هذه الآيات من شعر «بوريا ولي»:

إذا كنت أميرًا على نفسك، فأنت رجل
وإذا لم تبحث عن عيوب الآخرين فأنت رجل
ليس الرجل من يرفض من سقط أرضًا
إنّما الرجل من يأخذ بيده

السبت 6 أيار 1989 - تكريت - المخيم 16

عصر اليوم، دخل الحراس العنبر بالأسلاك والهرافات. لم يرحموا جريحًا، أو كبيرًا في السنّ، لم أكن أدري ما الخبر، انتابني الفضول لأستعلم الأمر. قال «عطية»، وقد كان رجلاً فظًا: لقد كتب الأسرى على الحائط خلف باب أحد المراحيض كلامًا مسيئًا لصدّام». ومن جملة ما كتبوه:

- اليوم هو يوم ميلاد صدّام، لطفًا، بعد قضاء حاجتكم، أريقوا الماء جيّدًا لكي يصبح قصر صدّام نظيفًا!
منذ عصر اليوم، قُطعت المياه عنّا، أظنّ أنّنا كنّا نستحق العقاب!

الأحد 7 أيار 1989 - تكريت - المخيم 16

اليوم، لم يسمح العراقيّون لنا بتأدية صلاة عيد الفطر جماعةً، وباءت محاولات الحاجّ «سعد الله كل محمّدي»، والحاجّ «حسين

شكري» بالفضل، مع أنَّ عيد الفطر هو العيد الأساسي عند العرب، إلا أنَّ صلاة الجماعة كانت ممنوعة، فصلَّى الإخوة صلاة العيد فرادى.

الاثنين 8 أيار 1989. تكريت. المخيم 16

اليوم ثاني أيام عيد الفطر السعيد. لم يكن العراقيون مرتاحين، مع أنَّه كان يوم العيد. لم أكن أدري ما الخبر. بحث «علي جار الله» عن «رامين». كنت على يقين من أنَّه يريد إخباره بأمر مهم. قصدت رامين لأستطلع الخبر، كان الخبر يتعلق «بعدنان خير الله» وزير الدفاع العراقي.

كان «عدنان خير الله»⁽¹⁾ قد قُتل بالأمس، وفضلاً عن كونه وزيراً للدفاع، كان نائب القائد العام للقوات المسلحة. كان مقتل «عدنان خير الله» بعد انتهاء الحرب موضعاً للتساؤل، وقد تصدرَّ خبر مقتله عناوين الصحف العراقية هذا اليوم. فصحيفة القادسية كتبت في عنوانها الأول: «عدنان العظيم كان أم انتصارات الجيش العراقي في الحرب».

كان صدام يعتبر نفسه أبا الانتصارات في العراق، وعدنان أمها. حاول البعثيون إظهار موته على أنَّه موت طبيعي، لكنَّ «سامي» و«علي جار الله» كانا يعتبران موت «عدنان خير الله»، الرجل الثاني في العراق، مؤامرةً خُطط لها مسبقاً.

كان «عدنان خير الله» يحظى بمكانة في صفوف العسكريين والموالين للحكومة العراقية أكثر من صدام. كان يُقال: «عدنان»

(1) عدنان خير الله ابن خير الله طلفاح، ابن خال صدام، وأخ زوجته.

متعلّم، وخريج كلية الضباط، أبوه «خير الله طلفاح». أعلنت الصحف خبر موته عند سقوط طائرة الهليكوبتر التي كان على متنها بصورة مبهمة. وقد سقطت طائرته في منطقة صحراوية بين محافظة أربيل وتكريت. بعد أيام، علمت أنّ طائرته فُجّرت بأمر من «صدام» على يديّ نجله عديّ الذي كان ابن أخت «عدنان خير الله».

قال «علي جار الله»: بعد الحرب، كان «صدام» يزيح من طريقه كلّ من يشعر بأنه يُشكّل خطراً عليه! لكن اعتبروا أنفسهم كأنكم لم تسمعوا هذا الكلام مني».

الاثنين 15 أيار 1989. تكريت. المخيم 16

دخل العنبر أربعة أشخاص من عملاء منظمة «مجاهدي خلق» برفقة الملازم «فاضل» و«شفيق عاصم» ضابط دائرة التوجيه السياسي، كانت تلك المرّة الثانية التي يأتي فيها مسؤولو المنظمة للاستعانة بنا. المرّة الأولى كانوا قد أتوا إلى «المخيم الملحق» في شهر تشرين الثاني من العام 1988، وقد خرج عملاء المنظمة من المخيم خائبين.

كان أحدهم يناهز الأربعين من العمر، أصلع، وذا لحية قصيرة، والآخر أسمر اللون، طويل القامة، يتكلّم بلهجة طهرانيّة غليظة، ويبدو من هيئته أنّه في الخمسين من العمر، ويظهر أنّه قائد المجموعة. غالباً ما كان هو المتحدث، قبل أن يبدأوا بالكلام، قام الملازم «فاضل» بالترحيب بهم والتقديم للموضوع، ومن حظّه العاثر أنّ الملازم «فاضل» كان هو المعروف عنهم، ولم يكن ماهراً في الكلام،

وكان للإخوة ذكريات سيئة معه.

أفراط الملازم «فاضل»، الذي أصبح اليوم ودوداً، بتبجيل منظمة المنافقين. لا زلت أذكر بعضاً من كلامه:

... هؤلاء إيرانيون، من وطنكم، يفكرون فيكم أكثر من مسؤولي حكومة الخميني! ولقد آويناهم على الرغم من أننا قاتلناكم ثمانى سنوات؛ لم يكن هؤلاء مكان في إيران، فلجأوا إلى العراق؛ ينبغي عليكم أن تشكرونا؛ إذ آوينا مواطنيكم في العراق، ولو بقوا في إيران، لكان نظام الخميني أعدمهم. إنهم يريدون تحريركم من شرّ رجال الدين!

أمّا «شفيق عاصم»، ضابط قسم التوجيه السياسي، الذي كان عاقلاً وفطناً، فقد نسف بجملة واحدة، عن قصد أو عن غير قصد، كل كلام الملازم «فاضل» وأعضاء منظمة المنافقين، وخلافاً لسيرته أخبرنا هذا الضابط الأمر على حقيقته:

- من يريد منكم أن يكون عضواً في منظمة مجاهدي خلق، يمكنه ذلك، لكنكم لا تستطيعون الالتحاق بهم!

ظنّ بعض الإخوة أنهم سرعان ما يتحرّرون من سجون تكريت وبلاد ما بين النهرين. وأنا نفسي ظننت أنهم أتوا ليأخذوا معهم كل من يحبّ. قال أحد أعضاء المنافقين:

- «الأوضاع في إيران غير مؤاتية في الوقت الراهن، وحتى الآن لم تتمكّن إيران من تنفيذ القرار 598. هناك احتمال كبير أن تبدأ الحرب من جديد، وأن تشنّ أميركا هجوماً على إيران. إيران آيلة إلى السقوط! والمسؤولون الإيرانيون لم يخطوا خطوة واحدة حتى الآن

من أجل تحريركم، لقد نُسيتم. بالنسبة إلى المسؤولين الإيرانيين، لا قيمة لحَيِّكم، ولا لميَّتكم! لو كانت لكم أهمية عند إيران، فلم يجب أن تبقوا في السجن كل هذه السنوات بعد الحرب. أريد منكم أن تلتحقوا بنا؛ ليكون لكم مستقبل زاهر، ومشرق في العراق.

كان رجالاً ذكياً، حاول تشويه الصورة، وسوس بكلماته في عقول البعض، وصدقت كلامه قلة قليلة من الأسرى السذج.

طلب العراقيون وأعضاء المنظمة من الأسرى تسجيل أسمائهم. سجّل بعض الأسرى أسماءهم ممّن خدعوا ببريق كلامهم، وانطلت الأعياب عليهم، والذين ملّوا الأسر، لم يتجاوز عدد هؤلاء عشرين شخصاً. كانوا يتوقعون إقبال عدد أكبر من الأسرى.

حاول المهندس «غلام رضا كريمي» ثني الإخوة عن تسجيل أسمائهم، فزجره الملازم «فاضل»، فجلس مكانه. مع أنّ «شفيق عاصم»، ضابط قسم التوجيه السياسي، قد قال: «أولئك الذين يسجلون أسماءهم لا يمكنهم الالتحاق بمنظمة مجاهدي خلق إلاّ عند تبادل الأسرى، فإنّ بعض الأسرى ظنّوا أنّهم إذا ما سجّلوا أسمائهم فسوف يخرجون فوراً من المخيم.

في نهاية المطاف، قال الملازم فاضل: «ستصبح معاملتنا مع تلك المجموعة التي تلتحق بمنظمة مجاهدي خلق حميمة وأخوية، كلّ من يسجل اسمه، فهو اليوم ينشق عن نظام الخميني، وإنّا أصدقاء الذين ينشقون عن نظام الخميني^(١)!

(١) ما إن ذكر اسم الإمام حتّى علت الأصوات بذكر الصلاة على محمد ﷺ وآل محمد، ممّا أغضب العراقيين وأعضاء منظمة المناقطين.

الثلاثاء 16 أيار 1989 - تكريت - المخيم 16

ذهبت والحاج «حسين شكري» إلى أسير كان قد التحق بالمنظمة بالأمر. جلست إلى جانبه. كنا أصدقاء، لم أكن أظن أنه سيُخدع بهذه السهولة. غالباً ما كان يأتي إليّ عندما كنت في المخيم الملحق، ويفضي إليّ بهومومه. كان صبيّاً محبباً وبسيطاً. أردت أن أعرف ما الذي دفعه ليفعل ذلك. كان من أهل الصلاة. سأله الحاج «حسين»: لِمَ فعلت هذا؟ شعرتُ أنه خجل من ذلك، فقد قطع الكثير من أصدقائه الحزب الهيين علاقتهم به. كان يقول: «أقسم بالله، لا أطيق النظر إلى خائني الوطن، كنت أظن أنني بعلمي هذا سأخلص من شرّ الأسر»، فقال الحاج «حسين»: تريد أن تتجوّ من الحفرة لتسقط في البئر؟ لم يكن لديه أيّ جواب، كان نادماً، كان يظنّ أنّ المنافقين سيأتون في القادم من الأيام، ويخرجونه مع الذين سجّلوا أسماءهم من هذا المخيم. نصحه الحاج «حسين» كثيراً.. وقد أثر كلامنا فيه. قال الحاج «حسين»: «يا بني! إن أباك، وأمك، وكلّ عائلتك في إيران تفتخر بك كأسير، هل فكرت فيما لو رجع الأسرى إلى إيران، وعلمت عائلتك أنك أصبحت عضواً في جماعة المنافقين، كم سيشعرون بالخيبة؟ عائلتك الآن في إيران عائلة أسير «مفقود الأثر»، لكن ماذا ستصبح عندها؟ بدا التأثير بكلام الحاج «حسين» واضحاً على وجهه.

في الأيام التالية أظهر الندامة، وقرّر إذا ما سلّمه العراقيون قلعاً، أن يكتب رسالة جوابية إلى المنظمة يعلن فيها ندمه على تسجيل اسمه.⁽¹⁾

(1) حُزّر مع الأسرى الإيرانيين، عندما كان الأسرى عائدين إلى إيران قال لي: سيّد! برأيك، ألا تتحوّل فعلي تلك إلى قضية؟ قلت له: لا تقلق، أنت لم تلتحق بهم.

الثلاثاء 23 أيار 1989. تكريت. المخيم 16

بالأمس، شتمني «وليد» شتائم مستهجنة. عند الظهر، حين دخل النقيب «خليل» لتفقد المخيم شكوت «وليداً» إليه. كنت منقبض القلب كثيراً، إلى درجة طلبت فيها من «خليل» أن ينقلني إلى عنبر آخر، قلت: «أود أن أذهب إلى مكان لا وجود لـ «وليد» فيه». كنت أود أن أكون في العنبر رقم (3) إلى جانب السيد «فاضل فضليان»، أو في العنبر رقم (4) إلى جانب «منصور مظاهري»، وأبناء مدينتي. أحياناً كان «منصور» يأتي برفقة أبناء «كجساران» بمحاذاة السلك الشائك لرؤيتي. جميع أبناء مدينتي، والذين كان «منصور» زعيمهم، كانوا في العنبر رقم (4). كانوا إخوة ودودين وظرفاء، كانوا في صفوف الجيش، لكن كانت لديهم روحية التعبئة.

كان «النقيب خليل» قد نبّه «وليداً». علمت ذلك من «علي جار الله». قال له: «دع ناصر سليمان وشأنه!» كانت تلك المرة الأولى التي أشكو فيها «وليداً». عندما كنت في المخيم الملحق، عزمت مراراً عديدة أن أشكوه، لكن حين كنت أفكر في عاقبة ذلك كنت أراجع، كنت أتمنى عندما أشكوه أن ينقله النقيب إلى مكان آخر، كما فعل بعيسى الحارس السوداني. كان وليد بعثياً مدعوماً فهو من أقارب «شفيق عاصم»، ضابط قسم التوجيه السياسي للمخيم، كنت قد سمعت هذا الأمر من «سامي».

بعد الظهر، عندما كنت أتوضأ ناداني «وليد»، جئت إليه، قبل الإتيان بأيّة حركة، جعل ينظر في عيني، كان الحقد والغضب يملأ عينيه، انتظرتُ لأرى ماذا سيفعل؟ لم أستطع دخول العنبر من دون

إذنه. وبينما كان الإخوة يدخلون العنبر من أجل الإحصاء، صفعني «وليد» صفعةً قويّةً على خدي وركلني برجله، وقعت على الأرض، فرفعني «حميد زارع زاده»⁽¹⁾. توجّه «محمد كاظم باباي»، الذي شهد ضربي، إلى «وليد» قائلاً: «لهذا السيّد المعوّق جدّ، لم تعامله هكذا!». انزعجت كثيراً؛ لأنّي وقعت أرضاً. عندما أردت الدخول إلى العنبر ناداني «وليد»، وقال:

- تشكوني إلى مسؤول المخيم! إن تجرأت مرةً أخرى على ذلك، سأنتزع روحك.

قلت «لحكيم خليفان» الذي كان يترجم كلامنا:

- قل له، لقد شكوته مرّةً إلى النقيب «خليل»، وكانت النتيجة تلك الصفعة على وجهي. إذا قطعت رجلي هذه في هذا المخيم، فلن أشكوك إلى «خليل»، لكن اطمئنّ، سأشكوك إلى شخص سيقضي عليك. إذا كان لي جدّ، فإنّ جدّي سيقضي عليك، وإلا فلا جدّ لي! ترجم «حكيم» كلامي، وكان هو أيضاً منزعجاً من أعمال «وليد». حتّى ذلك اليوم لم يحدث أن كرهت أحداً هكذا، ومن أعماق قلبي. كانت تلك المرّة الرابعة التي يرفسني فيها، وقد فعل هذا الأمر أمام أعين الكثيرين. المرّة السابقة عاقبني خارج العنبر، واليوم انكسر قلبي.

بعد فترة، ذهب «وليد» في إجازة، وعند عودته، كانت يده اليمنى ملفوفة بجبيرة، ومعلّقة بعنقه. لم يقل شيئاً، لكنّ «الدكتور مؤيد» قال: لقد وقع حادث سير «لوليد» أثناء قيادته سيّارته الشخصية

(1) كان «حميد زارع زاده» مجنّداً، وهو الآن يعمل في بنك صادرات إيران شعبة أبركوه في يزد.

من نوع تويوتا على طريق عام البصرة - العمارة، وقد كُسرت يده من المرفق. وبعد أسبوع من الإجازة العلاجية، دخل المخيم، وسأل فاضلاً (مسؤول العنبر) عني، كنت جالساً تحت السقيفة الغربية للعنبر، فجاء إليّ، وقال: «ها ناصر استخباراتي! لقد دعوت عليّ، ها قد تعرّضت لحادث سير!»

ظننت أنه بسبب الحادث الذي وقع له سينهال عليّ بالسوط، وقد سُررت؛ لأنه لم يضربني. في تلك الأيام كنت أظنّ أنّ تغييراً ما قد حصل في سلوكه، لكنني أدركت فيما بعد أنّ «وليداً» ليس بالإنسان الذي يؤوب إلى نفسه، ويتغير.

الخميس 25 أيار 1989 - تكريت - المخيم 16

قبل الظهر دخلت المخيم سيّارة الأيضا العسكرية الخاصة بالتجهيزات.

اجتمع الإخوة في باحة المخيم لاستلام حصصهم من النعال البلاستيكية للسنة الثانية من الأسر، وقف الإخوة صفوفاً، وبشكل منتظم، وتسلموا حصصهم، كان من المقرر أن نستلم بعد شهر حصصنا من الألبسة.

وقفت أنا و«محمد كاظم باباي»⁽¹⁾ في نهاية الصف، «وكلانا كنّا مبتوري القدم». كنت أنا قطيع الرجل اليمنى، وكان محمد قطيع الرجل اليسرى؛ لذا اتفقنا على أن أعطيه فرد النعل الأيمن، ويعطيني هو فرد النعل الأيسر. وهكذا يكون كلانا قد حصل على نعلٍ

(1) كان «محمد كاظم باباي» من أبناء يزد ومن عناصر لواء الغدير 18.

إضافي. عندما وصل الدور إليّ وإلى «محمد كاظم»، كنت واقفاً قرب الباب الخلفي لسيارة «الآيفا»، وحين أراد جنديّ التجهيزات تسليمي نعلي، قال النقيب «خليل» الذي كان واقفاً في زاوية وراء سيارة الآيفا العسكرية:

«زوج واحد يكفي لهذين الشخصين!»

لقد أصبنا بسبب كلام «خليل» بخيبة كبيرة، كان إنساناً حذقاً وذكياً. أعطونا نحن الاثنين زوج نعل واحد، وادّخروا الزوج الآخر في تجهيزات الجيش العراقيّ!

الثلاثاء 3 حزيران 1989 - تكريت - المخيم 16

كانوا منذ مدة قد أحضروا لنا تلفازاً. في الليلة السابقة، انهارت أعصابنا عندما كان التلفزيون العراقيّ يبثّ صوراً تظهر وجه الإمام المتعب والمريض. وعندما كانت النشرة الإخبارية المسائية تعرض صور الإمام، وقد أدخل «مستشفى قلب طهران»، هرع الأسرى نحو التلفاز، وراحوا ينصتون جميعاً. بُهت العراقيّون، فلم يتمكن الحراس إلى ذلك اليوم، من جعل الأسرى الإيرانيين، حتّى بالتهديد والإجبار، يجلسون لمشاهدة برامج الرقص، والغناء، والاستعراضات التلفزيونية الخاصة بهم. كنّا نفكر بالإمام، ونحن في الأسر، بمقدار ما كنّا نفكر بعائلاتنا. أكثر ما كان يفرحنا أنّهم سيأخذوننا للقاء الإمام بعد تحرّرنّا. والتفكير بلقاء الإمام بعد الأسر كان يهوّن علينا آلام الأسر وعناءه. لقد امتزج عشق الإمام بحياة الأسر.

لم يكن من قلبٍ لا يخفق لذكر الإمام، لم يكن من قلبٍ يغفل عن

ذكر الإمام. تجمّعنا أمام التلفاز، كانت أعين الأسرى الباكية والقلقة متوجّهة إلى المراسل ونشرة الأخبار المسائيّة. للحظة ساد الصمت جوّ العنبر، الكلّ كان مضطرباً وقلقاً. كنت مشتاقاً لرؤية صورة الإمام. بعد سماع خبر إدخال الإمام إلى المستشفى كنّا ننتظر بجزع خبر تحسنه. عندما انتهى بث صورة وجه الإمام من على شاشة التلفزيون العراقيّ، تفرّق الإخوة، أخذ كلّ واحد ناحيةً كالتكلى، ورفع يديه بالدعاء لشفاء الإمام. دعا الحاجّ «سعد الله» بطريقة خاصّة: «إلهي أنت تعلم أنّ لا أحد لنا غير هذا الإمام، إلهي لا تأخذ الإمام منّا». كانت ليلة صعبة وطويلة، أمضاها معظم الإخوة، حتّى أولئك الذين كانوا أكثر الأوقات غير مباينين، كانوا مضطربين وقلقين حتّى الصباح. بتنا ليلتنا على أمل أن تصلنا في الغد أخباراً عن سلامة الإمام.

الأحد 4 حزيران 1989 - تكريت - المخيم 16

قبل الظهر، جلس عدد من الإخوة في الباحة الترابيّة للمخيم على الأرض، متّجهين إلى القبلة، وراحوا يدعون لشفاء الإمام. كان الحاجّ «حسين شكري» يقول: «أنا على يقين أنّ الله إذا أراد أن يستجيب دعاءً، فسيكون دعاء الأسرى المكسوري الخاطر، أمّا لو طلب الإمام من الله سبحانه الذهاب إلى جوار الشهداء وجدّه الأظهر، فلن يكون لدعائنا أي أثر».

بعد الظهر، انطلقت الصفّارات معلنةً موعد الإحصاء، فتوجّه الإخوة نحو العنبر، وهم في حالة اضطراب وخوف، وجلسوا في صفّ الإحصاء. كانت الأنظار شاخصةً إلى العراقيّين، و«أعلاء»، المترجم

الإيرانيّ الناطق باللغة العربيّة. كان «أعلاء» يترجم لنا يومياً، قبل دخول القائد إلى المخيم بهدف الإحصاء، أخبار الصحف العراقيّة بالفارسيّة، وكانت ترجمة الصحف العراقيّة من قبل أحد الأسرى الإيرانيين العرب في صفّ الإحصاء في العنابر أمراً سائداً. كنّا نتنظر سماع أخبار تحسّن صحّة الإمام. بعد الظهر، انتشر عدد كبير من الحراس في جوانب العنبر. من تزايد عدد الحراس حول المخيم، يُستفاد أن الأوامر قد أعطيت للعراقيين أن يستعدّوا. ما إن دخلنا العنبر حتّى خرج العراقيّون وأغلقوا الباب.

لم يكن «أعلاء» كعادته. كان في السابق يترجم أخبار الصحف العراقيّة بهدوء ومن دون تأخير. حاول «أعلاء» أن يتمالك نفسه عن البكاء، وأعلن الخبر المفجع، عندما قال وهو يغصّ بكلماته:

- لقد التحق الإمام الخمينيّ قدس سرّه بالملكوّات الأعلى! تسمّرت في مكاني! ظننت أنّي أحلم، لم أكن أفكر يوماً بجماران من دون الإمام. ساد الصمت جوّ العنبر للحظات، ودفعة واحدة، علت أصوات الأسرى بالنحيب، كلّ من في العنبر كان ينوح ويبكي. لطم الكثير الرؤوس والوجوه، وكأنّ كل واحد من الأسرى فقد قريباً من الدرجة الأولى. ضجّ العنبر بالبكاء والنحيب، وأغمي على عددٍ منهم في اللحظات الأولى من سماع الخبر. كان كلّ واحد ينتحب بطريقته، ابتداءً من العمّ «إبراهيم»، أكبر الأسرى سنّاً، إلى «أمير»، ابن السنوات التسع وأصغرهم سنّاً. لم نكن نصدّق أنّ الوجود اللطيف للإمام سيرتفع من بيننا.

لم يكن الحراس يتصوّرون كلّ هذه المحبّة التي يكتّوها الأسرى الإيرانيّون للإمام.

دخل الملازم «فاضل» إلى العنبر. بناءً لأوامره، لم يُسمح لنا سوى بساعتين لإقامة العزاء عن روح الإمام؛ في تلك الليلة، عندما طلب العراقيّون منّا الوقوف في الصفّ لأخذ طعام العشاء، لم يستجب أحد. كانت الليلة الوحيدة التي لم يذق فيها أحد طعاماً. فهذا الارتحال قد يَتِمُّ أبناء الإمام في الغربة.

في آخر الليل، كانت أصوات البكاء والنحيب تتعالى من كلّ ناحية. كان الجوّ حارّاً داخل العنبر، ومع ذلك كان الإخوة يغطّون رؤوسهم بالبطانيّات وينتحبون، وظلّت تُسمع أصوات البكاء والنحيب من نواحي العنبر إلى منتصف الليل.

الاثنين 5 حزيران 1989. تكريت. المخيم 16

تبدّلت الزيارات واللقاءات الليليّة إلى مجالس حزن ومآتم. كانت الأعمال النهارية تُعجز بصعوبة. لم يكن لأحد جُلْدٌ على الدرس والتدريس. كان الإخوة يجلسون في جوانب باحة المخيم، يلتفّون على أنفسهم، ويحدّقون بشيء ما. ما عاد للكثيرين منهم جُلْدٌ على المشي في الباحة الترابية للمخيم كالسابق. وفي صفّ الإحصاء، كان معظم الإخوة ينطوون على أنفسهم، ولا يتكلّم أحد مع من بجانبه.

قال «رامين حضرت زاد»: «سيد! لقد قال الإمام الحسين (عليه السلام) حين شهادة علي الأكبر (عليه السلام)، على الدنيا بعدك العفا، وكذلك نحن، ينبغي أن نقول بعد الإمام، على الدنيا بعدك العفا» كان الحراس مبهوتين لرؤيتهم هذا الجمع العظيم من الأسرى يبكي الإمام. وقد شهدت بكاء اثنين من الحراس هما: «سامي»، و«علي جار الله». كان

الدكتور «مؤيد» حزيناً على الإمام، لكنه كان يخفي ذلك. كان بعض الحراس البعثيين مسرورين. قال «يزدان بخش مرادي»⁽¹⁾ لـ «عطية»: «بالنهاية سينبئ التاريخ الشعب العراقي من كان الإمام الخميني، ومن كان الآخرون، ماذا فعل الإمام الخميني وماذا فعل الآخرون!» كان الأسرى قلقين على الوضع بعد الإمام.

كنا نود أن نعلم من هو الشخص الذي سيتولى قيادة الشعب الإيراني بعده، وكان الحراس البعثيون يتكلمون علينا كثيراً، كانوا يحسبون أن كل شيء قد انتهى ب وفاة الإمام، كان حامد يقول: «لو كان قائدكم قد مات زمن الحرب لفتحنا إيران حينها!»

كان البعثيون ومن جملتهم الملازم «فاضل» يقولون: «بموت قائدكم، سيسقط الحكم في إيران». فأجابهم الأسير «أصغر إسكندري»: «وهل انهزم الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ؟ إن الثورة الإيرانية ليست قائمة على شخص محدد بذاته، تماماً مثلما أن الإسلام لم يكن، ولن يكون قائماً على شخص».

أمّا «وليد» فقال: بموت قائدكم، سيعود «مسعود رجوي» خلال أيام إلى إيران، وسيصبح هو القائد. لكن «علي جار الله» و«سامي» كانا يقولان: «ليست إيران بالبلد الذي يواجه مشكلة برحيل قائده». واسانا «علي جار الله» الذي لم يكن يخفي أمام الأسرى محبته للإمام، وآسانا وقال: «نحن أيضاً حزينون على وفاة الإمام الخميني، لقد كان الخميني رجلاً عظيماً!»

(1) كان يزdan بخش مرادي من أبناء قزوین، ومن العناصر المحورية والفكرية في المخيم. نال في العام 1992 شهادة الماجستير في الحقوق من جامعة تربيت مدرس - طهران. وهو الآن أستاذ جامعي وعضو في مجلس شوري مدينة قزوین.

اليوم، ولكي يعلن الإخوة الحداد، بدّلوا ملابسهم الصفراء بالملابس الكحلّية الخاصّة بالأسر. لكن بعد أن سلّم الإخوة الملابس الصفراء الخاصّة بالأسر، لم يسمح رئيس الحرس للأسرى بارتداء الملابس الكحلّية، أي التّبّان (لباس مؤلف من قطعة واحدة). لم يردنا أيُّ خبر عن قرار مجلس خبراء القيادة. كانت تُطرح آراء مختلفة، كلّ واحد كان يذكر اسم عالم من العلماء، وقائد من قادة الثورة. كان الحاجّ «سعد الله كل محمّدي»، و«حسن بهشتي بور»، و«يزدان بخش مرادي»، والمهندس «غلام رضا كريمي»، وعدد من الأسرى يقولون: «إنّ السيّد الخامنئيّ أهل للقيادة». أمّا أنا، ففي خبرتي الحديثة، لم أكن أتصوّر على الرغم من وجود كلّ هؤلاء المراجع الكبار والقيادات المسنّة، أن يتمّ انتخاب شابّ ذي لحية سوداء كآية الله الخامنئيّ للقيادة، كان تصوّري لقائد بلدي دومًا، أنّه ينبغي أن يكون شخصيّة ذا لحية بيضاء، يناهز السبعين من العمر؛ لا أدري لمّ أمدّنا طرح اسم آية الله الخامنئيّ في تلك الأيام بكلّ ذلك الاطمئنان وقوّة القلب.

الثلاثاء 6 حزيران 1989 - تكريت - المخيم 16

نشرت الصحف العراقيّة الحانقة تفاصيل الاجتماع التاريخيّ لمجلس خبراء القيادة في إيران، وقد علمنا من الخبر المنشور في صحيفة الثورة أنّ آية الله الخامنئيّ قد انتخب قائدًا لجمهورية إيران الإسلاميّة.

منذ الأمس، كان العراقيّون، وخاصّة الضابط «شفيق عاصم»،

مسؤول قسم التوجيه السياسي، يستطلعون آراء الأسرى فيما يخص القائد المستقبلي. كانوا يريدون أن يعلموا من سيصبح قائد إيران. عندما كانوا يستمعون إلى أجوبة الأسرى الإيرانيين، كانت وجوههم تتجهّم، ولا يستطيعون إخفاء انزعاجهم، ما كانوا يحبّون أن يصبح آية الله الخامنّي قائداً لإيران، وهم حتّى يعرفون السبب أكثر من غيرهم. كان بعضهم يقول: إنّ الرئيس القائد، وشورى قيادة حزب البعث، ومن جملتهم عزّة إبراهيم الدوري، وطارق عزيز يحبّون أن يُنتخب مسعود رجوي كقائد لإيران بعد الخميني. إذا لم يكن رجوي، فمنتظري! قلت للعرّيف مؤدّن: «إنّي لأعجب كيف لا تعلمون أنّه لا يمكن لشخص يلبس السروال والجاكيت أن يصبح قائداً!» وقال له المهندس «كريمي»: «إنّ عزّة إبراهيم الدوري وطارق عزيز لا يحبّون أن يكون هناك قائد للشعب الإيراني!»

الخبر الوحيد الذي طمأن قلوب الأسرى الإيرانيين القلقة، كان انتخاب آية الله الخامنّي كقائد للشعب الإيراني، الخبر الذي حلّ كبلسم على قلوب الأسرى المفجوعة في غياهب سجون العراق. اليوم، بُثّ القسم الأخير من البرنامج التلفزيوني «سيماء المقاومة»⁽¹⁾ على التلفزيون العراقي، وهو من إنتاج منظمة المنافقين. لا أدري لِمَ شتم مقدّم البرنامج الإمام كثيراً. وقد كانت ردّة فعل

(1) كان البرنامج التلفزيوني «سيماء المقاومة» من إنتاج منظمة مجاهدي خلق. وكان هذا البرنامج يُبثّ كلّ يوم لمُدّة تسعين دقيقة، ابتداءً من الساعة السادسة عشرة، من سائر شبكات التلفزيون العراقي. معظم مقدمي هذا البرنامج ومنتجيه ومخرجيه كانوا من العاملين في النظام السابق في الإذاعة والتلفزيون التابع للحكومة الشاهنشاهيّة. وكانوا يضمرون حتّداً وعداوة خاصّة للإمام والإسلام ورجال الدين، وكانوا معارضين للقيم الإسلاميّة والثورة. كما كان لإذاعة «صوت إيران الحر» برنامج يومي يُبثّ من الساعة السابعة عشرة إلى الساعة الثامنة عشرة.

الإخوة أن راحوا ينادون بصوت يصمّ الأسماع: الموت للمنافق، الموت لرجوي. كانت منظمة المنافقين تعتبر أنّ كلّ شيء قد انتهى. توجه الإخوة، بسبب الإهانة التي وجهها مراسل الحلقة الأخيرة من برنامج «سيماء المقاومة»، للحراس قائلين: «خذوا تلفازكم وإلا سنكسره».

ذهب أحد الإخوة ليكسر التلفاز، منعه الحاج «سعد الله»، تعجبت عندما قال الحاج «سعد الله» له: «لم تريد أن تكسر التلفاز، إنه خاصّ ببيت المال!» فقال للحاج «سعد الله»: «أونحن في إيران، حتى يكون خاصاً ببيت المال؟! أجابه الحاج: «وهل يجب أن يكون ملكاً لإيران حتى يُحتسب من بيت المال؟! هذا التلفاز هو للشعب العراقي، صحيح أنه بيد جيش صدام، ولكنّ صدام لن يدوم إلى الأبد، ولا بدّ أن يأتي يومٌ يتخلّص فيه العراقيون من شرّه».

شاع بين الإخوة، أنّه لن يشاهد أحد التلفزيون العراقي. كان الإخوة بعد وفاة الإمام كنارٍ تحت الرماد. قبل فترة، وبسبب إهانة «راديو مجاهد» للإمام، رمى الإخوة الحجارة نحو مكبّرات الصوت في المخيم. كان «راديو مجاهد» ينشر الدعايات الإعلامية المضادة للثورة والإمام بتمويل من الدول الغربية. كانت برامج «سيماء المقاومة» والخطابات اليومية للمنافقين تُبثّ من القواعد الموجودة في ضواحي بغداد، والتموّل من وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة (CIA)، وسائر الدول الأوروبيّة الأخرى. فمنذ بداية الحرب، أُستُحدث جهاز إرسال إذاعي، كان يُعرف «بصوت إيران الحرّ»، تحت إشراف «الفريق أوّل أويسي»، وكان ينشط ضدّ النظام الإسلامي في إيران.

كان الحراس يظنون أنّه بإجبار الإخوة على حضور برامج منظمة

المنافقين، سيتمكنون من جعلنا نقلب ضد النظام، والثورة، والإمام. كان «علي جبار الله» يقول: «إن العراقيين أساساً، لم يحضروا لكم التلغاز إلا على أمل التمكن من حرف أفكاركم!»

الأربعاء 14 حزيران 1989 - تكريت - المخيم 16

كنت متعجباً من «السيد حسن»، الحارس العراقي؛ فقد أصبح حسن المعاملة معي، ولم يعد يضربنا أنا والسيد «محمد شفاعت منش»، ولم يعد يوجه لنا الشتائم. كان السيد الوحيد من بين حراس المخيم، وكنت أعجب من كونه يعاملني، والسيد محمد بمحبة ومدارة.

كان السيد «حسن» من أهالي الكوت، شديد السمرة، نحيفاً. في الخامسة والثلاثين من العمر تقريباً، كان إنساناً قاسياً وسيئ الأخلاق، وقلماً كان يتغاضى عن أعمال الإخوة؛ ومع أنه من سلالة رسول الله، إلا أنه كان حاقداً بسبب مقتل ابن عمه في الحرب الإيرانية العراقية، والذي كان رفيقه منذ الطفولة. قلت للسيد «محمد»:

- سيد «محمد»! تغيرت معاملة السيد «حسن» لي، فهو يقول: إنه لن يتعاطى مع السادة. ما الذي حدث لتتغير أخلاقه بهذا الشكل؟!

- لقد تغيرت معاملته لي أيضاً!

- أويحتمل أن ينزعج إن سأله؟

- لم سينزعج، فهو يعاملنا أحسن معاملة!

كان هناك حوالي 40 سيّداً في مجموعة مؤلفة من ألف أسير، فكان يتعامل معاملةً حسنةً مع كلّ من يعرف أنه من نسل السادة. كنّا أنا والسيد «محمد» واقفين إلى جانب مدخل العنبر، عندما ناديته،

وسألته عن سبب معاملته الحسنة، فقال: «لن أتعرض للسادة!»

- ماذا حصل حتى أصبحت لا تتعرض للسادة؟

- يُفترض أن تكونا مسرورين!

- السرور جيد في محلّه، هل يمكن أن نعرف ما الذي حصل حتى

صرت تعاملنا معاملة حسنة؟

- في إجازتي الأخيرة، وبينما كنت أهم بالمغادرة، نادتنني أمي،

وقالت: «بني، أعلم أنك تؤدي خدمتك في مخيم الأسرى الإيرانيين،

لا أسامحك بالحليب الذي أَرْضَعْتَهُ لَكَ إن أذيت أحداً من أبناء

الزُهراء (عليها السلام)! لهذا السبب لا أتعرض لكم.

وقال: «لو أن أمي لم توصني بذلك لبقيت معاملي كسابق حالها.

كان يحترم والدته احتراماً بالغاً»، وكان يقول: «أمي عزيزة جداً على

قلبي، وقد عاهدتها أن لا أؤذي السادة!»

قلت في نفسي، ماذا كان سيحدث لو أن أمّهات الحراس الآخرين

أوصوا السادة وغيرهم، كما فعلت أم السيد حسن. لو يحدث هذا

لتحوّل المخيم إلى جنة.

دعوت لأم السيد «حسن» من صميم قلبي. عصر يوم الخميس من

الأسبوع التالي، جلبَ بعض الحلوى والتمر للجرحى، وهي صدقات.

توفي والده العام الماضي إثر سكتة قلبية، وأرادت أمّه هذه المرّة

أن يوزّع الحلوى والتمر بين الأسرى والجرحى، وأن يقرأ الأسرى

الإيرانيون الفاتحة عن روح والده. كانت تلك المرّة الأولى والأخيرة في

الأسر التي توزّع فيها الصدقات، وأقرأ فيها الفاتحة عن روح أموات

أحد الحراس. يبدو أن أمّه كانت امرأة مؤمنة ومتديّنة.

السبت 17 حزيران 1989 . تكريت . المخيم 16

بعد وفاة الإمام، ومع مرور الأيام، ساد الغم والحزن جو المخيم. أصبح الكثيرون يجلسون على انفراد، لم يعد للعنبر بهجته السابقة، وما عادت تُسمع النكات المضحكة، والمزاح الشائع.

بعد الظهر، دخل العنبر عددٌ من أسرى «المخيم 12»، وكان من بينهم «عليّ كاركن»، و«عليّ آقايي» و«حسن جعفري»، من أصدقاء «رامين حضرت زاد»، ورفاقه في الكتيبة. سُرَّ «رامين» برؤية أعزّ أصدقائه «عليّ آقايي». كان «عليّ» من أهل زاهدان، وقد ولد أبيض الشعر والأهداب، وأحمر الوجه. كانت هيئته بارزة من بين ألف شخص. وكان «عليّ» أمر سرية زيد في كتيبة 409 التابعة لفرقة «ثار الله 41» أثناء الحرب. جلس إلى جانب «رامين»، وضع رأسه على كتفه، وراح يبيكي، سأله «رامين» عن أخيه «عليّ رضا»، فأجابه، وهو ينتحب: لقد استشهد «عليّ».

وعلى الرغم من أنّ «رامين» كان إنساناً قوياً ومتماسكاً، لم يتمالك نفسه عن البكاء، ملأ صوت بكائه أجواء العنبر، لقد كان لفترة مع أخيه في كتيبة واحدة، وقد أوصته أمّه بـ«عليّ رضا»، الذي كان يصغره سنّاً. كان «رامين» رامي رشاش، وكان أخوه قتلاً. في هجوم (24/ أيار/ 1988) على العراق، جُرحت رجل «رامين» اليمنى في «مثلث الحسينية»⁽¹⁾، وقد استشهد علي رضا⁽²⁾ بالقرب من «عليّ آقايي».

(1) أحد المعالم المهمة في مناطق المواجهات العسكرية، وفي الخطوط الأمامية للحرب...

(2) كان أخوه يُعرف في منطقته بـ«رامك». في العام 1998 عثرت مجموعة التقصي عن المفقودين والشهداء على عظام «رامك حضرت زاد»، والبلاك (قطعة معدنية تحوي الرقم العسكري الخاص بالمقاتل) الخاص به، ودفن في مسقط رأسه في 23/5/1998، وبناءً على دعوة «رامين»، أُنقِيت كلمة في ذكرى مرور أربعين يوماً على دفن رامك في «مسجد القدس» في غرب طهران.

حتى ذلك الحين كان «رامين» يظنّ أنّ أخاه لا يزال حيّاً. جاء الحراس الآخرون الذين سمعوا بكاء «رامين» ليستطلعوا الخبر، ولكي لا يعلموا باستشهاد أخيه، أجابهم علي أكبر فيض بأنّ «رامين» يبكي على الإمام، ولكنّ العراقيّين علموا بالأمر، وقد فرح بعضهم، لكنّ دموع الحارس العراقيّ الطيّب «عليّ جار الله»، صديق «رامين» المقرّب، لا تغيب أبداً عن بالي.

في الليل، عندما حان وقت النوم، قال لي «رامين»: «كنت أودّ لو أنّي كنت حينها مع أمّي لأقول لها: إنّ على الإنسان في هذه الدنيا أن يؤدّي الخمس والزكاة، خمسك هو شهادة رامك، وزكاتك هي أسري أنا وجرحي».

الاثنين 19 حزيران 1989 - تكريت - المخيم 16

صباح اليوم، جُمع الجرحى في فناء المخيم، وتمّ الإعلان عن قرار الإفراج عنهم من جانب واحد، وقد رُددت هذه الأقوال من قبل مرّات ومرّات. صدّق بعضهم الأمر، لكنني لم أصدّقه، والدليل أنّ العراقيّين لا يفرجون عن الأسرى الجرحى قبل الأسرى الأصحاء؛ فإفراج العراقيّين عن الأسرى الجرحى والمعوّقين، يضعون معلومات عن أكثر من عشرين ألف أسير «مفقود الأثر» بين أيدي الإيرانيّين، ومؤسّسة الصليب الأحمر الدوليّ. وكان من المستبعد أن تُقدم السلطات العراقيّة على هذا العمل الأحمق. كنت على يقين من أنّ هذه الزيارات، للضباط ذوي الرتب العالية، كانت بهدف الإحصاء، ومعرفة الأشخاص المعوّقين والمرضى.

جاء اليوم عدد من الضباط القادة إلى المخيم، تجمّعنا بأمر من رئيس

الحراس أمام المستوصف. قال رئيس الحراس: «تقرّر الإفراج عنكم». لكن لكثرة ما قد قالوا: «تقرّر الإفراج عنكم»، ولم يفرجوا، أصبحوا بنظرنا كالراعي الكاذب لا تُصدّق أقواله.

كنت أتمنّى لو أبقى حتّى نهاية الأسر إلى جانب الأسرى الأصحاء، شرط أن يفرجوا عن الجريح «لطف عليّ»، الذي كان مصاباً في النخاع الشوكي، ومن أهالي قزوين، كان إيداعه في مخيم مزدحم أمراً صعباً. سابقاً، وعد الضباط الذين كانوا يأتون لتفقد المخيم مراراً بالإفراج عنه، ولم يف أحدٌ منهم بوعده، وقد فشلت محاولات الدكتور «مؤيد» لنقل «لطف عليّ» إلى المستوصف، وإبقاؤه هناك. كان الدكتور «مؤيد» من أهالي سامراء، متوسط القامة، أسمر الوجه، رؤوف القلب وودوداً، وكان يشبه «عليّ جار الله» في صفاته.

عمل في المركز الصحي لسنوات، وكان في غياب الدكتور «جمال» يتولّى مسؤوليّة المستوصف، لكن صلاحياته كانت محدودة؛ بسبب ارتباطه العاطفي بالأسرى الإيرانيين. لم يكن الدكتور «جمال» يثق به، فالدكتور «مؤيد» إنساني ورحب الصدر، بخلاف الدكتور «جمال» الذي كان قاسياً وجافاً.

نشأت علاقته الإنسانية بالأسرى الإيرانيين من مكان آخر، فقد كان عمّه أسيراً في إيران، وكان يقول: «إنّ معاملة الإيرانيين للأسرى العراقيين معاملة إنسانية»، وقد أحضر مرّة أو مرّتين رسالة من عمّه إلى المخيم، وقرأها لنا. كان يقول لنا [عندما ينفرد بنا]: «إنّي بسبب العلاقة الإنسانية التي كانت تربط الإيرانيين بعمّي، أودّ أن أخدم الأسرى الإيرانيين!»

كانت أسرة عمّه قد ذهبّت في العام 1984م إلى طهران للقاءه. كان حانقاً على صدام، لكنّه لم يكن يظهر ذلك. كان منزعجاً؛ لأنّ العراق رفض اقتراح إيران بزيارة عائلات الأسرى العراقيين لأبنائهم. في شهر آب عام 1986 كانت إيران قد عرضت على العراق أن يتمّ لقاء عائلات الأسرى العراقيين بأبنائهم الأسرى في بلد ثالث، وقد رفض صدام هذا الاقتراح بصراحة. كانت إيران مستعدّة لنقل الأسرى العراقيين إلى أيّ دولة يوافق العراق عليها، ليلتقوا بعائلاتهم، لم يكن العراق مستعدّاً للقيام بهذا الأمر. وقد وافق العراقيون أنفسهم على اقتراح الإيرانيين، إلّا أنّ القيادات العراقية رفضته. كان يُقال: إن انزعاج صدام كان بسبب كون هذا الاقتراح مطروحاً من قبل إيران، وهذا الأمر يجعلها محبوبة ومقبولة. كان الدكتور «مؤيد» يقول: «لقد عملتم كلّ ما عليكم، التّقصير كان من جانب الدولة العراقية!»

رأى العقيدان، اللذان يتفكّدان المخيم، أنّ «لطف عليّ»، يحتاج إلى شخصين لنقله من مكان إلى آخر، وقد وعدا بالإفراج عنه. كنت على يقين أنّهما يكذبان أيضاً. طلبت من العقيد الإذن بالكلام. كنّا قد قرّرنا أن نتكلّم مع العقيد بشأن «لطف عليّ»، قلت للعقيد المسنّ، والذي يبدو أنّه ودود: «نحن نعرف أنّا باقون هنا، مطلبنا منكم نحن الجرحى هو أن تسمحوا لاثنيين من الجرحى؛ بسبب وضعهما الخاص، أن يبقيا في المستوصف (المركز الصحيّ).

- ومن هما هذان الشخصان؟!

- «لطف عليّ»، و«يد الله زارعي».

وبعد استشارة الدكتور «جمال»، لم يسمح العقيد لـ «لطف عليّ»

و«يد الله» أن يبقيا في مستوصف المخيم. عندما سمعنا خبر الرفض، قال الحاج «سعد الله كل محمدي» لـ «لطف علي»: «بني، ليتك كنت استشهدت في الجبهة!»

فيما كنا نمرّ مزاح الحاج «سعد الله»، كان أكثر الإخوة يقولون: لو أنّ «لطف علي» و«يد الله» استشهدا لكانا أكثر راحةً.

فأجاب «رامين حضرت زاد»: «لو أنّ جميع الأسرى الذين يقبعون في مخيمات تكريت استشهدوا لكان ذلك أكثر راحةً لهم!» كان «لطف علي» صبوراً ومن أهل القلب. اليوم، سمع جواب العقيد، وأفقدته كلماتي الأمل أيضاً، فقال: «لقد تركنا الشهداء في منتصف الطريق، هم يتنعمون في الجنة، ونحن في تكريت نأكل الشياطين ونكابد الجوع!»

فأجابه الحاج «حسين شكري»: «لطف علي!» ألتحقت بمعسكر الخوارج؟»

قال «لطف علي»: كان الشهداء أذكى منا. عندها قال له الحاج حسين: ليتك كنت استشهدت!

أجابه «لطف علي» ممازحاً: «يا حاج! لو كنت استشهدت لكان أبي قتلني!»

بينما كنا ننتظر إنهاء تسجيل الأسماء لنعود إلى العنبر، حدّق أحد الرتباء، وكان مساعداً للعقيد الزائر، بالسيّد «محمّد شفاعت» بلوّم، كان قصير القامة، نحيفاً، فتقدّم وأخرج قرآنًا من جيبه، وقال للسيّد «محمّد»، الذي كان يجلس بالقرب منّي: «أليكم في إيران قرآن؟» أجابه السيّد «محمّد»: «بالطبع يوجد في كل بيت قرآن!»

قال المساعد: «وما يفعل المجوس بالقرآن؟!»
فأجابه السيد «محمد»: «إن آية الله السيستاني إيراني، يعطيكم،
أنتم العرب، في العراق، دروساً في القرآن».

قال المساعد، الذي كان «فاضل» يترجم كلامه: «أنت تكذب،
الإيرانيون والقرآن! إذا كنت صادقاً فاقراً القرآن».

حمل السيد «محمد» الذي كان إنساناً صاحب ذوق وسريع البديهة،
نملة وأشار بها إلى الضابط قائلاً: «هل ترى هذه الحشرة؟ تسمى
النملة، يوجد في القرآن سورة باسم «النمل»، فيها بسملتان، والبسملة
الثانية تقع في الآية الثلاثين من السورة، نزلت على الرسول ﷺ
قبل الهجرة، وهي واحدة من أطول السور القرآنية».

كان واضحاً على وجه الضابط أنه إما كان جاهلاً، أو أنه، واقعاً،
لم يكن يصدق أن للإيرانيين أدنى اطلاع على القرآن. كنت تجد في
العراق أناساً كثيرين على هذه الشاكلة، فالدعايات السامة لحزب
البعث قد صوّرت الإيرانيين كأناس معادين للقرآن والرسول!

شرع السيد «محمد» بتلاوة بعض الآيات من سورة النمل، وكان
الرتيب مبهوراً بالسيد «محمد»:

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا
يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١).

الثلاثاء 20 حزيران 1989 - تكريت - المخيم 16

كان «عليّ جار الله» قد أخبر «رامين حضرت زاد» بأسماء عدد من الجواسيس وناقلي الأخبار. كنت أعرف بعضهم، منهم من كان فطنًا، ولا يوقع نفسه في الفخّ. لم يكن الجواسيس يتصوّرون أنّ «عليّ جار الله» سيقول شيئًا، ونحن أيضًا كنّا نتظاهر بعدم علمنا بشيء. كان «رامين» حريصًا جدًّا، كان يهدف إلى تثبيت الارتباط باثنين أو ثلاثة من الجواسيس، أراد أن يطرح مشروع صداقة، ويعمل على تخلي هؤلاء عن العمالة.

قبل الظهر، جاء إليّ «رامين» وقال: «لديّ فكرة!»

- ما هي؟ خير إن شاء الله!

- تتعلّق بالأشخاص الذين ينقلون الأخبار، وأصبحوا جواسيس للعراقيين، عن علم أو عن غير علم!

كان «رامين» يرى أنّه لا ينبغي الانتظار، حتّى يرّبي العراقيّون كلّ هؤلاء الجواسيس. كان قد وجد طريقة، فأغلب الجواسيس كانوا من المدخّنين، رأى «رامين» أنّنا باستخدام أسلوب سيجارة في مقابل سيجارة يمكننا أن نصرف الكثيرين منهم عن العمالة، الأسلوب الذي اتّبناه في «المخيم الملحوق»، لكنّه لم يكن منظّمًا. عندما سمعت كلامه، شعرت بالأمل، أراد أن يشكّل مجموعة متابعة، وينفّذ خطّته بإتقان.

أُتخذ القرار أن نشترى جميعًا السجائر بالمبالغ الشهرية، ولو كانت زهيدة، التي كانت تُعطى لنا، وقيمتها دينار ونصف للشخص الواحد. وقد شجّع «رامين» أصدقاءه الآخرين من غير المدخّنين، أن

يشتروا السجائر أيضاً بشهريّاتهم. قرّرت أنا وكثير من الإخوة، الذين يثقون برامين، أن نضع سجائرنّا في تصرّفه. كان «رامين» يعرف كيف يعمل، ويعمل بجدّ، كان يعلم من أيّ باب يرد عليهم. وإذا كنت أنا أحتاج أن أعطي الجاسوس خمس سجائر ليترك العمالة، كان رامين يصرفه عن هذا الأمر بسيجارة أو سيجارتين، كان يراقب الجواسيس عن طريق أشخاص محدّدين، ولم يكن يخفى عليه من كان يعدّ بترك العمالة مقابل سيجارة ثم ينقل الأخبار خفيةً. فكان يعرف من يأكل من المخلاة ومن الملعف أيضاً. أحياناً كان يتكلّم بلهجة قاسية مع بعض الجواسيس. كانت مجموعة التدخّل السريع خاصّته، والتي كان على رأسها «عليّ كاركن»، تنفّذ أوامره. كان لا يتوسّل الشدّة إلّا عندما يصل الموسى إلى لحيته. في بعض الظروف الخاصّة، عندما كانت تنفّذ السجائر منه، كان يقترض السجائر من الإخوة.

أغلب الأسرى المدخّنين الذين كانت تنفذ سجائره في الأسبوعين الأوّلين، كانوا يقترضون السجائر منه. بعض الإخوة كانوا يعطون «رامين» كلّ شهر، علبة أو علبتين من السجائر، ومن دون مقابل، للاستفادة منها في بنك السجائر، لقد استفاد من السجائر، الوسيلة التي استخدمها العراقيّون لتأجير ضعاف النفوس، استفادة جيّدة.

كسد سوق العراقيّين من خلال التدبير الذي اتّخذه «رامين»، وقد اكتشف العراقيّون أمر بعض القادة في المخيم، وعندئذ، كان الإخوة يقولون للوشاة: كم سيجارة تلقّيتم مقابل كشف أمر فلان؟ لو كنتم أتيتم إلينا لحصلتم على ضعف ذلك. استاء العراقيّون من «رامين» ومن الإخوة الذين يشاركونه الفكرة، لم يكونوا يريدون للجواسيس

مواجهة المشاكل في المخيم، مع أنّ الجاسوسية لم تتعطّل يوماً، إلا أنّ «رامين» باعّت العراقيين، كان يتكلّم مع المدخّنين من الجواسيس، ويعطيهم من السجائر أكثر ممّا كان العراقيون يعطونهم، حتّى لا يخونوا أبناء جلدتهم. كان «رامين» يقول لهم: أنتم تأخذون السجائر من العراقيين، وفي المقابل تكشفون أمر رفاقكم وأبناء وطنكم، نحن سنعطيك السجائر، فلا تقوموا بهذا العمل، لا تظلموا رفاقكم في الأسر، لا تلوّثوا أنفسكم بالمعاصي والذنوب.

كان بعض المدخّنين الذين يحصلون على السجائر بطرق الحلال يقولون بصوت مرتفع: أربع نوبات تدليك، كلّ نوبة ساعتان، مقابل سيجارة، هل من أحد؟!

الأحد 25 حزيران 1989 - تكريت - المخيم 16

إنّها الذكرى السنوية الأولى لوقوعي في الأسر، فقد أُسرت في مثل هذا اليوم قبل سنة. هذا اليوم بالنسبة إليّ هو من الأيام التي لا تنسى، كيوم الولادة، وسائر الأيام المهمّة. كلّما أذكر هذا اليوم، أشعر بالعطش.

الخميس 13 تمّوز 1989 - تكريت - المخيم 16

اليوم، كان العراقيون على غير حالهم، لا أدري لماذا؟! قال سامي: «إنّ عبد الرحمن قاسم، الأمين العام للحزب الديمقراطي الكردستاني، اغتيل في فيينا على أيدي مجهولين». قال حامد: للأسف، فقد أزيح من طريق إيران، واحدٌ ممّن يعملون في جبهة العراق المتّحدة ضدّكم. سأل حامد الأسرى: «من برايكم قتل قاسم؟»

فأجبتَه: «الله أعلم، فالرصاصات والصواريخ التائهة كثيرة في هذا العالم!»

الجمعة 14 تمّوز 1989. تكريت. المخيم 16

كتبت الصحف العراقيّة اليوم عن إسقاط النظام الملكيّ، ومقتل الملك العراقيّ فيصل الثاني، وإقامة الجمهوريّة العراقيّة، حيث أطاح عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف بملك العراق، وتولّى زمام الأمور. أجمل تعليق سمعته اليوم حول هذا الخبر، المنشور في الصحف العراقيّة، كان كلام «عليّ آقايي»، الذي قال: «الكلب الأصفر أخو ابن آوى!»

عصرًا، شهد «عليّ جار الله» الجدل الذي دار بيني وبين «شفيق عاصم»، ضابط التوجيه السياسيّ. فقد سألتني الضابط المرافق له: - كيف يمكن لهذا الأمر أن يحدث، أي عندما يقول الخمينيّ: «يجب تحرير مهران وعبادان»⁽¹⁾، فإنّهما تتحرّان فعلاً؟! - الأمر يعود إلى مرجعيّة قائدنا، فحكمه ينبغي أن يُنفَّذ، إنّ قائدنا في هذه الدنيا هو مرجع التقليد وحده.

قال شفيق متهمًّا: حسنًا، ليت رئيس جمهوريتنا كان يرجع إلى السيّد الخوئي والسيّد السيستاني. تكلم «شفيق عاصم» كعادته عن معركة القادسيّة وانتصار العرب على الفرس، وحاول إهانتي. عندما أمعن في إهانة الإيرانيين، وقفتُ من شدّة انزعاجي، وانصرفت دون إذنه، تبعني «عليّ جار الله»، وقد كان إنساناً فهيماً فقال:

(1) كان يقصد هذه العبارة من كلام الإمام: حصر آبادان بإيد شكسته شود (ينبغي لحصار عبادان أن يُفكّ).

- أحسنت عملاً إذ لم تبال به.
 - إن كان «شفيق عاصم» هذا صادقاً في كلامه، فليتكلم عن الحرب الإيرانية العراقية، الأمر لا يتطلب الانتقال إلى القرون الماضية، والتكلم عن معركة القادسية.

قال لي «علي جار الله» الذي كانت تربطه علاقة جيّدة بـ«شفيق عاصم»: إذا تكلم مرةً أخرى عن معركة القادسية، فقل له: «لقد كانت معركة القادسية معركة الإسلام والكفر، لا معركة العرب والفرس. حينها كان العرب إلى جانب الإسلام، أمّا الفرس فلا. في الحرب الإيرانية العراقية ابتعد الجيش العراقي عن الإسلام، فيما اتّبع الفرس تعاليم الإسلام. ولأنّ الفرس اتّبعوا الإسلام وأقاموا الحكومة الإسلامية، انتصروا في مقابل الجيش العراقي، فيما تراجع العراقيون. لقد تبدّل التاريخ اليوم، قل له بعد ذلك: لا تفتأ تذكر سعد بن أبي وقاص، فإنّ سعد ابن أبي وقاص لم يكن عراقياً، ولا خالد بن الوليد، ولا أبو عبيدة الثقفي، لهما جذور في العراق. لكن لا تقل أنني قلت لك هذا الكلام».

السبت 15 تمّوز 1989 . تكريت . المخيم 16

كنت جالساً إلى جانب المدخل، وفيما كان السيّد «علي آشنا» يمرّ بجانبني لاحظت دموعاً في عينيه. كان «السيّد علي» رجلاً متماسكاً، عاطفياً، ومحبباً. ناديته وقلت:

- «سيّد علي!» ما بك؟ وما الذي يزعجك؟
 كان يكتنّ لي مودّة خاصّة، وقد انتخب لمُدّة كمسؤول عن العنبر.

جاء إليّ، جلس إلى جانبي وقال: «أيّها السيّد! رأيت خلف العنبر، هناك، منظرًا لم أستطع أن أملك دموعي بسببه».

- وهل يمكنك أن تخبرني به؟

- هل تعرف الملازم «أسد الله بناهي»^(١)؟

- نعم أعرفه!

- رأيته جالسًا خلف العنبر، وفي يده فرشاة أسنان، كان ينظر إليها ويبكي، تقدّمت نحوه وقلت: «أيّها الملازم بناهي! لماذا تبكي؟ أنتم الكبار ينبغي أن تكونوا صبورين وأقوياء أزاء المشاكل والصعاب، وأن تمدّونا نحن الصغار بالمعنويّات، وكأنّه ينبغي لأحد أن يأتي ويطيّب خاطرك!»

أراني الملازم بناهي فرشاة الأسنان التي كانت في يده، كان قد حفر اسم ابنته «عاطفة» عليها، قال: «سيّد عليّ! أنا رجل متماسك وقويّ، خدمت في الجيش، واجهت صعوبات كثيرة، ولم أبال، لكنّي انهرت. في اليوم الذي ودّعت فيه العائلة قاصدًا الجبهة، عندما قالت لي ابنتي «عاطفة»: «بابا! حينما تعود أحضر لي معك فرشاة الأسنان، قلت: حاضر يا بنتي، حتمًا، سأحضرها لك حين أعود! وقد اشتريت لها هذه الفرشاة، لكنني لم أعد، ووقعت في الأسر، ولا زالت هي تنتظر الفرشاة!»

عندما ذكر «أسد الله» بناهي هذه القصّة تذكّرت الشهيد «بيران مستوفي»، حيث قال لي قبل يومين من استشهاده: «حين تركت البيت قاصدًا الجبهة، لحق بي ابني ياسر، وراح يبكي بشدّة، فحاولت منعه،

(١) أحد أسرى الجيش الإيراني...

لكنه لم يسكت، ومن أجل أن أهدئه قلت: ولدي حبيبي! أنا ذاهب إلى «دهدشت» لأشتري لك قميصاً، سأعود بسرعة»⁽¹⁾.
 انهمرت عينا السيد «علي» بالدموع من تصوّر هذا المشهد، وقال:
 «أجهش الضابط بناهي بالبكاء» وقال:
 - سيّد عليّ! لقد اشتقت لـ«عاطفة» كثيراً، أظنّ أنّي لن أراها ثانية.

الأحد 16 تمّوز 1989. تكرّيت. المخيم 16

احتفل الحراس بالذكرى السنوية لوصول حزب البعث إلى السلطة.⁽²⁾
 كان هذا الاحتفال متزامناً مع ذكرى أربعين الإمام الخميني قُدس سرّه.
 وقد أصدر شفيق عاصم، ضابط قسم التوجيه السياسي في المخيم، أوامره بمنع إقامة مجالس العزاء عن روح الإمام. قال رئيس الحراس للسيد «عليّ آشنا» المسؤول عن العنبر: «ليفرح الأسرى اليوم وليشاهدوا فيلماً هندياً». أقبل جماعة اللامبالين، والمنافقين على مشاهدة الأفلام الهندية والمصرية.

نهاية الأمر، عُرض فيلم وثائقيّ عن صدام، وكيفية وصوله إلى السلطة، انقلاب عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف، الإطاحة بالملك فيصل الثاني، استبسال صدام كقائد للقادسيّة في محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم الفاشلة، وأخيراً فرار صدام إلى سورية و...
 ظهرًا، ألقى الملازم «فاضل» خطابًا، ونحن في صفّ الإحصاء. كان

(1) بعد عشرين عاماً حين أخبرت بأسراً هذه القصة، قال لي: إنّي أنتظر أبي منذ عشرين عاماً ليشترى لي قميصاً ويعود إلى البيت.

(2) وصل حزب البعث العراقيّ في 17 تمّوز 1968 إلى السلطة. أصبح أحمد حسن البكر رئيساً للجمهورية، وصدام معاونه. في مثل هذا اليوم من العام 1979 نجّى صدام أحمد حسن البكر ذا الواحد والستين عاماً، ليصبح هو رابع رئيس للعراق، وهو في الثانية والأربعين من العمر.

مسروراً. لم يتورّع «فاضل» عن توجيه آية إهانة للإمام وقادة الجمهوريّة الإسلاميّة، فقال: بموت قائدكم، لم يعد يتهدّدنا أيّ خطر، وقد أزيح مصدر الخطر الداهم من طريق العراق... في المستقبل القريب، سيحكم الرئيس القائد صدّام حسين، من خلال تشكيل إمبراطوريّة عربيّة كبيرة على غرار الإمبراطورية البيزنطيّة أو الرومانيّة، الشرق الأوسط بأكمله. وبموت الخميني اليوم، لم يعد العراق قلقاً من تصدير الثورة الإيرانيّة! كاد الإخوة ينفجرون من شدّة الغضب؛ فلو كان الملازم «فاضل» أكمل كلامه لما استطاع أحد الوقوف في وجه الإخوة الحزب اللهيّين. عندها صاح الحاجّ «حسين شكري»، الذي كان جالساً إلى جانبي في آخر العنبر، بأعلى صوته: «لإدخال السرور على روح الإمام الخميني رحمه الله، وسلامة آية الله الخامنّي، صلوات!»

أظهرت الصلوات المدويّة التي أطلقها الأسرى انزعاجهم وحنقهم من كلمات «فاضل». وبينما كان الإخوة يطلقون الصلوات بأعلى أصواتهم، وضع الملازم «فاضل» يديه في أذنيه، وخرج من العنبر. ووضعت الحلوى على طاولة أمام مدخل العنبر، وظهرت إلى جانب الحلوى صورة كبيرة لصدّام حسين. أشار النقيب «شفيق عاصم» إلى صورة صدّام الذي كان يحمل فيها سيفاً، وقال: «هذا سيف ذو الفقار أعطي لصدّام».

أجابه السيّد «عليّ آشنا»: «سيف ذو الفقار يقطع رقاب الباطل، لا رقاب المحبّين والموالين».

عند خروج الأسرى من العنبر، قلبت الطاولة التي كانت الحلوى وصورة صدّام موضوعة عليها، وتحولت ذكرى استلام حزب البعث

السلطة علقماً في فم العراقيين، الذين لم يراعوا حرمة أربعين الإمام. وتحطّم زجاج صورة صدام أغضبهم بشدة.

انهال عطية بالسوط على رؤوس الإخوة، كسر نظارة أحدهم. كان عطية من أهالي «الدهوك» في العراق، كان رجلاً عبوساً، غريب الطباع، أسمر اللون، متوسط القامة، يرتدي الملابس الفضفاضة، وعادةً ما كان غير مرتّب. وقد طلب الحراس من السيّد علي آشنا⁽¹⁾، مسؤول العنبر، أن ينظّم الإخوة ويجلسهم في صفّ الإحصاء.

فكلمات الملازم «فاضل»، والصلوات التي أطلقها الإخوة لإدخال السرور على روح الإمام، وحفظ قائد الثورة، وسقوط طاولة الحلوى، وتحطّم زجاج صورة صدام في أربعين الإمام، وذكرى صعود حزب البعث، تراكت كلها، ليطيب اليوم الضرب المبرّح لأسرى العنبر.

ظهرًا، لم يُقدّم لنا الغداء. دخل الحراس علينا بالسيّاط والهرافات. لم يرحموا شيخًا، ولا شابًا، جريحًا، ولا سالمًا. أخذوا الحاجّ «حسين شكري» إلى خارج العنبر، وضربوه ضربًا مبرّحًا. كان «سامي» يقول: لقد قال النقيب «خليل» للملازم «فاضل» إنّ الإيرانيين يتعصّبون للإمام الخمينيّ تعصّبًا خاصًا. في هذه الأيام التي يقيم فيها الإيرانيون العزاء للخمينيّ، لا ينبغي التكلّم بما من شأنه تحريض الأسرى، وحضّهم على التمرد والعصيان.

بعد الظهر، أقام الإخوة مجلس عزاء عن روح الإمام، وكنت أنا من قرأ المجلس.

(1) السيّد «علي آشنا» من أهالي أردبيل، وكان أحد مقاتلي «لواء حمزة 21»، وقع في الأسر بتاريخ 2 آب 1988م هـ.ش في منطقة دهران.

الثلاثاء 18 تمّوز 1989 . تكريت . المخيم 16

اليوم، كان من المقرّر أن يعاقبني «حبّوش»، الحارس الجديد، بسبب مجلس العزاء الذي قرأته البارحة.

حاول «عليّ آشنا»، مسؤول العنبر، التوسّط لكي لا يضربني. قال له: «برأيك، أ يضرب مثل هذا الشخص؟» قال «حبّوش» لـ «فاضل» المترجم: «ما يقول هذا؟»

أجابه «فاضل»: «إنّه يقول، برأيك، أ يضرب مثل هذا الشخص؟ حدّق حبّوش بي للحظات، وقال لـ «فاضل»: «قل له، لا شأن لي بك، إنّما حسابك عند شفيق!»

بعد الإحصاء الليلي، أصاب عين «ميثم سيرفر» ألم شديد. ذهب الحاجّ «سعد الله»، الذي كان يحبّه كثيرًا، إلى رئيس الحرس ليطلب له مسكّنًا، ولكنّه رجع خالي الوفاض خائبًا. جلس الحاجّ «سعد الله» إلى جانب ميثم، وكان يناديه بميثم التّمّار. كان غالباً ما يقول لميثم: «عندما يُفرج عنّا، ونذهب إلى إيران، تعالَ لأزوّجك ابنتي». كان الحاجّ «سعد الله» يقول: في «مشفى 17 تمّوز»، حيث الماء متوافرٌ، كان ميثم لا يشرب الكثير منه، وكان شربه للماء في حدّ رفع العطش. عندما قلت له: يا رجل! لِمَ تأكل وتشرب إلى حدّ الكفاف؟ كان يقول: حاجّ، إذا أكثرْتُ من الطعام والشراب، سيلزم على الإخوة أن ينقلوني إلى الحمام مرّتين أو ثلاث مرّات يوميًا، سيشقّ ذلك عليهم؛ أكل كمّيّة أقلّ، فأزعجهم مرّة واحدة، هكذا أخفّف العناء عن الإخوة.

الثلاثاء 25 تمّوز 1989 - تكريت - المخيم 16

كان «عليّ آقايي»⁽¹⁾ الأسير الوحيد الذي لم يكن يؤدّي التحيّة العسكريّة للضباط والحراس العراقيّين، فقد كانت لـ«عليّ» قوانينه الخاصّة، وهذا ما كان يقوله دائماً ومن القوانين الحاكمة في المخيم، تأدية التحيّة العسكريّة للضباط والحراس. فعندما كانوا يمرّون بجانبنا، كان يتوجّب علينا تأدية التحيّة العسكريّة. لم يسر هذا القانون عليّ وعلى «محمّد كاظم» بسبب فقداننا أحد الرجلين. لم يؤدّ «عليّ» التحيّة العسكريّة للملازم «فاضل». وقد أهان الملازم «فاضل» «عليّاً» مرّةً أو مرّتين قبلها، بالكلام. وكان «عليّ» قد أجابه: «نحن الإيرانيّين، في أوج العقوبات العسكريّة علينا، فجّرنا الصاروخ الملقى من طائرتكم فوق مياه الخليج الفارسيّ، وهو في طريقه لإصابة الهدف!»

كان الملازم «فاضل» غاضباً من «عليّ». كثيراً ما كان يُضرب بسبب الكلمات التي كان يتفوّه بها؛ وقد لقي عقابه على عدم تأدية التحيّة العسكريّة.

سأل الملازم «فاضل» «عليّاً»: لماذا لا تؤدّي التحيّة مثل باقي الأسرى، كسر هذا القانون سوف يؤدّي بك إلى عواقب وخيمة!

كان «عليّ» إنساناً صريحاً، شجاعاً، لا يعرف الخوف. كلّما كنت أطلب منه أن لا يعاند العراقيّين، كان يجيب الإجابة نفسها. وعندما

(1) كان عليّ آقايي من أهالي زاهدان. وكان قائد «سريّة زيد» في «الكتيبة 409» لـ «فرقة ثار الله 41». وقد أصيب برجله في شلمجة، ووقع في الأسر بتاريخ 25 أيار 1988 استشهد عليّ آقايي في مدينة مشهد المقدّسة إثر تدهور حالته الصحيّة بسبب تشقّقه للغازات الكيميائيّة السامة في فترة الحرب، وذلك في شهر آب 1999. وقد نقل لي رامين حضرت زاد خبر شهادته.

سأله الملازم «فاضل» عن سبب عدم تأديته للتحية العسكرية، أجابه: «سيدي! لي قائد يدعى محسن رضائي، لم يعلمني أن أؤدي التحية العسكرية للعراقيين!»

قال الملازم «فاضل» وهو غاضب: «أبله، علمك قلة الأدب؟» قال «علي»: «لا، علمني أن أقاتل جيداً وأن لا أوقع نفسي في الأسر، وقد فعلت للأسف!»

عندما أنهى العراقيون ضرب «علي» وشتمه، توجه بوجهه المزرق إلى الملازم «فاضل» وقال:

«أيها الملازم! هناك سبب آخر لعدم تأديتي التحية العسكرية لك!» كان الملازم «فاضل» ينتظر ليرى ما يقوله «علي». تابع وقال: «أيها الملازم! عدم تأديتي التحية العسكرية لك لها جذور في مسألة التولي والتبري، الموالاة لأولياء الله والمعاداة لأعداهم، وأنتم أعداء الله وأعداء أهل بيت رسول الله!»

عندها أمر الملازم «فاضل» بحبسه في قفص خاص. كانوا قد بنوا، بأمر من النقيب «خليل»، قفصاً حديدياً بطول 1م وعرض نصف متر. هو أشبه بأقفاص الطيور الحديدية. يقع هذا القفص بين العنبر رقم (1) والعنبر رقم (2) في نهاية القسم الشمالي لعنبرنا. كانت حواجز هذا القفص الضيق مصنوعة من قضبان حديدية أسطوانية. وقد اختبرت هذا القفص مرتين في فترة الأسر. كنّا لا نستطيع التمدد داخل القفص. آخر مرة حبست فيه كانت بسبب قراءتي لمجلس عزاء بذكرى أربعين الإمام، التي تزامنت مع الذكرى السنوية لاستلام حزب البعث الحكم. بعد عدة أيام، حين أخرج «علي»

آقايي» من ذلك القفص، قلت له: «عليّ، كيف وجدت القفص؟»
 أجاب: «كلّما كان القفص أضيق كانت الحرّية أعذب!»
 عند المساء، أتى أحد الإخوة من أهالي شیراز إليّ. وكان قد أُسر
 في جزيرة «مجنون». وكنت قد رأيته من قبل في سجن «الرشيد
 رقم (1)». كان يُدعى «جعفر محمّدي»، وهو من الإخوة القدماء في
 الجبهة. وكان يقول: إنّي أحبّ أبناء «كهكيلويه وبوير أحمد» بسبب
 الشهيد «جواد هرمزبور». كان يكرّ له محبّة خاصّة، كان قائد كتيبته
 في عمليّات «الفتح المبين». وفيما بعد، أصبح الشهيد «هرمزبور»
 قائد لواء فاطمة الزهراء عليها السلام، وكان معه في منطقة «غرب زبيدات».
 كان يتحدّث عن الشهيد قائلاً: «كان قائداً ذكياً وعظيماً، وقد قال ذات
 ليلة لقادة الكتائب: على قائد كلّ كتيبة مع قادة سراياه ومساعدتهم،
 القيام منتصف الليل ومسح أحذية عناصرهم». وأضاف: «كانت
 ساعات نومه في اليوم أقلّ من خمس ساعات».
 في شهر ك2 من العام 1987، وقبل أن نذهب إلى عبادان وجزيرة
 «مينو» في «عمليّات كربلاء 4»، خطب فينا السيّد «عنايت الله مرادي»،
 وفي نهاية خطبته، قرأ لنا بعضاً من وصيّة الشهيد «جواد هرمزبور»،
 وعيناه تفيضان بالدموع.⁽¹⁾

(1) لا زلت إلى اليوم، وقد مرّت سنوات على تلك الأيام، عندما أمرّ على وصيّة «الشهيد هرمزبور» وأسمع قصصه على لسان رفاقه، أشعر بالغبطة، وأتمنّى أن أرى «جعفر محمّدي» رفيقي في الأسر، لأقول له: «جعفر»، يكني الشهيد «هرمزبور» مظلوميّة، أنّ الكثير من أبناء منطقتي بعد مرور عشرين عاماً على نهاية الحرب، لا زالوا لا يعلمون أنّ الشهيد «جواد هرمزبور» كان قائد لواء فاطمة الزهراء عليها السلام. لكنّ الشهيد السيّد «عنايت الله مرادي» كان يعرفه جيّداً، حيث كان يذرف الدموع عند قراءة أجزاء من وصيّته، لكي تبقى روح المقاومة وطلب الشهادة حيّة في قلوب عناصر (زرع ونزع الأنغام) التخريب في «لواء الفتح 48». لا زال صوت الشهيد «مرادي» الذي كان يقرأ لنا أجزاءً من وصيّة

والشهيد «جعفر محمّدي»، الذي كان من أهل القلب، كان يقول: في شهر نيسان من العام 1982 في المرحلة الثانية من عمليّات «الفتح المبين»، وقف الشهيد «هرمزبور» عند رأس أحد الشهداء، وكان طالب علم من أهالي فارس، وكان الشهيد قد كتب رسالةً يخاطب فيها الإمام صاحب الزمان عليه السلام، سلّمها إلى الشهيد «هرمزبور»، وطلب منه أن يضعها في صندوق مسجد جمكران. بعد انتهاء العمليّات، نقل الشهيد «هرمزبور» وهو في النظام المرصوص قصّة مناجاة هذا الشهيد التي يخاطب فيها إمام الزمان وكان يسأل الإخوة: «من منكم سيذهب إلى قم حتّى ينقل هذه الرسالة إلى مسجد جمكران؟ أجاب أحد الإخوة الطهرانيّين: أنا ذاهب إلى طهران، عندما أذهب إلى قم أضعها في صندوق مسجد جمكران. وتابع «جعفر محمّدي» قائلاً: رجوناه كثيرًا ليقراً لنا ما في رسالة ذلك الشهيد؛ وكأنّ الشهيد لم يرض لأحد أن يطّلع على رسالته سوى الشهيد «هرمزبور».

الشهيد «هرمزبور» عن قصاصة ورق صغيرة، يتردّد في أذني إلى الآن: ... لزرع اليأس في قلوب المنافقين، عندما تنقلون جنازتي إلى المقبرة، أخرجوا يديّ من التابوت، ليعلم الجميع أنّي لم آخذ معي شيئاً. أبقوا عينيّ مفتوحتين ليعلم الجميع أنّي لم أقتل على غير بصيرة. ضعوا حذائي المرقّع على قبوري ليشهد العابرون من أهل القرى أنّ المستضعفين والحفاة كانوا أنصاراً أوفياء للإمام...

الفصل التاسع:

تكریت - المخيم الملحق

الخميس 27 تمّوز 1989 - تكریت - المخيم الملحق

مضى أسبوع على إصابتي بالجرب، كان مرضاً سيئاً، ومعدياً، وقد أُصيب الكثير من الإخوة به من جرّاء عدم توفّر الامكانيات الصحيّة، وقلة المياه، ومشكلة الحمّام، ووجود دورات المياه المتقلّبة، التي كانت سبباً لانتشار الميكروبات المختلفة، والأمراض الغريبة. إلى ما قبل أسبوع، كان عدد المصابين بالجرب قليلاً؛ لكنّه تضاعف هذا الأسبوع. بالأمس أوصى الدكتور «جمال» المصابين بالجرب أن لا يلمسوا الأصحاء، فلا يشاركونهم الطعام ويجتنبون الاحتكاك بهم. طفحت حبوب حمراء متقيحة في كلّ أنحاء جسمي، مزعجة لا يمكن الصبر عليها، للتقليل من الحرقّة كانت هذه الحبوب الصغيرة تُفقأ، وتلتهب، نتيجة الحكّ الكثير. لم أكن أُقبّل، أو أُلَمَس أحداً.

جُمع المصابون أمام مدخل العنبر بناء لطلب الدكتور «جمال». أرادوا فصلنا، ونقلنا إلى مكان آخر لا نعرفه! انطلقنا في صفّ واحد، وخرجنا من باحة العنبر. بعد دقائق قليلة، جلسنا في صفّ واحد أمام مدخل «المخيم الملحق». لقد خُصّص هذا المخيم للمصابين بالجرب. لم يعد «المخيم الملحق» كما كان في السابق؛ حيث تمّ

اخلاؤه البارحة من الأسرى الذين نقل قسمٌ منهم إلى العنابر، وقسم آخر إلى «مخيّم بعقوبة»، وقسم ثالث إلى «مخيّم النهروان». شعرت بالانقباض؛ لأنني سأنفصل عن رفاقي. وقد كان الأمر صعباً عندما أردنا الافتراق عن بعضنا.

دخلنا باحة المخيّم الملحوق، قام «أمجد» بتوزيعنا، فوضعتُ في المعتقل رقم (9)، بدأنا بالعلاج بعد ظهر ذلك اليوم نفسه، فقد جاء الدكتور «جمال» إلينا، وقال: «ينبغي أن تخلعوا ملابسكم كلّها، وتعرّضوا أجسامكم لنور الشمس!»

تعجّبت من ذلك، لم يرضخ الإخوة للضغوط. بدأ أن التعرّي، واستعمال مرهم خاصّ، والجلوس تحت نور الشمس المحرقة هو العلاج الوحيد للجرب في بلاد ما بين النهرين. كان المرهم كريه الرائحة ودهنياً، وأشبه بالشحم، وكان علينا أن ندهنه على الحبوب المتقيّحة، ونجلس تحت نور الشمس لخمس ساعات يومياً. وبعد استعمال المرهم كان علينا الاستحمام، في وقتٍ كنّا نعاني شحاً في المياه، حيث جفّ ماء البئر الذي كانت الصحاريح تستخرج المياه منه. وقد واجهت الزراعة في تكريت مشكلة الشحّ هذه. والصحاريح التي كانت تنقل المياه ثلاث مرّات يومياً، أصبحت تنقله مرّتين فقط. أكثر الأوقات كنّا لا نجد ماءً لنغسل أيدينا، فما بالك بالاستحمام. في تلك الفترة، نقلوا إلينا المياه بواسطة الصهريج نفسه الذي كان ينزح مياه الصرف الصحيّ للمخيّم!

كنّا منزعجين ومنقبضي الحال؛ لأنّهم أجبرونا على التعرّي. كنت أفضل الموت على أن أتعرّي. لم يرضخ الإخوة للضغوط. كان

الدكتور «جمال» وسائر حرّاس المخيم واقفين فوق رؤوسنا بالسياط والهرارات، فإذا ما قاومنا انهالوا علينا ضرباً. لم تكن المقاومة تجدِ نفْعاً. خَلَعْتُ قُلَّةً قليلة ملابسها، لكن عندما قال الدكتور «مؤيد» أنّ علاجنّا الوحيد هو التعرّي والجلوس تحت نور الشمس، صدّقناه، فقد كان إنساناً صادقاً.

طلب منّي الإخوة الذهاب إلى غرفة رئيس الحرس، والطلب من الدكتور «جمال» أنّه إذا كان ولا بدّ من التعرّي في فناء المخيم، فليبقوا هم في غرفتهم، ولا يخرجوا منها. ذهبت، وشجّعني الدكتور مؤيد على ذلك، عندما دخلت غرفة رئيس الحرّاس، وجدت الدكتور «جمال»، وسائر الحرّاس يأكلون الفاكهة، توجّهت إلى الدكتور جمال قائلاً:

- دكتور! جئت بالنيابة عن الإخوة، في حاجة!

- أسمعك!

- دكتور! أما من سبيل آخر غير التعرّي؟

- وهل من عيب في ذلك؟

كان واضحاً من طريقة كلامه أنّه لا يولي أيّة أهميّة لكلامي، وكان يتعاطى مع الأسرى بتكبرٍ وغرور. تابعتُ كلامي:

- دكتور! الأمر معيب، فبالنهاية لنا حرمتنا، وبهذا العمل يُراق ماء

وجوهنا!

- ناصر إستخباراتي! أريد ان أسألك سؤالاً، أتجيبني بصراحة؟

- حاضر سيدي.

- لو كنت تعلم أنّ مجيئك إلى الجبهة سيؤدي بك إلى الأسر، وستُجبر

في مخيم أسرى الحرب على التعرّي، هل كنت تأتي إلى الجبهة؟

- دكتور! إننا هنا أسرى لديكم، وأنتم أيضًا لكم أسرى في إيران، والحرب قد انتهت، وبرأيي، إن طلب الأسير العراقي في إيران يلقي الأهمية!

- لا تتهرّب، أريد أن تجيبني على سؤال.

قلت في نفسي إن الدكتور «جمال» هذا رجل غدار، ومتقلب الطباع، لا يؤخذ على أقواله. كنت مستعدًا من أجل أن لا أتعرّي أن أقول له: لو كنت أعلم أنني سأجبر في الأسر على التعرّي، لما أتيت إلى الجبهة، ولو دامت الحرب مئة سنة. فحتّى لو قلت له: سيدي الدكتور! أخطأت بمجيئي إلى الجبهة، اعفني من التعرّي؛ لكان قال، أنت مصاب بالجرب، يجب عليك التعرّي، والجلوس تحت نور الشمس! حاولت التلكؤ، فلم أجبه على سؤاله، طلب منّي العودة إلى الزنزانة، لذا قلت له كطلب أخير:

- دكتور، من بعد إذنك لي رجاء آخر عندك!

- قل بسرعة!

- دكتور، الآن وقد صدرت أوامرك بأن نتعرّي، نرجو منك أن تطلب إلى الحراس أن لا يخرجوا إلى الفناء في الساعات الخمس هذه. سخر من كلامي، وقال: ينبغي على حراس هذا المخيم أن يراقبوا الأسرى في كلّ الأحوال حتّى لا يفرّوا!

شعرت بالضيق، لم أفكر يومًا بالتعرّي، وأنا في الأسر. كنت مستعدًا لأن أجلد بالسياط على أن أدلّ بهذه الطريقة. ومع أنني كنت أعلم أنني كمن يطحن الماء⁽¹⁾، قلت للدكتور جمال:

(1) إشارة إلى المثل الشائع: دقّ الميّ ميّ

- دكتور! اطمئن، لا يفكر أيّ إنسان عارٍ بالفرار، حتّى لو كان باب السجن مفتوحاً، ولا يراقبه أحدٌ.

كان بادياً على وجه الدكتور «مؤيد» أنّه كان مسروراً من كلامي، أمّا الدكتور «جمال»، الذي كان يتناول العنب، فقال:

- أنا ذاهب إلى بغداد، ولكن هذا انتقام الله، بأن يتوجّب على أعداء العراق التعرّي، فيذلّوا ويُخزوا.

دكتور، المهمّ أن لا يكون الإنسان ذليلاً عند الله! عدت إلى المخيم مغموماً، ومن دون أن أستأذن. ظنّ الإخوة أنّ الدكتور «جمال» والحرّاس وافقوا على أحد الاقتراحين، وبعد أن أخبرتهم ما دار بيني وبين الدكتور «جمال»، قلت: الأمر إجباريّ، ولا حلّ إلا بتنفيذ الأوامر...

كان ذلك المشهد أقرب ما يكون لمشهد القيامة. فلم يجسّد أيّ شيء في الدنيا صحراء المحشر أمامي مثلما فعل هذا المشهد.

قال «حسن بهشتي بور» للإخوة: «هذا نوع من الامتحان، المهمّ في هذا الامتحان أن لا نياس من روح الله، لعلّ الله أراد لنا من خلال هذا التعرّي أن يقدم لنا صورة عن المحشر؛ لكي نتذكّر يوم القيامة دائماً؛ اليوم الذي سيُحشر جميع خلق الله فيه عراً».

وتوجّه «حسن بهشتي بور» إلى الأشخاص الذين كانوا يتأفّفون ويسبّون القادة الإيرانيين ويشتمونهم: «إذا كان هذا التعرّي، وهذا التحقير سيكرّس عقائدنا، ويزيد من إيماننا بالله، ولو مقدار ذرّة، فينبغي أن نعدّه فال خير».

الاثنين 7 آب 1989 . تكريت . المخيم الملحق

كنت أتمنى لو أستطيع الانتقام من العراقيين. كنت قد أهنت كثيرًا من خلال الإصابة بالجرب. كان التعريّ أمام الأصدقاء صعبًا، وأمام الأعداء أكثر صعوبة. وفي تلك الفترة، أصبح القمل والصئبان⁽¹⁾، إلى جانب داء الجرب، شريك العراقيين في مصّ دماننا. فبسبب الأوضاع غير الصحيّة في المخيم، امتلأت ملابسنا بالقمل والصئبان، ومن كثرة ما مصّوا دماءنا نموا وكبروا، كانت بطونهم ممتلئة دمًا بحيث أصبح من الصعب إزالتها من رؤوسنا ووجوهنا، وقد وجدوا في ثنيات قمصاننا وسراويلنا أماكن جيّدة، مهما قتلنا منهم، كان عددهم يتضاعف في اليوم الثاني. خلال عدة أيّام، كان السيبان يتحوّل إلى قمل. وقد استوطن القمل تحت جلد رؤوس بعض الأخوة فكان القمل، والصئبان، والقيح يخرج من تحتها.

كنت عندما أستيظ في منتصف الليالي، أرى الإخوة مشغولين بقتل القمل، وكان بعضهم لا ينفكّ عن الحكّ أثناء النوم ولو للحظة. في الليل، كان الإخوة يلبسون ثيابهم بالمقلوب، ليرتاحوا برهة من شرّ القمل.

أعترف أنّ الحراس العراقيين لم يخضعونا، لكنّ القمل والصئبان فعل ذلك. ففي أوقات الصباح عندما كنّا نريد تناول الفطور، كانت أظافرنا، الأداة الوحيدة لقتل القمل، تتلوّث بالدماء، ولم يكن الماء متوفّرًا، فكنا نفضّل شرب الماء الموجود على غسل أيدينا به، ونتناول الفطور بأيادينا الملوّثة.

(1) العامية: السيبان، أي بيض القمل.

كنت أود الانتقام من العراقيين. أخبرت «جلال رحيميان»، الأسير الإيراني المسؤول عن المعتقل، فرحّب بالفكرة، لكنّه قال:

- إذا علم العراقيّون بالأمر، يحولون حياتنا جحيماً!

- جلال! لعلّ الله يكون غير راضٍ عن عملنا هذا، ولكن لا ضير إن انتقمنا من العراقيين.

- لا تخبر أحداً بالأمر.

- أنا منته، أخبر فقط الأسير الذي سيقوم بالمهمّة.

وضعنا عدداً من القمل في وعاء بلاستيكيّ، ثمّ طلبت من الأسير «مجيد قرباني»، الذي كان مسؤولاً عن تنظيف غرفة رئيس الحراس، إفراغ القمل في طيّات بطانيّات العراقيين دون أن يراه الحراس، خاف «مجيد» من انكشاف أمره، فقال: إذا علموا بالأمر سينتقمون منّي شرّ انتقام!

لم يكن لديه الدافع الكافي ليقوم بهذا الأمر، كنت مضطراً أن أشرح له المقدمات: «.... مجيد! في موضوع داء الجرب أجبرنا على التعرّي أمام الأصدقاء والأعداء، إنهم يعاملوننا كالعبيد، بينما أسراهم في إيران يأكلون الدجاج والأرز، ونحن هنا نحلم بهما. هذا القمل الذي يمصّ دماءنا هو بسبب إهمال العراقيين!»

حاولت إيجاد الدافع الكافي لديه، ولأنّي ناقشته بالأمر، كان حكم العقل يقتضي أن يقوم هو بهذا العمل. كان باستطاعتي الطلب إلى شخص آخر يتولّى مهمّة تنظيف غرفة رئيس الحرس في الأيام اللاحقة، لكنني لم أر مصلحةً في ذلك، فإن لم يتم هو بهذا العمل، وقام به شخص غيره فيما بعد، سوف يطلب العراقيّون «مجيداً»

للمساءلة، ولأنه لم يرتكب بنفسه هذا الفعل؛ قد يقول للعراقيين أن فلاناً طلب مني أن أقوم بهذا الأمر، ولم أقبل، أما لو كان شريكاً في هذا الجرم، فسوف لن يقرّ على نفسه. وبعد الأخذ والرد، اقتنع أخيراً.

الثلاثاء 8 آب 1989 - تكريت - المخيم الملحق

جاء «سامي»، الحارس العراقيّ الجيد، إلينا، وكما توقّعت، كان القمل قد سرى إلى العراقيين. دخل «سامي» المعتقل، وقال بابتسامة ذات مغزى:

- وصل القمل إلينا!

كان شاكاً بي، وبأثنين، أو ثلاثة آخرين. أدركت من نظراته أنه كان يعلم أننا قمنا بهذا العمل. كان يودّ أن يعرف خطّة من كانت؟ كان يشكّ بي أكثر من الآخرين. ومع أنّ «سامي» كان منّا، ولا نتوقّع منه أيّ أذى، لم أقلّ له حينها شيئاً؛ لكن أخبرته فيما بعد!

الأربعاء 9 آب 1989 - تكريت - المخيم الملحق

كان جوّ شهر آب حارّاً. ومن كثرة ما شربنا الماء الحارّ، أُصيب معظم الإخوة بالإسهال. مضى أسبوعان أو ثلاثة حتّى اهتدى الإخوة إلى أسلوب خاصّ لتبريد مياه الشرب. كنّا قد لفّينا قطعة من الخيش حول أكوابنا المعدنية، وكان كلّ كوب يشكّل حصّة لشخصين. في المساء، كنّا نبثّل قطع الخيش الملفوفة حول الأكواب، ونضعها على القضبان الحديدية للنافذة، لتصبح باردة بفعل تحرّك الهواء. كان الأمر يستغرق أربع أو خمس ساعات حتّى يبرد الماء في الأكواب قليلاً. كان يُصفّ على كلّ نافذة نحو ثلاثين كوباً بدقّة وظرافة خاصّة، فإذا

ما أراد شخص أن يأخذ الكوب التحتاني في الأسفل، كان عليه أن يرفع أكثر من عشرين كوباً، حتّى يتّم هذا الانتقال.

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة أو الحادية عشرة، وبينما كان «وليد»، الحارس الليلي، يمرّ من خلف نافذة المعتقل، نقر بإصبعه على أحد الأكواب. ولو سقط أحد الأكواب السفليّة أو العلوية، لسقطت الأكواب واحداً تلو الآخر، وبلّلت الفرش.

من حينها، كلّما كانت نوبة الحراسة الليليّة بعهدة «وليد» أو «حامد»، كنّا نمتنع عن صفّ الأكواب على قضبان النافذة. كان «وليد» يقول: الأكواب تحجب الرؤية عن الحراس الليليين!

الخميس 10 آب 1989 - تكريت - المخيم الملحق

وضع حامد، حارس المخيم، الأسير «علي شاه أوريده» داخل كيس الخيش، وراح يضربه. وليكون عبرةً للآخرين، فلا يفعلون فعلته، أعلن عن جريمته. كان «علي شاه» قد قال في جمع الأسرى أنّ صدام ابن حرام! بالأمس كان حامد قد أنزل هذا البلاء على رأس أحد الإخوة من أهالي «أرومية»، وكان هذا الأسير قد أعدّ الشاي بالاستفادة من سلك كهربائيّ. فقد نزع الإخوة غلاف طرف السلك، ووصلوه بقطعة معدنيّة، ووضعوا طرف السلك الموصول بالقطعة المعدنيّة في صفيحة، فغلى الماء وأعدّوا الشاي. في فصل الصيف، ومن شدّة الحرّ، كان بعض الأسرى يضعون أكوابهم المعدنيّة المملأ بالماء تحت أشعة الشمس. كان الماء يسخن إلى درجة كبيرة فيتمكن الأخوة من صنع الشاي فيها.

كان ذنبُ «علي شاه» أشدَّ من ذنب أسير أرومية. فظهر اليوم، بعد تناول طعام الغداء، قطعوا عنّا الماء بسبب فعلة «علي شاه». كان الجميع عطشى، ولم يتمكّن أحد من الذهاب إلى دورة المياه. بقيت أوعية (أواني) الطعام متسخة. وبسبب انقطاع المياه، أزال الإخوة الدهون الملتصقة على الأواني ببقايا «ثفل الشاي» الموجودة في قعر أنية الشاي. في المساء، تناولنا طعام العشاء في الإناء الذي نظّفناه ببقايا ثفل الشاي.

بعد الظهر كنت أتملّل من شدة العطش، كان الجوُّ أشدَّ حرّاً من الأيام السابقة.

حينها، بسبب داء الجرب، كنّا مضطّرين للجلوس ساعات تحت نور الشمس، كاد العطش يقتلني، وكان بدني يتعرّق بتمامه، وقع بعض الإخوة في ممرّات المعتقل تحت الخيمة من دون حيل أو رفق، غطّيت رأسي بقطعة قماش بيضاء؛ لكي أخفّف من حدة الأذى. طلبت من «سامي» أن يبلّل قطعة القماش هذه بالماء. أراد بعض الحراس كسامي وقاسم جلب الماء للجرحى وكبار السنّ، لكن «وليداً» و«رافعاً» منعاهما. كان الحاجّ «حسين شكري» و«محمد كاظم بابايي» إلى جانبي، قلت للحاجّ «حسين»:

- سأقوم بأمر؛ لعلّهم يأتوننا بالماء.

بدأت بالضرب بأسفل عصاي على الأرض حيثما كنت أجلس، كلّ من كان يراني، كان يظنّ أنّي أحضر الأرض. انبرى المطّاط الموجود في أسفل عصاي. لم أكن أدري إلى أيّ حدّ سيفيد عملي هذا. التفت «سعد» إلى الأمر، جاء وهو يمضغ اللبان، نادى «منصوراً» الأسير

الخوزستاني العربي وقال:

- ها! ناصر الاستخباراتي، ماذا تفعل؟

- سيدي! أنا عطشان.

- لماذا تحفر الأرض؟

- أنتم لا تسقوننا الماء، أريد أن أحفر بئرًا لأشرب!

ضحك «سعد»، لم تكن مزحة سيئة، كان إنسانًا محترمًا ومرنًا، أحسست أنه لم ينزعج. قال «محمد كاظم» إنه سرّ لهذه المزحة. أمر «سعد حبّوش»، الحارس الجديد، أن يأتي بالماء، امتعض «وليد»، و«حامد»، و«رافع» من أمر «سعد» هذا. عندما شربت والحاج «حسين» و«محمد كاظم» الماء، بدا الغضب على وجه «وليد» أكثر من الباقين.

الاثنين 14 آب 1989. تكريت. المخيم الملحق

البارحة كان ذكرى أربعين الإمام الحسين (عليه السلام). حينها، انتزع العراقيون الصنابير في دورات المياه بسبب قيامنا باللطم. كدنا نموت عطشًا. كان الإخوة يدخلون دورات المياه، ولا يجدون ما يغسلون به النجاسة، فاضطّروا لفصل أحد جيبَي لباس الأسر الأصفر، واستخدموها في تنظيف أنفسهم.

خطر في بالي فكرة، كان لقائمتي عصاي السفليتين محفظة طولها ستون سنتيمترًا. لكلٍّ من هاتين القائمتين غطاء معدنيّ. يمكن فتحه بسهولة، وكنت قد حفظت في تلك المحفظة لوائح بأسماء وعدد أسرى المخيم الملحق. لم يحدث أن فتح العراقيون يومًا أغطية

عصاي، وفتشوا ما بداخلها، لم يخطر ذلك على بالهم⁽¹⁾. وكان لعصاي أربعة أغطية معدنية موجودة فوق البراغي السفلية للقائمتين، بحيث تصل هذه البراغي القائمتين السفليتين بالعصا نفسها. كان كل غطاء يحتوي على تجويفين مربعين، كأنهما قد صنعا لصنبور الماء. اليوم، عندما نزع الحراس لولب صنابير الماء داخل دورة المياه، انتزعت ولأول مرة، أحد أغطية عصاي وفتحت الصنبور بها، كدت أطيّر من الفرخ، كنت غايّة في السرور كون غطاء عصاي قد خلّص الكثيرين من العطش، تلك العصا التي كانت تنزل، بدلاً عن الأسلاك، على أجساد الأسرى، كان لها دورٌ هذه المرة في رفع عطش الكثيرين!

الثلاثاء 15 آب 1989. تكريت. المخيم الملحق

كان الجوّ حارّاً، وكان «سلوان» يأكل العنب، لم أستطع أن أغضّ بصري. ففيما كان هو يأكل العنب، كان لعابي يسيل، تمنّيت لو كنت مكانه وكان ذلك العنقود لي. تذكّرت أنّ فاكهة الجنة ألذّ وأطيب من هذا بكثير!

الأربعاء 16 آب 1989. تكريت. المخيم الملحق

كنا قد مللنا من تكرار بثّ الأغاني الإيرانية، فمنذ اليوم الذي نقلنا فيه إلى «المخيم الملحق»، كان العراقيّون يبتّون كلّ يوم من الساعة

(1) في أيّام أسري الأخيرة في شهر آب 1990، كنت قد حفظت في عصاي أسماء ما يربو عن أربعمئة أسير إيراني. وقد عزمت على تسليم أسمائهم للهِلال الأحمر، حيث كان من المقرّر الإفراج عنّي قبل الأسرى الأصحاء.

9ص وحتى 12ظ، ومن الساعة 4 إلى 6 بعد الظهر، أغاني السيِّدة «أفسر شهيدي»، و«داريوش إقبالِي»، و... عبر مكبِّرات الصوت، وكانت مكبِّرات الصوت هذه قد وضعت على سطح المخيم بين الأسلاك الشائكة، وقد حفظنا كلمات هذه الأغاني لكثرة ما سمعناها. لقد تمَّ اختيار أغاني السيِّدة «شهيدي» و«داريوش» عن دراسة، حيث كانت مضامينها كلّها تتحدّث عن الغربة، والبعد عن الوطن. لم يلتفت الكثيرون لِمَ اختار العراقيّون هذين الشريطين المسجّلين [كاسيت] من بين كلّ الأغاني المتنوّعة والمفرّحة. وكان واضحاً لي أنّه تمَّ اختيارهما عمدًا.

إلّكم بعض المقاطع من أشعار السيِّدة «أفسر شهيدي»:
 أنت والسُرور والأمل / أنا والوحدة والحسرة، أنت في جنّة ملأى
 بالورود / أنا وحيدة في مدينة الغربة. رُوحِي تسافر مع الغمّ / اهترأت
 في مدينة الغصّة.

بعدك أصبح البكاء رفيقي / خدعني غمّك.
 أنا الآن وحيدة ومتعبة / غريبة في هذه المدينة. غريبة في هذه
 المدينة...

أو أغنية «داريوش إقبالِي»:

وطني، هنا الكلّ غريب عن الآخر / ولو تصادقوا في الظاهر / إلّا
 أنّهم أعداء في الصميم، لا أخلاء، وطني! هنا لا يكثر أحد لآخر /
 إذا متّ من الجوع / لن تجد أحداً ليحمل نعشك. وطني! هنا كل
 الكلام كذب / الرفقة والصحبة هنا ظاهريّة / لا زال سوق عديمي
 المروءة مزدهماً. وطني! أنا فداء لرائحة ترابك / فداء لكلّ محاسنك

ومساوئك / إن رجعت فسأقع على قدميك. وطني! الحرية هنا خدعة /
على بوابته السلاسل والقيود ...

قبل ذلك بفترة، كان كبار السن في المخيم، ومن جملتهم «حسن بهشتي بور»، أصغر إسكندري، الحاج «حسين شكري»، و«جعفر دولتي مقدم» قد اعترضوا لدى العراقيين، مع أن أغلب الأسرى المنزوين والمنطوين على أنفسهم، كانوا يرحّبون بهذه الأغاني، وكانت تلك الأغاني المجبولة بالغم والحسرة ترضي بعض الأسرى.

كان الإخوة قد تكلموا مع الملازم «حميد»، وكان إنساناً منطقيّاً بهذا الشأن، وقبل ذلك كنت قد تكلمت مع «سعد»، لكن لم يجد ذلك نفعاً. وفي الأسبوع الماضي أجابني: «أنا رجل أفضل الهدوء والصمت، ليس الأمر بيدي!» وقد قال مراراً: «أنا أطلب من طاقم هذا المخيم أن يعم الهدوء والصمت! أنا لا أفهم ما يقوله هؤلاء المغنون الإيرانيون، إن «شفيق عاصم» هو الذي طلب بث هذين الشريطين، وها أنا أثبتهما!»

كان «سعد» يقول الحقيقة، وقد حُصّني لأتابع الأمر مع مسؤولي المخيم؛ لأنّ في ذلك مصلحة له، وقد وجّهني الإخوة لكيفية طرح هذا الموضوع. قلت للملازم «حميد»:

- سيدي! المخيم مثل بيتنا، وقد أتعبت هذه الأغاني روح الإخوة، ومنذ ما يقرب من سنة وهذان الشريطان يتلاعبان بأعصابنا. لو تُرجمت معاني كلماتهما لكم لأدركتم ما أقوله.

- أيّ الأشرطة تريدون؟

ذكرت له اسمي الأستاذ «بنان» و«شجريان»، وذكر المترجم

فاضل أيضًا أسماء بعض المغنين الإيرانيين خارج إيران، حينها طلب الملازم «فاضل»، الذي كان يعلم تمنياتنا القلبية، بثّ برامج راديو إيران عبر مكبرات الصوت، ممازحًا وغامرًا: ماذا عن راديو إيران؟ - هذا لن تسمحوا به أبدًا، ولكن القسم الفارسي من راديو بغداد أفضل من هذه الأغاني.

- إذاعة صوت الجماهير العراقية؟

- أي شيء غير هذه الأغاني.

السبت 2 أيلول 1989 - تكريت - المخيم الملحق

أحضروا لنا الفاكهة بعد انقطاع طويل، وكنا نتوق لتذوّقها، وقد كانت قبل شهرين عبارة عن حبة خيار لكل شخصين. أمّا اليوم فكانت عنبًا. كان عدد الأسرى في «المخيم الملحق» 1063 أسيرًا. اصطفّ المسؤولون عن الطعام أمام مدخل المخيم لاستلام الفاكهة. دخل أحد الإخوة حاملاً الوعاء بين يديه، لم يكن أيّ منّا قد تناول العنب. نعم، كنا نرى الحراس يأكلونه، اجتمع الإخوة حول الوعاء، حاول «جلال رحيميان» أن يقسم العنب على الإخوة بالتساوي، كان «عارف يزدان بناه» المعروف بـ«عارف أبو راسين»، مسؤول التقسيم. وقد قُسم العنب حبةً حبةً، بين أربعة وعشرين معتقلًا. في المرحلة الثانية قُسم العنب إلى حبات كبيرة وصغيرة بين الأسرى، وقد استغرق تقسيمه أكثر من ساعة.

كانت حصّة كلّ أسير أربع حبات كبيرة، وحبتين صغيرتين، أو متوسطتين. في معتقلنا الذي يضمّ 85 أسيرًا، كانت العدالة تقتضي

تقسيم خمس وعشرين حبة متبقية، وكان تقسيمها بين خمسة وثمانين نفرًا أمرًا صعبًا. اقترح جلال، المسؤول عن المخيم، على الإخوة اقتراحًا نال رضاهم، وهو أن تُوزَّع الحَبَّات على كبار السن والجرحى، وبما أن عدد كبار السن والجرحى اثني عشر نفرًا، وُزَّعت اثنتا عشر حبة علينا، وحُمِل الباقي، أي ثلاثة عشرة حبة إلى الأسرى المصابين «بالديزنتاريا»، الذين أدخلوا إلى المستوصف للعلاج.

في المعتقل المحاذي لمعتقلنا، قسَّم الإخوة خمسًا وثلاثين حبة عنب على ثمانين نفرًا. وقد أخبرونا، أنَّ عشرة أشخاص منهم تنازلوا عن حصَّتهم، ليقسِّموا خمسًا وثلاثين حبةً على سبعين نفرًا، فكانت حصَّة كل واحد منهم نصف حبة.

بعد فترة طويلة جيء لنا بالبرتقال. حين قسَّم البرتقال بين المعتقلات، كانت حصَّة كل أسير ثلث برتقالة. بعد ذلك دخل مسؤول النظافة، حاملاً في يده سطلًا بلاستيكيًا لجمع قشور البرتقال، وبعد أن دار على 24 معتقلًا رجع خالي الوفاض!

سأله حبّوش: أولم تجمع القشور؟

- سيّدي! لقد جلت على جميع المعتقلات، فلم أجد أثرًا للقشور، ووجدت المعتقلين قد أكلوا البرتقال بقشره من شدة الجوع!

السبت 16 أيلول 1989. تكريت. المخيم الملحق

نشرت الصحف العراقية اليوم خبرًا عن «مهدي أبريشمجي» حول البرنامج التلفزيوني «سيماء المقاومة» الخاص بالمنظمة⁽¹⁾. فبعد

(1) منظمة «منافقو خلق».

يوم واحد من وفاة الإمام، عرض التلفزيون العراقي الحلقة الأخيرة من هذا البرنامج، حينها قال مقدّم البرنامج: «الحلقة التالية ستُبثّ من التلفزيون الإيراني الكائن في شارع ولي عصر في طهران!» كانوا يظنّون، فعلاً، أنّهم يعدّون العدة، وأنّهم سيذهبون إلى شارع «ولي عصر» في طهران ليستلموا مؤسّسة الإذاعة والتلفزيون الإيرانية! كان «أبريشمجي» منزعجاً؛ لأنّ صدام لم يسمح بعرض برنامج «سيماء المقاومة» مجدّداً من التلفزيون العراقي. كان «سامي» يقول: «لقد انعدمت ثقة صدام بمسعود رجوي»، قلت: لم؟ قال: «يقول صدام أنّ رجوي قد خذله في تحليليه كليهما؛ التحليل الأوّل لرجوي كان عن عمليّات الممرصاد، حيث وعد بفتح طهران، ولم يفعل، وأمّا التحليل الثّاني فقد قال فيه: «عند وفاة الخميني سيذهب إلى إيران، ويستلم زمام الأمور فيها، وهذا أيضاً لم يحصل!» قال الدكتور «مؤيّد»: «إنّ جماعة مسعود رجوي قد استعجلت العمل على إنهاء برنامج سيماء المقاومة»، وطلبت من صدام إيقاف البرنامج، فقبل بذلك، والآن حيث ذهبت آمالهم في أدراج الرياح، عادوا يلتمسون عودة البرنامج، فلم يقبل النظام العراقيّ بذلك.

الأحد 24 أيلول 1989 . تكريت . المخيم الملحق

كان التلفاز يجول علينا بشكل دوريّ، وكلّ خمسة أيّام يأتي دور معتقلنا. ذكرني تلفزيون المخيم الملحق بتلفزيون جيراننا، وبأخي السيّد «شجاع»⁽¹⁾. وصادف هذا اليوم حلول الذكرى السنويّة لاعتداء

(1) عندما كنت في الصفّ الخامس الابتدائيّ، لم يكن لدينا تلفاز، فكنت أذهب في ليالي الصيف مع أخي السيّد «شجاع الدين» إلى سطح بيت جيراننا، ونشاهد التلفاز من فتحة ميزاب السطح، الواقعة تماماً

النظام البعثي على أرض إيران. عند المساء، وطبقاً للعادة، عُرض خطاب «صدام» في المجلس النيابي العراقي، وعرضت مشاهد عن اعتداء القوات العسكرية العراقية على إيران، ومن بين الصور التي عُرضت، صورة لصدّام كان يصلي فيها في حرم الإمام الحسين (عليه السلام) المطهر، كان صدّام، الذي دخل الحرم المطهر، وصلى بحذاءه إلى جانب الصريح، موضوع سهرتنا الليلة. قال جلال رحيميان: «بالله عليكم انظروا، إذا كنت تريد خداع الناس، فاخلع، على الأقل، حذاءك في حرم الإمام!» أمّا «محمد رمضان» فقال: «وايلاه على أولئك المسلمين الذين ينخدعون بالأعيب صدّام. صدّام عدو للإمام الحسين، يصلي في حرمه، ويقتل من ناحية أخرى شيعته، صلاة صدّام في حرم الإمام الحسين (عليه السلام) كصلاة «محمد رضا بهلوي» في حرم الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام)».

الاثنين 25 أيلول 1989. تكريت. المخيم الملحق

قبل الظهر استقرّنا «حامد» بالكلمات التي كان يتقوّه بها أمام الأسرى، من قبيل، صدّام بطل القادسيّة، والإيرانيون عبدة النار، وجبناء...، وقد تجادل مع الحاجّ «سعد الله كل محمّدي» الذي كان قد أُسر في شلمجة. تحدّث عن حرب العراق ضدّ إيران باعتبارها حرب القادسيّة الثانية، ولكي يتفاخر على الحاجّ قال: «كنت في شلمجة ضمن عناصر الكتيبة المدرّعة، لاحقنا بالدبابات كتيبة من البسيج،

مقابل التلفزيون. هكذا كُت وأخي السيّد «شجاع الدين» نشاهد الأفلام السينمائيّة. وكنا نتناوب على المشاهدة، فأشاهد أنا عدّة دقائق، ويشاهد هو عدّة دقائق أخرى. ذات ليلة كشفت عطسة السيّد «شجاع» أمرنا، حيث رأونا، ولحقوا بنا، فهربنا، وحرمنا من مشاهدة تلفزيون الجبران إلى الأبد.

فلاذوا بالفرار، ودهست دباباتنا أكثر من مئتي شخص منهم». اشتعل «الحاج سعد الله» غيظاً، فقال له: «صدقت، ولكن لعنة الله على الكاذبين!»

عصرًا، أتى إليّ الحاجّ «سعد الله» وقال:

- أنت تجيد التطريز، أيمكنك أن تطرّز لي، في عدة أيام، عبارة الإمام عليّ عليه السلام، «فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة»؟
- إذا كانت العبارة مكتوبة، أنهيها لك بسرعة!
- إذا، طرّزها لي خلال أيام، أريد أن أهديها «لحامد»!
- حاج، وما تفيده هذه الجملة، ولماذا هذه العبارة بالضبط؟
- أخبرك فيما بعد!

عصرًا بدأت بتطريز هذه العبارة على قطعة قماش قياس (40x50 سم). كان «علي يمانى»، من أهالي مشهد، من قام بتخطيط هذه العبارة، حيث كان خطاطًا، وقد كتبها بخط النستعليق، وقمت أنا بتطريزها. لم أكن أعلم لِمَ أراد الحاجّ أن يهدي هذه العبارة لحامد، لقد كان الحاجّ رجلاً ذا تجربة، وهناك حكمة وراء فعله حتماً؛ كنت أوّمن بكلّ ما يقوله.

الخميس 5 ت 1989 - تكريت - المخيم الملحق

صباحًا، عندما ارتفع الصوت مؤذّنًا بالخروج، سلّمت القماشة المطرّزة للحاج «سعد الله كل محمّدي»، وطلبت فيه أن يكشف لي سرّ هذه العبارة والهديّة. فسرّد لي ملخصًا عن الخطبة السابعة والعشرين للإمام عليّ عليه السلام في نهج البلاغة، التي تحكي عن حرب

صفيين، والهدنة المؤقتة بين الإمام عليٍّ ومعاوية. والحاجّ الذي كان يؤمّ الصلاة بألف أسيرٍ إيرانيٍّ في العنبر رقم (2)، وكان يطلعنا على هذه الأحداث من خلال بعض الدروس، فقد كان شارحاً ومفسراً للقرآن ونهج البلاغة.

هذا ملّخص عن شروحات الحاجّ التي كان ألّقاها حول الخطبة السابعة والعشرين من نهج البلاغة:

بعد معركة صفين بين الإمام عليٍّ عليه السلام ومعاوية، تمّ الاتفاق على هدنة مؤقتة، وقد تعهّد الطرفان بالالتزام بها. نكث معاوية العهد، وأغار جنوده على الأنبار في العراق، فسلبوا أموال الناس فيها، واعتدوا على النساء والبنات، وسلبوهنّ أقراطهنّ وحليهنّ. ومضافاً إلى السلب، وإحراق البيوت والمحاصيل، ارتكب جنود معاوية جرائم كثيرة، لكنهم لم يواجهوا أيّة مقاومة في تلك المنطقة الحدوديّة، أيّ: ولاية الأنبار العراقيّة، ممّا أثار غضب الإمام عليٍّ عليه السلام لتلكؤ أهلها عن الجهاد، وتخاذلهم، وعدم الغيرة، فذمهم في هذه الخطبة، وحقرهم بعبارات ناريّة، وبأشدّ ما يكون التحقير⁽¹⁾.

(1) وهذه خلاصة عن الخطبة السابعة والعشرين من نهج البلاغة للإمام عليٍّ عليه السلام حول أهل الأنبار: أمّا بعد فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة، فتحه الله لخاصّة أوليائه. وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة.. ألا وإنّي قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلاناً وقتلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلّوا... هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار، وقد قتل حسن البكري، وأزال خيلكم عن مسالحها، ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة، فينتزع حجلها، وقليها، وفلائدها ورعته... فلو أنّ امرأ مسلماً مات من بعد هذا أسفاً، ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً. فقبّحاً لكم وترحاً، حين صرتم غرضاً يرمى... يغار عليكم ولا تغيرون، وتغزون ولا تغزون. فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيّام الحرّ قلتهم هذه حمازة القبط، أمهلنا يسبح عنّا الحرّ، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء، قلتم: هذه صبازة القرّ، أمهلنا ينسلخ عنّا البرد... يا أشباه الرجال ولا رجال، حلوم الأطفال وعقول ربّات الحجال، لوددت

بسماع هذه الكلمات فهمت سرّ تطريز العبارة، وسرّ إهدائها إلى «حامد». فالحاجّ الذي كان قد طُفح قلبه من «حامد»، أراد عبر هذه الهدية تعريفه بقدرة. وقبل أن يقدّم الهدية إلى «حامد» قال:

«حامد» هذا، من أهل الأنبار العراقية، إنسان مغرور، يذكر اعتداء العراق على أرض إيران كمدة عاة للفخر، ويسمّيها معركة القادسيّة الثانية؛ يقول: إنّ الإيرانيين أناس جبناء؛ وإنّهم دهسوا بالدبابات في «شلمجة» متّني بسيجي، ويقلّد حركات عمّه صلاح القاضي، وقد نسي أنّ عمّه أعدم على يد صدام؛ لأمره القوّات العراقيّة بالانسحاب من خرّمشهر⁽¹⁾. أريد من خلال هذه الهدية أن أعرفه بتاريخ الأنبار، موطنه ودياره، المعروفة بعدم الغيرة وبالدّلّة. أريد أن أعرفه أن الدلّ والعار جديران به هو، وليس بالإيرانيّين، أريد أن ألقنه درساً، بحيث لا يوجّه إهانة لإيران والإيرانيّين ما دام حيّاً! عليه أن يعلم أنّ استبسال الإيرانيّين وإيمانهم هو الذي أودى بصلاح القاضي إلى الإعدام. حين سمعت كلماته هذه قلت:

- إذا قدّمت هذه الهدية «لحامد»، سوف ينتقم منك فيما بعد.

لو أنّي لم أركم ولم أعرفكم معرفةً واللّه جرّت ندماً... قاتلكم اللّه! لقد ملأتم قلبي قيحاً وشحنتم صدري غيظاً، وجرّعتوني نُعْب التهام أنفاساً...

(1) اللواء صلاح القاضي، من أهالي الأنبار، تربّى في الجيش العراقيّ بعد انقلاب 17 تمّوز. عيّنه أحمد حسن البكر قائداً لكتيبة الدبابات الرابعة، التابعة لفرقة المشاة الرابع. في العام 1359 [1980] أصبح قائداً للواء 16 المدرّع. بعد أشهر عدّة أصبح قائداً لفرقة الآليات الخامسة، ليصبح في العام 1360 [1981م] قائداً للفيلق الثالث في الجيش العراقيّ. بعد عمليّات بيت المقدس هُزمت وحدات الفيلق الثالث شرّ هزيمة. إلى ذلك الوقت كان اللواء قد حوّل عشرات آلاف الأشخاص إلى مفرزة الإعدام، وبسبب إصداره الأمر بالانسحاب في عمليّات بيت المقدس، كان قلبه هدفاً لرصاصات منقّذي قرار الإعدام. وفيما كانت تلعب أنواط الشجاعة الخمسة التي وضعها صدام على صدره، لم يسمح لهذا الرجل قبل رميه بالرصاص، حتّى بالدفاع عن نفسه.

- فلينتقم! عندما يذهب ويقرأ في الخطبة 27 عن تاريخ موطنه «الأنبار»، سيبرد قلبي. عليه أن يعرف من هم الرجال؟ الإيرانيون أم أهالي الأنبار!

ظهرًا، عندما قدّم الحاجّ الهدية «لحامد»، سأل «حامد»: هذا شينو؟ (ما هذا؟)

- هذا خطبة للإمام عليّ (عليه السلام)، يتكلّم فيها عن موطنك، محافظة الأنبار العراقية. فكّرت ماذا أهديك، قلت، حديث الإمام هذا هدية جيّدة، ضع له إطارًا، وعلّقه في غرفة الاستقبال!

لم يلتفت حامد إلى الموضوع، فلم يفرح بها، ولم يرفضها. أخذ قطعة القماش المطرّزة من دون اكتراث. مقارنةً مع الأشغال اليدوية والمطرّزات التي كان قد رآها، لم تعجبه هدية الحاجّ هذه.

أظنّ أنّه لم ينزعج؛ لأنّه لم يكن مطلعًا على الخطبة 27 في نهج البلاغة، فلم تكن كلمات الحاجّ مفهومة لديه. وعندما قال له: «ضع لها إطارًا، وعلّقها في غرفة الاستقبال»، ضحك ضحكة باهتة.

بعد أسبوع، حين عاد «حامد» من مأذونيّته، جاء مباشرةً إلى الحاجّ «سعد الله»، وراح يسبّه، ويشتمه، كان واضحًا أنّه غاضب جدًا، انهال بالسوط على الحاجّ. تأكّدت حينها أنّه ذهب في إجازته وقرأ الخطبة 27 من نهج البلاغة.

كان الأسرى مبهوتين، ما هو الأمر الذي أغضب «حامدًا» إلى هذا الحد؟ معظمهم لم يكن يعرف السبب. فتش «حامد» عن الشخص الذي طرّز قطعة القماش. قلت له: أنا الذي قمت بتطريزها، فلم تكن حصّتي من الضرب بأقلّ من حصّة الحاجّ. هرع الإخوة إلينا،

وسألوا عن علّة ذلك، فقلت: لا شيء، إنّها الخطبة السابعة والعشرون للإمام عليّ عليه السلام في نهج البلاغة، هي التي أغضبت «حامداً» كلّ هذا الغضب!

الجمعة 13 ت 1989 - تكريت - المخيم الملحق

نُظِّفَ المخيمّ بأمر من النقيب «خليل»، ومُسحت أرض المعتقلات كافّة. وفي تلك الأوضاع التي كنّا نعاني فيها شحّاً في المياه، شُطِفَ حتّى فناء المخيمّ بصهريج ماء. كانت تلك أوّل مرّة يهتمّون فيه بنظافة المخيمّ، وكأنّ شخصيّة مهمّة ستأتي لزيارته.

طلب العراقيّون منّا أن نرتّب أوضاعنا، ونلبس الثياب المتشابهة. في الصباح، بعد الإحصاء، سمحوا لنا بالاستحمام. كان كلّ شيء متناسق في الظاهر. والحراس أنفسهم لبسوا أرقى البزات العسكريّة. دخل الضباط «فاضل»، «قحطان»، و«حميد» إلى المخيمّ، وتوجّه النقيب «خليل» إلى الأسرى قائلاً:

- بعد ساعة أو ساعتين، سيأتي العميد الركن «حميد نظر»، المسؤول عن ملفّ الأسرى الإيرانيّين في العراق كافّة، لزيارتنا. أعطى النقيب «خليل» تعليماته إلى الأسرى، بوجوب أداء التحيّة للعميد، وعدم التحرك من أماكنهم ما لم يصدر العميد أوامره بالانصراف. وحين يصدر العميد الأمر بالانصراف يمكنهم التمشّي بحريّة، لكن بدون أحاديث جانبية، ومن دون النظر في وجه العميد! قرابة الظهر، دخل العميد «حميد نظر» برفقة مجموعة من الضباط من ذوي الرتب العليا الذين يتراوح عددهم من عشرة إلى

اثني عشر ضابطاً، فيما كان الضباط والحراس يؤدون التحية له، وقد واكبه النقيب «خليل» والحراس باحترام خاص. كان العميد ضخيم البنية، طويل القامة، صغير العينين، أسمر الوجه، وكان يبدو أنه في الخامسة والخمسين من العمر.

أصدر العميد أمره بالانصراف، كنت جالساً إلى جانب باب المعتقل رقم (7). تفقّد العميد جميع المعتقلات، وحتى دورات المياه، وفيما كان يمرّ بجانبني، لفته وضعي الصحي والبدني، وقف أمامي ونادى المترجم، تناولت عصاي محاولاً القيام احتراماً له، فأشار إليّ بيده أن أبقى جالساً.

جاء «حميد خليفان» وأدى التحية. سأله العميد عن اسمي، وقال:

- كيف الحال هنا، ألا تتأذى بين الأسرى الأصحاء؟

- إنني أكيف نفسي، لقد تعودت على هذا الأمر، والأسرى الأصحاء يساعدونني أيضاً!

حدّق بي، كان يبدو عليه أنه إنسان ودود، وقيل: إنه من أقارب صدام، وحدّق بي أيضاً الضباط الآخرون، وكان من بينهم ثلاثة أو أربعة عقداً. كان العميد الركن يفصح عن نفسه شيئاً فشيئاً، وسألني:

- كم عمرك؟

- سبعة عشر عاماً.

- أنت بسيجّي؟

- نعم!

تأمل قليلاً، وأشار إلى رجلي المقطوعة قائلاً:

- انظر ما فعلت بنفسك، قُطعت رجلك، وأنت في مستقبل العمر،

ووقعت في الأسر. هل تظنّ أنّك اخترت الطريق الصحيح؟ كنت أودّ أن أفصح عمّا في داخلي. كنت أعلم أنّه إذا لم يعجبه كلامي، ولم يفعل لي شيئاً، فإنّ الضباط والحراس سيجعلون أيّامي قاتمة. فالضباط ذو الرتب العليا، لم يكونوا يتوسّلون العنف في المحادثات والتحقيقات، فقد كانوا أناساً هادئين. حين هممت بالكلام، نظر إليّ «وليد» الذي كان واقفاً خلف العميد نظرة عابسة، فهمت من نظرته أنّه يقول: تكلم كلاماً يسرّ الضابط! قال العميد الذي كان يحدّق بي:

- ما متندّم؟ (ألست نادماً)؟

- سيّدي! لم أفعل شيئاً سيئاً لأنّدم عليه!

قال العميد بهدوء تامّ، وبلطافة:

- الخمينيّ غشّكم! (غرّر بكم).

كان ظاهره ودوداً، لكنّ قلبه كان مليئاً بالحقّد على الإمام، سعى إلى تحقيري، أراد أن يعلم ما في أعماق نفسي، وما إنّ أنهى كلامه حتّى قلت:

- إنّ تكلمت، قد لا تفعل أنت لي شيئاً، ولكن ما إنّ تخرج من هذا

المخيم حتّى ينهالون عليّ ضرباً!

توجّه العميد إلى النقيب «خليل»، وقال له:

- لا يتعرّضنّ له أحد!

قال النقيب «خليل»، وهو يؤدّي التحيّة العسكريّة:

- حاضر سيّدي!

وبعد أن تحدّث العميد إلى النقيب «خليل» ورفاقه الضباط قال:

- لن يتعاطى أحد معك، ولن تؤاخذ بكلامك!
 في تلك اللحظة، لأنني كنت أتكلّم أمام رجل مهمّ؛ حاولتُ أن تكون
 كلماتي مدروسة وجيدة. أحببت أن أثبت من خلال كلماتي حقّي وحقّ
 بلدي، أحببت أن يفهموا أنّ التعبويين الذين، هم في مثل سنّي، هم
 أناس مؤمنون، وذوو دوافع. كنت منزعًا من قوله: «الخمينيّ غشّكم».
 وفيما كان العميد منتظرًا سماع ما أقول، قلت:

سيّدي! لست منزعًا من كون رجلي قد قُطعت، ولا من وقوعي
 في الأسر، الخمينيّ لم يغشّنا، لقد أتينا إلى الجبهة بملء إرادتنا،
 أنا لا أنتظر منكم أن تتنوا على عملي. لقد تمّنيتم في الحرب أن لا
 يلتحق أحد بالجبهة. في بداية الحرب تقدّمتم أنتم إلى حدود الأهواز،
 ولم تقاومكم أية قوّة، هكذا كان أفضل بالنسبة إليكم. أنا الآن أسيرُ
 «مفقودًا الأثر»، ومقطوع الرجل؛ أعلم هذا جيّدًا. في إيران لا يبقون
 أيّ أسير مقطوع أحد الأطراف في مخيم أسرى الحرب، وحتى لو
 لم تكن دولتكم مستعدة للإفراج عن أسير إيراني واحد «مقطوع
 أحد الأطراف» [معوّق] مقابل الأسرى العراقيّين «المعوّقين»، فإنّ
 الإيرانيّين قد أفرجوا عن الأسرى العراقيّين «المعوّقين» من جانب
 واحد، لقد قامت إيران بهذا الأمر! أمّا أنتم فقد حجزتموني، أنا الأسير
 المعوّق، في مخيم الأسرى «المفقودي الأثر»، ولم تسمحوا لي، وأنا
 في هذا الوضع، أن أكون بين أسرى الصليب الأحمر. لقد ظلّمنا نحن
 الأسرى «المعوّقون»، والحال أنّه لا يُعامل في إيران أسراكم المعوّقون
 بهذا الشكل. لكنني لست نادمًا!

عندما قلت ما في قلبي، شعرت بالراحة. استمع العميد ورفاقه إلى

كلامي بدقة، وقال:

- لقد خدعتم أنتم الشباب، لم يكن يجدر بك أن تتخدع بكلام

الخميني!

- سيدي! أنتم دومًا تحقروننا. لنفرض أن إيران هاجمت العراق

واحتلت البصرة! وهبَّ أهل العراق للدفاع عن بلدهم، والتحقوا

بالجبهة، ألا تتنون على عمل العراقيين هذا؟

هزَّ العميد، الذي لم يكن يعلم ماذا سأقول، رأسه مشيرًا إلى تأييده

لكلامي، وعادةً ما يقول العراقيون «إي» بدل كلمة نعم.

تابعت كلامي قائلاً: «لنفرض ثانية أن في هجوم إيران هذا على

البصرة التحق شاب عراقي يُدعى «ناصر سليمان منصور» بالجبهة

ليقاتل الإيرانيين الذين احتلوا أرضه، فوقع أسيرًا بيد الإيرانيين،

وقطعت رجله، وقُتل أخوه في الحرب، وأنَّ القادة الإيرانيين ومسؤولي

ملفَّ الأسرى العراقيين في إيران قالوا له: إنَّ صدام خدعك! لكنَّ

ناصر سليمان العراقي يبقى وفيًا لصدام، مطمئنًا إلى صحَّة عمله،

والى أحقية دفاعه، يبقى وفيًا لوطنه ورئيس جمهوريته، ألا تشجعون

ناصر سليمان منصور العراقي هذا؟ ألا يكون موضع فخر لكم ولشعب

العراق؟ ألا يُسرَّ العراقيون منه؟ وإذا أظهر، مع كلِّ أعماله الجيدة

تلك، الندامة في إيران، ألا تتزعجون منه وتستاءون؟!

غرق العميد في التفكير، وراح الضباط الآخرون أيضًا، الذين كان

«حكيم» يترجم لهم كلامي بدقة بالغة، ينظرون إليَّ محدقين. فهمت

من نظراتهم أنَّهم أدركوا ما قلته. أعتقد أنَّه لم يكن لديهم ما يقولونه

في مقابل قول الحق. فلم يسألوا شيئًا بعد ذلك.

وبعد تحديق طويل بي، ضحك العميد وقال لي:
 - كان ينبغي أن يقطعوا لسانك بدل رجلك!
 انتهت زيارة العميد الركن «حميد نظر»، المسؤول عن ملف الأسرى
 الإيرانيين في العراق، وخرج هو ورفاقه من المخيم.
 عصرًا، جاءني «سامي»، الحارس العراقي الطيب، وقال: فيما كان
 العميد «نظر» يخرج من المخيم، توجه إلى النقيب «خليل» وسائر
 الضباط المرافقين له قائلاً: ليت الأسرى العراقيين في إيران يبقون
 أوفياء لوطنهم كهذا الأسير الإيراني السريع البديهة!
 شعرت بالفخر حين سمعت هذه الكلمات.

السبت 14 ت 1989. تكرت. المخيم الملحق

كان بعض الحراس غاضبين مني؛ لأنني لم أثن على طباعهم أمام
 العميد «حميد نظر». والأكثر استياءً من بين هؤلاء كان الملازم
 «فاضل»، «وليد» و«رافع». وعلى الرغم من أن العميد أوصاهم بعدم
 التعرض لي، لم يتركوني وشأني. أحضرتُ قبل الظهر إلى غرفة رئيس
 الحراس، قبل أن أدخل الغرفة، قال لي «قاسم»، الذي كان يتولى أمور
 الخدمات والإنشاءات في المخيم: «تقرر ضربك بسبب الكلام الذي
 تكلمت به البارحة»، قلت له: «إنني أجبت على الأسئلة التي سألتني
 إيّاها العميد، وأنا كنت عند كلامي المحق».

- بالنسبة إليّ، قد سررت البارحة من كلامك، أمّا هم فقد انزعجوا!
 - ليموتوا بغيظهم!

قال قاسم، وكان يقصد مصلحتي، محبةً بي، ولم يكن يحب أن أضرب:

- لا تقل كثيرًا كلام حقّ في هذا المخيم؛ فهو ليس مكانًا لقول الحقّ!

دخل الملازم «فاضل» الليلة الماضية المخيم، وأظهر غضبه من سرعة بديهتي؛ مع أنّ النقيب «خليل» قد تركني وشأني، وقد نصحتني «قاسم» قائلاً: الملازم «فاضل» إنسان قاسٍ، وبلا رحمة، لكنه في الوقت عينه يخاف كثيرًا من أبي الفضل العباس عليه السلام، ليتك تأخذ بنصيحتي؟ فيكفي أن تذكر أمامه اسم أبي الفضل العباس عليه السلام، فيدعك وشأنك ولا يضربك!

وكان قاسم قد شهد مرتين مثل هذا الأمر، حيث نجّا بعض الأسرى الذين حكموا بمئة جلدة بذكرهم لاسم أبي الفضل العباس عليه السلام. كان «قاسم» قد لفت انتباههم أيضًا إلى هذا الأمر. بعد أيام ذكر لي «قاسم» فلسفة خوف الملازم «فاضل» من أبي الفضل العباس عليه السلام. بالطبع، لم يكن يذكر نقطة ضعف الملازم «فاضل» لأيّ شخص. فالبعثيون الذين كانوا أناسًا بلا رحمة، كانوا يخافون من أبي الفضل العباس عليه السلام، خاصّة؛ لأنّه عاقبهم عدّة مرّات.

عندما هممت بدخول غرفة رئيس الحراس، قال «قاسم»: «ليس لديك سوى هذه الرّجل، ولسانك طويل، أنت لا تشفق على نفسك، وقلبي يحترق من أجلك، لسانك هذا جرّ عليك الويلات!»

كنت أدرك شفقة «قاسم» عليّ، فقد كان إنساناً ذا مروءة، وعاطفياً. وقد نجّاني عدّة مرّات في أحلك الظروف. ومع أنّي في بعض الأوقات كنت أريد «قتل الناطور وأكل العنب» معاً، قلت له:

- أنا سيّد، لا أحبّ أن أستخدم أبا الفضل العباس عليه السلام في كلّ

مكان ولكل مسألة، أنا أخجل منه!
 شعرت بأن «قاسماً» قد انزعج فقال:
 - إذا كنت لا تريد أن تستخدم أبا الفضل العباس لكل مسألة،
 ففضّل، وتلذّذ بسياط «وليد»!
 في ذلك اليوم، بناءً على أوامر الملازم «فاضل»؛ وبسبب قولي
 الحقّ بالأمس، أبرحت ضرباً على يدي «وليد».

السبت 21 تا 1989 - تكريت - المخيم الملحق

بعد الظهر، أدخل العراقيّون شخصين إلى المخيم، وهم
 يضربونهما، ويشتمونهما. كان أحدهما نحيفاً، طويل القامة نسبياً،
 غائر العينين، أمّا الآخر فكان متوسط العمر، أسمر الوجه. وقام
 الحراس، وهم يضربونهما، برميها في فناء المخيم.
 كان أحدهما طهرانيّ اللهجة، قال للإخوة أنّه سيجي من عناصر
 «فرقة كربلاء 25»، وكان يقول أنّ العراقيين رحّلوه من «مخيم بعقوبة
 18» إلى هنا بسبب نشاطاته الدينيّة. وعرف الشخص الآخر عن نفسه
 كمساعدٍ لقائد أحد كتائب فرقة سيد الشهداء 10».
 عند الغروب، ناداني «سامي»، كان يخلط العربيّة بالفارسيّة ويقول:
 إين دو نفر مو أسير (هذان الشخصان ليسا بأسيرين)!
 لم يكن يريد الاستعانة بالمترجم، فأفهمني بأنّ هذين الشخصين
 ليسا أسيرين، ثمّ قال:
 - واحد جبهة التحرير، واحد منظمة مسعود رجوي!

كان يقصد أن أحدهما عضوٌ في جبهة التحرير⁽¹⁾، والآخر عضو في منظمة مجاهدي خلق. دلّني عليهما محاولاً أن لا يُلفت انتباه أحد لذلك. كان هذان الشخصان عاديّين جدّاً، وكانا يمشيان في فناء المخيم.

كان «سامي» يثق بي، وكان يقول دائماً: لو لم تكن من وحدة الاستطلاع والعمليات، لما عاملك «وليد» بكلّ هذه القسوة! ولقد سعى جاهداً لكي لا يعاملني «وليد» بعدائيّة، لكن جهوده باءت بالفشل. كنت قد أخبرته عن سبب اضطراري للاعتراف في «الميمونة»، أمام محققي فيلق العراق الرابع، بأنّي من عناصر وحدة الاستطلاع والمعلومات. كان مسروراً أنّي أخبره بأموري، وكان يعلم أنّي اضطررت للإعلان عن هويّتي الحقيقيّة؛ لكي أفتع العراقيّين أنّي لست بريد «علي

(1) كان لجبهة التحرير الخوزستانية سابقة طويلة، وقد أنشئت هذه الجبهة من أجل تقسيم خوزستان، وكان العراق، بهدف تحقيق مطامعه التوسّعيّة؛ يدعم الحركات الإيرانية التقسيميّة، فدعم العراق الشامل لهذه الحركات، وخاصّة جبهة التحرير، وحضّ عرب خوزستان على التمرد على دولة إيران، وإرسال كمّيّات كبيرة من السلاح والذخائر إلى خوزستان و... كان بهدف تهيئة الأرضيّة لخطواته التالية، أي: الهجوم على إيران بهدف تقسيم خوزستان وضمّها إلى العراق. وكان «راديو العرب» المرتبط بهذه الجبهة، الذي أوقف في العراق بموجب معاهدة [فبراير 1975م]، قد عاود نشاطه بعد قيام الثورة. وكان هذا الراديو يحضّ عرب خوزستان على القيام ضدّ الدولة المركزيّة في إيران. وقد هيّأت الأوضاع والظروف في بداية الثورة الأرضيّة لمعاودة هذه الجبهة نشاطاتها في المجالات المختلفة. فالتحريض على التظاهر، الاعتصامات، إحداث القلاقل، القيام بعمليات مسلّحة، ووضع المتفجّرات، كانت من أعمال هذه الجبهة. في العام [1980م] حيث لم تكن الشرطة تضبط الحدود بالنحو الكافي، أدخلت من العراق إلى خوزستان أنواع الأسلحة والذخائر بواسطة الشاحنات، ووُزعت على أنصار هذه الجبهة. كان عناصر جبهة التحرير يذهبون إلى العراق من أجل التدريب العسكريّ ومن ثمّ يعودون إلى خوزستان. وقد أجازت الدولة العراقيّة حينها لقوّات الجبهة المذكورة استخدام أراضيها كقاعدة للهجوم على إيران. كان العراقيّون يستقيدون من عناصر الجبهة المذكورة كأدلاء ومعزّفين، ولنقل المناققين إلى داخل الحدود، وترجمة برفقيات اللّاسلكيّ، والتجنّس، وكشف الأسرى، (وخاصّة أفراد التعبئة والحرس منهم، والقادة على وجه الخصوص)، والسعي لتجنيد الأسرى الناطقين باللغة العربيّة في الطابور الخامس، تفريغ المعلومات، تعذيب الأسرى وإعدامهم و... .

هاشمي». لم أكن أدري لِمَ كنت أثق به كل هذه الثقة، وأخبره بمعظم أموري. كان بعض رفاقي ينصحونني بأن لا أضع كل ثقتي به، فبالنهاية هو عراقي، لكنني كنت أحبه. لقد كان «سامي» محباً للثورة الإسلامية الإيرانية والإمام الخميني (رحمة الله عليه) بالمعنى الواقعي للكلمة. كان يتمنى أن تحصل ثورة في العراق، وتتشكل قوات حرس الثورة ليلتحق هو بالحرس الثوري العراقي.

عندما كان «حامد» يشتمنا ويقول: «لعنة الله عليكم أيها الإيرانيون المجوس»، كان سامي ينزعج، ويقول له: «الإيرانيون ليسوا مجوساً، إنهم مسلمون؛ والمسلم لا ينعت المسلم بالمجوسي!». نبهني «سامي»، وأكد عليّ أن أحذر من هذين الشخصين، وأن لا أخبر بأمرهما إلا من هو موضع ثقتي.

الاثنين 23 تـ 1989. تكريت. المخيم الملحق

كان صعباً عليّ أن يعيش شخصان بيننا يمثلان دور الأسرى، وهما ليسا كذلك. كانا يسعيان لإقامة علاقة مع جميع الأسرى، لاستنطاقهم، لاكتشاف القادة، ومعرفة الشخصيات الثقافية والمؤثرة، والتجسس لصالح العراقيين و...، وكانا مطمئنين أن لا أحد يعرف بأمرهما. قبل الظهر، ذهبت إلى أحدهما، تظاهرت بأنني لا أعلم شيئاً. عندما جلست معه حاول الحصول على المعلومات مني، سأل عن رتبتي العسكرية ومحل إقامتي. عندما حدّثته عن أوضاع المخيم الملحق والحياة فيه، قال: «لا أمل لنا في التحرر، طريقنا الوحيد هو الانتجاع إلى منظمة مجاهدي خلق!»

أخبرت «محمّد كاظم بابايي»، و«جعفر دولتي مقدّم»، و«علي أصغر انتظاري»، والحاّج «سعد الله كل محمّدي» و«ع.م»⁽¹⁾. أشرت لهؤلاء الإخوة عليهما، وهما في باحة المخيم. أردت أن يراقبوهما. أحبّ الإخوة من باب الفضول معرفة كيفيّة تحقّقي من شخصيّتهما، لكنّي لم آت على ذكر «سامي» أبداً.

بعد الظهر، أحضرني «حامد»، عندما دخلت إلى غرفة رئيس الحراس، كانت دقات قلبي تتسارع، كنت أعلم أنّ أمر هذين الشخصين لم يعد سرّاً بعد، فقد أخبر صديقي الخسيس «ع.م»، أحد أصدقائه بالأمر. كان العراقيّون على يقين أنّ الخبر سرى حتّى عن طريق أحد الحراس إلى مسامع الأسرى، فلم يكن أحدٌ سوى العراقيّين يعلم الهوية الحقيقيّة لهذين الشخصين؛ لأنّهما لم يكونا يذهبان إلى غرفة رئيس الحراس على أعين الملاء. وكانا يؤدّيان الصلاة في وقتها، وكانا اليوم والبارحة صائمين! وكانا من أهل الذكر، ويشتمان المسؤولين العراقيّين ما عدا صدام، لم يكونا يشاهدان التلفاز، ويقولان أنّه مروج لعدم العفّة والفساد... هذا كان حالهما وأفعالهما في هذين اليومين. لم يكن الحراس يتكلّمون معهما أمام الأسرى الآخرين، ولا يستلمون منهما شيئاً.

قبل دخولي غرفة رئيس الحراس، كان «سامي» واقفاً أمام المدخل،

(1) لا أوّد أن أذكر اسمه في هذا الكتاب. أتى إليّ ع.م عدّة مرّات وحاول استمالة قلبي، لم يكن قلبي ليصفو له بسهولة، وعلى الرغم من أنّه قد أذاني كثيراً بخيانتة، لكن فيما بعد، حين دخلت المخيم، توسّط لدى «محمّد كاظم بابايي»، و«محمّد بخرد»، و«حسين مقيمي»؛ لكي أسامحه. فسامحته كرمى للإخوة. كنت قد انخدعت بظاهره، فقد كان يشبه شباب الحرس هيئته، كان الإخوة يقولون إنّهُ قائّد، لكنّ ذلك لم يكن صحيحاً. كان ذا مظهر خدّاع، على كلّ حال، كنت صديقاً له، من دون أن أعلم خفاياه جيّداً.

كان قلقاً وغير مطمئن. قرأت في نظراته القلقة أموراً كثيرة. تبادلنا
و«سامي» الكلام من خلال النظرات، وقد أشار إليّ من خلال نظراته
أنّه إن ذكرت أمره سيلقى مصيراً سيئاً. كان «سامي» محقاً في قلقه،
فما من شك أبداً في أنني لو ذكرت اسمه، فسيحكم عليه البعثيون
بالإعدام بتهمة خيانة النظام العراقي والتعامل مع العدو، وربما أيضاً
سيُلقى لسنوات في غياهب سجون حزب البعث.

كان «سامي» يردّد دائماً: «أنتم لا تعرفون صدام وحزب البعث.
لقد رمى صدام وزير الصحة في حكومته بالرصاص أثناء اجتماع
مجلس الوزراء»⁽¹⁾، وقد أراق صدام دماء الآلاف من شيعة العراق
المظلومين، وأجبر أحد الشيعة العراقيين على شرب البنزين،
وعندما امتلأت بطنه، أطلق عليه رصاصة خاططة ليرى كيف
سينفجر.. كان صدام الذي تربّع على عرش السلطة في بداية العام
1980م، يأمر بتنفيذ حكم الإعدام في كل من يشك بولائه»⁽²⁾.

(1) قال بعض العراقيين إنّه اقتلع لسانه من أصوله.

(2) لقد أمر صدام بإعدام الكثير من القادة والضباط ذوي الرتب العالية. فقد كان «محمد عايش» وزير
الصناعة العراقي، واللواء الركن «وليد محمود سيرت» قائد الفيلق الأول، والعقيد الركن «سليم
شاكّر» الإمامي قائد اللواء المدرّع، والعقيد الركن «عبد الواحد وحيد» قائد لواء المشاة، والعقيد
الركن «إبراهيم عبد علي» قائد فوج الهندسة في الجيش الأول، والعقيد الركن «حامد الدليمي» قائد
لواء المشاة 23 و... من بين الأشخاص الذين أعدموا بأمر من صدام. وقد أعدم من القادة العراقيين
الرفيعي المستوى أيضاً: اللواء الركن «شوكت أحمد عطا»، قائد الجيش السابع في القوات المسلحة
العراقية؛ بسبب فتح الفاو في «عمليات والفجر 8»، واللواء الركن «ضياء توفيق إبراهيم»، قائد الفيلق
الثاني العراقي؛ بسبب استرجاع مهران [مدينة إيرانية احتلها البعثيون مع بداية الحرب]، والمقدم
الركن «برهان خليل الأسعد»، قائد لواء المشاة 37. كما أعدم أيضاً الفريق صلاح القاضي، قائد
الفيلق الثالث العراقي، والعقيد الركن «جواد السعد شيتنه»، قائد الفرقة الثالثة المدرّع بسبب فتح
خرم شهر (عمليات بيت المقدس). بعدها، فهمت أن عدداً كبيراً من قادة الألوية والفياق العراقية،
ما عدا «صلاح القاضي» و«جواد السعد» اللذين أعدموا بأمر من صدام، قد أعدموا بحكم المحاكم

قبل أن أدخل غرفة رئيس الحراس، حاولت أن أفهم «سامي» من خلال نظراتي أنني إنسان كتوم. دخلت، وكان في الغرفة الملازم «فاضل»، والملازم «قحطان»، والملازم «شفيق عاصم» ضابط قسم التوجيه السياسي في المخيم، و«مؤذن» ضابط قسم المخابرات. سأل شفيق عاصم، وكان «فاضل» يترجم كلماته:

- كيف ادّعت أن أحد الأسرى الإيرانيين مأمور وجاسوس لمنظمة مجاهدي خلق؟!

كان واضحاً من سؤاله أنه يريد استنطاقي، ومن ناحية أخرى كان يريد أن يكتّم هويتهما الواقعية. وكان يستخدم في كلامه عن هذين الشخصين، اللذين كان أحدهما عضواً في جبهة التحرير، والآخر عضواً في منظمة مجاهدي خلق، عبارة الأسيرين. قلت له:

- فقط من قبيل الحدّس والظنّ، ظننت أنّهما جاسوسان، وكانا يروّجان لمنظمة مجاهدي خلق، فقد قال لي أحدهما: «لا أمل لنا بالحرية، علينا الالتحاق بمنظمة مجاهدي خلق!»

العسكرية العراقية بسبب فتح خرّمشهر، ومن جملتهم، العميد «صلاح عمر العلي»، قائد الفرقة الثالث، شكرجي، قائد اللواء الأول، العميد عدنان الخزرجي، قائد الفرقة الأولى، العميد سامر السافي، قائد اللواء 23، والعميد ضرغام الصافي، قائد اللواء 24. وقد حوّل الكثير من القادة العراقيين إلى المحاكم العسكرية والسجون، من جملتهم اللواء الركن خلف عليسان، قائد اللواء السادس المدرّع...

في فترة الأسر، عندما كنت أسمع بأسماء بعض هؤلاء القادة ورتبهم العسكرية، كنت أتحقّق من شجاعة واستبسال المجاهدين الإيرانيين. كان «سامي» يقول: غضب «صدام» في اجتماع له من اللواء «جبار طارش»، قائد قوآت الجيش الشعبي العراقي، وقال له: يا جبار! اذهب وتعلّم الشجاعة وعدم الخوف من قوآت النعيّة الخمينيّة، وكيف تقاات حتّى النفس الأخير. فقال له «جبار طارش»: إنّ قادة الخمينيّ، رفيعي المستوى، هم دوماً إلى جانب قوآتهم، لكنك تأتي إلى الجبهة بفرقة كاملة من القوآت الخاصّة! تعجّب «صدام» وغضب من كلامه، فأمر معاونه «ياسين» أن يرمي «جبار طارش» بالرصاص. بعد دقائق سقط «جبار طارش» أرضاً.

قال «شفيق عاصم»: لا يبدو على مظهرك أنك ذكي إلى هذا الحد، الكثيرون في هذا المخيم، هم من أنصار رجوي ومنظمة خلق العربية، وهم أيضاً أسرى!

لم أدر ما أقول: هدّني الملازم لأخبره من الذي أخبرني بالأمر، وكوّرت للمرة الثانية كلامي الأول، وقلت: فقط من باب الحدس!

استشاط الملازم غضباً، وأمر «وليداً» بضربي. كان «وليد» مثل السيد «مرزبان»، معلّم اللغة الانكليزية في المرحلة المتوسطة، ثقيل اليد، وبعد أن ضربني بالسوط عدّة ضربات على ظهري، رمانني بالقرب من النافذة، فسقط عكازي من تحت إبطي، واصطدم طرف حاجبي الأيمن بإطار النافذة، وسال الدّم منه، فتلطّخ وجهي وملابسي بالدماء. في ذلك الوضع، حين رأوا أنّهم لن يتمكّنوا من استنطاقني، أحضروا «ع.م»، عندما رأيته «هبط قلبي من مكانه». طلب منه العراقيّون أن يعترف بما قلت له. لكنني - وكان ذكاءً منّي - لم أكن قد أخبرته بمصدر معلوماتي. لعلّ الله سبحانه كان يحبّ «سامي»، بحيث لم أرتكب عملاً صبيانياً في هذا المجال. حين نظرت في عيني «ع.م»، بدا عليه الخجل، خجل عندما نظر للحظات إلى ملابس الملطّخة بالدماء، وحاجبي المجروح، وعيني، وعندما كان يتحدث كان يوجّه نظره ناحية أخرى. لم يكن يظنّ أنّ العراقيّين سيواجهوني به.

كنت غاضباً كثيراً منه. وانزعجت؛ لأنّني صاحبتة كلّ هذه المدة، ولأنّني لم أكتشف أمره. ندمت على إخباري له بالأمر، ولكن هيهات أن ينفع الندم. حينها، قلت في نفسي: ربّ نجّني من المخمصة هذه المرة فقط، وأعاهدك أن لا أثق بأيّ شخص، وأن لا أقول أيّ شيء

كيفما كان، وأن أعمل بشكل أكثر نضوجاً! دعوت بهذا الدعاء من صميم القلب، وبتضرع لله تعالى.

سأل شفيق عاصم:

- ها! ناصر سليمان، والآن ماذا تقول؟ أي واحد من الحراس أخبرك

بالأمر؟

- سيدي! قلت ما قلته من باب الاستنتاج الشخصي!

بعد شهادة واعتراف «ع.م»، كأن السماء أطبقت على رأسي. سألت الله العون. كنت أعلم ما هي العقوبة التي سيجرّها الإقرار عليّ. أمر الملازم شفيق بنقلي إلى الزنزانة الانفرادية. فنقلوني بوجهي المدمى إلى الزنازين الانفرادية للمخيم، الواقعة في القسم الجنوبي لمبنى قيادة «المخيم 16».

الثلاثاء 24 ت 1989 - تكريت - المخيم الملحق

كانت تجول في رأسي أفكار عجيبة غريبة، كنت أفكر في «سامي»، ومع أنني لم أذكره بشيء، كنت خائفاً عليه، كان قلبي يشتعل عليه، كنت خائفاً من أن يشكّوا فيه، كنت واثقاً من نفسي بأنني لن أقرّ بشيء عن «سامي»؛ لكنني كنت خائفاً من أن يبالفوا في أذيتي، وأن لا أتحمل بعض التعذيب، فأتراجع وأضطرّ إلى الاعتراف والإقرار عليه. بعد دقائق عدّة ذهبت هذه الأفكار عني، ولكي أتخلص من هذه الأفكار والتخيّلات العبيّية؛ شرعت بتلاوة القرآن الكريم؛ فشعرت بالاطمئنان والراحة.

كانت الزنزانة مظلمة كظلمة غرفة التصوير، وكانت توجد في القسم العلوي لباب الزنزانة نافذة صغيرة، يراقبني العراقيون من خلالها، كانت تماماً كزنازين «معسكر بغداد المركزي».

اشتقت كثيرًا «لحسن وكيلي» ورفاق الجبهة. حين كنت أفكر بـ «طريق الخندق»، «حسن»، «أحمد فروزان»، «هوشنك روئين» وبـ «متراس الاستطلاع»، كان قلبي ينقبض. كنت أودّ لو أنّ «حسنًا» وقع معي في الأسر، وكان إلى جانبي في هذه الظروف الصعبة. فلو كان «حسن» أو «هوشنك» في تكريت لكان للأسر طعم آخر. بعد شهادة أخي والتحاق «أحمد فروزان» بـ «مقر رمضان»، تعلّقت بـ «حسن» والإخوة في الاستطلاع، وبإصرار من «حسن» تركت وحدة التخريب، والتحقّت بوحدة الإستطلاع. ولولا إصرار «حسن» لبقيت في وحدة التخريب⁽¹⁾، ولما وقعتُ في الأسر.

غَفَتَ عيناى بعد صلاة الصبح. انتفضتُ من مكاني عندما فُتِحَ باب الزنزانة، وضع حارس السجن الذي لم أكن قد رأيته من قبل، أمامي رغيفًا من خبز «السمّون»، ووعاءً معدنيًا فيه قليل من الحساء. بعد ساعتين من تناول الفطور، أخذوني إلى غرفة التحقيق، وكان هناك

(1) عندما تحرّرتُ في شهر أيلول من العام 1990م، أخبرني «فريبرز درست» الذي كان من الإخوة الناشطين في وحدة المعلومات والعمليات، حول ما جرى في الرابع من شهر تير [25 حزيران]، وعن معركة «موقع الخندق» وعدم استقرار «حسن وكيلي» في منطقة ترابية. في ذلك اليوم، ولكي يخلّصني «حسن» من أيدي العراقيين؛ تقدّم مع مجموعة من الدراجات النارية «التريل» بمحاذاة ساحة تشراغشي، فرماه العراقيون الذين كانوا يختبئون بين حقول القصب، المتواجدة على جوانب الطريق، بوابل من الرصاص. فباءت محاولات «حسن» لنجدي بالفشل، ونجى بنفسه بصعوبة في هذه المعركة. كان «حسن» كثير القلق لكونه لم يتمكّن من تحريري، ولعدم معرفته شيئاً عن مصيري. عند غروب اليوم الذي، سقط فيه «طريق الخندق»، تجمّعت القوّات في منطقة ترابة الصحراوية في جنوب الهوزة. في تلك الليلة كان الإخوة في اللواء يتضوّرون جوعاً، ولم يجدوا شيئاً يؤكل. في تلك الظروف القاسية، كان «حسن» قد أحضر معه حبة خيار، أكل نصفها، وترك النصف الآخر لي. كان «حسن» لا يزال يأمل في عودتي. وقد قال لي بعد أن تحرّرت: رأيت آخر الليل «سيف الله حيدر بور» قائد اللواء، وكان يتضوّر جوعاً، احترق قلبي من أجله، ولما آيست من عودتك، أعطيته نصف حبة الخيار التي كنت قد خبأتها لك.

أيضاً الملازم «فاضل»، «شفيق عاصم»، وضابط الاستخبارات مع المترجم العربي. كرّر عليّ ضابط الاستخبارات أسئلة الأمس نفسها عدّة مرّات، وقال:

- من المهمّ بالنسبة إلينا أن نعرف مَنْ من الحراس أخبرك أنّ هذين الأسيرين جاسوسان لـ «منظمة رجوي» و«منظمة خلق العرب»! - إنهما ليسا بأسيرين، لو كانا أسيرين لكنتم تركتموني وشأني! وقعت في مصيبة كبرى، انتفض ضابط الاستخبارات من مكانه، تقدّم نحوي، أخذ بياقتي ورفع رأسي بحيث أصبحت عياني في مقابل عينيه، وقال:

- لا زلت إلى الآن أراعي وضعك الصحي، لكن أنتم الإيرانيين لستم أهلاً للاحترام.

وخلاًفاً لميلي الباطني، حاولت أن أظاهر بالمظلوميّة، فقلت:

- سيّدي! إنّ علاقتنا بالحراس علاقة السجين بالسجّان، والحراس لا يثقون بنا.

كان الضباط العراقيّون يشكّون في الحراس الشيعة، فقد جعل يذكر أسماء الحراس الشيعة ليعلم أيّاً منهم يفشي أسرارهم. لم يكن الحراس الشيعة ولا السنّة يثقون بأيّ كان، كان كلٌّ منهم يثق بأشخاص محدّدين، فكان «عليّ جار الله» يثق «برامين حضرت زاد»، و«سامي» يثق بي، و«حكيم خليفان» والدكتور «مؤيد» بـ«بهزاد روشن» و«كامبيز فرحدوست».

عندما لم يصل التحقيق إلى نتيجة، أعادوني إلى الزنزانة الانفراديّة. لم يقدّموا لي يوماً طعام الغداء، ولا العشاء، وقطعوا عني الماء أيضاً.

الأربعاء 25 ت 1989 . تكريت . المخيم الملحق . الانفرادي

الليلة الماضية، عانيت في النوم من شدة الجوع. بعد الظهر، فتح السجّان باب الزنزانة، ووضع أمامي بعض الأرز، وبقايا لحم الدجاج. علمتُ من عظام صدر الدجاج، والجلد، والشحم الخالي من اللحم أنّ هذا من بقايا طعامهم. كانت أعقاب سجائر العراقيين في زاوية صحن الأرز. كنت جائعًا وعطشانًا، وأشعر بحرقّة شديدة في معدتي الخاوية، وكانت الأفكار العجيبة والغريبة قد ساعدت في ترشّح أسيد معدتي، ممّا اضطرّني إلى أكل بقايا طعام العراقيين.

كان يوجد بعض الأسرى في الزنازين المقابلة والمحاذية لزنزانتني، فقد كنت أسمع أصوات أسرى مجهولين، لم أكن قد رأيتهم على الإطلاق. تعرّفت إلى أحدهم، وكان يُدعى «إيرج صادقي»، وهو من أهالي كرمان، وقد رأيتَه من قبل في المخيم الملحق. لم أكن أعلم أنّه قائد كتيبة، فقد انكشف أمره قبل عدّة أيّام على أيدي الجواسيس والخونة. ولكونه قد أخفى رتبته العسكريّة إلى حينها، فقد نُقل إلى الزنزانة الانفراديّة.

ومن دون أن يعلم «إيرج صادقي» من أنا، قال:

- سمعت صوت وقع عصا، أجريخ أنت؟!

عندما ذكرت له اسمي، علم أنّي أسير مقطوع الرجل.

سألته:

ما الذي جاء بك إلى هنا؟

- كشف أمري أحد الأسرى الذين جيء بهم من مخيم النهروان.

وكان الجواسيس أيضًا قد ادّعوا بأنّ أحد عناصر «فرقة خراسان

77» هو قائد سرية في الجيش. لم أره كذلك. وكان هو الآخر في الزنزانة المحاذية لزنزانة «إيرج»، وهو من أسرى العنبر رقم (5). كان قد اختلف مع بعض الأشخاص الخونة الذين كانوا ينقلون الأخبار إلى العراقيين، وضرب أحدهم في الحماّم، فقالوا للعراقيين: إنّه قائد سرية سلاح المدفعية، وإنّه قد أصاب عدّة دبابات عراقية. كان إنساناً ذا روح معنوية مرتفعة، وقد قال للعراقيين: إنّي عنصرٌ عاديّ، فعرضه العراقيون للصدمة الكهربائية. قال لي غروب اليوم: لقد صدّق العراقيون أنّي قائد سرية سلاح المدفعية، ثم تابع مازحاً: كنت في الحرب جندياً لا أكثر، ولكنّي لم أمّت، تحوّلت في الأسر إلى قائد سرية، وفي سلاح المدفعية أيضاً!

الخميس 26 ت 1989 - تكريت - المخيم الملحق - الانفرادي

الليلة كانت الذكرى السنوية الثانية لاستشهاد أخي السيّد «هدايت». تذكّرتّه في وحدة الزنزانة. كان «هدايت» يكره الأسر، وكثيراً ما كان يذكر هذا الأمر.

في شتاء العام [1987م]، حيث كنت أنقل له (دفتر يومياته)، وكاميرته، وقميصه الخاص بالحرس، من باشت إلى شلمجة، قرأت في الطريق، ومن دون إذنه، ما كان كتبه في الدفتر. وكان قد كتب عن اللقاء الأوّل له بوالدي في جبهة «دهلران»، وما لفت نظري من بين كتاباته عبارة جميلة، كانت بالنسبة إليّ مدعاةً للاعتزاز:

«يمكن لإخوتي مع والدي أن يشكّلوا في الحرب مع البعثيين العفليّين قوّة عسكرية ضاربة بكلّ الاختصاصات المطلوبة، تقاتل

الأعداء، وتستلم خطأ في الجبهة، فتحميه من الهجمات والهجمات المضادة للأعداء، وتقتحم خطوطهم أيضاً»⁽¹⁾.

عندما تداعت إلى ذهني في ظلمة الزنزانة، عبارة أخي الشهيد هذه، قلت في نفسي: للعراقيين الحق في أن يقطعوا كلتا رجليّ.

الجمعة 27 تا 1 1989. تكريت. المخيم الملحق. الانفرادي

الليلة الماضية أضفى صوت تلاوة القرآن، ودعاء الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام الخاص، المنبعث من الزنزانة المحاذية لزنزانتني، صفاءً وحالةً خاصةً على جوّ السجن، فقد تلا أحد الإخوة، وكان ذا صوت عذب، دعاء الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام :

«السلام على المعذب في قعر السجون، وظلم المطامير ذو الساق الممرض بخلق القيود السلام عليك يا موسى بن جعفر...».

جرت دموعي تلقائياً. كنت أعتزّ بكوني أحد أحفاد الإمام السابع للشيعة، موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، وكأنّ مصير جدنا وأحفاده مرتبط بالسجون.

تذكّرت أشرطة كاسيت المرحوم الشيخ أحمد الكافي، وبأيّ حرقة كان يقرأ هذا الدعاء. بكيت لسماع دعاء جدي الخاص في سجن هارون الرشيد.

قبل الظهر، أُخرجت من الزنزانة، فقد أُصبت منذ البارحة بالديزنتاريا، وتقيأت كلّ ما في بطني. كان ضابط التحقيق إنساناً لجوّجاً، وغالباً ما كان يشكّ في الدكتور «مؤيد». أراد أن يحلفني، لم أعلم من الذي أخبرهم بموضوع القسّم. لم أسمع أو أرا في

(1) راجع الملحق الأول في نهاية الكتاب.

التحقيقات يُعمل على تحليف الشخص. قال ضابط التحقيق:
 - يقولون إنكم أنتم الإيرانيين، ربما لا تعترفون عادةً، فهل تقولون الحقيقة إن جعلناكم تُقسمون؟
 كأنما ضُربْتُ على رأسي، أظنَّ أنَّ الجواسيس والخونة قدّموا هذه المعلومة للمحقّقين. مدّ ضابط التحقيق يده باتجاه القرآن وقال:
 - إذا أقسمت بالقرآن أنَّ أحدًا من العراقيين لم يخبرك بهذا الأمر، سنصدّقك!

- حتّى القسم الصادق ليس بالأمر الجيّد!
 - تتكلّم بهذه الكلمات لتهرب من القسم!
 ما إن قلت هذه الكلمات حتّى أمرني بالزحف، ذهبت مجبراً إليه، وفيما كنت أزحف داس أحد الحراس على يدي اليمنى بحذائه العسكري. استدار بنتوءات أسفل حذائه العسكري على يدي، فصرخت. قال ضابط التحقيق:
 - ما رأيك بالتعذيب الجوّي؟

لم أدري ماذا يقصد، فأمر بربط يديّ ورجلي وتعليقي على علاقة المروحة الموجودة في سقف الغرفة. بسبب هذا العمل، جُرح معصمي وساقاي، بقيت معلقاً حوالي ثلاث أو أربع ساعات. أحسست كأنّ رجلي قد قطعت الآن، وشعرت بدوّار في رأسي، وكان الحراس ينهالون بالسيّاط على رجلي من دون رحمة. رمى أحدهم كوباً من الشايّ في وجهي. كان الشاي ساخناً، فأحرق وجهي. كان طرف الحبل مربوطاً بقضيب النافذة الحديدي⁽¹⁾.

(1) اعتمد العراقيّون أساليب متنوّعة للتعذيب. التعذيب الجوّي، المائي، والأرضي. فالتعذيب الجوّي

الأحد 29 ت 1989 - تكريت - المخيم الملح - الانفرادي

تخلّصت من السجن الانفرادي بفضل الديزنطاريا. كان جسمي قد ضعُف، بحيث لم أعد قادرًا على الحركة، ولا على المشي. بعد الظهر، أعادوني إلى المعتقل. عندما ودّعت الرفاق في الزنازين الانفرادية المقابلة لزنازنتي، قال لي أحدهم، ولم أكن قد رأيته من قبل:

– إذا كنت دائمًا مع الله، فلن يشقّ عليك شيء!

قبل أن أدخل المعتقل، قال لي «فاضل رحيم»، الذي كان يعمل في المستوصف:

– تكلمت مع الدكتور «مؤيد» لينقلك إلى المستشفى!

اليوم، كان الدكتور «مؤيد» يدير المستوصف بدلاً عن «جمال». وكان الدكتور «جمال» معروفًا بـ «جزّار المخيم».

عندما دخلت المعتقل، اجتمع الإخوة حولي. جاء «سامي» إليّ وكان السّرور باديًا عليه. كان فرحًا؛ لأنني لم أفش سرّه. لم أكن أصدّق أنّهم سيتركونني بهذه البساطة. من حينها توطّدت علاقتي بـ «سامي» أكثر فأكثر. فصار يخبرني أمورًا كان يخاف في السابق البوح بها أمامي. بنظره، لقد تجاوزت امتحانًا صعبًا، وكان هذا جميلًا بالنسبة إليّ.

خرجتُ إلى باحة المعتقل، كنت أبحث بين الأسرى عن هذين الجاسوسين. كان مقدّمهم مقدم شؤم بالنسبة إليّ. فقد علّمني

كان عبارة عن التعليق في [علاقة] مروحة سقف الغرفة. والتعذيب الأرضي عبارة عن الزحف، [قفزة الغراب] القفز كالضفدع واليدان موثقتان وراء الظهر، [ضغط السواعد]، والتمرّغ بالتراب. والتعذيب المائي عبارة عن الرمي في قنوات الصرف الصحي. كما كانوا يعتمدون وسائل تعذيب أخرى، كان الإخوة يسمونها الدجاج المشوي، وكانوا، يمدّون الإخوة بصدورهم المعارية على الأسفلت الحارق، ويمشون على ظهورهم. غالباً ما كانت تُعتمد هذه الطرق في مقر حرس بغداد المركزي.

درسًا. مع أنّ قلّة تجربتي لم تكن بلا فائدة. أردت أن أراهما وأقول لهما إنّّه لا يخفى القمر دومًا وراء الغيوم، وإنّّه لا شيء أسوء من النفاق والخداع.

فتّشت عنهما في فناء المعتقل، فأشار إليّ «سامي» بأنّهما نُقلا إلى «المخيم 15».

الفصل العاشر:

تكریت - مستشفى القادسیة

الاثنين 30 ت 1 1989 - تكریت - مستشفى القادسیة

عندما ركبت سيارة الإسعاف، غطى سجانان مسلحان عيني، وأوثقا يدي. بعد ساعة، توقفت سيارة الإسعاف التابعة لمستشفى القادسية، نقلني السجانون إلى المشفى الخاص بالأسرى الإيرانيين، دخلت قاعة كبيرة نسبياً، لأرى أكثر من ستين أسيراً إيرانياً يخضعون للعلاج. كان أغلبهم مصاباً بالديزنتاريا، وكانوا قد نُقلوا من مخيمات تكریت المختلفة.

لم يكن الدكتور «جمال» يوافق على إرسال ذوي الحالات الطارئة والخاصة، وإدخالهم إلى مستشفى تكریت، إلا بعد أن تصبح حالتهم ميؤوساً منها، ويشارفوا على الهلاك.

معظم الأسرى المرضى كانوا يموتون في المخيم⁽¹⁾، ولا يُنقلون إلى مستشفى القادسية.

كانت مستشفى تكریت، مكانَ استشهاد أسرى مظلومين، كانوا يموتون بعيداً عن أعين الآخرين. فقد أخبر الدكتور «مؤيد» أنّ

(1) طبقاً للاحصاء الذي حصلت عليه من قسم مستوصف المخيم، استشهد 84 أسيراً إيرانياً في «مخيم تكریت 16» بسبب الإصابة بالديزنتاريا وأمراض أخرى غير معروفة. وكان في عداد هؤلاء الشهداء ثلاثة من أفضل أصدقائي، هم «علي شاه أوریده»، و«محمد بخرد»، و«حسين مرداني».

العراقيين يدفنون الأسرى الذين يموتون في مستشفى تكريت، في الصحارى المحيطة بتكريت، من دون تكفين، ومن دون وضع شواهد على قبورهم!

كانت قد اسودّت أبدان أكثر الإخوة وازرقت نتيجة الضرب، والتهبت جروحهم، فبعضهم أصيب بسبب عدم الاستحمام لفترات طويلة، بالفطريات الجلدية، والدمامل الملتهبة. وظهرت لدى بعضهم حبوب متقيحة، وملتهبة في عضلات الفخذ.

مع حلول فصل الصيف، بدأت أمراض هذا الصيف بالانتشار. فقد انتشرت في مستشفى تكريت أمراض كثيرة من قبيل الإسهال، والاستفراغ، التسمم، الأمراض البكتيرية، الأمراض الجرثومية والطفيلية، ضربات الشمس، وحتى سرطان الجلد و... ومع وجود ماء الشرب غير الصحي ونقصان المياه، كانت رعاية النظافة الفردية والجماعية غير ممكنة عملياً. وإنّ عدم توفر مياه الاستحمام، ووجود الأطعمة الملوثة والفاسدة، وانتقال الميكروبات عبر الذباب، والبعوض، وسائر العوامل المتداخلة، كان أيضاً من الأمور التي لعبت دوراً في ظهور الأمراض المختلفة.

لم أعرف الكثير من المرضى سوى «علي أصغر انتظاري»، و«محمد بخرد»، و«دهقان منشادي». كانت مستشفى القادسية من مستشفيات تكريت القديمة، ويظهر من جدرانها التي فقدت ألوانها وطلاءها، أنّها قديمة جداً. كنّا هنا تحت مراقبة أمنية مشددة، ولا سبيل إلى الفرار، وإن وجد السبيل، فالحيل غير موجودة. وإذا ما علم التكريتيون الذين كانوا يعملون هناك، أنّ شخصاً ما هو من البسيج أو

الحرس، كانوا يعطونه دواءً بديلاً. كان استخدام حقنة واحدة لحقن عدة أسرى أمرًا عاديًا بالنسبة إلى العراقيين. كانوا يحقنون الإخوة بحقن البنسلين من دون إجراء فحص التحسس منه.

أصيب عدد من الإخوة بالبواسير جرّاء الجلوس المطوّل. كما أُصيب كثيرون بالتهابات في العين بسبب تلوث الهواء، ودخول الرمال الصحراوية إلى قاعدة صلاح الدين. وقد طُفحت في وجوه الكثيرين، وكنت أنا منهم، الحبوب الملتهبة، والحبوب ذات الرؤوس السوداء والحمراء، والدمامل.

كان الأسير الراقِد إلى جانبي مصابًا بالتهابات الكلية والمثانة، وكان من أسرى المخيم (13)، وقد نقله العراقيون. كانت تفوح في القسم الطبيّ رائحة العفن، كانت هناك خمس فُرش، لم يُستفد منها لرائحتها النتنة.

كان فطورنا مقدارًا قليلًا من حَساء العدس، وغداؤنا رغيف سمّون رديء، ومقدارًا قليلًا من الأرز مع شوربة البصل. لم ينفع الأسرى المصابين بالديزنتاريا الدواء، كما فعل العجين. فعندما كنّا نأكل العجين، كان الإسهال يخفّ، ويقلّ خروج الدم منّا!

الثلاثاء 31 ت 1989 - تكريت - مستشفى القادسية

جاءوا بأسير يتكلّم الكرديّة، كان قد اعتُقل في المنطقة الحدوديّة لكرديستان، وكان من أسرى مخيم تكريت (12)، كان أصلع الشعر، نحيف الجسم والوجه. تجاذبنا أطراف الحديث. هو في الأصل من «الدهوك» العراقيّة، من منطقة زاخوكرد، لكنّه كان يعيش وعائلته منذ

زمن في إحدى القرى الحدودية لكردستان الإيرانية. كان العراقيون في عمليات «الفتح 5»، قد قصفوا تلك المنطقة الكردية المسلحة، بالأسلحة الكيميائية، ففقد زوجته وابنه بسبب هذا القصف. وقد تعامل العراقيون معه على أنه أسير إيراني كردي. كانت الفقايع قد طفحت في جسمه بسبب القصف الكيميائي بغاز الخردل. وأخبرنا أن أخاه كان من قوات المعارضة الكردية، قُتل عام 1981م في سجن الحزب الديمقراطي. وأخبرني أيضاً أن حزب البعث العراقي قصف في شهر آذار من العام 1981م سجن دوله تو⁽¹⁾. كان أخوه من بين القتلى في ذلك السجن. قال من شدة غضبه: لو لم يكن صدام مجنوناً، لما قصف أهالي قرية زاخو كرد، وهي كانت جزءاً من الدھوك العراقية، بالأسلحة الكيميائية، ولما أنزل هذا البلاء فوق رؤوس أهالي حلبجة. في آخر الليل كان يتفل دماً. تفاقم التهاب رئتيه إلى درجة جعل العراقيين يعتقدون بأنه مصاب بالسل، وكان الممرضون قد طلبوا منه أن ينام على مسافة من المرضى الآخرين، فقال له الإخوة: أخ صالح، دعك مما يقوله الممرضون سننام قرب بعضنا بعضاً!

الأربعاء 1 ت 2 1989. تكريت. مستشفى القادسية

أخبرنا «علي أصغر انتظاري» قصة أسره، فعندما وقع أسيراً في أيدي العراقيين، قبض قبضةً من التراب في يده، وأراها للعراقيين،

(1) استهدف القصف الجوي سجن «دوله تو» بأمر من «صدام»، وتعاون «منظمة مجاهدي خلق» و «مخابرات كركوك»، وكانت قوات الحزب الديمقراطي العراقي المعارض، قد جمعت عدداً من أسرى الحرس، اللجان (الشرطة المحلية)، الجيش، جهاد البناء، والأكراد المجاهدين المناوئين للنظام العراقي في هذا السجن. وقد استشهد الكثير من السجناء بسبب هذا القصف.

أي «ماذا تفعلون في أرضنا؟» ففهم العراقيّون مراده. كان مُزاح «علي أصغر»، وكلماته في فترة الأسر من الطراز الأوّل دائماً. وكان نفسه يقول: «أريد بكلماتي هذه أن أرفع من معنويّات الأخوة». في الفترة التي كنّا فيها في مستشفى القادسيّة كان يشعل بكلماته غيظ العراقيّين. وكان في «المخيّم الملحق» في الزنزانة المحاذية لزنزانيّ.

عندما كان يلتقي بي، كان يقول بدل السلام: سيّد! أين كنت، لأقوم بخدمتك. وكان «محمّد كاظم بابايي» ابن مدينته يقول: ذات يوم كان يمرّ بسرعة من أمامي، قلت: «علي أصغر! إلى أين بهذه السرعة؟» فردّ قائلاً:

القطرة التي تنفصل عن الينبوع تذهب لأداء مهمّة ما⁽¹⁾

في المباريات الشعريّة، لم يكن «علي أصغر» والسيد «محمّد شفاعت منش» يتراجعان، كانت مباراتهما الشعريّة تمتد لساعات، لم أكن أدري متى حفظا كلّ هذه الأشعار. وقد ردّ على أحد حراس «المخيّم الملحق» الذي قال له: «أنتم، الأسرى الإيرانيّين، ستبقون في هذه السجون حتّى تتعفّنوا»، قائلاً:

لا تضحك على من في الأسر فلربّما تقع فجأة فيه

كان «علي أصغر» من أهل صلاة الليل والدعاء. ذات مرّة قرأ القنوت بالفارسيّة، لا أدري لماذا؟ وحين سُئل عن السبب قال: «أحببت أن أتكلّم مع الله بهذه اللغة، وهل الله عربيّ!»

كان حامد حارس المخيّم قد أطفأ سيجارته بظهره، فالتهب الموضوع وتقيح.

(1) بيت شعر لبرفين اعتصامي، الشاعرة الإيرانيّة المعروفة.

في هذا اليوم، عندما قال «علي أصغر»: «شكراً لله»، قال له أحد الممرّضين: «وهل الأسرى يستحقّ الشكر؟!». أجابه علي أصغر: «عبودية الله تستلزم الشكر»، فحار الممرّض ما يقول. فقد كان إنساناً سريع البديهة، حاضر الإجابة. وحين قال له الممرّض مستهزئاً: «أنتم أسرى الحرب مطرودون من رحمة الله»، أجابه: «الشكر لله إذ ابتّلينا بالغربة والمصيبة في هذا السجن، ولم نُبتَلْ بالمعصية، وابتّلينا بأسر الأجساد، لا بأسر الأرواح!»

بعد الظهر نقلوا جثمانَي أسيرين من القاعة المجاورة. عندما رجع الأسير الذي ذهب لتكفينهما ودفنهما، قال: «المكان الذي يُدفن فيه الأسرى الإيرانيون، غريب كمقبرة البقيع». وكان العراقيّون قد هدّدوه إن أفش أمر مقبرة الأسرى الإيرانيين هذه. كانوا يدفنون الأسرى الإيرانيين في إحدى صحارى تكريت، أطلق عليها اسم القطعة الخاصة بالأسرى الإيرانيين. وقد استُشهد في المخيمات العراقيّة أكثر من أربعمئة أسير «مفقود الأثر»، ودُفِنوا في تلك الصحراء.

الخميس 2 تمّاز 1989 - تكريت - مستشفى القادسيّة

قبل الظهر، حين كنت خارجاً من القسم لأتوضّأ، ناداني «علي أصغر» وقال:

- سيّد! تمهّل!

ذهبت إليه فقال:

«أقسم عليك بالله، إن غرقت في الأجواء المعنويّة...» ثم سكت

برهة، وتابع: «أغلق الباب!»

اعتقدت أنه كان يريد القول: «إن عشت أجواءً روحانيةً فلا تنسني من دعائك». وكان بالأمس قد قال لي: «إن شاء الله تُكسر يدك!» قلت: لماذا؟ قال: قل ماذا يكسر إذا؟ قلت: جيد ماذا يكسر إذا؟ أجاب: - عنق صدام!

كان من المقرر أن يُنقل «علي أصغر» إلى المخيم بعد الظهر، فقد اشتقت لمزاحه، ففي المستشفى، غالباً ما كان يلقي النكات ويمزح للتخفيف عن المرضى، والترويح عنهم. ولم أكن قد رأيته في المخيم يمزح هكذا، ويحاول إضحاك الأخوة. كان مزاح «علي أصغر» يرسم الضحكة على وجوه الأسرى المرضى الذين يعانون أسوأ الظروف. عندما خرج من القسم الطبي، أخذ معه بعض الضمادات والأقراص المضادة للالتهابات. وعندما أراد الانصراف، قال للدكتور قادر: «دكتور! أريد أن أدعو الله لسلامة صدام». عندما ترجم «حسين مرواني» المترجم الإيراني العربي هذه الجملة للدكتور، صدّق ذلك، وابتسم ابتسامة الرضا، وقال لـ «علي أصغر»: الآن أصبحت سوياً! رفع «علي أصغر» يديه بالدعاء وقال:

- اللهم احشر صدام وأعوانه مع يزيد ومعاوية، واحشرنا مع الحسين بن علي عليه السلام.

فقال الأخوة جميعاً آمين! وما إن سمع الدكتور قادر اسم يزيد والإمام الحسين عليه السلام حتى فهم أنه يقوم باللعن بدل الدعاء، تقدّم وركل ظهر علي أصغر، فقال «علي أصغر» للدكتور:

«إذا كان يزيد ومعاوية صالحين، فلم تستأوون من الحشر معهما، وإن كان الإمام الحسين عليه السلام صالحاً، فلم لا تتوسلون به،

تريدون أن تأكلوا الحصرم وتقتلوا الناطور معاً؟! تعادون الإمام الحسين (عليه السلام)، وتودّون لو تحشروا معه يوم القيامة، وتوالون يزيد، ولا تحبّون أن تحشروا معه؛ عجباً لكم من أناس! ليتكم كنتم تشاهدون الخيبة على وجه الدكتور «قادر»!

السبت 4 ت 1989 - تكريت - مستشفى القادسيّة

اليوم، أحضروا أحد الأسرى من «المخيّم 13»، يدعى «رضا»، وهو من عناصر «فرقة كربلاء 25». وكانوا قد أطعموه مسحوق الغسيل بجرم أنّه سيجي. كان قد أُصيب بالديزنتاريا، وبمشاكل تنفّسيّة. التهاب رئويّ، فكان يكُحُّ كثيراً، ويئنّ من ألم صدره، ومن إفراز البلغم، وأوجاع الرأس. يقول «رضا»: عندما أُسرتُ في عمليّات الفاو، رمانى البعثيون من سيّارة الآيفا، وهي منطلقة، على مقربة من قاعدة عسكريّة في نواحي البصرة، ممّا أدّى إلى كسر كتفي، وتضرّر فقرات ظهري. استفتت بعد ساعات في «قاعدة جبيلة» العسكريّة في البصرة. ويتابع: «كان مخيّمنا أفضل من مستشفى تكريت». كان في مخيّمهم طبيب أسنان، وكان يسحب عصب أسنان الإخوة بواسطة الشفرة والسلك الشائك. وبحسب قوله، كان يحمّي السلك الشائك إلى أن يحمرّ، بعدها يغرزها في لثّات أسنان الإخوة وفجواتها. وكان اثنان من الإخوة في مخيّمهم، يجريان عمليّات جراحية. فكانا ينتزعان الشظايا الصغيرة منها والكبيرة التي اخترقت أيدي وأرجل البعض. وكان أحد حراس مخيّمهم قد طلب منه أن يرقص بمناسبة عيد ميلاد صدام، فلم يقبل. الأسير الآخر، الذي كان برفقته، من الرُتباء،

من عديد «فرقة خراسان 77». كانت كلتا أذنيه قد التهابتا، وأُصيب بخلل في السمع، فكان يئنّ من الطنين والحرقّة في أذنيه، ومن آلام الشقيقة. أُصيب في البطن، في عمليّات «النصر 6»، عندما حرّر المجاهدون «مرتفعات 620»، المعروفة بـ«هضبة سيّد الشهداء». كانت إحدى أذنيه قد صُمّت بسبب قوّة موجة انفجار صاروخ الكاتيوشا بالقرب منه، أمّا قميصه العسكريّ فكان مرقّعاً من عدّة أمكنة، إلى حينها لم يكن العراقيّون قد أعطوه الزيّ الأصفر الخاصّ بأسرى الحرب، فأعطاه أحد الجرحى دشناشته.

بعد الظهر، جاء الدكتور «وسام عبد الرحمن عزّت» إلى القسم من أجل المعاينة. وخلافاً للدكتور «جمال»، كان إنساناً ذا وجدان، محترماً ومؤدّباً. قال الدكتور «وسام» لأسير أُخِن بالجراح: «طبقاً لمعاهدة جنيف، لا يمكن لأحد أن يسخر أسير الحرب كعبد»!

كان الدكتور وسام يتكلّم بهذه الكلمات من باب الشفقة. قال أحد الأسرى للدكتور: منذ بدء الحرب، لم يراعِ العراقيّون «معاهدة جنيف»، فهم يعتبرون أنّ أسرى البسيج والحرس لا تشملهم اتفاقيّات أسرى الحرب الدوليّة؛ ولهذا السبب، أصدر صدام الأمر بإعدام أسرى الحرس والبسيج إعداماً جماعياً!

كان عددٌ من أسرى القسم مثخينين بالجراح، ونزيف جراحهم لا يتوقّف بسهولة. قال الدكتور «وسام»: «بسبب سوء التغذية ونقص الهموغلوبين، لا ينقطع نزف أبدانكم، ولا تتعافى جراحكم بسهولة».

وتابع الدكتور وسام: بسبب نقص البروتين، أُصيب أكثر الأسرى

الإيرانيين بمرض scorbut⁽¹⁾.

سأل الإخوة : دكتور، ماذا علينا أن نفعل؟

- عليكم أن تتناولوا طعاماً يحتوي على البروتينات، وهذا حتماً غير متوفّر في السجون العراقية!
أصيب الكثير من الإخوة (بتشقّق اللسان). وينجم هذا المرض عن نقص في الفيتامينات، والمداومة على أكل الباذنجان.

الأحد 5 ت 1989 - تكريت - مستشفى القادسيّة

آخر الليل، دخل القسم الطيّب جندّي عراقيّ، وكان من المجنّدين الجامعيّين في خدمة العلم، ومن محافظة كركوك العراقية، ويُدعى «عبد المنعم». قال للدكتور «وسام»: إنّ الممرّضين يعطون للأسرى الإيرانيّين الأدوية الفاسدة المنتهية الصلاحية، وأضاف قائلاً: إنّ كلّ من يخالف حزب البعث بنحو ما، يعيش في العراق حياةً بائسة. ظننت أنّه يريد إخراج ما بداخلنا، واستنطاق الإخوة، قال الأخ «حسين مرواني»: «هذا الشخص صادق معنا، يبدو متألّماً لاستشهاد أبناء آية الله الحكيم». وكان قد ذكر لنا قصّة اثنين من الوجوه البارزة في مدينة تكريت هما، الأستاذ الجامعيّ الدكتور حسين الجبّوريّ، والعقيد عادل الجبّوريّ، أحد قادة الحرس الجمهوريّ، وقال: كان هذان الشخصان من مدينة صدام. وقد سُمّما بسمّ التالسيوم⁽²⁾ القاتل على أيدي مديرية الاستخبارات

(1) Scorbut: مرض ناتج عن فقر في الفيتامين (C) وفقر الدم يظهر على شكل تشققات ونزف في الجلد. (م.نون)

Tauium (2)

والأمن العراقية «الأمن العام»⁽¹⁾. وقد فرّا إلى بريطانيا عن طريق سوريا وخضعوا للعلاج. قال «عبد المنعم»: أولئك الذين يطلقون على أنفسهم لقب التكريتيين، يسرحون ويمرحون في العراق. فالتكريتيون يظنون أنفسهم أنهم من عنصر أرقى لكونهم من بلدة صدام. تماماً كالاسرائيليين...، وقد أرسل صدام في يوم واحد 49 ضابطاً رفيع المستوى إلى كرسي الإعدام، بسبب تقدّمكم أنتم الإيرانيين في شلمجة، وتراجع القوات العراقية!

الثلاثاء 7 ت 1989. تكريت. مستشفى القادسية

قبل الظهر، أخرجنا من المستشفى بأمر من الدكتور «قادر»، ركبت أنا و«محمد بخرد» وأسيران آخران حافلة «تويوتا» رمادية اللون، وقبل أن تخرج الحافلة من مستشفى القادسية، أوثقوا أيدينا، وقال السجانون، إنهم سيعصّبون أعيننا قبل أن نصل إلى قاعدة صلاح الدين. وبينما كانت السيارة تمرّ بشوارع تكريت، كانت الأفكار المختلفة تتجادلني، فما ظننت يوماً أنني سأسير موثق اليدين، وبرجل مبتورة في شوارع تكريت، مسقط رأس صدام. شعرت بالغربة. قلت في نفسي: إذا ما سلّمنا في هذه الشوارع إلى أهل بلدة صدام، فسيقطّعوننا إرباً إرباً. تذكّرت عندها كلام «علي جار الله»، كان يقول: سيّد! اسعَ جاهداً أن لا تناقش التكريتيين، وأن تأمن جانبهم، وكان يقول: «فلا عدي رحِم

(1) كان برزان التكريتي، الأخ غير الشقيق لصدام يتولّى إدارة هذه المؤسسة، ولكي يخفي صدام جرائمه وأسراؤه: كان يستفيد من أقاربه لتولّي إدارتها. كانت هذه المؤسسة تتولّى مهمة التجسس والتجسس المضادّ في الجيش، كما كانت إحدى مهمّاتها إحباط الانقلابات المحتملة عن طريق عمليّات التنصّت، والتعقّب والمراقبة.

«كامل حنا» أمين صندوق والده، ومحافظه، ولا صدام رحم عدي، ولا شفيق عاصم رحمكم! لا أحد يرحم أحداً. هذا المكان كالجافة، القوي يأكل الضعيف». وكان قد أخبرني بقصة «كامل حنا» الذي صعقه عدي في نادي السعيد بالسلك الكهربائي، ممّا تسبّب بإعاقته؛ وكان جرمه أنّه ربّ زوج صدام بإحدى الطبيبات العراقيّات، فاستدعى صدام عدياً إلى مكتبه، وأطلق عليه خمس رصاصات، أصابت يديه ورجليه. لم تتركني التخيلات والأفكار المشوّشة إلّا بعد توقّف الحافلة في محطة البنزين الواقعة على مخرج المدينة.

كان سجّانان مسلّحان يراقبنا. وعندما علم الناس العاديّون الذين كانوا ينتظرون دورهم في محطة البنزين لملء سيّاراتهم بالوقود، أنّنا أسرى إيرانيّون، جاءوا ليتفرّجوا علينا. نادى بعض الشباب الفضوليين آخرين ليأتوا وليتفرّجوا علينا قائلين: مجوس.. أسرى إيرانيّون.. حرس الخميني.. وجاء المسؤول عن خزّان الوقود، ويداه مملوءتان بالدنانير العراقيّة لرؤيتنا، وكأنّه كان يفضّل ذلك على استلام النقود من السائقين. كلّ الذين كانوا في محطة الوقود كانوا يتفرّجون علينا مشدوهين، وهم واقفون بجانب سيّاراتهم!

كانت معاملة التكريتيّين لنا، نحن الأشخاص الأربعة، سيّئه، كان بعضهم يسبّنا ويشتمنا، وكان السجّانان يأمران الناس بالابتعاد والتفرّق. كانوا مشدوهين من رؤيتنا، كأنّهم لم يروا إيرانيّاً قطّ. وقد فهمت الكثير من شتائمهم، فبعضهم كان يشتم شتائم وضيعة، واثنان أو ثلاثة منهم أظهروا حقدهم من خلال رشقنا بالبندورة وبالأحذية!

أنهينا تعبئة البنزين. وفيما كانت السيارة تخرج من المحطة، رمت إحدى العجائز، وكانت في مؤخرة سيارة تويوتا خضراء قديمة الطراز، بنعلها البلاستيكي نحونا، فاصطدم بكتفي، وسقط إلى جانبي في السيارة. يُقال: ربّ ضارة نافعة، كانت فردة النعل التي رمتها المرأة العجوز هي الفردة اليسرى، فيما كانت رجلي اليمنى هي المبتورة. ومنذ مدة كانت فردة نعلي البلاستيكي قد تقطعت من أماكن عدة. اعتبرت عملها هذا لطفاً من الله، شكرت الله، ففي نهاية هذه المعمة في محطة البنزين، أصبحت أملك فردة نعل بلاستيكي، وكانت أيضاً الفردة اليسرى. ومن بين كل الأشخاص الذين رشقوني بالبندورة والأحذية، سامحت فقط تلك المرأة العجوز التي صارت فردة نعلها من نصيبي!

الفصل الحادي عشر:

تكريت - المخيم الملحق

السبت 11 ت 1989 - تكريت - المخيم الملحق

دخل عميد عراقي برفقة النقيب «خليل» لتفقد المخيم. منذ مدة، كان «حسن بهشتي بور»، يتحين الفرصة ليطلب من العراقيين تأمين رجلٍ اصطناعيّة لي. وقد قلت له: إنّ العراقيين لن يوافقوا، وهذه العصا التي أعطوني إياها كثيرة عليّ [بنظرهم]!

أجرى «بهشتي بور» عملية حسابيّة لتحديد قيمة الرجل الاصطناعيّة. وقال: إن قيمتها تتراوح ما بين ستين وسبعين ديناراً. وهذه تعادل شهرية خمسين أسيراً إيرانياً، يكفي أن يتخلّى خمسون أسيراً عن شهريتهم لشهر واحد فقط فتُحلّ مشكلتك!

كان «بهشتي بور» ورفاقه يعلمون أنّ الحياة برجلٍ مبتورة بين كلّ أولئك الأسرى الأصحاء غاية في الصعوبة. فكثيراً ما كنتُ أقعُ على الأرض حين ينهال الحراس بالسياط والهراوات على الإخوة، وأتلقى الركلات تحت أرجلهم بفعل التدافع. بالنسبة للعراقيين، لم يكن هناك من أهميّة لمعاناة أسير مبتور الرجل ولا لما يحدث له.

سُررت لاقتراح «بهشتي بور». كان من الجيد أن أتمكن من المشي في المخيم.

وقف «بهشتي بور» في ممَر المخيم أمام العقيد المتفقد، وطرح مسألة الرجل الاصطناعية أمامه. لم يرق كلامه للعقيد والنقيب «خليل». أحسست أنهم صدموا من كون «بهشتي بور» قد قال أن مشكلة الأسير الوحيد المبتور الرجل في المخيم الملحق، تُحل من خلال شهرية عدد من الأسرى؛ فقال العقيد: وهل العراق فقير لئتم هذا الأمر عن طريق شهريات أسرى الحرب البالغة 1.5 ديناراً للأسير الواحد!

أجاب «بهشتي بور»: سيدي، أعلم أن العراق بلدٌ غنيٌّ وثريٌّ، وأنه يمكنكم من خلال نفطكم القيام بما تريدون، المهم أن تُحل مشكلة الأسير الوحيد المقطوع الرجل في هذا المخيم. كيف يتم ذلك؟ لا يهم!

وعده العقيد بأخذي إلى مؤسسة الهلال الأحمر وتركيب رجل اصطناعية لي. لم أجرو يوماً على سؤال النقيب «خليل» عما حصل لوعده ذلك العقيد. ولأشهر، كنت أمني النفس بوعده لم يتحقق أبداً.⁽¹⁾

الأحد 21 ت 1989. تكرت. المخيم الملحق

صادف اليوم ذكرى شهادة سيّدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام. وكانت مشاهدة التلفاز من حصتنا تلك الليلة. وكالعادة، كانت تبث في ليلة شهادة الزهراء عليها السلام الأغاني عبر التلفزيون العراقي. أطفالاً الإخوة التلفاز احتراماً لشهادة هذه السيّدة العظيمة. انزعج حراس المخيم الذين كانوا يراقبوننا من

(1) بعد ستة أشهر من الافراج عني، رُكبت أول رجل اصطناعية في مجمع الهلال الأحمر الواقع في ميدان فنك في طهران.

خلال نافذة المعتقل ويشاهدون التلفاز أيضاً. جاؤوا بالتلفاز من أجل الأسرى ظاهراً، ومن أجل العراقيين واقعاً. لم يكن النقيب «خليل» يسمح للحراس بأخذ جهاز الأسرى واستخدامه. فالحراس الذين لم يكن لديهم تلفاز، كانوا يأتون ليلاً ويشاهدون من خلال النافذة القناة التي يريدون. كثيراً ما كان يحدث أنّ الإخوة يريدون مشاهدة مباريات الفوتبول، والحراس يريدون مشاهدة الاستعراضات الغنائية العربية والتركيّة. التي كانت تبتّ دورياً من خلال القنوات العراقيّة. بالنسبة للحزب اللهيّين، لم يكونوا يهتمّون بما يُبثّ عبر التلفاز. فمشاهداتهم كانت محصورة في الأخبار والأفلام الوثائقية لا غير.

غضب «وليد» لأنّ الإخوة أطفؤوا جهاز التلفاز. وحيث إنّ كان بذيء اللسان راح يكيل السباب والشتائم لـ «حميد غيوري» لكونه أطفأ التلفاز. استدعى «وليد» «حميداً» إلى جانب النافذة، أدخل يده من بين القضبان الحديدية، وصفعه عدّة صفعات. شغلّ التلفاز بناءً لأوامر «وليد». كان التلفزيون العراقيّ يبثّ أغاني محمّد أنور. كان «وليد» يحبّ الترف والمرح، وكان دائماً يردّد مع المغنيّة العربيّة «مي أكرم» أغانياتها. وليستقرّني، ناداني وقال:

- ها ناصر استخباراتي، صفّق!

لم أردّ عليه. نادى «حسين مرواني» الأسير الإيراني العربيّ ليترجم كلامه وقال:

- الخميني هو من قال لكم أن لا تنظروا إلى هذه السيّد الجميلة؟!

لم أكن أودّ مبادلتة الحديث. قمت من مكاني، أردت الذهاب إلى

ناحية من المعتقل بحيث لا يراني ولا أراه؛ لكن «وليداً» التفت إلى الأمر؛ فاستدعاني إلى جانب النافذة وقال: كيف تستأوون أنتم أنصار الخميني من الرقص والأغاني، فأنا أُسرُّ لرؤية هذه المناظر!

- أمثالك يفرحون، أمّا نحن فننزعج. والإسلام يريدنا أن نتجنب المعاصي!

ضحك «وليد» وقال: لقد أجبرت الحكومة الإيرانية النساء على ارتداء «التشادور». أنا نفسي أعشق «كوكوش» و«مهستي» المطربتان الإيرانيّتان، فكيف تستأوون أنتم منها؟

كانت تلك المرّة الأولى التي يناقش «وليد» معي فيها المسائل الدينيّة والعقائديّة. فقد كان يعتقد أنّ الحكومة الإيرانيّة أجبرت النساء بالقوّة على ارتداء التشادور. كان «وليد» يشجّع الإخوة على مشاهدة حفلات الرقص والغناء على التلفزيون العراقيّ. ولعلّ أحد الأسباب التي من أجلها أحضروا التلفاز، كان إضلال الإخوة وحرفهم. فالعراقيّون لم يكونوا ينفقون على أحد بهذه السهولة؛ إنهم لم يجلبوا التلفاز لحراسهم، وعلى حدّ تعبير أحد الإخوة: «كرميّ لعيون أعدائهم!» إنهم يهدفون لشيء ما. فكّرت ما الذي ينبغي أن أقوله لـ«وليد». ورد إلى ذهني تشبيه جيّد، مع أنّي لم أكن أعلم كم سيؤثّر هذا عليه. قلت له:

سيدي! يمكنني أن أطرح سؤالاً؟

- سل!

- إذا كنت جائعاً، وقصدت مكاناً فرأيت علبتين من السمك، إحداهما مفتوحة والأخرى مقفلة، من أيّهما تأكل؟

كانت تلك المرّة الأولى التي يتكلّم فيها «وليد» معي بشكل جيّد، ومن دون أن ينتبه إلى مقصودي أجاب:

- واضح، من اللعبة المقفلة.

كنت أنتظر هذا الجواب لألقمه حجراً في فيه. فقلت:

- أنت تأكل من اللعبة المقفلة؛ لأنّها غير مسمومة، صحيح؟

هزّ رأسه مؤيِّداً كلامي فتابعت:

- ولا تأكل من اللعبة المفتوحة والمسمومة، صحيح؟

قال «وليد» الذي لم يكن قد التفت بعد إلى ما أهدف إليه:

- ما علاقة هذا بموضوعنا؟

- له ارتباط كبير، ولي هدف من وراء هذا السؤال.

- ماذا تقصد؟

- الفتاة المحجّبة مثل عبوّ السمك المعلّبة المقفلة، تبقى عفيفة

وصالحة، تربّي أناساً صالحين ومؤمنين. والفتاة غير المحجّبة هي

كالعبوّ المفتوحة، لا ترتبط بالإسلام، ويتخرّج على يديها أناس

فاسدون وماكرون وخطرون.

وفيما كان «وليد» يفكّر في كلماتي، تابعت:

- فكما أنك لا تأكل من العبوّ المفتوحة والمسمومة، عليك أن تبعد

عن المرأة غير المحجّبة وغير العفيفة. عندما تستهلك العبوة المقفلة

فهذا يعني أنّ قلبك يقول لك الحجاب والعفة شيء جميل!

في السنتين اللتين كان «وليد» فيهما حارس المخيم، كانت تلك

المرّة الأولى التي يستمع فيها إلى كلامي ويغرق في التفكير. أعتقد

أنّي تمكّنت في تلك الليلة، بهذا المثال البسيط، أن أوقف «وليداً» أمام

وجدانه وحقيقة نفسه، على الرغم من أن ذلك لم يؤثر في معاملته السيئة لي⁽¹⁾.

الثلاثاء 14 ت 1989 . تكریت . المخيم الملحق

اليوم، لم يحدث شيء خاص، وطبقا للعادة، صلاة الصبح؛ الإحصاء الصباحي؛ تناول الفطور؛ الخروج الصباحي؛ الدخول؛ إحصاء الظهر؛ تناول طعام الغداء؛ صلاة الظهر والعصر؛ الخروج عصرًا؛ الدخول؛ إحصاء العصر؛ الاستراحة؛ الإعلان عن وقت النوم الاجباري في الساعة التاسعة ليلاً.

الخميس 16 ت 1989 . تكریت . المخيم الملحق

بعد الظهر، أحضروا جهاز فيديو وعرضوا فيلماً. وقد أمر رئيس الحراس بأن يجتمع الإخوة، بمقدار ما يسع المعتقل رقم (7)، أمام التلفاز لحضور الفيلم. كان المعتقل رقم (7) أكبر المعتقلات. فضلت أنا و«حسين مرواني»، و«فرهنگ خاكيان»، و«محمود يوسف» أن نتبادل الحديث عوض مشاهدة الفيلم الذي لم يكن جديراً بالمشاهدة. لم تكد تمضي عشر دقائق على عرض الفيلم حتى أتى «حسين مقيمي» قائلاً: سيّد! إنّهُ فيلم سياسي لا ضير في مشاهدته.

(1) بعد ذلك بمدة، قال «مؤذن» رتيب المخبرات في المخيم: «وقد كان يتناقش مع «رامين حضرت زاده» في أغلب الأوقات حول مثل هذه الأمور.. كيف ترتدي النساء والفتيات الإيرانيات التشادور؟ أجابه رامين: قرأنا في صحفكم أن «بي نظير بوتو» قد زارت إيران. وبي نظير بوتو سافرة كما تعلمون، حين تذهب إلى إيران ترتدي الحجاب. إذا كانت لدينا المقدرة على جعل بي نظير بوتو رئيسة الوزراء الباكستانية ترتدي الحجاب، فلدينا القدرة والقوة المعنوية على جعل نساءنا وفتياتنا يرتدين الحجاب. فلم يُجر جواباً.

- آية مواضيع يتناول؟

- حول الأسرى العراقيين!

قصدتُ المعتقل رقم (7) بغية مشاهدة الفيلم. غصَّ المعتقل بالإخوة، حملني الإخوة على أكتافهم ووضعوني بالقرب من التلفاز. شاهدت الفيلم، كان ضابط التوجيه السياسي يراقب حالات الإخوة وهم يشاهدون الفيلم. فالفيلم كان حول الحرب والأسرى العراقيين. قال «حامد»: «هذا فيلم وثائقي، شاهدوه جيداً وانظروا ماذا كان يفعل حرس الخميني بالأسرى العراقيين». اعتراني الشكُّ للحظات عندما شاهدت الفيلم. وذلك عندما رُبطَ أسيرٌ عراقيٌّ بسيارتين، وسارت كلا السيارتين باتجاهين مختلفين، ممَّا أدى إلى انفصال جسد الأسير إلى نصفين!

عند انتهاء العرض سألت «حسن بهشتي بور» عنه، وكان لديه معلومات دقيقة حول الفيلم. لقد تمَّ الاعداد جيداً لعرض هذا الفيلم في مخيم أسرى الحرب، وكان ذلك تحت إشراف ضابط قسم التوجيه السياسي للمخيم «شفيق عاصم». وقد عرض هذا الفيلم بغية تشويه سمعة حرس الثورة الايرانية والتعبئة، وإظهارهم بمظهر قاسٍ. وقد أظهروا في هذا الفيلم حرس الثورة والتعبئة بصورة أناس قساة وعديمي الرحمة بنحويظنَّ الإنسان السطحي، أنَّ الإيرانيين قتَّالون قد خلت الرحمة من قلوبهم. وقد أطلقوا على هذا الفيلم اسم «حلو ومتوحش». قال «حسن بهشتي بور» للعراقيين: «ملفَّ هذا الفيلم موجود في المحكمة في إيطاليا!» حاول العراقيون إظهاره كفيلم وثائقي؛ لكنَّ الأمر انكشف فيما بعد. لم يعترفوا بأنَّ الفيلم من إنتاج

إيطالي. قال «بهشتي بور» للعراقيين: عندما يتحرّر أسراكم، ستعلمون أيّ تصرّف كان هو المصداق للفيلم السينمائي: «الحلو والمتوحش» (نحن أم أنتم)⁽¹⁾.

اعترض الأسرى، بعد أن تحقّقوا من تلفيق هذا الفيلم. وقام أحد الأسرى الطهرانيين، وكان قد خدم سنة في مقرّ «حشمتيّة» في طهران، في معسكر الأسرى العراقيين، وذكر حادثة أراد من خلالها أن يبيّن للحراس وضابط قسم التوجيه السياسي للمخيّم، كيفيّة معاملة الإيرانيين للأسرى العراقيين، فقال:

في أيام الجمعات، كان عدد من الأسرى العراقيين، يؤخذون وطبقاً للعادة، إلى صلاة جمعة طهران. ذات جمعة، وحين العودة، تخلف أحدهم عن الحافلة التي كانت ستقلّهم إلى مقرّ حشمتيّة. فاستأجر الأسير العراقيّ من أجل الرجوع إلى المخيّم سيارة أجرة، وطلب من السائق أن يقلّه إلى المقرّ على أن يتقاضى أجره من إدارة المخيّم. وقد أوصل السائق الأسير العراقيّ إلى مقرّ حشمتيّة!

لو كانت معاملتنا نحن الإيرانيين سيئة مع الأسرى العراقيين، أو لم يكن غذاؤهم الأرزّ بالدجاج، لحاول الأسير العراقيّ الوصول إلى

(1) أنتج هذا الفيلم (حلو ومتوحش) في العام 1983م، بالتعاون بين مؤسسة الإذاعة والتلفزيون العراقيّ والشركة السينمائيّة الإيطاليّة «راسينغ بيكتشر». وقد ظهرت هذه الشركة السينمائيّة من خلال إعادة إنتاج مشاهد غير واقعيّة عن الحرب وتلفيقها مع بعض المشاهد الحقيقيّة، مشهداً عن قتل أسير عراقيّ على أيدي حرس الثورة الإسلاميّة الإيرانيّة، بطريقة مفعجة. واستخدمت في هذا الفيلم الخدع السينمائيّة السائدة اليوم في العالم بهدف ضرب حيثيّة الشعب الإيراني وإظهار حرس الثورة الإسلاميّة كشخصيّات عنيفة وبغيضة. وقد عُرض في صالات السينما في إيطاليا، والعراق، والصين، واليابان، وسائر البلدان العربيّة ما عدا سوريا ولبنان. وقد غرّمت محكمة مدنيّة في روما في العام 1986م مؤسسة «راسينغ بيكتشر» بنصف مليار لير، أي ما يعادل أربع مئة ألف دولار أميركي.

الحدود بدل العودة إلى مخيم حشمتية، ولاختبر حظه في الفرار والذهاب إلى العراق.

لم يصدّق بعض الحراس كلامه. فقال لهم «بهشتي بور»: أي إنكم تتكبرون أنّ إيران هيأت في شهر شباط من العام 1981م مقدمات الزيارة لعوائل سبعة آلاف أسير عراقي عن طريق تركيا؛ لو كنتم مكان الإيرانيين، هل كنتم تقومون بهذا العمل؟!

الأحد 3 ك 1989. تكريت. المخيم الملحق

تصادقت منذ عدّة أيام مع أسير يدعى «نورتاغ غراوي» من أهالي قرية «نارلي آجي سو» من توابع «بندر تركمن». وكان يساعدي في إنجاز أموري الشخصية. كان يشبه «علي أصغر انتظاري» أخلاقاً وسيرةً. وكان بمثابة بهلول المعتقل. فمزاحه وطرائفه كانت تضيي السرور والنشاط على الإخوة. أحياناً كان يقول على سبيل المزاح: «إلهي لا تأخذنا من هذه الدنيا قبل أن يقتلونا!» ذات ليلة قال «نورتاغ» لأحد الأسرى الذي كان يركل أيدي الإخوة وأرجلهم أثناء مروره: «يصل الإنسان إلى مرحلة لا يرى فيها سوى الله». وعندما كان لا يصل في مناقشاته مع الحراس إلى شيء، كان يقول لهم: يمكن للحقيقة أن تُحنى لكن لا يمكن أن تُكسر!

اليوم، عندما مرّق «حامد» صورة الإمام التي كانت قد نُشرت في صحيفة القادسية العراقية، اعترض عليه «نورتاغ» وقال:

- لا أحد يفعل ذلك بصورة مرجع تقليد، ومهما يكن، فأية الله

الخميني مرجع تقليد!

وضع «حامد» قلماً بين أصبعي «نورتاغن» وضغط عليها بحيث جعله يتلوّى من الألم. جمع «نورتاغن» قطع صورة الإمام الممزرقة وقبلها أمام أعين الحراس قائلاً:

- عندما تطبعون أنتم صورة الإمام في صحفكم، فليس من الجدير بكم تمزيقها!

وسأل «نورتاغن» «حامداً»: هل تسيء أنت إلى النبي والعياذ بالله؟
- وهل الخميني نبي؟

- لا، ليس نبياً، لكنّه خليفة النبي بحق!

السبت 13 ك 1989. تكریت. المخيم الملحق

بعد الظهر، جاؤوا بعدد من الأسرى الجدد إلى المخيم. كانت شهرة أحدهم «رجوي». والظاهر أنّه قد أتى من «مخيم بعقوبة». وكان قد تشاجر مع أحد الأسرى وحمل عليه شفرة، فأبعده العراقيون إلى مخيمنا. وقبل أن يحدّوا له المعتقل الذي سيمكث فيه، انهاروا عليه ضرباً بالسياط. ولكي يفلت من ضرب العراقيين وشتمهم، قال للحراس: أنا من أقرباء «مسعود رجوي»، لا يحقّ لكم ضربي!

كنت واثقاً بأنه كان يخدع العراقيين؛ لكنّ «سعداً» صدّق أنّه من أقرباء رجوي. ولذا، تركه وشأنه لفترة. بعدها بمدة، جاء بعض الأشخاص من «مخيم بعقوبة» إلى مخيمنا، فقال أحد الأسرى الإيرانيين العرب لـ «حامد»، وقد كان يعرفه: إنّ «رجوي» هذا كان يستغلّ في بعقوبة أيضاً اسم «مسعود رجوي». عندما انكشف أمره، انتقم منه الحراس!

الأربعاء 10 ك 2 1990. تكريت - المخيم الملحق

قبل أسبوعين، ترجمتُ بعض الكلمات العربيّة خطأً للحارس العراقيّ جميل. لم أقصد شيئاً معيّناً. ولأنّه كان قد آذاني، قلت في نفسي سأقتصّر منه. فـ«جميل» الذي كان قد أخذ إحدى أشغالي اليدويّة بالقوّة، سعى إلى بناء صداقة معي لكي أصنع له شيئاً جديداً. فقد كان معجباً بمطرّزاتي. قال لـ«سامي»: أريد أن أخدع «ناصر سليمان منصور» حتّى يطرّز لي أشياء جميلة. فأخبرني «سامي» بذلك. وقد طلب منّي منذ عدّة أيّام أن أعلمه معنى أعضاء البدن والجوارح بالفارسيّة. كان ذكياً وصاحب ذاكرة قويّة. فكان يحفظ بسرعة كلّ ما أقول له. ولكي أنتقمّ منه، لما ظلمني، قلت في نفسي سأؤذيه.

عندما أخبرت «محمد كاظم بابايي» و«حسين مقيمي» بالأمر، شجّعاني، أمّا «جلال رحيميان» فقال: لا ينبغي أن تعلّمه الكلمات خطأ، فإن علّم بذلك يسودّ عيشك.

على كلّ حال، علّمته اليد رجلاً، والرجل يداً، العين شارباً، والشارب عيناً، واللحية أذنّاً، والأذن لحية. كان ذلك أوّل مزاح لي مع حارس أراد عقد صداقة معي لأصنع له أشغالاً يدويّة جيّدة. اليوم وقع «جميل» في شرّ أعمالي. في الأيّام السابقة، عندما كان «جميل» يأتي إليّ، يكرّر الكلمات التي كنت علّمته إيّاها. وكنت أنا أهزّ برأسي علامة على الموافقة، أي: نعم، لقد تعلّمتها جيّداً.

من سوء حظّي، أنّ «جميلاً» أخذ في المعتقل رقم (7) بلحية «دهقان منشادي» الذي ورد للتوّ من «مستشفى تكريت» وقال:

- ليش «نزدي كوش»؟ (لماذا لم تحلق أذنك؟!) [وكان يقصد لم
لم تحلق لحيتك؟]

علا صوت الإخوة بالضحك. سألهم جميل: ليش تضحكون؟ (لماذا
تضحكون)؟

- فقالوا له: سيدي! لا يقولون للحية كوش!

- لحية شينو بالفارسي؟ (ما معناها بالفارسية)؟

قال «كريم»: تعني بالفارسية ريش. ففهم أنني علّمته أعضاء
البدن والجوارح خطأ. غضب «جميل» وجاء إليّ. لم أفكر في عاقبة
هذه المزحة. لم يكن عندي ما أقوله، أو أدافع به عن نفسي. صفعتني
«جميل» مقابل كلّ كلمة علّمته إياها خطأً صفعةً قويّةً على خدي! عندما
تلقيت هذه الصفعات فكّرت، ما هذا الفعل الذي فعلته. كنت أستحقّ
هذه الضربات. كان عند كلّ صفعة يشير إلى تلك الأعضاء ويردّد
معانيها الخاطئة، ويسألني ماذا يُقال لهذه؟ كنت أنا أيضاً أردّد مع كلّ
صفعة ألقّاها، الكلمات الخاطئة نفسها التي علّمته إياها!

عندما انتهيت من تلقي الضربات، جاءني «محمد كاظم باباي» الذي
كان شاهداً على تعذيبي وقال: قضيتك أصبحت مثل قضية جحا، حيث
سُئل كم عمرك؟ فقال: أربعون سنة. بعد ثلاثين سنة سُئل: كم عمرك يا
جحا، فقال أربعون سنة. قيل: سُئلت هذا السؤال قبل ثلاثين سنة فقلت:
أربعون سنة. فأجاب: «الرجل عند كلامه». وتابع «محمد كاظم باباي»:
علّمته كلمات خاطئة، وها أنت ذا تردّدها ثانية بشكل خاطئ!

قلت له: «محمد كاظم»! الرجل عند كلامه؛ اللحية بالفارسية مو

ريش! (ريش = لحية)

الاثنين 15 ك 2 1990 . تكريت . المخيم الملحق

كان البرد شديداً ينخر العظام. ومن شدة ما كنت جائعاً أحببت أن أشبع ولو لمرة واحدة من الطعام. ولم يكن أمامي سوى طريق واحد لأشبع ولو لمرة واحدة، كان عليّ أن أطلب من تسعة أسرى أن يتخلوا لي عن طعامهم، لآكله، وأشبع بطني ولو لمرة واحدة. لم يطاوعني قلبي لفعل ذلك!

الأربعاء 17 ك 2 1990 . تكريت . المخيم الملحق

اليوم، غضب «سعد» مني ومن بعض الأسرى الآخرين. منذ عدة أيام، والطقس يشتد قساوة، لم أحتمل البرد. مزق أربعة أشخاص منّا أحد البطانيات وخطنا معاطف لأنفسنا. عندما ارتديت معطفي شعرت بالدفء. ولما رأنا الإخوة في المعتقلات الأخرى، فعلوا ما فعلناه. نشط سوق حياكة المعاطف من البطانيات (الحرامات). انهال «سعد» بالسوط على ظهري. وأخذ مني المعطف؛ لم يرد أن يتكرر هذا الأمر.

الثلاثاء 13 آذار 1990 . تكريت . المخيم الملحق

احتفلنا بيوم ميلاد إمام العصر عليه السلام، الذي أقامه أسرى «تبريز وأذربيجان». وقد أقيم الاحتفال، - كاحتفال «عشرة الفجر» -، بالامكانيات القليلة، وبعيداً عن أعين العراقيين. وقد شكّل الأسرى الأتراك (أتراك إيران) مجموعة الإنشاد. بعد الظهر، أنشدوا في المعتقل الأشعار الجميلة بشكل جماعي. وقد عمل الإخوة جاهدين لإجراء فقرة الانشاد والمسرح، وأعدوا الحلوى كذلك. وطبقاً للعادة، وقف أحد الإخوة الحامل للمرأة بالقرب من نافذة المعتقل، ليطلعنا

بمجيء العراقيين. وقد قرأ «حيدر خاني» المولد لهم. فكان يتوقف عن القراءة حين يأتي الحرّاس، ويكمل حين ينصرفون. كان حارس النافذة يخبر الإخوة بمجيء الحرّاس باستخدام كلمات، مثل: الوضعيّة الحمراء، الجوّ غائم، ممطر... لكثرة ما استعمل هذه الكلمات، قال «سامي» عندما دخل المعتقل ملّمحاً وممازحاً: الجوّ أحمر، الوضعيّة غائمة، فتعلو أصوات الإخوة بالضحك...

الأربعاء 21 آذار 1990 - تكريرت - المخيم الملحق

اليوم، كان اليوم الأوّل من العام 1369 هـ.ش⁽¹⁾. وقد كتبت رسالة إلى «علي أكبر فيض»، وضعتها داخل كبسولة مضادّة للالتهاب، وأعطيتها للدكتور «مؤيد» ليسلمها إليه.

لم نفرش كما في عيد السنة الماضية مائدة السيئات السبع. وقد قسّمنا أعمال السنة الجديدة. وتمّ الاتفاق على إنجاز الأعمال اليومية على هيئة وزارات أربع. وزارة الصحة والاستشفاء، وزارة التربية والتعليم، وزارة الأمن والدفاع، ووزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي! دمجنا وزارة الأمن والدفاع. وقد كانت تلك فكرة «جلال رحيميان». فقد قال جلال.. وكان عريف المعتقل..: هذا المخيم هو وطن مصغّر في ناحية من نواحي العراق؛ وقد اجتمعت إيران كلّها في مكان واحد، وينبغي تعيين الوزراء للقيام بالأعمال.

اقترحت أسماء أربعة أشخاص على أسرى المعتقل للتصدي لمسؤوليّة الوزارات الأربع. وكان من المقرر أن يعطي أسرى المعتقل

(1) يوم 21 آذار من كل عام ميلادي من العام الإيراني، تصادف بداية العام الهجري الشمسي.

الثقة لهؤلاء الأشخاص. وقد تمّ اقتراح اسم «كامبيز فرح دوست» للتصدي لوزارة الصحة والاستشفاء، و«جلال لحمي» لوزارة التربية والتعليم، و«علي أصغر انتظاري» لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، وأنا لوزارة الأمن والدفاع. وقد نال الوزراء ثقة أسرى المعتقل.

كان من مهمّاتي أخذ المعلومات اللازمة من العراقيين، وإعطائهم المعلومات المحروقة، وتولّي أمر الأسرى المدخّنين الذين باعوا أنفسهم للعراقيين. وكان وزير الصحة والاستشفاء مسؤولاً عن متابعة العلاج، تأمين الأدوية اللازمة بطرق مختلفة، ومبادلة الأشغال اليدوية بالأدوية والتواصل مع الأطباء العراقيين. وكان «كامبيز فرح دوست» الذي كان يعمل في المستوصف، خبيراً بهذا العمل. ومهمّة وزير التربية والتعليم كانت تنظيم الصفوف الدراسية للمستويات المختلفة، وتأمين أوراق أكياس الأسمنت وأوراق أعقاب السجائر ليستخدمها الإخوة، وترجمة الصحف العراقية. أمّا وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، فكانت تتولّى إقامة المراسم المختلفة الشاملة للاحتفالات، وولادات الأئمّة الأطهار عليه السلام ووفياتهم، بالالتفات إلى الظروف الزمانية الخاصة.

كانت مهمّة تأمين الوضع الأمني لإقامة البرامج الثقافية في المعتقل، ومسؤوليّة حاجب النافذة الذي يراقب حركة الحراس ويطلع الإخوة مباشرة عند مجيئهم، من مهمّات وزارة الأمن والدفاع أيضاً.

الاثنين 9 نيسان 1990 - تكريت - المخيم الملحق

كنت في ممرّ المعتقل حين دخل «حامد» و«رافع» إلى المعتقل رقم (10). كان أحد الإخوة يقلّد صوت الشيخ «هاشمي رفسنجاني». وكان

يقلّد صوته بدقّة بالغة بحيث أنّ كلّ من يمر من خلف النافذة يظنّ أنّ الشيخ رفسنجاني هو الذي يتكلّم. أنا أيضاً كنت أسمع كلماته من خلف النافذة. بمجيء الحراس غير وجهة كلامه. فطلب «رافع» من «كريم» أن يترجم كلامه.

طلب «حامد» من الأسير الإيراني أن يتابع كلامه. فقال حامد: إنّهُ يقلّد كلام الشيخ رفسنجاني رئيس جمهورية إيران. تابع الأسير الإيراني كلامه، ولم يكن يودّ افتعال مشكلة والتحدّث إلى الحراس: - إنني أطلب من جميع الأسرى الإيرانيين الذين يقعون في مخيمات تكريت الصبر والثبات. أن يصمدوا، ويرضوا برضا الله، فإنّ الله مع الصابرين. كما أطلب من نظيري العراقيّ أن يقدّم للأسرى الإيرانيين الغذاء الكافي، إنّنا هنا، نقدّم لأسراكم الدجاج بالأرز. اسمحوا ولو لمرة واحدة، ولتكون ذكرى للتاريخ، للأسرى أن يشبعوا من الطعام، لا تفعلوا شيئاً، بحيث إذا ما عاد الأسرى الإيرانيون إلى بلدهم، ورأتهم شعوب العالم عبر وسائل الاعلام فتقول: في أية بلاد كان هؤلاء يعانون المجاعة، بحيث صاروا يشبهون جياع أثيوبيا وأفريقيا...

أبنائي! أعزائي! إنّ أساس هذه المصائب والبلاءات هو السيّد مادّص؛ هذا الأبله المجنون، هذا الأحقّ المتوحّش، هذا الإنسان العنيد الذي أسلس قياده للشيطان، فجعله أساساً لجميع المشاكل... عندما أنهى الأسير الإيراني كلامه، سأل «حامد»: من هو مادّص؟ فقال الأسير الإيراني: مادّص هو لقب الرئيس الأميركيّ الذي هو مصدر جميع المشكلات!

صدّق «حامد» ما قاله. وخاصّةً عندما قال الإخوة إنّ مادّص الرئيس

الأميركيّ هو الشيطان الأكبر؛ لكن حين علم فيما بعد أنّ مادص هو كلمة «صدام» معكوسة، لقّن الأسير المسكين درساً.

الجمعة 20 نيسان 1990 . تكريت . المخيم الملحق

كانت آخر جمعة من شهر رمضان المبارك. وكان لشهر رمضان أجواءه المعنوية الخاصة. وقد ابتدأ شهر رمضان في اليوم التالي لعيد رأس السنة الهجرية الشمسية. في الصباح وبعد الإحصاء، نُقلنا إلى المعتقل رقم (12) بجرم قراءتنا لدعاء كميل. قبل الظهر دخل الملازم «فاضل» المعتقل، وراح يحدث بعض الإخوة عن ذكرياته في «سوسنكرد»⁽¹⁾. فقال، ولا أعلم إن كان صادقاً أو كاذباً: «لقد قتلت الكثير من الإيرانيين في بداية الحرب في الحويزة والبستان». وأفضل ذكريات الملازم «فاضل» في بداية الحرب، كانت قتل الجواميس في النهر الواقع في أطراف «سوسنكرد». وكما كان يقول: إنّ لذة قتل الجواميس في «سوسنكرد» كانت تفوق لذة قتل الإيرانيين! عندما كنّا نطلق النيران في نهر «غوفل» الواقع في سوسنكرد على أرجل الجواميس الضخمة، كانت صيحاتهم تصمّ الأذان. وحين كانت عظام أرجل الجواميس تتفتت، كانوا يتململون على الأرض ويصيحون. قلت حينها للجنود الآخرين: لا تقتلوهم، دعوهم يتململون!

فقلت له: كنتم تقاتلون الإيرانيين، فما ذنب الجواميس المساكين؟

(1) اسم مدينة إيرانية قريبة من الحدود العراقية الجنوبية، تقع شمال غرب الأهواز، كانت مسرحاً للعمليات العسكرية ومحوراً متقدماً خاصة عندما احتل نظام البعث مناطق واسعة من محافظة خوزستان مع بداية ثمانينات القرن الماضي . (مركز نون).

ذهبت إلى «حسن بهشتي بور» جلست إلى جانبه، كان يعطي درساً لمجموعة من الإخوة. قال:

تُقام اليوم في إيران، مسيرات يوم القدس، أودّ لو نطلب اليوم من مسؤولي المعتقل طلباً، لا أدري بماذا سيجيبون؟

فحسن بهشتي بور الذي كان يأتي بأفكار جديدة دائماً، قال: أيّها الإخوة، إنّ عُمْرنا يمضي كالريح. أريد أن أقول للنقيب «خليل»، أنتم عرب، والشعب الفلسطينيّ عربيّ أيضاً. وهويّكم العربيّة تقضي بأن تكونوا إلى جانبه، كما أنّ علاقة ياسر عرفات بصدّام علاقة وثيقة⁽¹⁾ إذا كنتم تدعون أنّ قلوبكم مع الشعب الفلسطينيّ، فاطلبوا من مسؤوليكم الكبار أن يأخذوا الأسرى الإيرانيّين إلى فلسطين ليقاتلوا الإسرائيليّين بدل أن يتعفّنوا في السجون العراقيّة!

إلى ذلك اليوم، لم أكن قد التفتّ إلى أحاديث «بهشتي بور». كان اقتراحه أمنية الكثيرين منّا. وكان كثيراً ما يتطرّق في دروسه لمثل هذه الموضوعات. كما كانت المقاومة في أيّ مكان من العالم في سبيل الدفاع عن مظلومي العالم من الموضوعات التي كان يطرحها حسن بهشتي بور في إطار القضايا العالميّة للإمام الخمينيّ.

وصل كلام «بهشتي بور» هذا إلى مسامع الحرّاس والضباط العراقيّين. وقد سرّوا من كلامه هذا، لأنّ الكثير من العراقيّين

(1) كانت تربط ياسر عرفات بصدّام علاقة خاصّة؛ لهذا السبب، منح صدّام لقب صلاح الدين العصر، وفارس أمة العرب. هذه الألقاب والتعابير أُطلقت في اللقاءات بين هذين الرجلين، وقد نشرت مراراً في صحف القادسيّة، والثورة، والجمهورية. قال «ياسر عرفات» في إحدى لقاءاته بصدّام، بينما كان يتسلّم منه هدايا قيّمة: سيّدي رئيس الجمهورية! رأيت في المنام أنّك تركب حصاناً أبيض اللون، والأمة العربيّة والاسلاميّة تسير خلفك، وأنت تقودهم لفتح القدس. وكان منام ياسر عرفات هذا، خبر صحيفة القادسيّة الساخن.

مناصِرُونَ للشعب والقضيّة الفلسطينيّة. وقال «بهشتي بور» للملازم «فاضل» متهمّاً:

- أظنّ إن حدث هذا، ستفرحوا عندما نقتل، فنقتل نحن والإسرائيليّون!

قال «فاضل»: طلبكم هذا غير ممكن الحصول.
فقال محمد كاظم: كيف حصل أن اجتمعت كلّ تلك البلاد العربيّة لقتالنا! وقد حصل هذا!.

فأجاب «سامي» الحارس العراقيّ وكان إنساناً مطّلعاً ومتّقفاً:
- في السنوات التي كان الإمام الخمينيّ فيها منفيّاً إلى العراق، عمل النظام العراقيّ بجِدٍّ لمنع انتشار فتوى الإمام بتجوز دفع أموال الخمس والزكاة للفدائيّين الفلسطينيّين⁽¹⁾.

الاثنين 23 نيسان 1990 . تكريت . المخيم الملحق

اليوم، اختلفت معاملة العراقيّين لنا عن الأيام الفائتة. وصار العراقيّون يعاملون الإخوة بلياقة. فقد نشرت الصحف العراقيّة رسالة صدام التي أرسلها أمس، إلى رئيس جمهوريّتنا، والتي طلب فيها من الشيخ رفسنجانيّ اللقاء به في مكّة المكرّمة لعقد إتفاقيّة الصلح. وكان ياسر عرفات من قام بنقل هذه الرسالة إلى القادة الإيرانيّين. وقد بالغت الصحف العراقيّة اليوم في تمجيد صدام كرجل الصلح في الشرق الأوسط. في الأيام التالية، حين رفض القادة الإيرانيّون اقتراح لقاء صدام في مكّة المكرّمة، عادوا إلى عاداتهم القديمة وراحوا يكيلون السبّ والشتائم للشيخ رفسنجاني.

(1) الموضوع يعود إلى العام 1968م.

السبت 28 نيسان 1990 . تكرّيت . المخيم الملحق

اليوم، سُمح لنا بلعب الكرة الطائرة، وذلك بمناسبة عيد ميلاد صدام. وكان مسموحاً للإخوة من قبل، بلعب كرة الطاولة فقط. قلّماً كان الإخوة يلعبون كرة الطاولة مع الحراس. وما عدا «سلوان» الذي كان يمتلك مهارةً خاصّةً في لعب كرة الطاولة، كان الحراس الآخرون ينهزمون أمامنا. ولكي يتجنّب الإخوة الضرب والشتم الذي كان سيطالهم بعد انتهاء المباراة في حال فوزنا، كانوا يظهرّون اختلافاً قليلاً في اللعب. كان كلّ فائز في مسابقة التينيس يُضرب. عندما كان العراقيّون يظهرّون انزعاجهم من خلال ضرب الإخوة، لم يعد الإخوة مستعدّين للعب معهم.

في مباراة اليوم، شكّل شباب الشمال التركيبة الأساسيّة لفريق الكرة الطائرة. كان شباب «بندر تركمان» ومن جملتهم «نورتاغن غراوي» أفضل لاعبي الفريق. لم يرق سير اللعبة للحراس كثيراً؛ لذا أخرجوا «نورتاغن غراوي» من المباراة.

انتهت المباراة بفوز فريق الأسرى الإيرانيين. لم يتقبّل الفريق العراقيّ الخسارة سوى اثنين منهم وكانا محترمين، فيما غضب «وليد» و«رافع» وسعيا إلى تعويض خسارتهم بالانتقام منّا.

قال «نورتاغن» للعراقيين: الآنّا أسرى علينا أن نخسر المباراة؟ وهل علينا أن نخسر لتُسروا أنتم؟!

صنع أحد الإخوة التبريزيين للمباراة كأساً من الجصّ. وكان لهذه المباراة المرة كأساً جميلاً، أخذه الحراس.

قبل عدّة أيام، أخبرنا بأنّ مباراة ستقام بمناسبة عيد ميلاد صدام

مقابل الأسرى الإيرانيين. وكان الإخوة قد اشترطوا عليهم عدم ضربهم في حال فوز فريق الأسرى، فوعد الحراس باحترام نتيجة المباراة.

كان لكأس البطولة وجهان، رُسمت على الوجه الأول له خريطة إيران، وعلى الوجه الثاني خريطة العراق. وقد كان كأس البطولة اليوم من نصيب الفريق الخاسر. وهذا عادي في عالم الأسر، لكنّه ليس كذلك في عالم الرياضة!

بعد الظهر انتابني الفضول. قرأت الأبيات الشعرية لعادل عقلة المغنّي العراقيّ، بقليل من التصرّف. وقد قيلت هذه الأبيات في وصف صدام:

سيّدي يا سيّدي يا سيّدي. (1)

سيّدي بيتك خرب، يا سيّدي. (1)

سيّدي يا سيّدي يا سيّدي. (1)

شطّ العرب صار ملكنا يا سيّدي. (1)

واي حزوك واي خليّ. (3)

السبت 26 أيار 1990 - تكريت - المخيم الملحق

اليوم، فيما كنت جالساً مقابل المعتقل رقم (12)، جاءني «ماجد» الحارس العراقيّ الجديد. وكان يحبّ المطرّزات الجميلة والظريفة، تماماً كالملازم «قحطان». في تلك الأيام، ومن أجل الحصول على قلم، وورقة، وأدوية لازمة، قايضت أجمل مطرّزاتي مع «قاسم». فقد كان «قاسم» مع كلّ محاسنه إنساناً استغلاليّاً. وكان على علاقة جيّدة

بالأسرى الإيرانيين العرب. وقلّما كان يعامل الأسرى معاملة سيّئة سوى في الموارد التي كان يُجبر فيها على ذلك. وقد أرى «قاسم» «ماجداً» بعض مطرّزاتي وأشغالي اليدويّة. فحسده الحراس عليها. وهذا ما قاله «قاسم» نفسه لي. كنت جالساً مع رفاقي: «عبّاس بهنام»، و«محمد بلجك»، و«عليّ باقري» في ممرّ المعتقل؛ جاء «ماجد» وفي يده قطعة قمّاش بيضاء اللون مساحتها 30x30 سم. لا أعلم من الذي صمّمها. فلم تُجدِ محاولاته لاجبار «عليّ يمانى» على رسم صورة صدام على قمّاشته تلك. لكنّه خطّط عبارة «اللهم اجعل عواقب أمورنا خيراً». نادى «ماجد» حكيمَ خليفان المترجم وقال لي بعنجهيّة ومن موضع الأمر:

- طرّز لي هذه!

حاولت إخفاء غيظي الناشئ عن معاملته السيّئة لي، فلم أستطع. كان قبل ذلك، قد وجّه الشتائم البذيئة لي. وكان يقول كلاماً مستقبّحاً. وقد تُقبت طلبة أذن أحد الأسرى جرّاء صفعاته التي وجّهها إليه. فقد كان إنساناً غريب الطباع. يتجسّس على الأسرى. وكان عندما يرى أسيرين يتحدّثان معاً، يناديهما ويسأل كلاً منهما على حدة: عمّاذا كنتما تتحدّثان؟

قلت «لماجد» الذي أصرّ عليّ لأطرّز له صورة صدام:

- خذها لزوجتك تطرّزها لك!

- أنا عازب!

- خذها لأنّك أو أختك!

كان هذا الأمر مفاجئاً «لماجد». فهو الذي كان في البداية يتحدّث

إليّ بهدوء قال:

- لقد أعجبتني أعمالك، وقد رأيت مطرّزاتك عند «قاسم».
- لأَمْلاً أوقات فراغي، أقوم بأعمال التطريز لنفسي.
- أنت تكذب، أو لم تطرّز أشياء لـ«قاسم»؟
- لم أستطع إخبار «ماجد» بأيّ الأمور عاوضتُ «قاسماً». وقد وعدته بأن لا أخبر أحداً بشيء عمّا تبادلناه. و«قاسم» نفسه أيضاً، لم يخبر أحداً بشيء. فذلك سيؤدي إلى الإضرار به. وكان النقيب «خليل» قد منع الحراس من القيام بهكذا أعمال. قلت لماجد:
- سيّدي! لا أستطيع أن أطرّز لك صورة صدام!
- كنت أعلم أن الرفض سيجرّ عليّ الويلات. في مثل هذه المواضع كنت أجلب كلّ المصائب على نفسي. غضب «ماجد» من كلامي وقال:
- سوف أعاقبك بسبب إهانتك لصدام!
- لم أهنه، إنّما قلت إنّني لن أطرّز صورته!
- كنت أعلم أنّ «ماجداً» سيلحق بي الأذى. ومن شدّة غضبه نال أمّي وأختي بالشتم والسباب، ركل عصاي برجله وكان في غاية الغضب!
- وحين شتمني قلت له:
- السباب الذي كلته لي إنّما يليق بك. لقد قُطعت رجلي بسبب صدام، واستشهد أخي بسببه، وها أنا ذا أقبع في هذا السجن بسببه، وتريدني أن أطرّز لك صورته؟!
- ركلني «ماجد» بحذائه العسكري على جنبي.. وانهال بالسوط على رأسي، أخذ بياقتي.. رفعني، وصفعني على وجهي. ومن ثمّ هدأ.
- كان «ماجد» كظلي يتبعني أينما ذهبتُ. كان يعاندني في كلّ أمر.
- لم أستطع بعدُ، القيام بأعمال التطريز كما في السابق.

الخميس 31 أيار 1990 . تكريت . المخيم الملحق

كان الإخوة في بعض المعتقلات يقيمون المسرحيات بغية التسلية. وقد أعجب الحراس بالمسرحية التي أقيمت في المعتقل رقم (12) قبل عدة أيام. حيث لعب الإخوة في المسرحية دور أسير إيراني، ودور ضابط تحقيق عراقي.

في تلك المسرحية، كان الضابط العراقي يسأل الأسير الإيراني أسئلة، بطريقة نال تركيب الكلمات وإجابات الأسير الإيراني فيها، إعجاب الحراس:

اسمك: عباس. الشهرة: عباسي. اسم الأب: ملاّ عباس. اسم الجد: أمير عباس. من أي منطقة؟ بندر عباس. في أي وحدة كنت؟ لواء أبي الفضل العباس. أين أسرت: سهل عباس. تقول الحقيقة أم تكذب؟ أنا أكذب قسماً بأبي الفضل العباس! كنت أودّ أن أقيم مسرحية لشباب المعتقل.

الليلة، أقمنا مسرحية «صدام در صد دام» (صدام في مئة فخ) في المعتقل⁽¹⁾. وقد لعب «محمد باقر وجداني» دور «طالع خليل

(1) كنت في الصفّ الأول متوسط، حين أقام أبناء قريتنا مسرحية بمناسبة ذكرى «عشرة الفجر»، وكانت حينها مسرحية لا مثيل لها. وكان اسمها «صدام في مئة فخ». وقد لعب فيها أخي الشهيد السيّد «هدايت الله» دور صدام. ولعب ابن عمّي السيّد «كرم الله» دور «طالع خليل الدوري»، وابن خال أبي «كودرز نوري» أدّى دور الفريق «ماهر عبد الرشيد»، وأدّى ابن عمّي الآخر السيّد «عمران بلادي» دور عنصر التعبئة الأسير. ومع أنّه كان من المقرّر أن تُعرض هذه المسرحية أمام أهالي القرية في المدرسة الابتدائية العاشرة، إلّا أنّه بسبب شدة إتقان الإخوة لأدوارهم وماكياهم، انتقلت المسرحية إلى مدينة «باشت»، وتردّد صدى عمل الإخوة في المنطقة بأسرها. وقد نقلت مديرية التربية والتعليم في «باشت»، طلاب جميع المراحل التعليمية إلى صالة المدينة الكبرى لمشاهدة هذه المسرحية. وكم كان جميلاً ذلك اليوم، أداء أخي «هدايت الله» لدور صدام. كما كان أداء «كودرز نوري» استثنائياً. وكان «كودرز» في تلك المسرحية يضيف «أل التعريف» إلى أول

الدوريّ»، و«حسين مقيمي» دور «ماهر عبد الرشيد»، و«محمد بخرد» دور تعبويّ أسير، أمّا أنا فلعبت دور صدّام. وقد قمنا بتغيير بعض حوادث المسرحيّة.

كان حسين مرواني يحرس النافذة. فحين كان الحراس اللياليون يقتربون من نافذة المعتقل كان يطلعنا بالأمر. قُطعت المسرحيّة للحظات، وحين ذهب الحارس، تابعتها. وقد لاقت المسرحيّة إعجاب الإخوة. افتقدنا «رامين حضرت زاد» في تلك المسرحيّة. ولو كان «رامين» هناك لكنت أعطيته دور صدّام.

كان «رامين» قد أقام أمراً شبيهاً للذي أقامه أخي الشهيد في مسرحيّة «صدّام في مئة فخّ» في منطقتنا، وذلك في الجبهة لشباب «الكتيبة 409» من «فرقة ثار الله 41». فقد أدّى هو دور صدّام، وحسبما أخبرني، عَجَّ⁽¹⁾ المسرح بالإخوة. كما قدّم رامين المسرحيّة لكتائب الفرقة الباقية.

كل كلمة يقولها. والسيد «كرم الله» الذي كان أطول قامة من الجميع، كان رائعاً في أداء دور «طالع خليل الدوري». يقول صدّام في تلك المسرحيّة للمسؤولين الذين يعملون تحت إمرته: «علينا أن نثبت للعالم أننا مسلمون، فقد أثبت الإيرانيون للدول الإسلامية بأنهم مسلمون، وأشاعوا ذلك. لا ينبغي لنا في هذه المسألة أن نتخلف عن إيران». اقترح كل من القادة اقتراحاً. وطبقاً لاقتراح «ماهر عبد الرشيد» كان على صدّام حسين أن يؤدّي الصلاة في مقام الإمام الحسين عليه السلام. وقد صلى صدّام بعدائه إلى جانب ضريح الإمام الحسين عليه السلام. وقد بقر البعثيون في حضور صدّام بطن السيد «عمران بلادي» الذي كان يؤدّي دور الأسير التعبويّ، لكونه رفض شتم الإمام «الخميني». وقد أوكّل صدّام إلى «طالع خليل الدوري» مهمّة البحث عن السبب الذي يمنع الإيرانيين حين وقوعهم في الأسر من توجيه الإهانة إلى الإمام «الخميني»، فيما ترتفع أصوات الأسرى العراقيين، بشعار الموت لصدّام منذ اللحظات الأولى لوقوعهم في الأسر. في نهاية المسرحيّة، حيث لا تنتهي الحرب لصالح صدّام. يسأل صدّام القادة المساعدين له عمّ يجب القيام به؟ فيجيب السيد «كرم الله» الذي يؤدّي دور «طالع خليل الدوري»، موجّهاً كلامه لصدّام: سيدي! فلتنتحر أنت، ونفّر نحن!

(1) عَجَّ الطريق: امتلأ.

وقد التقى «رامين» يوماً، بأحد عناصر الفرقة في المخيم الملحق. وكان قد قدم عرضاً مسرحياً في كتيبته. فقال له «رامين» وهو يضع الماء في يده ليبلل به ثيابه: ما أخبار الكتيبة 409؟ فأجاب: لقد استشهد معظم عناصرها في هجوم شهر حزيران. فسأله «رامين»: وماذا حلّ بالإخوة الذين قدموا من الكتيبة 409 وقدموا المسرحية في كتيبته؟ فقال: قال الإخوة: إنّ الأخ الذي أدّى دور صدام قد استشهد، وقد حزنوا عليه كثيراً. ضحك «رامين» وقال: ألم تعرفني؟ أجاب: أظنّ أنّي رأيتك في مكان ما، لا أدري أين! فقال «رامين»: أنا صدام ذلك نفسه! في اليوم التالي، أُستدعينا نحن الأربعة إلى غرفة رئيس الحراس. لا أدري أيّ واحد من الجواسيس قد أطلع العراقيين على مضمون المسرحية. ممّا جعل العراقيين يبرحوننا ضرباً.

عندما طلب الإخوة منّي أن أقيم لهم مسرحية أخرى، قلت لهم: عالجوا أولاً مشكلة الجواسيس، ومن ثمّ اطلبوا منّي ومن الباقين تقديم مسرحية! قال بعض الإخوة المتحفّظين، وكانوا على حقّ: إن حذفتم اسم صدام في مسرحية «صدام في مئة فح» فلن يتعاطى العراقيون معنا. لكن صدّق الإخوة الآخرون، فالعراقيون لم يعودوا يثقون بنا. وحتى لو قدّمنا مسرحية ولم نأت فيها على ذكر صدام، مع ذلك سيشتكون بنا.

السبت 2 حزيران 1990 - تكريت. المخيم الملحق

كتبت رسالة لـ «غلام رضا كريمي»، وضعتها في كبسولة المضاد الحيوي، وأعطيتها لـ «سامي» ليسلمها له. الليلة الماضية لسع عقرب

«يزدان بخش مرادي»، أحد أبناء قزوين. كان «وليد» بعد الإحصاء الصباحي، يخبر بمسألة العقرب متفاخراً. فقد كانت الليلة الماضية نوبته للحراسة الليلية. وقد رأى في ممر المعتقل عقرباً أشقر اللون؛ أراد سحقه بجذائه العسكري لكنه سرعان ما تراجع وقذفه بقطعة ورق مقوى إلى داخل المعتقل رقم (8).

قال «وليد»: كنت أودّ أن يلسع العقرب أحدكم! وحدث ما أراده «وليد»، تحققت أمنيته ولسع العقرب «يزدان بخش مرادي».

بعد أيام أنشد أحد الأسرى في المخيم الملحق هذه الأبيات على مسامع «وليد». لم يعرف هو من الذي قرأ الأبيات؛ ولم أعرف أنا أيضاً. وقد ترجم بعض الأسرى العرب الأبيات لـ «وليد»، ممّا أغضبه بشدة.

أخط من العقرب، أنت يا «وليد»
أرذل من أبي يزيد، أنت يا «وليد»
نطلب من الله، يا «وليد»
أن يحشرك مع ابن «الوليد»

الاثنين 4 حزيران 1990 - تكريت - المخيم الملحق

اليوم، كانت الذكرى السنوية لارتحال الإمام؛ لم يلتفت الكثير من الإخوة لذلك. قبل الظهر، لطمنا الصدور، بالطبع، بعيداً عن أعين العراقيين. لطمنا بهدوء، وقد كان برنامجنا مقتضباً. فما إن اقترب العراقيون من المعتقل، حتى فُضّ المجلس.

عصرًا، أخذ «ماجد» إحدى المطرّزات من يدي. وكنت قد عملت عليها مطوّلًا. كنت أودّ أن أقدمها كهدية عند الافراج عني، إلى عائلة الشهيد «باقر جاكيان».

كنت قد طرّزت أسماء عدد من رفاقي الشهداء إلى جانب شمعة. وقد رسمت لغم «فالميري» فوق أسماء شهداء التخريب. وقد رسمته بشكل يشبه القبر. فالشهداء الذين طرّزت أسماءهم على تلك المطرّزة قد أحيوا في ذكريات وجودي في وحدة التخريب، وهؤلاء كانوا:

الشهيد «رضا مكتوبيان»⁽¹⁾، الشهيد «رضا علي باك نسب»⁽²⁾، الشهيد «نور الله ديبقي»⁽³⁾، الشهيد «باراني شيخي»⁽⁴⁾، الشهيد الشيخ «باقر جاكيان»⁽⁵⁾، والشهيد السيّد «شريف بنجة بند»⁽⁶⁾.

قال «سامي»: لقد حرق «ماجد» مطرّزتك. تألّمت لذلك، فقد أحرق أسماء الشهداء. ذهبت إلى «ماجد» وقلت له:

- لِمَ أحرقت مطرّزتي؟

- هؤلاء أشخاص قد قتلوا أبناء العراق!

الثلاثاء 5 حزيران - تكريت - المخيم الملحق

البارحة، أقام أسرى العنابر مجالس اللطم بمناسبة الذكرى

(1) استشهد في عمليّات كربلاء 4.

(2) استشهد في كردستان، وذلك في شهر تمّوز من العام 1987.

(3) فقد أثره في كردستان، وذلك في شهر ت1 من العام 1987.

(4) استشهد في شلمجة في شهر لك2 من العام 1987.

(5) استشهد في كردستان، في شهر نيسان من العام 1987.

(6) استشهد في شتاء العام 1987 في كردستان العراق.

السنوية لرحيل الإمام الخميني، وهذا ما أخبرني به قاسم مسؤول الإنشاءات في المخيم.

بينما كنت خارجاً من باب المخيم، رأيت «ماجداً» يعد السمك المشوي. كنت أعاني صداً شديداً. لم يسمح لي بالذهاب إلى المستوصف لأجل قرص «إستامينوفن». نادى «ماجد» «فاضلاً» الأسير الإيراني العربي وقال:

- أتريد السمك المشوي؟

- أنت لا تسمح لي بالذهاب لجلب قرص «إستامينوفن»، فكيف ستطعمني السمك المشوي!

- أنتم المجوس ينبغي أن تبقوا معلقين بين الحياة والموت. تماماً كأسماك «عبد المنعم» المعدة للشئ على شاطئ دجلة.

عندما قال هذه الكلمات كان «وليد» والدكتور «مؤيد» موجودين. ولكي يستفزني ويحقّرني أخبرني بقصة أسماك عبد المنعم المعدة للشئ على شاطئ دجلة في بغداد.

الظاهر أنّ أكثر معدّي شئ السمك على شاطئ نهر دجلة، كانوا يمرّرون الصنارة من جانب رأس الأسماك ويربطونها في حائط شطّ دجلة. وتبقى هذه الأسماك حبيسة حائط دجلة، بين الموت والحياة، لا يمكنها العوم ولا تحريك فمها. ولا تتحرّر هذه الأسماك إلا حين يأتي مشترٍ يريد أكل السمك الطازج. فالعرب يحبّون تناول الأسماك الطازجة بدلاً من المتلّجة.

عندما سمعت هذه القصة فهمت مقصود «ماجد» من هذا الكلام.

الجمعة 22 حزيران 1990 . تكريت . المخيم الملحق

أثار خبر الزلزال الذي ضرب مدن «منجيل»، «رودبار» و«طارم»⁽¹⁾ قلق الجميع. وكان الأسرى من أبناء «كيلان» و«زنجان» أكثرنا قلقاً واضطراباً لعدم التمكن من الاطلاع على أخبار أهاليهم. فقال «بهزاد روشن»: يمكن للعراقيين أن يزيلوا قلق الإخوة من أبناء الشمال.

- وكيف يمكن للعراقيين أن يفعلوا ذلك؟

- يمكنهم بطريقة ما أن يحصلوا عن طريق الهلال الأحمر أسماء قتلى الزلزال وتسليمها لنا.

كنّا نواسي أبناء «كيلان» و«زنجان». ولست أنسى بكاء الإخوة من أبناء «منجيل»، و«رودبار»، و«طارم» في غروب تلك الجمعة الحزينة. كانوا يظنون أنّ أهاليهم قد قُتلوا في ذلك الزلزال. قبل الإحصاء اصطفّ بعض الشباب من منطقة الشمال أمام غرفة رئيس الحراس ليتبرّعوا بالدم. وقد رجوا العراقيين السماح لهم بالتبرّع بالدم لجرّحى الزلزال. حضر الملازم «حميد» إليهم وقال: لا تربطنا أية علاقة بإيران. إن تبرّعتم بالدم، لا يمكننا إرساله إلى إيران. الصورة الجميلة التي قدّمها الأسرى اليوم، هو حضور الأسرى الآخرين إلى جانب أسرى الشمال للتبرّع بالدم.

الأحد 23 حزيران 1990 . تكريت . المخيم الملحق

عند الغروب، أقام أسرى المخيم الملحق مجلس فاتحة عن أرواح ضحايا زلزال «منجيل»، و«رودبار». في الأيام اللاحقة، لم تجد

(1) الزلزال الذي ضرب مناطق كيلان وزنجان الشمالية.

محاولات شباب «كيلان» و«زنجان» للحصول على لائحة بأسماء قتلى الزلزال. كما واجهت مسألة التبرّع بالدم مشاكل.

وكان النقيب «خليل» قد سمح لأسرى الشّمال أن يقيموا احتفالاً تأبينياً لضحايا الزلزال في المعتقل رقم (17)؛ فأَمّ الأخوة هذا المعتقل، قرؤوا الفاتحة وأقاموا العزاء.

ومن العراقيين، جاء «سامي» والدكتور «مؤيد» للتعزية. وعندما ذكر «بهزاد روشن» في كلمته «ميرزا كوجك خان جنكلي»، توجّه الدكتور «مؤيد» مخاطباً شباب الشّمال قائلاً: لقد قرأت سيرة «الميرزا جنكلي» والسيد «جمال الدين أسد آبادي» في مقالات الكاتب المصري محمد حسنين هيكل، لِمَ تسمّونه أنتم الإيرانيون بميرزا كوجك جنكلي (كوجك = الصغير)؟

قال «بهزاد» للدكتور «مؤيد»: إسمه «ميرزا كوجك خان جنكلي». فقال الدكتور «مؤيد»: لا تقولوا «ميرزا كوجك (= ميرزا الصغير) خان جنكلي»، بل قولوا ميرزا بزرك (= الكبير) خان جنكلي، الميرزا كبير!

السبت 8 تمّوز 1990 - تكريت - المخيم الملحق

كانت مباريات كأس العالم في كرة القدم للعام 1990 قد بدأت في إيطاليا. واليوم، كانت المباراة النهائية.

خَفّف العراقيّون من التضييق علينا بسبب هذه المباريات، وقد عمل الإخوة من أجل تحقيق أهدافهم على إظهار المحبّة للاعبين الذين يشجّعهم الحراس.

كان الحراس المحبّون للكرة يتابعون المباريات بهوس وتعصب، وكلّ منهم كان يشجّع فريقًا ولاعبًا خاصًا، فسعد رئيس الحراس كان معجبًا بمارادونا الأرجنتيني، و«وليد» بأندياس بريمية، مدافع ألمانيا الغربية، و«حامد» بسكيلاتشي الإيطالي، الهدف الأفضل في مباريات كأس العالم. سلوان كان معجبًا «بسكوهرافي» التشيكوسلوفاكي، وكان «سامي» معجبًا بميشيل الإسباني، أمّا الدكتور «مؤيد» فلم يكن مبالًا إلى كرة القدم بتاتًا.

مع بداية مباريات كأس العالم، كان العراقيون يتحدثون لساعات حول المباراة الافتتاحية التي جرت بين فريق الأرجنتين بطل الكأس للدورة السابقة (1986)، وفريق الكامبيون المغمور. وكانوا مندهشين من فوز فريق الكامبيون على فريق الأرجنتين. قلت لحامد بطريقة غير مباشرة: - أساسًا، لا داعي للعجب، أن يأسر في الحرب الإيرانية العراقية تعبويّ شابّ عددًا من العقدااء العراقيين في شلمجة، وها هي الكامبيون الآن تفوز على الأرجنتين بطلة العالم للدورة السابقة!

في المباراة النهائية، كان «سعد» و«سلوان» يشجّعان الأرجنتين، و«وليد» و«حامد» يشجّعان الألمان. وقد هدّدنا «وليد» حينها، إذا خسر الألمان فسيموّض خسارته فينا، وكان يقول: «أدعوا الله أن يريح الألمان، وإلاّ فسأنتقم منكم...!»

أمّا «سعد» الذي كان يعاملنا بأدب من حين لآخر، ومطلّعًا على تهديدات «وليد»، فقد وعدنا أنّه إذا فاز فريق الأرجنتين بالبطولة، فإنّه سيسمح لنا بالاستحمام حمّا جيّدًا بالتمام والكمال، بعد شهرٍ من الحرمان.

كنت وبعض الإخوة المعتقلين نرّجح الاستحمام، ولكنّ الحظّ كان حليف وليد.

فاز الألمان ببطولة العالم لكرة القدم للمرّة الثالثة، فرح «وليد» و«حامد»، أمّا «سعد» و«سلوان» فتعكّر مزاجهما لعدّة أيّام.

الاثنين 9 تموز 1990 - تكريت - المخيم الملحق

بعد ظهر اليوم، كان العراقيّون يأكلون البطّيخ أمام غرفة رئيس الحراس، وكنت أنظر إليهم. كنت مشتاقاً جدّاً لأكل ولو قطعة واحدة، ومستعدّاً لأدفع شهرّيّتي البالغة (1.5) ديناراً ونصف الدينار إلى العراقيّين لقاء ذلك. أظنّ أنّه كان بإمكانني شراء ثلاث أو أربع بطيخات بها.

الثلاثاء 10 تموز 1990 - تكريت - المخيم الملحق

غادر النقيب «خليل» المسؤول عن المخيم المعتقل من دون وداع؛ كان صاحب نظم وانضباط خاصّ. فقد ترقّى قبل شهر، إلى رتبة رائد، ونُصّب مسؤولاً عن مخيم تكريت (13).

بعد الظهر، أبلغ «سعد» الأسرى قدوم النقيب «عبّاس» القائد الجديد لمخيم (16). كان النقيب عبّاس إنساناً مرناً، من أهالي الحلة، مفتول العضلات، أسمر اللون، وسيماً، أنيق الملبس، كثير التجارب، هادئ الخطى، لا يسرّح شعره البنيّ، بل يتركه دائماً منفوشاً.

عندما قيل إنّ «خليل» ترك المخيم، قال الحاجّ «حسين شكري» للحارس: بالنهاية، تركنا النقيب «خليل» بحسناته وسيّئاته، ليس هناك أسوأ من ليلة لا نهار بعدها، كان يمكنكم أن تتعاملوا بأفضل

من هذا مع الأسرى الإيرانيين ولكنكم لم تفعلوا. لو كنتُ مكان النقيب «خليل»، وأردتُ الخروج من هذا المخيم لتوجّهتُ إلى القبلة ساجداً ولقلتُ ثلاث مرّات: ربّ إنّي ظلمت نفسي فاغفر لي! ليلاً، أخبرنا «سامي» بموت والد الدكتور «مؤيد». فحزن الإخوة لذلك، فقد كانت للجميع ذكريات طيبة معه.

الأربعاء 11 تموز 1990 - تكرّيت - المخيم الملحق

اليوم، كان عيد الغدير. وقد قرأتُ للإخوة دعاء الندبة. وفي منتصف الدعاء علا صراخ «ماجد»، حارس المخيم، فتوقّفتُ عن القراءة. أخذ ماجد يتجمّع⁽¹⁾. كان غاضباً. أخذ دعاء الندبة من يدي، جمعه بيده ورماني به. قام الحاجّ «سعد الله» المؤسّس للمجلس من مكانه وقال:

- لقد قرأنا هذا الدعاء نفسه في عيد الفطر ولم تعترضوا. قال «ماجد»:

- الدعاء ممنوع!

لم يكونوا يعرفون متى قرأنا الدعاء في عيد الفطر السابق.

قال له الحاجّ: دعنا نكمل الدعاء!

- هيّا تفرّقوا بسرعة، «ناصر سليمان» تعالَ إلى غرفة رئيس الحراس! ذهبتُ إلى غرفة رئيس الحراس. أطفأ «حامد» السيجارة بحذائه، صفعني به 15 صفعةً على وجهي. حاول سلوان منعه. عندما سألته لماذا تصفعني بحذائك؟ قال محاولاً استثارة غضبي: لأنك مجوسّي لا أريد أن ألمسك بيدي!

(1) بمعنى يتكلم كلاماً غير مفهوم، بالعامية: «شروي غروي» أو طالع نازل.

تبعني الحاج «سعد الله». غضب جداً حين رأى «حامداً» يصفعني بالنعل البلاستيكي على وجهي. فقال «لحامد» والحراس الآخريين:
 - وماذا يتضمّن دعاء الندبة حتّى يثير غضبكم؟ دعاء الندبة يقول:
 أين هادم أبية الشرك والنفاق... أين مبيد أهل الفسوق والعصيان.
 أين طامس آثار الزيف والأهواء. أين قاطع حبال الكذب والافتراء. أين
 مبيد العتاة والمردة. أين مستأصل أهل العناد والتضليل والإلحاد. أين
 معزّ الأولياء ومذلّ الأعداء...
 هنا، علت أصوات الحراس بالشتائم، وراحوا يشتمون الحاج «سعد
 الله»، وقال حامد:

- أنت [بدعائك] تقصدنا والحكومة العراقية في كل ما قلته.
 اليوم، أقام الإخوة في المعتقل رقم (12) مجلس فاتحة عن روح
 والد الدكتور «مؤيد». وقد قرأ بعض الأسرى عدّة أجزاء من القرآن
 وأهدوها للفقيد تقديرًا لتعاطي ابنه الإنساني والأخلاقيّ معهم. قال
 «سامي» للعراقيين: إذا عاملنا الأسرى بالحسنى، فسوف يترحمون
 على والدنا إن ماتوا ويقرؤون لهم الفاتحة. وإن عاملناهم بالسوء،
 سيقولون إن مات أبائنا: لا رحمهم الله على هذا الخلف.

الثلاثاء 31 تموز 1990. تكريت. المخيم الملحق

اليوم، ترجم لي «حكيم خلفيان» صحيفة الثورة. وقد وردت في
 الصفحة الثانية من الصحيفة مقالة للكاتب العراقي «نزار الحديثي»
 حول الانقلاب داخل الحزب بقيادة أحمد حسن البكر وصدام حسين،
 والذي أدّى إلى تصفية الحسابات في مجلس شورى القيادة العراقية.

قبل واحد وعشرين عاماً، قام أحمد حسن البكر، بصفته رئيساً لمجلس قيادة الثورة ورئيساً للجمهورية، وصدّام كنائب له، بتشكيل الحكومة.

الخميس 2 آب 1990 . تكريت . المخيم الملحق

كان يومَ عاشوراء، سمعنا أصوات زغاريد العراقيين. لم أكن أعلم ما الخبر. أحببت أن أعرف سبب فرحتهم العارمة في يوم عاشوراء. استغللنا فرحة العراقيين هذه لإقامة مجالس اللطم في المعتقل. وعلى الرغم من أنهم هددوني إن قرأت العزاء، إلا أنني لم أكرث لهذا التهديد. من شدة ما كان العراقيون فرحين، تركونا وشأننا. أحسست أنّ شيئاً مهماً قد حصل جعل العراقيين لا يكثرثون لمجالس عاشوراء. ذهبت إلى «سامي» لأستعلم الخبر. فقال: اليوم قام الجيش العراقي باحتلال الكويت!

كان خبراً يدعو إلى العجب، من الصعب تصديقه. تعجّب الجميع حين انتشر الخبر. كان السؤال بالنسبة لنا، لِمَ الكويت؟ ولِمَ في يوم عاشوراء؟ فالكويت لم تقصّر في تقديم المساعدات إلى العراق؛ وما هذه المصيبة التي حلت بها؟! ففي ظاهر الأمر، لم يكن أمير الكويت يستحق ذلك. وخدماته لصدّام في حربه على إيران كانت تقتضي أن لا يقوم صدّام بالاعتداء على الكويت. قال الإخوة: ماذا سيفعل صدّام في هذا البلد الصغير! وعلى حدّ تعبير «رامين حضرت زاد»: يمكن احتلال هذا البلد الصغير بكاتيوشا صغيرة.

عند الغروب، ظهر «صدّام» على شاشة التلفاز، ووجّه خطاباً إلى الشعب العراقيّ قال فيه: «إنّ الجيش العراقيّ احتل الكويت بهجوم

استغرق ساعتين». وقد نُقِشت عبارة صدام هذه والتي وردت في العنوان العريض في صحيفة القادسيّة، في ذهني: «كانت الكويت في العهد العثمانيّ جزءاً من العراق، وينبغي أن تعود إليه». وقد أعلن صدام في حوار تلفزيوني رسمياً أن الكويت هي المحافظة العراقيّة التاسعة عشرة. قال الإخوة غامزين من قنّاة الحرّاس: أنتم كلّ مدّة تشنّون هجوماً على بلد ما، وتعلنون إحدى محافظاتكمحافظة تاسعة عشرة لبلدكم. يوماً محافظة خوزستان [في إيران]، واليوم الكويت التعيّسة الحظّ!

ففي بداية الحرب ضمّ العراقيّون محافظة خوزستان إلى خارطة بلدهم. وقد رأيت الخريطة التي طُبعت في كتب المرحلة الابتدائيّة في العراق، بعد أن أحضرها لي «علي جار الله». أرادوا الإيحاء إلى أطفال العراق أنّ خوزستان جزءاً من بلدهم.

ضمّ العراق الكويت باسم محافظة كاظمة ومحافظة تاسعة عشرة إلى خارطته الجغرافيّة. في الأيام اللاحقة تصدّر عنوان الكويت معظم عناوين الصحف العراقيّة وموضوعاتها. بيد أنّ صدام على الرّغم من المساعدات التي كان قد تلقّاها دون مقابل من الكويتيّين، كان حاقداً على أمراء الكويت. وكان يقول إنّ الديون العراقيّة لدولة الكويت قد فاقت الثلاثين مليار دولاراً، وعليها أن تتنازل عنها؛ ذلك أنّ العراق قد خاض حرباً مع إيران للدفاع عن مصالح العرب. وقد نُشر كلام صدام الذي وجّهه إلى قادة الدول العربيّة في صحيفة الثورة الناطقة باسم حزب البعث العراقيّ. حيث قال: إنّ الجيش العراقيّ حمى الأمراء والشيوخ الميّالين للترف والجبناء، وحفظهم على كراسيّ العرش. وقال في موضع آخر: لقد سالت دماء الشباب العراقيّ في الحرب مع

الإيرانيّين، الذين كانوا ينوون تصدير الثورة، على الأرض، لكي يأمن المشايخ العرب، لكنّا لم نلقَ شكراً أو تقديرًا على ذلك. فالمشايخ ذوو البطون المنتفخة، المتسلّطون وأصحاب المليارات، كانوا يمضون فصول الصيف على سواحل المتوسط وفي البلدان الأوروبيّة، ولا يفكّرون في التعويض عن تضحيات الشعب العراقيّ ...

وفي حوار صحفي قال صدام: لو أنّ حرس الخمينيّ وصلوا إلى الكويت، وقطر ودبي، لكان الأمراء رأوا عندها ماذا سيحلّ بهم، ولكن حرس الخمينيّ ابتلعوهم!

وقد أعلن صدام في الذكرى السنويّة للثورة العراقيّة في 16 تموز موقفه تجاه الكويت. كنت أودّ أن أعرف رأي الصحف العراقيّة. وقد ترجم لي حكيم خليفان بعض المقالات. ولا أعلم صدق أو كذب مقولة أنّ الكويت قد سرقت من خزّانات النفط في الرميّة في المناطق الحدوديّة، كميات كبيرة من نفط العراق، وصدرته إلى الخارج. وكانت السعوديّة والكويت قد أقرضت العراق 35 مليار دولاراً، على أن يتحمّل العراق وحده عبء الحرب وينجيهم من أيدي الإيرانيّين⁽¹⁾! كان صدام غاضباً من السعوديّة والكويت اللتين على حدّ تعبيره، تربحان الأموال الطائلة، وطلب منهما التنازل عن هذا الدين. لم تقبل الكويت بالتنازل عن الأموال التي قدّمتها للعراق كقرض. وكان العراق مضافاً إلى التنازل عن أموال القرض له، قد طالب الكويت بثلاثة عشر مليار دولاراً آخر لإعادة إعمار العراق. وكانت المشاحنات الكلاميّة

(1) هذه إشارة قوية إلى حجم الإشاعات التي بثّها الدول الغربيّة وأمريكا على وجه الخصوص، والتي مفادها أن إيران تريد السيطرة على العرب وإعادة أمجادها القديمة. (مركز نون).

بين القادة العراقيين والكويت، قد اشتدت قبل ذلك بفترة. ونشرت وسائل الاعلام العراقية خبر العراق الذي جرى بين عزت إبراهيم الدوري وأخ أمير الكويت في أحد اللقاءات، والذي تطوّر إلى رشق عزّة إبراهيم أخ الأمير بصحن فنجان الشاي. ونُقل عن عزّة إبراهيم أنّه قال في تلك الجلسة لأخ الأمير: «يا جناب أخ الأمير! لولانا، ولولا آلاف آلاف القتلى الذين قدّمناهم في الحرب على إيران، أين كنت وأخاك الآن؟! حتماً في جهنّم. ولما كان الإيرانيون قد أبقوا منكم باقية».

كانت المناكفات والجدالات بين القادة العراقيين وأمراء الكويت أخبار الساعة الساخنة. وعلى حدّ تعبير العراقيين، يبدو أنّ القادة العراقيين قد ضمّوا قبل 29 سنة الكويت إلى أراضيهم. حينها استنجد حاكم الكويت بالإنكليز، فهبّوا لمساعدته. لم أفكر يوماً أنّ هذه المناكفات والنزاعات ستودّي يوماً إلى احتلال الكويت، مع أنّه لم يكن يُستبعد أيّ أمر عن صدام.

الجمعة 3 آب 1990. تكريت. المخيم الملحق

تابعت اليوم أخبار الصحف العراقية. وقد عيّن صدام شخصاً يُدعى «حسين علي إلياس» كرئيس جديد لحكومة الكويت. كانت تلك المرّة الأولى التي أسمع فيها اسمه. والعراقيون أنفسهم لم يكونوا يعلمون من هو هذا الشخص الذي نصّبه صدام حاكماً على الكويت. علمنا فيما بعد أنّه حسين كامل المجيد⁽¹⁾ نفسه، صهر صدام. قتل

(1) كان حسين كامل المجيد صهر صدام وزوج ابنته رغد. وهو الذي أمر بقصف مدينة حلبجة بالأسلحة

العراقيّون أخ أمير الكويت فهد الأحمد الصباح شرّقتة، أمّا أمير الكويت فقد فرّ إلى السعودية ونجا بنفسه.

تركنا الحراس المغرورون والمنتشون من احتلال الكويت وشأننا. وقال الملازم «فاضل»: «لأنّنا احتلينا الكويت في يوم عاشوراء ولم تواجهنا أيّ مشكلة، هذا يعني أنّ الإمام الحسين قد حضر لنصرة الجيش العراقيّ!»

اليوم، اشتدّ النقاش مع العراقيين. كان الحراس والضباط يتكلمون بخيلاء عن احتلال الكويت. لم يتحمّل الإخوة البقاء ساكتين. كنّا حانقين على الكويت. كان «حسن بهشتي بور»، «وأصغر إسكندري»، و«مرتضى واحد بور» و«بهزاد روشن» يناقشون العراقيين أكثر من غيرهم. لم يتراجع الملازم «فاضل» والملازم «قحطان» أمام كلمات «بهشتي بور».

قال «بهشتي بور» غامزاً من قنّة الملازم «فاضل»: نحن نعرف سوابقكم المشرقة. ففي العام 1970م، في الحرب الداخلية في الأردن، دخلتم إلى الأردن بحجّة الدفاع عن الشعب الفلسطينيّ، واحتلتم جزءاً من تراب هذا الوطن، وكنتم إلى ما قبل الحرب المفروضة تتحاشون الخروج من تلك المنطقة. حينها، احتلتم قسماً من الأردن، وفي بداية

الكيميائية ممّا أدّى إلى مقتل خمسة آلاف شخص من الناس الأبرياء. وكان لصدّام ثلاثة أصهر، وكان هؤلاء إخوة. كان حسين كامل المجيد زوج ابنته رغد، وصدّام كامل المجيد زوج ابنته الثانية رنا، وحكيم كامل المجيد زوج ابنته الثالثة حلا. وقد فرّ صهره الأوّلان، حسين وصدّام إلى الأردن خوفاً من صدّام. فقام صدّام بخداعهما من خلال إرسال رسالة أمان لهما، وقد صدّقت البنّتان أنّ أباهما سيّديع زوجيهما وشأنهما. وما إن عادا إلى العراق، حتّى قام صدّام باعتقالهما، ومن ثمّ قتلتهما ورمل ابنتيه على الرّغم عهد الأمان الذي كان أعطاهما إيّاه. أمّا صهره الثالث حكيم الذي كان ممثلاً للأوامر ومطيعاً، فقد استسلم للقوّة الأميركيّة في حرب الخليج الثانية عند احتلال العراق.

الحرب احتلّتم خوزستان، والآن الكويت المسكينة، إنّنا لا نفهم ما تقومون به من أعمال!

كنت أعلم كم تأمرت الكويت علينا في حرب السنوات الثماني، وكم قدّمت من خدمات لصدّام. قلت للملازم «فاضل» الذي كان يحبّ أن يعرف رأيي بالنسبة إلى الموضوع:

- كنتم ناكرين للجميل، على الرغم من كلّ المساعدات التي قدّمتها الكويت لكم. ولكن كن واثقاً بأنّ دعواتنا نحن الإيرانيين على الكويت، هي التي أدلّتها، لا الجيش العراقي!

وقال «أصغر إسكندري» للملازم «قحطان»:

- في الحرب، تبدّلت الدولارات الكويتيّة إلى ذخائر وقنابل كيميائيّة، لتقطّع الكثير من الإيرانيين إرباً إرباً، «عِصِي رَبنا ما إلها صوت؟»⁽¹⁾

قال الدكتور «بهزاد روشن» لـ «حامد»:

- لقد توقّع قائدنا مثل هذا اليوم. بعدها قال غامزاً من قناة الملازم «فاضل»: أنتم مدينون للكويت بالكثير. كيف أمكن لطائركم أن تطير إلى الكويت وتقصّفها. ما كان ينبغي لطيّاريكم أن يخونوا الخبز والملح.

حدّق الملازم «فاضل» «ببهزاد». كان يعلم ما يقصد. فقد كان يشير إلى قصف الطائرات العراقيّة التي انطلقت من «قاعدة علي السالم» الجويّة، منصّات النفط الإيرانيّة في جزيرة «خارك». لقد نسي العراقيّون أنّ مقاتلاتهم انطلقت من القاعدة الكويتيّة لتقصّر

(1) مثل إيراني ويعني أن الله يُمهّل ولا يُهمّل (المترجم).

المسافة على الطيارين العراقيين والتي كانت تبلغ 200 كلم، وقصفت منصّات النفط في خارك. سرعان ما نسوا ودّ الكويت هذا. كان الضباط والحراس يفضلون السكوت أمام تعليقات الأسرى الإيرانيين، وأن لا يقولوا شيئاً حول احتلال الكويت. ليلاً، كان «عادل عقلة» المطرب المشهور والمقرّب من صدام يغني في وصف صدام ويقول ما مضمونه: صدام يا صدام، حفظك الله لنا. لا أزال الله شبابك...

السبت 4 آب 1990 - تكريت - المخيم الملحق

بعد الظهر، تجمّع الإخوة أمام مدخل المخيم، وراحوا ينظرون إلى الخارج. حيث يوجد عدّة مبانٍ وعنبر في القسم الجنوبي الشرقي للمخيم الملحق. وكان العراقيون قد أدخلوا أحد عنابر المخيم (15) المجاورة للمخيم الملحق.

قبل الظهر، أحضر عددٌ من الكويتيين. كانوا حوالي العشرين شخصاً. ظننت في البدء أنّهم أسرى إيرانيون. قال «سامي»: إنّهم كويتيون. كانوا يرتدون الجلابيب العربيّة البيضاء. فرّق الحراس الإخوة من أمام مدخل المخيم الملحق. وذلك كي لا نعرف أنّهم أسرى كويتيون. سألت «سامي»:

- ماذا يفعل الكويتيون في مخيم الأسرى الإيرانيين؟

- هؤلاء تصدّوا لنا أثناء هجومنا على الكويت!

كما أخذ العراقيون أيضاً بعض الأميركيين والبريطانيين المقيمين في الكويت كرهائن.

وأعلن صدام أنّ هؤلاء الرهائن سيُنقلون إلى المنشآت والمراكز الهامة العسكرية والمدنية، ليحول دون قصف الأميركيين والبريطانيين لها.

ليلاً انقبضت أحوال الحرّاس، فبعضهم ممّن كان يمضي آخر أيام خدمته، كانوا منزعجين. وكأنّهم ليسوا هم من كانوا بالأمس يزغردون ويقيمون الدبكة. فقد هدّدت الدول الغربية والأوروبية الداعمة للكويت، «نظام صدام». وقد أُلغيت مأذونيّات الجنود العراقيين. وتوجّب على من كان عليه الالتحاق بالخدمة العسكرية بعد سنوات، أن يسجّل اسمه في مديرية الخدمة العامة في العراق، ويلتحق بالخدمة العسكرية. وقد بثّ التلفزيون العراقي بياناً رسمياً صادراً عن قيادة الجيش العراقي جاء فيه:

يُمهّل الجنود العراقيّون الذين أنهوا فترة خدمتهم ولا زالوا يعيشون في العراق مدّة أسبوع، والذين أنهوا خدمتهم العسكرية ويعيشون خارج العراق، مدّة أسبوعين، ليسجّلوا أسماءهم لدى الوحدة الأخيرة التي عملوا فيها... وإنّ عصيان هذا الأمر يُعدّ خيانةً للشعب العراقيّ، وعواقبه وخيمة.

كانت لهجة البيان صارمة وتهديدية. لم يرق البيان للحرّاس العراقيين.

الأحد 5 آب 1990 - تكريت - المخيم الملحق

قبل احتلال الكويت، كان العراقيّون يقولون: إيران عدوّ العرب اللدود. وكان صدام في سنوات الحرب يشير في خطابه عواطف

العرب بقوله إنَّ إيران عدوّ العرب وأنَّ العراق يقاثلهم نيابةً عن الأمّة العربيّة!

وقد صدّقت الدول العربيّة واقعاً أنّ صدام يحارب تصدير الثورة الإيرانيّة نيابةً عن العرب. ولهذا، جهّز زعماء الدول العربيّة الرجعيّين «نظام صدام» البعثي بشكل تامّ من خلال إغداق الأموال والمساعدات. حرب ارتدّت عليهم فيما بعد، وأنزلت البلاء فوق رؤوسهم. وأقرّ الملازم «شفيق عاصم» قائلاً: لأنّنا قاتلناكم، عدّ الأميركيّون هجوم الطائرات العراقيّة الخاطئ على الفوّاصة الأميركيّة بمثابة صفة الأخ الأصغر للأخ الأكبر. وغالبًا ما كان الملازم «فاضل» و«جميل» قبل احتلال الكويت يتناقشان مع الإخوة ويقولون: أنتم الإيرانيّون أعداء العرب!

حينها قلت «لجميل»: أنتم الذين تقولون: إنَّ إيران عدوّ العرب؛ والآن باحتلالكم الكويت، من هو عدوّ العرب نحن أم أنتم؟! لم يُحرر «جميل» جوابًا. كنت أودّ أن أفرغ ما خزّنته في قلبي لسنوات. وقال الحاج «حسين شكري» للملازم «فاضل»: لقد أثبتنا من خلال دعمنا للشعب الفلسطيني أنّنا لسنا أعداء العرب..

الفصل الثاني عشر:

تكريت - المخيم 16

الاثنين 6 آب 1990 - تكريت - المخيم 16

قبل الظهر جمعنا أمتعتنا، وتوجّهنا إلى العنابر [في المخيم 16]. لقد خرجت اليوم من «المخيم الملحق» إلى الأبد. وفيما كنت أغادر المخيم، تمثّلت أمامي ذكرياته الحلوة والمرّة. وعلى الرغم من أنّي لاقيت أذىً كثيراً في هذا المخيم إلا أنّني كنت أشتاق إليه!

عندما دخلت العنبر رقم (2)، سألت «عليّ أكبر فيض» عن رفاقي «غلام رضا كريمي»، «عبّاس كلزار بور صادقي» و«رضا محمّدي». كنت في غاية الشوق إليهم. كان «رضا محمّدي» قد نُقل مع بعض الأصدقاء إلى مخيمات النهروان وبعقوبة، وعدد آخر نُقل إلى مخيم تكريت (19). كما جيء بمجموعة من أسرى المخيم (5) إلى العنبر رقم (2). وقد فقد العنبر رونقه السابق.

كنت أشعر بلذّة خاصّة إلى جنب «عليّ أكبر فيض»، و«حسن خورسند»، و«المهندس إبراهيم رستگار مقدّم». عندما دخلت العنبر، علمت أنّ رسائلتي التي أرسلتها خفيةً إلى «غلام رضا كريمي»، و«رضا محمّدي»، و«عليّ أكبر فيض»، لم تصل إليهم. قلت لعلّي أكبر: أولم يوصل الدكتور «مؤيد» رسائلتي إليك؟!

- لا لم يوصل لي شيئاً!
 - ألم يعطك كبسولة مضاد حيوي؟
 - بلى، أعطاني فأعطيتها للإخوة المرضى، فتناولوها.
 ضحكت، كان «علي» يعلم أنّ الإخوة يضعون الرسائل في كبسولات الدواء. لكنّه كان يظنّ أنّ الكبسولات التي كان يعطيها الدكتور «مؤيد» له ليست رسائل. فالدكتور «مؤيد» كان معاون الطبيب في مستشفى المستوصف المخيم. وفتح «علي أكبر» الكبسولات التي سلّمها إياه «علي جار الله» وقرأها لمعرفة أنّها رسائل. أمّا كبسولات الدكتور «مؤيد» فقد أعطاها للمرضى!

كان إيداع الرسائل في كبسولات المضادات الحيويّة من أفضل الطرق وأئمنها. فقد كنّا أولاً نفرغ الكبسولة من مسحوق الدواء الموجود داخلها، ومن ثمّ نقصّ الورقة الذهبية لعلبة السيجارة بنحو يمكن وضعها في الكبسولة. كنّا نكتب الأمر الذي كنّا نريده، نضعه في الكبسولة ومن ثمّ نغلقها. وكنّا نرسل الكبسولات إلى الإخوة عبر الدكتور «مؤيد»، «سامي» أو أيّ حارس تربطنا به علاقة جيّدة.

الثلاثاء 7 آب 1990. تكرّيت. المخيم 16

اليوم أجاز العراقيّون للأسرى الجرحى بالاستحمام. كنّا قد عانينا شحاً في المياه في فصل الصيف. خرجتُ برفقة الجرحى من العنبر ووقفنا في الصفّ. أحد الحراس الجدد، ولم أكن قد رأيته من قبل، توجّه إلينا نحن الذين نصغر الباقيين عمراً، قائلاً:

- أنتم أولاد، لم أتيم إلى الجبهة؟

تذكّرت كلام «حسن بهشتي بور» والمثال الأخير الذي ضربه.
فقلت للحارس الجديد:

- لقد ضرب أحد أصدقائي مثلاً، أظنّ أنّه يصلح جواباً لسؤالك.
وتابعت: عندما يُجرّح مكانٌ ما من جسد الإنسان، تهجم الميكروبات
من ذلك المحلّ إلى البدن، فالميكروبات تريد دوماً أن تميت البدن.
في هذه الأثناء، تسبح الكريّات البيضاء في الدم، وتكون بمثابة مطلقي
قذائف الآر. بي. جي، والقنّاصة في البدن. وتظهر الكريّات البيضاء
تضحية، فمن أجل الدفاع عن سلامة البدن يأكلون الميكروبات
ويعدمونهم. وقد أدّينا نحن في هجومكم على بلدنا دور الكريّات
البيضاء. أمل أن أكون قد وفّقت في بيان المقصود!

سكت الحارس ولم يدر ما يقول؛ ودائماً ما كان «حسن بهشتي بور»
يؤكد علينا أنّه إذا ما سألكم العراقيّون لِمَ أتيتم إلى الجبهة، أن نطرح
موضوع الكريّات البيضاء. كلام «بهشتي بور» هذا، ذكرني بمحمود
آقاسي ومزاح عناصر التخريب في عمليّات «كربلاء 5». وقد أستخدم
عبارات «محمود آقاسي» نفسها في «الميمونة» في مقرّ الفيلق الرابع
في الجيش العراقيّ. عندما تابع الحارس كلامه، وكان يُدعى «رافعا»،
قلت له:

- إنّ عدنان خير الله وزير دفاعكم، يعرفني والتعبويين أمثالي
جيداً!

وقد كرّرت على مسمعه عبارة «عدنان خير الله» الذي قال في جمع
من الجنود العراقيّين، بعد فكّ حصار عبادان: «لو كانت لدينا قوّة
كقوّة التعبئة الإيرانيّة لاحتللتنا العالم!» وقد سمعت عبارة عدنان

خير الله هذه مراراً وتكراراً من «محمد آقاسي» نائب مسؤول التخريب في لواء «الفتح 48» في كردستان، وذلك قبل أن أصبح عنصر تخريب في الكتائب القتالية في عمليات «النصر 4».

عصراً، وقبل أن يعلو صوت صفارة الإحصاء، رأيت «كريمًا» من خلف الأسلاك الشائكة للعنبر رقم (3). وما إن رأيته حتى تداعت إلى ذاكرتي صنوف ظلمه وخياناته. لقد أذلّ الله «كريمًا»، وانتهت صلاحيته بعد خدماته الجليلة للعراقيين. فقد شكاه الإخوة الذين ذاقوا الأمرين منه، السنة الماضية إلى أحد الضباط الكبار حين جاء لتفقد المخيم. احترم الضابط العراقي الذي كان نافذاً ومنطقياً، طلب الأسرى وأمر بتجريد «كريم» من مسؤوليته وإبعاده إلى مكان آخر. فنفذ النقيب «خليل» الأوامر العليا رغماً عن إرادته.

عصر اليوم، شاهدت ذلّه وسوء حاله. وعلى الرغم من الإهانات والخيانات التي لقيتها منه، رّق قلبي لحاله حين رأيته يمشي وحيداً في فناء العنبر خلف الأسلاك الشائكة. وقد أصبح وحيداً جداً ومنزويّاً، ناديته قائلاً:

- «كريم»! لقد سامحتك، ولكن تعال وتب من الأعمال السيئة التي اقترفتها، واطلب المسامحة من الإخوة الذين ظلمتهم!
خجل «كريم» من النظر إليّ، ولم يجبني. قال الإخوة في العنبر (3)
إنّ «كريمًا» ندم على أعماله السابقة⁽¹⁾.

(1) رأيته بعد سنوات، في شارع نادري في الأهواز. ناديته، فتوقّف. تعجّب من رؤيتي. كان منزعجاً من كونه قد وُضع على اللائحة الحمراء؛ لم يُسرّ لرؤيتي. عندما قلت له: كريم! كم علبة سجناء أشتري لك، انزعج وتركني دون أن يودّعني، ومن حينها لم أَره.

الثلاثاء 14 آب 1990 - تكريت - المخيم 16

الفرق بين السجين العادي وبين أسير الحرب هو أنّ السجين العادي يعلم حجم محكوميته ومدتها، أمّا أسير الحرب فلا. وعلى حدّ تعبير «غلام رضا كريمي»، إنّنا مثل مرضى السرطان، لا نعلم متى تحين نهاية موتنا.

كان العراقيّون قد أبلغونا أنّه في تمام التاسعة صباحاً سيعلن التلفزيون العراقيّ نبأ مهمّاً. لم أكرث. قلت للإخوة: إنّ خبرهم المهمّ حتماً سيكون احتلال السعودية بعد احتلال الكويت! اجتمع الإخوة أمام التلفاز. تسوّرت في مكاني حين سمعتُ الخبر. كنت أرى الحيرة في عيون الإخوة. حقيقةً، ظننت هذه المرّة أنّي كنت أحلم. فهناك حادثتان في حياتي لم أكن أصدّقهما. الأولى وقوعي في الأسر، والثانية هذا الخبر. قال «عبّاس بهنام» فيما كان يضحك ويذرف الدموع: سيّد! بالنهاية، تحرّرنّا! كنت أظنّ أنّنا سنقضي عدّة سنوات أخرى في ضيافة العراق. كان مذيع التلفزيون يقرأ رسالة⁽¹⁾ صدام التي وجهها للرئيس هاشمي رفسنجاني، وعندما قرأ البند الرابع من الرسالة، الذي يقضي بتبادل أسرى الحرب، ساد حال من الاضطراب

(1) البند الرابع من رسالة صدام حسين في 23 مرداد 1369 هـ. ش، المصادف في 23 محرّم من العام 1411 هـ. ق، والموافق لـ 14 آب 1990 م، يتوجّه إلى الشيخ هاشمي رفسنجاني رئيس جمهورية إيران حينها: «...المبادلة الفوريّة والشاملة لأسرى الحرب، لكل الأسرى الذين يمضون فترة أسره في إيران والعراق، وهذا يتمّ عن طريق الحدود الأرضيّة وعن طريق خانقين. قصر شيرين، والطرق الأخرى التي يتمّ التوافق عليها. وسنكون نحن المبادرين إلى هذا العمل العظيم، وسنبدأ بتنفيذ هذه المبادرة انطلاقاً من يوم الجمعة 17 آب 1990 م. الأخ علي أكبر هاشمي رفسنجاني، رئيس جمهورية إيران! من خلال هذا العزم، أصبح كلّ شيء واضحاً، وبهذا، يتحقّق كلّ ما طلبتموه، وكلّ ما أكّدت عليه، ولهم بيق من عمل أماننا سوى تبادل الوثائق...»

صفوف الإخوة. انفجروا بالبكاء، وقلّما كنت ترى شخصاً لا يبكي فرحاً. وكأنّها ولادة جديدة. كان ذلك من أكثر الأخبار السارّة التي سمعتها في حياتي. الخبر الذي طالما تمنّيت سماعه. كان بعض الحراس مسروراً. والبعض الآخر لم يكن كذلك. أدّى الإخوة صلاة الشكر. والعراقيّون أنفسهم كانوا مصدومين. فقد خضع نظام البعث العراقيّ لشروطنا المحقّة. وكان صدام في أيلول من العام 1980 قد كتب ملاحظة إلى دولة إيران، بأنّ بغداد لا تعترف باتّفاقيّة الجزائر للعام 1975م. وكان في 7 أيلول من العام 1980 قد مرّق في البرلمان العراقيّ، أمام النوّاب، والمراسلين، ووسائل الاعلام، وبكلّ تكبرٍ وغرور، نصّ اتّفاقيّة الجزائر للعام 1975م، حول الحدود وحسن الجوار، وقال: إنّهُ لا يعترف بهذه الاتّفاقيّة! أراد أن يسقط النظام الاسلاميّ، ليصبح هو شرطيّ المنطقة، وقائد العالم العربيّ بعد «جمال عبد الناصر». لقد سلبت قيادة الإمام الخمينيّ (ره)، ووحدة الشعب ووعيه، وحضوره في الأوان والوقت المناسب، في ساحات الدفاع المختلفة عن الوطن، ودماء الشهداء، وجهاد المجاهدين، وإيثار الجرحى وصبر الأسرى واستقامتهم، النوم من عيني صدام وأسياده، وأجبرته على قبول شروط إيران المحقّة.

آخر الليل، أراد عدد من الإخوة الانتقام من الجواسيس والمنافقين. كانوا يريدون قتل بعضهم. فقد كان جرم بعضهم كبيراً، ولم يتركوا مكاناً للرحمة والعفو. لكنّ وساطة بعض كبار المخيّم جعلت الإخوة يتراجعون.

الخميس 16 آب 1990 - تكريت - المخيم 16

لم يكن «عطية»، والذي لم يكن أيضاً إنساناً سوياً، مسروراً لمبادلة أسرى البلدين. فقد قال للإخوة: لا تفرحوا كثيراً، لا مكان للسرور ما لم تطأ أقدامكم تراب بلدكم؛ فمن الممكن لصدّام أن يتراجع في كلّ لحظة، وتبقون في العراق ضيوفاً على سياطنا! وعلى الرغم من أنّ عطية لم يستطع أن يتعامل معنا بقساوة كما في السابق، فإنّه لم يكن يستطيع إخفاء ما بداخله، وإنّ تجارته كانت ستكسد إذا ما تحرّرتنا؛ لذا قال:

- أنتم مفقودو الأثر، غير مشمولين برسالة صدّام هذه!

ولكي أثير غضبه قلت:

- إنني لم آتِ إلى هنا بنفسي لأذهب بنفسي، ف«من جاء بي يرَدني إلى وطني»! أنتم أتيتم بنا إلى هنا، وأنتم تردّوننا. انزعج من كلامي، ولكنّه تركني وشأني. وقال للسيد «محمد شفاعت «منش»: أُمسِرور أنت لأنك ذاهب إلى إيران؟ أجاب السيد «محمد»:

- نحن الثلاثين أو الأربعين ألف أسيرٍ إيرانيّ، مستعدّون للبقاء في العراق، حتّى نثبت حقّ ثلاثين أو أربعين مليون إيرانيّ في الحرب التي بدّأتموها علينا. ف«عطية» الذي كان يعلم سرعة بديهة السيد «محمد شفاعت»، قال بعد أن سبّه وشتّمه:

- هؤلاء هم معوّقونهم، فأية حيوانات هم أولئك السالمون منهم!

قلت «لعطية»: سيّدي! بالنهاية ذاب الثلج وبان المرج. نحن ذاهبون إلى إيران، ولكن بزادٍ من الذكريات المرّة! يا حبذا لو تركنا العراق بذكريات جيّدة، وذكرناكم بالحسنى دوماً.

اليوم، أمر الملازم «عبّاس» القائد الجديد للمخيّم، الحرّاس رسمياً بتنحية السياط جانباً. فلم يُعدّ مسموحاً للحرّاس باستعمال السياط والهرارات. لم يرد العراقيّون أن تظهر آثار السياط والهرارات على أجساد الأسرى الإيرانيّين حين يعودون إلى وطنهم، أو أن تركّز كاميرات المصوّرين على أبدانهم المزرقة.

بعد الظهر، جاء «سلوان» إلّيّ معتذراً. كان يوّد أن يعلم إن كنت سامحته من صميم القلب أم لا؟ قلت له: «سلوان»، إذا كنت مهتماً إلى هذا الحدّ بمعرفة، إذا ما سامحك أسير مثلي من صميم القلب أم لا، فلماذا لم تحسن معاملته؟!

كان «سلوان» يعاني عذاب الضمير. طلب المسامحة من الإخوة. وقد سامحته من صميم القلب، أمّا «وليد» فلا. مع أنّه ضربني مراراً، فإنّه ساعدني مرّات عدّة. خاصّة عندما أرقّت «الرخنة» على صورة صدام في الصفحة الأولى من الجريدة. حينها قال لـ«ماجد»: دعه وشأنه! قال «ماجد»، بتبجّع وغرور، لـ«محمد كاظم بابايي» الذي كان واقفاً إلى جانبي: لقد آذيتك، لم تكن باليد حيلة. نحن هنا نوّدي عملنا. أجابه «محمد كاظم بابايي»:

- سيّدي! لا عليك. فلسعة العقرب ليست من باب العداوة بل هي مقتضى طبيعتها.

عندما كنت أذكر تصرّفات «عطية» كانت تأخذني الضحكة. كثيراً ما حدث وناداني عطية قائلاً: ها «ناصر سليمان»، أنا غاضب منك كثيراً، أنت حرس الخمينيّي! كنت أقول: والآن ماذا تريد مني؟ كان يدني حذاءه العسكريّ من فمي ويقول: عضّ حذائي!

كان في الفترات السابقة، عندما كنت أصدق فيه كثيرًا، يقول: ماذا؟ فأقول: لا شيء، أنت بالنسبة إليّ عسل لا يمكن أكله! كان «عطية» مشوّش الفكر. وقد عانى الإخوة الأمرين بسبب حَوْلٍ في عينيه. وقد عانينا منه مراراً. كان ينادي أسيرًا وينظر إلى شخص آخر! لهذا، ولأنّ عطية كان لا ينظر إلى الشخص المطلوب حين مناداته، غالباً ما كان يحضر الشخص الآخر الذي ينظر إليه، وكان «عطية» ينزل البلاء فوق رأس الأسير المسكين. كان يضربه ويقول: - أنا لم أناديك! أو كان على العكس، يضرب الشخص الذي ناداه قائلاً له: «قشمار»⁽¹⁾ لماذا لم تأت حين ناديتك؟

السبت 18 آب 1990 . تكريت . المخيم 16

اليوم، الذكرى السنوية لفاجعة «ده بزرک»⁽²⁾. بالأمس، عادت مجموعة من الأسرى إلى إيران. كان يوم 27 مرداد (18 آب) من كلّ سنة يوماً مرّاً بالنسبة إليّ.

فقبل عشر سنوات وقعت فاجعة «ده بزرک». الفاجعة التي هدّت حيلي. وفي مثل هذا اليوم من كلّ عام كانت تلك الفاجعة تعذبني. وكأنّه قُضي لي في هذا العام، أن لا أفكر اليوم بهذه الفاجعة كثيراً. وقد شاهدتُ لطفَ الله في هذا اليوم. وشاء الله أن يسرّني هذا العام من خلال الرسالة التي أرسلها صدام والإعلان الرسمي عن إطلاق سراح أسرى الحرب، لتصبح الأيام الأخيرة من شهر مرداد (آب)

(1) أي: الأحمق.

(2) «ده بزرک» قرية الأسير ومسقط رأسه.

أفضل أيام حياتي بعد أن كانت أسوأها. لقد أراد الله قبل يوم من الذكرى السنوية لهذه الحادثة الأليمة أن يسرّني بإطلاق سراح أول مجموعة من الأسرى الإيرانيين وعودتهم إلى إيران، حتّى لا أفكّر بهذا اليوم، أو أقلّ من التفكير فيه. وقد أحسست بهذا اللطف الإلهي، بكلّ وجودي. ومن شدّة فرحي حاولت أن لا أفكّر بفاجعة «ده بزرگ»⁽¹⁾. كنت مسروراً لكوني سأتخلّص من سجن تكريت وشرّ «وليد».

الاثنين 20 آب 1990 - تكريت - المخيم 16

دخل الملازم «عبّاس» المسؤول عن المخيم مع ضابط قسم التوجيه السياسيّ. طلب من الأسرى التجمّع في فناء المخيم. وما إن تجمّع الأسرى حتّى بدأ بإلقاء خطابه. كان حديثه مدروساً. لم أكن أعلم لم يقول هذه الكلمات. وقد طلب المسؤول عن المخيم من الأسرى أن لا يتكلّموا بشيء ممّا حدث معهم في معسكرات الاعتقال العراقية. وقال: لا تجرّعوا عائلاتكم المرارة من خلال الكلام عن ذكريات الأسر. وبدل أن تخبروا أهليكم وأصدقاءكم بما جرى معكم في الأسر، تزوّجوا، فكّروا في بناء حياتكم. افرحوا، فسي النهاية ما مضى قد مضى. عليكم أن تنسوا الماضي وتودّعوه في مطاوي التاريخ. فذكريات الحرب حلوها مرّ. وذكريات الحرب مرّة، وتجعل الحياة مريّة!

ختم الملازم عباس حديثه بهذه الكلمات: ادفنوا ذكرياتكم المريّة عن فترة الاعتقال هنا، وارجعوا إلى أوطانكم! كان هذا الأمر أصعب عليّ من البقية. لا زلت إلى الآن أسجّل حوادث

(1) الأنفجار الذي أودى بحياة والدته وعدد من أفراد عائلته (القصة كاملة في الملحق رقم 681).

ذكريات الأسر ورموزها التي لا تُنسى. وقد عازمت في حال تحرري على كتابة ذكرياتي، لتبقى. ثم أكمل ضابط قسم التوجيه السياسي قائلاً: نحن إخوة، وقد فرض الأميركيون هذه الحرب علينا فرضاً. وقد دفعنا أثماناً باهظة!

الثلاثاء 21 آب 1990 - تكريت - المخيم 16

أدى كاريكاتور أحد الأسرى، على الرغم من أوامر الملازم عباس للعراقيين القاضية بعدم استخدام السياط، وذلك بعد الرسالة التي أرسلها صدام إلى الشيخ هاشمي رفسنجاني، واعترف فيها رسمياً باتفاقية الجزائر للعام 1975م، إلى استعمال العنف والسيط مجدداً في العنبر. قال «علي سعادتني»: إنَّ الكاريكاتور هو من أفعال «مسعود شفاعت»، وقد رُسم على ورق كيس أسمنت، ممَّا أثار غضب الحراس. وكان من حقهم أن يفضبوا.

في الجهة اليسرى من الكاريكاتور، رُسم صورة لصدام مستنداً إلى مدفعية بعيدة المدى وخلفه الرئيسان الأميركي والسوفييتي، ورؤساء بعض الدول العربية، كالملك فهد وحسني مبارك والملك حسين (ملك الأردن)، وهو يمزق نصَّ إتفاقية الجزائر للعام 1975م. وقد كُتب تحت رسم صدام: العام 1980، لا أقبل باتفاقية الجزائر للعام 1975م. سوف أسترجع خوزستان وشط العرب من إيران في ظرف ثلاثة أيام. في الجهة اليمنى، رُسم كاريكاتور للشيخ هاشمي رفسنجاني وهو متكىء إلى كنبه، وماداً يده إلى الإمام، فيما صدام يقبل يده، ويحمل نصَّ إتفاقية الجزائر باليد الأخرى. وقد كُتب أسفل هذا الكاريكاتور:

1990، بعد 10 سنوات. سيّد رفسنجاني! سامحني، لقد ارتكبت خطأ في العام 1980، ارتكبت حماقة، كنت مغروراً وجاهلاً، حيث مرّقت هذه الاتفاقية. لقد خدعني ريغن. والاتفاقية كانت جيدة جداً، أقبل بها، وهي تعجبني، وها إنني أوقعها من جديد، وأقدمها لكم مع تقبيل الأيدي!

لا أعلم مَنْ من الجواسيس والخونة قد أوصل خبر الكاريكاتور إلى العراقيين. جاء العراقيون إلى «مسعود»، فتشوا أمتعته الشخصية، فوجدوا الكاريكاتور بين طيات بطانيته. طلب «سعد» من المترجم أن يترجم عبارات الكاريكاتور بحذافيرها ومن دون زيادة ولا نقصان. فترجم «فاضل» العبارات السفلية للكاريكاتور وهو يرتجف خوفاً. اشتعل العراقيون غيظاً، وغضب «سعد» غضباً شديداً فانهاه على «مسعود» ضرباً بالسياط.

كان ضرب «مسعود شفاعت» وشتهم له الذكرى الأخيرة لي عن سياط العراقيين وضربهم.

السبت 25 آب 1990 - تكريت - المخيم 16

كان «حكيم خلفيان» بالقرب من مدخل العنبر ويترجم صحيفة القادسية للإخوة. وكان احتلال الكويت هو الخبر الساخن للصحف العراقية. كنت أحب أن أعلم ماذا يجري في الكويت منذ الثاني من آب للعام 1990م، عندما احتلها العراقيون. طلبت من «حكيم» أن يترجم لي مقالة الدكتور «عبد الرحمن عبد الكريم العاني» رئيس جامعة الأنبار في الرمادي. فكثيراً ما كتب مقالات أثنت فيها على صدام

وأفكاره التوسّعية. وقد نشرت الصحف العراقية اليوم، أخباراً عن إطلاق أسماء جديدة على بعض الأماكن في الكويت، وفي الحقيقة تغيير أسمائها. وعلى ما أذكر، استبدل اسم بندر الشيوخ ببندر الرشيد، ومسجد الدولة باسم مسجد صدام، وثانوية عبد الله السالم بثانوية صدام. وقد ذكرني هذا التغيير، بتغيير اسم خرمشهر في فترة الحرب المفروضة إلى المحمرة، وسوسنكرد إلى الخفائية، والأهواز إلى الناصرية.

الاثنين 27 آب 1990 - تكريت - المخيم 16

قبل الظهر جُمع الجرحى في فناء المخيم. قال الحرّاس: لقد تقرّر الإفراج عن المعوقين قبل الآخرين. كنت مسروراً. ودّعت رفاقي. قبل أن استقلّ الحافلة، حدّقت للمرّة الأخيرة في فناء المخيم. تمثّلت أمامي جميع ذكرياتي. وعلى الرغم من المعاناة الكثيرة التي عانيتّها، كان لديّ تعلق خاصّ بالمخيم (16) والمخيم الملحّق. انقبضت أحوالي. فقد اعتدت على بابه وجدرانه وأرضه الترابية. كنت أعلم أنّي إذا ما انفصلتُ عن الأسرى، فلن أرى الكثير منهم ثانيةً. أراد العراقيون أن يفصلوا الأسرى الجرحى عن الأسرى الأصحاء، حتّى لا تتمّ مساءلتهم من قبل الرأي العامّ. لم يكونوا يريدون لوسائل الاعلام العالمية أن تعرض صور الأسرى المقطوعي الأطراف (المعوقين) في مخيمات تكريت السريّة إلى جانب الأسرى الأصحاء.

كنتُ قد خبأتُ أسماء أكثر من 400 أسير في ماسورة عصاي. والأسرى الذين عزمْتُ على تسليم أسمائهم ومواصفاتهم إلى الهلال

الأحمر في حال تحرّري، تمّ إطلاق سراحهم قبلي.
 طلب عددٌ من الحُرّاس المسامحة من الإخوة. وقد ودّعنا «سامي»
 و«علي جار الله» والدكتور «مؤيد» بالدموع. وقد قدّمتُ إحدى أفضل
 مطرّزاتي للدكتور «مؤيد» كذكرى. من بين الحُرّاس، كان «وليد»
 الحارس الوحيد الذي لم يسعَ إلى انتزاع الغلّ من قلبي بسبب كل
 الأذى الذي سبّبه لي، ولم يشأَ ذلك على الإطلاق. عبرت الحافلة بؤابة
 قاعدة صلاح الدين. وفيما كنت أخرج من تكريت، حملتني ذاكرتي إلى
 ما قبل سنتين خلتا، حيث كانوا ينقلوننا إلى المخيم سالكين الطريق
 نفسه. في جنوب تكريت، انهمرت دموعي لرؤية قبة مقام الإمامين
 عليّ الهادي والحسن العسكري عليه السلام.

الفصل الثالث عشر:

الرمادي - مستشفى 17 تمّوز

الاثنين 27 آب 1990. الرمادي - مستشفى 17 تمّوز

عند الغروب دخلت الحافلة التي تقلّ الجرحى «مستشفى 17 تمّوز». وتقع هذه المستشفى في «الحيّاتية»، إحدى «ضواحي الرمادي» مركز «محافظة الأنبار» العراقية. حين سمعت اسم الأنبار تذكّرت «حامداً»، اللواء «صلاح القاضي»، والحاجّ «سعد الله» والخطبة (27) من نهج البلاغة للإمام علي عليه السلام. نُقلنا إلى قاعة كبيرة في ركن من أركان المستشفى. حين دخلت القاعة وجدت عدداً من الأسرى الجرحى والمعوّقين الذين جاءوا بهم من مخيمات تكريت الأخرى.

كنّا جائعين وظمأى. لم تكن معاملة حراس المستشفى سيئة. كان يوجد تلفاز في المركز الصحيّ. بقي الإخوة مستيقظين إلى وقت متأخّر من الليل. آخر الليل، أعدّ «جعفر دولتي مقدّم» نصّ خطابه. وكان يقول: عندما يُطلق سراحى، سوف ألقى خطاباً في أبناء مدينتي قبل خطبتي صلاة الجمعة في «زابل»!

وقال جعفر الذي كان يتحلّى بالروح الثوريّة واللفظ. سأخبر أهالي زابل ماذا حدث في شلمجة... سأخبرهم أنّ روح «قاسم مير حسيني»

من أبناء زاهدان راضية، سأقول لهم: «إن إيران من دون الخميني هي كسجن بالنسبة لنا. ليت الإمام كان حياً حين عودتنا!» صممت حينما يطلق سراحي أن أذهب إلى أحد مساجد المدينة، وأخبر الناس بما جرى لنا في مخيمات العراق السريّة.

الأربعاء 29 آب 1990. الرمادي. مستشفى 17 تمّوز

صباح اليوم دخل ضابط عراقيّ برتبة ملازم المركز الصحيّ، وبعد أن أخذ المعطيات الشخصية لكل منّا، قال: اليوم وغداً سيأتي الصليب الأحمر إلى هنا، ليس مسموحاً لكم أن تقولوا أننا كنا نعيش في تكريت مع الأسرى الأصحاء. قلت:

- وأين نقول أننا كنا نعيش؟

- قولوا أنكم كنتم تعيشون في هذه المستشفى!

قال «محمد كاظم بابايي»: سيدي! إن حبل الكذب قصير!

الخميس 30 آب 1990. الرمادي. مستشفى 17 تمّوز

نُقل اليوم عدد من الجنود العراقيين الذين جرحوا في حربهم على الكويت، إلى مستشفى 17 تمّوز! كان حارس قسمنا ويدعى «شعبان» يقول: «لقد جرح هؤلاء في منطقة الجابرية في الكويت». عصرًا شاهدت الخارطة الجديدة للكويت التي ضُمت إلى العراق كمحافظة جديدة، في صحيفة الثورة. في هذه الخارطة كانت الكويت المحافظة التاسعة عشرة للعراق، أمّا الأقسام الشماليّة للكويت والتي تشمل «وربة» و«بوبيان»، فقد ألحقت بمحافظة البصرة.

قلت لـ«شعبان» حارس القسم: «الظاهر أن الشباب الكويتي

ما إن رأوا هذه الخارطة، حتى شكّلوا مجموعات مقاومة وقاموا بمحاربتهم».

كنا نعدّ اللحظات حتّى نتحرّر. كانت الساعات والأيام تمضي ببطء. لم يكن هناك أصعب من الأيام التي أخبرنا فيها عن قرب موعد تحرّرنّا. كان العراقيّون يتردّدون في تحريرنا بين اليوم والغد. كان يُطلق يوميّاً حوالى الألف أسير من البلدين. قبل الظهر، جاء أحد الأسرى العراقيّين الذين أطلق سراحهم قبل حوالي 12 يومًا من إيران، إلى المستشفى. كان يجيد الفارسيّة، لكنّه يواجه صعوبة في التلفّظ ببعض الكلمات. وكان يُدعى «أمجد». كان «أمجد» متوسّط القامة، أسمر البشرة. وقد ظهر على محيّا أنّه كان يمضي أوقاتاً جيّدة في إيران. كان يرتدي بزّة رسميّة كحليّة اللون، كان الإيرانيّون قد أعطوه إيّاها حين تبادل الأسرى. في الليل كُنّا نشاهد عمليّات تبادل أسرى البلدين على شاشة التلفزيون العراقيّ. فكان الأسرى العراقيّون يرتدون بدلة رسميّة وقميصاً شيكاً، فيما كان الأسرى الإيرانيّون يرتدون ملابس عسكريّة قصيرة الأكمام، قد أكلها الغبار جرّاء خزنها في المخازن!

يبدو أنّ «أمجد» كان يعمل في هذه المستشفى قبل الأسر، وقد أتى ليتفقّد محلّ عمله السابق. وما إن دخل المستشفى حتّى قال له زملاؤه: يوجد عدد من الأسرى الإيرانيّين المعوّقين هنا!

جاء إلينا. عندما أخبرنا أنّه كان أسيراً في إيران، استشمت رائحة إيران. قال «أمجد»: حين علمت أنّ عدداً من الأسرى الإيرانيّين هنا، قلت في نفسي: «آتي إليكم وأطلعكم على أخبار إيران». وقبل

أن يحدّثنا عن إيران، حدّثنا عن «مستشفى 17 تمّوز». كأن عدداً من رفاقه القدامى، الذين عمل معهم منذ أيلول من العام 1980م، قد قُتلوا. وبعضهم تقاعد، والبعض الآخر تمّ نقله إلى مستشفيات ومراكز صحيّة أخرى تابعة للجيش، أمّا الباقون منهم في هذه المستشفى فلم يتجاوز عددهم أصابع اليد. كان كلّ واحد يسأله سؤالاً، فكلّ منّا كان متعطّشاً لسماع أخبار إيران.

وقع «أمجد» في الأسر أثناء عمليّات تحرير خرّمشهر. وكان حينها يخدم في المركز الصحيّ للواء الثالث المدرّع. وقد أخبرنا أنّ عدداً من العاملين في «مستشفى 17 تمّوز» قد أرسلوا في بداية الحرب إلى الخطوط الإماميّة، فيما أرسل هو إلى «الواء المدرّع 44». كان يظهر محبّة للإمام الخميني ولقائد الثورة الإمام الخامنّي. أحبّ الحاج «حسين شكري» والسيد «محمد شفاعت» أن يتحدّث أكثر عن إيران. فقد كان يعرف أسماء معظم المسؤولين الإيرانيين. وكان يعرف مراسلاً يُدعى السيد «سرهنكي»⁽¹⁾، لكنّه لا يعرف الاسم الأوّل له. والظاهر أنّ هذا المراسل قد ذهب ومجموعة من زملائه إلى مخيمهم.

وقال: إنّ العراقيين (الأسرى) قد أطلعوا هذا المراسل على كلّ

شيء!

نظر حوله. ولمّا لم ير العراقيين، قال: إنّنا ظلمناكم كثيراً أنتم الإيرانيين في خرّمشهر. وقد اعترف أسرانا في المخيم لمراسلكم

(1) لم أكن حينها أعرف هذا المراسل. بعد أن تحرّرت علمت أنّ مقصود الأسير العراقيّ كان «مرتضى سرهنكي». وهو الآن مدير مكتب أدب وهنّ المقاومة، وقد ألف كتباً حول الدفاع المقدّس، من بينها «أجزاء ممّا حدث»، الذكريات الطريفة للأسرى العراقيين وهي تستحق القراءة وأخذ العبرة منها. وعلى الرغم من ذكرياتي الكثيرة عن العراقيين، فإنّ هذه الكتب كانت بالنسبة لي جميلة وممتعة.

بالكثير من جرائم الحرب التي ارتكبتها العراقيّون في خرّمشهر والهوية وسوسنكرد.

قال «أمجد»: كنت أعمل في القسم الصحيّ. فحوّصرت ووقعت بعدها في الأسر. حمداً لله أنّني لم أشارك في جرائم العراقيّين. ولم أقل شيئاً في المخيمّ، لكنّ أصدقائي قالوا كلّ شيء من دون خوف. وتابع: «بعد أن أطلق سراحنا بعدة أيّام. كشف البعثيون الأشخاص الذين تكلموا، وقد حوّل الذين تكلموا إلى المراسل إلى قسم الاستخبارات... في الأيّام التي كنّا فيها في المستشفى، هدّدنا ضابط الأمن والمعلومات أن لا نخبر أحداً الآن بإطلاق سراحهم». سألت: ما سيفعل بهم؟

قال: الله أعلم! وتابع: قال ضابط المخابرات، إن جاء أهاليهم إليكم وسألوكم عنهم، تظاهروا أنّكم لا تعلمون شيئاً! بعدها سمعت أنّ صدام قال: إنّ له حساب مع الأسرى العراقيّين الذين أجروا مقابلات مع المراسلين، وأراقوا ماء وجه العراق أمام الإيرانيّين المجوس! قلت: أولم يندموا لكونهم قالوا الحقيقة للمراسل الإيرانيّ؛ أولم يقولوا ليتنا لم نقل شيئاً، لكنّا ذهبنا الآن إلى بيوتنا ولما علّقنا في أيدي المخابرات؟!

سكت برهةً وأطلق تهيدة من أعماق القلب وقال: لقد اتّضحت لنا في هذه السنوات التي قضيناها في إيران أمور كثيرة. لم يندم أسرانا على قولهم الحقيقة في إيران، فقد يُقتل الإنسان بسبب قوله الحقيقة، أو يُسجن، أو يُضرب، هكذا تجري الأمور في العراق، وكثيراً ما حدث مثل هذا الأمر في تاريخ العراق!

كأنني كنت أتحدث إلى أسير إيراني. لقد استحلفنا بالله، أن لا نخبر أحداً بما قاله لنا، في هذه الأيام المتبقية لنا في العراق، وخاصة طاقم المستشفى، الذي كان بعضهم من زملائه. كان «أمجد» يعتبر الإيرانيين أناساً صادقين وحافظين للسّر. وقد وثق بنا. قال «أمجد»: أقول لكم هذه الكلمات؛ لأنكم إيرانيون. لو كنتم عراقيين لم وثقت بكم!

وكما قال، الظاهر أنّ جهاز الاستخبارات كان يفتش في المستشفى عن الأسرى الذين كانوا قد أطلقوا شعارات ضدّ صدام في المظاهرات الشاملة للأسرى العراقيين في شوارع طهران في العام 1983م. وقد تعرّف العراقيون حينها من خلال الفيلم المصوّر عن التظاهرات، على بعض الأسرى العراقيين وأخذوهم إلى مقرّ جهاز الاستخبارات. وقال «أمجد»: عندما دخلنا العراق، قال الضباط العراقيون: لقد أهرق البعض منكم ماء وجه العراق والرئيس القائد. وقد فتّش البعثيون أيضاً عن الأسرى العراقيين الذين شاركوا في تلك السنوات في صلاة جمعة طهران.

وفيما كان يتكلّم لم يستطع تمالك نفسه عن البكاء. وعندما سألته عن وضع الأسرى العراقيين في إيران، قال: أستشّم فيكم رائحة إيران، لقد اشتقت إلى إيران. الآن وأنا في العراق، أعرف قيمة إيران أكثر!

الاثنين 3 أيلول 1990. الرمادي. مستشفى 17 تمّوز

قبل الظهر، أحضروا عدداً من جرحى مخيّمات تكريت الأخرى. وقد وقع نظري على «لطيف دهقان». فسُرّرتُ جداً. ذهبت إليه،

احتضنته، وقبّلته عوضاً عن السنتين اللتين لم أره فيهما. لم أصدّق أنّي سأراه. لم أنس نصائحته الشفوقة في مستشفى الرشيد في بغداد. وقد ترجم لطيف لي كلاماً لصدّام: (نحن مستعدّون للحرب مع إيران، العراق مستعدّ لخوض كلّ أنواع الحروب من أجل الدفاع عن حاكميّته وشرفه).

كانت هذه الجملة العنوان الرئيسيّ لصحيفة القادسيّة. العدد العائد منها إلى سنوات خلت. وقد وضعه العراقيّون على زجاج النافذة منعاً لدخول نور الشمس. وقد دوّنت عبارة صدّام تلك، العائدة إلى شهر نيسان من العام 1980م. تذكّرت عبارة كانت قد كُتبت على جدار قاعدة في «الميمونة»، تابعة للفيلق العراقيّ الرابع: (من يقاتل من أجل شرفه يستحقّ المجد والعظمة).

عندما ترجم لطيف هذه العبارة بالفارسيّة، قلتُ:

- لطيف، إنّنا في طريقنا إلى التحرّر، قل لهؤلاء العراقيّين: من اعتدى على شرفكم وحاكميّتكم حتى يقول صدّام هذا الكلام؟!
- سيّد، لا تكن فضولياً ومغامراً مثلما كنت في مستشفى «الرشيد»، بالله عليك، دعك من هذا الأمر. لا تُحدث أيّة مشكلة في هذه الأيام المتبقّيّة لنا لننال حرّيتنا. دعنا نتحرّر، ونتخلّص من شرّهم!

من بين حرّاس المستشفى، أصبح «أنور علاوي» رفيقاً لنا. أحبّ أن يزور إيران. وقد دوّن عناوين اثنين أو ثلاثة منّا. كان من أهالي الكوت. وكان يقول: ابن عمّي طيّار، وقد قصف مراراً مدينتي الأهواز ودزفول، وأن ابن عمّة فقد زوجته وابنه في حادثة سير مروّعة. وكان ذلك في العام 1986م. وقال إنّ ابن عمّه سمير كان يقول بعد تلك

الحادثة: إنّ هذه الحادثة هي انتقام الله، وقد أقرّ أنّه أراق دماء الكثير من الخوزستانيّين المدنيّين والأبرياء.

ليلاً، تجمّعنا أمام التلفاز، وشاهدنا بثّ التلفزيون العراقيّ لعملية تبادل أسرى البلدين. وكان العراقيّون يستخدمون تلفزيون المركز الصحيّ الخاصّ بنا، تماماً كما كان يفعل في المخيمّ الملحق. عندما عرض التلفزيون صوراً للأسرى العراقيّين، لم يبدُ السرور على العراقيّين. لم يستطيعوا إخفاء مكنونات قلوبهم عنّا. قال أحدهم:

- لقد جعل الإيرانيّون من الأسرى العراقيّين البلطجيّة رجال دين! ولقد عبّر صدام عن الأسرى العراقيّين كقنابل نوويّة. كان الأسرى العراقيّون جميعاً يرتدون القمصان البيضاء ذات الياقة المرتفعة (الخاصّة برجال الدين)، وبعضهم كان يفلق الزرّ الأخير (الملاصق للرقبة) من قميصه. انزعج الحراس العراقيّون من طرز لباسهم هذا. كانوا يعلمون أنّ الإيرانيّين قد اعتنوا جيّداً بالأسرى العراقيّين ولم يقصّروا في حقّهم أبداً.

قلت لأحد الحراس: حمداً لله أنّنا كنّا على هذا القدر من الحقّ، بحيث تمكّنا من تغيير آراء أسراكم، ولكنكم و«منظمة مجاهدي خلق» لم تستطيعوا أن تغيّروا آراءنا.

وقال محمد كاظم: يكفي أنّا أثبتنا لأسراكم أنّنا مسلمون، ولسنا من آكلي لحوم البشر، وأنّ ليس لحرس الثورة الايرانيّة قرون، وهذا كثير بالنسبة لنا!

الفصل الرابع عشر:

الرمادي - المخيم 13

السبت 8 أيلول 1990 - الرمادي - المخيم 13

بعد ظهر اليوم، نُقلنا إلى مخيم الرمادي (13). وكان قد أُطلق سراح الأسرى الموجودين فيه قبل أسبوع أو أسبوعين، وأصبح خاليًا. مضى 22 يومًا على عملية تبادل الأسرى. وكان يتم الافراج يوميًا عن حوالي ألف أسير حرب من البلدين. ضقنا ذرعًا. كنّا نعدّ اللحظات لاستنشاق نسيم الحرية. فقبل ثلاثة عشر يومًا، حين نُقلنا من مخيم تكريت، قيل لنا أنّه سيتم الافراج عنّا في اليوم التالي. كانت الأيام تمرّ ثقيلة وبطيئة، وأشدّ صعوبة من أيام الأسر.

بعد الظهر، علمنا أنّ مفتشي الصليب الأحمر العالمي سيأتون لتسجيل أسمائنا. وما الفائدة من تسجيل أسمائنا لدى الصليب الأحمر وما هي إلاّ أيام ونكون قد تحرّرنا. كان «مفقودو الأثر» في تكريت محرومين من حقوق أسرى الحرب. وقد قضى الكثير منهم شهداء في مخيمات تكريت، ولم يعلم الصليب الأحمر شيئًا عنهم. حين دخل المفتشون المخيم، تمثّل «محمد كاظم باباي» بأبيات شعر لشهريار:

أتيت يا عزيزي، نفسي فداء لك، ولكن لم الآن

يا عديم الوفاء، الآن وقد وقعت، لماذا

أنت جرعة الدواء، وبعد موت سهراب أتيت
يا عديم الوفاء، لو كنت أسرعرت بهذا، لِمَ الآن؟
كان يقبع في تكريت أكثر من 20000 أسير «مفقود الأثر». وقد
سُجِّلَت أسماء هؤلاء قبل بضعة أيام على تحرّره. وقد وضع الصليب
الأحمر الدوليّ اليوم أسماءنا بشكل رسميٍّ على لائحة أسرى الحرب؛
لم يكن الصليب الأحمر مقصّراً في ذلك، ذلك أنّ نظام البعث
العراقيّ، لم يكن ليفتح أبواب المخيمات أمام مفتّشيه تحت أيّ ظرف.
صباحاً، قبل دخول ممثلي الصليب الأحمر، حدّثنا عساكر مخيم
الرمادي (13)، من التكلّم عن الحياة غير المنتظمة في المخيم، وعن
مصير الأشخاص الذين قضوا في المخيمات. وقالوا لنا: يذهب ممثلو
الصليب الأحمر، ونبقى نحن وأنتم، إن نطقتم بكلمة، سمنعكم من
الذهاب إلى إيران.

تعجّب المفتّشون من رؤية الأسرى المبتوري الأطراف.
سأل مفتشو الصليب الأحمر الضابط العراقيين عن أحوالنا،
فأجابوا إجابات واهية. بقي الضباط والحراس ملازمين المفتّشين.
كانوا حريصين على أن لا ننطق بكلمة مخالفة لرغبة النظام العراقيّ
ومصالحه. كنت أتحبّب الفرصة لأكتب رسالة إلى رئيس منظمة
الصليب الأحمر، أخبره فيها عمّا جرى لنا في هذه الفترة. كنت أمل
أن تجد نفعاً، وتُسجّل يوماً كوثيقة لدى الصليب الأحمر الدوليّ من
أسير إيرانيّ مبتور الرجل.

الأحد 9 أيلول 1990. الرمادي - المخيم 13

كان مخيم الرمادي (13) مكاناً لتوقيف الأسرى الذين أُسروا في جزيرة «مجنون». وكانت جدران المخيم قد فقدت ألوانها وامتلات بكتابات متشابكة أظهرت أسماء الأسرى وتاريخ وقوعهم في الأسر، ومحل إقامة الأفراد في المناطق.

وقد احتُجز الإخوة الذين وقعوا في الأسر معي في «موقع الخندق» هناك. كان المخيم منظماً، يدار تحت إشراف الصليب الأحمر الدولي. وقد كان الإخوة فيه محظوظين حيث سُجّلت أسماؤهم لدى الصليب الأحمر.

قرأت أسماء عددٍ من رفاقي وأبناء مدينتي على الجدار في أماكن النوم. كم يمرّ الوقت بسرعة. وكأنّ معركة «موقع الخندق» قد حدثت بالأمس!

ليلاً، طلبتُ قلمًا من أحد الحراس، جاءني بعد ساعة بقلم وبعض الأوراق. أردت أن أكتب رسالة لرئيس منظمة الصليب الأحمر. قلت لأحد الإخوة وقد كان يجيد اللغة الإنكليزية: ماذا أقول إن أردت أن أسأل مبعوثي الصليب الأحمر عن اسم رئيس منظمة الصليب الأحمر الدولي؟ أجاب: قل: who is the head of the red cross? (من هو رئيس منظمة الصليب الأحمر؟)

الاثنين 10 أيلول 1990. الرمادي - المخيم 13

غروب البارحة، عندما حضر مبعوثو الصليب الأحمر إلى المخيم،

سألت أحدهم (بالانكليزية): من هو رئيس منظمة الصليب الأحمر

الدولي؟

كان سويدياً فقال: السيّد كورنيليو سومارو⁽¹⁾.

في المساء، وبعيداً عن أعين الحراس، شرعت بكتابة الرسالة إلى السيّد «كورنيليو سومارو»، بمساعدة «محمد كاظم باباي» ولطيف دهقان. أردنا بعملنا هذا أن نوصل إلى مسمعه صوت مظلوميّة الأسرى المفقودي الأثر. وقد كان نصّ الرسالة على ما تسعفني ذاكرتي على الشكل التالي:

حضرة السيّد «كورنيليو سومارو»، رئيس منظمة الصليب الأحمر

الدولي؛

مع تحياتنا

هذه الرسالة هي صوت عدد من الأسرى الإيرانيين الجرحى الذين لا زالوا حتى الآن ينتظرونكم في مخيمات تكريت، لكن حسب تعبير شهريار الشاعر الإيراني المعروف: أتيت يا عزيزي، فدتك نفسي، لكن لِمَ الآن؟

كانت منظمتمكم المؤسّسة الوحيدة بعد الله التي تشكّل العون للأسرى الحرب. ومن بين أسرى الحرب في بلدان العالم كلّها، لم تسمعوا أصواتنا يوماً؛ لأنّنا إيرانيّون، دافعنا عن بلدنا في مواجهة أسيادكم. كثيراً ما دافعتم عن حقوق الأسرى العراقيّين في إيران، حتّى في المأكل والمشرب. وكان العراقيّون يقولون لنا: إنّنا نقدّم لكم من الطعام فقط ما يبيقيكم على قيد الحياة. إنّنا نتنفّس ليس إلّا..

.Mr. Korniliyo Sumaro (1)

لقد صمّ دفاعكم عن الأسرى العراقيين أذان العالم. ليتكم كنتم حسبتمونا أناسًا. إننا نشكو البعثيين إليكم. وحتى لو شكوناهم إليكم، فلن تفعلوا شيئًا.

السيد «كورنيليو سومارو»!

ما لم يُرَ خلف قضبان السجون، كان إنسانيّة البشر وأرواحهم. فقد قضى في مخيم «تكريت 16» وحده، وفي بلاد الغربية، أكثر من خمسة وثمانين أسيرًا بريئًا، جرّاء الإصابة بالديزنتاريا وبعض الأمراض غير المعروفة، ولا تزال عائلاتهم لا تعلم شيئًا عنهم. إننا لا نعلم من الذي يتحمّل مسؤوليّة دماء أسرى أمثال «علي شاه أوریده»، و«محمد بخرد»، و«حسين مرواني»، و«علي لشكري»، و«محمد صابري» و«دهقان منشادي». إنّ الذي هوّن علينا الحياة في السجون العراقية هو الايمان بالله وصبر الإخوة واستقامتهم. الآن، تسجلون أسماء أسرى الحرب، والعراقيّون مجبرون على تقديمها لكم؛ لِمَ لا تسألون، ماذا يفعل «العم إبراهيم» الرجل الإيلامي السبعيني، المدني، والذي يعمل في تربية الماشية، وصبيّ مدنيّ ابن تسع سنوات يُدعى «أمير»، وأخوه «إبراهيم» في مخيم أسرى الحرب في تكريت؟ الآن، حيث يمكنكم مساءلة الدولة العراقية، لِمَ لا تقومون بذلك؟ الأمر واضح تمامًا؛ لأنّ أسيادكم لا يقبلون بذلك.

السيد «كورنيليو سومارو»!

خلال السنوات المعدودة التي قضيناها هنا، لم يتمّ فقط تعذيب الإيرانيين وقتلهم، بل سمعنا مرارًا وتكرارًا وفي أماكن مختلفة على لسان الإخوة من شيعة العراق، أنّ النظام البعثي قد قام منذ الانقلاب

العسكري لحزب البعث وقبض صدام على السلطة، بتعذيب شيعة العراق بأشد أنواع التعذيب ممّا كان يتسبّب بمقتلهم، ومن خرج منهم من السجن سالمًا، قد فقد نتيجة التعذيب النفسي والجسدي القدرة على الكلام، والسمع، والبصر، وحتى أنّه أصيب باضطراب نفسي ومعنوي. هل تعلم أنّ حزب البعث في العراق يجبر معارضيه في السجن على الاعتراف أمام وسائل الإعلام بأنّهم عملاء للأجانب ليقوم بقتلهم تحت هذه الذريعة، وحتى لا يثير أيّة ضجة أزاء ذلك. وقد سمعت من بعضهم أنّ صدام كان يقوم بتعذيب السجناء بالهراوات والقضبان الكهربائيّة والحديدية، وكان يسحب أظافرهم، ويقتلع عيونهم، ويريق الأسيد المكثف المحرق على أجساد المعتقلين الشيعة، كان يعمل على جعل الرجال عقيمين، ويعذب النساء والرجال من خلال حقنهم بالهورمونات وسكب الزفت الساخن على أجسادهم. قال لنا أحد الشيعة العراقيين: عندما جاءت بعثة الأمم المتحدة لتفقد سجن أبو غريب، أخرج حزب البعث العراقي المعتقلين السياسيين الشيعة منه، ووضع مكانهم مساجين عاديّين، وعملاء خونة له بلباس المعتقلين السياسيين، وقدموهم لبعثة الأمم المتحدة.

ألا تشعرون بالمسؤوليّة أمام هذا الظلم وهذه الجرائم؟! ماذا تجيبوننا وتجيبون المعتقلين العراقيين الشيعة، والأهمّ من هذا كلّه، أيّ جواب ستقدّمون إلى التاريخ ولضماؤركم؟!

الثلاثاء 11 أيلول 1990. الرمادي. المخيم 13

اليوم، دخل أعضاء منظمة الصليب الأحمر إلى المخيم لاستكمال

ملفاتهم. توجه إليهم أحد الجرحى وسلم أحدهم رسالة. وما إن غادر المفتشون حتى جاء الحراس إليه وأشبعوه ركلاً. أراد السجانون أن يعرفوا مضمون الرسالة. لم يعترف الأسير الجريح بشيء، وكان من معتقلي «مخيم بعقوبة 18» ويدعى «حسن»، رغم كل الضرب الذي ناله. عندما ذهب السجانون، قال لنا الحقيقة. قلت له:

- ما كان ينبغي أن تسلّم الرسالة لهم أمام أعين العراقيين!
- لم يكن من سبيل لغير هذا؛ فالأمر مهم، وكان عليّ أن أكتب لهم رسالة.

كان حسن رجل شهم، فقد أطلق العراقيون في الأيام التي كانت تتم فيها عمليات تبادل الأسرى بين البلدين، النار على «حسين بيراينده»، من أهالي «سراب»، ممّا أدى إلى استشهاده. وهذا الأمر حدث في «مخيم بعقوبة 18». كان يقول: إنّ الشهيد «بيراينده» كان مسروراً لقرار إطلاق سراح الأسرى الإيرانيين في السجون العراقية. وكما قال: إنّهُ كان قد نذر نذراً في حال تمّ إطلاق سراحه أن يسير مشياً على الأقدام من سراب إلى مشهد، لزيارة علي بن موسى الرضا عليه السلام.

الأربعاء 12 أيلول 1990. الرمادي - المخيم 13

قال أحد الحراس العراقيين وكان حسن الأخلاق: كلّ الأسرى العراقيين المفرج عنهم خلال الأيام الماضية، كانوا ممّن أسروا في خرّمشهر. ويظهر أنّه على وعي وإطلاع: لقد أسرتم أنتم الإيرانيون ممّن في عمليات فتح خرّمشهر بمقدار ما أسرتموه خلال فترة الحرب كلّها؛ 17000 أسير ليس بالعدد القليل!

حين كنت أفكر في كلامه، كنت أتحدّق أكثر من عظمة وضخامة عمليّات بيت المقدس. قال: أتعلّمون لِمَ وقع كلّ هؤلاء الأسرى العراقيّين في أسركم؟ ثمّ تابع: كان العراقيّون يعلمون جيّداً أنهم إن قاوموا سيُقتلون، وإن تراجعوا وانسحبوا ستُطلق عليهم النار من الخلف، فالسبيل الوحيد لبقائهم أحياء كان وقوعهم في الأسر!

وعندما رأى أنّ لا أحد من العراقيّين حوله. حاول تقليد كلام القادة العراقيّين قائلاً: القادة العراقيّون لا يعرفون في العمليّات إلاّ الجلوس في متاريسهم والقول: تقدّموا، قاوموا، لا تتراجعوا، فكانت النتيجة أن وقع 17000 أسيراً في عمليّات خرّمشهر!

وقال: إنّ هذه الحرب قد أودت بكثير من القادة العراقيّين إلى كرسيّ الإعدام!

وقد حدثنا الحراس العراقيّون عن إعدام الفريق الركن «صلاح القاضي» قائد الفيلق العراقيّ الثالث، بجرم التقصير في عمليّات فتح خرّمشهر وإصدار الأوامر بالانسحاب، واللواء الركن شوكت أحمد عطاء قائد الفيلق العراقيّ السابع بسبب الانسحاب من الفاو في عمليّات «والفجر 8»، واللواء الركن ضياء توفيق إبراهيم قائد الفيلق الثاني بسبب استرجاع الإيرانيّين لمدينة «مهران» في العام 1986م و... . عندما أنهى كلامه، سألت:

- كم قائداً كبيراً من قادتكم أعدمهم الخمينيّ في السنوات الثمانية للحرب؟

ضحكتُ. كان محقّقاً في مقارنة قادة البلدين بهذا الشكل. لم يكن يعلم شيئاً عمّا يجري وراء هذا الساتر الترابيّ. لا يعلم شيئاً عن الروحيّة

الجهاديّة وامتثال الأوامر عند شباب التعبئة والحرس والجيش. لقد تعجّب كثيرًا عندما أخبرناه عن الفرق بين القادة الإيرانيين والقادة العراقيين. وقال بعد أن استمع إلى كلامنا بدقّة بالغة:

- أنتم تكذبون. إن كنتم صادقين، إذا لم قُتل كل هذا العدد من قادتكم في الحرب!

قلت له موضّحًا: إنّ قادتنا استشهدوا جميعًا في الخطوط الإماميّة! - أتريدون القول إنّنا عندما احتلينا «مهران» و«خرمشهر»، لم يعدم الخميني أيّ قائد فيلق؟ - أونحن في العراق؟!

أجابه «محمد كاظم بابايي»: الحرب انتهت، وها هم أسرى البلدين يعودون إلى بلادهم، لكنكم بالنهاية لم تعطونا مفتاح البصرة هذا! لم يفهم الحارس العراقيّ المقصود من مفتاح البصرة. راح يفكر، وفيما كان يحدّق في «محمد كاظم»، سأل بتعجّب:

- شينو «كليد بصرة» (ما هو مفتاح البصرة)؟

- أولم يقل صدام أنّه إذا استعاد الإيرانيون خرمشهر، فإنّي سأسلمهم مفتاح البصرة!

الخميس 13 أيلول 1990. الرمادي. المخيم 13

كنّا نمضي آخر يوم لنا في الأسر في العراق. قالوا لنا الليلة الماضية، أنّه سيُطلق سراحنا اليوم. في الصباح الباكر، قرأت للإخوة زيارة عاشوراء. وبمجرّد أن قلت: اللهم العن أبا سفيان ومعاوية ويزيد بن معاوية عليهم ... حتّى أتى أحد الحراس إلى ما وراء النافذة وقال:

لا وجود هنا لمحرم، والدعاء ممنوع.

أجبت: كل أرض كربلاء كل شهر محرم وكل يوم عاشوراء.

كان مبتهجاً جداً كونه قطع عليّ الدعاء. انزعجت، لم أكرث له وتابعت. في آخر الدعاء انهال عليّ ركلاً بحذائه. من شدة ما كنت فرحاً لأنني سأتحرّر، لم أشعر بأي ألم!

قلت له: لم يبقَ إلا القليل، دعني أكمله!

- إن تابعت قراءة الدعاء فسنحرمك من الذهاب إلى كربلاء!

لم أكرث لكلامه. لو كنت أعلم واقعاً أنني سأحرم من زيارة كربلاء، لما قرأت زيارة عاشوراء. قال الإخوة: لا تناقشوا أو تجادلوا الحراس في آخر يوم من الأسر. أخبر الحراس الملازم العراقي بقراءتنا لزيارة عاشوراء. أتى الملازم ونادى المترجم. حدّق بي بتعجب ونفور حيث وقفت بوجهه وقال:

- لن نأخذك إلى كربلاء!

وكان قد قال لنا قبل عدّة أيام، أنهم سوف يأخذوننا قبل إطلاق سراحنا كسائر الأسرى الإيرانيين إلى كربلاء لزيارة مرقد الإمام الحسين (عليه السلام). وكما كنت أعدّ اللحظات للذهاب إلى إيران، كذلك كنت أتحرق شوقاً للذهاب إلى كربلاء.

سألت الملازم: أحقاً لن تأخذوننا إلى زيارة كربلاء؟

- إذهب وادعُ لحفظ الرئيس القائد بمجرد أن تتحرّر!

قال «جعفر دولتي مقدّم»: لقد أخذتم الأسرى الأصحاء إلى زيارة

كربلاء، الآن حين وصل الدور إلينا، تقولون لن نأخذك!

- ادعوا ما تشاؤون ستأخذون حسرة زيارة كربلاء معكم إلى القبر!

حوالى الساعة العاشرة صباحاً، دخلت المخيم حافلتان تحملان لوحيتين عسكريتين. طلبوا منا الاصطفاف ضمن عدّة صفوف. قرأ الضابط العراقيّ أسماءنا، واستقلينا الحافلة واحداً تلو الآخر. ظننت أنّهم سيطلقون سراحنا عن طريق منطقة خسروي الحدودية. وبعد أن خرجت الحافلتان من السجن دخلت مطار بغداد الدوليّ. انتظرنا ساعتين في المطار. كان الجنود العراقيّون ومفتّشو بعثة الصليب الأحمر يقومون بإجراء المقدمات اللازمة لإجراء عمليّة تبادل الجرحى. وكان المطار مليئاً بالجنود والضباط العراقيّين. جلسنا في قاعة الانتظار صفوفاً. كان معظم الإخوة يتعكّز على عكاز. كنت أتمنى أن لا يأخذوا عصاي من يدي، وأن لا يتفقّدوا الضمادة الملفوفة على رجلي المبتورة. وكنت قد خبّأت دفترتي المؤلّف من عشرين ورقة صغيرة بين طيّات ضمادة رجلي المبتورة. فقد كان عبارة عن إحصائية وفي الواقع بطاقة هويّة لذكريات الأسر.

تلا العميد العراقيّ أسماءنا، وذهبنا واحداً تلو الآخر من قاعة الانتظار إلى مدرج الاقلاع لاستقلال الطائرة. كان قلبي يخفق بشدّة. وكنت أتحين الفرصة لأسلم الرسالة التي كنتُ كتبتها قبل أيام إلى رئيس مؤسّسة الصليب الأحمر «كورنيليوس سومارو» إلى أحد أعضاء البعثة. كان أعضاء بعثة الصليب الأحمر برفقتنا. وكان أحدهم قد حفظ أسماءنا. اغتنمت الفرصة وسلّمته الرسالة بعيداً عن أعين العراقيّين.

قبل أن نستقلّ الطائرة، ظهر عقيد عراقيّ وكان رجلاً مسنّاً أسمر اللون برفقة عدد من مبعوثي منظمة «مجاهدي خلق».

شرع العقيد بالكلام بلهجة مهذبة وودودة، وقال:
 - من أراد منكم يمكنه البقاء بصفة لاجئ في الدولة العراقية.
 يمكنكم أن تحيوا حياة جيّدة وكريمة في العراق، إن أردتم ذلك يمكنكم
 الالتحاق بمنظمة مجاهدي خلق!

لم يكثرث الإخوة لكلام العقيد. ومزّقوا استمارة اللجوء. لم نكن
 نفكر إلّا في إيران. كانت اللحظات تمضي بطيئة. قدّمت لكلّ منّا نسخة
 من القرآن الكريم، كتّب عليها اسم صدام اللامبارك كهدية، ومن ثمّ
 استقلينا الطائرة.

قال الحاجّ «سعد الله كل محمّدي»: ليتكم كنتم أعطيتونا هذه
 النسخ من القرآن في المخيم.

استقلّ عددٌ من مبعوثي الصليب الأحمر، ومن جملتهم ذاك الذي
 سلّمته الرسالة؛ الطائرة للمجيء معنا إلى إيران. جلس أحدهم،
 ويدعى «نيكل» وهو سويديّ الجنسيّة، على المقعد المجاور لي. وفيما
 كانت الطائرة تهّم بالإقلاع، رأيت في ناحية بعيدة من زوايا المطار
 طائرة الايرباس الإيرانية وعليها علم الجمهوريّة الاسلاميّة، والتي
 كان قد خطفها بعض الخاطفين وحطّ بها في بغداد.

كان قلبي كالصحراء القاحلة، عطشاً لرؤية وطني. كان الإخوة
 يذرفون الدموع شوقاً. وقد عشت حينها أجمل لحظات عمري وأعذبها.
 لم أكن أصدّق بعد أنّي سأحرّر.

كانت اللحظات تمرّ ببطء. وكانت دقّات قلبي تتسارع كلّما كنّا نقترّب
 من المطار. أفكار عجيبة وغريبة كانت تجول في رأسي. كنت أفكر في
 عائلتي، بأبي وأخواتي على وجه الخصوص. كنت أفكر ماذا سيكون

عليه حالي حين أراهم بعد هذا الغياب. أحسست أنني غير مستعدّ للقائهم. أحياناً كانت تراودني أفكار عجيبة، فماذا لو ندم العراقيّون وأمروا الطائرة بالرجوع ونقلونا ثانيةً إلى المخيم. أحببت أن أعرف متى تدخل الطائرة الأراضي الإيرانيّة. عندما علمت أنّ الطائرة دخلت الأراضي الإيرانيّة ازدادت فرحاً.

حطّت الطائرة حوالى الساعة الثالثة من بعد الظهر في مطار مهر آباد. لم يرتح بالي إلا عندما لامست عجلات الطائرة مدرج مطار مهر آباد. صدقت عندها أنني تحرّرت. أحسست مع الحرية أنني قد نلت مكافأتي على كلّ تلك الصعاب. وهذا وعد القرآن الذي يعد بإعطاء الصابرين والمؤمنين أجورهم. «إنّ مع العسر يسراً». نزلنا من على سلّم الطائرة. فاستقبلتنا فرقة موسيقيّة من الجيش بصفوف منتظمة وهي تعزف لحن نشيد الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران. رمى الأسرى الجرحى عكازاتهم ناحية، قبلنا أرض الوطن، وصلينا ركعتين شكرًا لله. وقد جاء لاستقبالنا حينها وديعة الإمام السيّد «أحمد الخميني» وعدد من المسؤولين الحكوميين وقادة الجيش. وما إن وقع ناظري على صورة الإمام قُدْسُ سَئُهُ المعلقة في مدخل صالة المطار، حتّى انقبض حالي.

وقد كتبت تحت الصورة هذه العبارة: «إذا عاد الأسرى يوماً ولم أكن بينكم، فبلغوا سلامي إليهم، وقولوا لهم: إنّ الإمام كان دائم التفكير فيكم».

خفقتني العبرة.

الفصل الخامس عشر:

إيران - الولادة الجديدة

الجمعة 14 أيلول 1990 - طهران - قاعدة لشرك

صباح اليوم، حاولت الخروج من الثكنة والذهاب إلى منزل خالي «محمد علي» في محلة «أكباتان»؛ لم يُسمح لي. وقال لي الحراس بودّ: عزيزنا! علينا أن ننقلكم إلى مدنكم، لا يمكنك الخروج من الثكنة، فهذا يرتّب علينا مسؤوليّات كبيرة. قضيت الصباح الأوّل وأنا محرّر. لم يكن معي رقم هاتف خالي أيضًا.

مساءً، دخلنا قاعة الطعام في القاعدة. جلس الإخوة صفوفًا لتناول العشاء. كان عشاؤنا «أرز بالدجاج». حين قدّم لي العشاء، قلت للموزّع: أتعطيني حصّة أخرى إن لم أشبع؟ فقال: نعم يا بنيّ فالطعام كثير. فمنذ سنوات أصبحت معدتي صغيرة، واعتدت على قلة الطعام، تناولت نصف الوجبة فشبع. الظاهر أنّ بطني شبع ولكنّ عيني مازالت جائعة.

السبت 15 أيلول 1990 - طهران - قاعدة لشرك

نقلنا إلى مطار مهر آباد، الساعة الثامنة ليلاً. في المطار ودّعت الحاجّ «سعد الله كل محمّدي» و«محمد كاظم بابايي». خنقتني العبرة وأجهشت بالبكاء. فأن تكون في الأسر، مع كلّ عذابات، إلى جانب

أسرى يحبّونك من أعماق القلب، لهو شيء جميل وعذب. ففي تلك الفترة، كنّا قد تقاسمنا مرارات السجن وحلاواته. وعاملني كلاهما معاملةً أبويّة. كان الحاجّ «سعد الله» متشوّقاً إلى كركان والوصول إليها بأقرب وقت من أجل رؤية أولاده.

توجّهت بالطائرة من طهران إلى شیراز. طوال تلك المدّة كنت أفكّر في اللحظة التي سأقابل فيها عائلتي.

الأحد 16 أيلول 1990 - ياسوج - كجساران - باشت

استرحنا في مضافة إحدى مديريّات شیراز. وقد جُهِزت سيّارة نيسان باترول بيضاء اللون لنقلنا إلى «ياسوج». بعد صلاة الصبح توجّهت إلى «ياسوج» برفقة السيّد «محمد شفاعت منش» و«محمد باقر بور». دخلنا المدينة حوالى الساعة التاسعة والنصف. نُقلنا إلى مضافة «به أبشار». تناولنا طعام الفطور. حتى ذلك الوقت لم يكن أحد من أهلي يعلم أنّي حيّ. في المضافة رآني العقيد «رهام بخش حبيبي». وكان من أهالي باشت. تعجّب كثيراً حين رآني. لم يصدّق أنّي ما زلت حياً. قبلني وأظهر لي محبةً كبيرةً. خرج للحظات وهاتف أختي «بي بي ماهتاب» التي كانت تسكن في ياسوج، وأخبرها باطلاق سراحي. لم تصدّق أختي أنّي لا زلت حياً، كيف بها وأنا في ياسوج. كان أبي وإخوتي قد سألوا عنّي كلّ الأسرى العائدين من العراق، وكان هؤلاء يجيبونهم بأنّهم لا يعلمون شيئاً عنّي. يبدو أنّ أغلب شباب «موقع الخندق» الذين كانوا قد رأوني في سجن الرشيد، قالوا لعائلتي أنّي قد استشهدت. بعد عشر دقائق قال لي العقيد حبيبي: إنّ أختك

«بي بي ماهتاب» تنتظرك في الخارج! وكأنّ ساعة قد وُضعت في قلبي، فكنت أسمع صوت دقّاته. كانت لحظة جميلة بالنسبة لي. لم أكن أتوقّع رؤيتها. لم أكن أصدّق أنّي في إيران وأنّ أختي الكبرى تنتظرني في الفناء. كان كلّ شيء كحلم بالنسبة لي. كانت «بي بي ماهتاب» أوّل شخص أراه من عائلتي التي تتألّف من ستّة إخوة وسبع أخوات. كنت متعطّشاً لرؤيتها. فقد كانت الأكثر عاطفة من بين سائر أخواتي. حين خرجتُ من الباب المؤدّي إلى فناء المضافة، هرعت إليّ وأخذتني في حضنها. ارتفع صوتها بالبكاء. عانقتني لأكثر من عشرين دقيقة، كانت تقبّلني وتبكي. وبكيت أنا كثيرًا. قال لها العقيد «حبيبي»: كأنّ أخاك يقف على رجل واحدة، لا ترهقيه، دعي مقدارًا من البكاء للبيت.

سألت «مهتاب» عن والدي، أخواتي وإخوتي. كانت تراودني أفكار فيما يتعلّق بوالدي. كنت خائفاً من أن يكون والدي قد رحل عن الدنيا في تلك الفترة التي لم أكن فيها.

حوالى الساعة العاشرة والنصف صباحاً، توجّهت والسيد «محمد شفاعت منش» إلى «كجساران». عندما افترقنا عند مفترق باشت، تمثّلت أمام ناظريّ ذكريات أيّام الأسر. مزاحه، صبره، أشعاره، والأهمّ من ذلك كلّ تضحيته. كنت مسروراً لكوني أستطيع رؤيته كلّما اشتقت إليه.

حوالى الساعة الثانية عشرة ظهرًا وصلت إلى «كجساران». كانت جماهير غفيرة من الناس قد جاءت لاستقبالي. أحسست عندها بأنّ آلام الأسر ومعاناته تفارق جسمي. كان تصوّري عن الحرّية أمرًا آخر. كنت أظنّ أنّ موظفي الهلال الأحمر سيعطوننا حين تحرّرنّا أجرّة

الطريق للوصول إلى بلداتنا ويقولون لنا: فليذهب كل منكم إلى بيته. لم أكن أتصور أنني سأرُد كجساران بهذه الطريقة.

قبل عشرين يوماً من تحرّري قلت «لجعفر دولتي مقدّم» ونحن في مستشفى 17 تمّوز: سوف أتحدّث حين إطلاق سراحي إلى أهل مدينتي في أحد المساجد أو في صلاة الجمعة. ومن حفّزني على ذلك بالطبع، كان «جعفرًا». وقد أعددت نصّ الخطاب في الرمادي. كنت أعلم ماذا عليّ أن أخاطب الناس به.

كان قد تجمّع أمام مقرّ التعبئة، بغية استقبالي، أكثر من خمسة أو ستّة آلاف كجسارانيّ. كان أهل باشت وعشائر باوي قد أتوا إلى كجساران لاستقبالي. أمام مقرّ التعبئة، اجتمع النساء والرجال على مدّ النظر. حملني شباب الحرس على الأكتاف ونقلوني إلى سطح المقرّ. وقد صُفّت الكراسي على سطح المقرّ لإمام الجمعة والمحافظ ومسؤولي المدينة. نظرت إلى الأسفل، رأيت احتشاد الجمع من أمام مقرّ التعبئة إلى مسجد صاحب الزمان، ومن تقاطع مبنى المحافظة إلى محلّة السادات. تمامًا كاللقاءات الانتخابية في كجساران. الحقيقة أنني لم أكن أتصور مثل هكذا حشد لاستقبالي. قال لي إمام جمعة المدينة «متّقي كاشاني»: تحدّث للناس عن الأسر. عن عذابات، شهادة الأصدقاء، عن مقاومة الشباب وصمودهم، عن كلّ ما يؤثّر في حياة هؤلاء الناس!

أحسست أنني لن أستطيع الكلام أمام كلّ هذا الجمع. كان قلبي يخفق بقوة من شدة الاضطراب. خفت أن أخرب الأمور، على الرغم من ثقتي بنفسي. كان قلبي يطفح بأوجاع وأحاديث كثيرة. أحببت أن

أشارك الآخرين حديثي؛ أن أخبر أهل المدينة بما عانينا. حين نظرت إلى الناس، كان الكلّ ينتظر كلام أسير محرّر من سجون العراق. وقد زاد من حماسهم لسماع كلامي، صغر سنّي وبتر رجلي.

قال معرّف البرنامج، في أوج أحاسيس الناس الطاهرة والصافية: في هذا الجزء من البرنامج، ننصت أسماع القلب إلى كلام الأخ المحرّر السيّد «ناصر حسيني بور». فهو من جيل التراب والمتاريس والبارود، من جماعة الخندقيين (نسبة إلى «موقع الخندق»)، إنه يحتفظ بذكرات الشهداء من أبناء هذه المحافظة في قلبه. الأبناء الشهداء الذين جعلوا من صدورهم أهدافاً لنيران البعثيين، من أجل الدفاع عن عزّة هذا الشعب وأرضه. الرجال الذين قضوا رجالاً لتبقى إيران صامدة. نستقبل وإياكم هذا المحرّر الجريح والعزيز بالصلوات العالية على محمّد وآل محمّد! توجهت إلى الميكروفون وأنا أتكىء على عصاي، وكان ذلك الخطاب الأوّل لي في إيران:

باسم الله الحافظ حرمة دماء الشهداء. سلام على الإمام الخميني العزيز، محطّم الأصنام. الإمام الذي كنّا نرجو أن نذهب لرؤيته في جماران، حين عودتنا إلى الوطن. لقد عدنا، ولكنّ الإمام قد رحل.. لعلّ الإمام على حدّ تعبير صديقي «هادي كنجي»، لم يكن راضٍ عنّا. لعلّنا لم نكن في الحرب من تعبويّيه الخُصّ... أيّها الإمام العزيز، إنّي كمسافر تخلف عن قافلة الشهداء أقول أمام هؤلاء الناس: إنّ أبناءكم في «جزر مجنون» قاتلوا حتّى الرصاصات الأخيرة، وقطّعوا إرباً إرباً. لقد أغار العراقيّون بآليّاتهم على جثث الشهداء في موقع «الخندق»، تمامًا كما أغار اليزيديّون على أجساد شهداء كربلاء...

الله وحده يعلم كم ضُرب الإخوة في سجن الرشيد ضرباً مبرحاً حتى يسبوا الإمام، ولم يفعلوا. ولم يزحزحنا ضرب الشياطين، والجوع والعطش، وشتائم السَّجَّانين البغيثين، وهراواتهم، قيد أنملة عن حبِّ الإمام؛ لقد بقينا أوفياء له. إنني كمسافر تخلف عن قافلة الشهداء في موقع «الخنديق» أقول: إنَّ أبناءكم قد استبسلا في القتال حتى الرصاصات الأخيرة، وجسّدوا عاشوراء أخرى. بقيت جثث الشهداء في أيدي الأعداء، حتى لا يبقى أيّ شبر من أرض الوطن بين أيديهم. إنني لست خطيئاً، وأطلب المَعذرة كوني أخطب بين أيدي الفضلاء.

في الأيام الأخيرة التي كانت فيها قوافل الأسرى تعود إلى إيران، خطب فينا قائد مخيّمنا النقيب «عبّاس» قائلاً: «إن عدتم إلى إيران فلا تتحدّثوا مجدداً عن الحرب. ولا تخبروا أهاليكم بما جرى معكم في مخيّمات الاعتقال. فما حدث قد حدث». وكان يقول: «لا تزعجوا قلوب عوائلكم بالذكريات المريرة. حدّثوهم عن الذكريات الجيدة. افرحوا واضحكوا. ادعوا الله لحفظ الرئيس القائد صدام حسين لكونه حرّركم!» وتابع قائلاً: «إنّ تذكر الذكريات الجيدة لأيام الحرب تختزن داخلها مرارة». حين كان يتفوّه بهذه الكلمات كنت أقول في نفسي إنّ هذا لظلم آخر. الظلم الأوّل، هو حرب السنوات الثمانية التي فرضها العراقيّون على شعبنا. والظلم الثاني هو كلام النقيب «عبّاس» هذا نفسه، الذي كان يريد لعوائل الأسرى الإيرانيين ولكم أيّها الشعب العزيز أن لا تعلموا شيئاً عمّا جرى للأسرى الإيرانيين في سجون تكريت. أرادوا لشعب إيران أن لا يعلموا كم قاسى أبناءهم. لقد أخفوا أمرنا لسنوات عن الصليب الأحمر الدوليّ. كان الإخوة في

فترة الأسر يقولون على سبيل الجد والمزاح: إِنَّ هَوَّياتنا قد أُلغيت عن سجلّات دوائر النفوس في أوطاننا! والعراقيّون أنفسهم كانوا يقولون: لا أحد يعلم أنكم أحياء، وكان الملازم «فاضل» يقول: لا تساوي أرواحكم بالنسبة لنا قيمة طائر. أما «وليد» فكان يقول: إنّنا نقدّم لكم من الطعام ما يبقّيكُم على قيد الحياة، ويبقى فيكم رمقاً، لنتمّ مبادلتكم في قادم الأيام بالأسرى العراقيّين. عندما قرأنا خبر مباحثات الدكتور «ولايتي» مع طارق عزيز، في الصحف العراقيّة، سألت الملازم «قحطان» أحد معاوني مسؤول المخيم: أيّها الملازم! متى سيتمّ الإفراج عنّا؟ هل تعلمون بماذا أجابني؟ عندما ترى رجلاً حاملاً أيّ لن تتحرّروا أبداً. أوّد لو أنّ صوتي يصل اليوم إلى الملازم «قحطان» لأقول له: أرايت أيّها الملازم! لقد تحرّرتنا من دون أن نرى رجلاً حاملاً... عندما وافقت إيران على القرار 598 قال الإخوة: ليتنا نستطيع بطريقة ما أن نوصل رسالتنا إلى إيران لنقول للمسؤولين الإيرانيّين: حذارٍ أن تقدّموا من أجلنا أيّة تنازلات للعراقيّين، إنّنا لا نرضى بذلك أبداً... لم يرد البعثيون أن نخبر أحداً بأنّ الكثير من أمثال «محمّد بخرد»، و«علي شاه أوریده»، و«حسين مرواني»، و«علي لشكري»، قد قضوا شهداء في مخيمات تكريت إثر الاصابة بأمراض غير معروفة، وقد دُفّنوا في صحارى تكريت. لم يريدوا للناس أن يعلموا بأنّ صبيّاً في التاسعة من العمر كان بيننا في مخيمات تكريت. وكان أمير، ذو السنوات التسع، قد أسر وأخاه في إحدى قرى إيلام الحدوديّة. وكنا من رعاة الماشية. فأخذ العراقيّون خرافهما وجعلوا منها طعام أيّام عدّة لأحد الفيالق العراقيّة في تلك المنطقة.

يا أبناء كجساران الأعزّاء، لقد بقيت رجلي في بغداد، حتّى لا يبقى شبر من تراب هذا الوطن في أيدي الأعداء. وقد ديست رجلي المبتورة حتّى لا يداس شرفنا وكرامتنا. لقد تعفّنت رجلي حتّى لا يتعفّن شرفنا ومروءتنا. تعفّنت رجلي حتّى لا يتعفّن ماء وجه إيران. تعفّنت لكي لا تتعفّن غيرتنا وشجاعتنا. لقد ظنّنت أميركا المجرمة وخادمها المطيع صدام أنّه بالامكان الاطاحة بهذه الثورة. وإنّ الذي جعلنا نتصر على الأعداء بأيدينا الخالية تلك، هو إيماننا بالله وحبّنا لأهل البيت (عليه السلام). لقد أجبرت دماء شهدائنا المظلومين صدام على القبول باتفاقية الجزائر للعام 1975م. لقد كُسرت هيبة صدام. صدّقوا أنّ صدام لم يكن يؤدّ الاعتراف بسهولة بهذه الاتفاقية. وصدام هذا هو نفسه الذي كان قد مرّق قبل سنوات نصّ الاتفاقية في البرلمان العراقي أمام أعين المراسلين. أنا على يقين أنّ قيادة الإمام، ودماء الشهداء، وإيثار الجرحى، وصبر الأسرى، ودعاء هذا الشعب، هو الذي أجبر صدام على الخضوع لشيء لم يكن يريد في وقت من الأوقات. ...

الاثنين 17 أيلول 1990 - باشت

أمضيت أجمل أيام حياتي إلى جانب أخواتي «ماهتاب»، «نرجس»، «فيروزة»، «بروانه»⁽¹⁾، «لاله، سيما» و«هنكامه». كان أبي ينظر إليّ ويبيكي، لم يكن يصدّق أنّني تحرّرت. قال أخي السيّد «قدرت الله»: - أتعلم ماذا قال أبي البارحة؟ - لا.

(1) بروانه: تلفظ: Parvaneh.

- البارحة، عندما كانت «بيبي ماهتاب» تخبره بقدمك، لم يصدق. ومهما أقسمت بالله، كان يقول لها، لا أصدق أن ناصرًا حي. أخيرًا، عندما كنّا ننصب الشوادر، ونذبح الخراف ونحضر لاستقبالك، قال أبي: إن عاد ناصر، سأذهب أنا إلى قبر السيّد «منصور»، وأدعوه هو أيضًا للعودة إلى البيت⁽¹⁾.

مساءً، أخبرني ابن عمّي السيّد «غلام بلادي» خبر شهادة «أحمد فروزان». لم أستطع أن أمنع نفسي من البكاء. وعلى الرغم من أن الفناء كان يعجّ بالناس الذين أتوا لرؤيتي، قمت من مكاني ودخلت الغرفة وبكيت حتّى الشبع. كان «أحمد» من أعزّ أصدقائي. وقد استشهد في عمليّات مرصاد. وقد أراني أخي السيّد «شجاع الدين» الرسالة التي كان أحمد كتبها له عنّي. يا له من زمن! حينها كان أحمد حيًا، وكنت أنا مفقود الأثر. اليوم سبّقني «أحمد»، ومهما أسرع لم أستطع اللحاق به. لقد تحرّرت من سجون العراق بعد سنوات من كوني مفقود الأثر، وكوني شهيدًا في نظر «أحمد»، ها أنا حيّ و«أحمد» استشهد؛ قلت في نفسي: رحم الله تلك الأيام التي كنت فيها بنظر «أحمد» شهيدًا، ليتي كنت بقيت شهيدًا.

كان أحمد إنسانًا مرحًا. شاعرًا، خطاطًا وصاحب ذوق أدبي جيّد. معظم الأوقات عندما كانت طرائفه تتفتّق على شفّتيه، كان يقول للإخوة في وحدة التخريب: تقول أمّي، لا تذهب إلى الجبهة، فإن ذهبت

(1) المرحوم السيّد «منصور» هو جدّي. وقد قال أبي هذا الكلام من شدّة ما كانت مسألة بقائي حيًا غير معقولة بالنسبة له. وكان مراده، إن جاء السيّد «ناصر»، سيحيا أبي الذي مات منذ سنوات وسيأتي إلى البيت. وكان والدي يكرّر هذه العبارة في المجالس العائليّة للسادة البحرينيّين، على الرغم من مضى سنوات على تلك الحادثة.

إلى الجبهة لا تلتحق بوحدة التخريب، وإن التحقت بوحدة التخريب، لا تدُس على الألغام، وإن دس على الألغام لا تطر في الهواء!

الثلاثاء 18 أيلول 1990 . باشت

جاء لرؤيتي اليوم عددٌ من الإخوة في المجموعة نفسها التي كنت قد شكّلتها قبل سنوات. «فايز»، «جمشيد»، «عيسى»، «إبراهيم»، «داريوش».. حينها كان «فايز» مسؤول عديد المجموعة. انتهت الحرب وانتهى الأسر. عندما تتداعى لي ذكريات هذه الأيام، ينقبض قلبي.

حينها، كنت قد نظّمت ملفّات لأعضاء المجموعة. وقد اشترت لكل واحد منهم مغلفاً، وكنت أسجّل تقرير التمرين اليومي في الاضبارة التي كنت قد أعددتها. ومن خلال المغلفات الفاتحة اللون أعددت لهم بطاقات، وقد كُتب على طرفيها بخط اليد معلومات عن الهوية الشخصية والتعليمية للأفراد. وقد دوّنت توقعي بصفتي مسؤول التدريب العسكري للمجموعة أسفل البطاقة.

اشترت طوابع وكنت أختتم البطاقات بالغطاء البلاستيكي لزجاجة البنسيلين. وقلت للرفاق: هذه البطاقات تنفع للذهاب إلى الجبهة! لم يكن للإخوة صورة شمسية. ولم تكن أموالنا تكفي للذهاب إلى مصوّر ما والتقاط صور لنا. ذات يوم ذهبت إلى السيّد «صادقي» وكان يملك آلة تصوير وقلت: إنّ أخي السيّد «قدرت الله» يبلغك سلامه ويقول لك، أعرني آلة التصوير خاصّتك لبضعة أيام. لم يكن السيّد «صادقي» يسلم كاميرته كيفما كان لأي شخص، وخاصّة الصّبيّة. بعد ذلك حين

علم صادقي أنني استغللت اسم أخي، غضب مني. التقطت بكاميرته صورةً جماعيةً للإخوة، بحيث يظهر الجميع فيها، وقد سحبت عنها نسختين، وقصصت الصورتين بالمقصّ، فوضعت صورةً لكل شخص على الملف وأخرى على بطاقته. كان هذا عالمي الطفولي الذي أمضيته كله على أمل الذهاب إلى الجبهة.

اليوم، عندما جاء الإخوة لرؤيتي، خطرت على بالي تلك الذكريات التي امتدت لفترة أكبر من فترة الأسر والحرب.

من بين إخوتي، لم أر أخي السيد «نصرت الله». لا أعلم لم لم يأتي لرؤيتي. قلت في نفسي لعله استشهد ولا يريدون إخباري بذلك. كان السيد «نصرت الله» مسؤول المعلومات في «فيلق سقز الخاص». وقد أخبرني السيد «قدرت الله» بأنه جرح.

مضى ستة وعشرون شهرًا على انتهاء الحرب، وكنت أنا والسيد «نصرت الله» لا زلنا نمشي متكئين على العصا. لم تكن قد رُكبت لي رجل اصطناعية، وكان هو قد أصيب برجله وبطنه قبل ثلاثة أشهر في مرتفعات «وزنه بانه» في مواجهة مع مجموعة الكوملة⁽¹⁾.

عند المساء، وُفق السيد «حشمت الله» للاتصال به. وقد طلب السيد «حشمت الله» من مركز الاتصالات الاتصال بمركز الحرس في «سقز»، واتصل السيد «نصرت الله» من منطقة خسروي الحدودية بمركز الاتصالات في باشت. ويقع الخطّ على الخط، وينعقد الاتصال بين هذين الأخوين مصادفةً. وكان السيد «نصرت الله» قد ذهب قبل

(1) الكوملة: مختصر «الحزب الديمقراطي الكردستاني» وهو حزب كردي معارض للنظام مدعوم من المخابرات الأجنبية.

شهرين إلى منطقة خسروي الحدودية مفتشاً عني. وقبل أن يخبره السيد «حشمت الله» بخبر تحرّري، قال له السيد «نصرت الله»: لقد تصفّحت لائحة تضمّ أسماء أربعة وثلاثين ألف أسيراً إسماً إسماً، ولمرتين، فلم أجد اسم ناصر بين هذه الأسماء. كذبّ القول أنّه حيّ، لو كان حيّاً لكان الآن في عداد المحرّرين. قال له السيد «حشمت الله»: ماذا تعطيني إن أخبرتك بخبر جيّد؟ فقال: إذا كان يتعلّق بناصر فاطلب ما تشاء. قال السيد «حشمت الله»: لقد عاد السيد ناصر، وهو الآن في البيت منذ يومين!

وكما قال السيد «حشمت الله»، أخذ السيد «نصرت الله» بالبكاء على وهو لا يزال على الهاتف.

في الليل، عندما قرأت رسالة⁽¹⁾ السيد «نصرت الله» التي كتبها

(1) والدي، إخواني، أخواني وأفراد عائلتي المظلومين، السلام عليكم

بعد التحيّة والسلام وتقدير الاحترام لكم فرداً فرداً، أرجو من الله المنّان أن يلهكم الصبر والسلوان. وأن تكونوا في كلّ الأوقات صابرين وثابتين أمام المصائب والبلاءات. أبي العزيز! وصلتني رسالتك الودودة والعاطفية بتاريخ 4/ آب/ 1988م وقد سرّرت برؤيتها، وينبغي عليّ القول، مع أنّي تلقّيت فيها خبراً سيّئاً، فإنّي أشكر الله تعالى على لطفه الكبير بنا وانتقائه من عائلتنا الملاّئ بالرجال، الصالحين والمظلومين. في رسالتك بيّنت أنّ أكثر ما يزعجك هو بعدي عنكم، لا تزج نفسك أبداً، فليس هناك من خطر يهدّدني، ولست أتحدّى باللياقة. ولو كنت اتحدّى باللياقة (لشهادة)، لكنت تركت هذه الدنيا الفانية والرخيصة قبل أن أكتوي بنار مصيبة ناصر، ولكن بالحدّ الأدنى مثلاً، حتّى لا أشهد أكثر ممّا شاهدت من شهادة أفراد أسرّتي الأبرياء. أبي العزيز! أتذكر حين قلت لك بصراحة، أنّك ستسمع عاجلاً أم آجلاً بخبر شهادة «ناصر»؟ لكن أعلم أنّ كلامي لم يكن عبثاً. فأنا الحقيّر، عندما سمعت خبر شهادة السيد «هدايت الله» قلت من دون شك: إنّ «ناصر» شهيدٌ، ومن حينها عملت على تقييد حركته. أبي العزيز! لقد كان ناصر مظلوماً بيننا، وكان كالشهيد «بهشتي» ظلّم حياً وظلّم ميتاً، يا لسعادته. لا أعلم بأيّ قلب ضمّنت رسالتك لي صراحةً خبر شهادته، وأرسلتها لي! أولاً تعلم أنّه لا ينبغي إرسال خبر سيّء إلى المقاتل وهو في حال الحرب؛ لكن لا إشكال في ذلك، فإنّ الله مع الصابرين. كان يمكنك أن تكتب في رسالتك أنّه جرح، أو قُطعت رجله، كان ذلك أفضل. أبي وإخوتي الأحبة! لقد أصرّيت كثيراً على أن أخذ إجازةً بأقصى سرعة وأتي. أنا أسألكم ما الذي سيؤثّر مجيئي على معنوياتكم، غير أنّنا سنجلس معاً ونتنحب. لكنني أفضل، إن كنت أتمتع باللياقة، أن أبكي

بعد أن وَصَلَهُ خبر فقداني في الحرب، انهمرت دموعي. كانت رسالة عاطفية وحماسية. كان السيّد «نصرت الله» من خلال المائة والثلاثة والعشرين شهراً التي قضاها في القتال، ريادي العائلة في الجهاد. لم يصادف في الحرب أن تواجدت معه في المنطقة نفسها. فقد تلاشت المجموعة الضاربة التي هدف إليها الشهيد السيّد «هدايت الله» وأخي السيّد «نصرت الله». انتهت الحرب. وعاد الأسرى إلى الوطن. بقيت العناصر الستة لمجموعة عائلتنا الخاصّة في الحرب التي كانت تتواجد على خمسة خطوط مختلفة، شهيد، أسير محرّر من سجون العراق، معتقل سياسي في سجون الشاه، وثلاثة جرحى كذكرى.

هنا، وأقاتل بشجاعة، وعلى كلّ من يحبّني، ويجد في نفسه القدرة، أن لا يترك خندق ناصر خالياً، ولا يترك سلاحه يصدأ. أنا أعلم حتماً أنّكم تحبّون أن أكون بينكم. يشهد الله أنّي أتألم لذلك وأحبّ أن أكون بينكم في هذا الوضع الحساس، لكن الوضع حسّاس جداً وخطير، ولو كان من المفترض بكلّ عائلة يوجد اثنان من أفرادها في الجبهة، واستشهد أحدهما أو فقد أثره، أن يترك الآخر الجبهة، من سيحرس الخنادق. أود أن أتدوّق معاناة أخي تحت زخّات الرصاص والمدفعية، والقذائف؛ لكي يكون الله شاهداً ويشهد لي يوم القيامة. على كلّ حال، أعزّيكم وأبارك لكم جميعاً من بعيد، وإن أمكنكم أن تعزّروا أخواتي المظلومات، اللواتي ينفطر كبدي لهنّ أكثر من أيّ شيء، وسوف أبقى أخجل منهنّ إلى يوم القيامة. ألهمّ شهد، وانظر إلى عيون أخواتي البريئات، الدامعات والمنظرة، وأية آمال يعقدنها على مستقبل إخوانهنّ، واللواتي يشعرن دوماً بالفخر من وجود هكذا إخوة، لكنهن اليوم يشهدن منظر جمال شهادتهم. نشكر الله المَنَّان أن حبا عائلتنا بهذه السعادة... أخيراً، أهدي سلامي إلى عموم أهلي وأقربائي، وأقبل من البعيد وجوه أخواتي وإخوتي المحزونة. أمل أن تسامحوني بلطفكم، لأنّي سأتأخّر أياماً للقدوم عليكم، وإن لم يحدث شيء، سأكون عندكم بعد أسبوعين. لن أأخذ من وقتكم الثمين أكثر من هذا، لكنني أرسلت إليكم جميعاً قبل عدّة أيام دعوة للحضور إلى الجبهة، لا أدري إن وصلت إليكم أم لا. ولمّ لم تجيبوا؟ والسلام. مع الاحترام، ولدكم وأخوكم السيّد مجتبی شفیعی

ملحق الهوامش

(1) هامش ص رقم 566.

- كان أول من استخدم عبارة «مجموعة 5 + 1»، السيد «يوسف مرادي»، ابن الشهيد السيد «عنايت الله مرادي». وقال السيد «يوسف»: في الواقع، هذه الحرب العالمية، التي بدأها العراقيون علينا، مسألة عائلتكم، المجموعة المقترحة 5+1: حضور الوالد مع خمسة من أبنائه في الجبهة، في خمسة خطوط مختلفة لهو مسألة فريدة من نوعها، وكانت هذه هدية جيدة للعراقيين المعتدين.
- والدي، السيد «سليمان الحسيني»، أرسل خمس مرّات إلى الجبهة كعنصر من عناصر التعبئة، وقد شارك في جبهات الدفاع المقدّس لمدة 28 شهراً في فرقة كربلاء 25، لواء الإمام الحسن 15، ولواء أبي الفضل العباس.
- أخي، السيد «قدرت الله الحسيني»: جريح ومعتقل سياسي في أيام الثورة. من مواليد العام 1953م. في العام 1973 التحق بدار المعلمين التابع لعشائر شيراز. في العام 1977 (قبل انتصار الثورة بسنتين)، نفّذ ومجموعة من رفاقه هجوماً ليلياً على سينما بارامونت في شيراز لعرضها أفلاماً منافية للأخلاق. وفّر من أيدي رجال الشرطة وعناصر السافاك حينها. لكنّه اعتُقل في النصف الأوّل من العام 1977 على أيدي السافاك، وأرسل إلى طهران. بقي ثلاثة أشهر في الزنزانة الانفرادية التابعة للجنة المشتركة لمواجهة الأعمال التخريبية. وبعد سلسلة من التحقيقات، نُقل إلى معتقل عامّ. وهناك كان رفيق سجن «لمحمد علي رجائي» والحاجّ «مهدي عراقي». وقد تعلّم السيد «قدرت الله» الدروس من هذين العظيمين، الدروس التي صاغت شخصيته السياسيّة والثوريّة فيما بعد. بعد مدّة، نُقل إلى المعتقل العامّ رقم (4) التابع لسجن أوين، ومن ثمّ إلى المعتقل العامّ رقم (1). في المعتقل رقم (1) لسجن إيفين، تعرّف بأية الله الطالقانيّ، أية الله «منتظري»، الشيخ «هاشمي رفسنجاني»، لاهوتي، ومجاهدي الثورة الآخرين. كان المناقشون يسخرون من السيد «قدرت الله» بسبب طول لحيته. وقد حُكم بسنتي سجن. أمضى منها أربعة عشر شهراً، ليتحرّر في أوج غليان الثورة، بتاريخ 1978/10/25، هو ومجموعة مؤلفة من ألف أسير. وسوف تُنشر مذكراته قريباً في كتاب «أفتاب مهربان» (الشمس الدافئة). بعد التحرّر، ساهم في تشكيل الحرس الثوري، ومن ثمّ جهاد البناء في كجساران. أصبح السيد «قدرت الله» من الأعضاء الأساسيين المشكّلين لحزب الجمهوريّة الإسلاميّة في كجساران. في بداية الثورة كان مسؤول جهاد البناء، ومن ثمّ خدم لمدة اثني عشر عاماً كمدير للتربية والتعليم في مناطق «باشت» و«دنا» المحرومتين. شارك في حرب الدفاع المقدّس، وعيّن في مهران قائداً لكتيبة مالك الأشر. بعد انتهاء الحرب، انتقل إلى شيراز لمتابعة دراسته، وتابع نشاطاته السياسيّة والثقافيّة

كمدبر للجمعية الإسلامية لخريجي جامعة شيراز. في العام 1995، عُيِّن قائم مقام عن منطقة «نور آباد ممسنى». في العام 2005 عمل كمدبر للمجمع العلمي لجامعة العلوم الطبيّة في شيراز. في العام 2007 ترشّح لانتخابات الدورة الثامنة لمجلس الشورى الإسلامي عن منطقة «كجساران وباشت»، فسلّك طريقه إلى هذا المجلس في 14 شبّاط من العام نفسه كنائب عن أهالي كجساران وباشت.

- أخى السيّد «نصرت الله الحسيني»: قبل اندلاع الحرب المفروضة، كان رفيق جهاد الحاجّ أحمد متوسّليان»، والشهيد «عبّاس كريمي»، والحاجّ «رضا دستواره»، والحاجّ «رضا جراغي» في قتال الخارجين عن القانون وأعداء الثورة، في قلاقل كردستان، «سنندج»، وفي تطهير «مريوان»، مع ابتداء الحرب المفروضة، جاء إلى منطقة الجنوب وعبادان برفقة الشهيد «أحمد كاظمي» والحاجّ «علي فضلي». كان في العام 1980م قائداً مجموعة. حينها لم يكن يوجد في الحرس ألوية وافر. في تلك السنة نفسها، بالانتفات إلى المهارة التي كان يمتلكها في قيادة الجرّافة، تمكّن بواسطة آلية جرّافة (لودر)، كان قد غنمها الإخوة في الحرب، وتحت نيران العدو الشديدة، من العمل على إحداث سواتر ترابية ومتاريس جماعية محكمة، في منطقة فياضية، جسر آبادان، تحت جسر خرّم شهر، مقابل مصنع الحليب، ومصنع المراكب، المحطة 7، و«جوثبده». في العام 1981، أصبح قائد سرية. في العام 1982 وكمسؤول عن محور الاستطلاع في منطقة «كوشك»، «جفیر» و«مخضر زيد»، نُقل من «فرقة الفجر 19» إلى «الفرقة المدزعة 92». في العام 1983 عُيِّن كمسؤول عن المحور الأمني لـ «فرقة الفجر 19» في مناطق عمليات «دهلران»، «موسيان»، و«نهر ميمه». لم يستطع الابتعاد عن الحرب والجهاد، لذا، عمل من العام 1987 إلى العام 1995 كقائد استطلاع فرقة سنّز الخاصة (التابع للفيلق الحادي عشر (11) الغربي) ومسؤول استطلاع فرقة القدس 16 في منطقة كيلان. حاولت مجموعات الكوملة اغتياله، لكنّها لم توفّق. كان يُعرف في كردستان باسم مستعار هو السيّد مجتبی شيعي. ذات يوم ذهب السيّد «نصرت الله» في مهمّة داخل الأراضي العراقية، فقصدت مجموعة من الكوملة بيته، وقدّم أفرادها، بصفتهم أصدقاء له، فخذاً من لحم الغنم لزوجه. في اليوم التالي حين عاد السيّد نصرت الله إلى البيت، وأخبرته زوجته بأمر لحم الغنم. قال لزوجه: عسى أن لا تكوني تناولت منه شيئاً فأجاب: إنّه في التلّاجة، لم نأكل منه! فذهب فوراً إلى التلّاجة، حملة ورماء في فناء البيت. فماتت القطعة التي أكلت منه. في العام 1995 التحق بالقوآت البريّة لحرس الثورة الإسلامية، وشغل مسؤوليات مختلفة من جملتها، مسؤوليّة دائرة دراسة الصلاحية، نائب مسؤول وحدة الأبحاث والتقييم، إدارة عمليات التفتيش، إدارة وحدة البحث والتقييم، ومسؤول إدارة الصحة، التحقيق في الحوادث والكوارث في القوآت البريّة لحرس الثورة الإسلامية. للسيّد نصرت الله باع طویل في الجهاد، حيث خدم عشر سنوات وستة وعشرين يوماً. وقد جرح على امتداد سنوات الدفاع المقدّس أربع مرّات. المرّة الأولى كانت بتاريخ 4/ آب/ 1980، أي قبل ابتداء الحرب المفروضة بسبع وثلاثين يوماً، في منطقة «مريوان» في كردستان، أثناء مواجهة مع أعداء الثورة، إثر إصابة شظيّة قذيفة آر بي جي رأسه ويده اليمنى. المرّة الثانية كانت بتاريخ 1/ 7/ 1981 في منطقة عمليات الفيّاضية في عبادان، إثر انفجار قذيفة مدفعية بالقرب منه. المرّة الثالثة كانت بتاريخ 22/ 2/ 1984 في عمليات خيبر في منطقة «أهوار الهویزة»، وجزر «مجنون»، بسبب قوّة الانفجار واختراق شظيّة قذيفة لرأسه. المرّة الرابعة كانت قبل تحرّري بثلاثة أشهر، بتاريخ 7/ 6/ 1990 في «مرتفعات وزنه» في «بانه» على

أيدي جماعة الكوملة، إثر إصابته بثلاث رصاصات استقرت في اليد والرجل والبطن. وقد كان له فخر المشاركة على امتداد سنوات الدفاع المقدس، في عمليات الفتح المبين، عمليات «الضربات الخاطفة»، فكة، عمليات بيت المقدس (1 و2 و3)، عمليات رمضان، عمليات خيبر، عمليات والفجر 10، عمليات المرصاد، وأربعين عملية تطهير و... يشغل السيد «نصرت الله» في الوقت الحاضر في طهران، مسؤولية معاونة التنقيش والحقوق، في جامعة الإمام الحسين (عليه السلام) لتخريج الضباط وإعداد عناصر الحرس.

- أخي الشهيد السيد «هدايت الله الحسيني»، التحق بالجبهة كمتطوع منذ العام 1982. في العام 1985 أصبح عضواً رسمياً في الحرس، وعُيّن نائباً لوحدة الاستطلاع والعمليات في «لواء الفتح 48». شارك السيد هدايت الله في عمليات خيبر، بدر، والفجر 8، كربلاء 4، 2 و5، والنصر 4. واستشهد بالنهاية بتاريخ 1386/11/26 في عمليات استعادة «مرتفعات دوقلو» في كردستان.
- أما أنا فالتحقت بالجبهة بتاريخ 1386/10/12. كنت في «لواء الفتح 48». انتقلت بعد شهادة أخي إلى وحدة المعلومات والعمليات، جُرحت أربع مرّات على امتداد السنوات التي قضيتها في الجبهة. المرّة الأولى كانت بتاريخ 1386/12/26 في عمليات كربلاء 4 في جزيرة مينو، بحيث أصبحت جريحاً كيميائياً. المرّة الثانية كانت بتاريخ 1387/1/5 أثناء قصف المقاتلات العراقية لخط دفاع مرتفعات جاجيله، حيث أصيبت رجلي بشظايا القنابل المنقودية. المرّة الثالثة كانت بتاريخ 1387/5/23 في خط دفاع «شاشوي» في كردستان، إثر إصابة في الرجل في حقل ألغام. المرّة الرابعة كانت بتاريخ 1388/6/25 في جادة خندق جزيرة مجنون، حيث بُترت رجلي ووقعت في الأسر.
- أخي السيد «شجاع الدين الحسيني»، الذي يصغرنى سنة، التحق بالجبهة إلى جانب بقية أخوتي. كان قنصاً في كتيبة الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) في منطقة «أهوار الهويزة»، وكان لمدة عام الإشارة الملازم لقائد الكتيبة. السيد شجاع خريج جامعة العلوم القضائية في طهران.

(2) هامش الصفحة رقم 638

- في فترة بعد الظهر من يوم الأحد الواقع في 18 آب 1980م. حيث كانت الشمس تسطع على جدران الطين في قرية «ظهرب» وأرقفتها الضيقة. وكانت القرية كزهرة مبال الشمس وسط صخرة، تعان غروب الشمس. كنت حينها صبياً في التاسعة من العمر. وكنت قد تقاسمت مع من هم في مثل سني، الأوقات الجميلة لفترة الحداثة. كانت الحياة تمضي كنهر زلال في مسيره الهادي. وكنت إضافة إلى الأعمال اليومية، أساعد والدتي في أوقات الفراغ. وقد عدت نواً، قبل ظهر ذلك اليوم من الجبل بحمولة من الحطب.

ببركة الثورة الاسلامية، عاد البناء والعمران إلى قريتنا، ليرفع آثار عدة سنوات من الفقر والحرمان عن وجه المنطقة المنسية. فكان مشروع إنشاء الطرق قيد التنفيذ، وذلك ليتم وصل قريتنا بمناطق «بيجاب» الجبلية ويخلصها من الإنعزال. ظهر ذلك اليوم، ملأت لي أمني برميلاً صغيراً من الماء، ووضعت مقداراً من الخبز المحلى في صرتي، وأرسلتني إلى بستان الرمان. كانت أشجار الرمان والعنب والتين قد أثمرت، وتنتظر يد صاحبها ليقطفها.

قراءة الساعة الخامسة والنصف من بعد الظهر، حمّت الرمان على الحمار، وكنت عائداً إلى القرية. وما إن ابتعدت مئة متر عن البستان، حتّى دوى صوت انفجار رهيب. وقد انبعث دخان أسود غليظ

من أعلى بيت في القرية. إلى حينها لم أكن قد سمعت مثل هذا الصوت. وقد اختلطت أصوات أهالي القرية بعواميد الدخان الغليظ والتراب. تركت الحمار وحمولته، وهرعت مضطرباً إلى البيت. كانت أعمدة الدخان والغبار قد خمدت. وكانت الأجساد المحروقة، والمقطعة إرباً، والشعر المتطاير في الجو، كورود سجادة نُقِشت على سجادة أرض القرية. كانت أسطح البيوت في القرية تشكّل فناءات للبيوت الأعلى منها. وكان بيتنا يقع في الجنوب الغربي للقرية. وصلت إلى البيت لاهئاً. رأيت أختي بروانة ذات السنوات الست جالسة أمام الباب تحمل أختي الصغرى «هنكامه» ذات الأشهر الخمسة. كانت «هنكامه» تبكي، حاولت بروانه إسكانها لم تفلح. سألت بروانة عن أمي فقالت: ذهبت إلى بيت «الميرزا ضرغام»!

وَأَيْنَ «مِهِين تاج» و«هَمَّت الله»؟

«مِهِين تاج» مع أمي، وهَمَّت الله في الفناء.

وفيما كنت أترك بروانه سألتني: أمير! ما هذا الصوت؟ لم أجبها. لم أدخل الفناء، ومن ذلك الجزء السفلي من البيت اختصرت الطريق وأسرعت إلى بيت «الميرزا ضرغام». كانت تراودني أفكار عجيبة، وصلت إلى بيت «الميرزا ضرغام»، لم أجد أحداً. كان بعض أهالي القرية قد لقوا حتفهم، وبعضهم قد جُرح؛ أما الأحياء فذهبوا إلى مكان الحادثة. كانت جثث الشيوخ والشباب، الأطفال والصغار قد سقطت أرضاً على مسافات متقاربة في الأزقة الضيقة والمتعرجة الموصلة إلى البيت. عند عودتي دخلت من الباب الثاني لبيتنا. وكان لبيتنا مدخلان، شرقي وغربي. وصلت إلى البيت وأنا ألتقط أنفاسي، وما إن هممت بالدخول حتى تجمّدت في مكاني من رؤية جثة أخي السيد «هَمَّت الله»، مطروحة أرضاً شمال المدخل. لم أصدق أنّ أخي السيد «هَمَّت» قد مات. كان ذلك شيئاً لا يُصدق. قلت في نفسي: إنّ السيد «هَمَّت» نائم أو غائب عن الوعي. جلست إلى جانبه، حرّكته، كان جسمه بارداً، والدم يسيل من الجهة الشمالية لوجهه الناعم. كان كطائر صغير سقط أرضاً. وقد جمدت الضحكة الطفولية والبريئة على محياه. هذا وقد تلاشت عينه اليسرى وجزء من رأسه. كان السيد «هَمَّت» قد وضع يديه على مكان الجرح، وسقط على الأرض على هيئة السجود. لم يكن أحد فوق رأسه عند موته. وكنت أنا أول الحاضرين إليه.

كان السيد «هَمَّت» الأكثر مظلومية من بين إخوتي. وقد اعتنى إخوتي به أكثر من اللازم بسبب حالته الخاصة. فحين انتقل أخي السيد «قدرت الله» في العام 1974، إلى «تنك بيرزال» في محافظة كهكيلويه، لمزولة مهنة التعليم فيها، أخذني وأختي «مِهِين تاج»، وأخوي السيد «عنات الله» والسيد هدايت الله معه. وذلك ليتابع الكبار دراستهم، ويكون الصغار تحت رعايته. وعندما كان يذكر «مِهِين تاج» والسيد «هَمَّت»، كانت وجنتاه تبتلان بالدموع. قبلها بسنتين مرض السيد «هَمَّت»، ولغيباب والدي وإخوتي، أخذته والدتي إلى «كجساران» للمعالجة. وهناك أصيب بشلل نصفي بسبب حرقه خاطئة حُقن بها. لفترات طويلة، كان السيد «هَمَّت» لا يسير بضع خطوات إلا بشقّ الأنفُس. ولكثرة ما قامت والدتي وإخوتي بالعمل على تمرينه تحسّن قليلاً في ظرف سنة. ما إن كان يخطو بضع خطوات حتى يسقط أرضاً. حينها سُرّت عائلتنا الكبيرة من تحسّن حال السيد «هَمَّت». ومن قدرته على المشي شيئاً فشيئاً، غالباً ما كان أخي الأكبر السيد «حشمت الله»، يعمل على تمرينه. ومن أجل أن يحثّ السيد «هَمَّت» على المشي، كان يجلس على مسافة خمسة أمتار منه، يحمل قطعة من الشوكولاتة في يده،

ويناديه: «هَمَّت» تعالِ وخذها.

كان السيد «هَمَّت» يركض نحوه. وكل عدة أمتار كان يسقط أرضاً. كنّا جميعاً نتألم من رؤيته يسقط أرضاً.

حين كنت أنظر إلى جثة السيد «هَمَّت» غير مصدّق لما جرى، كنت أتذكّر براءته ومظلوميته. بكيت بصوت عالٍ، وعالٍ جداً، وقلت في نفسي: إلهي! حقاً قُتل السيد «هَمَّت»! بكيت إلى جانب جثته إلى أن ارتويت. ذهبت إلى «بروانة»، كانت لا تزال جالسةً في مكانها. لم أخبرها بأنّ أمي لم تكن في بيت «الميرزا ضرغام»؛ ولم أخبرها شيئاً عن السيد «هَمَّت» أيضاً. كنت أريد أولاً، أن أخذ «هنكامه» معي إلى ساحة القرية، لأسلمها إلى أمي. قلت في نفسي: عندما أجد أمي أقول لها أنّ «هنكامه» بُحّت من البكاء. تعالي وأرضعيها! طلبت من «بروانة» أن تبقى في مكانها، وترعى «هنكامه» إلى حين عودتي. أردت أن أفشّش عن أمي وأختي «مهين تاج».

عدوت برجلاي الصغيرتين إلى مكان الانفجار. كانت أصوات نحيب نسوة القرية ورجالها تتعالى. نتف النسوة شعورهن، وخدشن وجوههن. كان كلّ منهم يبحث عن جثة. بعضهم ممّن وجد جثة قريبه، جلس بالقرب منها، وراح ينتحب ويبكي. كان الناس حيارى بين الجثث والأجساد المقطعة إرباً. وكنت أعيش أشدّ لحظات حياتي وحشةً. مررت نظري على الجثث واحدةً واحدةً. كانوا جميعاً أقرباء لي. تقدّمت قليلاً، وإذا بي أرى أختي «مهين تاج» ابنة الثلاثة عشر ربيعاً، ممدّة على الأرض كوردة ذبلت قبل أوانها. وقد غطى الغبار والبارود وجهها المنير. كانت جدائلها المتطايرة محترقة مثل قلبي المفجوع. تقوّع طائر إحساسي في زاوية من زوايا كياني، فيقيت مبهوئاً ممّا حدث. جلست إلى جانبها، ورحت أنتحب بصوت عالٍ. كنت متعلّقةً بها إلى درجة كبيرة. كانت جثتها قد سقطت بالقرب من مدرسة القرية الابتدائية: المدرسة نفسها التي أنهت فيها الصفّ الخامس، وأنهيت أنا فيها الصفّ الثاني. كانت ترتدي حجاباً أحمر اللون، وقد احترق قسمًا منه. عادةً ما كان نسوة القرية وبناتها يرتدين اللباس التقليدي الخاص بالمنطقة. فكان الفستان الذي ترتديه أختي لبنيّ اللون، ذا أرضية مزينة بزهرات دوائر الشمس. وكانت تتقلّد القلادة الذهبية التي كان خالي قد اشتراها لها. وتضع في يدها أسورة فضية عريضة. فنشّث عن أمي، ومهما سألت عنها لم يجبني أحد. كان كلّ واحد يفشّش عن جثة. تركت جثة: «مهين تاج». وفيما كنت أبحث عن أمي سمعت ابنة عمّي «شاه بي بي» تناديني قائلة: ها هي جثة «غل بي بي» هنا. هرعت نحو الجثة، كانت تلك أمي. كنت أنظر إليها غير مصدّق ما أرى. ما كنت أظن أنّي سأفقدّها. اصفرّ لوني، انفطر قلبي من فداحة الفاجعة. لقد شحب لونها، وحلّ الخريف على وجودها الفصّ والعطوف قبل أوانه. ليت يداي كانتا تطاوعاني لأزيل الغبار عن وجهها. ليت الزمان يعود لأحادثها. ليت الزمان يمنحني ولو لمرة واحدة، فرصة لأقبل يديها وأعرف قدرها. كان دماغ والدتي قد تلاشى. وملابسها تلطّخت بالدماء. غالباً ما كانت أمي ترتدي الثياب التقليدية القاتمة اللون. وعادةً ما كانت تختار اللون الرماديّ، البنيّ والكحليّ، لملابسها وإشارباتها. حينها كانت تضع على رأسها إشارباً أسود اللون، وترتدي فستاناً تقليدياً بنياً فاتح اللون. ذا أرضية مزينة بورود القرنفل. لم أعرف لمن أبتّ آلام وحدتي وغربتي. فإلى حينها لم أكن قد ذقت بعد ألم الفراق. وشيئاً فشيئاً كانت سهام الألم والوحدة تنهوى على بدني من كلّ حذب وصوب. كانت أصوات النحيب والنواح تملأ جو القرية. وقد وصل أهالي القرى المجاورة لمُد يد العون إلينا، ونجدة الجرحى.

من بين أصوات المسعفين ونحيب المفجوعين، وفي خضمّ صراخات أهل القرية المفطّرة للقلوب، سُحبت جثّة أخي السيّد «عنايت الله» ابن التسعة عشر ربيعاً من تحت الركام. كانت رجل السيّد «عنايت الله» فقط طائر الأمل عن سطح وجودي. وخبرت أقسى وجوه الموت. لم أكن أعلم في آية نقطة من الزمان والمكان توقّفت.

رجعت إلى المنزل. كانت «بروانة» تبكي. فحين كانت تريد الذهاب إلى محلّ الانفجار، وبينما كانت تخرج من باب المنزل الآخر الذي خرجت منه، رأت جثّة السيّد «همّت الله». فرجعت و«هنكامة» إلى البيت. جلست إلى جانبيها. ظننت أنّها لا تعرف بأمر السيّد «همّت». انفجرت بالبكاء وقالت بلهجتها الطفوليّة البريئة: هل رأيت همّت؟!

ما إن تفوّحت بهذه الكلمات حتّى أخذت بالبكاء. لم أكن أعلم ما أفعل لها. كان قلبي يعتصر لكلتا أختي. وخاصّة «لبروانة». ماذا أفعل إن بقيت مع «هنكامة»؟ لم أكن أوّد الذهاب بهما إلى ساحة القرية. لم أكن أريد «لبروانة» أن ترى جثّة أمّي، وأختي، وأخي. كنت مضطرباً إلى درجة كبيرة. وللمرّة الثانية انفصلت عنهما. وعدت إلى حيث الجثث. أردت أن أكون إلى جانب أمّي.

غابت الشمس حاملةً معها حملاً ثقيلاً من الغمّ والحزن، فاخترقت بدوري بين جموع الناس الذين هبّوا لمساعدتنا. الأناس الذين عمّت أمواج محبّتهم المكان كلّ، وأظهروا لمفجوعي الحادثة عزاءً وصدقاً ووداً.

نقل نسوة القرية جثّة أختي إلى جانب جثّة والدتي. كانت الشطيّة قد اخترقت قلب أختي وكتفها الأيسر. ونقل ابن عمّي السيّد «إسحاق»، الذي فقد أخوين له، هما السيّد رحيم والسيّد درّاج في الانفجار، جثّة أخي السيّد «همّت» إلى ساحة القرية. وفيما كنت جالساً إلى جانب جثث عائلتي، أتت «بروانة» حاملةً «هنكامة» إلى مكان الانفجار.

لم أدري كيف انتهى الليل. كنت كطير تبلّ بماء المطر ووقع في زاوية من زوايا وطني الغريب. وفي تلك الليلة جرّعت نفسي ذكريات طفولتي الجميلة جرعةً جرعةً لأبسم جراحي العميقة، وأفضّ غبار الليل عن وجنتي التي هجرهما الربيع.

في أواخر الليل، ظننت أنّ كلّ تلك الأحداث هي حلم لا أكثر. وكوني طفل، لم أكن تحقّقت بعد ممّا حدث لي.

في المدخل الشمالي للقرية، كانت هناك ساحة كبيرة، وكانت الجثث تُنقل إليها. وقد قذفت قوّة الانفجار معظم الجثث إلى خراج القرية على مسافة خمسمئة متراً. بعد أسابيع، كان الناس يعثرون على أشلاء من أجساد القتلى في خراج القرية، ويدفنونها في مداخل القرية. وقد دُفنت أياً وأرجل في مقبرة القرية إلى جانب جثث ليست مرتبطة بها. كما دُفنت أشلاء من أجساد بعض القتلى إلى جانب جثث مهشّمة أخرى. فدُفنت رجل مفصولة عن جسد رجل إلى جانب جثّة رجل آخر، ويد امرأة مقطوعة إلى جانب جثّة امرأة أخرى في مقبرة القرية. لم تعد القرية أبداً إلى حالتها السابقة، وكانت تؤوّل إلى الخراب يوماً فيوماً. فمعظم شباب القرية قد قضاوا في ذلك الانفجار.

بعد ستّة وثلاثين يوماً، (في 22 أيلول 1980م)، شنّ العراق هجوماً على إيران. ودائماً ما كنت أقول لنفسي: لو كان بقي أولئك الشبان الغيرون أحياء، لكان الكثير منهم في عداد الشهداء والقادة في

حرب الدفاع المقدس.

كان الناس في ميدان القرية يبكون ويتحيزون إلى جانب جثث قتلاهم. النسوة ينتقن شعورهن، ويخدشن وجوههن. وعمت القرية أجواء الغم والحزن. وكأن القيامة قد قامت. كان الجوّ يقوح برائحة الدماء والبارود. أحضرت جنازة أمي وأختي وأخوي إلى ساحة القرية. وبين جموع الناس في القرية التي كانت تجمع الجثث، ذهبت إلى أسفل القرية بحثاً عن أختي «بروانة» و«هنكامه». كانت الملابس التي غسلتها أمي قبل ظهر اليوم، موضوعة على قسطل المياه قرب بيتنا، والظاهر أنها لم تجد فرصة لنشرها على الحائط. دخلت البيت، كان الصمت يعم المكان، ولم أجدهما.

حضر أهالي القرى المجاورة لتقديم المساعدة للجرحى، وجمع القتلى، وتنظيم الأوضاع. ليلاً، كنت حائراً مثل سائر أولاد القرية. وقرب بركة الماء في القرية، أخذ ابن عمي السيد «إسحاق بيدي» وسلمني إلى خالي. كان خالي الأصغر «أميد علي جهانديده»، يخدم حينها في مخفر شرطة بوستان. وقد جاء برفقة جنود المخفر وضباطه إلى القرية، مرتدياً الزي العسكري. قبل انتصار الثورة، كنت أشعر بشعور سيء تجاه الزي العسكري لشرطة مخفر بوستان. ففي السنوات الأخيرة للحكم البهلوي، أقدم شرطة مخفر بوستان برفقة العقيد «رحماني» رئيس الساواك في منطقة «كجساران» على تفتيش بيتنا، واعتقال أبي. وبعد اعتقال أخي السيد «قدرت الله» من قبل الساواك، كنت والصبية، حين يدخل عناصر شرطة مخفر بوستان إلى القرية، نفرّ، ونختبئ خلف الصخور في أعلى القرية إلى أن يذهبوا. ذات يوم حضر العميد «رحماني» إلى بيتنا للتفتيش. أراني مسكوكه عبارة عن تومان واحد وقال: إن أخبرتي أين هي كتب أخيك وأسلحة أبيك، أعطيك هذا! كنت أودّ في عالمي الطفوليّ ذلك أن أحصل على تلك المسكوكه، دون أن أبوح بمكان أسلحة أبي وكتب أخي!

كان خالي «أميد علي» ينتظرني إلى جانب سيارة المخفر العسكرية. سلمني السيد «إسحاق» إلى خالي. ضمّني خالي إلى صدره، قبّلني وسأل عن أخته. سكّ، سأل: أمير! أين أمك؟

- قُتلت!

حدّق بي. لم يصدّق أنّه فقد أخته الوحيدة. وحين سأل للمرّة الثانية عن أمي، انفجر بالبكاء، جلس هناك إلى جانب سيارة المخفر العسكريّة الرماديّة، وراح يبكي بصوت عال. من شدّة ما كنت بكيت، فقدت القدرة على البكاء مجدداً. سألتني خالي: أين «مهيّن تاج»؟

- «مهيّن تاج» قُتلت أيضاً.

وهذه المرّة بكى خالي بحرقة وحزن أعمق. كان أخوالي يكتّون محبةً خاصّة لأختي الكبرى «مهيّن تاج». سأل عن «همّت» و«بروانة» و«هنكامه».

- «همّت» قُتلت، ولكن «بروانة» و«هنكامه» حيّتان.

دلتته على الجثث في ميدان القرية. انتحب كثيراً على جنازة أخته الوحيدة وأولادها. أجلسني خالي إلى جانب الجثث، وذهب إلى القرية للتفتيش عن «بروانة» و«هنكامه». لم يجدهما. كان أهالي قرية «تكّيّة» قد أخذوهما إلى قريتهم.

عند انبلاج الفجر، سلمني خالي عند سبيل الماء الواقع في مدخل القرية إلى رجل من أهالي «باشت». بعدها تعرّفت إليه. كان يدعى «ظهراب» كرجي بور. وقد جاء توّاً من «باشت». كان يملك سيارة شاحنة (كميون) ماك صفراء اللون. وكان على معرفة بعائلتي. ورفيق جهاد أخي السيد «قدرت الله». كما

كان قبل الثورة زميل الدراسة لأخوي السيد «حشمت الله» والسيد «قدرت الله». وقد سلمني خالي إليه ليأخذني إلى عشيرة «سياس». كانت البيوت القديمة لعشيرة أمي تقع في مدخل «باشت». وقد حدثت زحمة سير من «ظهراب» إلى «باشت» جرّاء الحادثة التي قُتل فيها تسعة وخمسون شخصاً، وجرح سبعة وثلاثون، فيما بُثرت أطراف البعض.

استغرق الوقت ساعتين إلى أن وصلنا إلى «باشت». على امتداد الطريق من «ظهراب» إلى «باشت»، كنت أبكي وأنتحب. كان سائق السيارة «ظهراب» يمسح على رأسي محاولاً التخفيف عني. لم أذكر ما كان يقول بالدقة، ولكن لم يكن أيّ كلام ليهذّثني. عندما كنت أبكي، لم يكن هو أيضاً يستطيع حبس دموعه.

في الطريق من «ظهراب» إلى «باشت»، خطرت على بالي ذكريات سفرتي الأخيرة قبل شهرين برفقة أختي «مهيّن تاج» إلى «باشت». وكان ذلك في شهر نيسان. وكانت أمي قد أرسلتنا إلى بيت أخواي في «باشت». فالمسافة من «ده بزرگ» إلى «باشت» كانت تستغرق سبع ساعات سيراً على الأقدام بالنسبة للصغار.

وصلنا قرابة الظهر إلى الطريق الأسمنتيّ بالقرب من جسر بريم. ظهرت الفقايع في قدمي، ولم أعد أقدر على المشي. استقلينا سيارة مازّة أوصلتنا إلى قرية كته. كدنا نموت من شدة العطش. في قرية كته، طرقتنا باب أحد البيوت عشوائياً. عرفنا أنفسنا، واستسقيناه أهلكه. كان ذلك منزل السيد رضا عبد شاهي وهو من طائفة السادة عنائي. أمّا زوجته «بي بي مهتاب أحمد زاده» فكانت امرأة مضيفة وودودة. وكانت تربطنا بها مصاهرة ولم نكن نعلم. قدّمت لنا الطعام وأوصلتني وأختي إلى جانب الطريق. وفيما كنّا إلى جانب الطريق ننتظر سيارة، وإذا بجرافة (جرّافة بدواليب) صفراء اللون تتوقّف أمامنا. كان السائق أخي السيد «نصرت الله». فقبل عدّة أشهر حين تسلّم أخي السيد «قدرت الله» مسؤولية جهاد البناء، طلب من أخي السيد «نصرت الله» أن يخدم أهالي القرى المحرومة عن طريق الجرافة هذه. فرحنا كثيراً برؤيته. ترجّل من الجرافة وقبّلنا. استقلّ الجرافة، وأنزل شفرة الجرافة أرضاً فركبت وأختي «مهيّن تاج» فيها وتوجّهنا إلى «باشت». عند مدخل «باشت» انفصلنا عن السيد نصرت الله وتوجّهنا إلى بيت أخواي. كان ذلك اللقاء الأخير لأخي السيد «نصرت الله» بأختي «مهيّن تاج».

ها أنا الآن ذاهب إلى «باشت»، وجنّة أختي «مهيّن تاج» ملقاة على الأرض. وفيما كانت ذكريات الشهرين الماضيين تتداعى لي، لم أستطع إلّا البكاء.

سلمني «ظهراب» إلى عائلة أمي. وما إن دخلت منزل خالي، حتّى ارتفعت أصوات نسوة عشيرة أمي «سياس» بالبكاء والنحيب عند رؤيتي. في بيت جدّي لأمي، كانت إحدى النساء تردّد المراثيات، والنساء الأخريات ينتحين بأعلى أصواتهنّ. لو كان جدّي حينئذ حياً، لكان ذاق حسرة ابنته الوحيدة وأولادها. كان جدّي لأمي «بهروز جهانديده» مزارعاً. كان إنساناً متكلّماً ومضيافاً. وقد فارق الدنيا في 13 ك 1978م. لم يقصر بحق ابنته طالما كان حياً. أمّا جدتي شاه «بي بي محمدي» فقد أصيبت بمشاكل نفسية وروحية حين سمعت بمقتل ابنتها الوحيدة وأبنائها. ومن شدة المصيبة التي ألّمت بها، كانت لسنوات تجلس ناحية وتردّد المراثيات. اعتاد الجيران على بكائها، أصبحت منزوية ولا تتكلّم إلى أحد، كما لم تعد تستطيع القيام بالأعمال المنزلية لأبنائها العزّاب ولي وأختي حيث كنّا نعيش معهم.

لم تتوقّف دموع جدّتي إلّا في شهر دي من العام 1366 حيث فارقت الحياة وانتقلت روحها إلى بارئها. أصبحت وحيداً جدّاً بعد أمّي. لم يكن لي عمّة ولا خالة. فجديّ لأمّي لم يكن موجوداً، وكذلك جدّي لأبي. كما كنت محروماً من جدّتي لأبي. حتّى أخي الشقيق الوحيد السيّد «همّت» قد فقدته.

أحضر خالي «أميد عليّ» الذي بقي الليلة الماضية في القرية، جثة والدتي، وأختي وأخي، إلى «باشت». أمّا جثة أخي الأكبر السيّد «عنايت الله» فقد دُفنت في القرية. وقد نقل أخوالي الجثامين الثلاثة إلى البركة الواقعة على مدخل القرية لتفسيّلها. وقد حضرت نسوة عشيرة «شياس» وقرية تُل موبزي وأقرباؤنا الآخرون الذين يعيشون في «باشت»، إلى البركة وهم ينتحبون. حينها، كان أغلب الناس قد أتوا إلى القرية بسبب الفاجعة الكبرى التي حدثت. وقد ذهبت بدوري إلى هناك لإلقاء النظرة الأخيرة على والدتي، أختي وأخي. عندما وصلت إلى البركة، وجدت صعوبة في العبور من بين الناس والوصول إلى الجثامين. وقد ساعدني من تعرّف إليّ من الناس على العبور، وإلقاء نظرة الوداع على جنازات أفراد أسرتي. وعلى الرغم من صغر سنّي، فإنّ اللقاء كان مرّاً وأليماً.

لقد قضى في ذلك الانفجار تسعة وخمسون نفراً من أجل نجدة شخصين، وكانت القصة على الشكل التالي: دخل «إسكندر إبراهيمي» الذي كان يعمل في أعمال التلحيم والسيّد حسين سجّادي المنزل لإطفاء البارود. وكان البارود خاصّاً بمديرية الحمل والنقل، وقد أحضر إلى القرية من أجل إنشاء الطرقات، ونتيجة لضغط غاز البارود، سدّ باب الغرفة في وجه «إسكندر إبراهيمي» والسيّد حسين. وقد باءت محاولات هذين لفتحها بالفشل. فهرع نسوة القرية ورجالها إلى المكان لإنقاذهما. حاول كل شخص القيام بفعل ما، أحضر أحدهم الماء، حاول الكثير إحداث فجوة في الجدار، سعى نسوة القرية ورجالها جاهدين إلى فتح باب الغرفة، ونجدة إسكندر والسيّد حسين لم يفلحوا، إلى أن انفجر إصبع ديناميت!

كانت تلك المرّة الأولى التي تعرّف فيها في ذلك السنّ على صوت الانفجار: الانفجار الذي سلب منّي أمّي، أختي، وأخويّ. وعلى الرغم من أنّ ذكرياتي لم تكن جيّدة مع الانفجار والمواد المتفجّرة، فقد قصّدت بعد حين الجبهة، التحقّت من بين الكتائب والوحدات القتاليّة، بوحدة التخريب، وتمرّغت زهاء السنتين فيها بالبارود، وال «تي أن تي»، وفتائل البارود، والألغام، والطوربيدات البنغاليّة، وبراميل (الهب). وهناك، مع كلّ انفجار مهيب، كانت تتداعى لي فاجعة «ده بزرک». بعد ثلاثة أيّام سلّم أهالي قرية تکیه أختي «بروانة» و«هنكامه» إلى والدي. جاء والدي إلى «باشت» وأودعهما عند أخوالي. كان الاعتناء «بهنكامه» أمراً صعباً للغاية. وكان أبي قد نقل بروانة إلى ياسوج وأودعها في دار حضانة رعائيّة. كان أبي يخبر بأنّه طرق ذات ليلة، باب ستّ مرضعات في «ده بزرک» لإرضاع «هنكامه»، فلم تستطع أيّ منهنّ إرضاعها.

في تلك السنوات، كنت أشتاق كثيراً إلى أمّي. وكان في «باشت» امرأة تشبهها إلى حدّ كبير. كانت تُدعى «بي بي كوهر». كنت حين أراها أتذكر أمّي. أحياناً حين كانت تأتي إلى السوق من أجل التسوّق، كنت أتبعها لأراها. لم يعجبها الأمر حيث كنت أحدّق بها. وعلى الرغم من التفاتها لحركاني وتصرفاتي غير العاديّة، فإنّها كانت تغضّ النظر عن ذلك كوني طفلاً. ومنذ أن علمت بأمر الشبه بينها وبين أمّي، كان يبدو عليها الألم والانزعاج في كلّ مرّة تراني فيها.

ازداد اشتياقي لأمّي حين كبرت. كنت أتألّم كوني لا أمتلك صورة لأمّي، أو لأختي أو لأخي. في العام

1981م حين جُرحت في الجبهة الغربية، أمضيت عدّة أيام في منزل خالي الأكبر «محمد علي» في طهران. لقد تحوّل عدم وجود صورة لعائلتي إلى عقدة عندي. ومن بين جميع الصور المأخوذة لأقاربي منذ سنوات مضت، لم يكن يوجد ولو جزء من صورة لأُمّي، أختي وأخي. كدت أنسى وجوههم شيئاً فشيئاً. معظم الأوقات لم أكن أستطيع أن أستحضر صورهم في ذهني؛ عندما كنت أراهم في المنام، كنت أستحضر صورهم. سألت خالي «محمد علي»: خالي العزيز، لقد كنت تمتلك في ذلك الوقت آلة تصوير، لم لم تلتقط ولو صورة واحدة لأختك الوحيدة وولديها؟ لديك كل هذه الصور من تلك الفترة، لأبيك، وأُمّك وباقي الأقرباء البعيدين، ماذا كان حدث لو التقطت صورة لأُمّي وأختي وأخي! أجاب خالي الذي كان إنساناً عاطفياً وودوداً، وقد أنهى دراساته العالية في أميركا، وهو يذرف الدموع: يا ابن أختي العزيز، أتى كان لي أن أعلم أنّي سأفقد أختي وولديها! قلت: خالي العزيز: لقد تحوّل عدم وجود صورة لهم إلى عقدة عندي! كانت زوجة خالي السيّدة ناهيد المرأة الودودة تقول: لا زال خالك إلى الآن. وقد مرّت سنوات على ذلك الانفجار، يذهب معظم الليالي إلى الشرفة ويبيك لساعات على أُمّك وولديها!

بعد فاجعة «ده بزرگ»، كان أخوالي رافضين التحاقني بالجبهة. وكان خالي «أميد علي» يقول لي دوماً: لقد قُتل من عائلتك أربعة أشخاص. إبقِ واعتنِ بأختيك المظلومتين! كان انفجار «ده بزرگ» حدثاً بارزاً في إيران لفترات طويلة. وقد أعلن الحداد لمدّة 3 أيام في جميع أنحاء البلاد. وأقلّ بازار طهران. وأوفد الإمام «الخميني» آية الله «دهدشتي» إلى القرية كمبعوث من قبله. وأرسل ليونيد بريجينيف زعيم الاتحاد السوفياتي السابق رسالة تعزية إلى الإمام. وقام المسؤولون الرفيعو المستوى في معظم الدول بتعزية الحكومة الإيرانية. وقد عزّى الشهيد: «رجائي» وكان رئيس الحكومة حينها الإمام «الخميني» برسالة خاصة.

ملحق 2-1

تلفظ بعض الأسماء والاعلام ورتب القوات العسكرية

لفظ بعض الكلمات الفارسية

- الله خواست.
- خدا خواست: (تلفظ) خاست.

حرف (پ) ويلفظ (P) كما ورد في:

- پارسيان نجاد (پارسيان نژاد) وتلفظ: parsian nejad
- ولي بور (پور): (تلفظ) pour.
- حيدر بور:
- ترابعلي توكل بور: (تلفظ) pour
- نعمت الله بايدار: (تلفظ) paidar
- ايت الله يرور: (تلفظ) parvar
- پيران: (تلفظ) piran
- موقع بشتي (پشتی): (تلفظ) poushteh
- بنجه بند: پنجه بند: (تلفظ) panjé
- خدا خواست بزشك: (پزشك) (تلفظ) pezesheq
- بروانه: پروانه (تلفظ) parvaneh

حرف (گ) ویلفظ (gh) کما ورد في:

- عبد العلي حق کو: (تلفظ) ghoo
- علي محمد کِردلو: (تلفظ) gherdaloo
- سوسنکرد: سوسنگرد
- هادي کنجي: گنجی
- صادق آهنگران: آهنگران
- هرمزگان: هرمزگان
- ابراهيم رستکار مقدم: رستگار
- سعد الله کُل محمدي: گل محمدي

حرف (چ) ویلفظ (ch) وأحيانا (je) کما في:

- تشراغتشى (چراغچی): (تلفظ) cherakh-cheh
- محطة تشهاشیر (چهاشیر)
- شلمچه: شلمچه
- خورموج: خورموج
- مهدي ابريشمچی: ابريشمچی
- حلبچه: حلبچه

حرف (ژ) ویلفظ (j) - (و) تلفظ (v) کما في:

- جعفر الوند نجاد (جعفر الوند نژاد): نژاد (nejad) (الوند)
- (alvand)
- إبراهيم نویدی: novede

- كهكيلويه وبوير أحمد (تلفظ): كَهْ كيلويّه و(٧) بُوير أحمد
- أروند رود: arvand roud
- ساوه: saveh

	القوات العسكرية	عدد عناصرها	رتبة القائد
1	مجموعة الجيوش	عدّة جيوش	فريق أول أو مشير
2	الجيش	4-2 فيالق	عماد- فريق أو فريق أول
3	الفيلق	3-2 فرق	لواء أو فريق
4	الفرقة	3-2 ألوية	عميد أو لواء
5	اللواء	6-3 كتائب	عقيد أو عميد
6	الفوج	2 كتيبة	العقيد الركن
7	الكتيبة	6-2 سرايا	العقيد أو الرائد
8	السرية	4-3 فصائل	النقيب أو الرائد
9	الفصيل/الفصيلة	حظيرتين أو أكثر	نقيب أو ملازم
10	الحظيرة/المجموعة	5-3 عناصر	رقيب أو معاون أو مساعد أول

ترجمة الوحدات العسكرية اعتمادا على التقسيمات في الجيشين
اللبناني والعراقي

ملحق

الصور والوثائق

هذه مجموعة الصفحات الثلاث والعشرون من دفتر الملاحظات الخاص بي الذي جلبته من العراق. ترون في هذه الصفحات توارخ، وجمالاً قصيرة، وكلمات كلٍّ منها يمثل عالماً بالنسبة لي.

وقد كتبت هذا الكتاب «الرجل التي بقيت» (بايي كه جا ماند) الذي يحوي أكثر من 700 صفحة، على أساس هذه الثلاث والعشرين صفحة. كما أشرت إلى ذلك في مقدّمة الكتاب.

أسميت هذا الدفتر «الغش في السجن». وقد كتبتُ في أسفل الصفحة الأولى منه ساخرًا عبارة صدام حول الأسرى الإيرانيين؛ «الأسرى الإيرانيون ضيوف في العراق»! فكتبت هذه العبارة حتّى إذا ما وقع هذا الدفتر بأيدي الحراس العراقيين، ووقعت أنظارهم على هذه العبارة، تركوني وشأني. كما كتبت اسم صدام في هذا الدفتر معكوسًا بحيث صار «مادص»!

١٣٩٨/١١/١٩
تاریخ
بیموست
طبقه بندی

بسم الله الرحمن الرحيم

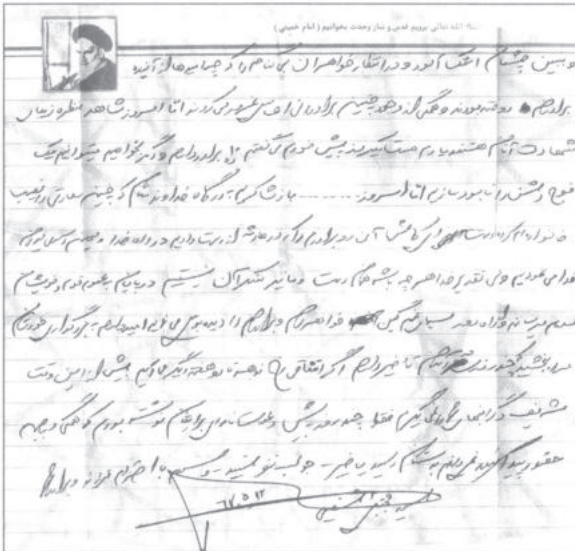
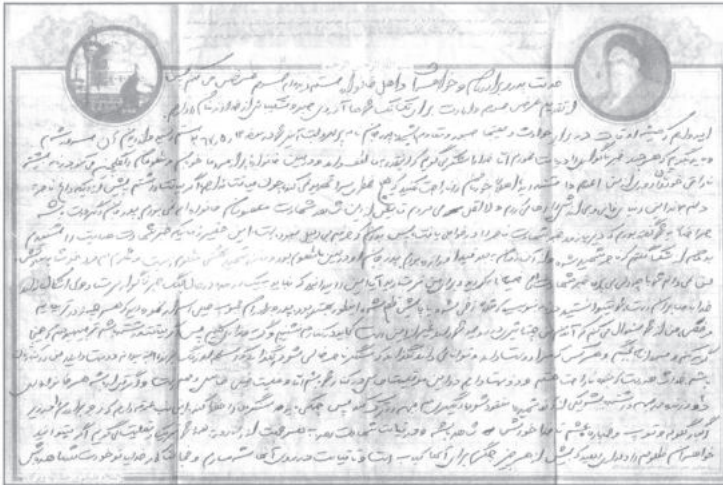
به : سارمان هلال الأحمر شهرستان کجساران
از : سپاه پاسداران انقلاب اسلامی کجساران
سلام علیکم

احتراما* بدینوسیله به اطلاع میرساند که برادر رسید
ناصر حسینی فرزند سید سلیمان با عضویت بسیج در تاریخ
۱۳۹۸/۴/۲۷ از طریق این پایگاه به جبهه های حق علیه باطل
اعزام گردید در تاریخ ۱۳۹۸/۴/۲۷ در جزیره مجنون مفقود الاثر
گردیده مراتب فوق جهت اطلاع و اقدامات لازم ارسال
میکرد. /۰۰

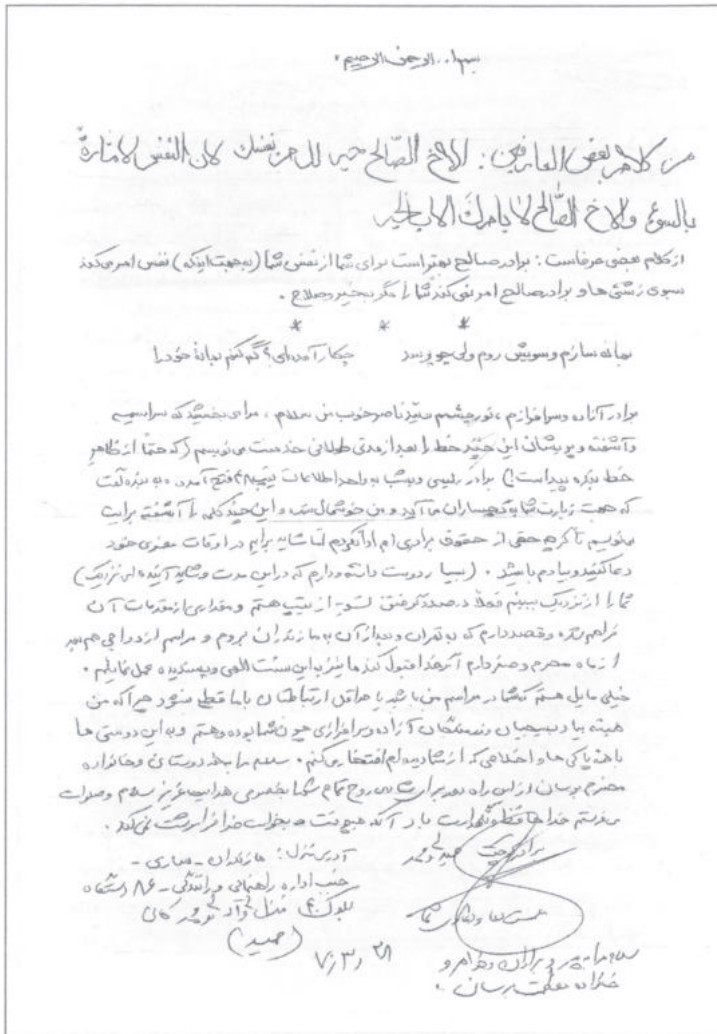
فرمانده سپاه پاسداران انقلاب اسلامی کجساران
۱۳۹۸
۱۳۹۸/۱۱/۱۹

استاد
امیر ارشد عقود
انقلابی
۱۳۹۸

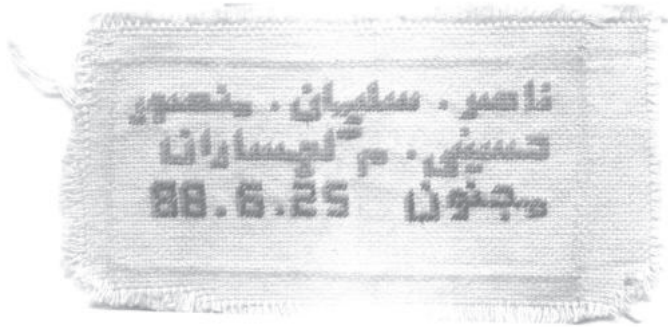
في هذه الرسالة، أبلغ حرس الثورة في منطقة كجساران الهلال الأحمر عن فقدان أثري في جزيرة مجنون.



عندما فُقد أثري، أبلغ والدي في رسالة أرسلها إلى أخي السيد «نصرت الله» الذي كان حينها يستخدم اسماً مستعاراً هو السيد مجتبی شفيعی وكان يومها مسؤول المعلومات في فيلق سقر الخاص؛ وقد بعث أخي برسالة جوابية على رسالة أبي إلى عائلتي.



عندما أُطلق سراجي كنت مشتاقاً لمسؤولي «عزّت الله ولي بور». وكان قد ترك لواء «الفتح 48». وحين سمع خبر تحريري، بعث إليّ بهذه الرسالة. سُرت حين قرأت رسالته. كنت أودّ رؤيته لأحدثه عن ملحمة «موقع خندق» والتحقيقات في سجن الرشيد في بغداد. وقد أتى لرؤيتي بعد عدة أشهر من هذه الرسالة.



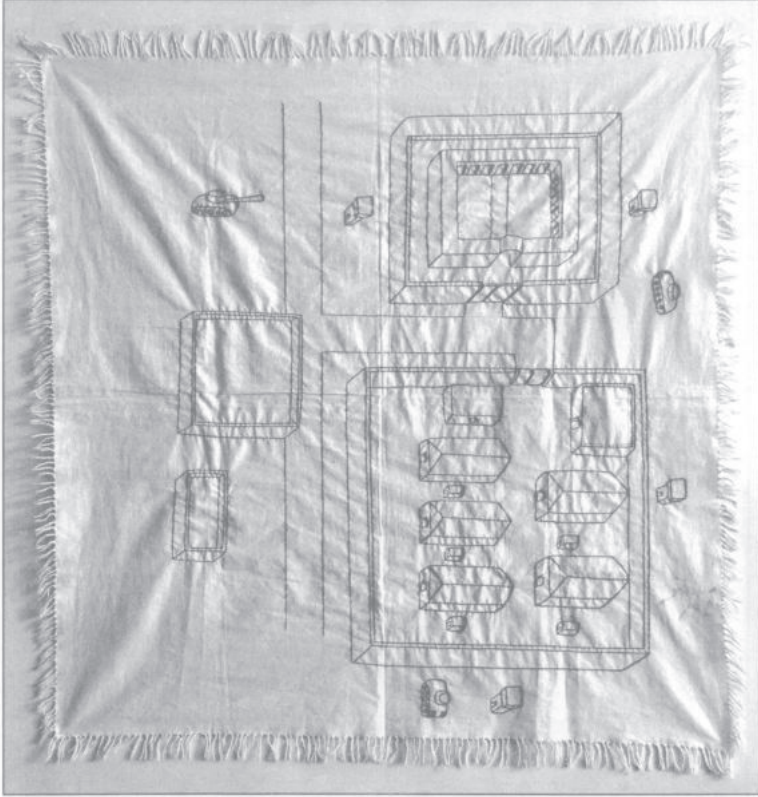
طوال فترة الأسر كانت هذه القماشة المطرزة هي بطاقة التعريف لزي الأسر الأصفر خاصتي. وهي بتاريخ 25 حزيران 1988 الموافق ل - 4 تير من العام 1367 هـ. ش.



لقد تعبت كثيراً على هذه المطرزة. وقد طرّزت عليها أسماء إخواني بالترتيب العمري والأحداث الأربعة التي لا تنسى في حياتي. ظهراً، مجنون 88 / 6 / 25 اليوم الذي أسرت فيه. عصرأ ده بزرگ 1980 / 8 / 19 اليوم الذي وقع فيه انفجار ده بزرگ. الغروب، الرشيد 1988 / 7 / 11 اليوم الذي تخلصت فيه من سجن الرشيد في بغداد. ليلاً، كردستان 1987 / 10 / 26 اليوم الذي استشهد فيه أخي السيد هدايت الله في كردستان. وقد تركت في هذه المطرزة مكاناً ليوم تحرّري. فطرّزته بعد تحرّري بتاريخ 1990 / 9 / 13.



المطرزة الثالثة لي في الأسر. وكان الحراس قد وضعوا أيديهم على مطرزاتي السابقة بالقوة. وقد أخذت قماشة هذه المطرزة من كمّ جلبابي العربي. حاول الحراس مرّات عدّة أخذ هذه المطرزة منّي، لم أعطها لهم. وقد طرّزت مثلها للحارس العراقيّ الجيّد «سامي».



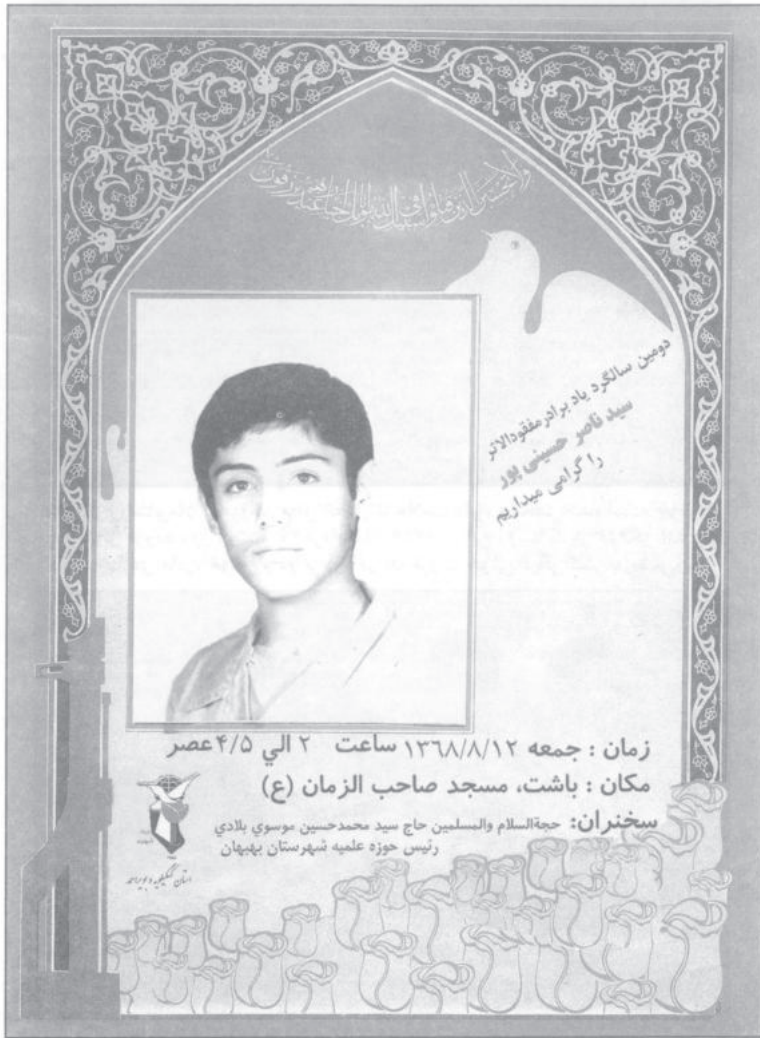
مطرزة خارطة معتقل «تكريت 16» والمخيّم الملحق. حين كنت أطرز هذه القماشة قال لي «عليّ جار الله» الحارس العراقيّ الجيّد: حذار أن يرى الحراس الآخرون هذه المطرزة، فيظنّون أنّك ترسم للأسرى الأصحاء خطة للفرار.



عندما تحررت، كان هذا البوستر معلقاً على الحائط في غرفة الاستقبال في منزلنا. وحين وقعت عيناى على البوستر للمرة الأولى أحسست بشعور خاص. لا أستطيع التعبير عن مشاعري. كانت عائلتي قد أقامت مراسم العزاء لي ولأخي معاً.



بوستر الذکری الثانیة لاستشهاد أخي السید «هدایت اللہ» فی باشت - مسجد صاحب الزمان .



بوستر الذكرى السنوية الثانية لفقدان أثري. أقيمت هذه المراسم في مسجد صاحب الزمان في منطقتنا. وقد قام بطبع هذا البوستر أصدقاء أخي السيد «نصرت الله» في مؤسسة الشهيد في منطقة سقز.



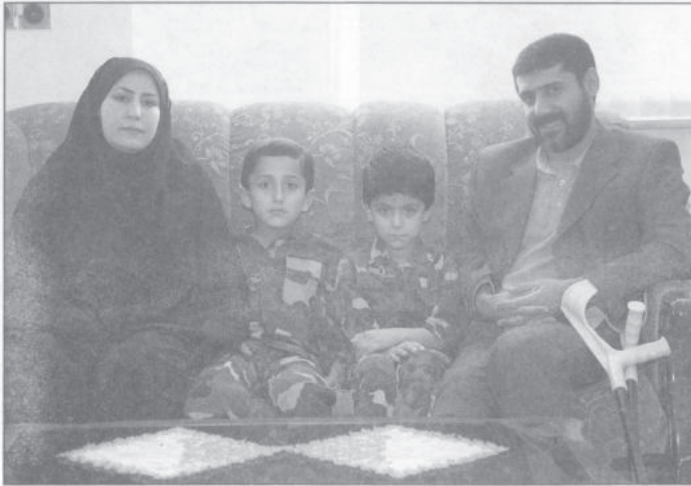
مشهد من قريتنا «ده بزرک». أُشير إلى مكان الانفجار بالدائرة. ذكريات أهالي القرية عن غروب اليوم الثامن والعشرين من شهر مرداد من العام 1980 محزنة جداً. وبسبب رؤيتي لجثة أمي، وأختي، وأخوي في ذلك الغروب الدامي صرت قليلاً ما أذهب إلى القرية.



من اليمين: أنا وابن خالي «علي جهانديده»، وقد التقطت هذه الصورة بعد أسبوعين على حادثة «ده بزرک» وفقدان أمي، وأختي، وأخوي. كانت تلك المرة الأولى التي أقف فيها أمام عدسة الكاميرا. باشت، منزل جدّي لأمي.



الأهواز - العام 1999 - وقد قُطعت رجلي للمرة الرابعة (نتيجة العمليات الجراحية التي أجريت بعد تحرري). وبعد عدة أيام على خروجي من المستشفى، أتى المرحوم الحاج السيد «أبو ترابي» لزيارتي. بعد عدة أشهر، فقد المحررون أباهم المعنوي السيد «أبو ترابي». تظهر في هذه الصورة أختي بروانة التي لها جميل كبير في عنقي.



إلى جانب زوجتي وولدي السيد «أمير رضا» والسيد «أمير حسين». وبعد كل تلك المعاناة التي عاينتها، منحني الله زوجة صبورة وودودة، وولدين أحبهما حباً جماً. عندما ينظر ابني الأصغر إلى صوري في الجبهة، يقول: بابا، اشتري لي بندقية لأقتل بها صدام، لأنّه قطع رجلك.

يمكن لإخوتي وأبي في الحرب مع البعثيين العفلقيين أن يشكلوا مجموعة عسكريّة ضاربة بكلّ الاختصاصات اللازمة، أن يقاتلوا العدو، يستلموا خطاً في الجبهة، يحفظوه من هجمات العدو وحملاته، كما يمكنهم أن يفتحوا خطوط النار.

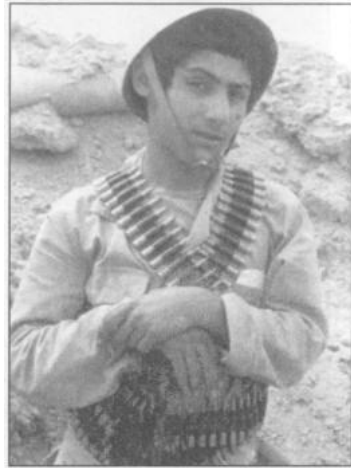
(الشهيد السيّد هدايت الله حسيني بور)



والدي السيّد «سليمان حسيني» عنصر في وحدة «مالك الأشتر». أخي السيّد قدرت الله حسيني قائد كتيبة التعاون في لواء الإمام الحسن (عليه السلام) 15.



أخي الشهيد السيد «هدايت الله حسيني» نائب مسؤول المعلومات والعمليات في لواء «الفتح» 48..
أخي السيد «نصرت الله حسيني» مسؤول محور المعلومات في فرقة الفجر 19.



أنا، عامل في وحدة التخريب في لواء الفتح 48..
أخي السيد «شجاع الدين حسيني» رام المدفع الرشاش في كتبة الإمام جعفر الصادق عليه السلام



أبي إلى جانب أخي الشهيد السيّد «هدايت الله»، ربيع العام 1984. منطقة العمليات في «دهلران». بعد شهادة أخي، كلما رأى أبي هذه الصورة انهمرت دموعه. وقد أخفيت هذه الصورة طالما كان أبي على قيد الحياة.



أخي الآخر السيّد «نصرت الله» إلى جانب أبي الجالس في الوسط، والواقف من اليمين أخي السيّد «نصرت الله». شتاء العام 1983. منطقة العمليات في «موسيان». فرقة الفجر 19.



من اليمين: أخي السيّد «هدايت الله» إلى جانب أخي الأكبر «قدرت الله» قائد كتيبة «مالك الأشر» . شتاء العام 1983 . منطقة العمليات في مهران . وكانت هذه الصورة الوحيدة للسيّد «هدايت الله» إلى جانب السيّد «قدرت الله» . وقد كانت علاقة السيّد «هدايت الله» بالسيّد «قدرت الله» لا توصف .



أنا إلى جانب أخي الشهيد السيّد «هدايت الله» . ثم أفكر يوماً أنّ هذه الصورة ستكون يوماً جزءاً من بوستر الذكرى السنويّة لشهادة أخي وفقدان أثري . كردستان، ربيع العام 1987 .



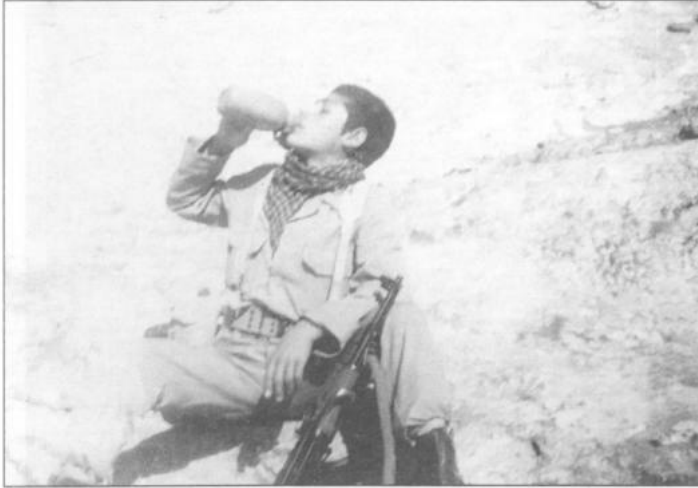
أخي السيّد «نصرت الله» الذي أُصيب في السنة الأولى للحرب في كلتا رجليه. طهران، ميدان آزادي، مسيرة الثاني والعشرين من بهمن (ذكرى انتصار الثورة الإسلامية)، العام 1981. وقد شارك الجرحى في تلك المسيرة على كراسيهم المتحركة وهم يرتدون الأكفان.



ربيع العام 1987. مقر التكتيك في لواء الفتح 48. عندما أنظر إلى هذه الصورة أشعر بالانزعاج، لأنّي كنت أقف على كتفي الشهيد «أحمد فروزان». كان «أحمد» أقرب إلى السماء.



هذه الصورة مأخوذة عن فيلم فيديو. قبل عمليات «كربلاء 4»، حيث كنت أقرأ للأخوة في وحدة التخريب قصيدة الحاج صادق أهنكران الشعرية «اي جان نثاران حسين يارتان/ باشد خداوند نكهدارتان (أيها المجاهدون الحسين معكم والله يحميكم).



منطقة العمليات في «كربلاء 5»، شلمجة، خلف قناة السمك.



قبل يوم من انطلاق عمليات كربلاء 4، عبادان. في اليوم التالي استشهد عدد من هؤلاء الإخوة ومن جملتهم رضا مكتوبيان و... كما يظهر في هذه الصورة الشهيدان باراني شيخي ومجيد جعفري.



کردستان. ربيع العام 1987. الإخوة في وحدة التخريب، مستترون خلف أغصان البلوط إلى جانب السيد «آقا علي إسماعيلي» إمام جماعة وحدة التخريب. إيرج رئيسي الذي كان مشغولاً في إصلاح جعبة الذخائر، لم يكن مستعداً لترك عمله للحظات والتقاط صورة معنا.



طريق بانه - سقز. صيف العام 1987. إلى جانب الشهيد «شريف بنجه بند». أواخر تلك السنة استشهد الشهيد «بنجه بند» في مهمة خارج الحدود في كردستان العراق.



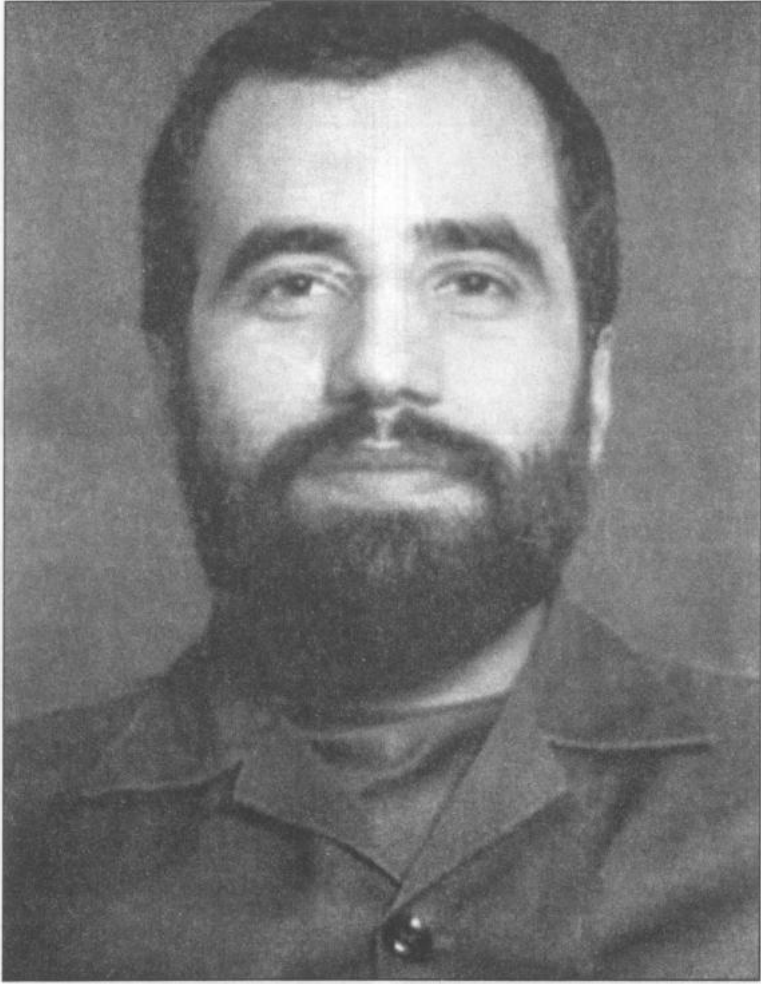
منطقة يعقوب آباد في كردستان. مقر التكتيك في لواء الفتح 48. خريف العام 1987. كنت قد رجعت توّاً من الخطوط الأمامية. غفوت في مصلى وحدة التخريب. كانت كاميرتي في جيبتي. فيما بعد ظهرت الصورة، تعجبت حين رأيته. بعد عدة أيام قال لي الشهيد بنجه بند: عندما كنت نائماً في المصلى، أخذت الكاميرا من جيبك، وضعت فنانجين الشاي على بطنك والنقطة هذه الصورة.



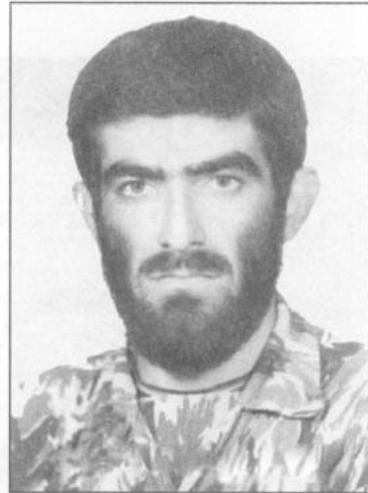
مثلت الموت في شلمجة، شهر بهمن من العام 1987. من اليمين: 1 - الشهيد
مجدد جعفري 2 - الشهيد رضا علي باك نسب 3 - الشهيد أحمد فروزان 4 - أنا
5 - إيرج رئيسي. لم يكن لي وللبعض الإخوة خندق لننام فيه. كنت أحضر خندقاً
فأتى الإخوة لمساعدتي.



بعد شهادة أخي السيّد هدايت الله صرت أفتقده في الجبهة. كنت في الأشهر الأولى
ألجأ إلى الوحدة، أحياناً كنت أفضل أن أتنحى جانباً وأبكي حتى الارتواء.



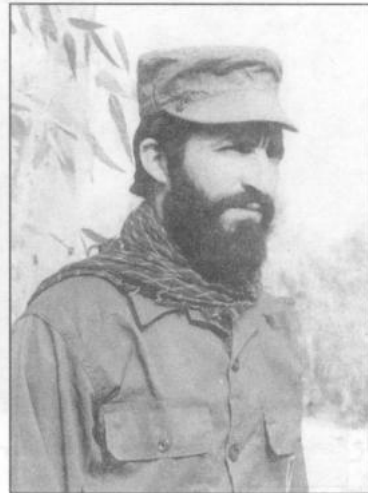
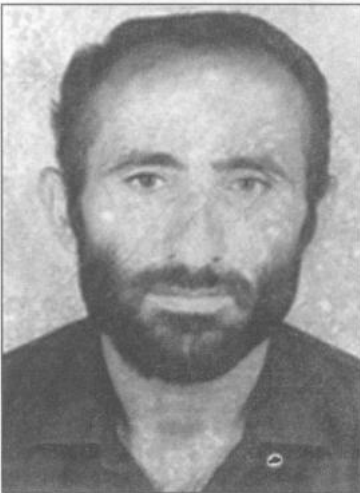
القائد اللواء الشهيد الحاج «علي هاشمي»
قائد فيلق الإمام جعفر الصادق عليه السلام السادس.



الشهيد «جانمحمّد كريمي»، قائد سرّيّة القاسم
 بن الحسن عليه السلام في «موقع الخندق».

الشهيد «إبراهيم نویدی» بور نائب قائد سرّيّة القاسم
 بن الحسن عليه السلام المتموضعة في موقع الخندق.

سكب العراقيون البنزين على جثتي الشهيد كريمي والشهيد نویدی بور وأحرقوهما.

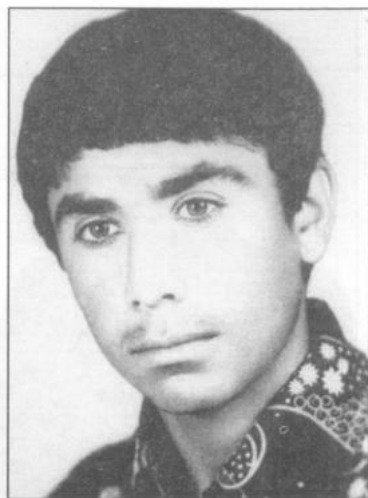


الشهيد محمد حسين حق جو

الشهيد هدايت الله ركني.



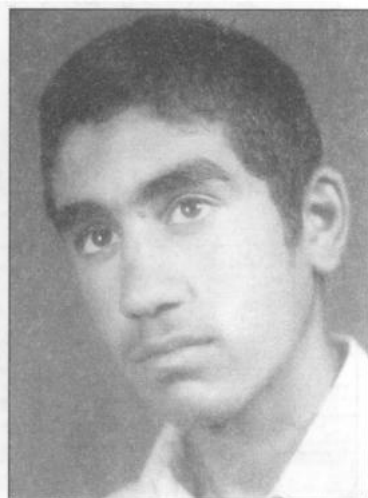
خالد الأثر سالار شفيع نجاد



خالد الأثر جمشيد كرم زاده



خالد الأثر حسين برويزي



خالد الأثر صفر علي كردلو



من اليمين: 1 - الجامعي الشهيد الله خواست بركاني من شباب المعلومات. 2 - السيد شكر الله وهابي زاده قائد كتية محمد رسول الله ﷺ. قبل عمليات خيبر بأيام.



الجامعي الشهيد عبد العلي حق كو من الإخوة الشهيد بيران مستوفي زاده من الإخوة في المعلومات. في المعلومات.



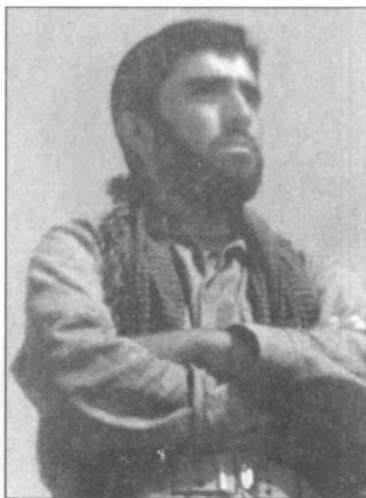
من اليمين: الشهيد «علي رضا حضرت زاد» إلى جانب أخيه «رامين حضرت زاد». أبلغ الإخوة «رامين حضرت زاد» خبر شهادة أخيه «علي رضا» في مخيم «تكريت 16».



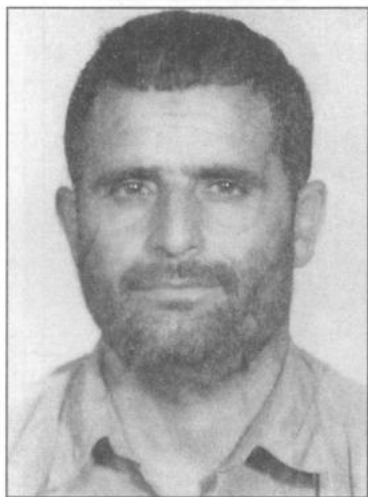
من اليمين: الأسير المحرّر «جعفر دولتي مقدّم» إلى جانب أخيه الشهيد «محمود». وقد استشهد والد «جعفر» وأخواه بتاريخ 1371/10/27 في طريق عام زاهدان - زابل على أيدي الأشرار.



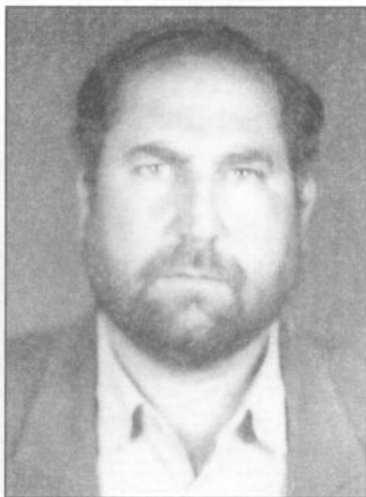
الأسير المحزّر الجريج السيد
«محمد شفاعت منش»



الأسير المحزّر الجريج «أحمد سعيدي سوق»



الأسير المحزّر الجريج السيد
«علي صالح رايمان»



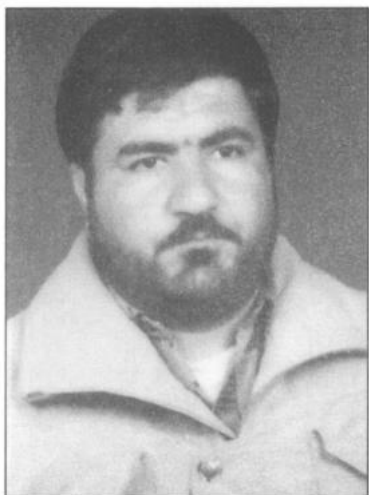
الأسير المحزّر الجريج «خدا خواست بز شك»



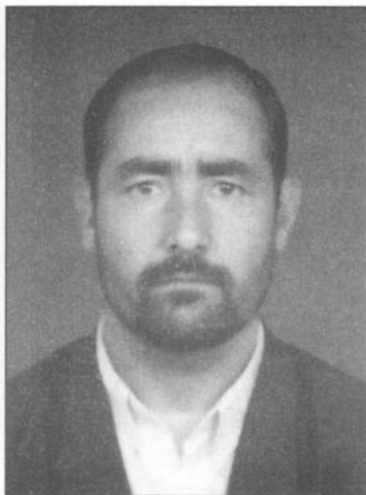
من اليمين: 1 - الشهيد السيد «هدايت الله حسيني» 2 - خالد الأثر «بهرام درود». صيف العام 1987، «الأغلوي كردستان».



من اليمين: 1 - أنا 2 - عزت الله ولي بور. قائد المعلومات والعمليات في «لواء الفتح 48». صيف العام 1987 شاشوي كردستان.



الأسير المحزّر «محمد صادقي فرد»



الأسير المحزّر «عنايت الله مصطفى بور»



الأسير المحزّر «علي آقايي»



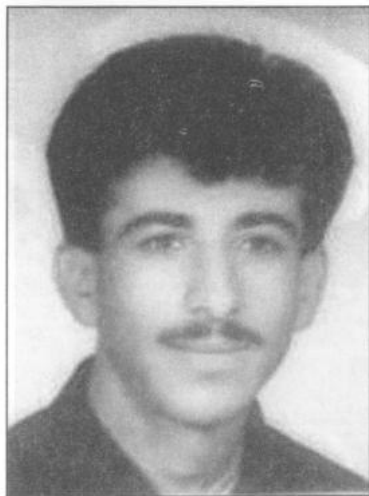
الأسير المحزّر «إسماعيل صولت دار»



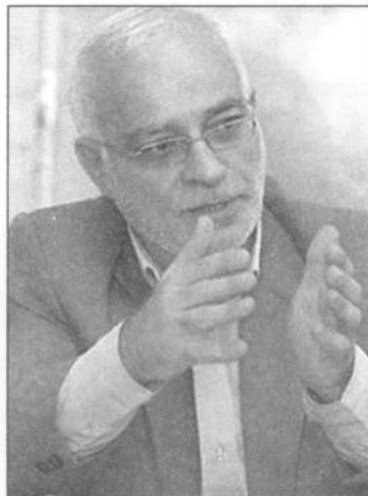
الأسير المحزّر الجريح «نصر الله غلامي»



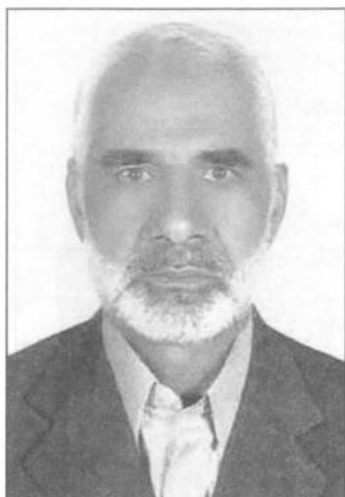
الأسير المحزّر الجريح «محمد كاظم بابايي»



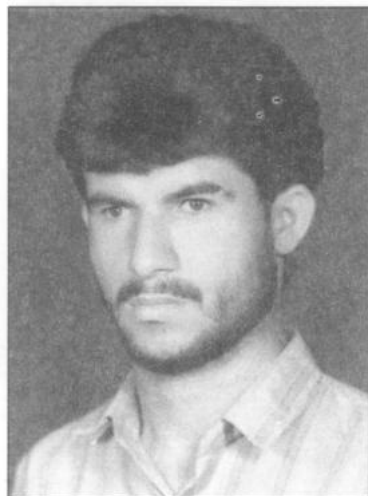
الأسير المحزّر الجريح «يد الله زارعي»



الأسير المحزّر «حسن بهشتي بورط



الأسير المحزّر الجريح الحاج «سعد الله كل
محمدي»
الأسير المحزّر الجريح الحاج «حسين شكري»



الأسير المحزّر الجريح «بهزاد روشن»

الأسير المحزّر الجريح «قاسم فقيه»

فهرس

5	تقديم
7	إهداء
9	مقدمة المؤلف
15	الفصل الأول: جزيرة «مجنون» - جادة الخندق
97	الفصل الثاني: جزيرة «مجنون». «موقع الخندق»
149	الفصل الثالث: «الميمونة». الفيلق العراقي الرابع
197	الفصل الرابع: بغداد. سجن الرشيد
251	الفصل الخامس: مستشفى الرشيد - بغداد
311	الفصل السادس: بغداد - سجن الرشيد
339	الفصل السابع: تكريت - المخيم الملحق
447	الفصل الثامن: تكريت - المخيم (16)
525	الفصل التاسع: تكريت - المخيم الملحق
571	الفصل العاشر: تكريت - مستشفى القادسية
585	الفصل الحادي عشر: تكريت - المخيم الملحق
629	الفصل الثاني عشر: تكريت - المخيم 16
643	الفصل الثالث عشر: الرمادي. مستشفى 17 تموز
651	الفصل الرابع عشر: الرمادي. المخيم 13
665	الفصل الخامس عشر: إيران. الولادة الجديدة

- ملحق هامش 679
- ملحق 1-2: تلفظ بعض الأسماء والاعلام ورتب القوات العسكرية 689
- ملحق: الصور والوثائق 692